

# قصة تبارني مع الحقيقة

سيرة القديس تبارني

تصوير ابو عبدالرحمن الكردي

الطبعة الأولى  
منير البعلبكي

منتدى اقرأ الثقافي

-----

[www.iqra.ahlamontada.com](http://www.iqra.ahlamontada.com)

غاندي

قصة تجارتي مع الحقيقة ..

المهاتما غاندي بقله

نقلها إلى العربية  
منير البعلبكي

دار العلم للملايين  
بيروت

جميع الحقوق محفوظة  
لدار العلم للملايين  
ص.ب. ١٠٨٥  
بيروت - لبنان

للطبعة الاولى : بيروت ، تشرين الأول ١٩٥٨  
الطبعة الثالثة : بيروت ، كانون الثاني ١٩٧٨

## مقدمة

منذ أربع سنوات أو خمس ، نحت الحاح من نقر من أقرب أعواني إليّ ، وافقتُ على ان أكتب سيرتي الذاتية. ولقد شرعتُ في ذلك فعلاً . ولكنني لم أكد أقلب الصفحة الأولى حتى انفجرت الاضطرابات في بومباي ، وظل مشروع الكتابة معطلاً غير منفذ : ثم عقت ذلك سلسلة من الأحداث بلغت أوجها بسجني في يرافدا . وسألني السيد جيرامداس الذي كان أحد رفاقي في السجن ، هناك ، ان اطرح كل شيء وأنجز كتابة سيرتي . فأجبتُ قائلاً اني وضعت براماج دراسة للنفس ، واني لا أستطيع أن أفكر بعمل شيء آخر حتى أتم هذا البراماج . وكان خليفاً بي ، حقاً ، ان أنهى كتابة سيرتي لو أكملت مدة الحكم القاضى بسجني ، في يرافدا ، لأنه كان لا يزال ثمة عام واحد لانمام العمل عندما أطلق سراحى . وكان السوامي (المعلم) آناند قد كرّر العرض . وإذ كنتُ قد أنهيتُ كتابة تاريخ تطبيق اللاعنف ( ساتياغراها ) في جنوبي أفريقيا ، فقد أغريتُ بأن أكتب سيرتي لصحيفة « نانايجفان » . كان آناند يريد مني أن أكتبها مستقلة لتشر في كتاب . ولكن لم يكن لدي فضلٌ من وقت . كان في ميسوري ان أكتب فصلاً واحداً ، اسبوعاً بعد اسبوع ، ليس غير . وكان لابد من كتابة شيء ما لصحيفة « نانايجفان » كل اسبوع : فلماذا لا يكون ذلك سيرتي

الذاتية ؟ ووافق آناند على الاقتراح ، وها أناذا عاكفٌ على الكتابة في نشاط :

ولكن صديقاً عن يخشون الله ساورته شكوك بشي إياها في يوم صمّي . لقد سألتني : « ما الذي حملك على القيام بهذه المغامرة ؟ إن كتابة السير الذاتية نزعاً خاصة بالغريين . ولست أعرف أحداً في الشرق كتب سيرة من هذا الضرب باستثناء أولئك الذين خضعوا للتأثير الغربي . وما الذي ستكتبه ؟ لنفرض انك اطرحت غداً تلك الأشياء التي تعدّها اليوم مبادئ ، أو لنفرض انك أعدت النظر ، في المستقبل ، في خططك الحالية ، أليس من المحتمل أن يؤدي ذلك إلى تضليل الرجال الذين يكيفون سلوكهم وفقاً لما تفرضه كلمتك ، محكية كانت أم مكتوبة ؟ ألا ترى ان من الأفضل ان لا تكتب شيئاً من مثل هذا الذي يدعونه السيرة الذاتية ، في الوقت الحاضر على الأقل ؟

وكان لهذه الحجة بعض التأثير فيّ . ولكني لا أهدف إلى ان أحاول كتابة سيرة ذاتية بالمعنى الحقيقي . كل ما أريده هو أن أروي قصة تجاربي العديدة مع الحقيقة ، ولما كانت حياتي لا تتألف من شيء غير هذه التجارب ، فلا ريب في أن القصة سوف تتخذ شكل سيرة ذاتية . ولكني لن أجد بأساً إذا لم تحدث كل صفحة من صفحاتها إلا عن تجاربي . فأنا أعتقد ، أو أهبج نفسي بالاعتقاد ، ان رواية هذه التجارب كلها رواية مترابطة لن تخلو من فائدة للقارئ . لقد أصبحت تجاربي في الحقل السياسي معروفة الآن ، لا في الهند وحدها ، ولكن إلى حد ما في العالم المتمدّن . إنها لا تنطوي ، في نظري ، على كبير قيمة . ولقب « المهاتما » الذي أكسبني إياه هو ، إذن ، أقل قيمة بكثير . إن هذا القالب كبيراً ما آلمني أعظم الأيلام ، ولست أذكر انه دغدغي في أيما لحظة من اللحظات . ولكني أودّ من غير ريب أن أروي تجاربي في الحقل الروحي ، تلك التجارب التي لا يعرفها أحد غيري ، والتي منها استمددت مثل تلك القوة التي أملكها للعمل في الحقل السياسي . وإذا كانت التجارب روحية حقاً ، فعندئذ لا يمكن أن يكون ثمة مجال لاطراء الذات . إنها لا تستطيع إلا أن تزيدني ضعةً إلى ضعة . فأنا كلما فكرتُ في الماضي ورجعت البصر إليه

أستشعر قصوري على نحو أوضح وأظهر .

إن ما أُرغبُ في إنجازهِ - أو قل إن ما ناضلت وتألّمت توفّاً إلى إنجازهِ خلال هذه السنوات الثلاثين - هو تحقيق الذات ، أن أرى الله وجهاً لوجه ، أن أبلغ الـ « موكشا » ( ١ ) إني أحيأ وأتحرك ، وأحقق وجودي في السعي من أجل الوصول إلى هذا الهدف . وكل ما أقوم به من طريق الكلام أو الكتابة ، وكل مجازفاتي في الحقل السياسي موجهة نحو هذه الغاية نفسها . ولكن لما كنتُ قد اعتقدت دائماً أن ما هو ممكن بالنسبة للإنسان هو ممكن بالنسبة للجميع فأن تجاربي لم تتم في الظلام ، ولكن في وضوح النهار . ولست أظن أن هذا ينقص من قيمتها الروحية . إن ثمة أشياء لا يعرفها غير المرء وخالفه . ولا سبيل إلى رواية هذه طبعاً . إن التجارب التي أوْشك أن أروّيها ليست من هذا النوع . ولكنها تجارب روحية ، أو قل تجارب منافية . لأن روح الدين هي المناقبة .

ولن تشتمل هذه القصة من قضايا الدين إلا على تلك التي يستطيع الأطفال والكبار فهمها على حد سواء . وإذا استطعت أن أروّيها بروح نزينة متضعة فمعتقدُي يكون في ميور كثير من أصحاب التجارب الآخرين أن يجدوا فيها ذخيرة لسيرهم قديماً . وأنا أبعد الناس عن أن أدّعي أيما درجة من الكمال لهذه التجارب . أنا لا أدّعي لها شيئاً أكثر مما يفعل العالم الذي لا يدّعي أيما صفة نهائية لاستنتاجاته - على الرغم من أنه يقوم بتجاربه بأقصى الدقة ، والبصر ، واليقظة ، ولكن يظل مفتوح العقل في ما يتصل بها . لقد قمت باستبطان ذاتي عميق ، وتحريت نفسي مرة ومرة ، وفحصت وحلت كل وضع سيكولوجي . ومع ذلك فأنا بعيد عن أن أدّعي لاستنتاجاتي أيما نهائية أو عصمة . ولكن ثمة دعوى واحدة أدّعيها وهي هذه : أن هذه الاستنتاجات تبدو ، في نظري ، صحيحة على نحو مطلق ، وتبدو في الوقت الحاضر نهائية . إذ لو لم تكن كذلك لما بنيت أيما عمل على أساسها . ولكني كنت أقوم ، عند كل خطوة ، بعملية القبول أو الرفض وأعمل وفقاً لذلك . وما دامت أعمالي ترضي عقلي وقلبي

١ Moksha وتعني الحرية منذ الميلاد إلى المات . وأقرب كلمة مرادفة لها هي « الخلاص » .

فيتعين عليّ أن أتمسك تمسكاً وثيقاً باستنتاجاتي الأصلية :

ولو كان لي أن أناقش مبادئ الأكاديمية فحسب لما حاولت أن أكتب سيرة حياتي طبعاً . ولكن لما كنت أهدف إلى أن أسرد مختلف التطبيقات العملية لهذه المبادئ فقد خلعت على الفصول التي أعترم أن أكتبها صفة « قصة تجاربي مع الحقيقة » . وهذه سوف تشمل ، طبعاً ، تجاربي مع اللاعنف ، والعزوبة ، وغيرهما من مبادئ السلوك التي يُعتقد أنها منفصلة عن الحقيقة . أما بالنسبة إليّ فالحقيقة هي المبدأ السيد ، الذي يشمل مبادئ أخرى عديدة ، وهذه الحقيقة ليست هي الصدق في الكلمة فحسب ، ولكنها الصدق في الفكر أيضاً ، وليست هي الحقيقة النسبية كما تصورها فحسب ، بل الحقيقة المطلقة ، المبدأ الأولي ، يعني الله أيضاً . إن ثمة تعريفات لا حصر لها لله ، لأن مظاهره لا حصر لها . إنها تغمرني بالدهش والذعر ، وأنها لتحيرني لحظةً ، ولكي أعبد الله بوصفه الحقيقة ليس غير . اني لما أجدّه حتى الآن ، ولكي أبحث عنه . أنا مستعد للتضحية بأعز الأشياء لديّ من أجل هذا البحث . وحتى لو اقتضت التضحية بحياتي نفسها فأرجو أن أكون مستعداً لبئها . ولكن لما كنت قد عجزت حتى الآن عن إدراك هذه الحقيقة المطلقة فيتعين عليّ أن اعتمد بالحقيقة النسبية كما تصورها . ينبغي أن تكون الحقيقة النسبية ، في غضون ذلك ، منارتي ودرعي ومجنتي . وعلى الرغم من أن هذا الطريق عسير وضيق وقاطع مثل حدّ موسى ، فقد كان عندي ولا يزال هو الطريق الأسرع والابسر . وحتى أخطائي الضخمة قد بدت نافهة في نظري لأنني التزمت هذا الطريق الترامواً صارماً . ذلك أن الطريق قد أنقلني من الاستيقاظ على الأسى والحسرة ، ولقد مضيت قدماً على هدي من ضيائي . وكثيراً ما لمحت خلال تقديمي لمحات باهتة من الحقيقة المطلقة ، الله ، ويوماً بعد يوم يتعاضم إيماني بأن الله وحده هو حقيقي وكل ما سواه غير حقيقي . فليدرك أولئك الذين يرغبون في ذلك كيف نما هذا الإيمان في نفسي . فليشاركوني تجاربي وليشاركوني إيماني إذا استطاعوا . كذلك تعاضم إيماني بأن كل ما هو ممكن بالنسبة إليّ ممكن



حتى بالنسبة إلى طفل ، وإن هندي أسباباً وجيهة تدعوني إلى هذا القول . فأدوات البحث عن الحقيقة بسيطة بقدر ما هي صيرة . وقد تكون متعذرة كل التعذر على الشخص المتفطرس ، وممكنة كل الامكان للطفل البريء . وإن ملتصق الحقيقة يجب أن يكون أكثر انضاعاً من التراب . إن العالم يسحق التراب تحت قدميه ، ولكن الباحث عن الحقيقة يجب أن يذل نفسه بحيث يكون في مقدور التراب نفسه ان يسحقه . وعندئذ ، وعندئذ فحسب ، يُكسب له أن يلصق الحقيقة . إن الحوار بين « فاسيشا » وبين « فيشفاميرا » يجعل هذا واضحاً إلى حد بعيد . والمسيحية والاسلام يؤيدان ذلك أيضاً تأييداً كبيراً .

وإذا كان في أيما شيء مما أكتبه في هذه الصفحات ما يُشعر القارئ بأن فيه نفحة من غرور فعندئذ يتعين عليه أن يدرك ان ثمة علة ما في بحثي عن الحقيقة ، وإن لمحتاتي ليست أكثر من سراب . فليقتصر مثاث مثلي نجبهم ، ولكن فلتسد الحقيقة . إن علينا أن لا تنقص مقياس الحقيقة ولو نخانة شعرة من أجل ابداء الرأي في هالك ضال مثلي .

أنا أرجو واضرع إلى الله أن لا يعتبر أحد النصائح المبعثرة في الفصول التالية شيئاً جازماً . إن التجارب المروية ينبغي ان يُنظر إليها كأمثلة وشواهد يستطيع كل امرئ أن يتابع على ضوءها تجاربه الخاصة وفقاً لبله وطاقته . وأنا أعتقد ان الشواهد سوف تكون ، إلى هذا المدى المحدود ، مسعفة حقاً : لأنني لئن أخفي ولن أقلل من قيمة أي من الاشياء البشعة التي ينبغي أن تروى . إنني أرجو أن أعرف القارئ تعريفاً كاملاً بجميع زلاتي وأخطائي . إن هندي هو أن أصف تجارب في علم الـ « ساتياغراها » ( ١ ) ، لا ان اظهر مقدار صلاحتي ، وفي الحكم على نفسي سوف أحاول أن أكون قاسياً كالحقيقة ، كما أحب أن يكون الآخرون أيضاً . وإذا أقيس نفسي بذلك المقياس يتعين علي أن أهتف مع سورداس :

١ ساتياغراها Satyagraha تطبيق السياسة الفائلة بالمقاومة من غير عنف ، وهي السياسة التي دشنها غاندي .  
( العرب )

« أين يوجد وغد  
شريرٌ معروفٌ مثلي ؟  
لقد تخلّيت من خالقي  
وكنّت جاحداً الّ هذا الحد ! »

ذلك لأنّ مما يعذبني عذاباً موصولاً أن أكون حتّى الآن بعيداً هذا البعد  
كله عن الله الذي يهيمن - كما أعرف جيداً - على كلّ نفسٍ من أنفاس  
حياتي ، والذي لا أعدو أن أكون فرداً من ذريته. أنا أعلم أنّ الشهوات الشريرة  
التي في باطني هي التي تبقيني بعيداً عنه ، ومع ذلك فليستُ أستطيع الابتعاد  
عنها .

ولكنّ يتعين عليّ أن أختم هذه المقدمة ، الآن ، لأبدأ القصة  
الفعليّة في الفصل التالي .

الأشهر ، سابارماتي  
٢٦ نوفمبر ، ١٩٢٥ م. ل. غاندي

قِصَّةُ تَحْيَا رُبِّي مَعَ الْحَقِيقَةِ  
الْقِسْمُ الْأَوَّلُ

## ١ . مولدي ومحتدي

إن آل غاندي يتسبون إلى طبقة « بانيا » الاجتماعية، ويبدو أنهم كانوا في الأصل بقالين. ولكنهم طوال ثلاثة أجيال ، ابتداء من أجدادي ، تولوا رئاسة الوزارة في عدد من ولايات كاتياواڊ . (١) وينبغي أن يكون جدي أوتامشاند غاندي ، المعروف أيضاً بأوتا غاندي ، رجل مبدأ . لقد اضطرته مؤامرات حكومية إلى أن يغادر بورباندر ، حيث كان « ديواناً » (٢) ، وإلى أن يلتحق بملجأ في جوناغاد . وهناك سلم على الـ « نواب » (٣) بيده اليسرى. وحين لاحظ أحدهم هذا العمل غير اللائق تساءل عن تفسير له فأجيب : « إن البديهي مرتبة ، من قبل ، لبورباندر » .

وتزوج أوتا غاندي مرة ثانية بعد أن فقد زوجته الأولى . كان له أربعة أولاد من زوجته الأولى واثنان من زوجته الثانية. ولست أظن أنني خلال طفولتي شعرت في أيما وقت أو علمت أن أولاد أوتا غاندي هؤلاء لم يكونوا أبناء أم واحدة . وكان خامس هؤلاء الأخوة الستة هو كارامشاند غاندي ، المعروف أيضاً بكابا غاندي ، وكان سادسهم تولسيداس غاندي :

---

١ شبه جزيرة كاتياواڊ ، في غرب الهند ، وقمع بين خليج كاشي وخليج كوتش . (المغرب)

٢ « الديوان » لقب يطلق في الهند على الوزير ، أو على مدير إحدى الدوائر الحكومية . (المغرب)

٣ الـ « نواب » لقب يطلق في الهند على الأمير المسلم الذي تلي رتبته رتبة « النظام » . (المغرب)

وتولى كل من هذين الاخوين رئاسة الوزارة في بورباندر ، واحداً اثر الآخر . وكان كابا غاندي هو ابي . كان عضواً في محكمة راجاستانك ، وهذه المحكمة لم يعد لها وجود الآن ، ولكنها كانت في تلك الأيام هيئة عظيمة النفوذ لتسوية المنازعات بين الزعماء واخوانهم من رجال القبائل ، وتولى رئاسة الوزارة فترة من الزمن في راجكوت ، ثم في فانكاثر . وكان عند وفاته أحد متقاعدي ولاية راجكوت .

وتزوج كابا غاندي أربع مرات على التعاقب ، بعد أن كان الموت يتخطف زوجته كل مرة . وقد رزق بتين من زواجه الأول والثاني ، وأنجب له زوجته الأخيرة ، بوتلياي ، بنتاً وثلاثة صبيان كنت أنا أصغرهم . كان والدي محباً لعشيرته ، مخلصاً ، شجاعاً ، سخياً ، ولكنه حاد الطبع . وإلى حد ما ، أستطيع أن أقول انه كان عاكفاً على الذات الجسدية . ذلك بأنه تزوج للمرة الرابعة عندما كان فوق الأربعين . ولكنه كان مستقيماً ، وكان قد عرف بين أفراد أسرته وفي الخارج أيضاً بالتزاهة الصارمة . وكان ولاؤه للدولة ذائع الصيت . فقد تحدث عامل سياسي مساعد (بريطاني) حديثاً مهيئاً عن راجكوت ثاكور صاحب ، الذي كان رئيسه ، فلم يسكت هو على الإهانة . وغضب العامل السياسي وسأل كابا غاندي أن يعتذر . فرفض كابا ذلك . فاعتقل بضع ساعات ، أطلق سراحه على اثرها بعد ان رأى العامل السياسي ان كابا غاندي كان صلب العود :

ولم يكن عند والدي أبما طموح إلى جمع الثروة ، فترك لنا ارثاً صغيراً جداً .

ولم تكن له ثقافة ما ، غير ثقافة الخبرة . ولعله لم يتعلم قط في كتاب أعلى من كتاب القراءة الكوجاراتية (١) لطلاب السنة الخامسة . أما التاريخ والجغرافيا فكان خالي الذهن منها . ولكن تجربته الخصبة في الشؤون العملية

---

١ اللغة الكوجاراتية هي اللغة السنسكريتية كما يرمزها سكان كوجارات والولايات المجاورة لها .  
(المعرب)

قد أكسبته منزلة محترمة في حل أعقد المسائل وإدارة مئات الرجال . ولم يتلقَ غير تدريب ديني ضئيل جداً ، ولكنه كان يتمتع بذلك الضرب من الثقافة الدينية الذي يكسبه كثير من الهندوس من اختلافهم الموصول الى الهياكل وسماعهم المواعظ الدينية . وفي أواخر أيامه بدأ يتلو « الجيتا » نزولاً عند الحاح صديق للأسرة من علماء البراهمة ، وكان من دأبه أن يكرر بعض الآيات ، في صوت عالي ، وقت العبادة من كل يوم .

وكانت الانطباع البارزة التي تركها أُمِّي في ذاكرتي هي القداسة . كانت عميقة التدين . ولم تكن لتفكر في تناول الطعام من غير أن تؤدي صلواتها اليومية . وكان الذهاب إلى « هافلي » - هيكल الفيشنافا - أحد واجباتها اليومية . وبقدر ما تستطيع ذاكرتي أن ترجع إلى الوراء ، لا أذكر أنها تخلقت يوماً عن أداء نذر الـ « شاتورماس » (١) . كانت تنذر ، أقصى النذور ، وتنفيها في غير ما نكوص أو ارتداد . ولم يكن المرض عنراً للتراخي فيها . وأستطيع أن أذكر كيف مرضت ذات يوم فيها كانت تفي نذر الـ « شاندرايانا » (٢) ، ولكنها لم تسمح للمرض بأن يحول دون اتمام الوفاء بالنذر . ولم يكن القيام بصيامين متتابعين أو ثلاثة صيامات متتابعة شيئاً مذكوراً عندها . وكان العيش على وجبة طعام واحدة خلال الـ « شاتورماس » عادةً من عاداتها . وإذا لم تكن تقنع بذلك فأنها كانت تصوم يوماً وتفطر يوماً خلال « شاتورماس » واحد . وخلال « شاتورماس » آخر نذرت أن لا تتناول طعاماً من غير أن ترى الشمس . وكنا نحن الأطفال نقف في تلك الأيام ، نحدق إلى السماء ، منتظرين أن نعلن ظهور الشمس لأننا ، وكل امرئ يعرف أن الشمس كثيراً ما لا تتلطف ، في نزوة فصل الأمطار ، بالكشف عن وجهها . وأنا أذكر كيف كنا ندفع في بعض الأيام ، لدن ظهورها فجأة ، لنخبرها بذلك . فكانت تهرع إلى الخارج لترى الشمس بعيني رأسها ،

١ وتسمى ، لغةً ، مدة الأشهر الأربعة . وهي في الاصطلاح نذر بالصيام أو نصف الصيام خلال أشهر الامطار الأربعة .

٢ نوع من الصيام تزداد فيه كمية الطعام أو تنقص تبعاً لنسب القمر أو نقصانه .

فما إن ترفع بصرها إلى السماء حتى تكون الشمس الآفة قد ولت ، حارمة إياها من وجبة طعامها . وكانت تقول في بشر : « لا بأس . إن الله لم يشأ أن أكمل اليوم . » ثم تعود إلى سلسلة واجباتها .

وكانت أمي تتمتع بقدر وافر من الحصافة . وكانت حنة الاطلاع على شؤون الولاية ، وكان لسيدات البلاط رأي حسن في ذكائها . وكنت كثيراً ما أرافقها ، ممارسة امتياز الطفولة ، ولا أزال أذكر إلى اليوم كثيراً من المناقشات العنيفة التي جرت بينها وبين والدتي « تاكور صاحب » الأرملة .

من هذين الأبوين ولدتُ في بورباندر ، المعروفة أيضاً بسودامابوري ، في الثاني من تشرين الأول ( أكتوبر ) عام ١٨٦٩ . ولقد أمضيت سني طفولتي في بورباندر . وأنا أذكر أنني ادخلتُ إلى المدرسة ، واني وجدت بعض الصعوبة في حفظ جداول الضرب . وكوني لا أذكر من تلك الأيام أكثر من أنني تعلمت ، بالاشتراك مع غيري من الغلمان ، ان نطلق على معلمنا مختلف ضروب الالقاب ، يوحي بأن عقلي كان بليداً ، وان ذاكرتي كانت فجأة من غير شك .

## ٢ . طفولتي

وأغلب الظن أنني كنت في السابعة تقريباً عندما غادر أبي بورباندر إلى راجكوت ليصبح عضواً في محكمة راجاستانك . وهناك أدخلتُ إلى مدرسة أولية : وأستطيع أن أتذكر تلك الأيام ، في وضوح ، وفي جملة ذلك أسماء المدرسين الذين علموني وبعض صفاتهم المميزة . ولم يكن ثمة ههنا ، كما لم يكن ثمة في بورباندر ، أي شيء تقريباً مما يجدر تلويحه عن دراستي . فلم يكن في ميسوري ان أكون أكثر من تلميذ عادي . ومن هذه المدرسة مضيتُ إلى مدرسة الضاحية ثم إلى المدرسة الثانوية بعد أن بلغت الثانية عشرة . ولستُ أذكر أنني كذبت قط ، خلال هذه المدة القصيرة ، كذبة واحدة على معلمي أو على رفاقي في التلمذة

سواء بسواء . كنت شديد الحياء وكنت أجنب الاتصال بأحد . كانت كتيبي ودروسي هي رفيقي الأوحـد . وكان الوصول إلى المدرسة مع دقائق الساعة والعودة إلى البيت حالما تغفل المدرسة هما عادتي اليومية . كنت أعـدو راجعاً بكل ما في الكلمة من معنى لأنني لم أكن أحتـمل التحدث إلى احد، بل لقد كنت أخشى أن يسخر أحد مني أو يتلـذذ بي ..

وهناك حادثة وقعت في الامتحان الذي جرى خلال سنتي الأولى في المدرسة الثانوية ، وهي جذيرة بالتدوين . كان مـستر جيلز ، مفتش المعارف ، قد وفد إلى مدرستنا في مهمة تفتيشية . وكان قد قدّم إلينا خمس كلمات لكتبتها كـتمرين في التهجية . وكانت إحدى تلك الكلمات هي Kettle (١) وكنت قد أخطأت في تهجيتها . فحاول المدرس أن يلقنني الجواب الصحيح بمقدّم حذائه ، ولكنني لم أفهم ما يريد . لقد كان من المتعذر عليّ أن أرى انه أراد مني أن اتقلـ التهجية من لوح جاري الحجري ، ذلك لأنني كنتُ أعتقد ان المدرس كان هناك ليراقبنا ويحول بيننا وبين النقل . وكانت النتيجة ان جميع الغلمان ، باستثنائي أنا ، قد تهجوا جميع الكلمات على وجهها الصحيح . أنا وحدي كنت الغلام الابلـه . وحاول المدرس في ما بعد أن يثبت لي هذه البـلاهة ، ولكن على غير طائل . فلم يكن في ميسوري قط أن أتـعلم فن النقل .

ومع ذلك فان هذه الحادثة لم تقلل ، البتـة ، من احترامي لمعلمي . كنت ، بالفطرة ، أعمى عن أخطاء من هم أكبر مني سنـاً . وفيما بعد قدّر لي أن أعرف كثيراً من نقائص هذا المعلم ، ولكن احترامي له ظلّ هو هو . ذلك اني كنت قد تعلمت ان أنفـذ أوامر المتقدمين في السن ، لا أن أخص أفعالم .

وثمة حادثتان أخريان ، ترجعان إلى الفترة نفسها ، لم تـبرحا ذاكرتي في يوم من الايام . فقد كنت دائماً أكره المطالعة في أيما كتاب اضافي غـير كـتبي المدرسة . كان عليّ ان أنجز دروسي اليومية لأنني كنتُ أكره ان يوبخني معلمي بقدر ما كنتُ أكره ان أخـدعه . وهكذا كنتُ أدرس دروسي ، ولكن ذلك

---

١ وتعني العـلّاية ، او القدر .



كثيراً ما كان يتم من غير ان أعمل عقلي فيها : وهكذا لم أكن لآخذ نفسي بقراءات إضافية حتى ولو لم استطع مذاكرة دروسي جيداً . ولكن عيني وقفتنا بطريقة ما على كتاب كان أبي قد اشتراه . وكان ذلك الكتاب هو « شرافانا بيتريهاكتي ناتاكا » (مسرحة عن اخلاص شرافانا لوالديه) . وقرأت الكتاب في شوق عارم ، ووفد إلى بلدنا في حوالى الوقت نفسه بعض العارضين المتجولين ، وكان بين الصور التي عرضت علينا صورة تمثل شرافانا وقلحمل والديه الضربرين إلى الحج بواسطة ألواح من الخشب شُدت إلى كتفيه . وترك الكتاب والصورة أثراً في ذهني لا سبيل إلى محوه . وقلت في ذات نفسي : « ههنا مثل "يحسن بك أن تقتدي به" . إن نذب الوالدين الاليم لوفاة شرافانا لا يزال طرياً في ذاكرتي . لقد حرك اللحن الرقيق عواطفى ، فمزقته على « كونسيرتينا » كان أبي قد اشتراها لي ، وكانت ثمة حادثة مماثلة تتصل بمسرحية أخرى . فحوالى ذلك الوقت تماماً حصلت على اذن من والدي يجيز لي أن أرى مسرحية كانت احدى الفسرق المسرحية تمثلها . والواقع ان هذه المسرحية - واسمها « هاريشاندرا » - أسرت فؤادي . وما كان لي أن أتعب من شهودها . ولكن كم مرة سوف يسمح لي بالذهاب ؟ لقد فرضت تلك المسرحية نفسها عليّ فشاهدها مائلة في ذهني ابدأ ، ولا ريب في اني قد مثلت لنفسي دور « هاريشاندرا » مرات لا تحصى . وكان السؤال الذي وجهته إلى نفسي ليلَ نهار هو : « لماذا لا يكون الجميع أمناء مخلصين مثل هاريشاندرا ؟ » كان اتباع الحقيقة ومكابدة كل ما كابده هاريشاندرا من عن هما المثل الأعلى الأوحد الذي أوحى به إليّ . لقد آمنت بقصة هاريشاندرا بكل ما في كلمة الايمان من معنى حر في . وكثيراً ما دعاني التفكير فيها إلى البكاء . إن حصاني تنبني اليوم ان هاريشاندرا لا يمكن أن يكون شخصية تاريخية . ومع ذلك فكل من « هاريشاندرا » و « شرافانا » حقيقة حية عندي ، وأنا واثق من ان عواطفى سوف تستار ، كشأنها من قبل ، إذا ما قدّر لي أن أقرأ اليوم هاتين المسرحيتين مرة أخرى .

## ٣ . زواج العنقولة

كم كنت أتمنى لو أغنى من كتابة هذا الفصل ! ولكني أعلم ان عليّ ان ابتلع كثيراً من مثل هذه الجُرع المريرة خلال هذه القصة . وليس لي مناص من ذلك ، إذا ادّعت اني متعب للحقيقة . ان من واجبي الاليم ان اسجل هنا زواجي في سن الثالثة عشرة . وإذ أرى من حولي غلماناً في مثل تلك السن - غلماناً وُضعوا تحت عنايتي - وأفكر في زواجي ذاك ، انزع إلى ان ارثي لنفسي واهتهم على نجاتهم من القَدَر الذي كُتب عليّ . أنا لست أرى أنه حجة مناقية تؤيد مثل هذا الزواج المبكر المنافي للطبيعة والعقل .

ولا يخطئن القارئ . فقد زوّجت تزويجاً ولم يُخطَب لي خطبة . ذلك ان في كاثياواد طقسين متميزين : الخطبة والزواج . والخطبة هي وعد أوليّ يقطعه والد الصبي ووالد البنت على نفسيهما بأن يجمعا ما بينهما بالزواج وهو وعد لا سبيل إلى إخلافه . ان وفاة الصبي لا تؤدي إلى ترميل الفتاة . فالخطبة اتفاق يتم بين الآباء ليس غير ، وليس للابناء أية صلة به . بل ان الخطيبين كثيراً ما لا يحاطا علماً بذلك الاتفاق . ويبدو ان ابويّ خطبا لي ثلاث مرات ، وان يكن ذلك على غير علم مني . ولقد قبل لي ان بتين كائنا قد اخترتا لي ثم ماتتا كل بدورها ، ومن أجل ذلك أمتنع ان والديّ خطبا لي ثلاث مرات . ومع ذلك فلا أزال أذكر ، على نحو ضبابي ، ان الخطبة الثالثة حدثت وأنا في السابعة من العمر ، ولكني لا أذكر أن أحداً أخبرني بذلك . وانما أتحدث في هذا الفصل عن زواجي الذي لا تزال ذكراه ماثلة في خاطري أو ضح ما يكون المتواء .

إن القارئ ليذكر اننا كنا ثلاثة أخوة . كان ارشدنا قد تزوج قبل ذلك ، وقرر أركان الاسرة تزويج أخي الثاني ، الذي كان أكبر مني بستين أو ثلاث ، وابن عم لي ولعله كان أكبر مني بسنة ، وتزويجي أنا دفعة واحدة . وهم عندما عزموا على ذلك لم يفكروا بمصلحتنا ، لا ، ولم يفكروا برغباتنا . انما كانوا

يفكرون بما يلائمهم ويلائم جيوبهم ليس غير :  
والزواج عند الهندوس ليس أمراً بسيطاً . ان آباء العروسين كثيراً ما يجلبون  
الخراب والافلاس على أنفسهم من جرائه . انهم يضيعون ثروتهم ، ويضيعون  
وقتهم . انهم يقضون اشهرآ في الاستعداد للعرس - في صنع الملابس والحلى ،  
وفي إعداد الميزانيات للولائم . ان كلاً ليحاول ان يتفوق على الآخر في عدد  
ألوان الطعام التي سوف تُعدّ وتنوّعها . والنسوة ، سواء أكن صاحبات صوت  
جميل أم لا ، يغنين حتى تصيبهن البحة ، بل حتى يمرضن ، ويقلقن أمن جيرانهن .  
وهؤلاء بدورهم يتحملون في هدوء كل ذلك الاضطراب والفضوضاء ، وكل  
ذلك الوسخ والقدر ، بقايا المآذب وفتاتها ، لأنهم يعلمون انهم هم أيضاً سوف  
يسلكون السلوك نفسه في مناسبة أخرى :

وفكر أركان الاسرة ان من الخير لهم ان يفرغوا لهذا المهم كلفة دفعة واحدة  
ويواجهوه في وقت معاً . نفقات أقل ، وبهاء أعظم . ذلك ان المال يمكن ان ينفق  
في حرية إذا ما أنفق مرة بدلاً من ثلاث . وكان كل من والدي وعمي شيخاً  
كبيراً وكنا نحن آخر الأولاد الذين تعين عليهما أن يزواجهن . ولعلهما أرادا أن  
ينعما بآخر وقت جميل في حياتهما . وبسبب من هذه الاعتبارات كلها قررا احياء  
عرس مثلث ، وكما قلت من قبل ، فان الاستعداد للعرس كان يستغرق أشهرآ :  
ومن طريق هذه الاستعدادات فحسب أخطرنا بالحدث الذي يوشك أن  
يتم . ولست اعتقد ان ذلك عني ، بالنسبة اليّ ، شيئاً أكثر من ملابس حسنة سوف  
ألبها ، وقرع طبول ، ومواكب زواج ، وولائم غنيّة ، وفتاة غريبة ألعب  
معه . أما الرغبة الجسدية فظهرت بعد . وانا ارتئي ان اسدل ستاراً على عاري ،  
بإستثناء بعض التفاصيل الجديرة بالتلوين . وإلى هذه سوف أعود في ما بعد .  
ولكن حتى هذه التفاصيل ليس لها غير صلة ضئيلة بالفكرة الرئيسية التي أبقينها  
نصب عينيّ خلال كتابتي هذه القصة .

وهكذا نُقلت أنا وأخي من راجكوت إلى بورباندر . وهناك بعض التفاصيل  
المضحكة ، من الخطوات التمهيدية إلى الدراما النهائية - مثل تلطّيح أجسادنا

جفياً بطلاء الكُرم (١) - ولكن عليّ أن اغفلها .

كان أبي « دبوأنا » ، ولكنه برغم ذلك خادم ، وانما كان كذلك على نحو أشد وأقوى بسبب من أنه كان ذا حظوة عند ثاكور صاحب . فقد أبى هذا ان بدعه يذهب حتى اللحظة الأخيرة . وحين أذن لأبي بالسفر استأجر له عربات نظامية خاصة ، توفر يومين من أيام الرحلة . ولكن الاقدار شاءت غير ذلك . ان بوربندر تقع على مسافة مئة وعشرين ميلاً من راجكوت - رحلة تستغرق خمسة أيام بالعربة . واجتاز والذي المسافة في ثلاثة أيام ، ولكن العربة انقلبت في المرحلة الثالثة من الرحلة ، فانزل ذلك به أذى كبيراً . وأخيراً وصل أبي وقد علت الضمادات جسده كله . وتحطم نصف احتامه ونصف احتامنا بالحدث الموشك ان يقع ، ولكن الاحتفال كان ينبغي أن يتخذ مجراه . إذ كيف يمكن لمواعيد الزواج ان تغير ؟ ومهما يكن من أمر ، فقد نسيت غمّي لجراح والذي في غمرة من الابتهاج الصياني بالعرس .

كنت قد نذرت نفسي لوالدي ، ولكني كنت ، بالنسبة نفسها ، وفقاً على الشهوات التي يعتبر الجسد وريثها . كنت ما ازال في حاجة إلى ان أعلم ان العادة كلها واللذة كلها ينبغي أن يضحى بها في خدمة منلورة لوالدي . ومع ذلك ، وكأتما على سبيل القصص لرغبي في اللذة ، فقد وقعت حادثة لا تزال منذ ذلك الحين تفرح ذهني - حادثة سوف أرويها في ما بعد . ان نيشكولاناند ينشد : « أطراح الاشياء ، إذا لم يرافقه أطراح الرغبات ، عمل قصير الأجل ، مهما بذلت من جهد . » وكلما انشدت هذه الأغنية أو سمعتها تشد تندفع هذه الحادثة المريرة العنيدة إلى ذاكرتي وتملأني بالعار .

وتجلد أبي على الرغم من جراحه ، وشارك في العرس مشاركة كاملة . وحين افكر في ذلك استطيع أن استحضر ، حتى في هذا اليوم ، أمام عيني عقلي ، المكان الذي جلس فيه بينا كان يتابع تفاصيل الاحتفال المختلفة . والواقع أنني

---

١ اترككم ، ذور يستخرج من شجرة هندية تعرف بهذا الاسم ايضاً . ويتخذ منه صبغ أصفر . (المغرب)

لم أحلم آنذاك الا قليلاً بأنني سوف انتقد أبي ، ذات يوم ، انتقاداً قاسياً لترويجي وانا بعد طفل . فقد بدا لي كل شيء ، في ذلك اليوم ، صحيحاً وملائماً وساراً . وكان ثمة أيضاً تلهفي على الزواج . وإذا كان كل ما صنعه أبي آنذاك قد بدّهني كشيء وراء النقد فلا تزال ذكرى هذه الأشياء طريفة في ذاكرتي . أنا أستطيع أن أنصور ، حتى في هذه الساعة ، كيف جلسنا على منصة الزواج ، وكيف أدبنا الـ « مابتابادي » (١) ، وكيف راح كل منا ، نحن الزوج والزوجة اللذين زُف أحدهما إلى الآخر حديثاً ، يضع الـ « كانسار » (٢) الحلوى في فم صاحبه ، وكيف بدأنا نحبها معاً . وبالحسن من ليلة أولى ! طفلان بريتان يدفعان نفسيهما ، في كثير من الجهل والغفلة ، إلى اوقيانوس الحياة . وكانت زوجة أخي قد دربتني تدريباً دقيقاً على السلوك الخاص بالليلة الأولى . ولست أدرى من الذي درّب زوجتي . أنا لم أسأله قط عن ذلك ، ولست نزعاً إلى أن أسأله عنه الآن . وفي استطاعة القارئ أن يتقن أنا كنا من شدة الترفزة بمحبة يتعلم على كل منا ان يواجه الآخر . كنا حينئذ أكثر مما ينبغي ، من غير شك ، بأي طريقة كان عليّ ان أحدثها ، وما الذي كان عليّ أن أقوله ؟ ان التدريب لم يستطع أن يستحني إلى بعيد . ولكن ليس ثمة ، في الحق ، حاجة إلى التدريب في مثل هذه الشؤون . إن انطباعات الولادة السابقة هي من القوة بحيث تجعل كل تدريب فضلة لا داعي لها . ولقد بدأ كل منا يعرف الآخر ، شيئاً بعد شيء ، وشرعنا نتجاذب أطراف الحديث في انطلاق . كنا في سن متباعدة . ولكني كنت سريعاً إلى ممارسة سلطتي كزوج .

---

١ الـ Saptapadi سبع خطوات يمضيها العروسان الهندوسيان معاً ، متواعدين في الوقت نفسه على الولاء والأخلاص المتبادلين ليصبح الزواج بعده ذلك غير قابل للتقصير أو الانقضاء .

٢ الـ Kansar طعام يصنع من الخنطة يشترك الزوجان في تناوله بعد انتهاء العرس .

## ٤ . تمثيل دور الزوج

في حوالى الفترة التي تم خلالها زواجي كانت تنشر كرايس صغيرة فمن كل منها « بيس » أو « باي » (١) ( فلست أذكر ذلك الآن ) وتعالج موضوعات الحب الزوجي ، والاقتصاد ، وزواج الأطفال ، وغيرها . وكنت كلما وقع بصري على كراسة من هذه الكرايس ألتزمها من الغلاف إلى الغلاف ، وكان من عادتي ان أنسى ما لا احبه منها ، وان انفذ عملياً ايما شيء احبه . وظل الاخلاص الابدى للزوجة - الذي اعتبرته تلك الكرايس واجباً من واجبات الزوج - منطبعا على صفحة فوائي انطباعاً سمردياً . وفوق هذا كانت الشهوة إلى الحقيقة فطرية عندي ، ومن هنا كانت خيانتى لها أمراً غير وارد . ثم انه لم يكن ثمة غير فرص ضئيلة جداً للخيانة في تلك السن الغضة .

ولكن درس الاخلاص كانت له آثار غير سعيدة . فقد قلت في نفسي : « إذا كان يتعين عليّ أن آخذ على نفسي عهداً بالاخلاص لزوجتي ، فيتعين عليها هي أيضاً أن تأخذ على نفسها عهداً بالاخلاص لي . » وجعلتني تلك التفكير زوجاً غيوراً . وفي بسر ، حوّل واجبها إلى حقي في أن أنتزع الاخلاص منها ، وإذا كان له ان يُنتزع فينبغي ان أصرّ على ذلك الحق في تيقظ وحذر . ولكن لم يكن لدي ايما سبب البتة للشك في اخلاص زوجتي ، ولكن الغيرة لا تنتظر الأسباب . كان عليّ ان اظل أبداً واعياً أحصي عليها حركاتها ، واذا فلم يكن في ميسورها أن تذهب إلى ايما مكان من غير اذن مني . وهكذا زُرعت بذور النزاع المرير بيننا . وكان الكبح ، ضرباً من السجن ، عملياً . ولم تكن كاستورباي هي الفتاة التي تحتل شيئاً مثل هذا . لقد أصرّت على مغادرة المنزل كلما أرادت وإلى حيثما أرادت . وأدت مبالغتي في الكبح إلى أن تغالي هي في الأخذ بأسباب الحرية وإلى أن أصبح أنا شكساً أكثر فأكثر . وهكذا غدا امتناع كل منا عن التحدث

---

١ البيس قطعة صغيرة من العملة قيمتها ربع آنة . وكل ثلاث « بايات » تساوي « بيساً » واحداً .  
(المغرب)

إلى الآخر مألوفاً عندنا يوماً ، نحن الطفلين المتزوجين . وأعتقد أن كاستورباي كانت تصدر عن كامل البراءة في اتخاذها تلك الحريات على الرغم من قيودي . وكيف تستطيع فتاة أمينة صادقة ان تتحمل أي قيد يفرض على ذهابها إلى الهيكمل أو ذهابها لزيارة الأصدقاء ؟ وإذا كان لي الحق في أن أفرض عليها قيوداً أفلا يعني هذا أن لما هي أيضاً حقاً مماثلاً ؟ كل هذا واضح عندي اليوم . أما في ذلك الحين فكان عليّ أن أدمع ملطاني كزوج !

ولكن بحسن التقارئ أن لا يظن أن حياتنا كانت حياة مرارة ما تنقضي ؛ ذلك ان قساواني كلها كانت مبنية على الحب . لقد أردت أن أجعل زوجتي زوجة مثالية . كان مطمحي أن أجعلها تحيا حياة طاهرة ، أن تتعلم ما تعلمته أنا ، وأن تدمج حياتها وفكرها بحياتي وفكري لتصبح هذه جميعها كلاً واحداً .

ولست أدري هل كان لكاستورباي مطمح مثل هذا . كانت أمية . وكانت بفطرتها ، بسيطة ، نزاعة إلى الاستقلال ، مثابرة ، ومعني على الأقل ، متحفظة كتموا . ولم تكن متبرمة ببجلها ، ولست أذكر ان دراسي همزتها يوماً إلى القيام بمغامرة مماثلة .. فانا أتخيل ، إذن ، أن مطمحي كله كان وحيد الطرف . كانت عاطفتي مركزة تركيزاً كاملاً على امرأة واحدة ، ولقد أردت أن تكون تلك العاطفة متبادلة . ولكن حتى ولو لم يكن ثمة تبادل ، فليس معنى ذلك ان حياتي كانت كلها شقاء موصولاً ، لأنه كان ثمة حب فعال من جانب واحد على الأقل .

وينبغي أن أقول اني كنت كلفاً بها إلى حد عميق ، وحتى في المدرسة ، كنت أفكر فيها . وكانت فكرة الظلام واجتماعنا المنتظر فيه تلاحقني كل لحظة . كان الانفصال غير محتمل . وكنت أبقياها ساهرة إلى ساعة متأخرة من الليل يحديني النافه . ولو لم يكن يعتلج في ذات نفسي ، مع هذه العاطفة الملتزمة ، كلف متحرق بالواجب ، إذن لكنت خليفاً بأن أقع فريسة للمرض والموت المبكر ، أو بأن أغوص إلى وجود مثل ممض . ولكن القروض المعينة كان ينبغي أن تنجز كل صباح ، وكان الاضطجاع أمراً غير وارد

بالنسبة إلى أيّ منا . وكان هذا الشيء الأخير هو الذي أنقذني من كثير من الأحيال والأشراك .

لقد سبق مني القول ان كاستورباي كانت أمية . وكنت شديد التوق إلى أن أعلمها ، ولكن الحبّ الشهوي لم يبق لي شيئاً من وقت . لقد كان عليّ ، أولاً أن أعلمها برغمها ، وان أفعل ذلك . أيضاً ، خلال ساعات الليل . ولم أكن أجروء على لقائها في حضرة الراشدين من أفراد الأسرة ، فكيف أجروء على التحدث إليها ؟ وكان لكاثياوآد آنذاك ، ولا يزال لها إلى حد ما حتى في هذه الأيام ، « حجابها » الخاص ، أنبربري ، غير المفيد . وهكذا كانت الظروف غير مسعفة . ويتعين عليّ أن أعترف ، إذن ، بأن معظم جهودي لتعليم كاستورباي في شبابتها كانت مخففة . وحين استيقظت من سبات الشبق وجدّنتني مندفعاً في خضم الحياة العامة التي لم تترك لي كثيراً من أوقات الفراغ . كذلك قصرت في تعليمها على أيدي مدرسين خصوصيين ، فكانت النتيجة ان كاستورباي لا تستطيع الآن أن تكتب ، وفي صعوبة ، غير أحرف بسيطة ، وان تفهم غير قليل من اللغة الكوجاراتية . وأنا واثق من انه لو تحرر جبي لها من قيود الشبق تحرراً كاملاً لكانت اليوم سيدة مثقفة . إذ كان في استطاعتي آنذاك أن أقهر نفورها من الدراسة . أنا أعلم انه ليس ثمة شيء مستحيل على الحب المحض .

لقد أشرت من قبل إلى حادثة أنقذتني ، قليلاً أو كثيراً ، من بلايا الحب الشهوي . وثمة حادثة أخرى جدية بالتدوين . كانت أمثلة عديدة قد أقنعتني بأن الله يتخذ انقاذاً مطلقاً كل امرئ يعمر نفسه حافز طاهر . فالي جانب عادة زواج الأطفال الوحشية كانت في المجتمع الهندوسي عادة تخفف إلى حد ما شرور العادة السابقة . إن الآباء لا يجيزون للأزواج الناشئين البقاء طويلاً جنباً إلى جنب . فالزوجة الطفلة تنفق أكثر من نصف وقتها في بيت أبيها . وكذلك كان شأننا نحن . يعني اننا خلال السنوات الخمس الأولى من حياتنا الزوجية ( من سن الثالثة عشرة إلى سن الثامنة عشرة ) لم نستطع ان نعيش



معاً غير فترات متقطعة تبلغ في جملتها ثلاث سنوات . كنا نادراً ما نسلخ سنة أشهر معاً حتى تتلقى زوجتي دعوة من والديها . وكانت تلك الدعوات مزعجة جداً في تلك الأيام ، ولكنها أنقذتنا كلياً . وحين بلغت الثامنة عشرة ، شخصت إلى انكلترا ، وكان معنى ذلك فترة انفصال طويلة مليمة . وحتى بعد عودتي من انكلترا كنا لا نكاد نبقي معاً أكثر من ستة أشهر . ذلك انه كان عليّ أن أذرع المسافة صعوداً ونزولاً ما بين راجكوت وبومباي . وعندئذ جاءتني الدعوة إلى جنوبي أفريقية ، وقد وجدتي تلك الدعوة متحرراً كل التحرر من الشهوة الزوجية .

## ٥ . في المدرسة الثانوية

لقد قلت آنفاً اني كنت أتعلم في المدرسة الثانوية عندما تزوجت . وكنا نحن الأخوة الثلاثة نتعلم في المدرسة نفسها . فأما ارشدنا فكان في صف أعلى من صفي بكثير ، وأما الأخ الذي تزوج معي في وقت واحد فكان يتقدمني بصف واحد . وكانت ثمرة الزواج ، بالنسبة إلينا معاً ، خسارة سنة دراسية . بل ان تلك الثمرة كانت أسوأ من ذلك ، بالنسبة إلى أخي ، ذلك انه اطرّح الدراسة اطرّاحاً كاملاً . والله وحده يعلم عدد الشبان الذين وقعوا في الورطة التي وقع فيها . ففي مجتمعنا الهندوسي الحالي ، فقط ، تير الدراسة والزواج جنباً إلى جنب .

وواصلت دروسي . ولم يكن يُنظر اليّ ، كطالب متبلّد الذهن ، في المدرسة الثانوية . فقد تمتعت دائماً بمحبة معلمي . وكانت الشهادات الخاصة بالتقدم والملوك نرسل إلى الآباء كل عام . ولم أعط قط شهادة رديئة . بل انني أعطيت بعض الجوائز بعد ان اجتزت السنة الثانية . وفي الستين الخامسة والسادسة كوفت بمحتين دراسيتين ، قيمة الأولى أربع رويات وقيمة

الثانية عشر رويات ، وهو نجاح ينبغي ان أشكر عليه حمن الحظ أكثر من استحقائي اللاتي . ذلك ان المنح المدرسية لم تكن ميسرة للجميع ، بل كان يحتفظ بها لأفضل التلاميذ من بين اولئك الذين يتسمون إلى جزء من كاثيواو يعرف باسم « سورات » . وفي تلك الأيام لم يكن ممكناً ان يكون ثمة عدد كبير من أبناء « سورات » في صف يتراوح عدد أفرادها ما بين الأربعين والخمسين .

والذي أذكره أنني لم أكن أقوم كبير وزن لمقدرتي . كان الدهش يستبد بي كلما فزت بجائزة أو بمنحة دراسية . ولكنني كنت أصون كرامتي وأغار عليها غيرة بالغة . وكان أستاذ الشين يستدرّ الدمع من عيني . وحين كنت استحق ، أو يبدو للمدرس اني أستحق ، تعنيفاً ، فعندئذ كنت لا أطيق لذلك احتمالاً . وأذكر انني تلقيت ، مرة واحدة ليس غير ، عقوبة جسدية . ولم أعترض على العقوبة بقدر ما اعترضت على اعتبارها شيئاً أستحقه . فبكيت بكاء يدعو إلى الرثاء . وكان ذلك وأنا طالب في السنة الأولى أو السنة الثانية . وكانت ثمة حادثة أخرى مشابهة حدثت لي وأنا في السنة السابعة . كان دورايجي ايدولجي جيمي رئيس المدرسة آنذاك . وكان ذا شعبية قوية عند الطلاب ، لأنه كان محباً للنظام ورجلاً ذا منهج ، ومدرساً بارعاً . وكان قد جعل تمرينات الرياضة البدنية ولعبة الكريكت إجبارية بالنسبة إلى طلاب الصفوف العليا . وكنت أكره الأمرين جميعاً . فانا لم أشارك قط في أيما لعبة ، سواء أكانت الكريكت أم كرة القدم ، قبل ان تجعل تلك الألعاب إلزامية . وكان حيائي أحد أسباب الاعتزال ، الذي يظهر لي الآن أنه كان خطأ . لقد كنت أعتقد آنذاك اعتقاداً خاطئاً ان الرياضة البدنية لا علاقة لها بالتربية . أما اليوم فأنا اعرف ان التدريب الجسدي يجب أن يكون له في برامج التعليم مكان لا يقل عن مكان التدريب العقلي .

بيد ان في استطاعتي ان أشير هنا إلى ان استنكافي عن القيام بالتمرينات الرياضية لم يعد عليّ بشيء من الضرر . ذلك بانني كنت قرأت في الكتب كلاماً عن منافع السير الطويل في اخواء الطلق . ولما كانت النصيحة قد راققت لي فقد كنت قد كوّنت عادة التزه سيراً على القدمين ، وهي عادة لم أفلح عنها حتى الآن .

والمواقع ان هذه النزعات سيرا على القدمين قد أورثني بنية قوية إلى حد ما؛ وكان السبب في كرهى للتمارين الرياضية هو رغبتي العارمة في القياس بتمريض واندي . فما ان تغلق المدرسة أبوابها حتى أهرع إلى البيت وأبدأ في خدمته . وقد طلبت من مستر جيمي أن يعفني من التمرينات الرياضية حتى أفرغ لخدمة أبي . ولكنه أوصد أذنيه دون طلبي . وذات يوم من أيام السبت ، يوم كانت عندنا دروس في الصباح ، تعين علي أن أذهب من البيت إلى المدرسة للقيام بالتمارين الرياضية في الساعة الرابعة بعد الظهر . ولم تكن عندي ساعة ، ولقد خدعتني الغيوم . وقبل ان أصل إلى المدرسة كان الطلاب قد انصرفوا جميعاً ؛ وفي اليوم التالي ألقى مستر جيمي نظرة على لائحة الاسماء فوجد ان امام اسمي اشارة تفيد اني كنت غائبا . حتى إذا مثلت عن سبب غيابي ابأنه بما حدث ، ولكنه رفض أن يصدقني وأمرني بأن أدفع غرامة مقدارها آتة أو آتان ( أنا لا أستطيع الآن أن أذكر مقدارها تماماً . )

لقد اتهمتم بالكذب وحكم عليّ بسبب من ذلك ! وآماني هذا كثيراً ؛ وكيف لي ان أقيم الدليل على براءتي ؟ لم يكن ثمة سبيل . وبكيت في ألم مرير ، لقد رأيت ان الرجل الصادق ينبغي أن يكون رجلاً ذا عناية واهتمام أيضاً . وكانت هي أول وآخر حادثة من حوادث اهمالي في المدرسة . وأنا أذكر الآن ذكرى واهنة اني نجحت آخر الأمر في استرجاع الغرامة . ولقد حصلت على الاعفاء من التمرينات الرياضية ، طبعاً ، بعد ان كتب والدي نفسه إلى رئيس المدرسة كلمة قال فيها انه يرغب في أن ألزم البيت بعد انتهاء الدروس .

وعلى الرغم من أن اهمالي التمرينات الرياضية لم يعد عليّ بضرو ما ، فاني لا أزال إلى اليوم أدفع ثمن اهمال آخر . فلست أدري من أين تسرب إلى ذهني ان الخط الجميل ليس جزءاً أساسياً من الثقافة ، ولكني بقيت محتفظاً بهذه الفكرة حتى ذهبت إلى انكلترا . وحين رأيت في ما بعد ، وخاصة في جنوبي أفريقية ، جمال خطّ المحامين والشبان الذين ولدوا وتلقوا علومهم في جنوبي أفريقية ، خجلت من نفسي وندمت على اهمالي . لقد رأيت ان سوء الخط يجب أن يعتبر

علامة من علامات الثقافة الناقصة . وحاولت منذ ذلك الحين ان أحسن خطي ، ولكن بعد فوات الأوان . فلم يكن في ميسوري قط ان أصلح الاهمال الذي فرط مني في عهد الشباب . فليتعض كل شاب وكل شابة بما أصابني ، وليفهم ان الخط الجميل جزء ضروري من الثقافة . وأنا اليوم من الذين يعتقدون بأن الاطفال يجب ان يتعلموا فن الرسم قبل أن يتعلموا كيف يكتبون . دع الطفل يتعلم أحرفه بالملحظة ، كما يتعلم أشياء مختلفة ، كالأزهار ، والأطياف ، الخ . على ان لا يتعلم الخط إلا بعد ان يتعلم كيف يرسم الأشياء . إن خطه خليق بأن يصبح ، عندئذ ، بارعاً جميلاً .

بقيت ذكريان من ذكريات أيامي المدرسية جديران بالتسجيل . كنت قد خسرت سنة واحدة بسبب زواجي . وكان معلمي يريد مني أن أعوّض عن الخسارة بالترفع صغين بدلاً من صف واحد - وهو امتياز متاح عادة للطلبة المجتهدين . وهكذا قضيت ستة أشهر فحسب في السنة الثالثة ثم رفعت إلى السنة الرابعة بعد الامتحانات التي تعقبها العطلة الصيفية . وأصبحت الانكليزية لغة التعليم في معظم المواد ابتداء من السنة الرابعة . ولقد وجدت نفسي في حيرة وارباك كاملين . وكانت الهندسة مادة جديدة لم أكن قوياً فيها على نحو خاص ، ولقد زادت لغة التعليم الانكليزية عسراً على عسر بالنسبة اليّ . لقد درسنا المعلم تلك المادة تدريباً حسناً جداً ، ولكني لم أكن أستطيع أن أتابعه . وكان اليأس بداخلي في كثير من الاحيان ، فأفكر بالعودة إلى الصف الثالث شاعراً بأن حشر دروس سنتين في سنة واحدة كان ينطوي على قدر من الطموح مغالى فيه . ولكن هذا ما كان ليلحق الخزني بي وحدي ، بل بالمدرس أيضاً . ذلك بأنه كان قد اقترح ترفيعي على أساس من جدي واجتهادي . وهكذا كان في ذلك الخوف من الخزني المزدوج ما جعلني ألزم مركزي . بيد اني ما ان وصلت ، في كثير من الجهد ، إلى القضية الثالثة عشرة من قضايا اوقليدس حتى تجلّت لي سهولة المادة على نحو مفاجئ . إن مادة تتطلب اصطناعاً محضاً وبسيطاً للملكات المرء العقلية ، ليس غير ، لا يمكن أن تكون مادة عبيرة . ومنذ ذلك الحين أصبحت

الهندسة سهلة وممتعة بالنسبة الي .

بيد أن السنسكريتية أثبتت أنها أصعب عليّ . في الهندسة لم يكن ثمة ما نحفظه عن ظهر قلب ، على حين ان كل شيء في السنسكريتية - كما تراءى لي - ينبغي أن يحفظ عن ظهر قلب . وهذه المادة أيضاً بدأنا ندرسها في السنة الرابعة . وما ان بلغت السنة السادسة حتى أخذ اليأس يتسرب إلى فؤادي . وكان المعلم قاسياً ، تواقاً ، كما خيل اليّ ، إلى أن يسوق الطلبة سوقاً عنيفاً ويكرههم على الدرس اكرهاً . وكان ثمة ضرب من التنافس بين معلم السنسكريتية ومعلم الفارسية . وكان معلم الفارسية متساهلاً ، وكان الطلاب يتحدثون في ما بينهم فيقولون ان الفارسية سهلة ، وان معلم الفارسية طيب جداً وروؤوف بالطلاب . وأغرتنني « السهولة » فالتحقت ذات يوم بصف اللغة الفارسية . وحزن معلم السنسكريتية ودعاني اليه وقال : « كيف تستطيع ان تنسى أنك ابن والد فيشتاني ؟ ألا تريد أن تتعلم لغة دينك ؟ وإذا كنت تجد أية صعوبة فلماذا لا ترجع اليّ ؟ أنا أريد ان أعلمكم ، أيها الطلاب ، اللغة السنسكريتية على خير وجه أستطيعه . وكلما تقدمت في دراستها وجدت فيها أشياء ذات متعة بالغة . ينبغي أن لا تيأس . تعال واجلس في صف السنسكريتية . »

وأخجلني هذا اللطف . لم يكن في ميسوري أن أتغافل عن محبة معلمي ، واليوم لا أستطيع إلا أن أعترف بحميل كريشناشانكار بانديا كلما فكرت فيه . لأنني لو لم اكسب ذلك القدر الضئيل من السنسكريتية الذي تعلمته آنذاك ، اذن لكان من العسير عليّ ان اهتم اي اهتمام بكتبتنا المقدسة . والواقع اني نادم أعظم الندم لأنني لم أوفق إلى اكتساب معرفة أعمق بتلك اللغة ، لأنني أدركت منذ ذلك الحين ان من واجب كل فني هندوسي وفنائة هندوسية أن يعرفا اللغة السنسكريتية معرفة سليمة .

أنا اعتقد اليوم بأن جميع برامج التعليم العالي الهندية ، ينبغي ان تفسح مجالاً لتدريس اللغة « الهندية » ، والسنسكريتية ، والفارسية ، والعربية ، والانكليزية ، إلى جانب اللغة الأهلية طبعاً . وهذه اللائحة الطويلة يجب أن لا

تفرع أحداً . فعين تصبح ثقافتنا أكثر نظامية ، وحين يتحرر طلابنا من عبء دراسة المواد التعليمية بلغة أجنبية فعندئذٍ أستطيع ان أوكد ان نعلّم هذه اللغات كلها لن يكون مهمة مضنية ، بل متعة كاملة . إن المعرفة العلمية بلغة من اللغات تجعل اللغات الأخرى سهلة نسبياً .

والواقع ان اللغة « الهندية » ، واللغة الكوجاراتية ، واللغة السنسكريتية ينبغي ان تعتبر لغة واحدة ، وان تعتبر الفارسية والعربية لغة واحدة أيضاً . وعلى الرغم من أن الفارسية تنتمي إلى أسرة اللغات الآرية ، والعربية تنتمي إلى أسرة اللغات السامية فإن ثمة صلة وثيقة بين الفارسية والعربية ، لأن كلتا اللغتين بلغت نموها الكامل بعد ظهور الاسلام . ولم أعتبر اللغة الأوردية لغة متميزة لأنها تبنت النحر الهندي ، ولأن معجميتها هي في كثيرها المطلقة فارسية وعربية ، وعلى كل من يرغب في التمكن من الأوردية ان يتعلم الفارسية والعربية ، كما ان على كل من يرغب في التمكن من الكوجاراتية والهندية والبنغالية والماراثية ان يتعلم السنسكريتية .

## ٦ . مأساة

كان لي بين أصدقائي القلائل في المدرسة الثانوية ، وفي أوقات مختلفة ، صديقان أستطيع أن أقول أنهما حبيبان . إن احدي هاتين الصداقتين لم تعمّر طويلاً على الرغم من أنني لم اتخلّ عن صديقي . كان هو الذي تخلى عني لأنني صادقت الآخر . أما هذه الصداقة الأخيرة فأنا اعتبرها مأساة في حياتي . لقد عمّرت طويلاً . ولقد أنشأتها بروح المصلح .

وكان هذا الرفيق ، في الأصل ، صديقاً لأخي الأرشد ، فقد كانا رفيقي صف واحد . وكنت أعرف ضعفه ولكني اعتبرته صديقاً وفيّاً . وحلّرتني أمي وحلّرتني أخي الأكبر ، وحلّرتني زوجتي من هذه الصداقة . ولقد حالت

كبريائي دون الاكتراث بتحذير زوجتي . ولكني لم اجروا على العمل بما يخالف رأي أمي وأخي الاكبر . ومع ذلك ، فقد كنت اجادلها قائلاً : « أنا أدري أن عنده ذلك الضعف الذي تنسبانه اليه . ولكنكم لا تعرفان فضائله . انه لا يستطيع ان يضلني السيل ، لأنني انما أهدف ، من هذه الصداقة ، إلى اصلاحه . ذلك اني واثق من أنه سوف يصبح ، إذا ما غير مسالكه ، رجلاً رائعاً . أنا أتوسل إليكما أن لا تفلقا علي . »

ولست احب ان هذا الكلام قد أقنعهما ، ولكنها قبلت نفسي ، وتركتاني وشأني .

لقد رأيت ، منذ ذلك الحين ، اني أخطأت الحساب . فالمصلح لا يستطيع أن يكون على صداقة حميمة مع ذلك الذي يسعى إلى اصلاحه . إن الصداقة الحقيقية هي وحدة في النفوس ينذر ان توجد في هذا العالم . وبين الطبائع المتباينة وحدها يمكن للصداقة أن تكون دائمة متحركة للاسم . ان الاصدقاء يتقاعدون ، ومن هنا فليس في الصداقة غير منع صغير جداً للاصلاح . وانا من الذين يعتقدون بأن جميع الصداقات الحميمة الصادقة (١) ينبغي ان تختب . ذلك بأن الانسان يتقبل الرذيلة بأيسر مما يتقبل الفضيلة . ويتعين على من يريد أن يكون صديقاً لله ان يبقى وحيداً ، أو يجعل العالم كله صديقاً له . قد أكون مخطئاً ، ولكن جهودي بسبل انشاء صداقة حميمة اخفقت اخفاقاً ذريعاً .

كانت موجة من « الاصلاح » تغمر راجكوت يوم تعرفت أول ما تعرفت ، إلى هذا الصديق . لقد أنبأني بأن كثيراً من مدرسينا كانوا يأكلون اللحم ويعاقرون الخمر سراً . كذلك سمى لي كثيراً من أبناء راجكوت المشهورين الذين ما كانوا يتورعون عن ذلك . وكان ثمة بين هؤلاء أيضاً ، كما قيل لي ، بعض طلاب المدرسة الثانوية .

ودُهشت وتألّت . وسألت صديقي عن السبب فأوضحه لي على الشكل التالي :  
« نحن شعب ضعيف لأننا لا نأكل اللحم . وقد استطاع الانكليز أن يسيطروا

• استعملنا هذه الكلمة مقابل كلمة exclusive (المرب)

علينا لأنهم من أكلة اللحوم . أنت تعرف مبلغ قوتي ، وسرعتي في العدو أيضاً . ان مردّ ذلك إلى انني آكل اللحم . ان أكلة اللحم لا يصابون بدمامل وأورام ، وحتى لو اتفق لهم ان اصيبوا بها بعض الاحيان فان هذه الآفات لا تلبث ان تزول عاجلاً . إن مدرّسينا والبارزين من رجالنا الذين يأكلون اللحم ليسوا مجانين . إنهم يعرفون فضائله ، ان عليك ان تعمل مثلهم . وليس ثمة ما هو خير من التجربة . جرّب ، ترّ اي قوة يمنحها اللحم .

هذه الحجج كلها في الانتصار لأكل اللحم ، لم تقدم اليّ في جلسة واحدة . انها تمثل خلاصة مناقشة طويلة متقنة كان صديقي يحاول التأثير بها عليّ ، بين الفينة والفينة . وكان أخي الأكبر قد زلّ قبل ذلك بزمان . ومن هنا ، فقد أيد حجج صديقي . وليس من شك في انني بدوّتُ ضعيف البنية بازاء أخي وهذا الصديق . لقد كان كلاهما أشجع مني . وأقوى جسدياً . وأجراً . وسحرني بطولات هذا الصديق . كان في مسوره ان يعدو مسافات طويلة وفي سرعة خارقة . كان بارعاً في القفز العالي والقفز العريض . وكان في استطاعته أن يحتمل أي مقدار من العقوبة الجسدية . وكان كثيراً ما يعرض بطولاته أمام ناظريّ ، فيأخذني الدهول كما يذهل المرء دائماً حين يرى في الآخرين صفات تعوزه هو .. وتبعت ذلك رغبة قوية في أن أكون مثله . لقد كنت عاجزاً ، أو أكاد ، عن الوثوب والعدو . فلماذا لا أكون أنا أيضاً على مثل قوته ؟

وإلى هذا ، فقد كنت جباناً . كان يستبدّ بي الخوف من اللصوص ، والاشباح ، والافاعي . ولم أكن أجروّ على الحركة خارج البيت في موهن من الليل . كانت الظلمة ترعبي . وكان يتعنر عليّ ، أن أنام في الظلام ، تقريباً ، لأنني كنت أتخيل الاشباح مقبلة عليّ من ناحية ، واللصوص من ناحية أخرى ، والافاعي من ناحية ثالثة . وهكذا لم أكن أطيق النوم من غير مصباح مضاء في الغرفة . وأنّي لي أن أفضي بمخاوفي إلى زوجتي - التي لم تعد طفلة ، إذ كانت تنقف على حنّة الشباب - هذه الزوجة الراقدة إلى جانبي ؟ كنت أعلم انها أشجع



مني ، ولقد استشعرت الخجل منها . أنها ما كانت تعرف الخوف من الافاعي والاشباح . ولقد كان في ميسورها أن تذهب إلى أيما مكان ، في الظلام . وعرف صديقي مواطن ضعفي هذه كلها ، فكان يقول لي إن في استطاعته ان يمسك بيده أفاعي حية ، وان يتحدثى اللصوص ، وانه لا يؤمن بالاشباح . وكان ذلك كله ، طبعاً ، ثمرة أكل اللحم .

وكانت أبيات نافهة من نظم الشاعر الكوجاراتي « نارماد » ذاتعة على ألسنتنا نحن طلاب المدارس ، آنذاك ، وكانت تجري هكذا :

انظروا الى الانكليزي الجبار

إنه يحكم الهندي الصغير

يوصفه آكل لحم

ينتج بقاءة طولها خمسة اذرع !

وكان لهذا كله أثره الكبير في ذات نفسي . لقد غلبت على أمري . وبدأت نفسي تسول لي أن أكل اللحم شيء حسن ، وانه سوف يعطيني قوياً جريئاً ، وانا خليقون بالتغلب على الانكليز إذا اعتاد الهنود جميعاً أكل اللحم .

وهكذا حدثنا يوماً للبدء بالتجربة . وكان لا بد لنا ان نجري سراً . وكان آل غاندي فيشنافين ، وكان أبواي فيشنافين متعصين إلى حد بعيد . كانوا يزورون هيكل « هافلي » على نحو نظامي . بل لقد كان للأسرة هياكلها الخاصة : كانت اليازية (١) قوية في كوجارات ، وكان تأثيرها ملموساً في كل مكان وفي جميع المناسبات . وكانت كراهية أكل اللحم السائدة في كوجارات بين الياثيين والفيشنافيين أقوى مما كانت في أيما مكان آخر في الهند أو خارجها . تلك هي التقاليد التي وُلدتُ ونُشئتُ في جوها . ولقد كنت برّاً بوالديّ إلى حد بعيد . لقد عرفت أنها إذا عرفا اني أكلت اللحم فعندئذ يصابان بصدمة قد

١ Jainism وهي دين هندوسي يمتد إلى البرهوية بنسب ، اسس حوالي القرن السادس

(المغرب)

قبل الميلاد .

تفضي على حياتها . وفوق هذا ، فقد زادني حيي للحقيقة حلراً على حلر . فأنا لا أستطيع أن أقول اني لم أعرف آنذاك اني أخذت أبيّ إذا ما بدأت أكل اللحم . ولكن عقلي كان مستغرقاً في « الاصلاح » . فلم تكن المسألة مسألة ارضاء للوق . اني لم أعرف ان اللحم ملافاً طيباً إلى حد بعيد . لقد رغبت في أن أكون قوياً وجريئاً ، ورغبت في أن يكون أبناء وطني كذلك أيضاً ، لكي يتمكنوا من قهر الانكليز وتحرير الهند . ولم أكن قد سمعت بلفظة «سواراج» (١) ، ولكني كنت أعرف اي شيء تعنيه الحرية . لقد أعماني خيال « الاصلاح » ، واذ ضمنت السرية فقد أقنعت نفسي بأن مجرد اخفاء العمل عن الذي لم يكن مفارقة للحقيقة .

## ٧ . مأساة (تابع)

وهكلاً أقبل اليوم الموعود . إن من أعسر العسير أن أصف حالتي على وجه الضبط . كان ثمة ، من ناحية ، الحماسة « للاصلاح » ، وجدة القيام بانحراف ذي شأن في الحياة . وكان ثمة ، من ناحية أخرى ، عار الاختباء كاللص ، من أجل الاقدام على هذا الشيء نفسه . ولا أستطيع أن أقول اي العالمين دفعني دفعا أقوى . وذهبنا نبحث عن بقعة معزولة على ضفة النهر ، وهناك رأيت للمرة الأولى في حياتي : اللحم . وكان ثمة خبز خباز أيضاً . ولم استغ مذاق أي منها . كان لحم الماعز صلباً كالجلد . ولم استطع له ازرداداً . كنت على وشك ان انقياً ، ولقد تعيّن عليّ ان أكفّ عن الأكل .

وقضت ليلة شديدة السوء بعد ذلك . لقد استبد بي كابوس رهيب . كنت كلما حاولت الاستسلام للنوم برأى لي وكأن شاة حية تنغو في داخلي ، فأثب والتدم ملء بردي . ولكني كنت أذكر نفسي ، آنذاك ، بأن أكل اللحم كان واجباً ، فأغدو أكثر بشراً .

(المرب)

١ Swaraj ، وتعني ، في الهند ، الحكم الذاتي .

ولم يكن صديقي رجلاً يذعن في يسر . لقد شرع يطهو مختلف المأكـلـة الشهية باللحم ، ويعدّها في أنيقة . ولم يعد يختار لتناول الطعام تلك البقعة المعزولة على ضفة النهر ، بل لقد اختار من أجل ذلك مقرّ المجلس التمثيلي بقاعة الطعام فيه وبموائده وكراسيه ، بعد أن أجرى صديقي ضروب الترتيبات من أجل ذلك بالتواطؤ مع كبير الطهاة هناك .

وكان لهذا الطعم أثره . لقد تغلبتُ على كراهيتي للخبز ، واطّـرحت شفقتي على الشياه ، وأصبحت أتنوق ألوان الطعام المطبوخة باللحم ، ان لم أتنوق اللحم نفسه . واستمر ذلك نحواً من عام . ولكننا لم نتمتع بأكثر من نصف دزينة من ولائم اللحم في الجملة ، لأن الدخول إلى مقر المجلس التمثيلي لم يكن ميسوراً كل يوم ، وكان ثمة صعوبة واضحة في إعداد الألوان اللحمية الغالية الطيبة المذاق ، بين الفينة والفينة .. ولم يكن لدي مال أدفع به ثمن هذا « الإصلاح » . فكان على صديقي ، إذن ، ان يؤمن المال ، دائماً . وما كنت أدري أين كان يجده . ولكنه كان يجده ، على أية حال ، لأنه كان مصمماً على تحويلي إلى آكل لحم . ولكن موارده نفسها كانت محدودة من غير شك ، ومن هنا كان لا بد لتلك المآدب من أن تكون قليلة ، تفصل ما بينها فترات طويلة .

وكنت كلما سنحت لي فرصة التمتع بهذه المآدب السرية أستكف عن تناول الطعام في البيت . وكانت أمي تدعوني ، طبعاً ، إلى تناول طعامي ، وكانت تريد أن تعرف السبب الذي من أجله أمتنع عن الأكل . فكنت أقول لها : « لست أجد شهوة إلى الطعام اليوم . أنا أشكو من علة ما في المضم » . ولم أكن أخترع هذه المعاذير من غير ما ندم أو وخز ضمير . كنت أعرف أنني كنت أكذب ، وأكذب على أمي . وكنت أعرف أيضاً ، ان صدمة عنيفة سوف تصيب أمي وأبي إذا ما قدّر لهما أن يعلماني أصبحت من أكلة اللحم . لقد كانت تلك المعرفة تحزّ في فؤادي حزّاً .

من أجل ذلك قلت في ذات نفسي : « صحيح ان أكل اللحم أساسي . وصحيح ان القيام بـ « اصلاح » غذائي في البلاد أساسي أيضاً ، ولكن خداع

المراء وكذبه على أبيه وأمه اسوأ من عدم أكل اللحم . وإذن ، فإن أكل اللحم ، في حياتها ، ينبغي أن يكون أمراً غير وارد . حتى إذا توفيا ، وأصبحتُ حراً ، فعندئذ سوف أكل اللحم في وضوح النهار . ولكنني حتى تحين تلك اللحظة سأكفّ عن هذا الصنيع . »

وأبلغت صديقي هذا القرار . ولم أعد بعدها إلى أكل اللحم قط . ولم يعرف أبواي ، في يوم من الأيام ، أن اثنين من أولادهما كانا قد أصبحا من أكلة اللحم . لقد هجرت اللحم بدافع من محض رغبتني في أن لا أكذب على أبوي ، ولكنني لم أهجر صديقي . كانت حماسي لاصلاحه قد أثبتت أنها مغربة بالنسبة اليّ ، ولقد كنت طوال الوقت أجهل هذه الحقيقة جهلاً كاملاً .

وكانت تلك الصداقة نفسها جديرة بأن تقودني إلى خيانة زوجتي . ولكنني أنقذت بشق النفس . فقد قادني صديقي ، ذات يوم ، إلى بيت من بيوت الدعارة وأدخلني إلى هناك مزوداً بالمعلومات الضرورية . كان كل شيء مُعَدّاً إعداداً قَبَلياً . وكانت فاتورة الحساب قد دفعت مقدماً . ومضيت إلى شفق الرذيلة ، ولكن الله حماني ، برحمته اللانهائية ، من نفسي . وأصِبتُ بمثل العمى والصمم في وكر الرذيلة ذاك . لقد جلستُ قرب المرأة ، على سريرها ، ولكن لساني كان معقوداً . وطبيعي أن يفرغ صبر المرأة ، آخر الأمر ، فطردتني راشقةً أباي بفيض من الشائم والاهانات . عندئذ شعرت وكأن رجولي قد أُوذيت ، ووددت لو أن الأرض تبلعني من شدة الخجل . ولكنني ما فتئت أشكر الله ، منذ ذلك الحين ، لانقاذه إياي .. واستطيع أن أذكر أربع حوادث أخرى مماثلة في حياتي ، وفي معظم هذه الحوادث كان حسن طالعي ، لا أي جهد من جانبي ، هو الذي أنقذني . ومن وجهة نظر أخلاقية خالصة ينبغي أن تُعتبر هذه المناسبات كلها زلات مناقية . لأن الرغبة الجسدية كانت ماثلة فيها ، وكانت تلك الرغبة تعدّل العمل نفسه . ولكن من وجهة النظر العادية يُعتبر الإنسان الذي خلّص من ارتكاب إثم جسدي إنساناً مُقَدَّراً . ولقد أنقذتُ بهذا المعنى ليس غير . إن ثمة بعض الاعمال التي يكون الهروب منها نعمةً مساوية

على الهارب وعلى اولئك المحيطين به أيضاً . وما إن يستعيد المرء وعيه للحق حتى يشكر الرحمة الالهية على الهروب . وكما نعلم أن الانسان كثيراً ما يخضع للاغراء مهما قاوم ذلك الاغراء ، نعلم أيضاً أن العناية الربانية كثيراً ما تتدخل وتنقذه على الرغم منه . أما كيف يحدث هذا كله ، وإلى أي حد يعتبر الانسان حراً وإلى أي حد يعتبر ابن الظروف ، وإلى أي مدى تتصرف الارادة الحرة وأين يبرز القدر إلى المسرح — أما هذا كله فلغز ، وسوف بظل لغزاً .

ولكن فلتتابع القصة . حتى هذا كان أبعد من أن يفتح عيني على فساد رقعة صديقي . ومن هنا لم يكن غريباً أن تكون الأيام قد ادّخرت لي جرعات كثيرة أشد مرارة ، حتى فُتحت عيناى فعلاً على برهان ملموس لبعض زلاته التي لم أكن أتوقعها منه البتة . ولكن فلأرجيء الكلام عليها إلى ما بعد ، لأننا نتقدم في هذه القصة وفقاً للتسلسل الزمني .

بيد أن ثمة شيئاً يجب أن أشير إليه الآن لأنه يرقى إلى الفترة نفسها . لقد كانت وفقتي لهذا الصديق احد أسباب خلافاتي مع زوجتي ، من غير شك . كنت زوجاً مخلصاً وغبوراً في وقت معاً ، ولقد أذكرى هذا الصديق شكوكي بزوجتي ولم يكن في طوعي أن أشك في صدقه . ولم أغفر لنفسي في أبنا يوم من الأيام تلك القسوة التي اصطنعتها والتي كانت تمثل في اساءتي إلى زوجتي وإيلاهما من طريق العمل بوحى من معلوماته . ولعل الزوجة الهندوسية هي وحدها التي تتسامح بهذه المظالم ، وهذا هو السبب الذي من أجله اعتبرت المرأة تجسداً للتسامح . ان الخادم الذي يشك فيه سيده ظلاماً قادراً على اطراح العمل والتخلي عنه ، والابن الذي يجد نفسه في الوضع ذاته قد بنادر سقف والده ، والصديق قد يضع حداً لصداقته . والزوجة ، إذا ما ارتأبت في زوجها ، تلزم الصمت والسكينة ، ولكنها إذا ارتأبت زوجها فيها ، حل الخراب بساحتها . فإلى أين تستطيع أن تذهب ؟ ان المرأة الهندوسية لا تقوى على التماس الطلاق في محكمة شرعية . الشرع لا يملك دواءً لها . ولست أستطيع أن أنسى ، طوال عمري كله ، أو أغفر لنفسي اني دفعت زوجي إلى ذلك القنوط .

ولم يُستأصل هذا الدمل إلا عندما فهمت «الاهيمسا» (١) من نواحيها جميعاً. لقد رأيت ، عندئذ ، جلال «البراهماشاريا» (٢) وأدركت أن المرأة ليست عبداً رقيقاً للزوج ولكنها رفيقه ومساعدته ، وشريكه المتكافئ في جميع مباحجه وأحزانه . وإن لها مثل حرية الرجل في اختيار طريقها الخاصة . وكلما فكرت في أيام الشك والربب السوداء تلك يستبد بي الاشتزاز من حماقتي ووحشتي الشهوية ، وبأخذني الندم لاختلاصي الاعمى لاحد الاصدقاء .

## ٨ . سرقة وتكفير

لا يزال عليّ أن أروي بعض نقائصي خلال فترة أكل اللحم هذه وفترة سابقة عليها أيضاً ترقى إلى ما قبل زواجي أو بعده بقليل .  
لقد أولعت ونسيت لي ، بالتدخين . لا لأننا وجدنا أبما خير في التدخين ، أو لأننا شُغفنا بعق السيكارة ، ولكن لمجرد أننا تخيلنا قسراً من المتعة في إطلاق سحب من الدخان من أفواهنا . كان عمي من المولعين بالتدخين ، وحين رأيناه يلدخن اعتقدنا ان علينا أن نخذو حذوه . ولكن المال كان يعوزنا . وهكذا شرعنا نسرق أعقاب السكاير التي كان عمي يطرحها .

ولكن هذه الاعقاب لم تكن في متناولنا ، دائماً ، كما انها لم تكن تساعدنا على إطلاق مقدار كبير من الدخان . وهكذا بدأنا نسرق قطع النقود النحاسية من جيب الخادم لنشتري بعض السكاير الهندية . ولكن المسألة كانت أين نخبئ هذه السكاير ، فلم يكن في ميسورنا طبعاً ان نلدخن في حضرة الكبار من أفراد الاسرة: واشبعنا شهوتنا إلى التدخين ، بطريقة ما ، وطوال بضعة أسابيع ، بواسطة هذه القطع النحاسية المسروقة . وفي غضون ذلك سمعنا أن «سويات» نبات معين *1 Ahimsa* ، وتنتهي في الأصل ، للأدنى ، الامتنع . والمقصود بها هنا نظرية الامتنع .

في حين ان الساتياغراها هي تطبيق تلك النظرية .  
*2 Brahmacharya* ، وتنتهي في الأصل للسلوك الذي يقود المرء الى الله . اما في الاصطلاح فتعني ضبط النفس ، وبخاصة السيطرة على الاعضاء التناسلية .

كانت ذات مساء ، ويمكن أن تدخن كالسكاير . وحصلنا على بعض هذه السويقات وبدأنا نقوم بهذا الضرب من التدخين .

ولكننا كنا أبعد ما نكون عن الرضا بأشياء مثل هذه . وبدأت حاجتنا إلى الاستقلال توجعنا . لقد ضقتنا ذراعاً بعجزنا عن عمل أي شيء إلا باذن من أفراد الاسرة الراشدين . وأخيراً ، في اشتزاز محض ، عزمنا على الانتحار !

ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ ذلك ؟ من أين تأتي بالسم ؟ وسمعنا أن بلور الـ « دانورا » هي سم زعاف . فانطلقنا إلى الاجمة بحثاً عن هذه البلور ، ففرزنا بها . وحسبنا ان الليل ساعة مباركة . فمضينا إلى « كيدارجي ماندير » ، ووضعنا السم الهندي في مصباح الميكل . وقمنا بالـ « دارشان » ثم بحثنا عن زاوية منزلة . ولكن شجاعتنا خانتنا . لنفرض اننا لم نمت في الحال ؟ واي فائدة نجنيها من قتل أنفسنا ؟ لماذا لا نستعاض عن ذلك بالصبر على فقدان الاستقلال ؟ ولكننا ابتلعنا . مع ذلك ، بنرتين أو ثلاث بنرات . اننا لم نجروء على ابتلاع أكثر . لقد اجتنب كل منا الموت . وقررنا ان نذهب إلى « راجي ماندير » لنهدي روعنا ، وننبذ فكرة الانتحار .

لقد أدركت ان اقدام على الانتحار ليس سهلاً كـ « التفكير به » . ومنذ ذلك الحين أميت لا أثار إلا قليلاً ، أو لا أثار البتة ، كلما سمعت ان امرأة يهدد بالانتحار .

وأدت فكرة الانتحار ، آخر الأمر ، إلى تطليقنا ، نحن الاثنين ، عادة تدخين أعقاب السكاير ، وسرقة نقود الخادم النحاسية من أجل التدخين . ومنذ أن بلغت سن الشباب لم أعرف قط رغبة ما في التدخين ، وأحصلت أنظر دائماً إلى التدخين بوصفه عادة بربرية ، قذرة ، مؤذية ، ولم أدرك قط ، منذ ذلك الحين ، هذا الشغف المجنون بالتدخين في أرجاء العالم كله . أنا لا أستطيع أن أسافر في مقصورة من مقاصير القطار ملأى باناس يدخنون . اني احس بالاختناق .

ولكن ثمة سرقة أخرى ارتكبتها بعد ذلك بقليل وكانت أخطر من هذه التي

رويتها . لقد سرقت القطع النحاسية عندما كنت في الثانية عشرة ، أو الثالثة عشرة ، وربما أقل . أما السرقة الأخرى فقد ارتكبتها وأنا في الخامسة عشرة ؛ في هذه الحادثة الأخيرة ، سرقت قطعة ذهبية من سوار أخي آكل اللحم . وكان هذا الاخ قد وقع تحت دين يبلغ نحواً من خمس وعشرين روبية . وكان ذراعه يزدان بسوار من ذهب خالص . ولم يكن من العسير اقتطاع جزء منه .

وعلى أية حال ، فقد تمّ ذلك ، ودُفع الدين . ولكن هذا الصنيع كان وراء احتمالي . فعزمت على ان لا أسرق منذ اليوم ، كذلك عقدتُ النية على أن أعترف بهذا إلى والدي . ولكنني لم أجروا على الكلام . وما كان ذلك لاني كنت أخشى ان يضربني والدي . لا . فأنا لا أذكر أنه ضرب اباً منا في اي يوم من الايام . لقد كنت أخشى الالم الذي لا بد أن يُلمّ بأبي على أثر هذا الاعتراف . ولكنني شعرت بأن من واجبي أن أقوم بهذه المجازفة ، وانه لن يكون ثمة تطهر من غير اعتراف .

وقررت آخر الأمر ، أن أكتب الاعتراف ، وان أرفعه إلى والدي ، وألتمس منه عفوهُ . فكتبته على قصاصة من ورق ، وسلمتها اليه بنفسي . ولم أعترف في تلك الورقة ، بجرمتي فحسب ، بل طلبت عقوبة مناسبة عليها ، وختمت الاعتراف برجائي اليه ان لا يَرْمِض نفسه بسبب من جرمي . ليس هذا فحسب ، بل لقد أخذت على نفسي عهداً بأن لا أسرق في المستقبل أبداً .

وكنْتُ أرتجف وأنا أقدم الاعتراف إلى والدي . كان يشكو آنذاك من ناسور أُلزِمه الفراش . وكان فراشه لوحاً خشبياً غليظاً . ولقد قدمت اليه المذكرة وجلست تجاه اللوح الخشبي .

وقرأها من أولها إلى آخرها ، فتحدّرت على خديه عبرات بللت الورقة ، وأغمض عينيه لحظة وقد استغرق في التفكير ، ثم مزّق المذكرة . كان قد جلس في فراشه لكي يقرأها . ثم انه استلقى على ظهره من جديد . وبكيت أنا



أيضاً . كان في ميسوري أن أرى ألم والدي المرير . ولو كنت رسماً إذن لاستطعت أن أرسم صورة للمشهد كله اليوم . إنه لا يزال حياً ، في ذهني ، إلى أبعد الحدود .

إن عبرات الحب تلك قد ظهرت فؤادي ، وغلت خطيئي . والذي خبّر مثل هذا الحب يستطيع أن يعرف ماهيته ، كما تقول التريمة :

إن الذي أصابه سهام الحب

هو وحده الذي يعرف قوته .

وكان هذا ، بالنسبة إليّ ، درساً عملياً في «الاهيمسا» لم يكن في ميسوري ، آنذاك ، أن أقرأ فيه غير محبة أب ، أما اليوم فأنا أعلم أنه «أهيمسا» صرفة . وحين يصبح مثل هذه «الاهيمسا» شاملاً شمولاً كاملاً فعندئذ تحول كل شيء نمته . إنه ليس ثمة حدود لقوتها .

هذا الضرب من الغفران السّي لم يكن طبيعياً بالنسبة إلى أبي . وكنت قد اعتقدت أنه سوف يغضب ، وينطق بأشياء قاسية ، ويضرب جبينه بيده . ولكنه كان هادئاً إلى حد رائع ، واحسب أن ذلك راجع إلى اعترافي الصريح . إن الاعتراف الصريح ، مضافاً إلى وعد بعدم ارتكاب الأثم كرة أخرى أبد الدهر ، إذا ما قُدم إلى من يملك الحق في تقبله ، هو أصفى ضرب من ضروب التوبة . وأنا أعلم أن اعترافي جعل والدي مطمئناً كاملاً عليّ ، وزاد هيبته لي زبادة لا حد لها .

## ٩ . وفاة والدي وعاري المزدوج

إن الحوادث التي سأرويها الآن وقعت وأنا في السادسة عشرة من عمري : كان والدي ، كما سبق في القول ، طريح الفراش بسبب من ناسور ألمّ به . وكنت أنا ، ووالدتي ، وخادمة عجوز ، الساهرين الرئيسيين على صحته . وكنت أقوم

بمهام الممرضة ، التي تنهض في المحل الأول على تضميد الجراح ، وتقديم الدواء إلى أبي ، وتركيب العقاقير كلما كان لها أن تُصنَّع في البيت . فقي كل ليلة كنت أدلك رجليه ، ولا أنسحب إلا عندما يدعوني إلى ذلك ، أو بعد أن يستلم للرقاد . كنت أحب أن أؤدي إليه هذه الخدمة . ولست أذكر أنني أهملتها في يوم من الأيام قط . كان فراغي كله ، بعد أداء واجباتي اليومية ، مقسماً بين المدرسة وبين السهر على صحة والدي . وكنت لا أخرج للترهه ليلاً إلا إذا سمح لي بذلك ، أو كان يشعر بشيء من النشاط .

وكان هذا أيضاً هو الوقت الذي كانت زوجتي تنتظر فيه مولوداً ، وهي حادثة أستطيع أن أقول اليوم أنها عانت عاراً مزدوجاً بالنسبة إليّ . فأنالما ألجم نفسي ، كما كان ينبغي أن أفعل ، وأنا بعد طالب . هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية فإن ذلك الشيق تغلب على ما كنت اعتبرته واجبي في الدرس ، وتغلب على ما كان واجباً أكبر ، هو برّي بوالديّ ، ما دامت الـ « شرافانا » مثلني الأعلى منذ الطفولة . فكل ليلة ، فيما بداي منهمكتان في ذلك رجلي والدي ، كان عقلي يحوم حول حجرة النوم — وكان ذلك أيضاً في الأحوال التي يُحرّم فيها الدين ، والطب ، والحصافة ، على حد سواء ، الاتصال الجنسي . وكنت ابتهج دائماً بأن أعفى من واجبي ، وكنت أمضي نواً إلى حجرة النوم بعد أن أجنو احتراماً لوالدي .

وفي الوقت نفسه ، كانت صحة أبي تتقل من مية إلى أسوأ ، كل يوم . كان الأطباء « الايورفيدكيون » قد جربوا مراهمهم ، وكان « الحكماء » قد جربوا لرقائهم ، وكان الدجالون المحليون قد جربوا عقاقيرهم السرية . وكان جراح انكليزي قد استعمل براعته أيضاً . وكان قد نصح بأجراء عملية جراحية على اعتبار أن هذا الاجراء هو آخر للدواء . ولكن طبيب الأسرة عارض في ذلك . إنه لم يوافق على اجراء جراحة في مثل تلك السنّ العالية . وكان الطبيب بارعاً وشهيراً ، فتغلبت وجهة نظره . وهكذا صُرف النظر عن العملية الجراحية ولم يُجدد العقاقير المختلفة التي اشتريت لمعالجته . ويخيل إليّ أن الجرح كان

خليقاً بأن يلتزم لو سمح الطبيب بإجراء العملية . وكان الجراح الذي نصح بإجراء العملية هو الآخر ذا شهرة طائرة في بومبي . ولكن الله كان قد شاء غير ذلك . ومن دأبناذي يستطيع أن يفكر بالدواء الصحيح حين يكون الموت قاب قوسين ؟ لقد رجع أبي من بومبي حاملاً جميع أدوات العملية الجراحية ، التي أسست الآن غير مجدية . لقد استبد به اليأس من الحياة . وكان الضعف يهدمه أكثر فأكثر ، يوماً بعد يوم ، حتى لقد سُئل في ما بعد أن يؤدي الوظائف الضرورية في الفراش . ولكنه ظل حتى اللحظة الأخيرة يرفض أن يفعل ذلك مصراً دائماً على تجنب مشقة النهوض من فراشه . إن القواعد الفيشنافية في موضوع الطهارة الخارجية قاسية إلى أبعد الحدود .

إن هذه النظافة أساسية من غير شك . ولكن علم الطب الغربي قد علمنا أن جميع الوظائف ، حتى الاستحمام ، يمكن أن تُجرى مع مراعاة النظافة أشد ما تكون الرعاية ، ومن غير أن يصاب المريض بأي انزعاج . ومع بقاء الفراش دائماً نظيفاً لا شائبة فيه . وأنا أميل إلى اعتبار هذه النظافة منسجمة مع الفيشنافية ؛ ولكن إصرار والذي على مغادرة الفراش كان موضع دهشة آنذاك ، ولم أكن أملك نحو هذا الإصرار غير الإعجاب .

وأقبل الليل الرهيب . كان عمي آنذاك في راجكوت . وأنا أذكر الآن ، ذكرى واضحة ، أنه وفد إلى راجكوت بعد أن بلغه أن صحة والذي تتقل من سيء إلى أسوأ . كان كل من الأخوين كلفاً بالآخر إلى حد بعيد . فكان عمي يجلس قرب فراش والذي طوال النهار . ويصر على النوم إلى جانب سريريه بعد أن يسترحنا جميعاً إلى غرف النوم . ولم يجل في خاطر أحد منا أن تلك الليلة سوف تكون هي الليلة المشؤومة . كان الخطر ماثلاً من غير ريب .

كانت الساعة العاشرة والنصف أو الحادية عشرة ليلاً . وكنت أقوم بعملية الدلك : وعرض عليّ عمي أن أكثفي بذلك القدر . فصررت بعرضه هذا ، ومضيت لتوي إلى حجرة النوم . وكانت زوجتي ، زوجتي الغرة الصغيرة ، مستغرقة في النوم . ولكن كيف تنام وأنا هناك ؟ لقد أبقتني من رقادها . وما

هي إلا دقائق خمس أو ست حتى قرع الخادم الباب . فأجفلت مذعوراً . وقال الخادم : « انهض ، أبوك مريض جداً . » وكنت أعرف طبعاً انه مريض جداً ، ومن أجل ذلك حررت ما الذي عناءه تعبير « مريض جداً » في تلك اللحظة : ووثبت من الفراش وثباً .

— « ما المسألة ؟ قل لي ! »

— « لقد قضى والدك نحبه . »

وهكذا انتهى كل شيء . لم يكن في طاقتي أكثر من أن أفرك يدي . لقد شعرت بأعظم الخجل والبؤس . وهرعت إلى غرفة أبي . لقد رأيت أنه لو لم تُعمني شهوتي البهيمية ، إذن لكان في ميسوري أن أوفر على نفسي عذاب الانفصال عن أبي في ساعته الأخيرة . كان ينبغي أن أكون إلى جانبه أدلك رجله ، وكان ينبغي أن يموت بين ذراعي . أما الآن . فكان عمي هو الذي فاز بهذا الامتياز . كان شديد الاخلاص لأخيه الأكبر إلى درجة أكسبته شرف النهوض بعبء خدمانه الأخيرة . وكان والدي قد استشعر قرب المنية فأولماً يطلب قلماً وورقة وكتب : « استعدوا لظقتوس الأخيرة . » ثم انه خلع التيممة عن ذراعه ونزع عقده الذهبي المرصع بالخرز وألقاهما جانباً . وبعد لحظة ، لفظ نفسه الأخير .

إن العار الذي أشرت إليه في فصل سابق كان عار شهوتي الجسدية حتى في تلك الساعة المرجة . ساعة وفاة والدي ، التي كانت تتطلب خدمة يقظي . كانت لطخة لم أوفق قط إلى محوها أو نسيانها ، ولقد قلت في ذات نفسي دائماً انه على الرغم من ان اخلاصي لوالدي لم يعرف حدوداً وعلى الرغم من اني كنت جديراً بأن أضحي بكل شيء من أجله ، فان ذلك الاخلاص قد وُزِن فوجد ناقصاً إلى حد لا يُعتنر لأن عقلي كان في اللحظة نفسها في قبضة الشبق . من أجل ذلك اعتبرت نفسي دائماً زوجاً شهوانياً برغم اني زوج مخلص . وقد احتجت إلى زمان طويل لا تحرر من أصفاد الشهوة . وكان عليّ ان اجتاز تجارب عديدة قبل ان أنقلب عليه .

وقبل أن أختم هذا الفصل الخاص بعاري المزدوج يحسن بي أن أذكر أن

الطفل المسكين الذي وضعت زوجته لم يتنفس هواء الحياة أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة أيام . وهل كان شيء غير هذا متوقفاً ؟ فليتعض جميع المتزوجين بمثلتي هذا

## ١٠ . لمحات من الدين

منذ دخلت المدرسة ، في السادسة أو السابعة ، حتى بلغت السادسة عشرة ، وأنا أتعلم مختلف ضروب الأشياء ما عدا الدين . واستطيع أن أقول اني لم أوفق إلى أن أفوز من مدرسي بما كانوا قادرين على تقديمه إلي من غير أيما جهد يُبذل من ناحيتهم . ومع ذلك فقد واصلتُ اقتطاف الأشياء من ههنا وهناك في بيتي . وإنما أصطنع هنا لفظة « الدين » بمدلولها الاوسع ، فهي تعني بذلك إدراك الذات أو معرفة الذات .

وإذ قد ولدت من أسرة تدين بالعقيدة الفيثناوية فاني كثيراً ما كنت اختلف إلى هيكل « الهافلي » . ولكن هذا الهيكل لم يرق لي في أيما وقت من الاوقات . أنا لم أحب بهرجه وأبيهته . كذلك سمعت اشاعات تتحدث عن الاعمال اللااخلاقية التي تمارس فيه ، ففقدت كل شوق إليه أو اهتمام به . وهكذا لم يكن في ميسوري أن أفيد شيئاً من « الهافلي » .

ولكن ما أخفقت في الفوز به هناك ، كسبتهُ من حاضنتي ، وهي خادِم من خدم الأسرة عجوزٌ كانت تحيطني بحنان لا أنساه . فقد قلت من قبل اني كنت أخشى الاشباح والأرواح . فاقترحت راميها - فقد كان هذا اسمها - ان اكرر « الرامانا » بوصفها علاجاً لهذا الخوف . وكان إيماني بها أعظم من إيماني بدوائها ، وهكذا بدأت في تلك السن الغضة أكرر « الرامانا » لكي أداوي خوفاً من الاشباح والأرواح . ولم يُعمر ذلك غير فترة قصيرة طبعاً ، ولكن البذرة التي غرست في الطفولة لم تُغرَس على غير طائل . فأنا أعتقد ان هذه البذرة التي غرستها تلك المرأة الطيبة ، راميها ، هي صاحبة الفضل في

اني أجد اليوم في «الرامايانا» علاجاً لي لا يتطرق إليه الخطأ .  
 وحوالي هذه الفترة تقريباً ، هياً أحد أبناء عمي ، وكان متعصباً للرامايانا (١)  
 أقول هياً لي ولأخي الثاني ان أنعلم ان «رامراكشا» . وحفظناها عن ظهر قلب  
 وعودنا أنفسنا أن نتلوها كل صباح بعد الحمام . وأقننا على تلك العادة ما بقينا في  
 بورباندر . وما ان وصلنا إلى راجكوت حتى نسيناها . ذلك اني لم اكن كثير  
 الايمان بها . وإنما كان في جملة دوافعي إلى تلاوتها اعترازي بانني قادر على تلاوة  
 ال «رامراكشا» عن ظهر قلب من غير ما خطأ في اللفظ .

بيد ان ما ترك انطباعة عميقة في نفسي كان قراءة «الرامايانا» أمام والدي :  
 فخلال فترة من مرضه كان والدي في بورباندر . وهناك كان من دأبه أن يستمع  
 كل يوم للرامايانا . وكان قارئها شديد التعصب للراما ، وكان يدعى لادها  
 ماهاراج من بيلشفار . وقد قيل فيه إنه شفى نفسه من الجذام لا بدواء من الأدوية  
 ولكن بمعالجة الاجزاء المريضة بأوراق «بيلفا» ، اطرحت بعد ان قدّمت إلى  
 صورة «ماهاديفا» في هيكل بيلشفار ، ويرديد «الرامايانا» على نحو نظامي :  
 كان إيمانه - كما قالوا - قد جعله سليماً معافى . وقد يكون هذا صحيحاً وقد  
 لا يكون . فقد آمنّا بالقصة على أية حال . ومن الأمور الثابتة ان لادها ماهاراج  
 كان بريء الجسد كل البراءة من الجذام عندما شرع يتلو «الرامايانا» . كان  
 ذا صوت شجي . وكان ينشد ال «دوهاس» ( الثنائيات ) وال «تشويس»  
 ( الرباعيات ) ويشرحها فانياً في الحديث ومعلقاً بسامعيه معه . ولا ريب في اني  
 كنت في الثالثة عشرة آنذاك ، ولكنني أذكر جيداً ان تلاوته خلبت لبسي . وهذا  
 ما رفع الأساس لكلفني العظيم بالرامايانا . وأنا اعتبر اليوم «الرامايانا» لتولاميداس  
 أعظم كتاب في الادب التعبدية كله .

وبعد بضعة أسابيع وقدّنا إلى راجكوت . لم يكن ثمة تلاوة للرامايانا :  
 بيد أن ال «بهاغافات» ( ٢ ) كانت تُتلى هناك كل يوم من أيام

١ Ramayana ملحمة سنسكريتية تروي مغامرات راماشاندر . (المغرب)

٢ Bhagavat جزء من الملحمة الهندوسية ، المهاجراته ، ويقع في ثمانية عشر فصلاً . (المغرب)

ال « إيكاداشي » (١) وكنت أسمع للتلاوة في بعض الأحيان . وكان المنشد غير ملهم . وأنا اليوم أعتبر ال « بهاغافات » كتاباً قادراً على إثارة الحرارة الدينية . ولقد قرأته في اللغة الكوجاراتية في متعة عارمة . ولكنني حين سمعت أجزاء من الأصل يتلوها البانديت مادان موهان مالاфия خلال صومي الذي استمر واحداً وعشرين يوماً وددت لو سمعته في طفولتي من مثل هذا الرجل المتفاني فيه ، لكي يكون في ميسوري أن أنشأ على الإعجاب به وأنا غصص الإهاب . ذاك بأن الانطباعات التي تم في تلك السن تمتد جذورها عميقة في طبيعة المرء . وإن أسفي لا يتقضي لأن حظي لم يكن حسناً إلى حد يمكنني من الاستماع إلى كتب أخرى جيدة من هذا النوع تتل خلال تلك الفترة .

ومهما يكن من أمر . ففي راجكوت رسخ في نفسي تسامح مبكر نحو جميع فروع الديانة الهندوسية والديانات الشقيقة . ذلك أن أبي وأمي كانا يزوران « الماهلي » . كما كانا يزوران هياكل « شيفا » و « راما » . وكانا يصطحباننا أو يبعثان بنا نحن الصغار إلى هناك . وكان الرهبان البانيون أيضاً يزورون أبي بين الفينة والفينة . بل كانوا كثيراً ما يخرجون على عمودهم فيتناولون الطعام منا — نحن غير البانيين . وكانوا يتحدثون مع أبي في موضوعات دينية وديوية .

وكان لأبي ، كذلك . أصدقاء مسلمون وبارسيون (٢) . وكان هؤلاء يتحدثون عن أديانهم ، فيسمع لهم دائماً ، في احترام ، وفي كثير من الأحيان في شوق . وإذا كنت أقوم بدور الممرضة بالنسبة إلى والدي ، فقد كانت الفرصة كثيراً ما تتبع لي شهود هذه الأحاديث . هذه الأشياء كلها اجتمعت لتفرض في نفسي تسامحاً نحو الأديان جميعاً .

ولكن المسيحية وحدها كانت مستثناة في ذلك العهد . لقد داخلي ضرب من الكره لها . ولم يكن ذلك من غير سبب . ففي تلك الأيام كان من دأب المبشرين

١ Ekadashi اليوم الحادي عشر من عمر القمر المضي ، والنصف القادم من الشهر القمري .

٢ البارسيون هم الزرادشتيون في الهند ، ويتحدرون من الفرس الذين استقروا هناك خلال القرن الثامن . (المغرب)

المسيحيين أن يقفوا عند زاوية قرب المدرسة الثانوية ويثربوا المواعظ : صابرين الشائم على الهندوس وآلهم . ولم أقو على احتفال ذلك . ولا بد اني وقتت هناك لاسمع حديثهم مرة واحدة ليس غير ، ولكن تلك المرة الواحدة كانت كافية لكي تنهاني عن إعادة التجربة . وحوالي تلك الفترة ، سمعت أن هندوسياً شهيراً اعتنق النصرانية . وكانت المدينة كلها تتحدث بأنه تعين عليه . حين عمّد ، أن يأكل لحم البقر ويشرب الخمر ، وأنه تعين عليه أيضاً أن يغير ملابسه . وأنه شرع منذ ذلك الحين يظهر في زي أوروبى في جملة بقعة كان يعتمر بها . وأثار ذلك أعصابى . لقد قلت في ذات نفسي إن الدين الذي يُكره المرء على أكل لحم البقر ، وشرب الخمر ، وتغير ملابسه ، هو دين لا يستحق هذا الاسم . ولقد سمعت أيضاً أن ذلك المسيحي الجديد كان قد شرع يطعن في ديانة أجداده وملابهم ووطنهم ، وكل هذه الأشياء ولدت في نفسي بغضاً للنصرانية .

ولكن كوني قد تعلمت التسامح مع الأديان الأخرى لم يتغير أنه كان يعمر قلبي أيما إيمان حي بالله . واتفق لي في هذه الفترة تقريباً ، أن وقتت على كتاب « مانوسمريتي » (١) الذي كان بين مجموعة كتب والدي . ولم اعجب كثيراً بقصة الخليقة والأشياء المشابهة التي فيه ، ولكنها على عكس ذلك جعلتني أميل بعض الميل نحو الألحاد .

وكان لي ابن عم - وهو لا يزال حياً - كنت أقدر عقله تقديرأ كبيراً . فرجعت إليه باسطاً شكوكي ، ولكنه لم يستطع أن ينجيني منها . لقد ردّني مزوداً بهذا الجواب : « عندما تكبر ، سوف تصبح قادراً على حل هذه الشكوك بنفسك . هذه الاسئلة ينبغي أن لا تُسأل في سنك . » لقد أسكت ، ولكن لم يُسرّ عني . كانت الفصول الخاصة بالغذاء وما إليه في كتاب « مانوسمريتي » تبدو لي متناقضة مع العادات اليومية المتبعة . ولم أقع على جواب لا عن شكوكي ولا عن هذا التناقض أيضاً . وقلت لنفسي : « عندما ينمو عقلي أكثر ، وعندما

---

١ Manusmriti ، مجموعة قوانين مانو Manu المشرع الهندوسي . ولما عنتم قوة الدين وسلطانه .



تزداد مطالعائي ، سوف أفهم ذلك فهماً أفضل .  
وعلى أية حال قال « مانوسميرتي » لم يعلمني « الاهيمسا » آنذاك . وقد  
رويت من قبل قصة أكلني اللحم . وبدأ وكأن الـ « مانوسميرتي » يريد ذلك :  
وشعرت أيضاً أن قتل الثعابين والبق وأشباهها عملٌ أخلاقي لا غبار عليه . واذكر  
أنني قتلت في تلك السن بعض البق وغيره من الحشرات معتبراً ذلك واجباً يتعين  
عليّ أدائه .

ولكن شيئاً واحداً تأصلت جنوره في نفسي : الاعتقاد بأن الاخلاق أساس  
الأشياء ، وان الحقيقة جوهر الأخلاق كلها . وغدت الحقيقة هدي الأوحـد .  
لقد بدأت تعاضم كل يوم ، ومنذ ذلك الحين ومفهومها آخذ عندي في  
الانساع ، أيضاً .

كذلك أسرت مقطوعة تعليمية كوجارانية عقلي وقلبي . ولقد أمت الفريضة  
التي تقول بها - قابل الشر بالخير - مبدأي الموجبة ، ولقد شغفت بها شغفاً  
عظيماً جعلني أبداً تجارب كثيرة فيها . وها هي ذي تلك الآيات الرائعة :

مقابل قدح من الماء أعط وجبة طعام عظيمة ؛  
ومقابل تحية لطيفة انحن الى الأرض في حرارة ؛  
ومقابل الدرهم البسيط قدم ديناراً ذهبياً ؛  
وإذا أنفدت حباتك ، فلا تبخل بحباتك .  
ذلك ما توحى به كلمات الحكماء وأفعالهم ،  
إنهم يكافئون كل خدمة صغيرة بعشرة أمثالها .  
ولكن النبيل الحقيقي يعتبر الناس جميعاً كلاً واحداً  
ويردد على الاساءة ، وفي سروره . بالاحسان .

## ١١ . الاستعداد للسفر الى انكلترة

واجتزت امتحان التريكيوليشين عام ١٨٨٧ وكان يجري ، آنذاك ، في  
مركزين : أحمد آباد وبومباي . وكان طبعياً ان يؤدي فقر البلاد العام الى ان

يفضل طلاب كاثياواد المركز الاقرب والأرخص . كذلك قضى فقر أسرتي بالاختيار نفسه . وكانت تلك أولى رحلاتي من راجكوت إلى أحمد آباد ، ولقد قمت بها أيضاً من غير رفيق .

وأرادني أفراد الأسرة الذين كانوا أكبر مني سناً أن أتابع دروسي في الكلية بعد التريكيولشين . وكانت في بهافناغار كلية كما كان في بومباي كلية ، وإذا كانت الأولى أرخص فقد قررت الذهاب إلى هناك والالتحاق بكلية سامالداس . ولقد شخصت إلى هناك ، ولكنني وجدت نفسي تائهاً إلى أبعد الحدود . كان كل شيء عسيراً . فلم يكن في ميسوري أن أتابع محاضرات الاساتذة ، بله الاستمتاع بها . ولم تكن تلك غلظتهم . فقد كان أساتذة تلك الكلية معدودين في الطبقة الأولى . ولكنني كنت فجاً بالغ الفجاجة . وعند نهاية الفصل الأول رجعت إلى بلدي .

وكان لنا في مافجي دايف ، الذي كان برهياً ذكياً مثقفاً ، صديق قديم ومستشار للأسرة . وكان قد أقام على اتصاله بالأسرة حتى بعد وفاة والدي . واتفق ان زارنا خلال عطاتي . وفي أثناء حديث مع أمي وأخي الأكبر تساءل عن دروسي ، وإذا عرف اني اتلقى العلم في كلية سامالداس : قال : « ان الأيام قد تغيرت . وليس في استطاعة أي منكم أن يخلف أباه في منصبه من غير ثقافة ملائمة . وما دام هذا الغلام لا يزال يواصل دروسه ، فيجب ان تتطلعوا كلكم اليه ليحفظ بهذا المنصب . ولسوف يحتاج إلى اربع سنوات أو خمس سنوات لينال درجة بكالوريوس في الآداب التي منوّهه في أحسن الأحوال لعمل لا يزيد راتبه على ست روبيات ، لالمنصب « الديوان » . ولو انه انصرف إلى دراسة القانون ، مثل ابني ، اذن لاقتضاه ذلك فترة أطول أيضاً . وعندئذ يصبح ثمة جمهرة من المحامين الطامح كل منهم إلى أن يصبح « ديواناً » . اني أفضل أن تبصروا به إلى انكلترا . فاني كيفالرام يقول ان من السير جداً على المرء أن يصبح محامياً هناك . ولن تنقضي ثلاث سنوات حتى يرجع . والنفقات كلها لن تتجاوز أربعة آلاف روبية ، أو خمسة آلاف روبية . فكثراً بذلك

المحامي الذي رجع اللحظة من انكلترة . أي حياة أنيقة يحياها ! ان في استطاعته أن يفوز بمنصب « الديوان » بمجرد أن يحرك شفتيه مبدئياً الرغبة في ذلك . وأنا أنصحكما ، وألح في النصيحة ، بأن ترسلا موهانداس إلى انكلترة ، هذه السنة بالذات . إن لكيفالرام أصدقاء عديدين في انكلترة . وسوف يعرفه اليهم وبذلك لن يلقى موهانداس صعوبة ما في الحياة هناك . »

والثفت جوشيحي - كذلك كنا ندعو مافجي العجوز - إليّ في ثقة كاملة وسألني : « ألا تفضل الذهاب إلى انكلترة على الدراسة هنا ؟ » ولم يكن ثمة ما هو أدعى إلى اغتيابي . لقد كنت أحاول الفرار من دروسي العسيرة . وهكذا وثبت لدي سماعي ذلك الاقتراح وقلت : « خير البر عاجله » . ولم يكن من اليسير اجتياز الامتحانات بسرعة . أليس في امكانهم ان يرسلوني للتخصص في الطب ؟

وقاطعني أخي قائلاً : « ان والدك لم يكن يجب ذلك قط . كان يفكر فيك عندما قال اننا نحن الفيشنايين ينبغي ان لا تكون لنا أبا صلة بتشرريح الاجساد الميتة . لقد كان والدنا يعترم ان يجعل منك محامياً . »

فقال جوشيحي في لهجة جهورية : « لست أعترض على الصناعة الطبية كما كان يفعل غاندهيجي . ان الـ « شاستراس » الخاصة بنا ليست ضدها . ولكن الشهادة الطبية لن تجعل منك « ديواناً » وأنا أريد أن أراك « ديواناً » أو شيئاً أفضل من ذلك . ان أمكن . فهذه الطريقة وحدها تستطيع ان تسبغ عنايتك الواقبة على اسرتك الضخمة . إن الأيام لتغير في سرعة ، والحياة لتصبح أعسر يوماً بعد يوم . من أجل ذلك فأن اعقل عمل تقوم به هو أن تصبح محامياً . » ثم انه الثفت إلى أبي وقال : « والآن . يتعين عليّ ان أنصرف . أرجوك أن تفكري في ما قلته لكم . وحين أفد عليكم مرة ثانية أتوقع ان أسمع انه يستعد للسفر إلى انكلترة . ولا تنسي أن تعلميني إذا وجدت ان في استطاعتي أن أقوم بخدمة مهما نكن . في هذه السبل . »

ومضى جوشيحي لسيله ، وبدأت أبني قصوراً في الهواء .

واستبدّ القلق بأخي الأكبر . إذ أين يجد المال لارسالي إلى لندن ؟ وهل كان من الحكمة ترك شاب مثلي يسافر وحده إلى ما وراء البحار ؟

وأصاب الارتباك أمي على نحو موجه . أنها لم تستخ فكرة الانفصال عني . وهذه هي الطريقة التي حاولت بها أن تصرفني عن هذا الهدف ، فقد قالت لي : « إن عمك هو الآن أرشد أعضاء الأسرة . إن علينا أن نستشيرَه قبل أي انسان . فإذا ما وافق فعندئذ ندرس المسألة . »

وكانت عند أخي فكرة أخرى . لقد قال لي : « إن لنا حقاً على ولاية بورباندر . ومستر ليلي هو الحاكم الإداري . وهو يحترم أسرتنا احتراماً كبيراً ، وهو صديق لعمك . فمن الجائز أن يوصي بمنحك مساعدة حكومية ما لإكمال ثقافتك في انكلترة . »

وأعجبني ذلك كله ، وأخذت الأهبه للسفر إلى بورباندر . ولم يكن خمسة سكة حديد في تلك الأيام . كانت الرحلة تستغرق خمسة أيام بعربات الثيران . ولقد سبق مني القول اني كنت جباناً . ولكن جبني تلاشى في تلك اللحظة أمام رغبتي في الذهاب إلى انكلترة ، هذه الرغبة التي استحوذت عليّ استحواداً . فاستأجرت عربة ثيران حتى دوراجي ، ومن دوراجي استأجرت جمللاً حتى أصل إلى بورباندر قبل يوم واحد . كانت تلك هي المرة الأولى التي أمتطي فيها من جمل .

ووصلت آخر الأمر ، وجنوت احتراماً لعمي . وأنبأته بكل شيء . ففكر في الأمر وقال : « أنا لست وافقاً من أن من الممكن للمرء أن يبقى في انكلترة من غير أن يسيء إلى دينه . وعلى أساس من كل ما سمعت أجدني فريسة الشك والارتياب . فحين أجتمع إلى هؤلاء المعاهدين لا أرى فرقاً بين حياتهم وحياة الأوروبيين . انهم لا يجدون حرجاً في تناول الاطعمة المحرمة . والسيجار لا يغازق أفواههم أبداً . وهم يرتدون كالا انكليز ملابس وقحة لا تعرف الحياء . وكل هذا لا يتفق مع رغبتنا في الحفاظ على تقاليد أسرتنا . اني سوف أحج في وقت قريب : وليس باقياً من عمري غير بضع سنوات أحياء . وعلى عتبة الموت ،

كيف أجزؤ على الاذن لك بأن نذهب إلى انكلترا ، بأن تعبر البحار ؟ ولكني لن أعرض سيلك . ان موافقة أمك هي الحاسمة فعلاً . فإذا ما وافقتك على السفر . فليس لي إلا ان أمنّي لك التوفيق ! قل لها اني لن أندخل في هذه المسألة ، سوف تمضي مزوداً ببركتي . .

فقلت :

— « لم أكن أتوقع منك أكثر من هذا . سوف أمضي الآن وأحاول اقناع أمي . ولكن ألا ترغب في أن توصي بي مسرّ ليلي ؟ »

فقال :

— « وكيف أستطيع ذلك ؟ ولكنه رجل طيب . اطلب مقابله وأخبره عن صلتك بي . وليس من ريب في أنه سوف يستقبلك ، وقد يمد اليك يد العون أيضاً . »

ولست أستطيع أن أقول لماذا لم يحملني عمي توصية مكتوبة . وأنا أذكر الآن : ذكرى واهنة ، انه تردد في أن تكون له يد مباشرة في سفري إلى انكلترا . هنا السفر الذي كان في رأيه عملاً منافياً للدين .

وكتب إلى مسرّ ليلي ، فرغب إليّ في مقابله في مقره . وقد رأيته وأنا أرثقي السلم فقال في اقتضاب :

— « فز بشهادة البكالوريوس في الآداب أولاً ثم تعال وقابلني . ليس في استطاعتي أن أقدم اليك الآن أيما مساعدة . »

قال ذلك وأسرع في ارتقاء السلم . وكنت قد قمت باستعدادات مضنة للاجتماع به . كنت قد حفظت في كثير من العناية بضع جمل . وكنت قد انجبت أدنى ما يكون الانحناء وحيته بكنتا يدي . ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح .

وفكرت في حلّ زوجتي . وفكرت في أخي الأكبر الذي كان لي فيه أعظم النخبة . كان سخياً حتى التطرف . وكان يحبني كما يحب ولده .

ورجعت من بورباندر إلى راجكوت . ورويت كل ما حدث . واستشرت

جوشيجي الذي أشار عليّ بالذهاب إلى حد الاستدانة إذا اقتضى الأمر ذلك .  
واقترحت ان ابيع حلى زوجتي التي قد تعود عليّ بمبلغ يتراوح ما بين ألفي روبية  
وثلاثة آلاف روبية . ووعدت أمي بأن تجيئي بالمال بطريقة ما .  
بيد ان أمي كانت ما تزال راغبة عن هذه الرحلة . لقد بدأت تقوم بتحريّات  
دقيقة . كان شخص ما . قد أنبأها ان الشبان يضلون السبيل في انكلترة . وكان  
شخص آخر قد أنبأها انهم يتعودون هناك أكل اللحم . وكان ثالث قد زعم  
انهم لا يستطيعون أن يعيشوا هناك من غير خمر . وسألني : « ما رأيك في هذا  
كله ؟ » فقلت : « ألا تثقين بي ؟ » اني لن أكذب عليك . أقسم لك اني لن  
أمسّ أبداً من هذه الأشياء . ولو قد كان ثمة خطر كهذا هل كان جوشيجي  
يأذن لي بالذهاب ؟ »

فقلت :

« أستطيع ان أثق بك . ولكن كيف أستطيع أن أثق بك في أرض نائية ؟  
أكاد أفقد الرشد : ولست أدري ما أصنع . سوف أسأل يشارجي سوامي . »  
وكان يشارجي من طائفة البانيا في الأصل ولكنه كان قد أمسى الآن  
راهباً يانياً . وكان هو الآخر مستشاراً للأسرة مثل جوشيجي . فعدت إليّ  
يد المساعدة : وقال : « سوف أحمل الصبي في خشوع على أن يقدم  
الايمان الثلاثة : وعندئذ يكون في ميسوره أن يذهب . » وحلّفتني اليمين ،  
فأقسمت أن لا أمس الخمر ، والمرأة ، واللحم . حتى إذا تمّ ذلك  
أذنت لي أمي في السفر .

وأقامت المدرسة الثانوية حفلة وداع تكريماً لي . فكان من غير المألوف  
لشباب من راجكوت أن يسافر إلى انكلترة . وكنت قد كتبت بضع كلمات  
أشكر فيها المشرفين على الحفلة . ولكني لم أستطع أن أتلوها إلاّ بتلعثم  
وبشق النفس . وأذكر كيف أصاب اللوار رأسي ، وكيف ارتجف  
جسدي كله عندما وقفت لأقرأها .

وسافرت إلى بومباي مزوداً ببركات الراشدين من أفراد الأسرة :

وكانت هذه هي أولى رحلاتي من راجكوت إلى بومباي . ورافقني أخي :  
ولكن ما أشد الصواب وما أكثر المزالق ! لقد كانت ثمة عقاب ينبغي أن  
تواجهه في بومباي .

## ١٢ . منبوذ ...

وبأذن من أمي وبفيض من دعواتها انطلقت في ابتهاج وتهلل إلى بومباي  
تاركاً زوجتي وطفلاً ابن أشهر معدودة . ولكن ما ان وصلت إلى هناك حتى  
أخبر الاصدقاء أخي أن المحيط الهندي يكون متلاطم الامواج في شهري  
حزيران ( يونيو ) ، وتموز ( يوليو ) . ولذا كانت هذه هي أولى رحلاتي ،  
فليس ينبغي أن يُسمح لي بركوب البحر حتى شهر تشرين الثاني ( نوفمبر ) :  
وروى أحدهم أيضاً أن ريحاً هوجاء قد أغرقت مركباً بخاريّاً . واستبد القلق  
بأخي ، ورفض أن يغامر بالساح لي في امتطاء متن البحر في الحال . لقد  
خلفني مع صديق في بومباي ، ورجع إلى راجكوت ليستأنف عمله . وانما فعل  
ذلك بعد أن أودع أخاً لزوجتي نفقات الرحلة ، وبعد ان ترك كلمة لبعض  
الاصدقاء يسألهم فيها أن يقدموا اليّ أيما مساعدة قد أحتاج إليها .  
وفرغ صبري لطول الانتظار في بومباي . كنت أحلم أحلاماً  
موصولة بالذهاب إلى انكلترة .

وفي غضون ذلك كان أبناء طبقتي الاجتماعية قد امتاحوا غضباً لاعتراضي  
السفر إلى ما وراء البحار . فلم يسبق لأحد من طائفة « البانيا » أن سافر إلى  
انكلترة ، حتى الآن ، وإذا جروئت أنا على القيام بذلك فينبغي أن أحاسب على  
هذا حساباً عييراً . ودُعيت إلى اجتماع عام لطبقتي الاجتماعية ، وكلفت أن أمثل  
أمام هذه « المحكمة » ففعلت . أما كيف استطعت ان احشد شجاعتي ، فجاءة ،  
فذلك ما لا أدريه . إن شيئاً لم يوقع الخوف في فؤادي ، ومن غير ما تردد البتة  
مَنَنتُ أمام المؤتمرين . وكان « الشيث » - رئيس الطائفة - نسبياً بعيداً من

أنسابي ، وصديقاً حميماً لوالدي ، فوجه إلى الخطاب قائلاً :  
- « نعتقد الطائفة ان رغبتك في الذهاب إلى انكلترا ليست عملاً صالحاً ،  
إن ديننا يحرم السفر إلى ما وراء البحار . ولقد سمعنا كذلك انه ليس من البير  
على المرء أن يعيش هناك من غير أن يحط من شرف ديننا . إنه مُكره على أن  
يأكل ويشرب مع الأورويين ! »  
فكان جوابي على ذلك ان قلت :

- « لست أعتقد ان مما يتناقض وديننا أن أذهب إلى انكلترا . أنا اعترم  
الذهاب إلى هناك لمتابعة دراستي . وقد أقسمت لأمي يمينا مغلفة على أن أستكف  
عن ثلاثة أشياء تخافونها أكثر ما يكون الخوف . وأنا واثق من أن ذلك سوف  
يبقيني سالماً . »

فقال « الشيث » :

- « ولكننا نقول لك إنه ليس من الممكن أن تحتفظ بديننا هناك . أنت  
تعرف صلي بأبيك . ويتعين عليك أن تصغي لنصيحتي . »  
فقلت :

- « أنا أعرف صلتك هذه . وأنت عندي بمثابة أحد أفراد اسرني  
الراشدين . ولكني قليل الحيلة في هذه المسألة . أنا لا أستطيع أن أغير قراري  
القاضي بالذهاب إلى انكلترا . ان صديقاً لأبي ومستشاراً لاسرنا - وهو  
برهمي عالم - لا يرى أي ضرر في ذهابي إلى انكلترا . ولقد أجازت لي أُمي  
واجاز لي أخي ذلك . »

- « ولكن أنتنكر لأوامر الطائفة ؟ »

- « أنا في الواقع عاجز لا حول لي ولا طول . وأحسب أن على الطائفة  
أن لا تتدخل في هذه المسألة . »

وكان في هذا الجواب ما أثار غضب « الشيث » . فوجه إلي عبارات مهينة .  
وجلس رابط الجأش . وهكذا نطق « الشيث » بحكمه : « ان هذا انغلام سوف  
يعامل معاملة المتبوزين ، منذ اليوم . وكل من يساعده أو يذهب لوداعه في الميناء



سوف يعاقب بغرامة قدرها روبية وأربع آئات .

ولم يكن لهذا الحكم أيما أثر في نفسي ، فاستأذنت « الشيث » في الانصراف ولكنني تساءلت عن الوقع الذي سيكون لذلك الحكم في نفس أخي . ومن حسن الطالع انه احتفظ بشبانه ورباطة جأشه وكتب مؤكداً لي اني أسافر بموافقته ، على الرغم من قرار « الشيث » .

بيد أن الحادثة جعلتني أكثر تلهفاً على الابحار . إذ ما الذي يحدث إذا ما وفقوا إلى الضغط على أخي ؟ لنفرض ان شيئاً غير متوقع قد حدث ؟ وفيها أنا مشغول البال هكذا بسبب من تلك الورطة سمعت ان « وكيلا » كان يعتزم السفر إلى انكلترا بعد ان دُعي إلى امتحان المحاماة ، على متن سفينة مبحرة في الرابع من أيلول ( سبتمبر ) . واجتمعت إلى الأصدقاء الذين كان أخي قد أوصاهم بي . فاتفقوا أيضاً على انه ليس من الخيز أن أضيع فرصة السفر مع رفيق ممتاز ميل هذا الرجل . ولم يكن ثمة وقت يُضَيِّع . فأبرقت إلى أخي طالباً الاذن ، فمنحني إياه . وسألت أخا زوجتي أن يعطيني المال . ولكنه أشار إلى قرار « الشيث » وقال إنه لا يستطيع أن يفقد اعتباره ومكانته . ثم اني فزعت إلى صديق من أصدقاء الاسرة وسألته أن يزودني بمقدار من المال يمكنني من دفع اجرة السفر وشراء بعض الحاجات الصغيرة المتنوعة ، وان يسترد قيمة هذا الدين من أخي . ولم يكتب هذا الصديق الطبيب بالتزول عند رغبتني بل لقد شجعني على المضي قدماً أيضاً . ولقد شكرت له فضله شكراً حاراً . فبجزء من المال سارعت إلى شراء تذكرة السفر في الحال ، ثم كان عليّ بعد ذلك أن أتزود للرحلة . وكان لي صديق آخر ذو خبرة في هذه المسألة . لقد أعد لي الملابس وما إليها . وبعض هذه الملابس أحببته وبعضها لم أحبه البتة . فعقدت الرقبة ، التي ابتهجت بلبسها في ما بعد ، كانت بغية إلى نفسي آنذاك . ونظرت إلى السرة القصيرة نظرتني إلى شيء قليل الاحتشام . ولكن هذا البغض لم يكن شيئاً مذكوراً إلى جانب رغبتني في الذهاب إلى انكلترا ، هذه الرغبة التي كانت تغطي عندي على كل شيء . كذلك تزودت بمقدار كافٍ من المؤن ، بل بمقدار زائد على حاجات الرحلة ،

وحجز لي أصدقائي سريراً في حجرة السفينة نفسها مع السيد تريامبا كراي مازمودار : الوكيل الآنف الذكر . ليس هذا فحسب ، بل لقد أوصوه بي . وكان رجلاً ناضجاً ذا خبرة ، وكان يعرف العالم . أما أنا فكنت لا أزال غلاماً في الثامنة عشرة نعوزه الخبرة ومعرفة العالم . وقال السيد مازمودار لأصدقائي ان لا يقلقوا عليّ .

وأخيراً أبحرت من بمباي في الرابع من أيلول ( سبتمبر ) .

### ١٣ . في لندن آخر الأمر

ولم أشعر بدوار البحر البتة . ولكن الملل أخذ يستبد بي ، مع الأيام . فقد استشعرت الخجل حتى وأنا أتكلم مع خادم السفينة . وكنت غير متعود التحدث بالانكليزية . وباستثناء السيد مازمودار كان جميع المسافرين الآخرين في البهو الثاني من الانكليز . ولم يكن في استطاعتي أن أتحدث إليهم . ذلك اني لم أكن قادراً على فهم ملاحظاتهم . إلا نادراً : عندما يقبلون للتحدث معي . حتى إذا فهمت هذه الملاحظات كنت عاجزاً عن الاجابة . كان عليّ ان اصوغ كل جملة في ذهني . قبل أن أنطق بها . وكنت أجهل اصطناع الشوكة والسكين جهلاً كاملاً . ولم أكن أملك الجرأة على أن أسأل أي لون من ألوان جدول الطعام خال من اللحم . وهكذا لم أتناول وجبات طعامي على المائدة قط ، بل كنت أتناولها دائماً في حجرتي . وكانت تتألف في المحل الأول من حلويات وفاكهة كنت قد حملتها معي . أما السيد مازمودار فلم يجد صعوبة ما : وكان يختلط بركاب السفينة جديعاً . كان ينجول على ظهر السفينة في حرية : على حين كنت أحتجى أنا في الحجرة طوائف النهار . غير مغامر في البروز على ظهر السفينة إلا حين لا يكون ثمة غير قليل من الركاب . ولم يكف السيد مازمودار عن التوسل اليّ أن أتصل بالركاب وأتحدث إليهم في حرية . لقد قال لي ان المحامين ينبغي أن تكون هم ألسنة ضوال ، وقصّ عليّ تجاربه القانونية . ونصحني بأن انتهر كل

فرصة متاحة فأتحدث بالانكليزية ، وبأن لا أبالي بالأخطاء التي كانت من غير شك أمراً لا سبيل إلى اجتنابه حين يتكلم المرء لغة أجنبية . ولكن ذلك كله كان عاجزاً عن نخبتي من التغلب على الخجل .

وجنح الي أحد الركاب الانكليز في لطف : واجتذبتني إلى التحدث معه . كان أكبر مني سناً . ولقد سألتني ماذا آكل ، ومن أنا ، وإلى أين كنت ذاهباً ولماذا كنت خجلاً وما إلى ذلك . وقد نصحتني كذلك بأن أتناول الطعام على المائدة . وضحك لاصراري على اجتناب اللحم وقال في طريقة ودّية عندما بلغنا البحر الأحمر : « لا بأس عليك من ذلك حتى الآن ، ولكنك سوف تعيد النظر في قرارك عندما تبلغ خليج بسكاي . إن الجو في انكلترا بارد إلى درجة تجعلك عاجزاً عن الحياة هناك من غير لحم . »

فقلت :

« ولكني سمعت ان الناس يستطيعون أن يعيشوا هناك من غير أن يأكلوا

اللحم . »

فقال :

« ثق ان ذلك تلفيق . فليس في علمي أن احداً يحيا هناك من غير أن يكون آكل لحم . ألا ترى أنني لا أسألك أن تشرب الخمر ، على الرغم من انني احتسبها ؟ ولكنني أعتقد ان عليك أن تأكل اللحم ، لأنك لا تستطيع أن تعيش بدونه . »

« أشكرك على نصيحتك الكريمة ، ولكنني أفسمت لأمي يمينا مغلظة ان لا أمس اللحم ، ومن أجل ذلك لا أستطيع أن أفكر في تناوله . وإذا انتضح لي ان من المستحيل أن أعيش في انكلترا بدونه فعندئذ أفضل العودة إلى الهند على أن آكل اللحم لبقاء هناك . »

ودخلنا خليج بسكاي : ولكنني لم أستشعر الحاجة لا إلى اللحم ولا إلى الخمر . وكنت قد نصحت بأن أجمع شهادات تؤذن بأنني استنكفت عن أكل اللحم ، فسألت الصديق الانكليزي أن يقدم الي شهادة كهذه . فأعطاني إيها في سرور ،

فاحتفظت بها فترة من الزمن حتى إذا رأيت في ما بعد ان في استطاعة المرء أن يفوز بمثل هذه الشهادة على الرغم من انه لا كل لحم ، فقدت تلك الشهادة سحرها في نظري . وإذا كانت كلمتي غير موثوق بها فأني فائدة ترجى من امتلاك شهادة خاصة بهذه المسألة ؟

وأبأ ما كان ، فقد وصلنا إلى ساوثامبتون ، على ما أذكر ، في يوم من أيام الأحد . وكنت قد ارتديت في السفينة بذلة سوداء ، بعد ان احتفظت بالبذلة الفلانلة البيضاء التي اشتراها لي أصدقائي ، لألبسها عندما نطأ قدماي البر . وكنت قد اعتقدت ان الملابس البيضاء خلقة بأن ثلاثي أكثر عندما أطأ الساحل ، ومن أجل ذلك هبطت إلى الأرض الانكليزية بالفلانلة البيضاء . وكانت تلك الايام هي الايام الأخيرة من أيلول ( سبتمبر ) ، ووجدت اني كنت الشخص الأوحده اللابس مثل تلك الثياب . وأودعت وكيل شركة غريندلي جميع أمتعتي ، وفي جملتها المفاتيح ، حين رأيت ان كثيرين غيري قد فعلوا ذلك ، وان علي أن أحذو حذوهم

وكنت أحمل أربع توصيات : إلى الدكتور ب. ج. مهتا ، والسيد دالباترام شو كلا ، والأمير راجيتسينهجي ، ودادابهاي ناووروجي . وكان أحد ركاب السفينة قد أشار علينا بالتزول في فندق فيكتوريا في لندن . وهكذا ذهبت أنا والسيد مازمودار إلى هناك . وكنت قد بدأت استشعر الخجل لكوني الشخص الوحيد اللابس ثياباً بيضاء ، وكان ذلك الخجل شديد الوطأة علي . وحين وصلت إلى الفندق وقبل لي اني لا أستطيع ان استعيد أمتعتي من شركة غريندلي في اليوم التالي - فقد كان ذلك اليوم يوم أحد - عصفت بي السخط والحزن .

وحوالى الساعة الثامنة من انشاء نفسه زارني الدكتور مهتا الذي كنت قد أبرقت اليه من ساوثامبتون . فرحب بي ترحيباً قلبياً . وابتسم لدن وقعت عيناه على ملابس الفلانلة التي كنت ارتديها . وفيما كنا نتحدث ، تناولت علي غير وعي مي قبعته الرسمية العالية . واذ حاولت ان أرى مبلغ ملاستها أمررت يدي عليها في الاتجاه المعاكس فأوقعت الاختلاط في فروها فنظر الدكتور مهتا

نظرة شبه مغضبة إلى ما كنت أفعله ، ونهاني عن ذلك . ولكن الاذى كان قد أنزل بالقبة . وكانت هذه الحادثة نذيراً للمستقبل . فقد كان هذا هو أول درس أتلقاه في آداب السلوك الأوروبية التي عرفني الدكتور منها ، في أسلوب مازح ، ببعض تفاصيلها . لقد قال : « لا تمس أشياء الناس الآخرين . لا تسأل أسئلة شائنا في الهند عند أول لقاء . لا تتكلم بصوت مرتفع . حذار ان تخاطب الناس بلقب « سير » وأنت تتحدث اليهم ، كما تفعل في الهند . إن الخدم والمروسين هم وحدهم الذين يخاطبون أسيادهم بهذه الطريقة . » وهلم جرا . وقال لي أيضاً إن الحياة في الفندق باهظة النفقات ، ونصحني بأن أعيش مع أسرة من الأسر ، وارجأنا درس هذه المسألة إلى يوم الاثنين .

ووجدت أنا والسيد مازمودار أن الحياة في الفندق عبيرة . لقد كانت كذلك غالبية جداً . وعلى أية حال فقد كان ثمة رفيق لنا في السفر ، وكان سندباً من مالطة توثقت بينه وبين السيد مازمودار عرى الصداقة . وإذ لم يكن هذا الرفيق غريباً عن لندن ، فقد تطوع للبحث لنا عن منزل . ووافقنا على ذلك . ويوم الاثنين ، حال استلامنا امتعتنا : دفعنا حساب الفندق ومضينا إلى المنزل الذي استأجره لنا الصديق السندي . واذكر أن فاتورة الفندق بلغت ثلاثة جنيهات ، وهو مبلغ صدمني صدمة قوية . ولقد قضيت تلك الفترة جائعاً ، أو أكباد ، برغم هذه الفاتورة الثقيلة ! ذلك اني لم أستطع ان استسيغ شيئاً . كنت إذا لم أحب شيئاً ، طلبت شيئاً آخر . ولكن كان عليّ ان أدفع ثمن اللونين جميعاً . الواقع اني طوال هذه المدة كنت اعتمد على المؤن التي حملتها معي من بومباي .

وكنت شديد التضايق حتى في المنزل الجديد . كنت أفكر في بيتي ووطني على نحو موصول . وكان خيال أُمي يطيف بي فهو لا يفارقني ألبتة . وفي الليل ، كانت الدموع تتحدّر على وجنتي كالسيل ، وكانت ذكريات الوطن على اختلاف ضروبها قد جعلت النوم أمراً غير وارد . كان من المتعذر عليّ أن أقاسم أحداً شقائي . وحتى لو وجدت إلى ذلك سبيلاً . فإن مثل هذا الضنيع كان عادم الجدوى . أنا لم أعرف شيئاً قادراً على تهدئة روحي . كل شيء كان

غريباً : الناس ، وأساليهم ، وحتى منازلهم نفسها . لقد كنت جاهلاً كل الجهل قواعد السلوك الانكليزية ، فأنا مضطر إلى أن آخذ حذري على نحو موصول . وكانت ثمة مشقة القسَم النباتي أيضاً . حتى ألوان الماء كل التي كنت قادرأ على تناولها كانت نافهة لا طعم لها . وهكذا وجدت نفسي بين شرين . فانكلترة لم أكن قادرأ على احتلالها ، ولكن العودة إلى الهند كانت شيئاً ينبغي أن لا يفكر به . أما وقد سافرت إلى هذا البلد الغريب فيجب أن أكمل الثلاث سنوات ، كذلك هتف بي الصوت الباطني .

## ١٤ . نباتي باختياري

وأقبل الدكتور مهتا . يوم الاثنين ، إلى الفندق وهو يتوقع أن يجدني فيه : فاكشف اني غادرت . فأخذ عنواننا الجديد واجتمع بي في منزلنا . ومن طريق حماقتي ليس غير أصيبت وأنا على متن الباخرة بالقوباء الحلقية (١) . كنا نصطع ، للفصل والاستحمام ، ماء البحر الذي كان الصابون لا يذوب فيه . ومع ذلك فقد كنت أستعمل الصابون ، معتبرأ استعماله علامة من علامات التمدن . وبدلاً من ان ينظف الصابون بشرتي جعلها دهنية . وأورثني ذلك داء القوباء الحلقية : وأطلعت الدكتور مهتا على هذه الاعراض فأشار عليّ باستعمال الحامض الخلي : وأنا أذكر الآن كيف دعاني الحامض المحرق إلى الصباح . وتفقد الدكتور مهتا الفرقة وأثاثها وهز رأسه علامة عدم الموافقة . ثم قال : « هذا المكان غير صالح . اننا لا نجيء إلى انكلترة لتلقي العلم بقدر ما نقدُ إليها لتكسب خبرة في الحياة الانكليزية والعادات الانكليزية . ومن أجل ذلك يتعين عليك أن تقيم مع اسرة من الأسر . ولكن قبل أن تفعل ذلك أرى أن من الخير لك ان تقضي فترة تدرب مع .... سوف آخذك إلى هناك . »

وقبلت الاقتراح شاكرأ ، وانتقلت إلى منزل الصديق . كان كله لطفأ

١ القوباء الحلقية مرض جلدي معروف .

واهتماماً . ولقد عاملني وكأنني أخ له من أمه وأبيه ، وعرفني بالعادات الانكليزية وعودني التكلم بلغة القوم . بيد أن طعامي ما لبث أن شكل مسألة جديدة . فأننا لم نستطع أن أستيق الخضر المسلوقة المطبوخة من غير ملح أو توابل . وكانت ربة المنزل في حيرة من أمرها . فهي لا تدري أي شيء تعدّه لي . كنا نتناول صباحاً حساء دقيق الشوفان ، الذي كان مُشبعاً إلى حدّ لا بأس به ، ولكنني كنت أجوع دائماً عند الغداء والعشاء . وكان الصديق لا يفتأ يقنعني بضرورة أكل اللحم ، ولكنني كنت دائماً أحتج باليمين التي أقسمتها ثم أعتصم بالصمت ، وفي كل من الغداء والعشاء كان عندنا سبانخ وخبز ومربى أيضاً . وكنت أكرّلاً ، وكانت لي معدة واسعة ، ولكنني كنت استحي أن أطلب أكثر من قطعتين أو ثلاث من الخبز ، إذ بدا لي أن مثل هذا الطلب غير لائق . وإلى هذا ، فلم يكن ثمة لبن مع الغداء أو مع العشاء . وذات مرة ، استبد السخط بالصديق من جراء هذه الحال وقال : « لو كنت أخي إذن لارسلتك إلى بلدك ضمن طرد من الطرود . أي قيمة ليمين أقسمتها أمام أمّ أميّة ، جاهلة للأحوال السائدة هنا ؟ أنها ليست يميناً على الإطلاق . أنها لا تعتبر يميناً في نظر القانون . أن من الخرافة الخالصة أن تملك بمثل هذا العهد . وأنا أقول لك أن إصرارك هذا لن يساعدك على كسب أي شيء هنا . أنت تعرف بأنك أكلت اللحم واستغفته : لقد تناولته حيث كان غير ضروري مئة بالمئة ثم تأبى أن تناوله حيث هو أساسي مئة بالمئة .. شيء مؤسف جداً ! »

ولكنني كنت صلباً كاللاس .

وبوماً بعد يوم كان صديقي يناقشني في هذه المسألة ، ولكنني كنت أواجهه بسلبية أزرية . كان كلما أمعن في النقاش أمعنت في التصلب . وكل يوم ، كنت التمس من الله الحماية ، فأفوز بها ، وليس معنى ذلك أنه كانت لي أيما فكرة عن الله . كان الايمان هو الذي يحركني — الايمان الذي غرست بذرتة « رامبها » الحاضنة الطيبة .

وذات يوم شرع الصديق يتلو عليّ كتاب بنثام « نظرية النفعية » . وكنت

في غابة الحيرة والارتيك . كانت اللغة أصعب من أن أستطيع فهمها . وانشأ صاحبي يشرح لي ذلك الكلام . فقلت : « اتوصل اليك ان تمدرني . ان هذه الاشياء المهمة فوق مستوى إدراكي . أنا اسلم بأن من الضروري ان يأكل المرء اللحم . ولكني لا أستطيع ان احث بيميني . أنا لا أقوى على المجادلة في هذا الموضوع . وأنا واثق من اني عاجز عن مجاراتك في النقاش . ولكن ارجوك أن تنفض يدك مني كأنني أحرق أو عنيد . أنا أقدر حبك لي ، واعرف انك تمنى لي الخير . كذلك أعرف انك تقول لي ذلك المرة تلو المرة لأنك تتلم من أجلي . ولكني عاجز لا حيلة لي . القسم قسم . انه شيء لا يمكن أن يُبحث به . »

ونظر إليّ الصديق في دهش . ثم أغلق الكتاب وقال : « حسن ، لن أجادلك بعد اليوم . » وكنت سعيداً بهذا . إنه لم يباحثني في هذه المسألة بعد ذلك قط . ولكنه لم يكفّ عن القلق عليّ . كان يدخلني ويحتسي الخمر ، ولكنه لم يدعني في يوم من الأيام إلى أن أشاركه هذا الصنيع . والواقع انه سألني ان أبقى بعيداً عن كل من التبغ والخمر . كان مردّ قلقة كله إلى أن اجتنابي اللحم خليق به ان يبقيني ضعيفاً جداً . وبذلك أعجز عن الحياة في انكلترا وأشعر بالقلق والضيق .

على هذا النحو قضيت فترة تدريبي التي امتدت شهراً . كان بيت الصديق في ريتشموند ، ولم يكن من الممكن الذهاب إلى لندن أكثر من مرة أو مرتين في الاسبوع . وهكذا قرر الدكتور مهتا والسيد دالبايرام شوكلّا أن يتزلزلي عند احدى الاسر . وعثر السيد شوكلّا ، مصادفةً ، على منزل انكليزي هندي في وست كينغتون وانزلني هناك . وكانت ربة المنزل أرملة . وحدثها عن العهد الذي أخذته على نفسي . فوعدت السيدة العجوز بالاهتمام بي احسن اهتمام ، فالتحذت من ذلك المنزل مستقراً لي . وهنا أيضاً تعيّن عليّ ان اجوع تقريباً . وكنت قد بعثت برسالة إلى الوطن طلبت فيها تزويدي ببعض الحلويات



وغيرها من المآكل المستساغة ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن قد وصل بعد . كان كل شيء تافهاً لا طعم له . وكل يوم كانت السيدة العجوز تسألني هل احببت الطعام ، ولكن ما الذي كان في ميورها أن تعمله ؟ كنت لا أزال خجلاً شائئياً من قبل ، وما كنت أجروء على طلب مزيد من الطعام . وكان لما بنتان اثنتان ، وكانتا تصرّان على أن تقدما إليّ قطعة إضافية أو قطعتين إضافيتين من الخبز . ولكنهما ما كانتا تعلمان أن معدتي كانت في حاجة إلى رغيف كامل .

ولكني كنت قد اكتشفت رجليّ الآن . ولم أكن قد بدأت دروسي النظامية ، وكنت قد شرعت - والفضل بذلك للسيد شو كلا - في مطالعة الصحف . والواقع أنني لم أقرأ في الهند صحيفة واحدة قط . أما هنا فقد عودت نفسي حبّ الصحف من طريق قراءتها على نحو نظامي . كنت دائماً اتصفح الـ « دايلي نيوز » ، والـ « الدايلي تلغراف » ، والـ « بول مول غازيت » . وكان ذلك لا يستغرق من وقتي غير ساعة أو أقل . وهكذا بدأت أطوف في البلد . لقد انطلقت أبحث عن مطعم نباتي . وكانت ربة البيت قد اعلمتني بأن في البلدة مثل هذه المطاعم . فكنت أغذ الخطي مسافة عشرة أميال أو اثني عشر ميلاً كل يوم ، وأدخل إلى مطعم رخيص وآكل ما يملأ بطني من الخبز ، ولكن من غير أن أعرف الشبع البتة . وفي أثناء هذا التطواف اليومي عثرت ذات مرة على مطعم نباتي في شارع فارينغدون .

ولم أكد أرى إلى هذا المطعم حتى ملأ جوانحي ابتهاج كالذي يستشعره الطفل حين يفوز بشيء أثير لديه . وقبل أن أدخل لاحظت الكتب المعروضة للبيع تحت نافذة زجاجية قرب الباب . ورأيت بينها كتاب سولت : « دفاع عن النباتية » . فاشتريته بشلن ، ومضيت قدماً إلى حجرة الطعام . كانت تلك أول وجبة طعام تناولتها من كل قلبي منذ وصولي إلى انكلترا . كان الله قد هرع إلى مساعدتي .

وقرأت كتاب سولت من الغلاف إلى الغلاف ، فأعجبت به إعجاباً عظيماً ، ومنذ قراءتي لهذا الكتاب استطيع الزعم أنني أصبحت نباتياً بالاختيار .

وباركت النهار الذي أقسمت فيه اليمين أمام أمي . لقد كنت دائماً اجتنب اللحم نزولاً عند سلطان الحقيقة وسلطان الوعد الذي قطعته على نفسي ولكنني تمكنت في الوقت نفسه لو يصبح كل هندي آكل لحم . وتطلعت إلى اليوم الذي أصبح فيه ، أنا ، من أكلة اللحم في حرية ووضوح . والذي أستطيع فيه اقناع غيري من الناس بهذه القضية . أما الآن فقد كان اختياري في صالح التزعة النباتية ، ومن ذلك الحين أصبح نشر هذه التزعة جزءاً من رسالتي .

## ١٥ . كيف مثلت دور الجنتلمان الانكليزي

وتعاطف ايماني بالنباتية يوماً بعد يوم . وأهاج كتاب سولت شهوني إلى الدراسات المتصلة بالاغذية . وشغفت بكل ما كان في متوالي من كتب تبحث في المذهب النباتي ، وقرأتها . وكان احدها : كتاب هووارد ويليامز ، اخلاق الغذاء ، ، ، تاريخياً سيرياً لتراث علم الغذويات الرقيق من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر . . ولقد حاول ذلك الكتاب ان يثبت ان جميع الفلاسفة والانياء من فيثاغورس ويسوع إلى فلاسفة العصور الحديثة وأنيائها ، كانوا نباتيين .

وكان كتاب الدكتور آنا كينغزفورد ، الطريق المثالية في الغذاء ، كتاباً جذاباً أيضاً . وكانت كتابات الدكتور آلينسون في الصحة وعلم الصحة مسعفة جداً كذلك . لقد دافع عن نظام شفائي مبني على تعديل حمية المرضى . وإذا كان هو نفسه نباتياً فقد وصف لمرضاه أيضاً حمية نباتية صارمة . وكانت الثمرة الناشئة عن مطالعة هذه المؤلفات كلها ان اخذت التجارب الغلائية تحتل مكاناً هاماً في حياتي . كانت الصحة هي الاعتبار الرئيسي في هذه التجارب ، بادئ الامر . ولكن الدين أصبح الدافع الأعظم في ما بعد .

وفي غضون ذلك ، كان صديقي قد كفّ عن القلق علي . لقد قاده حبه لي إلى الاعتقاد بأنني إذا ما أصررت على اجتنابي أكل اللحم فلن يكون من نتائج ذلك ان تصبح بنيتي ضعيفة فحسب ، ولكنني سوف أظل أبه لانني لن أستشعر

الراحة والطمأنينة في المجتمع الانكليزي . وحين عرف اني بدأت اجد متعة بالغة في الكتب التي تعالج موضوع النباتية خشني ان تشوش هذه الدرامات عتلي ، وأن ابدد حياتي في التجارب ، ناسياً عملي الشخصي ، وأن أصبح شخصاً شاذاً . وهكذا بذل جهداً نهائياً لأصلاحي . فدعاني ذات يوم للذهاب إلى المسرح . وقبل بدء التمثيل كان علينا ان نتناول طعام العشاء في مطعم هولبورن ، وكان هذا المطعم موطناً فخماً بالنسبة اليّ ، وكان أول مطعم كبير دخلته منذ ان غادرت فندق فيكتوريا . ولم يكن مقامي في ذلك الفندق تجربة مفيدة ، ذلك لأنني لم اعش هناك بكامل حواسي . وكان الصديق قد عزم على اصطحابي إلى هذا المطعم متخيلاً ، من غير شك ، أن الحياء سوف يحظر عليّ كل مناقشة . والواقع ان المطعم كان غاصاً بمشد كبير من الطاعمين ، فجلست أنا وصديقي إلى مائدة قائمة وسط ذلك الحشد . وكان اللون الأول حساء . وتساءلت في ما بيني وبين نفسي من أي شيء صنع ذلك الحساء ، ولكنني لم اجروء على ان اوجه هذا السؤال إلى صديقي . وهكذا استدعيت النادل . ورأى صديقي الحركة فسألني في صرامة ، عبر المائدة ، ما الذي اريد ؟ وفي تردد بالغ قلت له اني أريد ان أسأل هل الحساء نباتي . فصاح في انفعال : « أنت ارعن إلى درجة لا تؤهلك للحياة في المجتمع الراقي . وإذا كنت عاجزاً عن ان تملك ملكاً حسناً فمن الخير لك ان تنصرف . كل في مطعم آخر وانتظرنني في الخارج . » وسرني ذلك . وغادرت المطعم . كان ثمة مطعم نباتي مجاور ، ولكنه كان موصداً . وهكذا بتّ على الطوى تلك الليلة . ورافقت صديقي إلى المسرح ، ولكنه لم ينطق قط بأيما كلمة عن الخصام الذي سبّبه . ولم يكن ثمة ، من ناحيتي أنا ، ما أقوله طبعاً .

وكانت تلك آخر مناقشة ودية حادة دارت بيننا . إنها لم تعكر صفو علاقتنا مقدار ذرة . فقد كان في استطاعتي ان أرى وأن أقدر الحب الذي كان يوجه جهود صديقي كلها ، وتعظيم احترامي له بسبب من اختلافنا في الرأي والعمل . ولكنني عزمت على ان اطمئنه ، وان أوكد له اني لن اتصرف تصرفاً

أخرق منذ اليوم ، فأحاول أن أصبح مصقولاً رقيق الحاشية وأعرض عن نباتي بتنمية مواهب أخرى تجعل المرء منجماً مع المجتمع الراي . ولهذا الغرض عملت على تحقيق هذه المهمة البالغة الاستحالة : ان أصبح جتلياً انكليزياً .

ورأيت ان ملابسي التي كنت ارتديها وفقاً لطريقة التفصيل الشائعة في بومباي كانت غير ملائمة للمجتمع الانكليزي فاشتريت ملابس جديدة من مخازن الجيش والأسطول . كذلك جعلت من همي ان أعتز بقبعة من نوع « انبوبة المدخنة » ، ثمنها تسعة عشر شلناً - وهو سعر غال جداً في تلك الأيام . ولم أكتف بذلك ، فأضعت عشرة جنيهات على بذلة من بذلات السهرة خيطة في بوند سترت ، مركز الحياة الانيقة في لندن . وأقنعت أخي الطيب النبل القلب بأن يرسل اليّ سلسلة ساعة ذهبية مزدوجة . ولم يكن من اللائق ان ألبس ربطة عنق جاهزة ، فتعلمت فنّ عقد ربطة العنق بنفسي . ويوم كنت في الهند ، كانت المرأة ترفاً لا يتاح لي الا في الأيام التي كان مزين الاسرة يحلق لي فيها ذقني . أما هنا فأصبحت أضع عشر دقائق كل يوم أمام امرأة ضخمة ، أراقب نفسي وأنا أعقد ربطة عنقي ، وأفرق شعري وفقاً للزي الدارج . ولم يكن شعري ناعماً بأية حال . فكنت اتصارع يومياً مع الفرشاة لاثبتته في موضعه . وكنت كلما اعتمرت بالقبعة أو رفعتها تمتد يدي اوتوماتيكياً نحو رأسي لتسوية شعري ، هذا إذا لم أذكر العادة المتعدنية الأخرى : ابتداد اليد بين الفينة والفينة لتعمل من أجل الغرض نفسه حين يكون المرء في مجلس من مجالس المجتمع الراي :

وكانما لم يكفني هذا كله لأظهاري بمظهر الجتليان الانكليزي فوجهت عنائي إلى تفاصيل أخرى كان يفترض أنها تساعد على تحقيق هذه الأمنية . لقد قيل لي انه كان عليّ ان ألتقي دروساً في الرقص ، واللغة الفرنسية ، وفن الالتقاء ، ولم تكن الفرنسية هي لغة فرنسا المجاورة فحسب ، ولكنها كانت اللغة الدولية

الشائعة في أوروبا التي كنت راغباً في التطواف فيها . فزمت على أن أتلقي دروس رقص في إحدى المدارس ، ودفعت ثلاثة جنيهات كرسوم لفصل واحد من فصول الدراسة . ولا بدّ اني تلقيت نحواً من ستة دروس في ثلاثة أسابيع . ولكن كان من المتعذر عليّ في ما يبدو أن أوفق إلى اداء الحركات الإيقاعية : لقد عجزت عن متابعة اليانو ، ومن أجل ذلك كان مستحيلاً عليّ أن أقوم بالحركة الإيقاعية على نغماتها . ما الذي ينبغي أن أفعله ؟ ان الناسك ، في الاسطورة ، اصطحب هرة للتخلص من الفئران ، ثم جاء ببقرة لتغذية الهرة بالحليب ، ثم استأجر رجلاً للعناية بالبقرة ، وهكذا . ولقد تضخمت مطامعي أنا أيضاً كما تضخمت اسرة الناسك . وتراءى لي ان من واجبي ان اتعلم العزف على الكيان لكي اعود اذني لتذوق الموسيقى الغربية . وهكذا دفعت ثلاثة جنيهات ثمناً للكيان ، ومقداراً أكبر من ذلك لتعلم العزف عليها . وبحث عن مدرس ثالث ليعطيني دروساً في فن الالتقاء ودفعت له جنيهاً كرسوم بدني . ولقد اختار ان يدرّسني في كتاب « بل » الموسوم بـ « الخطيب المثالي » ، فاشترت نسخة منه . وبدأت باحدى خطب « بيت » .

ولكن سرّ بل قرع ناقوس الخطر في أذني ، فافقت .

لقد قلت في ذات نفسي اني لن أقضي العمر كله في انكلترا . فأني فائدة نرجي من تعلم فن الالتقاء ؟ وكيف يستطيع الرقص ان يجعل مني جتلماناً ؟ ان في استطاعتي ان اتعلم العزف على الكيان في الهند نفسها . لقد كنت طالباً وكان يتعين عليّ أن أواصل دراساتي . ان عليّ ان اهيء نفسي للالتحاق ببيت الطلبة الحقوقين . فاذا استطاعت شخصيتي ان تجعل مني جتلماناً كان ذلك زيادة في الخير . والا . فينبغي أن أتخلّى عن ذلك المطمح .

هذه الافكار وامثالها استبدت بي ، فعبرت عنها في كتاب وجهته إلى مدرّس الالتقاء ، راجياً ان يعطيني من تلقي دروس اضافية . كنت قد تلقيت درسين أو ثلاثة ليس غير . وكتب رسالة ممائلة إلى مدرّس الرقص ، ومضيت

بنفسي إلى مدرسة الكهان والتمست منها أن تخلصني من الكهان من طريق بيعه بأي ثمن مهما يكن . ولقد كان موقفها ودياً ، وهكذا انبأتها كيف اكتشفت أنني كنت أسمى وراء مثل أعلى زائف . . وشجعتني تلك المدرسة على ما عزمت عليه من اجراء تغيير كامل .

وأغلب ظني ان هذا الخيال استمر نحواً من ثلاثة أشهر . ودامت الاناقة في اللباس سنوات وسنوات . . ولكني أصبحت ، منذ ذلك الحين ، طالباً .

## ١٦ . تغيرات

لا يتوهمن أحد ان تجاربي في الرقص وما اليه استهلت في حياتي مرحلة من الانغماس في الشهوات . فلا ريب ان القارئ قد لاحظ ان قواي العقلية كانت معي حتى في تلك الفترة . والحق ان عهد الخيال ذلك لم يكن يعوزه مقدار من الاستيطان الذاتي ، من ناحيتي . فقد كنت أقيد كل درهم أنفقه ، وكانت نفقاتي مقدره تقديراً دقيقاً . كان كل بند صغير - كأجور الامنيوس ، ونفقات البريد ، وبعض القطع النقدية النحاسية المنفقة على شراء الصحف - يدخل في الحساب ، وكان هذا الحساب يسوّى كل مساء قبل الايواء إلى الفراش . وكانت هذه العادة قد رسخت في نفسي منذ ذلك الحين ، وأنا أعلم أنه كان من نتائج ذلك - على الرغم من انه تعين عليّ أن أشرف على أموال شعبية تقدر بمئات الألوف - اني وقفت إلى الانتصاف على نحو صارم في انفاقها . وبدلاً من الديون الثقيلة استطعت ان احقق فائضاً من المال لجميع الحركات التي توليت قيادتها . فليتنبه كل شاب بي ، وليجعل من همه أن يسجل كل فلس يدخل إلى جيبه أو يخرج منها، وعندئذ يكون هو الرابع ، مثلي ، في نهاية المطاف .

وفيما أنا أخضع طريقة معيشتي لرقابة شديدة ، كان في ميسوري أن أرى أن من الضروري أن آخذ نفسي بالاقتصاد . وهكذا عزمت على ان اخفض نفقاتي إلى النصف . لقد أظهرت حساباتي ان ثمة بنوداً عديدة تنفق على المواصلات .

ليس هذا فحسب ، بل ان حياتي مع احدى الامر كانت تعني دفع فاتورة اسبوعية على نحو نظامي . كذلك كشفت حساباتي عن اني كنت ادفع مبلغاً معيناً ثمناً لدعوة أعضاء الأسرة إلى تناول الطعام بين الفينة والفينة في بعض المطاعم وشهود الحفلات الساهرة معهم . وكل ذلك اشتمل على بنود ثقيلة كانت تنفق أجوراً مواصلات ، وخاصة إذا كان الرفيق سيده إذ كان العرف يقضي بأن يدفع الرجل جميع النفقات . وتناول الطعام في الخارج كان يعني نفقات إضافية أيضاً لأن وجبات الطعام غير المتناولة في المنزل لم تكن تُسقط من فاتورة الحساب الاسبوعية . ولقد بدا لي ان في الامكان الاستغناء عن هذه البنود كلها ..

وهكذا قررت ان استأجر منزلاً خاصاً بي ، بدلاً من أن احيا مع احدى الاسر ، وان انتقل من مكان إلى مكان ، وفقاً للعمل الذي كان علي القيام به ، مكتسباً بذلك خبرة في الوقت نفسه . وقد اخترت ذلك المنزل بحيث يكون في ميسوري أن ابذل مكان العمل شيئاً على قدمي خلال نصف ساعة ، وهكذا أوفر أجور النقل . أما قبل ذلك فكان من دأبي أن استأجر عربة من عربات النقل كلما خرجت إلى مكان ما ، وكان علي أن أفرد اوقاتاً إضافية للتنزه سيراً على القدمين . ومن هنا جمع التدبير الجديد ما بين الاقتصاد ومتعة المشي فوفر علي أجور المواصلات وأتاح لي السير ثمانية أميال أو عشرة أميال يومياً . إن عادة المشي الطويل هذه هي التي صانتني ، في المحل الأول ، من اعتلال الصحة خلال اقامتي في انكلترا ، ومنحتني بنية قوية .

وهكذا استأجرت منزلاً ذا غرفتين : غرفة للجلوس وغرفة للنوم . كانت هذه هي المرحلة الثانية ، أما المرحلة الثالثة فسوف تأتي بعد .

هذه التغيرات وفرت علي نصف نفقاتي . ولكن كيف أفيد من أوقاتي ؟ كنت أعلم ان امتحانات الحقوق لم تكن تتطلب كثيراً من الدرس ، ومن أجل ذلك لم أشعر اني في سباق مع الوقت . وكانت انكليزيتي الضعيفة تقلقني قلقاً موصولاً . وكانت كلمات مستر (وفي ما بعد مير فريدريك) ليلي : « تخرج أولاً ثم عد الي » لا تزال ترن في اذني . وقلت في ذات نفسي ان علي أن لا اتأثر

شهادة الحقوق فقط ، بل شهادة أدبية ما أيضاً . وسألت عن الدروس التي تعطى في جامعتي اوكسفورد وكيمبردج ، واستشرت بعض الاصدقاء فوجدت اني إذا ما اخترت الالتحاق بأي من هاتين الجامعتين فسوف تزيد نفقاتي زيادة كبيرة واضطر إلى البقاء في انكلترا فترة طويلة لم أكن مستعداً لها . واقترح عليّ صديق قائلاً : إذا كنت راغباً فعلاً في التمتع بخوض غمار امتحان عسير فليس عليك إلا أن تقدم لامتحان شهادة الميريكيولشين اللندنية . كانت تنطوي على كثير من الجهد وعلى توسيع كثير للخبرتي من المعرفة العامة ، دونما نفقات اضافية تذكر . ورحبت بالاقتراح . ولكن برنامج الدراسة أرعبي . كانت اللاتينية واحدى اللغات العصرية الزاميتين ! فكيف أستطيع أن أنجح في اللغة اللاتينية ؟ ولكن الصديق أنشأ بدافع عنها قائلاً : « اللاتينية نافعة جداً للمحاميين . ومعرفة اللاتينية عظيمة الفائدة في فهم كتب القانون . وثمة امتحان من امتحانات القانون الروماني يجري كله باللاتينية . وإلى هذا ، فمعرفة اللاتينية تورث صاحبها تضلعا من اللغة الانكليزية أعظم وأقوى . » وذهبت إلى البيت ، وعقدت النية على درس اللغة اللاتينية ، مهما كانت عسيرة . وكنت قد شرعت قبل ذلك بتعلم اللغة الفرنسية ، وهكذا قلت في ذات نفسي انها ينبغي أن تكون اللغة العصرية التي سأختارها . والتحقت بصف خصوصي من صفوف الميريكيولشين . كانت الامتحانات تجري كل ستة أشهر ، وكان لا يزال أمامي خمسة أشهر ليس غير : والواقع انها كانت مهمة مستحيلة بالنسبة اليّ ، أو تكاد . ولكن الشاب الطامع إلى أن يمسي جتلباناً انكليزياً اختار ان يحول نفسه إلى طالب مجد . ونظمت جدول مواعيدي دقيقة دقيقة ، ولكن لا ذكائي ولا ذاكرتي وعدت بتمكيني من تعلم اللاتينية والفرنسية بالاضافة إلى الموضوعات الاخرى ضمن المدة المطلوبة . وكانت النتيجة اني سقطت في اللاتينية . وأخذني الحزن لذلك ، ولكنني لم أبأس . كنت قد اكتسبت تذوقاً للغة اللاتينية ، وقد اعتدت أيضاً ان لفني الفرنسية سوف تكون أقوى وأفضل عند التجربة القادمة ، وان من الخير لي أن أختار موضوعاً جديداً في مجموعة العلوم . والواقع ان الكيمياء - موضوعي



العلمي في الامتحان الأول - لم نستطع أن نشعر شوقي إلى دراستها لفقدان التجارب ، في حين أنها جديرة بأن تكون موضوعاً شيقاً جداً . كانت إحدى الموضوعات الالزامية في الهند ، وهكذا اخترتها لامتحان الميريكوليشين اللندنية . أما هذه المرة فاخترت موضوع « الحرارة والضوء » بدلاً من الكيمياء . لقد قيل لي انه سهل ، ولقد وجدته كذلك .

وحين شرعت بالاستعداد لمحاولة أخرى بذلت جهداً لتبسيط حياتي أكثر فأكثر . لقد شعرت ان طريقة معيشتي كانت لا تزال غير منسجمة مع موارد اسرتي المتواضعة . ولقد آلمني التفكير بأخي المكافح الذي كان يستجيب في نيل لدعواني النظامية إلى العون المالي . لقد وجدت ان معظم الذين كانوا ينفقون ما بين ثمانية جنيهات وخمسة عشر جنيهاً شهرياً كانوا يتمتعون بمنح دراسية . وكانت أمامي أمثلة على معيشة أكثر بساطة . فقد عرفت عدداً غير يسير من الطلاب الفقراء العائشين على نحو أكثر انضاعاً مني . كان أحدهم يقيم في حي الفقراء في غرفة اجرتها شلنن اسبوعياً . وكان يعيش على الكاكاو والخبز يتناوله في محلات لوكهات الرخيصة الخاصة بالكاكاو ، فيدفع ثمن وقعة الطعام الواحدة بنين اثنين ليس غير . وكنت أبعد الناس عن التفكير في إماراته . ولكنني شعرت ان في استطاعتي من غير شك ان اقطن غرفة واحدة بدلاً من اثنين وان أعد بعض وقعات الطعام في البيت . وهكذا يكون في استطاعتي أن أقتصد ما بين أربعة جنيهات وخمسة جنيهات كل شهر . كذلك وقعت على كتب تعالج موضوع المعيشة البسيطة . وهجرت الغرفتين اللتين كنت احتلتهما . واستأجرت بدلاً منها غرفة واحدة ، وانفقت مبلغاً من المال ثمناً لموقد، وبدأت أطبخ طعام انصباح في الغرفة . ولم يكن ذلك العمل يستغرق من وقتي أكثر من عشرين دقيقة ، إذ لم يكن ثمة غير حساء الشوفان الذي ينبغي أن يطبخ ، وغير المساء الذي ينبغي أن يغلى من أجل الكاكاو . وكنت أتناول طعام الغداء في الخارج . أما العشاء فكان خبزاً وكاكاو اتناولهما في الغرفة . وهكذا وفقت إلى أن أعيش على شلن وثلاثة بنسات يومياً . كانت هذه الفترة فترة دراسية كثيفة أيضاً . إن الحياة البسيطة قد وفرت عليّ كثيراً من الوقت، ونجحت

في امتحان الميريكيوليشين .

ولا يتوهمن القارئ ان هذه المعيشة قد جعلت حياتي نافهة مملّة . على العكس ، كان التغير قد أوجد تناغماً بين حياتي الباطنية وحياتي الخارجية . وكان أكثر انجاساً مع موارد أسرتني . كانت حياتي أكثر أمانة من غير رب ، ولقد عرفت روعي ابتهاجاً غامراً ليس له حد .

## ١٧ . تجارب في علم الأغذية

فيما كنت اتفحص نفسي أعمق فأعمق أخذت الرغبة في التغير ، باطنياً وخارجياً ، تعاضم في ذاتي . فما إن أجريت هذه التعديلات في نفقاتي وفي طريقة معيشتي ، بل قبل ذلك ، حتى شرعت أحدث تغييرات في غذائي . لقد رأيت أن المؤلفين الذين درسوا الفلسفة النباتية إنما نظروا إلى الموضوع في تفصيل مغالى فيه معالجين مظاهره الدينية ، والعلمية ، والعملية ، والطبية . فمن ناحية أخلاقية كانوا قد استتجوا ان سيادة الانسان على الحيوانات لا تعني ان الأول ينبغي أن يفتك بالآخر بل تعني أن يحمي الرفيع الوضع ، وان يكون بين الاثنين تعاون كالذي يكون بين الانسان والانسان . وكانوا قد أظهروا هذه الحقيقة أيضاً : ان الانسان يأكل لا ليستمع ولكن ليعيش . كذلك اقترح بعضهم - وطبقوا هذا الاقتراح في حياتهم هم - اجتناب البيض واللبن بالاضافة إلى اللحم .. ومن ناحية علمية كان بعضهم قد استنتج أن تكوين الانسان الجسدي أظهر أنه لم يُجْعَلُ حيواناً طامحاً ولكن حيواناً آكلًا للأثمار ، وان في استطاعته ان يغتذي بلبن أمه ليس غير ، وانه ما إن تثبت أسنانه حتى يتعين عليه أن يتناول أطعمة صلبة . ومن ناحية طبية ، اقترحوا اجتناب التوابل والبهارات جميعاً . ووفقاً للحجج العملية والاقتصادية أظهروا ان الغذاء النباتي هو الغذاء الأقل نفقة . والحق انه كان لهذه الاعتبارات كلها أثرها في نفسي . ولقد جمعتني المناسبات بالنباتيين على اختلاف ضروبهم في المطاعم النباتية . وكان في انكثرة جمعية نباتيين ، وكانت تصدر مجلة اسبوعية خاصة بها . فاشركت في تلك المجلة ، وانضمت إلى الجمعية ،

وما هي إلا فترة قصيرة حتى وجدت نفسي عضواً في اللجنة التنفيذية. وهنا قدّر لي أن أتصل بأولئك الذين كانوا يُعتبرون أركان الفلسفة النباتية ، وبدأتُ تجاربي الخاصة في علم الأغذية .

وأقلعت عن أكل الحلويات والتوابل التي كنت قد جلبتها من الوطن . وإذا كان عقلي قد انعطف نحو اتجاه مختلف فقد تلاشى ولوعي بالتوابل ، وأخذت الآن أبتسغ البنانخ المسلوق ، الذي كنت أجده لا طعم له في ريتشموند ، مطهواً من غير توابل . وكثير من مثل هذه التجارب علمتني ان مركز حاسة الذوق الحقيقي ليس اللسان ولكن العقل .

وكان الاعتبار الاقتصادي مازلاً أمامي على نحو موصول ، طبعاً . وكان في تلك الأيام رأي يذهب إلى ان الشاي والقهوة ضاران ، وينادي بالاستعاضة عنهما بالكاكاو . وإذا كنت مقتنعاً بأن على المرء ان لا يأكل غير الاشياء التي تحفظ عليه جسده فقد أقلعت عن تناول الشاي والقهوة واتخذت من الكاكاو بديلاً عنهما ، وكانت المطاعم التي تعودت الاختلاف اليها تنقسم إلى صنفين . فأما الصنف الأول ، وهو الذي يناصره الاثرياء ، فكان يقدم عدداً غير محدود من الوان الطعام يختار منها المرء ما يشاء ويدفع ثمنها وفقاً لفاتورة الطعام ، وهو يستراوح بذلك ما بين شلن وشلين . وأما الصنف الآخر فكان يقدم إلى زبائنه وقعة طعام مؤلفة من ثلاثة ألوان وقطعة من الخبز بثمان متداره ستة بنسات . وفي أيام اقتصادي الصارم كنت أتناول طعام الغداء في مطاعم الصنف الثاني .

وكانت ثمة إلى جانب التجربة الرئيسية تجارب ثانوية عديدة . من مثل الاقلاع عن الاطعمة الشوية مرة . والعيش على الخبز والفاكهة وحدهما مرة أخرى ، والعيش على الجبن واللبن والبيض مرة ثالثة . وهذه التجربة الأخيرة جديرة بالتدوين . انها لم تدم أكثر من اسبوعين . وكان المصلح انني دافع عن الطعام غير الشوي قد أطرى البيض اطراءً عظيماً وزعم ان البيض ليس لحماً . كان واضحاً أن أكل الانسان البيض لا يؤذي الكائنات الحية البتة . وأعجبت بهذه الحجة ، وأكلت البيض على الرغم من

القسم الذي أقسمته . ولكن هذه الزلة كانت مؤقتة . فلم يكن من حقي أن أضع تفسيراً لذلك القسم . كان ثمة أمامي تفسير أمي التي استحلقتني اليمين . وكنت أعلم أن تعريفها للحم يشمل البيض ، وما إن تبدى لي معنى اليمين الحقيقي حتى أفلعت عن البيض وعن التجربة معاً .

وهناك نقطة طريفة دعمت الحجة ، وهي قعينة بالنسجيل . فقد وقعت في انكلرة على ثلاثة تعريفات للحم . فأما التعريف الأول فلا يدخل في نطاقه غير لحم الطير والبهائم . والنباتيون الذين قبلوا هذا التعريف كانوا يحتنبون لحم الطير والبهائم ولكنهم كانوا يأكلون السمك ، ان لم نذكر البيض . ووفقاً للتعريف الثاني ، كان اللحم يشمل لحوم الكائنات الحية جميعاً . وهكذا كان السمك هنا محظوراً ، أما البيض فكان مباحاً . في حين ان التعريف الثالث كان يُدخل في باب اللحم لحم الكائنات الحية وجميع منتجاتها ، وبذلك يشمل البيض والابن جميعاً . فاذا ارتضيت التعريف الأول فعندئذ يكون في امكاني أن آكل لا البيض فحسب ، بل السمك أيضاً . ولكني كنت مقتنعاً بأن تعريف أمي كان هو التعريف الذي يلزمي . واذن فاذا كنت راغباً في الايفاء بالعهد الذي قطعته على نفسي فيتعين عليّ ان أجنب البيض . وهكذا كان : وكانت هذه مشقة لأن البحث أظهر أن عدداً من ألوان الطعام ، حتى في المطاعم النباتية ، كان يحتوي أيضاً . وكان معنى ذلك أنه كان عليّ — إلا إذا عرفت من أي شيء صنع الطعام — أن أحاول أن أتأكد من مسألة ما إذا كان لون معين من الطعام يحتوي البيض أم لا ، وهي عملية خرقاء ، لأن كثيراً من الحلويات والمعجنات لم تكن خلواً منه . ولكن على الرغم من ان اظهار واجبي سبب لي هذه الصعوبة فانه قد بسط طعامي . وهذا التبسيط أزعجني بدوره بعد أن تعين عليّ أن أجنب عدداً من ألوان الطعام كنت قد شرعت استيفها . بيد أن هذه المصاعب كانت زائلة لأن حرصي على الوفاء بعهدي على نحو صارم خلق في نفسي استاغة باطنية أحفل بالعافية وأمن في الرقة والبقاء :

ولكن التجربة الحقيقية لم تكن قد وقعت بعد ، وكانت هذه ذات صلة

بالقسَم الآخر . ولكن من ذا الذي يجرؤ على إلهاء من أسبغ الله عليه حياته ؟  
 إن بعض الملاحظات حول تفسير الايمان واليهود قد لا تكون في غير محلها  
 هنا . فمضير اليهود كان ولا يزال مصدراً خصباً من مصادر النزاع في طول  
 العالم وعرضه . فهما يكن العهد واضحاً جلياً فان الناس يدبرونه ليلائم  
 أغراضهم الخاصة . ونحن تقع على هؤلاء في مختلف طبقات المجتمع ، ابتداء من  
 النبي إلى الفقير ، ومن الأمير إلى الفلاح . ان الانانية تُعميهم ، ومن طريق  
 اصطناع الوسط الغامض يخدعون أنفسهم ويسعون إلى خداع العالم والله . إن من  
 القواعد الذهبية قبول التفسير الذي وضعه ، باخلاص ، الفريق الذي استصدره .  
 وقاعدة أخرى ذهبية هي قبول تفسير الفريق الأضعف ، حين يكون ثمة تفسيران  
 للنص الواحد . والتنكر لهاتين القاعدتين يؤدي إلى نشوء النزاع والجور وكلاهما  
 عميق الجذور في الكذب والخداع . إن الذي يسعى بسبل الحقيقة وحدها قادر  
 على اتباع القاعدة الذهبية في سهولة ويسر . إنه في غير حاجة إلى استشارة أهل  
 العلم والتماس التفسير عندهم . والواقع ان تفسير أمي لمعنى اللحم - لا تفسير  
 خبرتي الاوسع أفقاً أو تفسير غروري بمعرفة أفضل - كان هو التفسير الصحيح  
 الوحيد عندي .

كانت تجاربي في انكلترا موجهة من وجهة نظر الاقتصاد وعلم الصحة ،  
 أما الجانب الديني من المسألة فلم يؤخذ بعين الاعتبار إلا بعد ذهابي إلى جنوب  
 افريقية حيث قمت بتجارب شاقة سوف أرويها فيما بعد . ان فترة تلك التجارب  
 قد غُربت ، على أية حال ، في انكلترا .

إن حماسة الداخل في دين جديد تكون أعظم من حماسة من ولد على ذلك  
 الدين . وكانت الفلسفة النباتية ديناً جديداً ، آنذاك ، في انكلترا ، وكذلك  
 بالنسبة اليّ ، لأنني ذهبت إلى هناك ، كما رأينا ، مؤمناً بفلسفة أكل اللحم ، ثم  
 دخلت بعد ذلك ، فكرياً ، في المذهب النباتي . وإذ ملأت جوانحي حماسة المعتقد  
 الجديد للمذهب فقد عزمت على انشاء ناد نباتي في منطقتي ، بايزووتر . ودعوت  
 السير ادوين آرنولد ، الذي كان يسكن هناك ، أن يكون نائب رئيس . وأصبح

الدكتور أولدفيلد ، الذي كان محرر مجلة « النباتي » ، رئيساً . أما أنا فأصبحت أمين السر . وسار النادي سيراً حسناً فترة من الزمن ، ولكنه لفظ أنفاسه خلال بضعة أشهر . ذلك اني تركت تلك المنطقة ، وفقاً لعادتي التي كانت تقضي بأن انتقل - دورياً - من مكان إلى مكان . ولكن هذه الخبرة القصيرة المتواضعة أكسبني بعض الدربة في تنظيم الجمعيات وإدارتها .

## ١٨ . الخجل درعي

وانْتُخِبْتُ عضواً في اللجنة التنفيذية للجمعية النباتية ، وجعلت من همي أن أشهد كل جلسة من جلساتها ولكني كنت أستشعر دائماً اني معقود اللسان . وقال لي الدكتور أولدفيلد مرة : « أنت تتحدث الي في طلاقة ، ولكن لا تفتح شفتيك أبداً في اجتماعات اللجنة ؟ أنت يعسوب (١) . » واعجبني المزحة . فالنحلات مشغولات دائماً ، أما اليعسوب فمكسأل أبداً . وكان مما يلفت النظر كثيراً أن اعتصم بالصمت فيما يعبر الآخرون عن آرائهم في تلك الاجتماعات . وليس معنى هذا اني لم أكن اجد ما يغريني بالكلام . ولكني كنت في حيرة من أمري ، لا أدري كيف أعبر عن فكري . لقد بدا لي سائر الاعضاء وكأنهم أحسن اطلاعاً مني . وكثيراً ما كنت أستجمع قواي للكلام . فما أكاد أفعل حتى تكون اللجنة قد انتقلت إلى موضوع جديد . واستمرت هذه الحال فترة طويلة .

وفي غضون ذلك طرحت على بساط المناقشة مسألة خطيرة . واعتقدت ان من الخطأ أن لا أشهد الاجتماع ، واستشعرت أن من الجبن أن أسجل صوتاً صامتاً . ولقد نشأت المناقشة على هذا النحو تقريباً : كان رئيس الجمعية هو مسر هيلز ، صاحب شركة « أشغال التاييس الحديدية » . وكان من البيوريتان الطهرين . وفي الامكان القول إن وجود الجمعية كان يتوقف عملياً على عونه المالي . وكان كثير من أعضاء اللجنة من محبيه قليلاً

١ اليعسوب : ذكر النحل .

أو كثيراً ، وكان الدكتور آليسون ذو الشهرة النباتية عضواً في اللجنة أيضاً . وكان من أنصار حركة ضبط النسل التي ظهرت أول ما ظهرت في ذلك العهد ، وكان يشترطها بين طبقات العمال . أما مستر هيلز فكان يذهب إلى أن هذه الطرائق تبحث الفضيلة من جنورها . كان يرى أن هدف الجمعية النباتية ، ليس الإصلاح الغذائي فحسب ، بل الإصلاح الأخلاقي أيضاً ، وأن رجلاً يعتقد مثل آراء الدكتور آليسون اللاطهرية يجب أن لا يُسمح له بالبقاء في الجمعية . وهكذا عُرض على اللجنة اقتراح باقصاصه . وأثارت هذه المسألة أعظم اهتمامي . كنت أعتبر آراء الدكتور آليسون في الأساليب الصناعية لضبط النسل شيئاً خطيراً ، وأعتقد أن من حق مستر هيلز ، بوصفه من الطاهرين ، أن يعارضه . وكنت أحترم مستر هيلز وسخاءه احتراماً عظيماً . ولكنني اعتقدت أن من الخطأ الفادح أن يُقصى رجل عن جمعية نباتية لمجرد أنه رفض أن يعتبر الأخلاق البيوريتانية هدفاً من أهداف الجمعية . لقد كانت وجهة نظر مستر هيلز في ما يتصل باقصاء اللاطهرين عن الجمعية آراء شخصية خاصة به ، ولم يكن لها أية علاقة بهدف الجمعية المعلن عنه ، والذي كان مجرد نشر الدعوة النباتية لا نشر أي نظام من نظم الأخلاق . من أجل ذلك كنت أذهب إلى أن في استطاعة أي نباتي أن يكون عضواً في الجمعية بصرف النظر عن آرائه في النواحي الأخلاقية الأخرى .

وكان في اللجنة أعضاء آخرون شاركوني رأبي ، ولكنني شعرت أنني مدعو شخصياً إلى الانصاح عن رأبي الخاص . ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ كان هذا هو السؤال . لم تكن عندي الجرأة على الكلام ، ومن أجل ذلك عذمت على بسط أفكارني تحريراً . ومضيت إلى الاجتماع والكلمة المكتوبة في جيبتي . وعلى مقدار ما أذكر ، فاني لم أواس في ذات نفسي القدرة حتى على تلاوتها ، فكلف الرئيس شخصاً آخر بأن يقرأها . وخسر الدكتور آليسون المعركة . وهكذا وجدت نفسي ، في أول معركة من هذا النوع ، حليف الفريق المنهزم . ولكن الذي سرى عني أن القضية التي دافعت عنها كانت قضية حق . وأنا

أذكر الآن ، ذكرى واهنة ، اني قدمت استقالي من اللجنة بعد هذه الحادثة :  
هذا الحياء احتفظت به طوال مقامي في انكلترا. وحتى حين كنت أقوم بزيارة  
اجتماعية كان وجود نصف دزينة من الناس أو أكثر يعقد لاني حتى البكم .

لقد ذهبت ذات يوم إلى فيتنور مع السيد مازمودار . ونزلنا هناك عند  
أسرة نباتية . وكان مسر هووارد ، مؤلف « أخلاق الغذاء » ، يتزل أيضاً في  
المشفى المائي نفسه . واجتمعنا به ، ودعانا إلى الكلام ، في اجتماع يعقد لنشر  
الفلسفة النباتية . وكنت قد استيقنت من انه ليس من غير اللائق ان يتلو المرء  
خطابه تلاوة ، فلقد عرفت أن كثيراً من الناس كانوا يفعلون ذلك لكي يعبروا  
عن أفكارهم تعبيراً متهاشكاً وموجزاً . فقد كان الكلام ارتجالاً شيئاً غير وارد  
بالنسبة اليّ . ومن أجل ذلك دونت كلمتي على القرطاس . ووقفت لألقيها ،  
ولكني لم أستطع . لقد رانت على بصري غشاوة ، وسرت الرعدة في أوصالي ،  
على الرغم من أن الكلمة لم تكذب تستغرق صفحة واحدة فولسكاب . وهكذا كان  
على السيد مازمودار أن يتلوها بالنبابة غني ، وكان خطابه هو ممتازاً طبعاً ،  
وقد استقبل بالتصفيق والاستحسان . وخجلت من نفسي ، واستبدت بي  
الغم لعجزني .

وكانت آخر محاولة لالقاء خطبة في انكلترا تلك التي قمت بها عشية عودتي  
إلى الوطن . ولكن في هذه المرة أيضاً لم أوفق إلى أكثر من انتراع سخيرة الناس  
بي . فقد دعوت أصدقائي النباتيين إلى تناول طعام العشاء في مطعم هولبورن  
الذي ورد ذكره في هذه الفصول. ذلك اني قلت في ذات نفسي : « ان العشاء  
النباتي يمكن أن يتم » في المطاعم النباتية من غير شك . ولكن لم لا يكون ممكناً  
في مطعم غير نباتي أيضاً ؟ وانفقت مع مدير المطعم على ان يعد لنا طعاماً نباتياً مثلاً  
بالمئة . وهلل النباتيون للتجربة الجديدة . ان جميع المآدب يُقصد بها إلى المتعة  
ولكن الغرب قد طور ذلك إلى فن . فهذه المآدب تقام في بهاء صاحب ، وفي  
جو من الموسيقى والخطب . ومائدة العشاء الصغيرة التي دعوت اليها أصدقائي  
لم تكن عاطلة عن هذه المظاهر أيضاً . واذن ، فلم يكن من الخطب بد . وحين



جاء دوري في الكلام وقفت لالقي كلمة . وكنت قد فكرت في كثير من العناية بكلمة تألف من بضع جمل ليس غير . ولكني لم أستطع أن أذهب في الكلام إلى أبعد من الجملة الأولى . وكنت قرأت عن اديسون أنه بدأ خطابه البكر في مجلس العموم مكرراً عبارة « لقد فكرت » ثلاث مرات ، وحين عجز عن التقدم إلى أبعد من ذلك نهض ظريف وقال : « لقد فكر الرجل ثلاث مرات ولكن الله لم يفتح عليه بشيء . » وكان قد خطر في بالي ان القي كلمة فكاهية اديرها حول هذه الحكاية . وهكذا بدأت الكلام بها ثم أرتج علي . لقد خانتني ذاكرتي خيانة كاملة ، فاذا بي - وقد رغبت فيلقاء خطاب فكاهي - أجعل من نفسي أضحكة . عندئذ قلت في اقتضاب : « أشكركم ، أيها السادة ، حل نطفكم بقبول دعوتي » ، وجلست .

ولم أنقلب على هذا الخجل إلا في جنوب إفريقيا ، وان كنت لم أقهره قهراً تاماً في أيما وقت من الاوقات . كان من المستحيل علي ان أخطب ارنجالات . فقد كنت أتردد كلما تعين علي أن أواجه جمهوراً غريباً ، وكنت أجنب لقاء الخطب كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً . وحتى في هذه الأيام لا أعتقد أنني أستطيع ، أو أنزع إلى ، أن أنظم اجتماعاً لاصدقاء منهمكين في حديث متبطل كسول .

ويتعين علي أن أقول ان حياتي الفطري - في مسا عدا تعريضي لسخرية الناس بين الفينة والفينة - لم يلحق بي أيما ضرر على الاطلاق . والواقع ان في استطاعتي أن أرى ، على عكس ذلك ، انه كان كله لمصلحتي . إن ترددي في الخطابة ، الذي كان في يوم مضى عائقاً ، أمسى الآن متعة . كانت فائدته العظمى انه علمني الاقتصاد في الكلمات . ولقد تعودت بحكم الطبع أن أكبح جماح أفكاري . وأستطيع الآن أن أشهد لنفسي بأن لساني أو قلبي نادراً ما تند منها كلمة طائشة . ولست أذكر أنني ندمت يوماً على أيما شيء قلته أو كتبت . وهكذا وفرت على نفسي كثيراً من البلايا وضياع الوقت . لقد علمتني التجربة ان الصمت جزء من النظام الروحي للرجل المتعبد للحقيقة . فالتزعة إلى المبالغة ، إلى اخماد الحقيقة أو تعديلها ، عن قصد أو عن غير قصد ، هي ضعف طبيعي

في الانسان ، والصمت ضروري للتغلب على هذا الضعف . إن الرجل القليل الكلام نادراً ما يكون أحمق في حديثه . إنه يَزنُ كل كلمة . ونحن نجد كثيراً من الناس التواقين أشد ما يكون التوق إلى الكلام . وليس ثمة رئيس اجتماع لم يزَعج بكثرة الراغبين في أن يسمح لهم بالكلام . وكلما أعطي هذا الاذن لتحدث ما فإنه غالباً ما يتجاوز الوقت المحدد له ، فيطلب وقتاً إضافياً ، ويواصل الكلام من غير اذن . وليس في امكان المرء أن يقول ان في هذا الكلام كله أيما فائدة للعالم . إنه في معظمه مضیعة للوقت . لقد كان حياتي في الواقع ، درعي ومجني ، لقد سمح لي بأن أتمو . لقد ساعدني في إدراكي للحقيقة .

## ١٩ . قرحة الكذب

كان في انكلترة ، منذ أربعين سنة ، عدد قليل من الطلبة الهنود نسياً . وكان من عادتهم أن يمثلوا دور الشاب العزب على الرغم من أنهم قد يكونون متزوجين : فطلاب المدارس أو الكليات في انكلترة كلهم عزاب ، باعتبار ان القوم هناك يعتبرون الدراسة شيئاً يتنافى مع الحياة الزوجية . وقد كان عندنا مثل هذا العرف في الأيام السعيدة الخالية ، يوم كان التلميذ يعرف دائماً بـ « براهاتشاري » (١) ولكن في هذه الأيام أصبح عندنا زواج الأطفال ، وهو شيء غير معروف البتة في انكلترة . وهكذا كان الشبان الهنود في انكلترة يستحيون من الاعتراف بأنهم متزوجون . وكان ثمة سبب آخر لهذا النفاق ، وذلك انه إذا ما عُرِفَ هله الحقيقة فعندئذ يتعذر على اولئك الشبان أن يخرجوا برفقة فتيات الأسرة التي يحبون معها أو مغازلتهم . وكانت المغازلة بريئة كثيراً أو قليلاً . بل ان أهل الفتيات كانوا يشجعون عليها . وذلك النوع من الاختلاط بين الشبان والشابات

١ الذي يلزم الـ « براهاتشاريا » أي ضبط النفس .

قد يكون ضرورة في تلك الديار ، على اعتبار ان كل شاب كان يتعين عليه أن يختار رفيقة حياته . ومهما يكن من أمر ، فان الشبان الهنود إذا ما استرملوا ، لدن وصولهم إلى انكلترة ، في هذه العلاقات ، الطيبة جداً بالنسبة إلى الشبان الانكليز ، فقد ينتهي بهم ذلك إلى نتائج وخيمة ، كما قد وقع فعلاً في كثير من الاحيان . لقد رأيت أن شبانا قد استسلموا للاغراء واختاروا حياة من الخداع حرصاً على صداقات مهما تكن بريئة بالنسبة إلى الشبان الانكليز ، فانها كانت بالنسبة إلى شبانا شيئاً غير مرغوب فيه . وأصابني أنا العدوى أيضاً . ولم أتردد في الزعم أنني عزب ، على الرغم من كونني متزوجاً وأباً لولد . ولكني لم أكن أكثر سعادة بهذه المخادعة . وكان احتراسي وصمتي هما اللذان أنقذاني من الانزلاق إلى أبعد . اني إذا لم أتكلم فعندئذ نجد كل فتاة اني غير جدير بأن تستهل معي حديثاً ، أو تخرج معي في نزهة .

وكان جيني مساوياً لاحتراسي . وكان من المؤلف ، في مثل الاسرة التي نزلت بين ظهرانيها في فينتور ، أن تُخرج ابنة ربة البيت الضيوف للتزهر سيراً على الأقدام .

وذات يوم دعاني ابنة ربة المنزل الذي كنت أنزل فيه إلى نزهة في الكيبان البديعة المحيطة بفينتور . ولم أكن مشاء بطيئاً ، ولكن رفيقي مشت بأسرع مما مشيت ، وأنشأت تجرني خلفها وتلفو لغواً موصولاً . وكنت أجيب على هلهلها بـ « نعم » مهموسة حيناً ، وبـ « لا » مهموسة أيضاً و « نعم » ، ما أجمل ذلك ! ، على الأكثر . كانت تطير مثل عصفور ، على حين كنت أتساءل متى ينبغي أن أرجع إلى البيت . وهكذا بلغنا قمة الكيب . وكانت المشكلة الآن هي مشكلة النزول . فعلى الرغم من حداثتها العالي الكعب استطاعت هذه الفتاة المرحلة أن تنطلق هابطة الكيب كالسهم . أما أنا فكنت أناضل من أجل الهبوط في خجل بالغ . ووقفت هي عند سفح الكيب تبتسم لي ، وتشجعي ، وتعرض عليّ أن نجبي . وتسحبي . كيف جاز لي أن أكون مخلوع القواد إلى هذا الحد ؟ وفي أقصى العمر ، وغير محجم عن الزحف بين الفينة والفينة ، وفقت إلى الانزلاق

حتى السفع . وضحكت وأطلقت كلمة « برافو » في صوت مرتفع ، فزادته  
بذلك خجلاً على خجل .

بيد اني لم أتحقق بالنجاة والسلامة كل مرة . ذلك ان الله شاء ان يخلصني من  
قرحة الكذب . فقد ذهبت مرة إلى برايتون ، وهو مشفى مائي مثل فينتنور :  
وكان ذلك قبل زيارتي لفينتنور . وهناك التقيت في احد الفنادق أرملة عجوزاً  
متوسطة الحال . وكانت تلك هي سنتي الأولى في انكلترا . وكانت الوان الطعام  
مدونة كلها في الجدول ، باللغة الفرنسية ، فلم أفهم منها شيئاً . وجلست إلى  
المائدة نفسها التي جلست إليها السيدة العجوز . ورأت اني غريب ذاهل ، فمدت  
الي يد العون في الحال ، قائلة : « يبدو انك غريب ، ويظهر عليك الارتباك ،  
لماذا لم تطلب من النادل ان يحضر لك شيئاً ؟ » وكنت أنهجي جدول الطعام  
وأستعد لسؤال النادل عن العناصر التي تتألف منها الالوان المختلفة عندما تدخلت  
السيدة الطيبة على هذا النحو . فشكرتها ، وقلت لها اني كنت في حيرة واني أجهل  
أي الألوان كانت نباتية بسبب من عدم فهمي اللغة الفرنسية .

فقلت :

— « دعني أساعدك . سوف أشرح جدول الطعام لك ، واربك ما الذي  
تستطيع أن تأكله . »

وأفدت ، شاكراً ، من معونتها . وكان ذلك بدء معرفة تطورت بعد ذلك إلى  
صداقة : واستمرت طوال إقامتي في انكلترا وبعد ذلك بكثير . وقدّمت إليّ  
عنوانها في لندن ، ودعّني إلى تناول طعام العشاء في منزلها كل يوم احد . وفي  
المناسبات الخاصة ، كانت تدعوني إلى منزلها أيضاً ، وتساعدني على التغلب  
على خجلي ، وتعرفني إلى القنيات وتسترجني إلى التحدث معهن . وكانت  
تشجعني على أن أتحدث بخاصة إلى فتاة تقيم معها ، وكثيراً ما كنا نترك وحدنا  
وليس بيننا ثالث .

ووجدت ذلك كله عبيراً جداً بأديء الأمر . فلم يكن في ميسوري أن أستهل  
محادثة ما ، ولم يكن في ميسوري ان أنهك في مزاح ما . ولكنها أخذت يدي ،

وبدأت أنعلم . وما هي إلا فترة حتى بدأت ارتقب يوم الاحد ارتقاباً ، وحتى  
أسميت أحب التحدث إلى الصديقة الشابة .

ومضت السيدة العجوز تنثر شباكها أوسع فأوسع يوماً بعد يوم . كانت  
تتشعر شوقاً بالغاً إلى اجتماعنا . ولعلها كانت تدبر لنا أمراً .

ووجدت نفسي في ورطة . وقلت في ذات نفسي : « لبتني أخبرت السيدة  
الطيبة اني متزوج ! كانت خليفة عندئذ بأن لا تفكر في الجمع بينا برباط  
الزوجة . وعلى أي حال فلا يزال ثمة مجال لاصلاح الخلل . إذا صرحت  
بالحقيقة فقد أنقذ نفسي من شقاء أعظم . » كانت هذه الأفكار تعصف برأسي  
عندما كتبت إليها رسالة هذا فحواها :

« منذ أول لقاء تم بينا في برايتون ، كنت لطيفة معي . لقد أحطني بعناية  
كذلك التي تحيط بها أمّ ابنها . وأنت أيضاً تعتقدين أن عليّ ان أتزوج ، وعلى  
هدي من هذا الاعتقاد عرفتي إلى بعض الفتيات . ولكي لا أدع الأمور تذهب  
إلى أبعد من ذلك يتعين عليّ ان أعترف لك بأنني غير جدير بحنائك . كان ينبغي  
ان أخبرك ، عندما بدأت زياراتي لك ، اني متزوج . كنت أعرف ان الطلبة  
الهنود في انكلترا يتظاهرون بأنهم لا يزالون عزاباً ، ولقد حظوت حنوهم . أنا  
أرى الآن انه ما كان ينبغي لي أن أفعل ذلك . ويتعين عليّ ان أضيف أيضاً اني  
تزوجت وأنا بعد صبي صغير ، واني أب لولد . اني أنالماً لأنني كنت هذه  
الحقيقة عنك طوال هذه المدة ، ولكنني سعيد لأن الله قد أمدني اليوم بالجرأة  
على قول الحق . فهل تغفرين لي ؟ أنا أوكد لك اني لم آخذ أية حرية غير لائقة  
مع الفتاة التي تلطفت بتعريفي إليها . لقد رغبت لجهلك اني متزوج في ان نجتمع  
بيننا بعقد الزواج ، وهي رغبة طبيعية جداً . ولكي لا تتخطى الاشياء المرحلة  
الحالية يتحتم عليّ أن أخبرك الحقيقة .

« إذا شعرت عند تسلمك هذه الرسالة اني لم أكن جديراً بحمن وفادتك فاني  
أوكد لك اني لن أستاذ . لقد طوّقت عنقي بدين أبديّ من طريق لطفك وعطفك .  
وإذا شئت بعد هذا ان لا تذكريني ، وإذا أثرت ان تواصلني اعتباري جديراً

بهيبتك - هذه الضيافة التي لن أدخر وسعاً لأجعل نفسي أهلاً لها - سوف أكون سعيداً بذلك ، وسأعتبره دليلاً جديداً على كرم نفسك .

وليعلم القارئ انه لم يكن في ميسوري ان أدبج مثل هذه الرسالة في لحظة واحدة . لقد سوّذتها ثم أعدت نسويدها مرات ومرات . ولكنها حررتني من ثقل كان يُنقض ظهري . وما انقضت غير أيام قليلة حتى حمل الي البريد جوابها وكان شيئاً مثل هذا :

« لقد تلقيت رسالتك الصريحة . لقد كنا كلنا سعيدين جداً بها ، وقد ضحكنا لها من صميم قلوبنا . انا نغفر لك خطيئة الكذب التي تقول انك اقترفتها ، ولكنك أحسنت صنماً بتعريفنا إلى واقع الاشياء . إن دعوتي اياك لا تزال قائمة ، ولا ريب في اننا نتوقع ان نراك يوم الاحد القادم ، وننتطلع إلى ان نسمع منك كل شيء عن زواجك الطفلي ، وإلى الامتناع بالضحك على حسابك . هل انا في حاجة إلى ان اؤكد لك ان هذه الحادثة لن تؤثر البتة في صداقتنا ؟ »

وهكذا ظهرت نفسي من قرحة الكذب ، ولم احجم منذ ذلك الحين عن الاعتراف بوضعي كرجل متزوج كلما قضت الحاجة بمثل هذا .

## ٢٠ . تعرّتي الى الأدبان

في أواخر سنّي الثانية بلندن اجتمعت مصادفة بفيلسوفين ثيوصوفيين . وكان هذان الفيلسوفان شقيقين ، وكانا غير متزوجين . لقد حدثاني عن « الجينا » ، كانا يتلوان ترجمة السير ادوين آرنولد « للاغنية الساوية » ، وقد دعواني إلى ان أقرأ الأصل معها . واستشعرت الخجل ، لأنني لم أقرأ القصيدة الالهية لا بالسنسكريتية ولا بالكوجاراتية . وكنت ملزماً ان اقول لها اني لم أقرأ « الجينا » ولكني أكون سعيداً بأن أقرأها معها ، واني على الرغم من ان معرفتي بالسنسكريتية هزيلة ارجو أن أكون قادراً على فهم الأصل إلى حدّ يمكنني من التنبيه على المواطن التي عجزت فيها الترجمة عن الاحاطة بالمعنى الأصلي :

وبدأت أقرأ « الجيتا » معها . والواقع ان هذه الايات :

وإذا فكر المرء في أشياء الحس ، فهناك  
تنبت الاسئلة . ومن الاسئلة تنشأ الرغبة ،  
وتتأجج الرغبة تصبح شهوة . والشهوة  
لؤلؤة اللطيف . ثم ان الذاكرة - وقد غيمت -  
تستل من الهدف اللبيل ، وتخرّب للعقل ، حتى  
يحلك الهدف ، والعقل ، والانسان جميعاً .

من الفصل الثاني قد تركت في عقلي انطباعة عميقة ، ولا تزال تترن في  
اذني إلى الآن . لقد بدعني ذلك الكتاب كتحفة لا تقدر بثمن . ومنذ ذلك الحين  
وهذه الانطباعة تتماظم في نفسي حتى لقد أصبحت اعتبره اليوم أكثر من غيره  
من الكتب ، الكتاب الأول في معرفة الحق . لقد قدم إليّ عنواناً  
مظلياً في ساعات الحلكمة . ولقد قرأت جميع ترجماته الانكليزية تقريباً ، وأنا  
أرى ان ترجمة السير أدوين آرنولد أفضلها كلها . وعلى الرغم من اني قرأت  
« الجيتا » مع هذين الصديقين فلت ازعم اني درست آتلك . انه لم يصبح  
كتاباً من كتب القراءة اليومية إلا بعد بضع سنوات .

واقترح الاخوان أيضاً قراءة « نور آسية » للسير أدوين آرنولد الذي  
كنت أعرفه حتى ذلك الحين مترجماً « للاغنية السهاوية » لبس غير . وقرأت  
هذا الكتاب في شوق أعظم حتى من ذلك الشوق الذي قرأت به  
ال « بهاغافاد جيتا » . فما ان بدأت في قراءته حتى عجزت عن تركه . كذلك  
أخذاني في بعض المناسبات إلى « محفل بلافاتسكي » وعرفتني إلى مدام بلافاتسكي  
ومسر ييزانت . وكانت هذه الاخيرة قد انضمت منذ قريب إلى « الجمعية  
التيوصوفية » ، وكنت أتابع في كثير من الشوق الجدل الدائر حول دخولها  
في المذهب . ونصحني الصديقان بالانضمام إلى الجمعية ، ولكني اعتذرت في كياسة  
قائلاً : « اني بمعرفتي الهزيلة لديني الخاص لا اريد ان انضم إلى أي مؤسسة  
دينية » . واذكر اني قرأت ، بناء على الحاح الشقيقتين ، كتاب « مفتاح

لثيوصوفية ، للسيدة بلانفانسكي . وأثار هذا الكتاب في نفسي الميل إلى قراءة الكتب المؤلفة عن الهندوسية ، وحررتني من الفكرة التي طبعها المبشرون في عقلي والقائلة بأن الهندوسية مفعمة بالخرافات .

وفي ذلك الوقت نفسه تقريباً التقيت بمسيحي طيب من مانستر في نزل نباتي وحديثي عن المسيحية . فرويت له ذكرياتي في راجكوت . فأله سماع ذلك ، وقال : « أنا نباتي . أنا لا أشرب الخمر . إن كثيراً من المسيحيين هم أكلة لحم وهم يمتسون الخمر ، من غير ريب . ولكن لا أكل اللحم ولا احتساء الخمر مفروض فرضاً في الاسفار المقدسة . أرجوك أن تقرأ التوراة ، وقبلت نصيحته ، فجاءني بنسخة . واذكر ذكرى واهنة انه هو نفسه كان يبيع نسخاً من التوراة . واشتريت منه طبعة تحتوي على خرائط ، وفهرست أبجدي ، وغير ذلك من الوسائل المساعدة . وبدأت أقرأ ، ولكني لم أستطع أن أتم قراءة العهد القديم : وقرأت سفر التكوين ، ولا ريب في أن الفصول التي تلت أوقعت النعاس في عيني . ولكن لمجرد ان أكون قادراً على القول اني قرأت التوراة رحلت أشق طريقي في عمر بالغ عبر الاسفار الاخرى ومن غير ما شوق ولا فهم البتة . لقد كرهت قراءة سفر العدد .

ولكن العهد الجديد ترك في نفسي انطباعاً مختلفة ، وبخاصة الموعظة على الجبل ، التي نفذت إلى قلبي مباشرة . وقارنتها بالجبتي . ان هذه الآيات : « وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر . بل من لطمك على خدك الايمن فحوك له الآخر أيضاً . ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ، أقول إن هذه الآيات أبهجني إبهاجاً لا حد له ، وأذكرتني بقول شامل بهات : « مقابل قذح ماء قدّم وقعة طعام سخية » الخ . وحاول عقلي النض أن يوحد تعاليم الجبتي ، و « نور آسية » ، و « الموعظة على الجبل » . لقد راقني جداً القول بأن التضحية هي أسمى أشكال الدين .

هذه القراءة حركت شهوتي إلى دراسة حيوات نفر آخر من المعلمين الدينيين : وأوصاني صديق لي بأن أقرأ « الابطال وعبادة البطولة » لكاو لايل . فقرأت



الفصل الموسوم بـ « البطل على صورة نبي » ، فتعرفتُ إلى عظمة الرسول ( العربي ) وشجاعته وحياته الصارمة .

ولم أستطع في تلك الفترة أن أذهب إلى أبعد من هذا التعرف إلى الأديان ، لأن الاستعداد للامتحان لم يكد يدع لي أي وقت لمطالعة الموضوعات الخارجية . ولكني سجلت في ذهني هذه الملاحظة ، وهي أن عليّ أن أقرأ كتباً دينية أخرى ، وأنعرف إلى جميع الأديان الرئيسية .

وكيف أستطيع ان اجنب معرفة شيء عن الاحاد أيضاً ؟ إن كل هندي كان يعرف اسم برادلاف وإلحاده . ولقد قرأت كتاباً ما في هذا الموضوع ، كتاباً نسبت اسمه . إنه لم يترك أثراً في نفسي ، ذلك لأنني كنت قد اجتزت قبل ذلك صحراء الاحاد . وكانت مسز بيزانت ، التي كانت الانوار مسلطة عليها آنذاك ، قد تحولت عن الاحاد إلى التآليه ، وكان في هذه الحقيقة ما قوى نفوري من الاحاد . وكنت قد قرأت كتابها : « كيف أصبحت ثيو صوفية » .

وحوالى هذا الوقت بالذات كانت وفاة برادلاف ، فدفن في جبانته « ووكنج » وشهدت الجنازة ، كما فعل كل هندي مقيم في لندن ، على ما اعتقد . كذلك شهد الجنازة نفر قليل من رجال الدين ليؤدوا له واجب الاحترام الاخير . وفي طريق عودتنا من الدفن تعين علينا ان ننتظر القطار في المحطة . فما كان من احد الملاحدة المتحمسين إلا ان أزعج ، وسط الحشد ، واحداً من رجال الدين هؤلاء بكثرة أسكته :

— « حسناً ، يا سيدي ، أنت تؤمن بوجود الله ؟ »

فقال الرجل الطيب في صوت خفيض :

— « أجل ، أنا اؤمن . »

فقال الملحد في ابتسامة الواثق من نفسه :

— « وأنت توافق أيضاً على ان يحيط الأرض ٢٨٠٠٠ ميل ، أليس كذلك ؟ »

— « من غير شك . »

- « أرجوك ، إذن ، أن تخبرني عن حجم الألمك . وأين يمكن أن يوجد »
- « حسناً ، إذا صدق ظننا فإنه يقيم في قلبنا نحن الاثنين . »
- فقال الملحد وهو ينظر إلينا نظرة مظفّرة :
- « كفى ، كفى ، لا تحسّني طفلاً ! »
- واعتصم رجل الدين بصمت متضع .
- إن هذا الحديث زادني كراهية للحلاد .

## ٢١ . « هو عون العاجز وقوة الضعيف »

على الرغم من اني اكتسبت معرفة سطحية بالديانة الهندوسية وبأديان العالم الأخرى فقد كان عليّ ان أعلم ان تلك المعرفة غير كافية لانفاذي من التجارب . إن الانسان لا يلمّ في اللحظة نفسها إلماً غامضاً - ولا نقول لا يعرف معرفة يقينية - بالشيء الذي بعصمه في خضمّ التجارب . فاذا كان غير مؤمن فإنه يعزو نجاحه إلى المصادفة . وإذا كان مؤمناً فإنه يقول ان الله قد أنجاه . إنه سوف يستتج ان دراسته الدينية أو انضباطه الروحي هما اللذان شغعا به عند الله فأنقذه . أما في ساعة خلاصه فهو لا يعرف ما إذا كان انضباطه الروحي أو أي شيء آخر ينجيه وينقذه . ومن ذا الذي اعترّ بقوته الروحية ولم يرها تنقهر وتعقر بالتراب ؟ ان المعرفة بالدين ، بوصفها متميزة عن الخبرة ، تبدو مجرد هراء في ساعات التجربة والمحنة .

وإنما اكتشفت ، في انكثرة ، اول ما اكتشفت ، تفاهة المعرفة الدينية الصرفة . أما كيف أنقذت في مناسبات سابقة فذلك فوق ما استطيع أن أقوله؛ ذلك اني كنت صغيراً جداً آنذاك . أما الآن فقد كنت في العشرين من عمري ، وكنت قد كسبت بعض الخبرة كزوج وكأب .

وفي خلال السنة الأخيرة ، على قدر ما أذكر . من مقامي في انكثرة ، أي

١ « Nirbal ke bala Rama » وهي لازمة ترونية « سورداس » الشهيرة .

عام ١٨٩٠ ، عقد مؤتمر نباتي في بورتسهاوث دعيت إليه أنا وأحد أصدقائي الهنود . وبورتسهاوث مرفأ زاهر بالسكان البحرين . وان فيها كثيراً من البيوت التي تقطنها نساء مشتهرات . انهن لسن مومسات في الواقع ، ولكنهن في الوقت نفسه لا يبالين كثيراً بأمر أخلاقهن . وقد انزلنا في واحد من هذه البيوت . ولست في حاجة إلى القول ان لجنة الاستقبال لم تعرف أي شيء عن ذلك . فقد كان من العسير في مدينة مثل بورتسهاوث ان يدرك المرء أي المنازل حسنة وأي المنازل رديئة بالنسبة إلى مسافرين عابرين مثلاً .

ورجعنا من المؤتمر في المساء . وبعد تناول العشاء جلسنا للعب البريدج ، فشاركنا ربة المنزل في ذلك كما هي العادة في انكلترا حتى في الاسر المحترمة . وليس من ريب في أن كل لاعب يستمر في النكات البريئة ، ولكن رفيقي ومضيفتنا شرعا ، هنا ، بطلقان نكاثاً غير محتشمة . ولم أكن أعلم ان رفيقي كان بارعاً في هذا الفن . وأسرتني ذلك ، ورحت أخوض في هذا المضمار . ولكني ما كدت أحاول نخطي الحد . تاركاً ورق اللعب واللعبة ، حتى همس الله في اذني ، من طريق الرفيق الطيب ، هذا التحذير المبارك : « من أين حل بك هذا الشيطان ، يا بني ؟ أخرج من هنا ، اسرع ! »

واستبد بي الخجل . وتقبلت التحذير ، وعبرت في ما بيني وبين نفسي عن شكري لصديقي . واذا ذكرت اليمين التي أقسمتها أمام أمي ، فقد غادرت المكان ناجياً بنفسي . لقد ذهبت إلى غرفتي ، مرتجفاً مرتعشاً ، خافق القلب مثل طريدة تحاول النجاة من مطاردها .

أنا أذكر هذه الحادثة بوصفها أول مناسبة استطاعت فيها امرأة ، غير زوجتي ، ان تثير في شهوة الجنس . وقضيت ذلك الليل ارقاً لا تكحل عيناها بالنوم ، أقلقاً تعصف بي ضروب الافكار على اختلافها . هل يتعين علي ان أغادر هذا المنزل ؟ هل يتعين علي ان أفر من المكان ؟ ما الذي كان يحل بي لو اني فقدت السيطرة على نفسي ؟ وفكرت أن أعمل ، منذ اليوم ، في كثير من الحسلر . وعزمت لا على ان أغادر المنزل ، بل على ان أغادر بورتسهاوث بطريقة ما . وكان

من المنتظر أن ينفض المؤتمر بعد يومين أو نحو ذلك . وأذكر اني غادرت  
بورتسماوث في مساء اليوم التالي . أما رفيقي فبقي هناك فترة أطول .

ولم أعرف ، آنذاك ، جوهر الدين أو الله ، وكيف تعمل الذات  
الالهية في داخلنا . كل ما في الأمر اني فهمت على نحو غامض ان الله قد  
انقذني في تلك المناسبة . والحق انه انقذني من التجارب كلها . وانا أدري ان  
لقولي : « انقذني الله » معنى أعمق عندي اليوم ، ومع ذلك فأنا اشعر اني  
لما أستوعبُ كامل معناها . ان الخبرة الأنخصب تستطيع وحدها ان تمكنني  
من التحقق بفهم أوفى . ولكن في التجارب التي واجهتني - في حياتي الروحية  
وكمحام ، وفي إدارة المؤسسات ، وفي دنيا السياسة - أستطيع أن أقول إن الله  
قد انقذني . فحين ينقطع الرجاء كله ، و « حين يعجز المسعفون وتعزّ السلوى »  
اجد أن العون يهرع اليّ بطريقة ما ، ومن مكان لست أدريه . ان الابتهاال ،  
والتعبّد ، والصلاة ليست خرافة . انها أعمال أكثر واقعية من أعمال الأكل ،  
والشرب ، والقعود ، والمشي . وليس من المبالغة ان نقول انها هي وحدها  
الحقيقة ، وكل ما عداها غير حقيقي .

ومثل هذه العبادة أو هذه الصلاة ليست نوبة من نوبات الفصاحة ، وليست  
غشوعاً شفوياً . انها تنبثق من القلب . فاذا حققنا إذن طهارة القلب حين « يفرغ  
من كل شيء » إلا الحب ، وإذا أبقينا جميع الاوتار في تناغم صالح فان هذه  
الاوتار « تنوارى مرتعشة ، بالموسيقى ، عن الانظار » . إن الصلاة ليست في  
حاجة إلى الفاظ . إنها في ذات نفسها مستقلة عن أي جهد جسدي حسي . وليس  
عندي أصال شك في ان الصلاة وسيلة ناجعة لتطهير القلب من الاهواء . ولكنها  
يجب أن تكون مقترنة بأعظم قدر من الانضغاع :

## ٢٢ . نارايان هيمشانندرا

حوالى هذه الفترة بالذات وفد نارايان هيمشانندرا إلى انكلترة . وكنت قد سمعت به ككاتب . لقد اجتمعنا في بيت الآنسة مانغ ، وكانت عضواً في الجمعية الهندية القومية . وكانت الآنسة مانغ تعلم اني شديد الخجل . فقد كنت إذا ما قصدت إلى دارها أجلس معقود اللسان ، لا أتكلم إلا حين يوجه إليّ الخطاب . وعرفتني إلى نارايان هيمشانندرا . كان لا يعرف الانكليزية ، وكانت ملابسه غريبة : سروال أخرق ، ومرة بنية قدرة متفضضة ، على الزري انبارسي ، وقميص من غير طوق ولا عقدة رقبة ، وقلنسوة صوفية ذات شراية . وكانت له لحية طويلة .

كان رقيق البنية قصير القامة . وكان وجهه المدور منقطعاً بالجفري ، وكان له أنف ليس بالدقيق ولا بالغليظ . وكانت يده تعبت بلحيته وتقلبها على نحو موصول : إن مثل هذا الشخص الغريب الطلعة ، الغريب الثياب ، لا بد أن يثير الفضول في المجتمع العصري .

وقلت له :

— « لقد سمعت كثيراً عنك ، كلك قرأت بعض كتاباتك . واني لأكون سعيداً جداً إذا ما تلطفت بزيارتي . »

وكان لنارايان هيمشانندرا صوت أجش . فأجابني وقد افترت شفته من ابتسامة :

— « أجل ، أين تسكن ؟ »

— « في شارع ستور . »

— « إذن فنحن جاران . أريد ان أنعلم الانكليزية . هل لك أن تعلمني ؟ »

— « سوف أكون سعيداً بأن أعلمك أي شيء أقدر عليه ، وسوف أبذل الجهد في ذلك . وإذا شئت ، فاني مستعد للذهاب إلى بيتك . »

— « اوه ، لا . سوف أقصد أنا إلى غرفتك . وسوف أحمل معي كتاباً

## مدرسياً في الترجمة .

وهكذا عينا موعداً . وما انقضت فترة قصيرة حتى أصبحنا صديقين حميمين : كان نارايان هيمشاندرام يجمل قواعد اللغة جهلاً كاملاً . كانت كلمة « فرس » عنده فعلاً ، وكلمة « ركض » اسماً . وأنا أذكر كثيراً من الحوادث المشابهة المضحكة . ولكن جهله ذاك لم يفت في عضده . ولم تستطع معرفتي البسيطة بقواعد اللغة ان تترك أيما اثر في نفسه . وليس من ريب في أنه لم يعتبر جهله لقواعد اللغة ، في يوم من الايام ، مسألة تدعو إلى الخجل .

وفي لامبالاة تامة قال :

— « أنا لم أذهب قط إلى المدرسة مثلك . ولم أستمع ، في يوم من الأيام ، الحاجة إلى النحو من أجل التعبير عن أفكاري . حسناً ، هل تعرف البنغالية ؟ أنا أعرفها . لقد طفت في البنغال . اني أنا الكاتب الذي قدم مؤلفات ماهاراشي ديفيندراناث طاغور إلى العالم الناطق باللغة الكوجاراتية . وأنا راغب في ان انقل إلى الكوجاراتية كنوز كثير من اللغات الأخرى . وأنت تعلم اني لا أصطنع الترجمة الحرفية أبداً . أنا أقنع دائماً بالتعبير عن روح الكلام . وقد يستطيع غيري ، من ذوي المعرفة الأفضل ، أن يفعلوا شيئاً أكثر في المستقبل . ولكني وارض كل الرضا عما حققت من غير مساعدة النحو . أنا اعرف الماراثية ، والهندية ، والبنغالية ، وها قد بدأت الآن أتعلم الانكليزية . ان ما أطمع به هو ثروة لفظية واسعة . وهل تظن ان طموحي ينتهي عند هذا الحد ؟ لا . أنا أريد ان اذهب إلى فرنسا وأتلمز اللغة الفرنسية . لقد قيل لي ان لتلك اللغة أدباً ضخماً . ولسوف أذهب إلى المانية أيضاً ، إذا استطعت ، وأتلمز هناك اللغة الالمانية . »

على هذا النحو كان يتحدث في غير انقطاع . كان يعمر فؤاده طموح لا حد له إلى تعلم اللغات وإلى الرحلة إلى البلدان الأجنبية .

- « واذن فسوف تذهب إلى أميركا ، أيضاً ؟ »
- « طبعاً . كيف أستطيع ان أرجع إلى الهند من غير ان أرى العالم الجديد ؟ »
- « ولكن من أين تأتي بالمال ؟ »

- « ما حاجتي إلى المال ؟ أنا لست شاباً أنيقاً مثلك . ان أقل قدر من الطعام وأقل قدر من الثياب بكفيايتي . ومهما قلّ المبلغ الذي أحصل عليه من كتبتي ومن أصدقائي فإنه يسدّ حاجتي من هذين . أنا أسافر دائماً في الدرجة الثالثة . ويسوم أسافر إلى أميركا أيضاً سأقوم بالرحلة على ظهر السفينة . »

كانت بساطة نارايان هيمشاندرام نموذجية ، وكانت صراحته متكافئة مع هذه البساطة . أما الغرور فلم تكن عنده أثارة منه باستثناء تقديره المغالى فيه لقدرته ككاتب ، طبعاً .

كنا نجتمع يومياً . لقد كان ثمة حظ كبير من التشابه بين أفكارنا وأعمالنا . كان كل منا نباتياً . وكنا كثيراً ما نتناول طعام الغداء معاً . وإنما كان ذلك في الفترة التي عشت خلالها على سبعة عشر شلناً في الأسبوع ، والتي كنت أطهو فيها الطعام بيدي . كنت في بعض الأحيان أمضي إلى غرفته ، وكان في بعض الأحيان يمضي إلى غرفتي . وكنت أطهو الطعام على الطريقة الانكليزية . ولكن الطريقة الهندية كانت هي وحدها التي ترضيه . إنه لم يستطع الاستثناء عن الـ « دال » . وكنت أعمل الحساء من الجزر وغيره ، فكان يرثي للنوقي . وذات مرة وقعت بده ، بطريقة ما ، على شيء من الـ « مانغ » ( ١ ) ، فطبخه وحمله إلى غرفتي ، والتهمته في ابتهاج . وأدى ذلك إلى نشوء نظام من المقايضة بيننا . كنت أحمل ما عندي من أطياب إلى غرفته ، وكان يحمل ما عنده من أطياب إلى غرفتي .

وكان اسم الكاردينال مانغ ، آنذاك ، على كل شفة . وكان اضرباب عمال أحواض السفن قد حلّ في وقت مبكر بفضل جهود جون بيرنرز والكردينال مانغ . وحدث نارايان هيمشاندرام عن إكبار ديزرايلي لبساطة الكاردينال ، فقال :

- « يجب ، إذن ، أن أرى هذا الحكيم . »

- « انه رجل عظيم . كيف تتوقع ان نجتمع به ؟ »

- « ماذا ؟ أنا أعرف كيف . يجب أن أحملك على الكتابة إليه باسمي . قل

---

١ ضرب من الحبوب الهندية .

له اني مؤلف ، واني اريد أن اهتته شخصياً على عمله الانساني ، وان أقول له  
أيضاً اني مضطر إلى اصطحابك كمتّرجم لأنني لا أعرف الانكليزية . »

وكتبت رسالة بهذا المعنى . وبعد يومين أو ثلاثة جاءنا جواب الكاردينال  
محددأ لنا موعداً . وهكذا مضينا لزيارة الكاردينال . وارتديت ثوب الزيارة  
المعتاد . أما نارايان هيمشانندرا فذهب بسترته نفسها وبسرّوالة نفسه . وحاولت أن  
أنتدر على حاله هذه ، ولكنه أسكنني بضحكة وقال :

— « أنتم ، الشبان المتحضرين ، كلّكم جناء . الرجال العظام لا ينظرون أبداً  
إلى مظهر الانسان الخارجي . ان الذي يهمهم هو فؤاده . »

ودخلنا منزل الكاردينال . وما ان استقر بنا المقام حتّى دخل علينا رجل  
عجوز ، هزيل ، طويل القامة ، وصافحتنا . فألقى نارايان هيمشانندرا  
هذه الكلمة بين يديه :

— « لست اريد أن أضيع وقتك . لقد سمعت كثيراً عنك ، وشعرت بأن من  
واجبي ان اجيء وأن أشكرك على العمل الطيب الذي قمت به من أجل المضربين .  
لقد جرت عادتي بأن أزور حكماء العالم ، وهذا ما دعاني إلى ان اجشّمك هنا  
العشاء . »

كانت هذه ، طبعاً ، ترجمتي لما قاله باللغة الكوجاراتية .  
— « أنا سعيد بزيارتك . وأرجو أن تنعم بالاقامة في لندن وان تتصل بالناس  
هنا . وليباركك الله . »

قال الكاردينال هذه الكلمات ، ونهض وودعنا .  
وذات يوم وفد نارايان هيمشانندرا إلى غرفتي في قميص و « دوطي » .  
وفتحت ربة البيت الطيبة الباب ، وانقلبت راکضة إليّ في ذعر — كانت هذه  
ربة بيت جديدة لا تعرف نارايان هيمشانندرا — وقالت : « ان أحد المعتوهين  
يريد ان يراك . » ومضيت إلى الباب ، وكم كان دهشي عندما وجدت أمامي  
نارايان هيمشانندرا . والواقع انها كانت صدمة لي . وعلى أية حال ، فأن وجهه

• الدوطي dhauti لباس نفاض يلبسه بعض الهنود . (المرب)



لم يتكشف إلا عن ابتسامته المألوفة .

- « ولكن ألم يهزأ بك الغليان في الشارع ؟ »

- « حسنًا ، لقد جروا خلفي ، ولكنني لم أبال بهم فأنصرفوا في هدوء . »

ومضى نارايان هيمشانندرا إلى باريس بعد أن أمضى بضعة أشهر في لندن ،  
لقد بدأ يدرس اللغة الفرنسية ، ويترجم الكتب الفرنسية أيضاً . وكنت أعرف  
شيئاً من الفرنسية مكثني من مراجعة ترجمته ، وهكذا قدمها إلي لأقرأها . إنها  
لم تكن ترجمة للأصل ، لقد كانت زبدته .

وأخيراً فقد عزمه على زيارة أميركا . والواقع أنه وفق ، في كثير من العمر ،  
إلى الحصول على بطاقة سفر على ظهر السفينة . وخلال إقامته في الولايات المتحدة  
حوكم بنهمه « الظهور بملابس غير محتشمة » ، بعد أن خرج إلى الشارع بقميص  
و « دوطي » . وأنا أذكر الآن أنهم أطلقوا سراحه بعد ذلك .

### ٢٣ . المعرض الكبير

وكان في باريس ، عام ١٨٩٠ ، معرض كبير . وكنت قد قرأت شيئاً عن  
الاستعدادات الضخمة المتخذة من أجل إقامته ، وكنت قد رغبت أيضاً برغبة  
قوية في أن أرى باريس . وهكذا رأيت أن من الخير أن أصيب عصفورين بحجر  
واحد ، فأذهب إلى هناك بهذه المناسبة . وكان مما جذب الناس ، أكثر من أي  
شيء آخر ، إلى ذلك المعرض برج ايفل المشيد كله من الحديد ، وللبالغ ارتفاعه  
ألف قدم . كان ثمة طبعاً أشياء كثيرة ممتعة ، ولكن البرج كان أبرزها ،  
إذ كان يعتقد حتى ذلك الحين أن بناء في مثل هذا الارتفاع لا يمكن أن  
ينهض في سلام .

وكنت قد سمعت عن مطعم نباتي في باريس . واستأجرت غرفة هناك  
ومكثت سبعة أيام . ودبرت كل شيء تدبيراً اقتصادياً : الرحلة إلى باريس ،  
والتمتع بالمشاهد هناك . وقد قمت بمعظم هذا الاستمتاع سعيًا على القدمين ،

وبمساعدة خريطة لباريس ، وخريطة للمعرض ودليل اليه . وكانت هذه كافية لتوجيه المرء إلى الشوارع الأساسية وإلى مواطني المنفعة الرئيسية .

أنا لا أذكر شيئاً عن المعرض غير اتساعه وتنوعه . ولا أزال أذكر برج ايفل ذكرى واضحة ، إذ ارتقيته مرتين أو ثلاث . كان ثمة مطعم في الطابق الأول . ولمجرد الرغبة في أن يكون بإمكانني القول اني تناولت طعام الغداء على مثل هذا الارتفاع ، دفعت سبعة شلنات ثمناً لذلك .

إن صور كنائس باريس القديمة لا تزال ماثلة في ذاكرتي . فأنا لا أستطيع أن أنسى عظمتها ووداعتها . كذلك لا يستطيع المرء أن ينسى هتمة فونوتردام الرائعة وزخارفها الداخلية البديعة ، وتمثيلها الجميلة . لقد شعرت آنذاك أن أولئك الذين أنفقوا الملايين على مثل هذه الكاتدرائيات الالهية لا يمكن إلا أن يكونوا قوماً يعمر حب الله قلوبهم .

وكنت قد قرأت كثيراً عن مسالك باريس وطيشها . والواقع ان هذه كانت واضحة في كل شارع ، ولكن الكنائس نهضت مستقلة ، على نحو واضح ، عن هذه المشاهد . ان المرء لينسى الضجيج والضوضاء الخارجيين حين يدخل إلى إحدى هذه الكنائس . ان مسلكه ليتغير ، وانه ليتصرف في وقار وخشوع كلما مرّ بشخص راكم امام صورة العلاء . والحق اني شعرت آنذاك — وهو شعور ما يزال يتعاضد عندي منذ ذلك الحين — بأن هذا الركوع كله وهذه الصلاة كلها لا يمكن أن يكونا مجرد خرافة ، أن النفوس النقية الراكعة أمام العلاء لا يمكن أن تكون متعبدة لمجرد رخام . كانت تلك النفوس متقدة بإيمان أصيل ، وكانت لا تتعبد للحجارة ، ولكن للذات الالهية التي كانت الحجارة رمزاً لها . ويجيل اليّ اني شعرت آنذاك أنهم بهذه العبادة لا يتقصون من مجد الآلهة ، ولكن يضيفون إليه مزيداً .

إن عليّ أن أقول كلمة عن برج ايفل . أنا لا أعلم أي غرض يؤديه البرج اليوم . ولكنني سمعت آنذاك استخفافاً كثيراً به ، واطراء كثيراً له . وأذكر ان تولستوي كان أبرز المستخفين به . لقد قال ان برج ايفل كان شاهداً

على حياة الانسان ، لا على حكمته . وقال ان التبغ اسوأ ضروب السكر جميعاً لأن الرجل الذي يدمنه يتزع إلى ارتكاب جرائم لا يجرؤ السكر على ارتكابها ، ان الخمر تجلب الانسان ، ولكن التبغ يعتم تفكيره ويدفعه إلى أن يبني قصوراً في الهواء . وانما كان برج ايفل واحداً من منشآت امرئ واقع تحت تأثير مثل هذا . ويمكن القول انه لم يصف شيئاً إلى جمال المعرض الحقيقي ، فقد تدفق الناس لرؤيته ، وارتقوه بوصفه طرفة هندسية ذات ضخامة فريدة . كان دمية المعرض . ونحن ، ما دمنا أطفالاً ، تجذبنا الدمى . وكان البرج دليلاً ساطعاً على اننا ما نزال أطفالاً تجذبنا الحلوى . واحب ان في الامكان القول ان هذا هو الهدف الذي حققه برج ايفل .

## ٢٤ . نجحت في امتحان الحقوق - ولكن ثم ماذا ؟

لقد أرجأت حتى الآن الكلام على الغرض الذي من أجله ذهبت إلى انكلترا ، أعني الفوز بشهادة الحقوق . ولقد آن لي ان أتحدث عن ذلك في ايجاز . كان ثمة شرطان لا بد من تحقيقهما قبل أن يفوز الطالب بشهادة الحقوق : الأول أن يكون طالباً شبه داخلي طوال اثني عشر فصلاً مدرسياً تعادل نحواً من ثلاث سنوات ، والثاني ان يمتاز بالامتحانات . وكان الشرط الأول يعني أن يأكل المرء تلك القصول المدرسية ، أي ان يشهد ست ولائم على الأقل من أصل أربع وعشرين وليمة في الفصل المدرسي الواحد . والحق ان جهود المأدبة ما كان يعني دائماً المشاركة الفعلية في تناول الطعام ، لقد كان يعني مجرد ذهاب الطالب إلى موطن المأدبة في الساعة المحددة ، والبقاء هناك طوال الوقت الذي يستغرقه طعام العشاء . ولكن كل امرئ كان ، في العادة ، يأكل المأكـ

الطيبة ، ويشرب الخمر المختارة المعروضة على الموائد . وكان ثمن العشاء يراوح ما بين شلّين وستة بنسات وبين ثلاثة شلّات وستة بنسات ، يعني ما بين روبيّين وثلاث روبيّات . وكان القوم يعتبرون ذلك ثمناً معتدلاً ، إذ كان على المرء أن يدفع هذا المبلغ نفسه ثمناً للخمر وحدها إذا ما تناول طعام العشاء في فندق . أما نحن في الهند فبدهشنا - إذا لم نكن « متعدين » - أن يزيد ثمن الخمر على ثمن الطعام . والحق أني أصبت بصدمة كبيرة عندما عرفت ذلك أول مرة . فقد عجبت كيف يجرّو الناس على تبديد هذا المال كله على الشراب . ولكني ما عثمت أن فهمت . وكنت كثيراً ما لا آكل شيئاً في هذه المآدب ، لأن الأشياء التي كان في امكاني تناولها كانت مقتصرة على الخبز ، والبطاطا المسلوقة . والمفوف . وكنت لا آكل هذه في بادئ الأمر إذ لم أكن أحبها . حتى إذا بدأت أستبغها في ما بعد كنت قد اكتسبت الجرأة على طلب ألوان أخرى أيضاً .

وكانت المائدة التي تمدّ للقضاة خيراً من تلك التي تمدّ للطلاب . وتقدمت أنا وطالباً بارسيّاً ، كان هو الآخر نباتياً ، أقول تقدمنا بطلب يهدف إلى تزويدنا بألوان الطعام النباتية المقدمة إلى القضاة . وقُبِل طلبنا . وبدأنا نفوز بالفواكه وبعض الخضار من مائدة القضاة .

كان يقدّم إلى كل جماعة مؤلفة من أربعة أشخاص زجاجتان من الخمر . وإذا كنت لا أقرب الخمر فقد كان الطلاب يتنازعون عليّ وكل فريق يرجو أن أكون رابعه . بحيث ينعم ثلاثتهم بزجاجتين كاملتين . وكان ثمة في كل فصل مدرسي « ليلة كبرى » تقدّم خلالها خمور اضافية ، كالشامبانيا . علاوة على ال « بورت » . وال « شرّي » ( o ) ومن أجل ذلك كان القوم يلحون عليّ بضرورة الحضور . وكانوا يتنازعون عليّ أشد ما يكون التنازع في تلك الليلة الكبرى .

---

• البورت port والشرّي sherry نوعان من الخمر .

ولم أستطع ان الفهم آنذاك ، ولا ازال عاجزاً عن ذلك حتى الآن ، كيف  
تؤهل هذه الولايم طلاب الحقوق تأهيلاً أفضل لمهنة المحاماة . ولقد انقضى زمان  
كان عدد قليل من الطلاب يشهدون فيه هذه المآدب . وهكذا كانت المأدبة تتيح  
لهم فرصة التحدث إلى القضاة ، وكانت الخطب تلقى خلال ذلك أيضاً . وكان  
في هذه المناسبات ما يعرفهم بالعالم ، في شيء من الدماثة والصقل ، وما يقوي  
ملكة الخطابة عندهم . ولكن شيئاً من هذا لم يكن ممكناً في أيامي ، إذ كان القضاة  
يتناولون الطعام على مائدة خاصة بهم . كان ذلك التقليد قد فقد معناه ، تدريجياً ،  
ولكن انكثرة المحافظة استمكت به رغم ذلك .

كان برنامج الدروس سهلاً ، وكان الطلاب يعرفون على سبيل الفكاهة ،  
بـ « محامي طعام العشاء » . وكان كل امرئ يعلم أن الامتحانات لم يكن لها  
قيمة البتة . وعلى أية حال ، فقد كان ثمة امتحانان : احدهما في القانون الروماني  
والآخر في القانون العام . وكان ثمة كتب تدريس نظامية معدة لهذه الامتحانات  
التي كان في الامكان اجراؤها في غرف مستقلة ، ولكن الطلاب كانوا نادراً ما  
يقرأونها . ولقد عرفت عدداً من الطلاب الذين اجتازوا امتحان القانون الروماني  
من طريق مراجعة بعض المذكرات في هذا القانون خلال اسبوعين اثنين ، وامتحان  
القانون العام بقراءة المذكرات في شهرين أو ثلاثة أشهر . وكانت أسئلة  
الامتحان سهلة ، وكان المتقدمون أسخياء . وكانت نسبة النجاح في امتحان  
القانون الروماني تتراوح ما بين ٩٥ بالمئة و ٩٩ بالمئة ، وكانت نسبة النجاح في  
الامتحان النهائي ٧٥ بالمئة بل أكثر . وهكذا لم يكن هناك كبير خوف من  
السقوط ، وكانت الامتحانات لا تجري مرة واحدة ، ولكن أربع مرات في  
العام . انها ما كانت تعتبر شيئاً عسيراً .

لقد عرفت كيف أجعلها شيئاً عسيراً . لقد شعرت أن عليّ أن أقرأ جميع  
كتب التدريس المقررة ، واعتقدت أن من الغش ان لا أقرأ هذه الكتب . وهكذا  
أنفقت كثيراً من المال في شرائها . وقررت أن أقرأ القانون الروماني باللاتينية ؛  
وهنا افادني اللاتينية ، التي درستها لشهادة الميربكيوليشين اللندنية افادة كبيرة :

وكل هذه القراءة لم تكن غير ذات غناء في ما بعد في جنوب افريقية حيث كان القانون الروماني الهولندي هو القانون العام . لقد كانت دراسة قانون جوستنيان ، إذن ، ذات عون كبير لي في فهم قانون جنوب افريقية .

واحتجت إلى تسعة أشهر من الجهد الشاق لقراءة قانون انكلترا العام ، ذلك ان دراسة كتاب « بروم » ، القانون العام ، وهو مجلد ضخمة ولكنه منع ، كانت تقتضي الطالب وقتاً طويلاً . وكان كتاب « ستيل » ، العدل ، شيقاً كله ولكنه عسير على الفهم بعض الشيء . وكان كتاب « هويت » و « تيودور » ، القضايا الرئيسية ، مليئاً بالتمعة والنائدة . كذلك قرأت في شوق كتابي « وليامز » « وادوارد » عن الملكية الحقيقية ، وكتاب « غوديف » الملكية الشخصية . وكانت قراءة كتاب وليامز سائغة مثل رواية من الروايات . وكان الكتاب الوحيد الذي أذكر اني قرأته ، لدن عودتي إلى الهند ، بالشوق المتقد نفسه ، هو كتاب « ماين » ، القانون الهندوسي . ولكن ليس ههنا مجال الكلام على كتب القانون الهندية .

لقد اجتزت امتحاناتي ، وفزت بالشهادة في اليوم العاشر من حزيران عام ١٨٩١ ، وسجلت اسمي في المحكمة العليا في اليوم الحادي عشر . وفي اليوم الثاني عشر أبحرت إلى الوطن .

ولكن على الرغم من دراستي هذه ، لم يكن ثمة نهاية لعجزي وخوفي . أنا لم أشعر اني كفؤ لممارسة المحاماة .

بيد أنني في حاجة الى فصل خاص لأصف عجزي هذا .

## ٢٥ . عجزي

كان يسيراً أن يفوز المرء بشهادة الحقوق ، ولكن كان من العسير أن يمارس المهنة تحت قوس المحكمة . كنت قد قرأت القوانين ، ولكن لم أتعلم كيف أمارس المحاماة . لقد قرأت « القواعد الشرعية العامة » في شوق ، ولكنني ما

كنت أحرف كيف أطبقها في مهنتي . وكانت هذه القاعدة : Sic utero tuo ut : *alium non laedas* (استعمل ما هو ملكك لا بطريقة لا تؤدي إلى انزال الأذى بملكية الآخرين ) إحدى تلك القواعد ولكنني كنت لا أدري كيف اصطنع هذه القواعد الكلية لمصلحة موكلتي . وكنت قد قرأت جميع القضايا الكبرى التي طبقت فيها هذه القاعدة ، ولكن ذلك لم يوقع في نفسي إيما ثقة تمكنني من تطبيقها في عملي الحقوقي .

ولمّا هذا ، فلم أكن قد تعلمت شيئاً البتة من القانون الهندي . كنت خالي الذهن من الشريعة الهندوسية والشريعة الإسلامية . بل اني لم أكن قد تعلمت كيف أصوغ مراعاة من المرافعات ، ولقد شعرت اني تائه في هذا الخضم ، وكنت قد سمعت بالسيرة فيروز شاه مهتا كمحام يزأركالاسد في قاعات المحاكم ونساءلت بيني وبين نفسي كيف وفق إلى دراسة هذا الفن في انكلترة ؟ كان أمراً غير وارد ، عندي ، ان أكتب براءته القانونية ، ولكنني كنت في ريب جدي من اني قد أوفق إلى مجرد كسب الرزق من هذه المهنة .

لقد مزقني هذه الشكوك والمخاوف وأنا لا ازال أدرس القانون . وحدث بعض أصدقائي بما أعاني من مصاعب فاقترح أحدهم أن أتصل بـ « دادابهاي ناووروجي » وأسأله النصيحة . ولقد سبقت مني الإشارة إلى اني زودت عندهم ذهبت إلى انكلترة بنوصية إلى دادابهاي . والواقع اني تأخرت في الافادة من هذه التوصية . فقد اعتقدت أنه ليس من حقي ان ازعج مثل هذا الرجل الكبير بمقابلة ألتسها منه . وكان لا يعلن عن خطبة له حتى أقصد إلى مكان الاجتماع واستمع اليه من زاوية في القاعة ، ثم أمضي لسبيلي بعد أن أكون قد امتعت عيني واذني . ولكي يكون على اتصال وثيق بالطلاب . اسس دادابهاي جمعية كنت أشهد جلساتها . فابتهج بمنه على الطلاب ، واحترام الطلاب له . ومع الأيام ، استجمعت شجاعتي لأقدم اليه مذكرة التوصية . فقال : « في استطاعتك ان تجيء وتطلب نصيحتي ساعة نشاء . » ولكنني لم أفد قط من هذا العرض . لقد اعتقدت ان من الخطأ ان ازعجه من غير أن تكون هناك ضرورة

ملحة . ومن أجل ذلك لم اجزؤ على قبول نصيحة صديقي فأبث داداهاي متاعبي ومصاعبي آنذاك . ولقد نيت الآن هل كان هذا الصديق ، أم صديق آخر ، هو الذي نصحتني بالاجتماع بمستر فريدريك بينكوت . كان من حزب المحافظين ، ولكن عطفه على الطلبة الهنود كان خالصاً غير اناني . كان كثير من الطلبة يلتمسون عنده النصيحة ، ولقد طلبت أنا مقابله فوافق على ذلك . ولست أستطيع ان أنسى هذا اللقاء أبداً ، لقد رحب بي كصديق ، وقد ضحك من تشاؤمي قائلاً : « هل تظن ان كل امرئ يجب أن يكون فيروز شاه مهتا ؟ ان أمثال فيروز شاه وبدر الدين نادرون . ثقتك لن تحتاج إلى براعة خارقة لكي تكون محامياً عادياً . ان الاخلاص والاجتهاد كافيان لتمكينك من كسب الرزق . وجميع القضايا ليست معقدة . حسناً ، حدثني عن مدى مطالعاتك العامة . »

وحين عرفت أنه بذخيري الصغيرة من القراءة أخذته الخيبة كما كنت أستطيع أن أرى . ولكن ذلك لم يدم غير لحظات قصار . فسرعان ما أشرق وجهه بانسامة سارة وقال : « لقد فهمت بلاءك . ان مطالعاتك العامة هزيلة . أنت لا تملك أي معرفة بالعالم ، هذه المعرفة التي تعد ضرورة للمحامي . بل انك لم تقرأ تاريخ الهند نفسه . ان على المحامي ان يعرف الطبيعة البشرية . ان عليه ان يكون قادراً على قراءة شخصية المرء من صفحة وجهه . وكل هندي يجب ان يعرف تاريخ الهند . وهذا ليس له علاقة بممارسة المحاماة ، ولكن يتعين عليك ان تتروى بذلك المعرفة . وأرى انك لم تقرأ حتى كتابي « كاي » و « مالمون » عن ثورة ١٨٥٧ . فتعلم ذلك في الحال ، واقرأ كذلك كتابين آخرين لتفهم الطبيعة البشرية . » وكان هذان الكتابان هما كتابي « لافيتور » و « شميلينك » في علم الفراسة .

ولقد شكرت لهذا الرجل الجليل فضله أعظم الشكر . والواقع ان خسوفي كله تلاشى في حضرته ، ولكن ما ان فارقه حتى عاودني الجزع من جديد : « يجب ان أعرف الرجل من وجهه » ، تلك هي المسألة التي استحوذت عليّ فيها كنت افكر بالكتابين اللذين وانا عائد إلى القرية . وفي اليوم التالي اشتريت



كتاب لافيتور . أما كتاب شميلينك فلم أجده عند الكتبي . ولقد قرأت كتاب لافيتور فوجدته أصعب من كتاب « العدل » للاستاذ سنيل ، جافاً لا يثير الشوق إلا نادراً . ودرست علم الفراسة عند شكشير ، ولكنني لم أكتسب تلك البراعة التي تمكنني من العثور على النهاذج الشكسيرة تروح ونجيء في شوارع لندن ، ولم يصف كتاب لافيتور شيئاً جديداً إلى ثقافتي . والواقع ان نصيحة مسر بينكوت لم تعد عليّ الا بفائدة مباشرة ضئيلة ، ولكن عطفه أفادني كثيراً . لقد ظلت صورة وجهه الطلق الباسم في مخيلتي ، ولقد قبلت نصيحته القائلة بأن براعة فيروز شاه مهنا وذاكرته ومقدرته ليست أساسية في تكوين محام ناجح وان الاخلاص والاجتهاد كافيان . وإذا كان عندي قدر صالح من هاتين الصفتين الاخيرتين فقد اطمأنت نفسي بعض الشيء .

ولم أستطع ان اقرأ كتابي « كاي » و « مالمون » في انكلترا ، ولكنني قرأتها في جنوب أفريقيا إذ جعلت من همي ان افرغ لقراءتهما عند أول فرصة . وهكذا غادرت الباخرة « آسام » ووطئت قدماي مرفأ بومباي ، وفي ذات نفسي خميرة صغيرة من الأمل ممزوجة بياسي . كان البحر هائجاً في المرفأ ، وكان عليّ أن ابغى رصيف الميناء بزورق بخاري :

# قِصَّةُ تَجَارِبِي مَعَ الْحَقِيقَةِ

الْقِسْمُ الثَّانِي



## ١ . رايشانديسهاي

قلت في الفصل الاخير ان البحر كان هائجاً في مرفأ بومباي . وهو أمر مألوف في البحر العربي خلال شهري حزيران ( يونيو ) وتموز ( يوليو ) . كان طوال الطريق من عدن ، متلاطم الامواج . ولقد أصيب جميع الركاب تقريباً بالدوار . وكنت أنا وحدي في حال جيدة ، فبقيت على ظهر الباخرة لاشهد ثورة البحر ، وامتع النفس بروية رشاش الامواج . وعند الفطور كنت أجد شخصاً أو شخصين إلى جانبي . ليس غير ، يتناولان حساء دقيق الشوفان من صحن كانا مُحَكَّمان الامساك بها في حجريها خشية ان يتخذ الحساء سبيله إلى هناك .

كانت العاصفة الخارجية ترمز ، عندي ، إلى العاصفة الداخلية ؛ ولكنني أستطيع القول ان العاصفة الداخلية ما لبثت أن مرت بسلام كما مرت العاصفة الخارجية بسلام . كان ثمة مشكلتي مع الطائفة ، وهي مشكلة كنت أتوقع مواجهتها . وكان ثمة ما أشرت اليه من عجزني عن مباشرة مهيتي . وفوق هذا فقد كنت مصلحاً ، وكنت أحاول ان أبحث عن أفضل الطرق للقيام ببعض الاصلاحات . ولكن الزمان كان ينحني لي فوق ما كنت أعرف من هذه المصاعب .

وكان أخي الاكبر قد أقبل للقائي في المرفأ ، وكان قد تعرّف قبل ذلك إلى الدكتور مهنا وأخيه الاكبر . وإذا اصرّ الدكتور مهنا على انزالي في بيته فقد مضينا كلنا إلى هناك . وهكذا فان التعارف الذي بدأ في انكلترة استمر في الهند

وتطور إلى صداقة سرمدية بين الاسرتين .

كنت شديد الشوق إلى رؤية أمي . ولم أعرف أنها كانت قد غابت عن هذا العالم ، بالجسد ، فليس في طوقها ان تعاود ضمي إلى صدرها . وكنت قد أحطتُ الآن ، علماً بالنبا المحزن ، وأدبت فريضة « الوضوء » المألوفة . كان أخي قد حبس عني نبأ وفاتها ، التي حدثت وأنا لا أزال في انكلترا . لقد أراد أن ينجيني تلك الصدمة في دار الاغتراب . ولكن النبا ، مع ذلك ، أصابني بصدمة عنيفة ، بيد اني لن افصل القول في هذا . بل ان أساي عليها كان أعظم من أساي على والدي . فقد تبددت معظم الآمال التي غَدَوْتُها في ذات نفسي . ولكني أذكر اني لم أستسلم لأي تعبير عفيف عن الحزن . بل لقد استطعت أن أكبح نباح الدمع ، وأخذت بأسباب الحياة وكان شيئاً لم يحدث .

وقد متني الدكتور مهنا إلى كثير من الاصدقاء ، وكان احد هؤلاء هو أخاه شري ريفاشانكار جاغجيفان ، الذي دامت صداقتي له العمر كله . ولكن التقديم الذي أحب أن أنوه به ههنا على وجه التخصيص كان تقديمي إلى الشاعر « ريشانده » أو « راجشاندره » ، زوج بنت أخي الدكتور مهنا الاكبر ، وأحد أصحاب مؤسسة الصاغة المعروفة باسم ريفاشانكار جاغجيفان . لم تكن سنه تزيد على الخامسة والعشرين آنذاك ، ولكن اجتماعي الاول به أقنعني بأنه كان رجلاً ذا شخصية قوية وثقافة واسعة . وكان معروفاً أيضاً باسم شانافادهاني ( الرجل القسادر على تذكر مئة مسألة أو السماع اليها في وقت واحد ) . ولقد نصحتني الدكتور مهنا بأن أطلع على بعض عجائب ذاكرته . فاستنفدتُ ثروتي اللفظية من جميع اللغات الأوروبية ، وسألت الشاعر ان يكرر الكلمات . ولقد فصل ذلك بنفس الترتيب الذي سردتها به . وغبطته على موهبته من غير أن أقع تحت سحرها طبعاً ، ان الذي فتني منه فعلاً أشياء عرفتھا في ما بعد . كانت هي معرفته الواسعة للكتب المقدسة ، وشخصيته النقية ، ورغبته المتقدة في تحقيق الذات . لقد رأيت بعدُ ان هذه الاخيرة كانت الشيء الوحيد الذي من أجله عاش . وكانت آيات موكتاناند هذه على شفثيه أبداً ، ومنقوشة على صفائح قلبه :

سوف اعتبر نفسي مباركا حين أرى  
الله في عمل من أعماله للهوية .  
حقاً ان الله هو الخيط  
الذي يمسك بحياة موكثانته .

وكانت أعمال رايثانديهاي التجارية تقدّر بمئات آلاف الروبيات . كان  
خبيراً بالجواهر والماس . ولم يكن ليستعصي عليه ايما مشكل تجاري . ولكن هذه  
الاشياء كلها لم تكن المحور الذي دارت عليه حياته . كان ذلك المحور هو شغفه  
بأن يرى الله وجهاً اوجه . وبين الأشياء المتناثرة على مكتب عمله كان يوجد دائماً  
كتاب ديني ما ، وسجل يومياته . وكثير من كتاباته المنشورة مستخرج من يومياته  
هذه . إن الرجل الذي لا يكاد ينهي حديثه عن أعماله التجارية الواسعة حتى يشرع  
في الكتابة عن أشياء الروح المحجوبة لا يمكن أن يكون تاجراً البتة ، إنه باحث  
حقيقي عن الروح . ولقد رأيت مستغرقاً على هذا النحو في المباحث الآلية في غمرة  
من عمله التجاري لا مرة أو مرتين ، ولكن مرات ومرات . أنا لم أشهده يوماً  
وقد فقد اعتدائه وتوازنه . ولم تكن هناك ايما صلة تجارية أو انازية تشده الي ، ومع  
ذلك فقد امتنعت بأوثق الصلات معه . أنا لم أكن إلا محامياً من غير دعاوى ،  
آنذاك . ومع هذا فقد كنت كلما اجتمعت اليه ينهمك معي في محادثة ذات طبيعة  
دينية جدية . وعلى الرغم من اني كنت أتلصص سبيلي في الحياة ، آنذاك ، ولم يكن  
في الامكان القول انه كان لي اهتمام جدّي في النقاش الديني ، فقد وجدت متعة  
بالغة في حديثه . ولقد قدّر لي ان اجتمع منذ ذلك الحين ، بعدد من الزعماء  
والمعلمين الدينيين . ولقد حاولت أن اجتمع إلى رؤساء مختلف المذاهب والادبان ،  
ولكن يتعبني عليّ أن أقول ان احداً منهم لم يترك في نفسي مثل الانطباعة التي  
تركها رايثانديهاي . كانت كلماته تنفذ إلى قلبي مباشرة ، وكان فكره يتترع من  
اعجابي مثل ما انترت حماسه الاخلاقية ، وكنت أعتقد في قرارة نفسي انه لن  
يُضلني السبيل عامداً ابداً ، وانه كان يُسرّ اليّ بأفكاره الاكثر ايماناً فسي  
الباطن . وهكذا كان هذا الرجل مفرغ في لحظات أزمي الروحية .  
ومع ذلك ، وعلى الرغم من احترامي كله له ، فلم استطع أن اتوجّه فسي

قلبي معلماً دينياً لي ( guru ) . لقد ظل ذلك العرش خالياً . وانا لا أزال حتى اليوم أبحث عن هذا المعلم .

أنا أؤمن بنظرية « المعلم الديني » ( guru ) الهندوسية . واهميتها في التحقق الروحي . اني أعتقد بأن نعمة قدرأ كبيراً من الصدق في العقيدة القائلة بأن المعرفة الحقيقية مستحيلة من غير « غورو » . والمعلم الناقص قد يرتضى في الشؤون الدنيوية ، ولكن الأمر ليس كذلك في الشؤون الدينية . ان العالم الكامل هو وحده الذي يستحق التويج « معلماً دينياً » . واذن ، فينبغي ان يكون نعمة سعي غير منقطع نحو الكمال . لأن المرء يفوز بال « غورو » الذي يستحقه . ان السعي اللانهائي نحو الكمال هو حق من حقوق كل انسان . إن ذلك السعي ينطوي على مكافأته الخاصة . أما الباقي فهو في يد الله .

وهكذا ، وعلى الرغم من اني لم أستطع ان أقوم رايشاندهاي « معلماً دينياً » على عرش قلبي ، فقد كان كما سرى بعد دليلاً لي ومساعداً في كثير من الأحيان . إن ثلاثة من العصريين قد تركوا في حياتي أثراً عميقاً واستحوذوا على اعجابي : رايشاندهاي باتصالي الحي به ، وتولستوي بكتابه ، « ملكة الرب هي في باطنك » ، وراسكين في كتابه « حتى هذه النهاية » . ولكني سوف أفصل القول على هذا كله في موضعه المناسب .

## ٢ . كيف بدأت الحياة

كان أخي الأكبر قد علّق عليّ آمالاً كباراً . كانت الرغبة في الروعة والشهرة عارمة عنده . كان له قلب كبير ، سخي حتى التطرف . وكان هذا بالإضافة إلى طبيعته البسيطة ، قد جذب نحوه كثير من الاصدقاء ، ومن طريق هؤلاء الاصدقاء كان يتوقع ان يأتيني بخلاصات دعاوى . وكانت العاصفة التي ثارت في أوساط طائفتي ، حول رحلتي إلى الخارج ، ما تزال عنيفة . كانت قد قسمت الطائفة إلى معسكرين ، أحدهما مائل لث ان

عُرف بي في الحال ، على حين اقام المعسكر الثاني على انكاربي . ولكي يرضي الفريق الاول ، أخذني اخي الى «ناسيك» قبل ان نذهب الى راجكوت وجعلني اغتسل في النهر المتدس ، حتى اذا وصلنا الى راجكوت اقام مأدبة طائفية . ولم يعجبني ذلك كله . ولكن حب أخي لي لم يكن له حاد ، وكان اخلاصي له متكاملاً مع ذلك الحب . وهكذا عملت على نحو آلي وفق ما اراد ، معتبراً رغبته قانوناً نافذاً . وهكذا حلت مشكلة اعادة قبولي في الطائفة .

انا لم احاول قط ان ألتصق برضا الفريق الذي أنكر علي الحق في العودة الى حظيرة الطائفة . كما انني لم أشعر حتى باستياء ذهني من أي من رؤساء ذلك الفريق . كان بعض هؤلاء ينظرون الي في كراهية ، ولكني اجتنبت في كثير من الدقة جرح مشاعرهم . لقد احترمت اكمل الاحترام أنظمة الطائفة الخاصة بالحرّم ، هذه الانظمة التي تحرّم على جميع انسيائي ، وفي جملتهم والد زوجتي ووالدتها بل وحتى اخوتي وأخو زوجتي ، ان يستقبلوني . لقد حُظر علي ان أشرب جرعة ماء في بيوتهم . ولقد كانوا على استعداد لخرق هذا التحريم ، سرّاً . ولكن طيقتي كانت لا تجيز لي ان أعمل في السر شيئاً لت اجرؤ على عمله في العلن . وكان من نتيجة سلوكي الحذر هذا انه لم تنشأ بعد ذلك قط مناسبة واحدة لورثتي الطائفة فيها بلاء ما . لا . انما لم أعرف من جمهرة اولئك الذين لا يزالون يعتبرونني «محروماً» غير الود والكرم . بل لقد ذهبوا الى حد مساعدتي في عملي ، من غير ان يتوقعوا مني في يوم من الايام ان عمل ايما شيء من أجل الطائفة . وبقيت ان هذه الاشياء الطيبة كلها راجعة الى لا مقاومتني . ولو اني أثرت اضطراباً ما لاعداتي الى الحظيرة ، ولو اني حاولت ان اقسم الطائفة الى معسكرات اضعافية ، ولو انني استفزرت رجال الطائفة اذن لتقابلوا الشر بمنزلة من غير شك ، واذن لوجدت نفسي عند عودتي من انكلترا ، لا في نجوة من العاصفة ، ولكن وسط دوامة من الاضطراب . ومن يدري فلعل ذلك كان خليفاً به أن يجعلني مشاركاً في الرياء والمداينة .

كانت صيلاتي مع زوجتي لا تزال على غير ما احب وأرغب : حتى اقامتي



في انكثرة لم تشفني من داء الغيرة . فقد واصلت تعنتي وشكوكي في ما يتعلق بأنفة الاشياء ، وهكذا فان جميع رغباتي التي غلوتها ظلت من غير تحقيق . كنت قد قررت ان على زوجتي ان تتعلم القراءة والكتابة ، وان علي ان اساعدها في دروسها ، ولكن شهوتي الجنسية اعترضت السبل ، فكان على زوجتي ان تتحمل نتائج قصوري . ولقد ذهبت ذات مرة الى حد طردها الى بيت أبيها ، ولم اوافق على ارجاعها الا بعد ان ألبسها لباس الشقاء الكامل . لقد رأيت في ما بعد ان ذلك كله كان حماقة مني .

و كنت قد اعترمت الاصلاح في تربية الاطفال . كان لأخي أولاد ، وكان طفلي الذي تركته في الوطن عندما شخصت الى انكثرة قد أصبح الآن ولداً في نحو الرابعة . وكنت أرغب في ان اعلم هؤلاء الصغار التمارين الرياضية وأجعلهم اقوياء البنية ، و اقدم اليهم توجيهي الشخصي ايضاً . وفي هذا الحقل حظيت بتأييد اخي . ونجحت كثيراً أو قليلاً في ما بلدت من جهد . وأجيت رفيقة الاطفال حباً عظيماً ، ولقد ظلت عادة اللعب معهم وممازحتهم راسخة في نفسي حتى اليوم .

و كانت ضرورة « الاصلاح » في الطعام واضحة . كان الشاي والقهوة قد اتخذا مكانهما في بيتنا . ذلك ان اخي كان يعتقد ان من الخير ان يهيء لي لندن عودتي ضرباً من الجو الانكليزي ، ولهذا الغرض أصبحت الآتية الخرفية موضع الاستعمال الدائم في المنزل ، وكانت من قبل لا تستعمل إلا في المناسبات الخاصة . ثم جاء « اصلاحي » فأضفى على ذلك الجو المسحة الاخيرة . لقد ادخلت حساء دقيق الشوفان ، ولقد جعلت الكاكاو محل محل الشاي والقهوة . وكانت الاحذية العالية والنعال هناك من قبل . ولقد اكملت التسابع الاوروبي بأضافة الملابس الاوروبية .

وهكذا ارتفعت نفقات المعيشة . كانت أشياء جديدة تضاف كل يوم . وكنا قد وقفنا الى ربط قيل ايض على باب دارنا . ولكن أين نجد المال ؟ لقد كان التفكير في ان أسهل ممارسة المهنة في راجكوت شيئاً مضحكاً من غير شك . فقد

كنت لا أكاد أعرف ما يعرفه أيّ " وكييل ، كفو ، ومع ذلك كنت اتوقع من الموكلين ان يدفعوا اليّ عشرة أضعاف ما يدفعونه له ! وهل ثمة موكل هو من الجنون بحيث يرضى بأن يعهد اليّ في الدفاع عنه ؟ وحتى ولو وجد مثل هذا الموكل فهل يتعين عليّ أن اضيف الى جهلي غطرسة وخداعاً ، وأزيد ما انا مدّين به للعالم ثقلاً على ثقل ؟

ونصحني الاصدقاء بالذهاب الى بومباي والبقاء فيها فترة من الزمن لكي اكسب الخبرة في المحكمة العليا ، وبدراسة القانون الهندي ومحاولة الحصول على اكبر عدد ممكن من خلاصات الدعاوى . واعجبني الاقتراح ، وسافرت .

وفي بومباي استأجرت منزلاً وطاهياً لا يقلّ عني جهلاً . كان برهماً . ولم اعامله معاملة خادم ، ولكن كمضو من أعضاء الاسرة . كان يصيب المساء على نفسه ولكنه لا يغتسل البتة . كان "دوطيه" قلراً ، وكان خيطه المقدس كذلك ، وكان يجهل الاسفار المقلّعة جهلاً تاماً . ولكن كيف السبيل الى العثور على طاه أفضل ؟

كنت أقول له :

— " حسناً ، رافيشانكار ، فقد كان هذا اسمه ، " انك قد نجهل الطهي ولكن ليس من ريب في أن من واجبك ان تعرف فروضك الدينية اليومية الخ . "

— " فروضي الدينية اليومية ، ياسيدي ! ان المحراث هو فروضي الدينية والمجرقة هي طقوسي اليومية . انا من هذا الطراز من البراهمة . يجب أن اعيش على عطفك . والا فالزراعة تنتظرني هناك ، من غير شك . "

وهكذا كان عليّ ان أكون استاذاً لرافيشانكار . وكان عندي متسع كبير من الوقت . وبدأت اتوم بنصف عمليات الطهي بنفسي . ولقد ادخلت ههنا التجارب الانكليزية في الطهي النباني . واشتريت موقداً ، واخذت أدير شؤون المطبخ مع رافيشانكار . ولم اكن أخرج من تناول الطعام معه . وكذلك لم يكن هو يتخرج من تناول الطعام معي ، وهكذا عشنا في انسجام وبهجة . لم يكن ثمة غير عبة واحدة : كان رافيشانكار قد أقسم ان يظل وسخاً ، وان يُبقي الطعام

غير نظيف !

ولكن كان من المتعلم عليّ ان أحيا في بومباي أكثر من اربعة أشهر أو خمسة أشهر ، اذ لم يكن عندي مورد يتكافأ مع النفقات المتزايدة تزايداً موصولاً .  
على هذا النحو بدأت حياتي . لقد وجدتُ مهنة المحاماة عملاً رديئاً : كثير من المظاهر وقليل من المعرفة . ولقد استشرت حساً ساحقاً بمسؤوليتي .

### ٣ . القضية الأولى

وفيما كنت في بومباي ، بدأت أدرس القانون الهندي ، من ناحية ، وأقوم بتجاربتي في علم الاغذية ، هذه التجارب التي شاركتني فيها صديقي فيرشاند غاندي ، من ناحية ثانية . وكان أخني في الوقت نفسه يحاول جهده ان يزودني بأكبر قدر من خلاصات الدعاوى .

وكانت دراسة القانون الهندي مهمة شاقة . فلم استطع قط ان أهضم قانون الاجراءات المدني . ولكن الامر لم يكن كذلك في ما يتصل بقانون البيّنات الشرعية . كان فيرشاند غاندي يستعدّ للامتحانات التي تؤهل الاناجع فيها لاحتلال منصب من مناصب النيابة العامة ، وكان يروي لي مختلف ضروب القصص عن المحامين و « الوكلاء » . كان يقول : « ان مقدرة فيروز شاه كامنة في معرفته العميقة للقانون . كان يحفظ قانون البيّنات الشرعية عن ظهر قلب ، ويعرف جميع القضايا المتصلة بالفصل الثاني والثلاثين . إن براعة بدرالدين طيابجي الرائعة في النقاش والجدل توقع الرعب في نفوس القضاة » .

كانت القصص المروية عن أمثال هذين الجبارين توهن قواي :

وكان فيرشاند غاندي يضيف :

— ليس من غير المؤلف ان يلازم الاخفاق محامياً من المحامين خمس سنوات أو سبع سنوات . وهنا ما جعلني استعد لامتحانات النيابة العامة . ويجب ان تعتبر نفسك سعيداً اذا استطعت أن تشق طريقك في مدى سنوات ثلاث » .

كانت النفقات ترتفع كل شهر . وكان الاحتفاظ بمكتب للمحاماة خارج

البيت ، فما كنت لا أزال أعد نفسي لهذه المهنة داخل البيت ، شيئاً وراء طاقتي ، وأخذت أستسيغ قانون البنسات بعض الاستساغة ، وقرأ كتاب « القانون الهندوسي » ، للاستاذ مابن في شوق عميق ولكن لم تكن لي الانشجاعة على تولي الدفاع عن قضية من القضايا . كنت عاجزاً الى حد يجعل عن الوصف ، مثل عروس تدخل لأول مرة الى منزل حميها !!

وحوالى هذا الوقت عهد اليّ في قضية رجل يدعى ماميباي . كانت قضية صغيرة . وقيل لي : « إن عليك ان تدفع عمولة ما الى السماسر . وأيت في قوة ، - ولكن حتى ذلك المحامي الجنائي الكبير ، فلان الفلاني ، الذي يكسب ثلاثة آلاف روبية أو اربعة آلاف روبية في الشهر ، يدفع عمولة ! » فأجبت :

- « لست في حاجة الى ان أقلده . ان عليّ ان اكتفي بثلاثمئة روبية في الشهر : إن والذي لم يكن يجني أكثر من ذلك » .

- « ولكن تلك الايام مضت وانقضت . ونفقات الحياة في بومباي قد ارتفعت ارتفاعاً رهيباً . يجب ان تأخذ بالاساليب المألوفة في العمل » .

وبقيت صلباً كالصخر . فلم أدفع اية عمولة ، وسرت برغم ذلك في قضية ماميباي . كانت قضية مهلة . وطلبت ثلاثين روبية مقابل هذا الصنيع . كان خليقاً بتلك الدعوى ان لا تستغرق أكثر من يوم واحد .

ذلك كان أول ظهوري في محكمة الصلح . لقد مثلت امام المحكمة للدفاع عن المدعى عليه ، فكان عليّ اذن ان استجوب شهود المدعي . ونهضت واقفاً ولكن قلبي غاص الى حدائي . كان رأسي ياف ويدور ، وأفقد شعرت وتأن قاعة المحكمة كلها كانت تلف وتدور ايضاً . لم يكن في ميسوري أن انكر في ألما سؤال أطرحه . ولا شك ان القاضي قد ضحك . وإن المحامين قد استظفروا المشهد ، ولكنني كنت عاجزاً عن ان أرى شيئاً . وجلست ، وننت لموكلتي اني لا أستطيع متابعة السير في الدعوى ، وإن من أخبر له ان يعهد في قضيته ان « باتل » ويترجع الاجرة مني . وهكذا تول مستر باتل الدفاع عن الرجل مقابل احدى وخمسين

روية . وليس من شك ان الدعوى كانت بالنسبة اليه عبث أطفال .

وسارعت الى مغادرة قاعة المحكمة ، غير عارف ما اذا كان موكلي قد كسب الدعوى أم لا ، ولكني كنت خجلاً من نفسي ، وقررت ان لا اتولى دعوى من الدعاوى ، منذ اليوم ، إلا بعد ان أجد من الشجاعة ما يمكنني من السير فيها . والواقع اني لم أشخص الى المحكمة بعد ذلك قط الا حين سافرت الى جنوب افريقية . ولم يكن ثمة فضيلة في قراري هذا . لقد جعلت من الضرورة فضيلة ليس غير . فلم يكن ثمة مجنون يرضى بأن يعهد اليّ في قضيته ، وهو يعلم علم اليقين انه خاسرُها !

ولكن كانت الايام تضيّر لي قضية اخرى في بومباي . كانت عبارة عن عريضة ينبغي ان تُكتب . فقد صودرت ارض رجل فقير مسلم في بورباندر ، فلجأ اليّ بوصفي ابناً فاضلاً لأب فاضل . لقد بدت قضيته ضعيفة . ولكني وافقت على كتابة العريضة باسمه ، على ان يتحمل هو نفقات طبعها . لقد كتبتها وقرأتها على مسامع بعض الاصدقاء . فأقروها ، فكان في هذا ، الى حد محدود ، ما جعلني أشتعر الثقة بأنني قادر على صياغة عريضة ما ، كما قد كنت في الواقع .

وكان في امكان صناعتي ان تزدهر اذا ما انصرفت الى صياغة العرائض من غير ان أتقاضى تعويضاً ما . ولكن ذلك ما كسان ليحمل التمتع الى الضاحون . وهكذا خطر لي ان أعمل مدرساً . فقد كان علمي بالانكليزية حسناً الى حد بعيد ، وكان خليقاً بي ان أحب تعليم الانكليزية لبعض طلاب الميريكيوليشين في مدرسة ما . وهكذا يكون في امكاني ان اكسب ما يسدّ بعض نفقاتي على الاقل . ووقعت عيناى على اعلان في الصحف : «مطلوب ، مدرس لغة انكليزية للتدريس ساعة كل يوم . الراتب ٧٥ روبية» . وكان الاعلان صادراً عن مدرسة ثانوية شهيرة . وقدّمت طلباً لتلك الوظيفة ، فدعيت الى مقابلة المسؤول . وقصدت الى هناك عامر الصدر بالأمل . ولكن ما ان وجد مدير المدرسة اني لست من خريجيها ، حتى رفض قبولي في أسف .

— ولكني اجتزت امتحانات الميريكيوليشين اللندنية متخلداً من اللاتينية

## لغة ثانية .

— «صحيح ، ولكننا في حاجة الى خريج .

ولم يكن ثمة من علاج . وفركت يدي في يأس . واستبد القلق بأخي أيضاً . وانتهينا كلانا ، آخر الامر ، الى الاستنتاج انه لم يكن ثمة من فائدة في اتفاق وقت اضافي في بومباي . يجب علي ان استمر في راجكوت ، حيث كان أخي ، وهو نفسه محام صغير ، قادراً على ان يعطيني عملاً ما على شكل عرائض اكتبها واستدعاءات أدبجها . والى هذا ، فلما كان لدينا بيت في راجكوت فقد كان في إغلاق بيتنا في بومباي توفير كبير . واعجبني الاقتراح . وهكذا أوصد بيتي الصغير بعد ان قضيت ستة أشهر في بومباي .

وكان من دأبي ان أخطف الى المحكمة العليا ، يومياً ، طوال اقامتي في بومباي ، ولكني لا أستطيع ان اقول لاني تعلمت ايما شيء هناك . لم تكن عندي معرفة كافية لاتعلم شيئاً كثيراً . وكثيراً ما كنت أعجز عن متابعة الدعاوى ، فيغلطني النعاس . وكان ثمة آخرون شاركوني في هذا الوضع ، فكان في ذلك ما خفف من وطأة خجلي . بل اني سرعان ما فقدت حس الحجل ، بعد أن دخل في روعي أن من المألوف ان يغضو المرء في قاعة المحكمة العليا .

واذا كان للجيل الحاضر عماموه العاطلون مثلي عن العمل ، في بومباي ، فأحب ان أقدم اليهم قاعدة عملية صغيرة في المعيشة . فعلى الرغم من انسي عشت في «جيرغاوم» فاني لم أركب قط من عربة او ترام . لقد اخذت نفسي بالذهاب الى المحكمة العليا سيراً على القدمين . وكان ذلك يستغرق خمساً واربعين دقيقة من وقتي ، ولست في حاجة الى اقول اني كنت أرجع الى بيتي مشياً على القدمين ايضاً . وهذا السير من المحكمة واليها كان يوفر علي مقداراً صالحاً من المال . وحيناً بدأ كثير من اصدقائي في بومباي بلازمون فُرشهم بسبب من المرض كنت انا في نجوة من ذلك ، فلست أذكر اني أصبت يوماً بمرض ما ، وحتى عندما بدأت اكسب شيئاً من المال أقمت على مألوف عاداتي هذه ، فكنت اذهب الى المكتب وارجع منه سيراً على القدمين . ولا ازال أجني حتى اليوم منافع هذه العادة :

## ٤ . الصدمة الأولى

غادرت بومباي ، خائباً ، ومضيت الى راجكوت حيث انشأت مكتباً لي .  
وهنا سارت أعمالي سيراً أحسنأ بعض الشيء . فقد كان وضع العرائض والاستدعاءات  
يُكسبني ، في المتوسط ، ثلاثمئة روبية شهرياً . وعلى هذا النجاح ينبغي ان أشكر  
النفوذ لا مقلدتي الشخصية ، ذلك ان شريك أخي كانت له خبرة عريقة . كان  
يعتج بجميع الاستدعاءات التي كان لها ، أو التي كان يخليل اليه ان لها ، أهمية  
خاصة ، الى كبار المحامين . أما انا فقد اصابني من هذه الغنية تلك الاستدعاءات  
التي كان يرغب في إعدادها لمصلحة موكله الفقراء .

ويجب ان أعترف هنا انه كان عليّ ان انتهك مبدأ عدم دفع العمولة . الذي  
التزمت في بومباي في كثير من التحرج . لقد قبل لي ان الوضعين كانا مختلفين ،  
كانت العمولات تُدفع في بومباي الى السامسة ، أما هنا فتسدد كانت تدفع الى  
« الوكلاء » الذين يزودونك بالحلالات . وان جميع المحامين هنا ، شأنهم في  
بومباي ، ومن غير استثناء ، يدفعون نسبة مئوية من دخلهم كعمولات . وكانت  
حجة أخي مفضحة في نظري . قال : « انت ترى اني شريك مع محام آخر .  
ولسوف انزع دائماً الى ان احوّل اليك جميع الدعاوى التي تستطع السير فيها ،  
فاذا ما آيت ان تدفع أياً عمولة لشريكي فعندئذ يكون في ذلك احراج لي من غير  
شك . واذ كنت املك أنا وانت مكتباً واحداً ، فان دخلك ينصب في صندوقنا  
المشترك ، فينالني منه نصيب على نحو اوتوماتيكي . ولكن فكّر في موقف شريكي ،  
لنرض ان عهد في الدعوى نفسها الى محام آخر ؟ انه في مثل هذه الحال يفوز  
بعمولته منه حتماً » . وافحمني هذه الحجة ، وشعرت بانني اذا كنت أرغب في  
التدرب على المحاماة فليس في استطاعتي ان أفرض مبدأي الخاص في موضوع  
العمولة في مثل هذه الدعاوى . هكذا ناقشت نفسي . او هكذا - ولأقلها في  
صراحة - خلعت نفسي . بيد انه يتعين عليّ ان أضيف اني لا اذكر ابداً اني  
دفعت عمولة على أية دعوى اخرى .

وحلى الرغم من اني بدأت أكسب بهذه الطريقة ما يسد نفقاتي فقد أصيبت بأولى صدمات حياتي في هذه الفترة . كنت قد سمعت أشياء كثيرة عن الضباط البريطانيين ، ولكني لم أكن قد اجتمعت حتى ذلك الحين بضابط بريطاني وجهاً لوجه .

كان اخي سكرتيراً ومستشاراً لمرحوم رانا صاحب بورباندر قبل أن يجلس على عرشه ، وكان متهماً آنذاك بأنه قد أدلى بتصريح خاطئة خلال توليه ذلك المنصب . وكانت المسألة قد أبلغت العامل السياسي ، الذي كان ناعاً على أخي . والواقع اني عرفت هذا الضابط يوم كنت في انكلترا ، وفي استطاعتي ان أقول انه كان ودياً معي الى حد صالح . واعتقد اخي ان من واجبي ان أفيد من هذه الصداقة . وان احاول - بكلمة طيبة أقولها لمصلحة أخي - ان أصحح رأيه فيه . ولم تعجبنني هذه الفكرة البتة . وقلت في ذات نفسي انه يتعين عليّ ان لا أحاول استغلال تعارف عابر ثم لي في انكلترا . واذا كان اخي مذنباً فأني فائدة ترجي من ثنائي عليه ؟ واذا كان بريئاً فيتعين عليه ان يقدم عريضة بالطريق القانوني ، وان يواجه النتيجة واثماً من براءته . ولم يستخ أخي هذه النصيحة . وقال : « أنت لا تعرف كاثياوود ، وانت لم تعرف العالم بعد . ان النفوذ هو وحده الذي يتكلم هنا . وليس جميلاً منك ، وانت أخ شقي ، ان تنحجم عن اداء واجبك : حين يكون في مسورك كما هو واضح أن تقول كلمة طيبة في حقّي عند ضابط تعرفه . »

ولم أستطع ان أرفض ، وهكذا قصدت اني ذلك الضابط على الرغم مني : كنت أعلم انه لا حق لي في الاتصال به . وكنت أعني كل الوعي اني أعرض احترامى الذاتي للهوان . ومع ذلك فقد طلبت مقابلة الضابط . فبين لي مرعداً . وذكرته بالمعركة القديمة ، ولكني ما لبثت ان رأيت ان كاثياوود مختلفة عن انكلترا ، وان الضابط اثناء الاجازة غير الضابط اثناء الخلعة . فقد ذكر العامل السياسي تلك الصلة التي كانت بيننا ، ولكن التذكير جعله صلب الثود في ما يبدو . « لا ريب في انك لم تجيء الى هنا لكي تستغل تلك المعركة ، أليس كذلك ؟ »



ذلك كان معنى تلك الصلاة . ونقد بدا وكأن هذا المعنى مكتوب على جبينه .  
ومع ذلك فقد بسطت قضيتي . وتبرّم « صاحب » وقال : « ان أخاك متأمر .  
انا لا أود ان أسمع منك شيئاً اضافياً . ليس لديّ وقت . واذا كان عند أخيك ما  
يريد ان يقوله فليفعل ذلك بالطريق الشرعية . » كان الجواب كافياً ، ولعلي  
كنت استحه . ولكن الانانية عمياء : فتابع ببط القضية . وهنا نهض  
« صاحب » وقال :

- « يجب ان تخرج الآن . »

فقلت :

- « ولكن ارجوك ان تسمع الى النهاية . »

وزاده ذلك غضباً على غضب : فنادى مرافقه العسكري وأمره بطردي ،  
وكنت لا أزال مردداً عندما دخل المرافق العسكري ، ووضع يده على كتفي  
واخرجني من الغرفة .

ثم رجع « صاحب » ومرافقه العسكري الى الغرفة ، ومضيت لسبيلي مغضباً  
هائجاً . وفي الحال كتبت رسالة هنا مفادها : « لقد أهتني .. لقد اعتديت علي  
بواسطة مرافقك العسكري . فاذا لم تعوّض عليّ ، فسوف أقدم الدعوى عليك . »  
وبعثت بالرسالة الى « صاحب » :

وسرعان ما جاءني الجواب من طريق مرافقه الفارس :

« لقد كنت فظاً معي ، لقد سألتك ان تنصرف ، فلم تفعل . وهكذا لم يكن  
امامي غير ان آمر مرافقتي العسكري بأخراجك من الغرفة . وحتى بعد ان سألك  
ان تغادر المكتب : لم تفعل ذلك . وهكذا كان عليه ان يستعمل اقل قدر كاف من  
القوة لإخراجك . انت حرّ في اقامة الدعوى اذا شئت . »

وضعت هذا الجواب في جيبتي ، ورجعت الى البيت كسير الخاطر وأخبرت  
أخي بكل ما حدث . وآله ذلك ، ولكنه كان في حيرة من أمره لا يدري كيف  
يُدخل الزاء الى نواصي . ونحدث بذلك الى اصدقائه المحامين : ذلك انني لم  
أكن أعرف كيف أقدم الدعوى على « صاحب » . واتفق ان كان السير

فغروز شاه مهتا في راجكوت ، آنذاك ، وكان قد وفد اليها من بومباي بسبب من دعوى ما : ولكن كيف يجرى محام صغير مثلي على الاجتماع به ؟ وهكذا بعثت اليه بمستندات قضيتي ، من طريق الوكيل الذي عهد اليه في النهوض بعيشها ، والتفت نصيحته . فقال : « قل لغاندي ان مثل هذا الحادث يقع دائماً لكثير من المحامين . انه فني لم تنقص على عودته من انكلترا غير فترة قصيرة ، وهو لا يزال مشهوراً حاد الطبع . انه لا يعرف الضباط الانكليز . واذا كان يرجو ان يكسب شيئاً وان يحيا هنا حياة يسيرة فن الخبر له ان يمزق تلك المذكرة ويتناصى عن الالهانة . انه لا يكسب شيئاً من اقامة الدعوى على « صاحب » ، بل على الضد فان مثل هذا الصنيع خليق بأن ينتهي به الى الافلاس . أخبره انه لم يفهم الحياة بعد : »

كانت النصيحة مريرة ، عندي ، كالمسم الزعاف ، ولكني كنت مضطر الى ابتلاعها . لقد سكنت على الالهانة ، ولكني أذنت منها ايضاً ، فقد قلت في ذات نفسي : « اني لن اضع نفسي بعد اليوم في موقف مغلوط ، ولن أحاول بعد اليوم استغلال الصداقة على هذا النحو » . ومنذ ذلك الحين لم انتهك حرمة هذا القرار قط . لقد غيرت هذه الصدمة مجرى حياتي .

## ٥ . الاستعداد للسفر الى جنوب افريقية

لقد اخطأت من غير ريب في الذهاب الى ذلك الضابط : ولكن نزعته وغضبه المتغطرس لم يكونا متكافئين البتة مع خطائي . ان ذلك الخطأ ما كان يبرر الطرد : فانا لم آخذ أكثر من خمس دقائق من وقته : ولكنه لم يكن قادراً على الاستماع لحديثي ، هذا كل ما هنالك : ولقد كان في ميوره ان يصرفني في لطف ، ولكن السلطة كانت قد اسكرته الى حد متطرف : ولقد علمت في ما بعد ان الروية لم تكن احدى فضائل هذا الضابط : كان من دأبه ان يهين الزائرين : كان اقل الانزعاج كفيلاً بأن يخرج « صاحب » عن طوره .

ان معظم عملي سوف يكون في محكمته طبعاً . ولم يكن في طوتي ان استرضيه :  
ولم تكن بي رغبة في التماس عطفه بطريقة ما . والواقع اني بعد ان حددته باقامة  
الدعوى عليه لم أحب ان اعتمد بالنصت .

وفي غضون ذلك بدأت اتعلم شيئاً عن سياسات البلد الصغيرة . واذا كانت  
كاثياواد مؤتممة من مزيج من الولايات فقد كان لها بحكم الطبع محصول غني من  
الخصومات والمنازعات السياسية . كانت المؤامرات بين الولايات والمؤامرات بين  
القبائل للاستيلاء على السلطة حديث كل يوم . وكان الامراء تحت رحمة الآخرين  
دائماً ، وكانوا مستعدين دائماً لأن يعصفوا للمنافقين والمداهنين . حتى مرافق  
« صاحب » العسكري كان ينبغي ان يُنمَلَق ، وكان « شيراستيدار » « صاحب »  
ابعد نفوذاً من سيده ، لأنه كان عيّني ذلك السيد وأذنيه والمقرر الشارح له .  
كنت ارادة الـ « شيراستيدار » قانوناً مطاعاً ، وكان يقال ان دخله اكبر من  
دخل « صاحب » دائماً . وقد يكون في هذا مبالغة ، ولكنه عاش ، من غير  
شك ، عيشاً مرفحاً لا يتلاءم مع راتبه .

هذا الجو بدا لي ساماً . وكان البقاء في نجوة من هذا البلاء يؤلف مشكلة  
سرمدية بالنسبة الي .

كنت مغتماً الى ابعد الحدود ، ولقد رأى أخي ذلك في وضوح . لقد شعرنا  
كلانا بأن من الخير لي ، اذا استطعت الفوز بعدل ما ، ان انجو بنفسي من جو  
المكائد هذا . ولكن منصب الوزارة او منصب القضاء كان امراً غير وارد . وكان  
التزاع مع « صاحب » يعترض سبيلي في حقل المحاماة .

وكانت بورباندن آنذاك تحت الادارة البريطانية ، وكان لدي عمل هناك قوامه  
السعي لتزويد الأمير بصلاحيات اوسع . كذلك كان علي ان اقبل المدير فسي  
موضوع القيقوني ( ايجار الارض ) المنتصب من جماعة « الميرس » . وكان  
هذا الضابط ، على الرغم من انه هندي ، اشد من « صاحب » غطرسة :  
كان قديراً ، ولكن حال الفلاحين لم يبدُ لي أفضل من ذي قبل بسبب من هذه  
المقدرة : ووفقت الى انتزاع صلاحيات اضافية صغيرة للرائنا . ولكنني لم أوفق

الى ان اخفف من عاتق «المدرس» شيئاً : لقد رايت ان قضيتهم لم تحفظ حتى  
بالدرس المعق .

وهكذا اصبحت مخيبة نية ، حتى في هذه المهمة ايضاً كنت اعتقد ان  
موكلي لم ينالوا ما ينبغي لهم من انصاف ، ولكني ما كنت املك الوسيلة الى  
انتزاع حقهم انتزاعاً . ان اقصى ما كان في طوتي عمله من اجلهم هو  
ان افزع الى العامل السياسي او الى الحاكم الذي كان خليفته به ان يرفض التماسي  
قائلاً : «نحن نأبى ان نتدخل» . ولو كان ثمة اما قاعدة تهيمن على هذه  
القرارات لكان الأمر ، ولكن ارادة «الصاحب» كانت هنا قانوناً مطاعاً  
وعصف بي السخط .

وفي غضون ذلك كتبت احدى المؤسسات التجارية ، من بورباندر ، الى  
اخوتي رسالة عرضت فيها ما يلي : «ان لدينا عملاً في جنوب افريقية . ومؤسستنا  
مؤسسة ضخمة . وان لنا قضية كبيرة في المحاكم هناك ، اذ نطالب بأربعين الف  
جنيه استرليني . ان القضاء ما يزال ينظر في تلك الدعوى التي اقناها منذ زمن  
بعيد ، ولقد عهدنا بها الى خيرة المحامين . فاذا ما ارسلت اخاك الى هناك فقد  
يكون ذا غناء لنا ولنفسه ايضاً . ان في ميسوره ان يوجه محامينا احسن مما نوجهه  
نحن . وسوف بنعم برؤية جزء جديد من العالم ، وبانشاء صداقات جديدة» .  
وحمل اخوتي هذا العرض اليّ ودرسه معي . ولم استطع ان استجيب ما اذا  
كان عليّ ان اوجه محامي المؤسسة او ان امثل امام المحكمة . ولكني أغريت  
بالذهب :

وقد مني أخوتي الى المرحوم الشيخ عبد الكريم جافري ، احد اصحاب شركة  
دادا عبد الله ، المؤسسة التي تمرض عليّ العمل في خدمتها . واكد لي الشيخ  
«انها لن تكون مهمة صعبة : ان لنا اصدقاء من كبار الاوروبيين ، وسوف  
تعرف الى هؤلاء الاصدقاء : ان في استطاعتك ان تكون ذا فائدة لنا في محلنا  
هناك . ومعظم مراسلاتنا باللغة الانكليزية ، وفي ميسورك ان تساعدنا في ذلك  
ايضاً . وسوف تنزل ، طبعاً ، ضيفاً علينا ، ومن هنا فلن تضطر الى اتفاق

شيء من راتبك .»

وسألته :

- « ما المدة التي ستحتاجون فيها الى خدماتي ؟ وكم سيكون الراتب ؟ »

- « ليس أكثر من سنة . سوف ندفع لك اجرة العودة في الدرجة الاولى

ومبلغاً مقداره مئة وخسة جنيهات ، بالإضافة الى الطعام والسكنى . »

وكان ذلك ابعد ما يكون عن الذهاب الى هناك كمحامي . كان اشبه بالذهاب  
كخادم من خدم الشركة . ولكنني كنت اريد ان اغادر الهند بأية طريقة . وكانت  
ثمة ايضاً فرصة مغرية ، فرصة التعرف الى بلاد جديدة ، والفوز بخبرات جديدة .  
كذلك كان في ميسوري ان ابعث مئة وخسة جنيهات الى اخي ، واساعده على  
على احتمال نفقات البيت . ووافقت على العرض من غير ما مساومة ، واخذت  
استعد للسفر الى جنوب افريقية .

## ٦ . الوصول الى ناتال

عندما انطلقت نحو افريقية الجنوبية لم استشر حرقه الفراق التي عرفتها  
يوم سافرت الى انكلترا . كانت امي قد فارقت هذه الدنيا ، وكنت قد  
اكتسبت بعض المعرفة بالعالم وبالسفر عبر البحار ، وكان الذهاب من راجكوت  
الى بومباي قد امسى أمراً مألوفاً .

لقد شرقت هذه المرة بغصة الابتعاد عن زوجتي ، ليس غير ، وكنا قد  
رُزقنا طفلاً آخر منذ عودتي من انكلترا . وليس في الامكان القول ان جينا كان  
قد تحرر من الشهوة . ولكنه كان قد امسى اطهر فاطهر على نحو تدريجي . والواقع  
اننا نادراً ما عشنا معاً منذ عودتي مع اوروبه . واذ كنت قد أصبحت الآن  
معلمها ، برغم لا مبالائي كنها ، واذ اخذت اساعدها على القيام ببعض  
الاصلاحات ، فقد استشرنا كلانا ضرورة التلازم اكثر من ذي قبل  
لمواصلة الاصلاحات على الاقل . ولكن اغراء جنوب افريقية جعل الانفصال

شيئاً يمكن احتمالها : وقلت لها من باب الغراء : « لا بد أن نلتقي بعد عام » ،  
وغادرت راجحوت الى بومباي :

وهنا كان عليّ ان احصل على تذكرة السفر بواسطة وكيل شركة دادا عباد الله .  
ولكن لم يكن في السفينة اياماً سرير شاغر ، واذا لم اسافر على متن تلك السفينة  
فسوف اجد نفسي معزولاً في بومباي . وقال لي وكيل الشركة : « لقد بدلنا  
جهداً لنضمن لك تذكرة سفر بالدرجة الاولى ولكن على غير طائسل - الا اذا  
كنت مستعداً للسفر على الظهر : وسوف ندبر امر تناولك الطعام في الصالون .  
تلك كانت ايام سفري بالدرجة الاولى . وكيف يستطيع محام ان يسافر على  
الظهر ؟ وهكذا رفضت العرض . وارتبت في صدق الوكيل ، اذ لم استطع ان  
اصدق ان تذاكر الدرجة الاولى كانت قد نفدت . وبموافقة الوكيل حاولت  
الحصول على احدى تلك التذاكر بنفسني . لقد قصدت الى الربان فقابلته على متن  
الباحرة ، فقال لي في صراحة تامة : « ليس من المألوف أن نشهد مثل هذا  
الاقبال على حجز التذاكر ، ولكن لما كان حاكم موزامبيك العام مسافراً على  
متن هذه الباحرة فقد حُجزت السُرر كلها . »  
فألتفت :

- « ألا تستطيع ان تحسرنني بطريقة ما ؟ »

واستعرضني من أعلى الرأس الى أخمص القدم ، وابتسم : ثم قال :

- « هناك طريقة واحدة ليس غير . ان ثمة سريراً اضافياً في حجرتي ، التي  
لا يتزل فيها الركاب عادة . ولكني على استعداد لأن اقدمه اليك . » فشكرته  
وكلفت الوكيل شراء التذكرة . وفي نيسان (ابريل) ١٨٩٣ سافرت ، والحماة  
تعمر صلدري ، لأجرب حظي في جنوب افريقية .

وكانت «لاموه» اول ميناء رست فيه الباحرة . رقد انتهينا اليها بعد ثلاثة  
عشر يوماً تقريباً . وكانت قد نشأت بيني وبين ربان الباحرة ، بعد تلك الفترة ،  
صداقة حميمة . كان مولعاً بلعب الشطرنج ، ولكن لما كان مبتدئاً في هذه اللعبة ،  
فقد كان يريد ملاعباً أكثر جهلاً منه في هذا المضمار ، وهكذا دعاني

الى منازلته . وكنت قد سمعت كثيراً عن تلك اللعبة ، ولكني لم أجربها قط . وكان من دأب اللاعبين ان يقولوا انها لعبة يتسع فيها المجال لذلك المرء .

والواقع ان الربان اقترح أن يعطيني دروساً في الشطرنج ، فوجدني تلميذاً نجيباً ، اذ كنت اتمتع بصبر لا حد له . وفي كل مرة كنت انا الخاسر ، وهذا ما جعله اشد رغبة في تعليمي . لقد احببت اللعبة ، ولكني لم احمل هذا الحب الى ما وراء السفينة قط ، ولم احمل معرفتي الى ما وراء حركات اليادق .

وفي لأمو قضت السفينة ثلاث ساعات او اربع ساعات ، فهبطت البر لأرى المرفأ . وكان الربان قد قصد الشاطئ ايضاً ، ولكنه كان قد حذرني قائلاً ان المرفأ غرار ، وأن عليّ ان ارجع في الوقت المناسب .

كانت بلدة صغيرة . ولقد قصدت الى مكتب البريد وابتهجت لأن ارى الموظفين الهنود هناك ، فجاذبتهم اطراف الحديث . كذلك رأيت الافريقيين وحاولت ان اعرف الى اساليب حياتهم التي وجدت فيها متعة بالغة . وقد اقتضاني ذلك بعض الوقت .

وكان ثمة نفر ممن عرفتهم من المسافرين «على الظاهر» ، وكان هؤلاء قد هبطوا البر ليطبخوا طعامهم على انشاطيء ولينعموا بوجبة هادئة . ولقد وجدتهم الآن يستعدون للعودة الى الباخرة ، وهكذا امتطينا كلنا متن زورق واحد . وكان المدّ عالياً في المرفأ ، وكان زورقنا مثلاً بالركاب . وكان التيار العنيف من القوة بحيث تعذر شد الزورق الى مرقة الباخرة . كان لا يكاد يمس المرقاة حتى يتسدد التيار به عنها . كانت صفرة الإبحار الاولى قد اطلقت . واستولى عليّ القلق . وكان الربان يشهد ورطتنا من الجسر . وأصدر أمره الى الباخرة بأن تنتظر خمس دقائق اخرى . وكان على مقربة من الباخرة مركب آخر استأجره لي صديق بعشر روبيات . ولقد انتشاني هذا المركب من المركب المثقل بأكثر مما يطيق . وكانت المرقاة قد رُفعت ، فكان لا بد من سحبي بحبل ، ومن ثم انطلقت الباخرة في الحال . أما المسافرون الآخرون فقد حُلّفوا في تلك البلدة . عندئذ فقط قدّرت تحذير الربان حتى قدره .

وبعد دلاموه ، وصلنا الى مومباسا ، ثم الى زنجبار . وكان التوقف هنا طويلاً - ثمانية أيام أو عشرة أيام - وعندئذ انتقلنا الى سفينة أخرى :

وأحبني الربان كثيراً ، ولكن هذا الحب اتخذ وجهة غير مرغوب فيها . لقد دعاني وصديقاً انكليزياً لمرافقته في نزهة فمضينا كلنا ، في سفينته ، الى الشاطئ . ولم تكن لدي أقل فكرة عن القصد من النزهة . ولم يكن الربان يعرف ، الا قليلاً ، مبلغ جهلي لهذه الامور . لقد أخذنا احد القوادين الى حي حافل بالنسوة الزنجيات . وهناك أدخل كل منا الى غرفة . أما أنا فقد اجتزأت بالوقوف وقد عقد الحجل لساني . والله وحده يعلم ما الذي قالته المرأة المسكينة عني ، في ما بينها وبين نفسها . وعندما ناداني الربان ، خرجت من الغرفة مثلما دخلت اليها . لقد رأى الى براءتي . واستشعرت خجلاً شديداً ، بادىء الامر ، ولكن لما كنت قد عجزت عن التفكير بالمسألة الا في ذعر فقد تلاشى حسن الحجل ، وشكرت الله على ان مشهد المرأة لم يثرني بحال . واشماززت من ضعفي ورثيت لنفسي لاني لم أملك الشجاعة التي تمكنني من ان أرفض الدخول الى تلك الغرفة :

كانت تلك ثالث تجربة من هذا النوع ، في حياتي : ولا ريب في ان كثيراً من الشبان ، الجاهلين في بادىء الامر ، قد سبقوا الى الاثم بحس خجل زائف . ولست أستطيع أن أدعي ايماء فضل في خروجي طاهر الذيل : لقد كنت جديراً بأن يكون لي فضل لو اني رفضت الدخول الى تلك الغرفة : ويتعين عليّ ان أشكر الكلي الرحمة وحده على انقاذي : فقد زادتني هذه الحادثة ايماناً بالله ، وعلمني الى حد ما ، أن أطرّح الحجل الزائف .

واذ كان علينا ان نبقى في هذا المرفأ اسبوعاً فقد استأجرت غرفة في المدينة ، ورأيت كثيراً من معالم تلك الديار بالتطواف في الضواحي : ان ملابار وحدها قادرة على ان تعطي ايماء فكرة عن نباتات زنجبار الغنية . لقد ذهلت بمشهد الاشجار الضخمة وبحجم الفاكهة :

وكانت وقفتنا التالية عند موزامبيك ، ومن هناك وصلنا الى ناتال في أواخر شهر نوار ( مايو ) .



## ٧. بعض الخبرات

ان مرفأ ناثال هو دوربان ، المعروف ايضاً بيور ناثال ، ولقد كان عبدالله شيت هناك لكي يستقبلي. وفيما الباخرة تقترب الى رصيف الميناء وفيما أنا اراقب الناس يصعدون الى السفينة لاستقبال اصدقائهم لاحظت ان الهنود لا يتمتعون بكثير من الاحترام . فانا لم استطع الا ان ألمح ضرباً من الترفع في مسلك أولئك الذين يعرفون عبدالله شيت نحوه ، ولقد ألكني ذاك . كان عبدالله شيت قد ألف هذا المسلك منهم . وكان الذين نظروا الي يعلون ذلك في شيء من الفضول . فقد ميزتني ملابسني من سائر الهنود . كنت ارتدي بذلة « فروك » وعمامة شبيهة بالهائم البنغالية الخفيفة .

واصطحبوني الى بيوت الشركة وأروني الغرفة التي افردت لي ، في عيادة غرفة عبدالله شيت . ولم يفهني ، ولم استطع ان افهمه . لقد قرأ الاوراق التي بعث بها أخوه اليه ، من طريقي ، فازداد دهشاً وحيرة . لقد ظن ان أخاه قد بعث اليه بشخص ضرره أعظم من نفعه : ولفتت ملابسني وطريقة معيشتي نظره كشيء كثير النفقة مثل ملابس الاوروبيين وطريقة معيشتهم . ولم يكن نعمة ، آنذاك ، عمل خاص يمكن ان يُعهد به الي . ولقد كانت دعوى الشركة قيد النظر في الترانسفال . ولم يكن هناك اي معنى لايفادي الى هناك في الحال . والى اي حد كان في استطاعته ان يثق بمقدرتي وأمانتي ؟ انه لن يكون في بريتوريا ليراقبني . وكان محامو الدفاع في بريتوريا ، وكان في ميسورهم — على مقدار علمه — ان يؤثروا علي تأثيراً غير مرغوب فيه . واذا لم يُعهد الي في العمل في الدعوى التي تنفي الشركة فأني عمل يمكن ان يُسند الي باعتبار ان موظفيه قادرون على النهوض بسائر الاعمال على وجه افضل ؟ كان في ميسوره ان يؤنب الموظفين اذا ما أخطأوا ، فهل كان في استطاعته ان يؤنبني اذا ضللت السبيل ؟ وهكذا فإذا لم يكن في ميسوره ان يسند الي اي عمل متصل بالدعوى فيتعين عليه ان يقيني عنده للاشياء .

كان عبدالله شيت أمياً تقريباً ، ولكنه كان ذا ذخيرة غنية من الخبرة ، كان على ذكاء حاد ، وكان يعي ذلك . وكان قد اكتسب ، من طريق التربية ، معرفة بالانكليزية تمكنه من التحدث بها ، ولكن هذه المعرفة مكنته من تصريف أعماله التجارية كلها سواء في تعامله مع مديري المصارف والتجار الاوروبيين ، أو في شرح دعواه لمحامييه . وكان الهنود يحترمونه احتراماً عظيماً . فقد كانت مؤسسته آنذاك هي اعظم ، أو على الاقل واحدة من اعظم ، المؤسسات اخندية ، وإلى جانب هذه المزايا كلها ، كانت له علة واحدة - كان بفطرته مرتاباً كثير الشك :

كان فخوراً بالاسلام ، محباً للتحدث عن الفلسفة الإسلامية . وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف العربية فقد كانت معرفته بالقرآن الكريم وبالادب الاسلامي على العموم معرفة جيدة . كان يملك ثروة من الشواهد والامثال ، وكانت هذه الثروة بتصرفه دائماً . والواقع أن احتكاكي معه أفادني مقداراً صالحاً من المعرفة العملية بالاسلام . لقد دارت بيننا ، عندما توثقت صلاتنا ، مناقشات طويلة في الموضوعات الدينية :

وفي اليوم الثاني أو الثالث لوصولي اصطحبني الى محكمة دوربان لكي أراها . وهناك عرفتني الى كثير من الناس وأجلستني الى جانب محامييه . وحدثني القاضي الي تحديقاً موصولاً ، وأخيراً سألتني ان اخلع عمامتي . يسداني رفضت ذلك وغادرت قاعة المحكمة .

وهكذا كانت الايام تُضمر لي : ههنا أيضاً ، معارك تعين علي ان أخوضها . وشرح لي عبدالله شيت لماذا كان بعض الهنود يسألون خلع عمامتهم قائلاً : ان اولئك الذين يرتدون الزي الاسلامي كان في ميسورهم ان يبقوا عمامتهم على رؤوسهم ، ولكن سائر المنسود مضطرون ان يخلعوا عمامتهم ، دائماً ، لدن دخولهم الى المحكمة .

ويجب ان افصل الكلام بعض الشيء لكي أجعل هذا التمييز الدقيق مفهوماً . مي خلال هذين اليومين أو هذه الثلاثة الايام كان في استطاعتي ان ارى ان الهنود

كانوا منقسمين الى جماعات مختلفة . كانت إحدى تلك الجماعات هي جماعة التجار المسلمين ، الذين كانوا يسمون انفسهم « عرباً » . وكانت احداها جماعة المستخدمين الهندوس ، وثالثة هي جماعة المستخدمين البارسيين . وكان المستخدمون الهندوس محتقرين فهم لا في العبر ولا في النفر ، الا اذا ربطوا مقدراتهم بمقدرات « العرب » . وكان المستخدمون البارسيون يسمون انفسهم « فرساً » . وكانت بين هذه الطوائف الثلاث بعض الصلات الاجتماعية . ولكن الطائفة الكبرى كانت ، من غير ريب ، هي تلك المؤلفة من العمال الهندوس الشماليين والناميليين والتيلوغويين الذين « حرروا » وأمضوا عقوداً للعمل في تلك الديار . وكان هؤلاء العمال هم الذين قصدوا الى ناتال بعقود تقضي بأن يخدموا طوال خمس سنوات ، والذين عرفوا هناك باسم جيرميتاس ، من لفظة جيرميت girmis المحرقة عن كلمة agreement ( اتفاق ) الانكليزية . ولم يكن للطوائف الثلاث الاخرى غير علاقة تجارية مع هذه الطائفة . وكان الانكليز يدعون أفرادها كولييز coolies ( أي العمال ) . واذ كانت الكثرة العظمى من الهندوس تنسب الى الطبقة العمالية فقد اطلق على جميع الهند اسم « كولييز » او « ساميز » samia . ولفظة « سامي » sami هي لاحقة ناميلية يقع عليها المرء في أواخر كثير من الاسماء الناميلية ، وهي لا تعدوان تكون لفظة سوامي swami السكريتية ، وتعني السيد . ومن هنا فقد كان الهندي كلما ساء ان ينادى بلفظ « سامي » ، وكان على شيء من الظرف ، يحاول ان يرد التحية على هذا النحو : « في استطاعتك ان تدعوني « سامي » ولكنك تنسى ان « سامي » تعني السيد . أنا لست سيدك ! » وكان بعض الانكليز يراجعون عند سماعهم هـذا الجواب ، في حين ان بعضهم الآخر كان يستبد به الغضب ، فيوجه الى الهندي ضرباً من الشتائم والاهانات ، وقد يوسعه - اذا وجد الفرصة مؤاتية - ضرباً ولكماً ، لأن لفظة « سامي » لم تكن عنده غير تعبير من تعابير الاحتقار . وكان تأويلها لتحمل معنى السيادة يعدل في نظره أهانة من الاهانات !

ولقد عرفت منذ ذلك الحين ، بـ « المحامي الكولي » . وكان التجار

يعرفون به «التجار الكولبيين» : وهكذا نسي المعنى الاصلي لكلمة «كولي» ، واصبحت لقباً عاماً على جميع الهنود . وكان من دأب التاجر المسلم ان يستنكر هذا ويقول : «أنا لست «كولي» ، أنا عربي» . أو «أنا تاجر» . فيسارع الرجل الانكليزي ، اذا كان رقيق الحاشية ، الى الاعتذار منه .

وكانت مسألة الاعتمار بالعمامة ذات اهمية كبيرة في هذه الاحوال . فاضطرار المرء الى انزع عمامته الهندية يعني سكوته على اهانة . وهكذا رأيت ان من الخير أن أودع العمامة الهندية وأبدأ بلبس القبعة الانكليزية ، الجديرة بأن تنجيني الاهانة والجلد غير المرغوب فيه .

ولكن عبدالله شيت لم يُقرّ الفكرة . لقد قال : «اذا فعلت أي شيء من هذا النوع فسوف يكون له اثر سيء جداً . انك سوف تهين بذلك اولئك الذين يصرون على الاعتمار بالعائم الهندية . والعمامة الهندية تبدو جميلة على رأسك . أما اذا لبست قبعة انكليزية فقد يحبك الناس نادلاً» .

كان في هذه النصيحة حكمة عملية ، ووطنية ، وقليل من ضيق الافق . كانت الحكمة واضحة : وهو لم يكن يصّر على العمامة الهندية الا بدافع من الوطنية في حين أن الاشارة الاستخفافية الى النادل كشفت عن ضرب من ضيق الافق العقلي . وكان ثمة بين الهنود المتعاقدين على العمل ثلاث فئات : هندوس ، ومسلمون ، ومسيحيون ، وكانت هذه الفئة الاخيرة تألف من ابنساء الهنود المتعاقدين على العمل والداخلين حديثاً في النصرانية . وحتى في عام ١٨٩٣ كان عددهم كبيراً . لقد ارتدوا الملابس الانكليزية ، وكان معظمهم يجنون رزقهم بوصفهم «ندلاً» في الفنادق . والى هذه الطبقة كان عبدالله شيت يشير في انتقاده للقبعة الانكليزية . كانت الخدمة في فندق عملاً معيماً في نظر القوم . ولا يزال هذا الاعتقاد سائداً ، حتى اليوم ، بين كثير من الناس .

وعلى الجملة ، فقد احببت نصيحة عبدالله شيت . فكتبت الى الصحف أروي لها الحادث وأدافع عن الاعتمار بعمامتي في قاعة المحكمة . ونوقشت المسألة في الصحف مناقشة طويلة ، وأطلقت عليّ تلك الصحف لقب «الزائر غير

المرغوب فيه . وهكذا أكسبني هذه الحادثة شهرة غير مرتقبة في جنوب افريقية ، خلال ايام قليلة انقضت على وصولي الى هناك . لقد أبدني بعض القوم ، على حين انتقد آخرون تهواري انتقاداً قاسياً . لقد احتفظت بهامتي حتى أيامي الاخيرة في جنوب افريقية ، تقريباً . أما متى ولماذا اقلعت عن الاعتمار بأي لباس للرأس ، في جنوب افريقية ، فذلك ما سوف أشرحه بعد .

## ٨. في الطريق الى بريتوريا

وسرعان ما اتصلت بالهنود المسيحيين الفاطنين في دوربان : كان مترجم المحكمة ، مستر بول ، من اتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية : فتعرفت اليه ، كما تعرفت الى المرحوم مستر سبجان غودفري ، وكان آنذاك مدرّساً ملحقاً بالبعثة البروتستانتية ، والى والد مستر غودفري الذي زار الهند ، عام ١٩٢٤ ، كعضو في مندوبية جنوب افريقية . كذلك التقيت بالمرحوم بارسى رستمجي والمرحوم آدنجي مياخان حوالى هذه الفترة بالذات . ان هؤلاء الاءدقاء كلهم الذين لم يجتمعوا قبل ذلك قط الا في مناسبات العمل والتجارة ، انتهوا آخر الامر الى ان ينشأ بينهم اتصال حميم كما سترى في ما بعد .

وفما كنت أوسع دائرة صداقاتي ، على هذا النحو ، تلقت الشركة رسالة من محاميتها قال فيها ان الاستعدادات للدعوى ينبغي ان تتخذ ، وان على عبدالله شيث ان يذهب بنفسه الى بريتوريا ، أو ان يبعث بمندوب عنه .

ودفع عبدالله شيث هذه الرسالة اليّ لكي اقرأها ، وسألني مسا اذا كنت أرغب في الذهاب الى بريتوريا . فقلت : « لا أستطيع ان اجيب الا بعد ان أفهم القضية منك . اما الان فأنا حائر لا ادري ما الذي يجب ان اصنعه هناك : » وهكذا كلف موظفيه ان يشرحوا الدعوى لي .

وفما أنا أدرس الدعوى ، شعرت وكأن عليّ ان أبدأ من النباء الموضوع :

وفي الأيام القليلة التي سبق لي ان قضيتها في زنجبار قصدت الى دار القضاء لأشهد سير العمل هناك . كان محام بارسي يستجوب شاهداً وبوجه اليه اسئلة متصلة بجانب منه ، وجانب له ، في دفاتر الحسابات . فسلم افهم من ذلك كله شيئاً البتة . فأنا لم ادرس علم امساك الدفاتر لا في المدرسة ولا خلال اقامتي في انكلترا . وكانت الدعوى التي وفدت من اجلها الى جنوب افريقية تنهض في المحل الاول على الحسابات التجارية . ولم يكن في ميسور احد ، غير العارفين بالحسابات التجارية ، ان يفهمها او يشرحها . ومضى الموظف يحدثني عن هذا المدين وذاك الدائن ، فازددت تشوشاً . كنت لا ادري ما معنى الـ P. Note وأعملت البحث عن الكلمة في المعجم . وكشفت للموظف عن جهالي فعملت منه ان الـ P. Note تعني promisory note أي سنداً او كميالة . واشتريت كتاباً من كتب امساك الدفاتر ، ودرسته . فأوقع ذلك بعض الثقة في نفسي . وفهمت الدعوى . لقد رأيت ان عبدالله شيت ، الذي لم يكن يعرف كيف يمسك الحسابات التجارية ، كان له من المعرفة العملية ما يمكنه من حل "عقد الدفاتر التجارية حلاً سريعاً . وقلت له اني اصبحت مستعداً للذهاب الى بريتوريا .

وسألني الشيت :

- « واين سوف تنزل ؟ »

فأجبته قائلاً :

- « حيث تريدني ان انزل . »

- « اذن فسوف أكتب الى محاميي . انه سوف يختار لك مكاناً تنزل فيه :

ولسوف اكتب ايضاً الى اصدقائي المسلمين هناك ، ولكني لا انصحك بالاقامة معهم . ان للفريق الآخر نفوذاً عظيماً في بريتوريا . واذا ما قُدر لأحد ان يطلع على مراسلاتنا الخاصة فإنه قد يُنزل بنا أذى كبيراً . وكلما استطعت اجتناب الاختلاط الحميم بهم كان ذلك خيراً لنا . »

- « سوف انزل حيث يتزلي محاميك ، أو ابحت لنفسي عن مسكن

مستقل : أرجوك ان لا تفارق . ان نفساً واحدة لن تعرف اي شيء من امرارنا ،  
ولكنني أعتزم ان اتعرف الى الفريق الآخر . اني احب ان اكون على صداقة  
معهم . وسوف احاول ، اذا امكني ، أن أسوي القضية خارج نطاق القضاء :  
وعلى اية حال فطبيب شيت نسيب من انسابك .

كان الشيت طبيب حاجي خان محمد من أنباء عبدالله شيت الاقربين :  
كان في استطاعتي ان ارى ان الاشارة الى امكان التسوية قد اذهلت عبدالله  
شيت . ولكنني كنت قد سلخت ، حتى ذلك الحين ، ستة ايام او سبعة ايام في  
دوربان ، ولقد أمسى كل منا الآن يعرف صاحبه وبفهمه . اننا لم أعصد في نظره  
شخصاً ضرره اعظم من نفعه . وهكذا قال لي :

— « أ...جل ، أنا ارى ، لن يكون ثمة ما هو افضل من اجراء تسوية خارج  
نطاق القضاء . ولكننا جميعاً انباء ، ونحن نعرف بعضنا بعضاً معرفة جيدة :  
ان طبيب شيت ليس بالرجل الذي يوافق على تسوية القضية في سر . وهو لو  
أنس منا اقل قدر من الغفلة اذن لاغتصب منا كل شيء ، وضربنا الضربة القاضية  
آخر الامر . من اجل ذلك أرجوك ان تفكر مرتين قبل ان تعمل شيئاً . »  
وقلت له :

— لا تفارق من هذه الناحية . انا لن اتحدث في أمر الدعوى الى طبيب شيت  
أو الى أي أمرى آخر . كل ما سوف افعله هو ان أوحى اليه بفكرة التوصل الى  
تفاهم ، وبذلك نجنب كثيراً من نفقات التقاضي غير الضرورية . »

وفي اليوم السابع او الثامن لوصولي ، غادرت دوربان . لقد اشتريت تذكرة  
سفر بالدرجة الاولى . وكان من المألوف هناك ان يدفع المرء خمسة شلنات  
اضافية اذا ما اراد مفترساً . وأصر عبدالله شيت على ضرورة حجز مقترش لي ،  
ولكنني رفضت بدافع من العناد والغرور والرغبة في توفير خمسة شلنات . وحذرني  
عبدالله شيت وقال : « انتبه ، هذه بلاد تختلف عن الهند . ونحن والحمد لله  
اغنياء . فأرجوك ان لا تقتر على نفسك ولا تحرمها شيئاً مما قد تحتاجه . »  
وشكرته ، وسألته ان لا يقلق .

ووصل القطار الى ماريتزبورغ ، عاصمة ناتال ، في حوالي الساعة التاسعة

بعد الظهر : وكانت المفترشات تقدم في هذه المحطة . واقبل خادم من خدم السكة الحديدية وسألني هل انا في حاجة الى واحد منها ، فقلت : « لا ، ان عندي واحداً . » فضى لسيله . ولكن مسافراً ما لبث ان اقبل ، وانشأ ينظر الي من قمة الرأس الى اخمص القدم . لقد رأى اني رجل « ملون » . وأزعجه ذلك : فخرج ثم عاد معه موظف او موظفان . واحتفظوا كلهم بالهدوء عندما اقبل عليّ موظف آخر وقال :

« تعال ! يجب ان تنتقل الى عربة البضائع . »  
فقلت :

« ولكنني أحمل بطاقة السفر بالدرجة الاولى . »  
فأجاب الآخر :

« هذا لا يقدم ولا يؤخر . اقول لك : يجب ان تنتقل الى عربة البضائع . »  
« اقول لك انه سمح لي ان اسافر في هذه الحافلة في دوربان ، وانا أصراً على البقاء فيها . »  
فقال الموظف :

« لا ، انك لن تبقى . يجب ان تغادر هذه الحافلة ، والا اضضرت الى ان استدعي شرطياً يخرجك منها . »  
« اجل ، في استطاعتك ان تفعل . انا ارفض مغادرتها طوعاً . »

واقبل الشرطي . لقد امسكني من يدي ودفعني الى الخارج . كذلك طرحت امتعتي خارجاً . ورفضت الذهاب الى العربة الاخرى . وانطلق القطار ، فضيت وقعدت في غرفة الانتظار ، محتفظاً بحتيبي اليدوية الى جانبي ، تاركاً سائر الامتعة في مكانها . كانت سلطات السكة الحديدية قد تولت أمر الاهتمام بها .

كان ذلك في فصل الشتاء ، والشتاء في المناطق العليا من جنوب افريقية قارس جداً . واذا كانت ماريتزبورغ قائمة في منطقة ممعنة في الارتفاع فقد كان بردها قاسياً الى ابعد الحدود . وكان معطفي وسط امتعتي ولكنني لم اجرؤ على طلبه خشية ان اهان من جديد . وهكذا قعدت ورحت ارتجف . لم يكن في الغرفة



ضوء . واقبل مسافر حوالى منتصف الليل ، ولعله كان يريد ان يتحدث اليّ ؛ ولكني لم اكن في حال نفسية تساعدني على الكلام .

وبدأت افكر في واجبي . أيتعين عليّ ان افاضل من اجل حقوقي أم ان اعود الى الهند ؟ أم ان أمضي الى بريتوريا متغاضباً عن الاهانت لأرجع الى الهند بعد الفصل بالدعوى ! ان من الجبن ان انقلب الى الهند من غير ان أفي بتهدي . إن البلاء الذي أخضعت له كان طفيفاً ، وهو ليس غير عرض من أعراض داء عميق ، داء التعصب العرقي . ومن واجبي ان احاول ، اذا كان ذلك ممكناً ، ان استأصل هذا الداء من جذوره ، وان انحمل في ذلك ضروب البلاء . ويتعين عليّ ان لا اسعى للرد على المظالم الا الى الحد الذي يفرضه استئصال داء التعصب العرقي .

وهكذا عمتد العزم على ان آخذ أول قطار قاصد الى بريتوريا .

وفي صباح اليوم التالي ارسلت برقية طويلة الى المدير العام للسكة الحديدية ، وكذلك أعلمت بالأمر عبدالله شيث ، الذي اجتمع بالمدير العام في الحال . وبرر المدير العام مسلك رجال السكة الحديدية ، ولكنه اخبره انه سبق أن طلب الى مدير المحطة ان يتأكد من اني وصلت الى المكان الذي اقصد اليه سالماً . وأبرق عبدالله شيث الى التجار الهنود في ماريتربورغ وبعض الاصدقاء في اماكن اخرى ليستقبلوني ويحيطوني برعايتهم . ولقد اقبل التجار لرؤيتي في المحطة ، وحاولوا ان يسرّوا عني بتحديثي عن ضروب البلاء التي قاسوها هم ، موضحين ان ما حدث لي لم يكن شيئاً غير مألوف . ولقد قالوا ايضاً ان على المنسود المسافرين بالدرجة الاولى والدرجة الثانية ان يتوقعوا مضايقة كبيرة من موظفي السكة الحديدية والركاب البيض . وهكذا انفقت النهار في الاستماع الى حكايات الويل هذه . ووصل قطار المساء . كان قد حُجز لي مكان فيه . ولقد اشتريت هذه المرة من ماريتربورغ تذكرة المفترش التي رفضت ان اشترىها في دوربان .

ونقلني القطار الى تشارلز تاون .

## ٩. نحن "أخرى"

ووصل القطار الى تشارلزتاون في الصباح . لم يكن ثمة ، في تلك الايام ، سكة حديدية بين تشارلزتاون وجوهانسبورغ ، ولكن مجرد عربة مسافرين كانت تتوقف في ستاندرتون طوال الليل لتتابع الرحلة بعد ذلك . وكنت احمل تذكرة ركوب في تلك العربة ، وهي تذكرة لم يبلغها انقطاع الرحلة طوال يوم في ماريتزبورغ ، والى هذا ، فقد كان عبدالله شيث قد وجه برقية الى وكيل العربة في تشارلزتاون .

ولكن الوكيل لم يكن في حاجة الا الى ذريعة لكي يتخلص مني . فما ان اكتشف اني غريب حتى قال " ان تذكرتك ملغاة . " وأعطيته الجواب المناسب . كان السبب الكامن في قرارة نفسه ليس ضيق العربة عن الاتساع لراكب جديد ، ولكن شيئاً آخر بالكلية . كان المسافرون ينقلون في داخل العربة ، ولكن لمة كنت معدوداً من " الكولي " ولما كنت أبداً اجنبياً فقد تراءى للزعيم - وهو اللقب الذي كان يطلق على الرجل الابيض المكلف بالأشراف على شؤون العربة - ان من الخير ان يجلسني مع المسافرين البيض . وكان ثمة مقاعد على جانبي مقعد الحوذي . وكان الزعيم يجلس دائماً على واحد من هذه المقاعد . أما اليوم فقد اتخذ مكاناً في داخل العربة ، واعطاني مقعده . ولقد عرفت ان هذا ظلم خالص وإهانة موجهة اليّ ، ولكنني رأيت أن من الخير ان اتجاهل ذلك : فلم يكن في ميسوري ان أفحم نفسي الى داخل العربة لإقحاماً ، ولو اني احتججت على هذا ، اذن لانطلقت العربة وخلفني وراءها ، واذن لخسرت يوماً آخر ، والله وحده يعرف ما الذي قد يقع في اليوم التالي . وهكذا اعتصمت بالحكمة واتخذت مكاني على الرغم مما كان يعمل في نفسي من حتى الى جانب الحوذي : وحوالي الساعة الثالثة وصلت العربة الى بارديكوف . وهنا أحب الزعيم ان يجلس حيث كنت أجلس ، اذ كان يريد ان يدخن ، وربما ان يأخذ شيئاً من الهواء الطلق . وهكذا أخذ من الحوذي قطعة خيش قدرة ، ونشرها على موطنيء للقدم وخاطبني قائلاً : " سامي ، اجلس انت على هذه : أريد ان اجلس قرب

السائق . كانت الالهانة فوق ما احتمل : وفي خوف وارتعاد قلت له : « انك انت الذي اجلسني هنا ، على الرغم من انه كان من حقني ان اجلس في الداخل ، لقد صبرت على الالهانة . والآن وقد حلالك أن تجلس في الجزء المكشوف من العربية وتدخلن ، تطلب اليّ ان اجلس عند قدميك . انا لن افعل ذلك . ولكني على استعداد للجلوس في الداخل . »

وفما كنت اناضل لاطلاق هذه الجمل انفضّ الرجل عليّ وانشأ بلكفي على أذنيّ لكلمات قوية . لقد أمسكني من ذراعي ، وحاول ان يطرحني على دواسّة الحوذي . وتشبّث بسيّاح مقعد السائق النحاسي الأصفر ، وعزمت على عدم افلاته حتى ولو كسرت عظام معصميّ . وكان الركاب يشهدون هذه المعركة - الرجل يشتمني ، ويسحقني ، ويوسغي ضرباً ، وانسا ملتزم مكاني معتصم بالسكون . كان قوياً : وكنت انا ضعيفاً . وأخذت الشفقة بعض الركاب وصاحوا : « دعه وشأنه ، يارجل . لا تضربه : انه ليس ملوماً : انه على حق ، اذا كان لا يستطيع البقاء هناك فدعه يأمّي ويجلس معنا . فصاح الرجل : « لا تخافوا عليه ! ، ولكنه بدا وكأنه قد يش بساطريقة ما ، وكفّ عن ضربتي . لقد أفلت ذراعي ، ووجه اليّ بعض الشنائم الاضافية وامر الخادم الموتوتوني . الذي كان جالساً على الجانب الآخر من مقعد الحوذي ان يجلس على موطني القدم ، واحتل هو مكانه .

وانخذ الركاب مقاعدهم ، وأطلقت صفرة ، وصرت العربية ماضيةً لسيلها : كان قلبي يخفق بين اضلاعي خفقاً عنيفاً ، وكنت اتساءل هل سيقدر لي ان اصل ، حياً ، الى المكان الذي اقصد . وحذجني الرجل ، بين الفينة والفينة ، بنظرة غضبي ، ومناً بأصبعه اليّ . وزجر : « خذ حذرك : دعني اصل الى ستاندرتون وعندئذ سوف اريك ما الذي سأعله . » وقبعت في مكاني صامتاً ، وضرعت الى الله ان يساعدني .

---

• Hottentot عرق من عروق جنوب أفريقية ذو بشرة سراء خاربة إلى الصفرة . ويمتبرون هناك من الأجناس المحقرة . (المغرب)

وبعد هبوط الليل بلغنا ستاندرتون، وتفتت الصعداء للذين رؤيتهم بعض الوجوه الهندية . وما ان ترجمت من العربية حتى قال هؤلاء الاصدقاء : « لقد اقبلنا الى هنا لكي نستقبلك ونذهب معك الى دكان عيسى شيت . لقد تلقينا بريقة من دادا عبد الله : « وغررتني موجة من السعادة ، ومضينا الى دكان الشيت عيسى حاجي سومار . واجتمع الشيت وموظفوه حولي : فحدثتهم عما حدث لي : فأسفوا لما سمعوا أعظم الاسف ، وادخلوا العزاء على قلبي بأن راحوا ينصون عليّ خبراتهم المريعة المشابهة .

واحييت ان اخبر وكيل « شركة العربات » بالمألة كلها . وهكذا كتبت اليه رسالة رويت فيها كل ما حدث ، ولفت نظره الى التهديد الذي وجهه الرجل اليّ . كذلك طلبت ضماناً بأنني سوف أنقل مثل سائر الركاب في داخل العربة عندما نستانف رحلتنا في الصباح التالي . فأجابني الوكيل بما مفاده : « ان عندنا ، من ستاندرتون ، عربة اكبر يتولى شؤونها رجال آخرون . ان الرجل الذي تشكو منه لن يكون هناك غداً ، وسوف تتخذ مقعدك مع المسافرين الآخرين . » وكان في هذا ما سرّني عني بعض الشيء : ولم اكن اعترم ، طبعاً ، ان اقيم الدعوى على الرجل الذي اهانني ، وهكذا انتهت قصة الاعتداء عند هذا الحد .

وفي الصباح قادني احد رجال عيسى شيت الى العربة : فاحتلت مقعداً حسناً ووصلت الى جوهانسبورغ ، تلك الليلة ، بسلام .

ان ستاندرتون قرية صغيرة ، وان جوهانسبورغ مدينة كبيرة : وكان عبد الله شيت قد ابرق الى جوهانسبورغ أيضاً ، واعطاني اسم شركة محمد قاسم قمر الدين هناك وعنوانه . وكان منسوب هذه الشركة قد اقبل لاستقبالي في المحطة ، ولكن لا أنا رأيت ولا هو عرفني : وهكذا قررت ان اذهب الى احد الفنادق . كنت اعرف اسماء كثير منها . وامطيت من عربة من العربات وسألت السائق ان يقودني الى « الفندق الوطني الكبير » . وهناك قابلت المدير واعلنت له عن رغبتني في التزول في احدى الغرف . فنظر اليّ لحظة ، وقال لي لطف : « أنا

جد آسف ، ليس عندنا غرفة شاغرة . « وودّعني . سألت سائق العربسة ان يقودني الى دكان محمد قاسم قر الدين . وهناك وجدت عبد الغني شيث يتظرني ، فرحب بي ترحيباً ودبياً . ولقد ضحك من شغاف قلبه لدى سماعه حديثي مع صاحب الفندق وقال :

« وكيف توقعت ، بحال من الاحوال ، ان يُسمح لك بالتزول في فندق ؟ »

فألته :

« ولم لا ؟ »

فقال :

« سوف تعرف ذلك بعد ان تمكث هنا بضعة ايام . نحن وحدنا نستطيع أن نحيا في ارض مثل هذه . لاننا ، في سبيل اكتساب المال ، لا نحجم عن السكوت على الاهانات . ثم انشأ يقصّ عليّ حكاية المحن التي يقاسمها الهنود في جنوب افريقية :

وسوف نعرف اشياء أخرى عن الشيث عبد الغني في الفصول القادمة . قال :

« هذه البلاد لم تجعل لرجال من مثلك . اسمع الآن ، ان عليك ان تذهب الى بريتوريا غداً . وسوف يتعين عليك ان تسافر في الدرجة الثالثة . الأحوال في الترانسفال اسوأ منها في ناتال . ان بطاقات الدرجة الاولى والدرجة الثانية لا تباع للهنود البتة . »

« ألم يكن في ميسوركم ان تبدلوا جهوداً موصولة في هذه السبيل ؟ »  
« لقد قدّمنا اعتراضات ، ولكنني أعترف بان ابناء قومنا لا يرغبون دائماً في السفر بالدرجة الأولى أو الثانية . »

وطلبت نسخة من انظمة السكة الحديدية وقرأتها . كان ثمة مخرج . ان لغة قوانين الترانسفال القديمة لم تكن دقيقة جداً او محكمة جداً . وكانت لغة انظمة السكة الحديدية اقل دقة وإحكاماً . »

وقلت للشيخ :

— « اريد ان اسافر في مقعد من مقاعد الدرجة الاولى ، واذا لم اوفق فاني افضل ان آخذ عربة توصاني الى بريتوريا ، وهي لا تبعد اكثر من سبعة وثلاثين ميلاً . »

ولفت الشيخ عبد الغني نظري الى الوقت والمكان الاضافيين اللذين يقتضيهما ذلك ، ولكنه أقرني على رغبتي في السفر بالدرجة الاولى ، وهكذا وجهنا رسالة الى مدير المحطة . ولقد ذكرت في تلك الرسالة أنني محام ، واني اسافر دائماً ببطاقة من بطاقات الدرجة الاولى ، كما ذكرت في الرسالة اني مضطر الى ان اصل الى بريتوريا بأسرع ما يمكن ، وانه لما كان وقتي الضيق لا يمكنني من انتظار جوابه فسوف اتلقى هذا الجواب بنفسى في المحطة ، واني اتوقع ان افوز بتذكرة من تذاكر الدرجة الاولى . وكان ثمة حكمة ، طبعاً ، من طلبي الحصول على الجواب بنفسى : فقد فكرت ان مدير المحطة اذا ما وجه الى جواباً خطياً فلا بد ان يقول في جوابه « لا ! » خاصة وأنه كانت له من غير شك فكرته عن المحامي « الكولي » . ولذلك سوف أبرز أمامه في ملاسبي الانكليزية الكاملة ، وأتحدث اليه ، فقد أقنعه بأعطائي تذكرة درجة اولى : وهكذا مضيت الى المحطة في « بذلة فروك » وعقدة رقبة ، ووضعت جنبها ، على المائدة ، وطلبت تذكرة سفر من تذاكر الدرجة الاولى .

وسألني :

— « أنت الذي بعثت اليّ بتلك الرسالة ؟ »

— « اجل . وأكون شاكراً جديداً اذا اعطيني تذكرة . يجب ان اصل الى بريتوريا اليوم . »

وابتسم وقال رانياً لحالي : « انا لست ترانسفالياً . انا هولندي . اني افهم احساسك وأقدرها ، واني اشعر معك . سوف اعطيك تذكرة ، على شرط واحد : اذا سألك الحرس ان تنتقل الى الدرجة الثالثة فلا تورطني في هذه المسألة ، أعني لا تقم دعوى على شركة السكة الحديدية . اني أتمنى لك رحلة مالة ،

استطيع ان ارى انك جنتلمان :  
قال هذه الكلمات وقدم اليّ التذكرة. فشكرته واعطيته التوكيدات الضرورية.  
وكان الشيث عبد الغني قد وفد الى المحطة لتوديعي . ودهش ، دهشاً  
مشوباً بالسرور ، عندما حدثته عما جرى بيني وبين مدير المحطة ، ولكنه حذرني  
قائلاً : « سوف احمد الله اذا وصلت الى بريثوريا في سلام . انا اخشى ان لا  
يتركك الحرس وشأنك في مقاعد الدرجة الاولى ، وحتى لو تركك وشأنك ،  
فإن المسافرين لن يتركوك . »

واتخذت مقعدي في حافلة الدرجة الاولى ، وانطلق القطار . وفي جبرمستون  
أقبل الحرس للسؤال عن التذاكر . واخذ الغضب حين وجدني هناك ، وأوماً  
اليّ باصبعه ان انتقل الى الدرجة الثالثة . وأريته بطاقة الدرجة الاولى التي احملها  
فقال :

- « هذا لا يقدم ولا يؤخر . انتقل الى الدرجة الثالثة :  
ولم يكن في الحافلة غير مسافر انكليزي . فأنبأ الحرس قائلاً : « ما الذي  
تعنيه بازعاج هذا الرجل ؟ الا ترى انه يحمل تذكرة من تذاكر الدرجة الاولى ؟  
أنا لا اجد اي بأس في ان يسافر معي . » ثم وجه الخطاب اليّ فقال : « ينبغي أن  
تأخذ راحتك حيث انت :  
وهنا غفم الحرس :

- « اذا كنت تريد السفر مع رجل « كولي » ، فليكن لك ما تريد ا  
ومضى ليله .

وحوالى الساعة الثامنة ، مساءً ، وصل القطار الى بريثوريا :

## ١٠. اليوم الاول في بريثوريا

كنت انتظر ان اجد في محطة بريثوريا موقداً ما ، من قبل محامي شركة دانا  
جداً : وكنت اعرف انه لن يكون هناك ابداً منسقي في استقبالي ، اذ سبق

لي أن وعدت بأنني لن أنزل ضيفاً على إمام بيت هندي : ولكن المحامي لم يوجه  
احداً للقائي . وقد فهمت في ما بعد أن وصولي يوم الأحد جعل من العسير عليه  
إرسال من يستقبلني . وارتبكت ، ونساءلت الى ابن اذهب ، اذ خفت أن لا  
يفتح إمام فندق ابوابه في وجهي .

كانت محطة بريتوريا ، عام ١٨٩٣ ، مختلفة تماماً عنها عام ١٩١٤ . كانت  
الاضواء تشتعل على نحو باهت . وكان المسافرون قلة قليلة . وتركت جميع  
الركاب بمضون لسيلهم ، وفكرت أن أقدّم تذكريتي الى جامع التذاكر - حالما  
يفرغ من عمله - وأن أسأله أن يهديني الى فندق صغير أو إمام مكان مماثل استطع  
أن اذهب اليه ، والافسوف يتعين عليّ أن اقضي الليل في المحطة . ويجب أن  
أعترف بأنني قد أحججت بإدبي الأمر حتى عن توجيه هذا السؤال اليه ، وما ذلك  
الا لأنني خشيت أن يوجه اليّ اهانة ما .

وأست المحطة خالية من المسافرين جميعاً . وقدمت تذكريتي الى جامع  
التذاكر ، وشرعت اوجه اليه اسألني . فأجابني في لطف ، ولكنني وجدت أنه  
عاجز عن أن يقدم اليّ مساعدة تستحق الذكر . وهنا قاطعنا زنجي امبركي كان  
على مقربة منا وقال :

— « لاحظ أنك غريب تماماً في هذا البلد ، وأنه ليس لك اصدقاء البتة :  
فأذا ما جئت معي فسوف آخذك الى فندق صغير يملكه رجل امبركي أعرفه  
معرفة جيدة . وأنا أعتقد انه لن يمانع في نزولك عنده . »

ولم اكن واثقاً من نجاح الفكرة ، ولكنني شكرته وقبلت اقتراحه . فقادني  
الى « فندق جونستون العائلي . » وانتحى بمسّر جونستون جانباً لكي يكلمه ،  
فوافق الاخير على مبيتني عنده تلك الليلة ، شرط أن يُقدّم اليّ طعام العشاء في  
غرفتي .

وقال :

— « أؤكد لك اني لا اعرف عصية العرق واللون . ولكن زبائني كلهم  
ايروبيون ، واذا ما اجزت لك ان تأكل في قاعة الطعام فإن ضيوفي قد يغضبون ،



بل قد يغادرون الفندق . ،

فقلت :

- « اشكرك ، حتى على قبولي هذه الليلة فحسب . لقد أصبحت الآن على علم ، قليل او كثير ، بالاحوال السائدة هنا ، وأنا أفهم المصاعب التي تواجهها في عملك : ولست أمانع في تقديم الطعام اليّ في غرفتي . وأرجو ان أوفق الى القيام بترتيب آخر غداً . »

وأدخلت الى الغرفة حيث جلست منتظراً طعام العشاء مسترسلاً في التأمل بعد أن وجدت نفسي وحيداً في ذلك المكان : ولم يكن في الفندق عدد كبير من النزلاء ، وكنت قد توقعت أن يُقبل النادل بالطعام في غير ابطاء . ولكن مسر جونسون ما لبث أن أقبل قائلاً : « لقد خجلت من تكليفك تناول العشاء في الغرفة وهكذا تحدثت مع النزلاء الآخرين في امرك ، وسألتهم هل يعترضون على تناول العشاء في حجرة الطعام . فقالوا انه لا مانع عندهم ، وليس لديهم اعتراض على بقائك هنا ما شئت . أرجوك ، اذن ، ان تمضي الى حجرة الطعام اذا احببت وان تبقى عندنا ما رغبت في البقاء . »

وشكرته مرة ثانية ، ومضيت الى حجرة الطعام ، وتناولت عشاء شهياً : وفي صباح اليوم التالي قمت بزيارة للمحامي ، مستر أ. و. بايكر . وكان عبدالله شيث قد حدثني عنه بعض الشيء ، وهكذا فأن استقبله الودي لم يدهشني : لقد رحب بي في حرارة بالغة ، ووجه اليّ ، في لطف ، كثيراً من الأسئلة : فأوضحت له كل شيء عن نفسي ، وعندئذ قال : « ليس لدينا ههنا عمل لك كمحام ، لأننا وكلنا اكبر محام في البلاد . ان الدعوى متظاوله ومعقدة ، ومن اجل ذلك سوف استعين بك ضمن نطاق الحصول على المعلومات الضرورية ليس غير . وليس من زيب في أنك سوف تيسر لي أمر الاتصال بموكلي : ذلك اني سأطلب جميع المعلومات التي أحتاج اليها ، بعد اليوم ، من طريقك . وهذا في ذاته كسب . أنا لم اجد حتى الآن غرفة نستطيع أن نتخذها مسكناً لك . فقد رأيت ان من الافضل أن ارجيء ذلك الى ما بعد الاجتماع بك . ان ههنا تعصباً

رهياً ضد الملونين ، ومن اجل هذا فليس من اليسير العثور على مكان بيت فيه رجل مثلك . ولكني أعرف امرأة فقيرة . انها زوجة خباز . وأعتقد انها سوف تقبلك وبذلك تزيد في دخلها بعض الشيء . تعال ، فلنذهب الى بيتها . واصطحبني الى بيتها . وحدثها عني على انفراد : فوافقت على نزولي عندها مقابل ٣٥ شلناً في الاسبوع .

وكان مستر بايكر ، بالإضافة الى كونه محامياً : مبشراً ملذباً متحمساً . انه لا يزال على قيد الحياة ، وهو منصرف الآن كل الانصراف الى عمله التبشيري ، بعد أن هجر مهنة المحاماة . انه على نراء لا بأس به . وهو يواصل مراساتي حتى اليوم : وهو لا يفتأ يعالج ، في رسائله ، الموضوع نفسه دائماً . انه يعتقد بامتياز النصرانية من وجهات نظر مختلفة . ويذهب الى ان من المستحيل على المرء ان ينعم بالسلام السرمدى الا اذا آمن بالمسيح بوصفه ابن الله الأوحيد ومنقذ الجنس البشري :

وخلال هذه المقابلة الاولى نفسها استطلع آرائي الدينية ، فقلت له :  
- « انا هندوسي بالولادة . ومع ذلك فلت أعرف كثيراً من الهندوسية ، في حين اني أعرف قدراً أقل أيضاً من سائر الأديان . والواقع اني لا أعرف اين انا ، وما هو وأي شيء ينبغي أن يكون اعماضي . اني اعترم ان أقوم بدراسة دقيقة لديانتي نفسها ، وبدراسة سائر الاديان - على قدر طاقتي - ايضاً . »  
ومرّ مستر بايكر بساع هذا كله : وقال :

- « أنا أحد مديري « ارسالية جنوب افريقية العامة » : ولقد شيدت كنيسة على نفقتي الخاصة ، وأنا التي فيها العظائم على نحو نظامي . أنا بريء من التعصب على الملونين . وان لي لأخواناً يعملون معي في هذا الحقل ، ونحن نجتمع بضع دقائق في الساعة الواحدة كل يوم ونصلي من اجل السلام والنور . وسوف اكون سميحاً اذا ما اشركت معنا هناك . اني سوف أقدمك الى اخواني الذين سيعدون بلقائك ، وأستطيع ان اقول انك سوف تنعم برفقتهم : والى هذا فأعطيك بعض الكتب الدينية لتقرأها ، على الرغم من ان كتاب الكتب طبعاً

هو الكتاب المقدس الذي أصبحك بتلاوته خاصة .  
وشكرت مسر بايكر ، ووافقت على أن أشهد صلوات الساعة الواحدة كلها  
وجدت الى ذلك سيلاً .

— « واذن فسوف أنتظرك هنا غداً في الساعة الواحدة ، وسوف نذهب معاً  
الى الصلاة . » كذلك أضاف مسر بايكر ، وتواعدنا على اللقاء .  
ولم يكن عندي غير وقت قليل للتفكير .

ومضيت الى مسر جونستون ، ودفعت فاتورة الحساب ، وانتقلت الى المنزل  
الجديد حيث تناولت طعام الغداء . كانت ربة البيت امرأة صالحة . وكانت قد  
أعدت لي طعاماً نباتياً . وما هي إلا فترة حتى شعرت وكأنني احد افراد الأسرة ؛  
ثم إنني مضيت للاجتماع بالصديق الذي حماني دادا عبدالله رسالة اليه . ولقد  
عرفت منه اشياء اضافية عن ضروب البلاء التي يقاسيها الهنود في جنوب  
افريقية . وأصر على ضرورة نزولي ضيفاً عليه . فشكرته ، وقلت له إنني قد  
قت بترتيبات خاصة بأمر السكنى . فألح علي بأن لا أتردد في ان اسأله عن  
أما شيء أحتاج اليه .

كان الليل قد هبط . فرجعت الى البيت ، وتناولت طعام العشاء ، ومضيت  
الى غرفتي واستلقيت هناك مستغرقاً في تفكير عميق . لم يكن عندي إما عمل عاجل .  
وأعلمت عبدالله شيئ بذلك . وقلت في ذات نفسي : علام يدل اهتمام مسر  
ببايكر نبي ؟ ما الذي سوف أكسبه من رفاقه في العمل الديني ؟ الى أي حد ينبغي  
لي ان انصرف لدراسة النصرانية ؟ ومن أين لي الوصول إلى كتب خاصة بالديانة  
الهندوسية ؟ وكيف يتأتى لي أن أفهم النصرانية بمجاليها العقلية الخاصة من غير  
أن اعرف ديانتني معرفة دقيقة ؟ ولم يكن في ميسوري ان انتهي إلا الى استنتاج  
واحد : يجب ان اقوم بدراسة كل ما يقع تحت ناظري دراسة هادئة رصينة ،  
وأن اقف من جماعة مسر بايكر الموقف الذي يهديني الله اليه . إن علي أن لا  
افكر في اعتناق دين جديد قبل ان أفهم ديني فهماً كاملاً .

وفيما انا أسترسل في التأمل على هذا النحو استسلمت عيناى للرقاد :

## ١١. اتصالات مسيحية

وفي الساعة الواحدة من اليوم التالي مضيت لأشهد صلاة مسر بايكر ورفاقه . وهناك قُدمتُ الى مس هايس ، ومس غاب ، ومسر كوتس ، وغيرهم ؛ وركع القوم جميعاً للصلاة ، فحدوت حدوهم . كانت الصلوات توسلاً الى الله من أجل اغراض مختلفة ، وفقاً لرغبة كل من المصلين . وهكذا كانت الأدعية المألوفة ان ينقضي النهار في سلام ، أو ان يُشرع الله أبواب الفؤاد .

وأضيفت صلاة من اجل: « ايها الرب ، دُلْ على الطريق هذا الأخ الجديد الذي وفد علينا اليوم ، وامنحه ، يارب ، الأمن الذي منحنا اياه . ولينفسه ربنا يسوع كما قد افقدنا . اننا نسأل هذا كله باسم يسوع . » ولم يكن ثمة انشاد ترانيل او عزف موسيقى في هذه الاجتماعات . وبعد التوسل لتحقيق شيء بعينه كل يوم ، كنا نتفرق ، فيمضي كلٌ لتناول طعام الغداء ، بعد أن تكون ساعته قد حانت . إن الصلاة ما كانت تستغرق أكثر من خمس دقائق .

وكانت كل من مس هايس ومس غاب عائلة متقدمة في السن . وكان مسر كوتس من جاعة الكويكرز . كانت العانستان تسكنان معاً ، وقد دَعَتاني الى تناول شاي الساعة الرابعة في بيتها كل يوم أحد .

وكنت عند اجتماعنا يوم الأحد اقدم الى مسر كوتس يومياني الدينية الخاصة بالاسبوع المنصرم ، وأندارس معه الكتب التي قرأتها والانطباعة التي تركتها في نفسي . وكانت الآستان ترويان خبراتها العذبة وتحدثان عن السلام التي نعمتا به .

وكان مسر كوتس شاباً متحمساً سليم الطوية . كنا نتزود معاً . وكان يصحني لزيرة بعض الاصدقاء المسيحيين الآخرين .

وعندما توفقت صلاتنا أكثر شرع يعطيني كتباً من اختياره حتى لقد امتلأ رفّ كتي بها . لقد حملني انقلاً من الكتب . ووافقت . في اخلاص . على قراءة هذه الاسفار كلها . وكنا نتناقش في هذه الكتب بعد قراءتها .

لقد طالعت عدداً من تلك الكتب، عام ١٨٩٣ . ولست اذكر اسماءها كلها، ولكنها كانت تشتمل على كتاب «التفسير» للدكتور باركر ، وكتاب بيرسن : «براهين دامغة كثيرة» ، وكتاب «القياس» لباتلر . وكانت بعض اقسام هذه الكتب اعسر من ان افهمها . ولقد احبت اشياء فيها ، على حين لم احب اشياء اخرى . وكان كتاب «براهين دامغة كثيرة» مجموعة من الأدلة المؤيدة لدين الكتاب المقدس ، كما فهمه المؤلف . ولم يغادر هذا الكتاب أي اثر في نفسي . وكان كتاب باركر ، «التفسير» ، مثيراً من وجهة النظر الاخلاقية . ولكنه كان عاجزاً عن ان يُقدم ايما عون لامريء خلو من الايمان بالمعتقدات النصرانية السائدة . اما كتاب باتلر ، «القياس» ، فقد راعني ككتاب عميق جداً وعسير جداً ، كتاب ينبغي أن يُقرأ اربع مرات او خمس مرات لكي يفهم فهماً حسناً . لقد بدا لي انه كتب ابتغاء تحويل الملحدين الى الايمان . وكانت الحجج التي اوردها في ما يتصل بوجود الله غير ضرورية بالنسبة اليّ ، فقد كنت قد اجتزت مرحلة الايمان . ولكن حججه التي حاولت ان تثبت ان المسيح هو نحمد الله الأوحد والوسيط بين الله والانسان - هذه الحجج لم تستطع ان تبرني البتة .

بيد أن مستر كوتس لم يكن ذلك الرجل الذي يرضي الخزيمة في يسر . كان يحبني حباً كثيراً . ولقد رأى عني مطوّقاً بعقد الـ « فيشنافا » المؤلف من «خرزات التولاسي» . فاعتبر ذلك ضرباً من الخرافة . وأوقع في نفسه الألم . وقال :

« هذه الخرافة لا تليق بك . تعال ، دعني افطر هذا العقد . »

فقلت :

« لا . لا . لا تفعل . انها منحة مقدسة من امي . »

« ولكن هل تؤمن بها ؟ »

« انا لا أعرف مغزاها الخفي . ولست أعتقد ان الأذى لا بد ان يصيبني

اذا ما نزعتها . ولكني لا استطيع ، من غير ما سبب كاف ، ان اطرح عقداً طوّقت هي عني به بدافع من الحب . واعتقاداً منها بأنه سوف يقود خطاي

الى مافيه خبري : حتى إذا انقضت الايام واصاب اليل العمد وانفرط انفرطاً  
ذاتياً فمئذئذ لن اعمد الى الحصول على عقد جديد . ولكن عقدي هذا لا يمكن  
أن يُفترط .

ولم يستطع مسر كوتس ان يقدر حجتي حتى قدرها ، إذ لم يكن يقم اي  
اعتبار لثبتي . كان يتطاع الى انتشالي من هاوية الجهل . ولقد أراد ان يقنعني  
بأن خلاصي - سواء أكان في الأديان الأخرى بعض الحقيقة ام لا - مستحيل  
مالم اعتنق النصرانية التي تشمل وحدها الحقيقة ، وان خطيئاتي لن تُنسل إلا  
بشفاعة يسوع ، وان جميع الاعمال الصالحة عبث لا طائل تحتها .

وكما عرفني الى كثير من الكتب ، عرفني كذلك الى أصدقاء كثيرين كان  
يعتبرهم مسيحيين متحمسين للدين . وقد عرفني مرة الى امرأة تنسب الى وإخوة  
بلايموث ، وهي طائفة مسيحية .

ان كثيراً من هذه الاتصالات التي تمت بواسطة مسر كوتس كانت صالحة .  
ولقد راعني معظم هؤلاء الناس بوصفهم قوماً يخافون الله . ولكن واحداً من  
وإخوة بلايموث ، جابني مرة - خلال اتصالني ببنك الاسرة بحجة لم اكن  
مستعداً لها . لقد قال :

- «انت لا تستطيع ان تفهم جمال ديننا . ويبدو ما تقوله انك لا بد تتحضر  
خطيئتك كل لحظة من لحظات حياتك ، فأنت تحاول معالجتها والتكفير عنها .  
كيف تستطيع دورة العمل الموصول هذه ان تحمل اليك الخلاص ؟ إنك لن تنعم  
بالسلام . انت تسلم بأننا كلنا خاطئون . والآن ، انظر الى الكمال الذي يجلب  
معتقدنا . ان محاولتنا بسبيل التحسين والتكفير باطلة لا فائدة منها . ومع ذلك ،  
فيجب ان نتمم بالخلاص . كيف نستطيع ان نحتمل عبء الخطيئة ؟ ليس في استطاعتنا  
إلا ان نلقيه على عاتق يسوع . إنه ابن الله الأوحيد المتزه عن الخطيئة . ولقد قضت  
كلامة الله بأن اولئك الذين يؤمنون به سوف ينعمون بحياة سرمدية . ههنا تكمن  
رحمة الله اللانهائية . واذا كنا نؤمن بافتداء يسوع فان خطيئتنا لا تقيدنا . إن  
علينا ان نأثم . ومن المستحيل ان نحيا في هذا العالم من غير خطيئة . واذن فقد تألم

يسوع وكفر عن جميع خطيئات الجنس البشري : والشخص الذي يرتضي افتداء يسوع العظيم هو وحده القادر على التحقق بسلام سرمدى . فكّر اى حياة قلقة هي حياتك ، وأي امل بالسلام ننعّم به نحن .

وعجزت الحجة ، كل العجز ، عن اقناعي . فأجبت في انضاع :

– « اذا كانت هذه هي النصرانية كما يعترف بها جميع المسيحيين فليس في استطاعتي أن أقبلها . أنا لا أتمس الخلاص من نتائج خطيئتي . أنا أتمس الخلاص من الخطيئة نفسها ، او بالأحرى من فكرة الخطيئة نفسها . والى ان ابلغ هذه الغاية سوف أرضى بحياة القلب . »

فكان جواب الأخ البلايموثي على ذلك :

– « أؤكد لك ان محاولتك عبث لا طائل تحته . فكّر ثانية بالذي قلته لك . »

وقد اثبت هذا الاخ انه متكافئ مع كلدته . كان يقترف الخطيئات بعلم منه ووعي ، وكان يُريني أنه غير مترعج من التفكير فيها .

ولكني كنت أعرف قبل اجتماعي بهؤلاء الاصدقاء ان جميع النصارى ما كانوا يؤمنون بمثل نظرية التكفير هذه . ومستر كوتس نفسه كان يسيطر عليه في اعماله كلها ، خوف الله . كان قلبه طاهراً ، وكان يؤمن بإمكانية تطهير الذات وكانت الآستان تشاركانه هذا الاعتقاد ايضاً . وكانت بعض الكتب التي وقعت في يدي حافلة بالنقوى . وهكذا ، فعلى الرغم من أن مستر كوتس انزعج انزعاجاً كبيراً من خبرتي الأخيرة هذه ، فقد استطعت ان اطمنته الى ان هذا الاعتقاد المحرف الذي تكشّف عنه أحد الاخوة البلايموثيين لن يورثني ابداً عداءاً للنصرانية .

كانت مصاعبي تكمن في مكان آخر . كانت في ما يتصل بالكتاب المقدس وتفسيره الذي يرتضيه المسيحيون :

## ١٢ . محاولة الاتصال بالهنود

وقبل ان أوصل الكلام على انصالاتي بالمسيحيين بتعين عليّ أن ادون خبرات اخرى ترقى الى الفترة نفسها .

كان شيث طيب حاجي خان محمد يتبع في برينوريا بمثل المركز المرموق الذي تمتع به دادا عبدالله في ناتال . ولم يكن في الامكان القيام بأيما حركة عامة من غير معاونته . ولقد سعت الى الاجتماع به منذ الاسبوع الأول لوصولي . واعلنت له اني اعتزم الاتصال بكل هندي في برينوريا . لقد عبرت له عن رغبتي في دراسة أحوال الهنود هناك . والتفت منه العون في عملي ، فنحني تأييده في سرور .

كانت أول خطوة قمت بها أن دعوت جميع الهنود المقيمين في برينوريا الى الاجتماع ، لأقدم اليهم صورة عن حالهم في الترانفال . وقد عقد الاجتماع في بيت الشيث حاجي محمد حاجي جوساب ، الذي كنت أحمل اليه رسالة تعريف وتوصية ، ولقد شهدته في المحل الأول بنجار مسلمون ، على الرغم من أن نقرأ معلوداً من الهندوس قد حضره ايضاً . فالواقع ان الجالية الهندوسية في برينوريا ، كانت صغيرة جداً .

ويمكن اعتبار الخطاب الذي ألقيته في هذا الاجتماع أول خطبة عامة ألقيتها في حياتي . لقد قصدت اني مكان الاجتماع حسن الاستعداد لمعالجة موضوعي الذي كان يدور حول التزام الصدق في العمل التجاري . فقد سمعت التجار دائماً يقولون ان الصدق غير ممكن في التجارة . ولم اكن اعتقد بهذا ، آنذاك ، كما اني لا اعتقد به الآن . وحتى اليوم . يعتد بعض أصدقائي من التجار ان الصدق يتنافى مع التجارة . فهم يقولون ان التجارة مسألة عملية جداً ، وان الصدق مسألة من مسائل الدين . وهم يجادلون ذاهبين الى ان المسائل العملية شيء ، والدين شيء آخر . انهم يزعمون ان الصدق الخالص لا عمل له في التجارة ، وليس في استطاعة المرء ان ينطق به إلا بقدر ما يراه مناسباً . ولقد ناقشت هذا الموقف مناقشة قوية في



خطابي ، ونهت التجار الى واجبه المزدوج ، قائلاً لهم ان وجودهم في بلد اجني يجعل واجب الاعتصام بالصدق أعظم وخطر ، لأن مسلك عدد قليل من الهنود كان هو المقياس الذي يتخذه أهل ذلك البلد لتكوين فكرة عن مسالك الملايين من الهنود المقيمين في الوطن .

لقد وجدت عادات ابناء امتنا غير صحيحة اذا ما قيست بعادات الانكايير المحيطين بهم ، فلفت نظرهم الى ذلك . كذلك اكدت على ضرورة تناسي ضروب التمييز على اختلافها ، من مثل تقسيم الهنود الى هندوس ، ومسلمين ، وبارسين ، ونصاري ، وكوجاراتيين ، ومدراسيين ، وبنجابيين ، وسنديين ، وكاشيين ، وسورانيين ، وهلم جرا .

واقترحت في الختام تأليف جمعية تقدم الى السلطات احتجاجاً على المعاملة السيئة التي تلقاها الجالية الهندية ، وأبدت استعدادي لأن أضع في تصرف هذه الجمعية أقصى ما أستطيع وضعه من وقت وجهد .

ورأيت ان كلامي احدث انطباعاً عميقاً في نفوس النظارة .

وبعد خطابي فُتح باب المناقشة . فعرض بعضهم تزويدي بالوقائع . فنشجعت . لقد رأيت ان عدداً قليلاً جداً من الذين استمعوا لخطبي كانوا يعرفون الانكليزية . واذ كنت أشعر ان معرفة الانكليزية خليقٌ بها ان تكون ذات غناء في تلك الديار فقد نصحت اولئك الذين يتسع وقتهم لتعلم الانكليزية بأن يتعلموها . وقلت لهم ان من الممكن ان يتعلم المرء لغة ما ، حتى في سن متقدمة ، وسميت لهم بعض الذين فعلوا مثل ذلك . والى هذا ، فقد اعلنت استعدادي لتعليم من يرغب في تعلم هذه اللغة ، على نحو جماعي ، أي في صف ، اذا انشئ شيء كهذا ، أو على نحو شخصي للأفراد .

ولم ينشأ الصف ، ولكن ثلاثة شبان أعلنوا عن استعدادهم لتعلم الانكليزية في أوقات فراغهم ، وشريطة أن أقصد انا الى بيوتهم لتدريسهم . وكان اثنان من هؤلاء مسلمين - احدهما حلاق والآخر كاتب في محل تجاري - وكان الثالث هندوسياً ، وهو صاحب دكان متواضع . ووافقت على تدريسهم جميعاً . ولم

يكن علي أبما ريب في مقدرتي على التدريس . فقد يتعب تلاميذي ، اما انا فما كان للتعب ان يعرف سيلاً الى نفسي . وكان يتفق لي في بعض الأحيان ان اقصد الى بيوتهم فأجدهم منهمكين في أعمالهم . ولكني لم اضق ذرعاً . ولم يرغب اي من الثلاثة في التعمق في دراسة الانكليزية ، ولكن في استطاعتي القول ان اثنين منهم حقاً تقدموا صالحاً في نحو ثمانية أشهر . لقد تعلم اثنان كيف يحسبان دقات الحسابات وكيف يصوغان رسائل تجارية عادية . وكان مضمح الحلاق ان يتعلم من الانكليزية قدرأ يكفيهم لتفاهم مع زبائنه . وكتيجة هذه الدراسة نلح اثنان من التلامذة بأداة مكتسها من ان يتما بدخل لا بأس به .

كنت سعيداً بنتيجة ذلك الاجتماع . ولقد تم الاتفاق على عقد مثل هذا الاجتماع ، بقدر ما اذكر ، مرة كل اسبوع ، او ربما مرة كل شهر . وكانت هذه الاجتماعات تعقد على نحو نظامي الى حد كثير أو قليل ، فكنا نتبادل خلالها الآراء بآداب حرراً . وكان من نتيجة ذلك انه لم يبق في بريتوريا هندي لم أعرفه ولم ألم بأحواله . وهذا ما حدا بي الى التعرف الى المندوب البريطاني في بريتوريا ، مستر جاكوبوس دو ويت . وكان مستر جاكوبوس هذا يعطف على الهنود ، ولكن نفوذه كان ضعيفاً جداً . وايا ما كان ، فقد وافق على مساعدتي جهد طاقته ، ودعاني الى الاجتماع به كلما شئت ذلك .

عندئذ اتصلت بالمؤولين في السكة الحديدية ، واعلمتهم ان المعاملة السيئة التي يُخضع لها الهنود لا يمكن ان تُبرّر حتى على أساس من انظمة السكة نفسها . فجاءني جوابهم يقول ان تذاكر الدرجة الاولى والثانية سوف تباع للهنود الذين يرتدون ملابس لائقة . وكان هذا الجواب أضعف من ان يشفي غليلي ، اذ كان يجعل مدير المحطة حَكَمًا في هذه المسألة ، فهو وحده يقرر اي الهنود يرتدي « ملابس لائقة » وايهم لا يرتدي « ملابس لائقة » .

وأطلعني المندوب البريطاني على بعض الاوراق المتصلة بالمسائل الهندية ، وكان طيب حيث قد اعطاني اوراقاً مماثلة . فعلمت منها بأي وحشية طرد الهنود من دولة أورانج الحرة .

وعلى الجملة ، فقد مكّني مقامي في برينوريا من القيام بدراسة عميقة لاحوال  
 المنود الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، في الترانسفال ودولة اورانج  
 الحرة ، وما كنت أحسب ان هذه الدراسة سوف تقدّم اليّ خدمة لا تقدر بثمن  
 في المستقبل . ذلك اني كنت قد عازمت على العودة الى الوطن في نهاية ائعام — بل  
 قبل ذلك اذا فُحِّل في الدعوى قبل انقضاء السنة .  
 لكن الله شاء لي غير ذلك .

١٣ . ما معني ان تكون « كولي » ...

وقد يكون من الاستطراد غير المرغوب فيه ان افصل القول ههنا في وصف  
 حالة المنود في الترانسفال ودولة اورانج الحرة . فأقترح ان يرجع الراغبون في  
 تكوين فكرة كاملة عن تلك الحال الى كتابي « تاريخ التلاعنف في جنوب  
 افريقية » . بيد ان من الضروري . على اية حال ، ان اقدم الى القاري . ههنا ،  
 مختطفاً موجزاً .

في دولة اورانج الحرة كان المنود محرومين من جميع حقوقهم بقانون خاص  
 سن عام ١٨٨٨ بل قبل ذلك . فاذا ما اختاروا البقاء هناك فأنهم ما كانوا يحوّلون  
 هذا الحق الا اذا عملوا « ندلاً » في الفنادق او اتخذوا مهناً حقيرة ماثلة . ولقد طرد  
 التجار من البلاد بعد ان دُفعت اليهم تعويضات اسمية . لقد قدموا احتجاجات  
 وعرائض . ولكن عبثاً وعلى غير طائل .

لقد سن في الترانسفال . عام ١٨٨٥ ، قانون صارم جداً ، ثم عدّل تعديلاً  
 طفيفاً عام ١٨٨٦ ، وقد نصّ في هذا القانون المعدل على ان كل هندي يجب ان  
 يدفع ضريبة رؤوس قدرها ثلاثة جنيهات كرسوم دخول الى الترانسفال ، كما نص  
 على انه ليس في استطاعة المنود ان يملكوا اراضي الا في مناطق مخصوصة أفردت  
 لهم . هذا نظرياً ، أما عملياً فكانوا محرومين حق التملك . ولم تكن لهم حقوق سياسية .  
 وقد ورد ذلك كله في القانون الخاص بالاسيويين ، الذين طبّقت عليهم ايضاً  
 القوانين الخاصة بالشعوب الملونة . ووفقاً لهذه القوانين الاخيرة ، ما كان يجوز  
 للمنود ان يسعروا على ممرات المشاة العامة ، أو يخرجوا من دورهم بعد الساعة

للتاسعة مساء ، من غير اذن : وكان إنفاذ هذا التشريع الاخير مرئياً في مايتصل بالهنود . وكان اولئك المعتبرون « عرباً » ، هُستون من ذلك ، كرمأ ومنة . وهكذا كان طبيعياً ان يكون الاستثناء رهناً بأرادة البوليس .

وكان عليّ ان اخبر نتيجة هذه القوانين : فكثيراً ما كنت أخرج ليلاً مع مسر كوتس فنتزّه مشياً على الاقدام ، وكنا نادراً ما نرجع الى البيت قبل الساعة العاشرة . ماذا يكون الموقف لو ان الشرطة اعتقلني ؟ كان القلق يستبد بمسر كوتس ، من هذه الناحية ، اكثر مما يستبد بي . فقد كان عليه ان يزود خدمه الزنوج بجوازات مرور . ولكن اني له ان يعطيني واحداً من هذه الجوازات ؟ ان السيد هو وحده الذي يعطي الاذن للخدام . ولو اني رغبت في جواز من تلك الجوازات ، وحتى لو كان مسر كوتس على استعداد لاعطائي واحداً منها ، اذن لما كان قادراً على ذلك ، لأن هذا يُعتبر غشاً وخداعاً .

وهكذا صحبتني مسر كوتس أو احد اصدقائه الى النائب العام ، الدكتور كراوس . فاذا بنا محاميان من بيت طلبة واحد . وكان احتياجي الى جواز يمكنني من التجول بعد الساعة التاسعة مساء شيئاً فظيحاً في نظره . فأعرب لي عن عطفه ومشاركته الوجدانية ، وبدلاً من ان يصلر أمره بمنحي جوازاً قدّم اليّ رسالة تخولني التجول في اية ساعة من ساعات الليل من غير ما تدخل من جانب الشرطة . وعلى اية حال ، فأنا لم أصطنع تلك الرسالة قط ، وهو امر لا يعدو ان يكون مجرد مصادفة .

ودعاني الدكتور كراوس الى بيته ، واستطيع ان أقول إننا اصبحنا صديقين . كنت ازوره بين حين وآخر ، وبواسطته تعرفت الى اخيه الأكثر شهرة ، الذي كان مدعياً عاماً في جوهانسبورغ . وخلال حرب البوير حوكم أمام المحكمة العسكرية بتهمة التآمر على قتل احد الضباط الانكليز ، وحُكم عليه بالسجن سبع سنوات . ليس هذا فحسب ، بل لقد شطب مجلس القضاء الأعلى اسمه من جدول المحامين . حتى اذا انتهت الاعمال الحربية أطلق سراحه ، وأعيد مكرماً الى حظيرة الحقوقين الترانسفالين ، ليارس المهنة من جديد :

والحق ان هذه الاتصالات افادني ، بعد ، في حياتي العامة ، وبسرت كثيراً من عملي .

وكانت نتائج القانون الخاص بالسير على ممرات المشاة خطيرة بالنسبة اليّ . كنت دائماً انطلق للنزهة : سيراً على القدمين : فأجتاز « شارع الرئيس » وأمضي الى سهل فسيح . وكان منزل الرئيس كروججر يقع في هذا الشارع ، وهو بناء متواضع جداً ، بسيط جداً ، لا حديقة له ، ولا شيء يميزه عن مساكن البيوت المجاورة : والحق ان بساطة الرئيس كروججر كانت مضرب المثل : كان وجود حرس من الشرطة أمام المنزل هو وحده الذي ينبئ بأنه بيت رجل رسمي . وكنت أمضي دائماً تقريباً عبر هذا الممر : فأجتاز حرس المنزل من غير ما عائق او اعتراض البتة .

ولكن الحرس كان يُبدّل بين الفينة والفينة . فاتفق ذات مرة ان واحداً من اولئك الرجال دفعني ورفضني الى الشارع من غير ان يوجهه اليّ ادني تحذير ، بل من غير ان يسألني الابتعاد عن ممر المشاة . وعصف بي الذعر . وقبل ان أسأله عن السبب الذي حمّله على هذا التصرف لاداني مسرّ كوتس ، السلي اتفق ان كان يجوز بتلك البقعة على متن جواده ، وقال :

— « غاندي : لقد رأيت كل شيء . ويسعدني ان أشهد في قاعة المحكمة لمصلحتك اذا اُقت الدعوى على الرجل . آسف جداً لأن تتعرض لمثل هذا الهجوم الجلف » .

فقلت له :

— « لا داعي للأسف . ما الذي يعرفه الرجل المسكين ؟ ان جميع الملونين سواء في نظره . وهو : لا ريب ، يعامل الزوج كما عاماني تماماً . وقد أخذت على نفسي عهداً بأن لا اقيم الدعوى على امرئ من اجل أذى شخصي انزله بي : وهكذا فأني لن اقاضي هذا الرجل » .

فقال مسرّ كوتس :

— « هذا غير مستغرب منك ، ولكن فكّر في المسألة من جديد : ينبغي ان

تلقي درساً على أمثال هذا الرجل :

ثم انه تحدث الى الشرطي ووبخه . ولم استطع أن افهم حديثها ، فقد دار باللغة الهولندية ، لأن الشرطي كان من البوير . ولقد اعتذرت لي ، وهو أمر لم يكن ثمة ما يدعو اليه . ذلك اني كنت قد غفرت له .

ولكني لم اعاود المرور من ذلك الشارع قط . فقد يحل محل هذا الرجل رجال آخرون لا يعرفون شيئاً عن الحادث ، وقد يسلكون مثل مسلكه . فلهاذا أغري قدماً جديدة برفسي ؟ ومن أجل ذلك اخترت طريقاً أخرى .

وزادني الحادثة اشفاقاً على أفراد الجالية الهندية . ودرست معهم امكانية اقامة دعوى تجريبية ، اذا وجدنا ذلك ضرورياً ، بعد ان باحثت المندوب البريطاني في مسألة هذه الانظمة .

وهكذا قت بدراسة حميمة للاوضاع القاسية التي عاشت الجالية الهندية في ظلها . ولم أقم بتلك الدراسة من طريق القراء والسماع فحسب . بل من طريق الخبرة الشخصية ايضاً . لقد رأيت ان جنوبي افريقية ليست بلداً يستطيع الهندي الذي يحترم نفسه ان يحيا فيه ، وُسْغِلَ عقله اكثر فاكثر بالتفكير في السبيل المؤدية الى تحسين هذا الوضع :

ولكن مهمتي الرئيسية كانت تقتضي . موقفاً : الاهتمام بدعوى دادا عبد الله .

## ١٤ . الاستعداد للدعوى

كان مقامي سنة في برينوريا تجربة من انفس تجارب حياتي . فهنا انيحت لي الفرص لتعلم الخدمة العامة ، واكتسبت مقياساً ما لتدرتي على ذلك . ههنا امت الروح الدينية قوة حية في ذات نفسي . وههنا ايضاً اكتسبت معرفة حقيقية بالعمل القضائي . ههنا تعلمت الاشياء التي يتعلمها المحامي الصغير في مكتب المحامي الكبير ، وههنا اكتسبت الثقة بأنني لن أخفق بعد اليوم كمحامٍ . كذلك تعلمت .

## هنا سر النجاح في المحاماة :

ان دعوى دادا عبدالله لم تكن دعوى صغيرة . كانت دعوى من أجل اربعين الف جنيه اسريلي . واذا قد نشأت عن أعمال تجارية فقد كانت حافلة بمشكلات الحسابات وُعقودها . وكان جزء من الدعوى مبنياً على السندات ( الكمبيالات ) وكان جزء آخر منها مبنياً على عقود خاصة بتقديم سندات أو كمبيالات . وكان الدفاع يقوم على ان السندات قد أخذت مخادعة وغشاً . وان الروية الكافية كانت تعوزها . وكانت هذه الدعوى المعقدة تنطوي على كثير من الوقائع والنقاط القانونية . وكان كل من الفريقين قد وكل أكبر المحامين ، وهكذا اتبحت لي فرصة ممتازة لدراسة عملهم . وكان قد عُهد اليّ بأعداد دعوى المدعي للمحامي وتسبيق الوقائع تأييداً لدعوته . فكان من المفيد لي ان أرى مبلغ ما سيرتضيه المحامي من ذلك الذي أعدته ومبلغ ما سيرفضه . وقد وجدت ان هذا الإعداد للنقضية سوف يعطيني تدبيراً عادلاً لتدريتي على الادراك ، وبراعتي في حشد البيانات وتنظيمها .

٤٠ وأوليت الدعوى أعظم الاهتمام . بل الواقع اني انغمست فيها انغماساً . لقد قرأت جميع الاوراق المتصلة بالعمليات التجارية . وكان موكلي رجلاً ذا براعة فائقة ، وكانت له ثقة مطلقة في شخصي . وهذا ما جعل مهمتي يسيرة . لقد درست امساك الدفاتر درساً صالحاً . وكانت مقادرتي في الترجمة قد تحسنت بعد ان اضطرت الى ترجمة المراسلات التي كانت في كثيرها باللغة الكوجارانية .

وعلى الرغم من اني عبت عناية قوية ، كما ذكرت من قبل ، بالانصالات الدينية وبالخدمة العامة وانفتت دائماً جزءاً من وقتي عليها ، فانها لم تكن آنذاك موضوع اهتمامي الرئيسي . كان إعداد الدعوى هو موضوع اهتمامي الرئيسي ، فقد كانت لادارة القانون ، ومراجعة الدعاوى المختلفة ، عند الحاجة ، تحتل الجزء الأعظم من وقتي ، دائماً ، وهكذا ملكت ناصبة الوقائع المتصلة بالدعوى كلها لمملكتها الفريقان المتنازعان ، أنفسهما ، باعتبار ان أوراق الفريقين جميعاً كانت معي .

وذكرت نصيحة المرحوم مستر بينكوت : - الحقائق ثلاثة ارباع القانون : وهذا ما ايدته في تاريخي ، تأخر عمامي جنوب افريقية الشهير ، المرحوم مستر ليونارد . وتفصيل ذلك اني لاحظت مرة ان القانون كان ضد وكي في احدى الدعاوى ، على الرغم من ان الحق كان في جانبه . وفي ياس ، التست العون من مستر ليونارد . وشعر هو ايضاً بان وقائع الدعوى قوية جداً ، فهتف : « غاندي ، لقد تعلمت شيئاً ، وهو هذا : اذا اهتمنا بوقائع دعوى من الدعاوى ، اهتم القانون بنفسه . فلتنعمت وقائع هذه الدعوى اكثر فأكثر . » قال هذه الكلمات وسألني ان ادرس الدعوى درساً أبلغ ، ثم اجتمع اليه من جديد . وعند اعادة النظر في الوقائع رأيتها على ضوء جديد بالكلية ، ووقعت مصادفة على دعوى قديمة من دعاوى جنوب افريقية ، تؤيد وجهة نظرنا . وابتهجت بذلك ، وقصدت الى مستر ليونارد وقلت له كل شيء . فقال :

- « حسن . سوف نربح الدعوى . وليس علينا الا ان نذكر أي القضاة يستوعبها . »

انا لم ادرك ، اثناء استعدادي لدعوى دادا عبدالله ، اهمية الوقائع المطلقة هذه ، ادراكاً كاملاً . ان الوقائع تعني الحقيقة ، ومتى لزمنا الحقيقة يقبل القانون لنجدتنا ، على نحو طبيعي . ولقد رأيت ان وقائع دعوى دادا عبدالله تجعلها قوية جداً ، حقاً ، وان القانون لا بد ان يكون في جانبه . ولكني رأيت كذلك ان التقاضي ، اذا ما استمر ، خليق به ان يحمل الخراب الى كل من المدعي والمدعى عليه ، وكانا نسيين ، ومن ابنا مدينة واحدة . ان احداً ما كان يدري حتماً تستمر الدعوى ، واذا ما اجيز لها ان تظل دائرة الرحي داخل جدران المحكمة فانها قد تتناول الى ما لا نهاية له ، من غير ان يكون في ذلك مصلحة لاي من الفريقين . من اجل ذلك رغب كل من الفريقين في انهاء الدعوى في الحال ، اذا كان ذلك ممكناً .

وانصلت بطيب شيت ونصحته بالقبول بالتحكيم : لقد أوصيته بمراجعة مستشاريه القانونيين . وذهبت الى انا اذا استطعنا تعيين حكم يمنع بثقة الفريقين



جميعاً فعندئذ تسوى القضية وشيكاً . كانت اجور المحامين تتصاعد في سرعة كافية لالتهام موارد الفريقين ، برغم انهما كانا يُعدّان من كبار التجار . ليس هذا فحسب ، بل لقد شغلتهما الدعوى بحيث لم تُبق لهما وقتاً للتفكير في اي عمل آخر . وفي غضون ذلك كان الحقد المتبادل يتعاظم في اطراف . وداخلي الاشتمزاز من المهنة . فقد كان لا بد لمحامي الطرفين من ان يحشدوا القاط القانونية تأييداً لموكليهم . كذلك رأيت للمرة الاولى ان الفريق الرابع لا يمكن ان يغلي أبداً جميع الصفقات التي يتحملها ،

لقد شمرت ان واجبي بتمضي عليّ بأن اصلح ما بين الفريقين . فبذلت غاية جهدي للوصول الى تسوية . واخيراً ، وافق طيّب شيث على اقتراحي . وُعين حكم . ونوقشت القضية امام هذا الحكم ، فكسبها دادا عبدالله .

ولكن ذلك لم يكفني . فاذا كان موكلي راغباً في تنفيذ قرار التحكيم حالاً فسوف يتعذر على طيب شيث ان يدفع كامل المبالغ الذي قضى به ذلك القرار ، وكان ثمة بين مسلمي بورباندر المقيمين في جنوب افريقية قانون غير مكتوب يقول بأن الموت يجب ان يُفصل على الافلامس . كان مستحجلاً على طيب شيث ان يدفع ٣٧٠٠٠ جنيه عدا الصفقات . لقد اعتزم أن لا يدفع فلأً واحداً اقل من المبالغ المطاوب ، ولم يكن يريد أن يعلن إفلاسه . كيف السبيل الى ذلك ؟ كان ثمة سبيل واحدة : ان يقسّط دادا عبدالله هذا الدين . وارتضى موكلي ذلك فوافق على ان يدفع له طيب شيث دينه أقساطاً يستغرق وفاقها مدة طويلة جداً ، وكان انتزاع الموافقة على تقسيط الدين اشدّ عسراً من اقتناع الفريقين باللجوء الى التحكيم . ولكن كلا منهما كان سعيداً بالنتائج ، ولقد حظيا معاً بتقدير الجالية العام . وكان ابتهاجي غامراً لا حد له . فقد تعلمت ممارسة القانون الحققة ، وتعلمت اكتشاف الجانِب الافضل من الطبيعة البشرية . لقد ادركت ان مهمة المحامي الحقيقية هي ان يجمع ما بين الفريقين المتناحرين . لقد نقّس هذا الدرس في ذات نفسي على نحو لا يُنسى حتى لقد شغل قسم كبير من وقتي ، خلال العشرين السنة التي مارست فيها المحاماة ، بمحاولة القيام بتسويات خاصة لمئات

من القضايا ، ولم اخسر بذلك شيئاً - حتى المال ، وليس من ريب في اني لم  
اخسر روحي على اية حال :

## ١٥. اختبار ديني

لقد آن لي ان اعاود الكلام على خبراتي مع الاصدقاء انصارى .  
كان مسر بايكر قد أخذ يقلق على مستقبلي . لقد صحبني الى مجمع ولينغتون ،  
وكان النصارى البروتستانت ينظمون مثل هذه الاجتماعات كل بضع سنوات  
للتنوير الديني ، او بكلمة اخرى ، للتطهير الذاتي : وقد استطاع المرء ان يدعو  
ذلك تجديدأ أو إحياء دينياً . وكان مجمع ولينغتون من هذا الضرب . وكان الرئيس  
هو قيس المدينة الشهير ، اندرو موراي . والواقع ان مسر بايكر رجا ان يكون  
في جو التعظيم الديني الذي يسود المجمع ، وفي حماسة الناس الذين يشهدونه ، ما  
يدعوني من غير ريب الى اعتناق النصرانية :

ولكن آخر آماله كان منوطاً بفعالية الصلاة . كان ذا ايمان راسخ بالصلاة ،  
وكان يعتقد اعتقاداً جازماً ان الله لا بد ان يستجيب للصلاة المرفوعة اليه في  
اندفاع . كان يستشهد بأمثال جورج مولر ، البريستولي ، الذي كان يتكل على  
الصلاة انكالا كاملاً حتى في حاجاته الدنيوية . وأصغيت الى حديثه عن فعالية  
الصلاة في انتباه نزيه ، وأكدت له ان ليس ثمة ما يمكن ان يحول بيني وبين  
اعتناق النصرانية اذا ما انشرح صدري لها . ولم اتردد في اعطائه هذا التوكيد  
لاني كنت قد علمت نفسي منذ زمن طويل أن اطيع نداء البصوت الباطني ،  
كنت ابتهج في الازعان له . وكان العمل ضده عسيراً عليّ ، موجعاً لي :

وهكذا ذهبت الى ولينغتون . وقد وجد مسر بايكر عتاً في صحبة رجل  
ملون ، مثلي . كان عليه ان يتحمل مشقات كثيرة بسبب مني ، ليس غير . وقد  
تميّت علينا ان نقطع الرحلة في الطريق ، اذ اتفق ان كان احد الاسبام يوم  
احد ، وما كان مسر بايكر وصحبه ليسافروا يوم العطلة الدينية ( الاحد ) .

وعلى الرغم من ان مدير فندق المحطة وافق على قبولي بعد جسدال كثير ، فقد رفض ان يسمح لي بالدخول الى حجرة الطعام رفضاً قاطعاً . ولم يكن مستر بايكر بالرجل الذي يستسلم في سهولة . لقد دافع عن حقوق نزلاء الفنادق . ولكنني استطعت ان ارى حرج موقفه . وفي لينغتون أيضاً بقيت مع مستر بايكر . وعلى الرغم من الجهود البالغة التي بذلتها لاختفاء المناعب التي احاطت به ، فقد كان في ميوري ان اراها جميعاً .

كان ذلك المجمع مؤتمراً يعقده المسيحيون الانقياء . وابتهجت بأيمانهم : واجتمعت الى القس موراي . لقد رأيت ان كثيراً منهم كانوا يصلون من اجلي : وأحببت بعض ترانيمهم : كانت عذبة جداً .

ودام المؤتمر ثلاثة ايام . ولقد كان في امكاني ان افهم ورع أولئك الذين شهدوه وان أقدره حتى قدره . ولكنني لم اجد ابداً سبب لتغيير ايماني - لتغيير ديني : فقد كان من المتعذر عليّ ان اؤمن بأنني لا استطيع دخول الجنة او الفوز بالخلاص الا اذا اصبحت مسيحياً . وحين صارحت بذلك بعض اصدقائي من المسيحيين الطيبين ، اصابوا بصدمة : ولكن لم يكن ثمة مناص من هذه المصارحة .

كانت مصاعبي اعتم من ذلك . فقد كنت عاجزاً عن الايمان بأن يسوع كان ابن الله المجسد الوحيد ، وعن الاعتقاد بأن من آمن به هو وحده الذي سينعم بالحياة السرمدية . فاذا كان من الجائز ان يكون لله ابناء ، فنحن جميعاً ابناءؤه . واذا كان يسوع مثل الله ، أو الله نفسه ، فعندئذ يكون جميع الناس مثل الله ، ويمكن ان يكونوا الله نفسه . ان عقلي لم يكن مستعداً للايمان ، حرفياً ، بأن يسوع كثر بموته وبدمه عن خطايا العالم . قد يكون في هذا بعض الحقيقة ، من الناحية المجازية . وفوق هذا تذهب النصرانية الى ان البشر وحدهم - من دون سائر المخلوقات الحية - ارواحاً فاذا ما ماتت تلك المخلوقات كان الموت بالنسبة اليها فناءً كاملاً . على حين كنت انا اقول بمعتقد مصاد . كان في استطاعتي ان ارتضي المسيح شهيداً ، ان ارتضيه تجسيدا للتضحية ، ان ارتضيه معلماً

الآهيا ، ولكن لم يكن في استطاعتي ان أقبل به بوصفه اكمل انسان قدّر له ان يرى النور على سطح هذه الارض : كان موته على الصليب امثلة عظيمة للعالم ، لولا ان فيه شيئاً كالفضيلة الخفية او الاعجوبية ما كان قابلي بقادر على قبوله : ان حيوات المسيحيين النقية لم تقدم اليّ شيئاً عجزت حيوات الرجال المتسبين الى اديان اخرى ، عن تقديمه . فقد رأيت في حيوات اخرى صنوّ ذلك الاصلاح الذي سمعت النصارى يتحدثون عنه . فن ناحية فلسفية ، لم يكن ثمة شيء خارجي للعادة في المبادئ المسيحية . ومن ناحية التضحية ، بسدا لي ان الهندوس فاقوا النصارى بمراحل بعيدة : كان من المتعذر عليّ ان اعتبر النصرانية ديناً كاملاً ، أو أعظم الأديان جميعاً .

وأفضيت بهذا المخض العقلي الى اصدقائي المسيحيين كلما سحت فرصة لذلك ، ولكن اجوبتهم لم تستطع ان تقنعني .

ولكن اذا لم يكن في ميسوري ان اقبل بالنصرانية ديناً كاملاً او ديناً اعظم فاني ما كنت مقتنعاً آنذاك بأن الهندوسية كانت كذلك . كانت مواطن الضعف الهندوسية واضحة في نظري اعنف الوضوح : واذا كانت اللاماسية ، Untouchability جزءاً من الهندوسية فليس من ريب في انها جزء عفن او عضو فضوليّ . فلم يكن في طاقتي ان افهم « مبرر وجود » جمهرة ضخمة من الشيع والطبقات : ما معنى القول ان « الفيداء » كلمة الله الموحاة ؟ واذا كانت « الفيداء » وحياً من عند الله ، فلم لا يكون التوراة والقرآن وحياً ايضاً ؟

وكما كان اصدقائي النصارى يحاولون ادخالني في دينهم ، كذلك كان اصدقائي المسلمون يحاولون مثل ذلك . كان عبد الله شيث لا يفتأ يغرّبي بدراسة الاسلام ، ولا ريب في انه كان لديه ، دائماً ، ما يقوله عن جمال هذا الدين : وعبرت عن حيرتي في رسالة كتبتهما الى رايشندهاي . كذلك راسلت ثفات دينيين آخرين في الهند ، وتلقيت اجوبة منهم . ولقد هدأت رسالة

---

• ابي تحريم من النبوة في الهندوس .

رايشندينهاى من رُوعي بعض الشيء . فقد سألني ان اصطحب الروية ، وأن أدرس الهندوسية دراسة اعنى ، وقد جاء في احدى فقرات رساله ما معناه : « أنسا مقتنع ، بعد دراسة هادئة للسألة ، بأنه ما من دين آخر يتمتع بتفكير الهندوسية العميق ، أو رؤياها للروح ، أو محبتها . »

واشتريت ترجمة «سايل» للقرآن وبدأت أقرأها ، كذلك حصلت على كتب اخرى عن الاسلام . واتصلت ببعض الاصدقاء المسيحيين في انكلترا . فمررت في احدهم الى ادوارد مايتلاند ، فشرعت ارسله . فبعث اليّ بـ «الطريق الكامل» ، وهو كتاب كان قد ألفه بالاشتراك مع آنا كينغزفورد . وكان الكتاب انكاراً للمعتقد المسيحي الشائع . كذلك بعث اليّ بكتاب آخر عنوانه «التفسير الجديد للكتاب المقدس» . وأحييت «كلاً» من الكتابين . فقد بدا لي انهما يؤيدان الهندوسية . اما كتاب تولستوي ، «ملكه الرب هي في باطنك» ، فقد استحوذ عليّ استحوذاً .

لقد خلّفت في ذات نفسي انطباعاً باقية . فأمام التفكير المستقل ، والاخلاقية العميقة ، والصادقية . التي تكشف عنها هذا الكتاب بدت لي جميع كتب ماستركوتس وقد شحبت حتى التفاهة .

وهكذا وجهتني دراساتي وجهة لم تخطر ببال اصدقائي المسيحيين . وتناولت المراسلة بيني وبين ادوارد مايتلاند تطاولاً غير قليل ، أما المراسلة بيني وبين رايشندينهاى فاستمرت حتى وفاته . لقد قرأت بعض الكتب التي ارسلها اليّ ، وكان من بينها «بانثيكاران» ، و «مانيراتنامالا» و «ماموكشوبراكاران» ليوغاناسيتا ، و «وشادار شانا ساموشايا» لخاربيهداسوري ، وغيرها .

وعلى الرغم من اني اتخذت مسلكاً لم يُرده اصدقائي المسيحيون لي ، فقد ظلت مديناً لهم أبداً الدهر لترعة الاستطلاع الديني التي أيقظوها في نفسي . ولمسوف اغدو دائماً ذكرى اتصالي بهم . ولقد انطوت السنوات التي تلت على

---

• الصادقية لفظه اصطلاحاً لتقابل لفظه Truthfulness في الأصل .

حدد اعظم ، لا عدد أقل ، من مثل هذه الانصالات العنبة المقلصة .

## ١٦ . وتقدرتون وتضحك الأقدار ! ..

لم يبق من سبب ، بعد الوصول الى تسوية في أمر الدعوى ، لبقائي في بريثوريا . وهكذا انقلبت الى دوربان ، وبدأت استعداداتي للعودة الى الوطن ، ولكن عبدالله شيث لم يكن الرجل الذي يدعني ابصر من غير حفلة وداع . لقد اقام حفلة على شرفي في سايدنهام ،

ورثي ان انفق اليوم كله هناك . وفيما كنت اتصفح بعض الجرائد التي وجدتها هناك وقع نظري على فقرة في زاوية احدها تحت عنوان : « حق المنود في الانتخاب » . كانت تلك الفقرة تتصل بمشروع القانون الذي كان معروضاً آنذاك على المجلس التشريعي ، والذي كان يهدف الى حرمان المنود من حق انتخاب اعضاء مجلس نائال التشريعي . لقد كنت خالي الذهن من مشروع القانون ذاك ، وكذلك كان سائر الضيوف المجتمعين هناك .

وسألت عبدالله شيث عنه . فقال : « ما الذي نستطيع ان نفهمه في هذه الامور ؟ اننا لا نستطيع ان نفهم غير الاشياء التي تؤثر في تجارتنا . وكما تعلم ، فقد قضى على تجارتنا كلها في دولة اورانج الحرة . واحتججنا على ذلك ، ولكن عبثاً ، ونحن ، بعد كل شيء ، عُدجٌ كلنا بحكم اننا امثيون . ونحن نشترى للصحف ، عادة ، لمجرد التأكد من اسعار السوق اليومية ، الخ . ما الذي يمكن ان نعرفه عن التشريع ؟ ان المحامين الاوروبيين هم اعيننا وآذنا هنا . »

فقلت :

« ولكن ثمة كثيراً من الشبان المنود الذين ولدوا واثقفوا هنا . ألا يساعدونكم ؟ »

فهتف عبدالله شيث في يأس :

« هم ؟ انهم لا يبالون بأمرنا . وأقول لك الحقيقة : إننا قا

الاعتراف بهم ايضاً . ذلك انهم ؛ بوصفهم نصارى . خاضعون لسلطان رجال الدين ، الخاضعين بدورهم للحكومة .

كان في هذا ما فتح عيني . لقد شعرت أن هذه الفتنة يجب ان تكون لنسا : هل كان هذا معنى المسيحية ؟ هل كنتموا عن ان يكونوا هنوداً لأنهم اصبحوا نصارى ؟

ولكنني كنت على وشك العودة الى الوطن ، فترددت في التعبير عما كان يجول في ذهني في هذا الموضوع . فاجترأت في القول لعبدالله شيت : « ان المشروع اذا ما أُقر وأُمدى قانوناً ، سوف يجعل وضعنا حرباً الى ابعد الحدود . إنه أول مبار في نعشنا ، إنه طعنة في صميم احترامنا الذاتي : »

فقال الشيت عبد الله :

« جازر . سوف اقص عليك حكاية مسألة حق الانتخاب هذه . فنحن ما كنا نعرف عنها شيئاً . ولكن مستر إسكوب ، وهو واحد من افضل محاميننا ، وانت تعرفه ، أدخل الفكرة الى رؤوسنا . وقد حدث هذا على النحو التالي : إنه مكافح كبير ، واذا لم يكن على ود مع « مهندس رصيف الميناء » فقد خشي ان يحرمه المهندس اصواته ويهزمه في الانتخابات . وهكذا عرفنا بوضعنا ، وبناء على اشارة منه سجلنا انفسنا كناخبين ، وصوتنا له : وفي ميسورك الآن ان ترى كيف ان حق الانتخاب ليس له ، بالنسبة لنا ، تلك الأهمية التي تعلقها انت عليه . ولكنني أفهم ما تقول . حسناً ، اذن ، ما هي نصيحتك ؟ »

كان الضيوف الآخرون يُصغون الى هذا الحديث في انتباه . فقال احدهم :

« هل أقول لك ما الذي ينبغي ان يُعمل ؟ ألغِ تذكرة سفرك هذه الباهرة : إبقَ هنا شهراً آخر : وسوف نقاتل وفقاً لتوجيهك . »

فهدر الجنبعُ كلوم :

« حقناً . حقناً . يجب عليك ، يا عبدالله شيت : ان تستغي خاندبياي : »

وكان الشيت رجلاً ذكياً ، فقال :

« انا لا استطيع ان استبقيه الآن . إن لكم الحق في ذلك بقدر ما لي : »

ولكنكم على صواب فلنقمه كلنا بالبقاء . ولكن ينبغي ان تذكروا انه عام :  
فما القول في الاجر الواجب دفعه اليه ؟

والذي هذه الاشارة الى الاجر ، فاندفعت الى القول :

- ه عبد الله شيث : ان مسألة الاجر هذه غير واردة . فليس يمكن ان يكون  
ثمة أجر على الخدمة العامة . في استطاعتي ان ابقى ، اذا لم يكن بد من ذلك ،  
كخادم . وكما تعلم ، فانا لم أحظ بمعرفة هؤلاء الاصدقاء جميعاً . ولكن اذا  
كنت تعتقد انهم سوف يتعاونون على هذا الصنيع فعدتذ اكون مستعداً للبقاء  
شهوراً أخرى . ولكن ثمة شيئاً واحداً . فعلى الرغم من انكم في غير ما حاجة الى ان  
تدفعوا الى اي أجر ، فان عملاً من مثل هذا نعتزم القيام به لا يمكن أن يباشر به  
من غير أموال مُرسدة له . ذلك بانه قد يتعين علينا ان نرسل البرقيات .  
ونطبع بعض النشرات ، ونقوم ببعض الجولات في البلاد ، وقد نحتاج الى  
استشارة المحامين المحليين . ولما كنت جاهلاً لقوانينكم فقد أحتاج الى بعض  
كتب القانون أراجعها . وهذا كله لا يمكن ان يتم من غير مال . وواضح ان رجلاً  
واحداً لا يكفي للنهوض بهذا العمل . ان كثيرين ينبغي ان يهرعوا لمساعدته .  
وسمعت مجموعة اصوات تقول :

- ه الله كبير ورحيم . المال سوف يأتي . والرجال موجودون ، مهما يكن  
العدد الذي يحتاج اليه . تكرّم بالموافقة على البناء ، وكل شيء سرف يكون على  
ما يرام . ه

وهكذا انتقلت حفلة الوداع الى لجنة عامة . واقترحت إنهاء العشاء في سرعة  
والعودة الى البيت . وفكرت في ما بيني وبين نفسي بمخطاط للحملة ، وتحققت  
اسماء اولئك الذين كانوا على جدول الناخبين . وعقدت النية على البقاء شهراً :

وهكذا أرسى الله أساس حياتي في جنوب افريقية وغرس بذرة الجهاد من  
اجل احترام الذات القومي .



## ١٧ . استقرار في ناتال

كان الشيث حاجي محمد حاجي دادا يُعتبر زعيم الجالية الهندية في ناتال ،  
عام ١٨٩٣ : والواقع ان الشيث عبدالله حاجي آدم كان هو مقدّم الجالية ، من  
الناحية المالية ، ولكنه كان هو وغيره من ابناء الجالية يقدمون الشيث حاجي  
محمد في القضايا العامة . وهكذا عُقدَ اجتماع برئاسته في بيت عبد الله شيث ،  
حيث قرروا معارضة مشروع قانون الحقوق السياسية :

ودُوّنَتُ اسماء المتطوعين . ودُعي الهنود المولدون في ناتال ، ومعظمهم  
من الشباب الهنود المسيحيين ، الى الاجتماع . ولقد شهد الاجتماع مستر بول ،  
مترجم محكمة دوربان ، ومستر سُبْحان غودفري ، مدير احسدى المدارس  
التبشيرية ، وكانا هما اللذين أحضرا عدداً غير قليل من الشبان المسيحيين الى  
الاجتماع : ودون هؤلاء كلهم اسماءهم كمتطوعين .

وتطوّع كثير من التجار المحليين طبعاً ، وكان من أبرزهم الشيث داود  
محمد ، والشيخ محمد قاسم قر الدين ، والشيخ آدجي مياخان ، والشيخ  
أ. كولاندا فيلو يلاي ، والشيخ س. لاشهرام ، والشيخ رانغاسامي بادياشي ،  
وآماد جيفا . وكان بارمي رستمجي هناك طبعاً . ومن بين موظفي المتاجر  
والشركات كان السادة مانيكجي ، وجوشي ، ونارسينهرام وغيرهم من المشتغلين  
في شركة دادا عبدالله وشركات اخرى . ولقد دهشوا كلهم ، دهشاً ارتياحاً ،  
اذ وجدوا انفسهم يشاركون في الخدمة العامة .

كانت دعوتهم على هذا النحو الى تلك المشاركة خبرة جديدة في حياتهم :  
لفي وجه الكارثة التي ألمت بالجالية نُسيبت جميع الفروق بين الرقيق والوضع ،  
والكبير والصغير ، والسيد والخدام ، والهندوسي ، والمسلم ، والبارمي ، والنصراني ،  
والكوجاراني ، والمدراسي ، والسندي الخ . كانوا كلهم ابناء الوطن الأم  
وخدمته على حد سواء .

وكان مشروع القرار قد اجتاز مرحلة القراءة الثانية ، او على وشك ان

بمجازها : وفي الخطب التي القيت في تلك المناسبة ألح أعضاء المجلس التشريعي على ان المهود لم يعبروا عن ايما معارضة لمشروع القرار الصارم ، وأن ذلك وحده برهان على عدم اهليتهم للتمتع بالحقوق السياسية :

واوضحت الوضع للمجتمعين : فكان اول عمل قناه ان وجهنا بريقة الى رئيس الجمعية التشريعية نساله فيها وقف مناقشة المشروع . كذلك وجهنا بريقة مماثلة الى رئيس الوزراء ، السير جون روبنسون ، واخرى الى مستر ايسكومب بوصفه صديق دادا عبدالله . فاجاب رئيس الجمعية التشريعية بأن مناقشة مشروع القرار سوف ترجأ يومين اثنين ، فأبج ذلك قلوبنا .

كنا قد وضعنا نص العريضة التي اعترضا رفعها الى الجمعية التشريعية : وكانت ثلاث نسخ منه قد أعدت ، وكنا ما نزال في حاجة الى نسخة لتقديمها الى الصحافة . واقترح ان نُذيلَ العريضة باكبر عدد ممكن من التواقيع ، وكان علينا ان نقوم بذلك العمل كله في ليلة واحدة . لقد سهر المتطوعون العارفون باللغة الانكليزية ، وكثير غيرهم ، ساعات الليل بطولها . وعهدنا الى مستر آرثر ، وهو رجل عجوز معروف بجمال الخط ، في كتابة النسخة الرئيسية . أما النسخ الاخرى فقد أُمليت على آخرين كتبوها بخطهم . وهكذا أعدت خمس نسخ في آن معاً ، وانطلق التجار المتطوعون بعرباتهم ، او بعربات دفعوا اجورها من جيوبهم ، لجمع التواقيع . وقد تم هذا في برهة قصيرة جداً . وعندئذ ارسلنا البرقية . ونشرتها الصحف وعلقت عليها تعليقات مجبذة . ليس هذا فحسب ، بل لقد تركت المريضة اثرأ في الجمعية التشريعية . ولقد نوقشت في احدى جلساتها . فتقدم مؤيدو مشروع القانون دفاعاً - أعرج من غير ريب - جواباً على الحجج الواردة في العريضة . ومع ذلك فقد أقر المشروع .

لقد كنا نتوقع هذه النتيجة ، ولكن حركتنا كانت قد بعثت حياة جديدة في الجالية ، وأوقعت في نفوس افرادها ايماناً بأن الجالية كل واحد لا يتجزأ ، وان من واجبهم ان يناضلوا من اجل حقوقها السياسية كما يناضلون من اجل حقوقها التجارية .

وكان اللورد ريبسون وزير المستعمرات آنذاك . فتم الاتفاق على ان توجه اليه عريضة ضخمة . ولم تكن هذه مهمة بسيطة ، ولم يكن في الامكان انماها في يوم واحد . وتقدم المتطوعون ، وقام كل منهم بنصيبه من العمل . وبدلنا جهوداً كبيرة في إعداد هذه العريضة . لقد قرأت جميع المراجع الخاصة التي وصلت اليها يدي . وركزتُ حُجُجِي على المبدأ وعلى المناسبة : فذهبتُ الى أن لنا حقاً في الانتخاب في نانال ، كما كان لنا نوع من حق الانتخاب في المنذر . وألححت على ان من المناسب الاحتفاظ بهذا الحق ، على اعتبار ان عدد الخنود القادرين على اصطناعه قليل جداً .

وجمعنا عشرة آلاف توقيع في خلال اسبوعين . ولم يكن أمراً هيناً جمعُ هذا العدد من التواقيع من المقاطعة كلها ، خصوصاً اذا اعتبرنا ان الرجال كانوا غرباء الى ابعد الحدود عن هذه المهام . كان علينا ان نختار لهذا العمل متطوعين حاذقين ، اذ كنا قد قررنا ان لا نأخذ توقيعاً من أحد إلا بعد ان يكون الموقع قد فهم مضمون العريضة فهماً كاملاً . كانت القرى مبعثرة على مسافات بعيدة : وما كان للعمل ان يتم بأقصى السرعة إن لم يجعله عددٌ من المتطوعين شغلهم الشاغل ويفرغوا فيه عزيمتهم كلها . وهذا ما تمّ فعلاً . لقد نهضوا كلهم بالاعباء الملقاة على عواتقهم ، في حماسة : ولكني ، وأنا اكتب هذه السطور ، ترتسم صور الشيث داوود محمد ، ورستمجي ، وآنجي مياخان ، وآماد جيفا ، في خاطري ارتسائاً واضحاً . لقد جمعوا اكبر عدد من التواقيع . ولقد ظل الشيث داود محمد يطوف بعربته طوال النهار . وكان ذلك كله عملاً تطوعياً : فلم يطلب اي فرد من الجماعة حتى بالنفقات التي دفعها من جيبه : وأمسى محل دادا عبد الله فندقاً ومكتباً عموماً في آن معاً . لقد تناول نفر من الأصدقاء المثقفين الذين ساعدوني وكثير غيرهم ، الطعام هناك .

وأخيراً رفعت العريضة . كانت ألف نسخة قد طُبعت للنشر والتوزيع : فكان في ذلك ما عرف الرأي العام المنذر ، لأول مرة ، بالوضع في نانال : لقد بعثت بنسخ من العريضة الى جميع الصحف والصحفيين الذين عرفتهم :

وأبدت صحيفة ال «تاتس» اف إنديا ، ، في مقال رئيسي أدارته حول  
العريضة ، المطالب الحندية تأييداً قوياً . وارسيلت نسخ الى الجرائد الانكليزية  
المثلة لمختلف الاحزاب والى الصحفيين الانكليز الممثلين لمختلف مذاهب التفكير .  
وأبدت ال «تاتس» اللندنية مطالبنا ، وبدأ الأمل برؤودنا بأن مشروع القانون  
سوف يُنقَض .

كان متعلراً عليّ ، الآن ، ان اغادر ناتال . لقد أحاط بي الاصدقاء المنود  
من كل صوب وألحوا عليّ بالبقاء هناك الى ما شاء الله . وعبرت لهم عن  
مصاعبي . كنت وطئت العزم على أن لا اقيم على نفقة الجالية . فقد شعرت ان من  
الضروري ان اقيم في منزل مستقل . وارتأيت ان يكون ذلك البيت صالحاً ، وواقعاً  
في منطقة محترمة . كذلك تبدى لي اني لن أستطيع ان أضيف شيئاً الى «اعتباره  
الجالية ما لم أعش على النحو المألوف عند المحامين . ولقد تراءى لي ان من المستحيل  
عليّ إدارة ذلك المنزل بأقل من ثلاثمئة جنيه في العام . من أجل ذلك قررت اني  
لن أستطيع البقاء إلا اذا كفل لي أعضاء الجالية عملاً حقوقاً يغطي ذلك المبلغ في  
الحل الأدنى ، وأفضيت اليهم بقراري هذا :

فقالوا :

« ولكتنا نريدك ان تنقاضي هذا المبلغ لقاء عملك في حل الخدمة العامة ،  
وفي استطاعتنا ان نجمعه في يسر . وهذا طبعاً مستقل عن التعويضات التي ينبغي ان  
تنقاضها لقاء العمل المحققي الشخصي » :

فقلت :

« ولا ، أنا لا أستطيع أن انقاضي منكم أجراً على الخدمة العامة . فهذا العمل  
لن يقتضي ممارسة كثير من البراعة كمحام . ان عليّ ذلك سوف يكون ، في  
المحل الأول ، أن ادفعكم كلكم الى العمل : وكيف أستطيع ان أكنتم أجراً على  
ذلك ؟ والى هذا ، سوف اضطر الى ان افزع اليكم بين الخينة والخيانة التماساً لتأجل  
أنفق على العمل العام ، واذا ما ارتضيت أن انقاضكم تعويضاً فعندئذ أجد نفسي  
في وضع لا يساعطني على التماس مبالغ كبيرة منكم ، وهكذا تتعطل حركتنا ونشف

في منتصف الطريق : وفوق هذا ، فأنا أريد من الجالية ان تجمع اكثر من ثلاثة  
جنيه ، سنوياً ، للعمل العام :

— « ولكننا قد عرفناك ، الآن ، فترة من الزمن ، ونحن واثقون من انك لن  
تتقاضانا شيئاً لست في حاجة إليه . واذا رغبتا اليك في البقاء هنا أنلا يكون من  
واجبنا ان نضمن لك نفقاتك ؟ »

— « ان حبكم وحماسكم المحاضرة هما اللذان يجعلانكم تتحدثون على هذه  
الشاكلة . وكيف نستطيع ان نكفل استمرار هذا الحب وهذه الحاسة الى الأبد ؟  
وبوصفي صديقكم وخادكم يتعين عليّ ان أقول لكم اشياء قاسية ، بين الفينة  
والفينة . والله وحده يعلم ما اذا كنت سأحتفظ ، عندئذ ، بمودتكم . ولكن الشيء  
الذي لا خلاف فيه هو اني لا يجوز لي أن اقبل أنما راتب لقاء الخدمة العامة ،  
حسبي ان تنفقوا كلدكم على ان تعهدوا اليّ في أعمالكم القانونية . وحتى هذا قد  
يكون عسيراً عليكم . ذلك لأنني ، أولاً ، لست عامياً ايض . فكيف أستطيع ان  
اكفل استجابة المحاكم لي ؟ كما اني لا أستطيع ان اكفل نجاحي كمحام . وهكذا  
فانكم سوف تعرضون لبعض المغامرة حتى باعظائكم إياي مقدّم انعاب . ويتعين  
عليّ ان اعتبر مجرد دفعكم هذا المقدم اليّ مكافأة على عملي في حفل الخدمة العامة ،  
وكانت نتيجة هذه المناقشة ان نحوّا من عشرين "جراً" اعطوني مقدّم انعاب  
على عام واحد لقاء تولي أعمالهم القانونية . وعلاوة على هذا ، فقد اشترى لي دادا  
عبد الله الأثاث الضروري بدلاً من مكافأة مالية كان قد اعتزم تقديمها اليّ عند  
عودتي الى الوطن :

وهكذا استقر بي المقام في ناتال :

## ١٨ . القضاء الملون

ان رمز المحاكم القضائية ميزان تحمله على نحو متكافئ امرأة نزهة مكفوفة  
البصر ، ولكنها حكيمة . لقد جعلها التقدير مكفوفة البصر عدداً ، لكي لا تحكم

على شخص ما من مظهره الخارجي ، ولكن على أساس من قيمته الذاتية . ولكن  
« الجمعية القانونية في نانال » راحت تقنع المحكمة العليا بأن تعمل على نحو  
يناقض هذا المبدأ ، وأن تسخر من رمزه .

وطلبت ان يُجاز لي الترافع أمام المحكمة العليا . كنت أحمل شهادة تخوّلني  
هذا الحق من محكمة بومباي العالية . أما الشهادة الانكليزية فقد كان عليّ ان  
أودعها محكمة بومباي الدالية عندما سُجّلت هناك . وكان من الضروري ان  
يلحق بالطلب شهادتان بحسن السلوك . واذا خطر لي ان هاتين الشهادتين تكررنا  
اكثر وزناً اذا ما صدرتا عن بعض الاوروبيين ، فقد حصلت عليهما من تاجرين  
اوروبيين مشهورين كنت قد تعرّفت اليهما عن طريق الشيث عبدالله . وكان يتعين  
عليّ ان اقدم الطلب بواسطة أحد اعضاء مجلس القضاء . وقد جرت العادة ان  
يقدم النائب العام هذه الطلبات مجاناً . وكان مستر ايسكومب ، الذي كان كما  
رأينا مستشاراً قانونياً لشركة دادا عبدالله ، نائباً عاماً . فزرتُه ، ووافق على تقديم  
طاي في سرور .

وفاجأتني الجمعية القانونية بأن قدمت اليّ مذكرة تعارض طاي ذلك . وكان  
من اعتراضاتها أن الشهادة الانكليزية الأصلية لم تُرفق بالطلب . ولكن الاعتراض  
الرئيسي انه ، حين وُضعت الانظمة الخاصة بالسماح للمحاميين بالترافع امام تلك  
المحكمة ، لم يكن في الامكان التفكير بأن رجلاً ماوئناً قد يعالِب بمثل هذا الحق ،  
كانت نانال مدينةً بنموها الى النشاط التجاري الاوروبي ، ومن أجل ذلك كان  
من الضروري أن يكون العنصر الاوروبي طاعياً في المحاكم . واذا ما مُنح الباب  
في وجه الملونين فقد يفوق عددهم ، تدريجياً ، عدد الاوروبيين ، وعندئذ  
ينهار الحصن الذي يصون مصالحهم :

وكانت الجمعية القانونية قد عهدت الى محام بارز في تأييد موقفها المعارض =  
واذ كان هذا ايضاً ذا صلة بشركة دادا عبدالله فقد أرسل اليّ : من طريق  
الشيث عبدالله ، كلمة يدعوني فيها الى الاجتماع به . لقد تحدث اليّ في كثير من  
الصراحة ، وتساءل عن أصلي وفصلي ، فحدثته عن ذلك . ثم انه قال :

— « ليس لي ما أقوله ضدك ، كل ما في الأمر اني خشيت ان تكون مغامراً من مواليد المستعمرات . ولقد كان في عدم إرفاقك الطلب بالشهادة الأصلية ما أبد ارتياحي . فقد عرفت رجالاً اصطغروا شهادات لم تكن مائتاً لهم . وشهادتنا حسن السلوك الثمان قدمتها : والحاملتان رأي تاجرين اوروبيين فيك ، لا قيمة لهما عندي . أي شيء يعرفانه عنك ؟ أي ماسي تستطيع صلتها بك ان تبلغه ؟ »  
قلت :

— « ولكن كل امرئ هنا غريب عليّ . حتى الشيخ عبدالله لم يعرفني إلا هنا . »

— « ولكنك تقول إنه ابن بلدك ؟ وإذا كان والدك رئيساً لوزارة هناك ، فلا بد ان يعرف الشيخ عبدالله امرتك . ولو انك فزت بشهادة منه اذن لما كان عني ايما اعتراض على الاطلاق ، واذن لكنت سعيداً بأن اتصل بالجمعية القانونية وأعلمها بعجزني عن الاعتراض على طلبك . »

وانار هذا الحديث مسخطي ، ولكنني كبحت جراح مشاعري . وقلت في ذات نفسي : « لو قدمت اليهم شهادة من دادا عبدالله اذن لطالبوني بشهادتين من بعض الاوروبيين . واي صلة لقبولي كمحام بميلدي وأصلي وفصلي ؟ وكيف يمكن لأصلي ، ولو كان ضبيعاً أو متقياً ، أن يتخذ سلاحاً ضدي ؟ » ولكنني ضبطت اعصابي وأجبت في هدوء :

— « على الرغم من عدم تسليمي بأن للجمعية القانونية حقاً في السؤال عن هذه التفاصيل كلها فأنا على أتم الاستعداد لتقديم الشهادة التي ترغب فيها . »  
وأعادت شهادة الشيخ عبدالله . وقلمت الى مستشار الجمعية القانونية : فأعلن عن رضاه عنها ، أما الجمعية القانونية فلم ترفض : لقد عارضت طلبي أمام المحكمة العليا فرفضت الاعتراض حتى من غير ان ندعو مستر إسكومب لسماع رأيه . وقال القاضي الأكبر ما معناه :

— « وان الاعتراض القائل بأن المنتسب لم يُرفق الشهادة الأصلية اعتراض مردود : فإذا كان المنتسب قد قدم شهادة زائفة ، ففي الامكان اقامة الدعوى

عليه وحدته يشطب اسمه من جدول المحامين اذا ما ثبت انه مذنب : ان القانون لا يميز بين البيض والملونين . من اجل ذلك لا تملك المحكمة السلطة لمنح مسر غاندي من تسجيل اسمه في جدول المحامين . انا نقبل طلبه . مسر غاندي ، في استطاعتك ان تقسم اليمين .

ونهضت ، فأقست اليمين أمام امين السجل . وما إن اتممت القسم حتى خاطبني القاضي الاكبر ، قائلاً :

— « يتعين عليك الآن ان تنزع عمامتك ، يا مسر غاندي . يجب ان تخضع لقوانين المحكمة في ما يتصل باللباس التي يرتديها المحامون الممارسون . »

وأدركت حدودي . فالعامة التي ألححت على الاعتراف بها في محكمة دوربان رضيت ان اخلعها نزولاً عند أمر المحكمة العليا . ولم افعل ذلك لأنني اذا ايت الاذعان للأمر لم يقبل ذلك مني ولم يبرر . ولكنني اردت ان احتفظ بقوتي لخوض معارك اعظم . يجب ان لا أضيع براعتي كمناضل في الإصلاح على الاحتفاظ بعمامتي . فقد كانت تلك البراعة جذيرة بقضية افضل :

ولم يستحب الكيث عبدالله واصدقاء آخرون إذعاني ( ومن يدري ، فلعل الاصوب ان اقول : ضعفي . ) لقد شعروا بأنه كان علي ان اذفع عن حفي في الاعتراف بالعمامة وأنا امارس المهنة في المحكمة . وحاولت ان اقنعهم بوجهة نظري وبصدق الحكمة القائلة : « حين تكون في رومة فافعل كما يفعل الرومان » : وقلت : « كان يكون من الصواب ان ترفض الاذعان لو أن ضابطاً او قاضياً انكليزياً ، في الهند ، أمرك بأن تخلع عمامتك . أما في مقاطعة ناتال فليس يليق بك ان تخالف العرف المتبع في دار القضاء . »

وهذهأت الاصدقاء ، بعض الشيء ، بهذه الحجج وامثالا ، ولكنني لا اعتد اني اقنعهم كل الاقتاع بتطبيقية مبدأ النظر الى شيء من زاويتين مختلفتين في ظرفين متباينين . ولكن مجرد الاخاح على الحقيقة قد علمني ، طوال حياتي ، ان اقدر جهات المصالحة والتفاهم . ولقد رأيت في سنوات حياتي التالية ان هذه



الروح جزء جوهري من اللاعنف : وكثيراً ما عنت تعريض حياتي للخطر واثارة  
سخط الاصدقاء . ولكن الحقيقة صلبة كاللأس ، رقيقة كالزهر :  
وكانت معارضة الجمعية القانونية بمثابة اعلان لي جديد أو دعابة جديدة ،  
في جنوب أفريقية . فقد شجبت كثرة الصحف تلك المعارضة وأنهت الجمعية  
للقانونية بالحدس . وسهل الاعلان ، الى حد ما ، عملي .

## ١٩. المؤتمر الهندي الناطلي

كانت ممارسة المحاماة ، ولا تزال ، عملاً ثانوياً بالنسبة اليّ . فقد كان من  
الضروري ان اركز نشاطي على العمل في حقل الخدمة العامة لكي ابرر بقائي في  
ناتال . فارسل العريضة ضد مشروع القانون القاضي بتجريد المتود من حق  
الانتخاب لم يكن كافياً في ذاته . كانت الاثارة الموصولة جوهرياً للتأثير في نفس  
وزير المستعمرات . ومن اجل هذا فقد رأيت ان أوجد منظمة دائمة : وهكذا  
استشرت الشيث عبدالله واصدقاء آخرين ، وقررنا جميعاً ان ننشئ منظمة عامة  
ذات صفة مستورة :

واستدت بي الحرية البالغة عند محاولتي تسمية المنظمة الجديدة . فما كان هذه  
المنظمة ان تحمل ايما اسم يوحى بارتباطها بحزب من الاحزاب : كنت اعرف ان  
لاسم « المؤتمر » رائحة كرهية عند المحافظين في انكلترة ، ومع ذلك فقد كان  
« المؤتمر » هو حياة الهند بالذات . فأردت ان اجعل ذلك الاسم شعبياً في ناتال ،  
ولقد بدا لي ان من الجبن التردد في تبني ذلك الاسم . وهكذا اقترحت ، مع  
شرح وافٍ للاسباب التي تحذوني الى ذلك ، ان نخلع على المنظمة اسم المؤتمر  
الهندي الناطلي : وفي ٢٢ فوار ( مايو ) ابصر المؤتمر الهندي الناطلي النور .

كانت حجرة دادا عبدالله الواسعة غاصة بالناس ذلك اليوم . وحظي اسم  
« المؤتمر » بموافقة حماسية من الحاضرين جميعاً . كان دستور المؤتمر بسيطاً ،  
ورسم الاشتراك باهظاً . فلم يكن ليمتنع بعضوية المؤتمر الا من يدفع خمسة شلنات

شهرياً . ولقد أقيمت الطبقات الموسرة بالاكتتاب الى أقصى حد تستطيعه . وافتتح عبدالله شيت الاكتتاب بأن أعلن استعدادده لدفع جنيهين شهرياً . وأعلن صديقان آخران عن رغبتهما في دفع القيمة نفسها . وبدأ لي ان علي ان لا أنحل في الاكتتاب ، فدفعت جنيهاً في كل شهر . ولم يكن ذلك مبلغاً يسيراً بالنسبة اليّ . ولكنني اعتقدت انه لن يكون فوق امكانياتي ، اذا ما كان لي ان أنجح . ولقد ساعدني الله . وهكذا اجتمع لدينا عدد كبير من الاعضاء الذين اسهموا بجنيه واحد في الشهر . بل ان عدد الذين اسهموا بدفع عشرة شللات كان أعظم . وان هذا ، فقد كان ثمة هبات "قبلت" في امتان .

وقد اظهر الاختبار ان أحداً لم يدفع اشتراكه الا بعد إلحاح في انطلب . وكان من المتعذر علينا ان نقوم بزيارات متعاقبة للاعضاء المقيمين خارج دوربان . لقد بدا وكأن حماسة احدى اللحظات كانت تبلي حماسة اللحظة الاخرى . وحتى الاعضاء المقيمون في دوربان كانوا في حاجة الى مطالبة ملحة قبل ان يدفعوا اشتراكاتهم .

وكانت مهمة جمع الاشتراكات تقع على عاتقي ، بوصفي سكرتيراً للمنظمة . وبلغنا مرحلة تعيّن عليّ فيها ان أبقى كاتباً منهمكاً طوال النهار في عملية جمع الاشتراكات . وسئم الرجل من هذه المهمة ، وشعرتُ بأن الاشتراكات - اذا طمعنا في ان نحسن الحانة - يجب ان تُدفع سنوياً لا شهرياً ، وان يكون دفعها مقدماً . وهكذا دعوت المؤتمر الى الاجتماع . ورحب القوم كلهم باقتراح جعل الاشتراكات سنوية لا شهرية ، وبتحديد الحد الادنى للاشتراك بثلاثة جنيهات ، وهكذا يسرت مهمة الجمع يسيراً كبيراً .

وكنت قد تعلمت منذ البدء ان لا اقوم باعمال الخدمة العامة بأموال مقرضة ، ففي استطاعة المرء ان يتكل على وعود الناس في معظم الشؤون الا في ما يتصل بالمال . فأنتم أرى الناس قط يسارعون الى دفع انقاديبي أنني تهمدوا بالاكتتاب بها ، ولم يكن الهنود الناتاليون ليشذوا عن هذه السعادة . ولما كنا نحجم عن القيام بأي عمل الا اذا وجدنا المال الضروري فإن المؤتمر الهندي الناتالي لم يبرز تحت

الدين قط :

وأظهر رفاقي في العمل حماسة خارقة في جمع الاشتراكات من الاعضاء ؛ كان عملاً يثير شوقهم ، وكان في الوقت نفسه نجزية لا تقوم بمال . وكان عدد كبير من الناس يقدون لنا ، في سرور ، ليدفعوا اشتراكهم نقداً . أما العمل في قرى الداخل النائية فكان عبيراً . فالتاس ما كانوا يعرفون ، هناك ، قيمة العمل الشعبي . ومع ذلك فقد كنا نلقى دعوات الى زيارة بعض المواطن القصية ، فيُحسن وفادتنا كبار التجار في كل مكان :

وفي إحدى المناسبات ، خلال هذه الجولة ، نشأت حالة صعبة . كنا نتوقع ان يسهم مضيفنا بسنة جنيهاً ، ولكنه رفض ان يدفع أكثر من ثلاثة جنيهاً : وإذا ما رضىنا بهذا المبلغ منه فعندئذ يحضو الآخرون حذوه ، ونتمنى الجواراة بالاخفاق . وكانت ساعة متأخرة من الليل ، وكنا كلنا جوعاً ولكن كيف نتناول طعام العشاء قبل ان نفوز بالمبلغ الذي كنا نحصر على الفوز به ؟ وذهب اقناعنا كله ادراج الرياح . فقد بدا المضيف صلباً كالقولاذ . وناقشه في الأمر نفر من تجار البلدة ، وسهرنا كلنا الليل بطوله : وهو يأبى - كما نأبى نحن - أن يتزحزح قيد شعرة . وكان معظم رفاقي في العمل يستشطون غيظاً ، ولكنهم ملكوأ أعصابهم . وأخيراً أذعن المضيف . بُعيد ارتفاع الضحى ، ودفع ستة جنيهاً ، ودعانا الى تناول الطعام . حدث ذلك في تونغات ، ولكن اصلاء الحادث بلغت ستانجر في الشاطيء الشمالي ونشار استاؤن في الداخل . فكان في ذلك ما سهل مهمتنا .

ولكن جمع الاشتراكات لم يكن الشيء الوحيد الذي نتمن علبنا عمله : والواقع اني تعلمت منذ زمن بعيد هذا المبدأ : أن لا يكون في تصرفي قدر من المال أكثر من الضروري .

وكانت الاجتماعات تعقد مرة كل شهر : بل مرة كل اسبوع اذا اقتضى الأمر . فتتل وقائع الجلسة السابقة ، وتناقش المسائل على اختلافها . فلم تكن لقوم خبرة في المشاركة بالمناقشات العامة أو في الكلام بانجاز ومن غير ما خروج

عن الموضوع . كان كل امرئ يردد في النهوض للكلام . فشرحت لهم قواعد الاجراءات في الاجتماعات ، فاحرموها . لقد ادركوا أن في ذلك ثقافة لهم ، وما هي الا فترة حتى اكتسب كثير ممن لم يألفوا الكلام أمام الجمهور عادة التفكير والتحدث ، على مسمع من النظارة ، في موضوعات تهم الرأي العام .

وإذ كنت أعلم ان النفقات الثانوية تستغرق ، في أعمال الخدمة العامة ، حسابات واسعة ، فقد قررت في بادئ الأمر ان لا أطيع حتى دفاتر الايصالات . كانت في مكتبي آلة « دوآر قلبي » ( سايكلوستايل ) ، فكنت استخرج منها نسخ الايصالات والتقارير . ولم أبدأ بطبع هذه الأشياء وأمثالها إلا بعد أن امتلأت خزائن المؤتمر الحديدية ، وإلا بعد أن اتسع العمل وتكاثر الأعضاء . ومثل هذا الاقتصاد ضروري لكل منظمة ، ومع ذلك فأنا أعلم أنه لا يطبق دائماً . وهذا هو السبب الذي من أجله رأيت من المناسب التحدث عن هذه التفاصيل الدقيقة المتصلة بأولية المنظمات الصغيرة ، ولكن النامية .

كان الناس لا يبالون ، البتة ، بالحصول على ايصالات بالمبالغ التي دفعوها ، ولكننا كنا نصرّ دائماً على تقديم هذه الايصالات . وهكذا كنا نعمل صرف كل درهم تعبلاً واضحاً ، وأستطيع أن اقول ان دفاتر الحسابات لعام ١٨٩٤ يمكن ان توجد سليمة لم تُمسّ ، حتى اليوم ، في سجلات المؤتمر الهندي الثاني . إن الحسابات المحفوظة في عناية ضرورة لازمة لأبنا منظمة . وبدونها تتورط المنظمة في الخزي . وبدونها يتعلم الاحتفاظ بالحقيقة في طهارتها الفطرية .

ووجه آخر من وجوه نشاط المؤتمر عمله في خدمة الهنود المثقفين المولودين في المستعمرات . فقد انشئت « الجمعية الثقافية للهنود المولودين في المستعمرات » تحت رعاية المؤتمر . وكان أعضاء هذه الجمعية يتألفون ، في المحل الأول ، من هؤلاء الشبان المثقفين . وكان عليهم ان يدفعوا اشتراكاً اسمياً . وقد ساعدت الجمعية على إشباع حاجاتهم ، والتنفيس عن كربهم ، وشجعت تفكيرهم ، وتعريفهم الى التجار الهنود ، كما اتاحت لهم مجالاً لخدمة الجالية : كانت ضرباً من جمعية خطابة ومناظرات . وكان الاعضاء مجتمعون على نحو نظامي ،

فيطالعون الصحف او يتحدثون في موضوعات مختلفة : وانشئت كذلك مكتبة صغيرة ملحقة بالجمعية :

وكانت الدعاية تمثل الوجه الثالث من اعمال المؤتمر : وكانت هذه الدعاية تهدف الى تعريف الانكليز في جنوب افريقية وانكلترا وتعريف الناس في الهند بحقيقة الحال في ناتال . وعلى ضوء من هذا الهدف وضعت 'كتيبين اثنين : كان أولهما « نداء الى كل بريطاني في جنوب افريقية » ، وكان ينطوي على وصف مؤيد بالدليل للاحوال العامة التي يحيا في ظلها الهنود الناطليون . وكان الكتيب الثاني يحمل هذا العنوان : « الحقوق السياسية الهندية - نداء » . وقد انطوى على تاريخ موجز لحقوق الهنود السياسية في ناتال ، مدعوم بالوقائع والأرقام . وكنت قد افرغت كثيراً من الجهد والدراسة في إعداد هذين الكتيبين ، وكانت النتيجة متكافئة كل التكافؤ مع العناء الذي تجشمتُهُ : فقد حظي هذان الكتيبان بتداول واسع :

وكان من ثمرة هذا النشاط ان اكتسب الهنود اصدقاء كثيرين في جنوب افريقية ، وان فازوا بالعطف الفعال من جميع الاحزاب في الهند . لقد رسم للهنود الجنوب افريقيين ، ايضاً ، خطأ محمداً للعمل .

## ٢٠ . بالاصوندارام

ان رغبة الفؤاد الصادقة انصافية لتحقق دائماً . لقد وجدت بالتجربة ان هذه القاعدة كثيراً ما تصح . ولقد كانت خلية الفقراء هي رغبة فؤادي ، ولقد قذفت بسي دائماً بين ظهرائي الفقراء ومكتنتي من الاتحاد معهم . وعلى الرغم من ان المؤتمر الهندي الناطلي ضم بين اعضائه عدداً من الهنود المولودين في المستعمرات ، ومن الطبقة الاكبركية ، فان كاسي الاجور غير البارعين ، والعمال المستخدمين بعُتود : كانوا لا يزالون خارج نطاقه . ان المؤتمر لم يكن قد اصبحت مؤتمرهم . فلم يكن في ميسورهم الانتساب اليه من طريق دفع

الاشراك واكساب العضوية ، وما كان في امكان المؤتمر ان يبيع مودهم إلا بأداء الخدمة اليهم : ومنحت الفرصة حين لم اكن أنا ولم يكن المؤتمر مستعدين لذلك استعداداً قديماً . كانت قد انقضت على ممارستي المحاماة ثلاثة اشهر او اربعة اشهر ليس غير ، وكان المؤتمر لا يزال في طفولته ايضاً عندما انتصب امامي مرتجفاً باكياً رجل تاميلي يرتدي أسماً بالية ، وغطاء رأسه في يده ، وقد انكسرت اثنتان من ثيابه وسال الدم من فمه . كان سيده قد أوسعه ضرباً . ولقد عرفت كل شيء عن هذا الرجل من اذكار المساعد لي ، وكان تاميلي . كن بالاسوندارام - فقد كان هذا اسمه - يعمل بالتعاقد في خلعمة رجل اوروسي معروف مقيم في دوربان . فاتفق ان غضب السيد ذات يوم غضباً أنقذه السيطرة على نفسه فضرب بالاسوندارام ضرباً مبرحاً ، كاسراً اثنتين من اسنانه .

واستدعيت طبيباً . ولم يكن ثمة في تلك الايام غير أطباء بيض . وإنما كنت أريد من الطبيب شهادة عن طبيعة الاذى الذي نزل بي بالاسوندارام . وفزتُ بتلك الشهادة ، وفي الحال ذهبت بالرجل المصاب الى القاضي ، وقدّمت اليه شهادته : فتار القاضي لدى قراءته اياها ، واصدر امره باحضار المستخدم :

ولم اكن راغباً في معاقبة المستخدم . كل ما كنت اريده تحرير بالاسوندارام منه . وقرأت القانون الخاص بالعمل بالتعاقد . فاذا ما ترك خادم عادي العمل من غير ان يخبر سيده فعندئذ يكون من حق سيده ان يقيم عليه دعوى امام محكمة مدنية . أما العامل بالتعاقد فكان الامر يختلف بالنسبة اليه اختلافاً كبيراً . كان عرضة ، في مثل هذه الاحوال ، لان تقام عليه الدعوى امام محكمة جنائية ولأن يسجن عند ثبوت التهمة عليه . وهنا هو السبب الذي من اجله قال السير وليام هانتر ان نظام العمل بالتعاقد لا يقل رداءة عن الاسترقاق : فتل العبد الرقيق كان العامل المشغل بالتعاقد ملكاً لسيده :

لم يكن ثمة غير طريقين لتحرير بالاسوندارام : إما بحمل « حامي العمال بالتعاقد » على الغاء التعاقد ، أو تحويله الى شخص آخر ، أو بحمل مستخدم بالاسوندارام على تحريره . ومضيت الى هذا الأخير وقلت له : « انا لا اريد ان

اقم الدعوى عليك ، وانزال القصاص بك : فأنا أحب انك تترك انك ضربت الرجل ضرباً مبرحاً . وسوف اكتفي منك بتحويل العقد الى شخص آخر : فما كان منه إلا ان وافق على ذلك من غير تردد . ثم اني قابلت « حامي العمال بالتعاقد » فوافق ايضاً ، على شرط ان أبحث عن مستخدم جديد .

وهكذا مضيت أبحث عن مستخدم : كان ينبغي ان يكون اوروبياً ، إذ لم يكن في ميسور الهنود أن يستخدموا العمال بطريقة التعاقد . وكنت لا أعرف ، في ذلك الحين ، غير عدد قليل من الاوروبيين . واجتمعت الى واحد منهم : فتلطف بالموافقة على تحويل عقد بالاسوندارام اليه . فشكرت له لطفه . وأدان القاضي مستخدم بالاسوندارام : ودون أنه قد تولى أمر تحويل العقد الى شخص آخر .

وتسامع كل عامل بالتعاقد بقضية بالاسوندارام ، واعتبرني هذه الفتنة صديقاً لها . ورحبت بهذه الصلة في ابتهاج . وتدفق على مكنتي فيض غير منقطع من العمال ذوي العقود ، فكانت فرصة ممتازة مكنتني من فهم مباهجهم واحزانهم ؛ وانتهت أصداء قضية بالاسوندارام الى مدراس النائية نفسها . وعرف العمال الوافدون من مختلف نواحي المقاطعة الى ناتال للعمل بالتعاقد - عرفوا بهذه القضية من اخوانهم العمال المتعاقدين .

لم يكن ثمة شيء استثنائي في القضية نفسها ، ولكن مجرد التفكير بأنه كان ثمة في ناتال من يعطف على قضيتهم ويعمل جهاراً من أجلهم اوقع الدهشة البهيج في نفوس العاملين بالتعاقد ، ونفخ في صدورهم الأمل .

لقد قلت إن بالاسوندارام دخل الى مكنتي وغطاء رأسه في يده . فقد كان يحيط بالحادثة عنصر يدعو الى الرثاء ، ويكشف في الوقت نفسه عن ازدياد القوم لنا . ولقد سبق لي ان رويت كيف طلب الي ذات يوم ان اخلع عمامتي . اما الان فأضيف انه كان قد فرض على كل عامل من عمال التعاقد وعلى كل هندي غريب ان يرفع غطاء رأسه كلما زار رجلاً اوروبياً ، سواء أكان ذلك الغطاء قلنسوة ، او عمامة ، او وشاحاً يطوق رأسه . إن القساء التجربة ، ولو بالبدن

الاثنتين ، لم يكن كافياً . وظن بالاسوندارام ان عليه ان يطبق هذا العرف .  
انا ايضاً . وكانت هذه اول تجربة لي في هذا الحقل : فشعرت بالخزي ، وسألته  
ان يعقد وشاحه . فنزل عند رغبتي ، في شيء من التردد ، ولكنني استطعت أن  
ألمح البشر على وجهه .

لقد كنت دائماً عاجزاً عن ان افهم كيف يستطيع الناس ان يستشعروا الرفعة  
والجاء من طريق إدلال اخوانهم في الانسانية .

## ٢١. ضريبة الجنيهاث الثلاثة

لقد قادني قضية بالاسوندارام الى الاحتكاك بالهنود العاملين بطريقة التعاقد ،  
بيد ان ما اكرهني على القيام بدراسة عميقة لحالتهم كان محاولة ارهاقهم بضريبة  
ثقيلة خاصة .

ففي السنة نفسها ، ١٨٩٤ ، حاولت حكومة ناتال ان تفرض على الهنود  
العاملين بطريقة التعاقد ضريبة سنوية مقدارها خمسة وعشرون جنيهاً . وأذهلني  
هذا الاقتراح . وطرحت المسألة على المؤتمر للمناقشة ، فقرر في الحال تنظيم  
المعارضة الضرورية .

ويتعين عليّ ، بادئ ذي بدء ، ان اشرح بايجاز كيف نشأت فكرة هذه  
الضريبة :

حوالى العام ١٨٦٠ وجد الاوروبيون في ناتال أن ثمة مجالا واسعا لزراعة  
قصب السكر ، وشعروا انهم في حاجة الى الالدي العاملة : وبدون اليد العاملة  
الاجنبية كانت زراعة القصب وصناعة السكر مستحيلتين ، اذ كان الزولو  
الناتاليون غير مؤهلين لهذا الشكل من العمل . وهكذا اتصلت حكومة ناتال  
بالحكومة الهندية ، وحصلت منها على إذن بمحمد الالدي العاملة الهندية وجمعها ،  
وكان على هؤلاء العمال أن يوقعوا تعهداً بالعمل في ناتال طوال خمس سنوات ،  
حتى اذا ساءلوا هذه المدة امسى من حقهم الاستقرار هناك ، وتملك الارض .



كان ذلك ضرباً من الاغراء لاستمالة اولئك البائسين ، لأن البيض كانوا يتطلعون آنذاك الى تحسين زراعتهم عن طريق الافادة من جهود العمال الهنود بعد انقضاء آجال عقودهم .

ولكن الهنود اعطوا اكثر مما كان يُتَوَقَّع منهم . لقد زرعوا مقادير ضخمة من الخُنْصَر: وأدخلوا الى البلاد عدداً من النباتات الهندية وجعلوا في الامكان زراعة النباتات المحلية بنفقات اقل . كذلك عرفوا البلاد الى شجرة المانغو : ولم تقتصر نشاطهم على حتمل الزراعة . لقد دخلوا مبدان التجارة أيضاً . فاشترى الارض لتشييد الابنية عليها . ورفع كثير منهم انفسهم من مرتبة العمال الى مرتبة اصحاب الارض والبيوت . ولحق بهم نجار من الهند ، واستقروا هناك للتجارة . وكان المرحيم الشيث ابو بكر آمود من اوائل هؤلاء : وسرعان ما انشأ تجارة ضخمة :

واستبد القلق بالتجار البيض . فهم حيناً رحبوا باديء الامر بالعمال الهنود لم يكونوا يحسبون حساباً لبراءتهم التجارية : ولقد كان في ميسور التجار البيض أن يحتلّوهم كمزارعين مستقلين . أما منافستهم في التجارة فأمرٌ ما كان في إمكانهم أن يأتوا به .

وغرس تلك بذرة الكره للهنود . وساعدت عوامل اخرى على نمو هذا الكره : فأسلوب حياتنا المختلف ، وبساطتنا ، ورضانا بالارباح القليلة ، ولا مبالتنا بقواعد علم الصحة ، وبطؤنا في تنظيف ماحولنا وتربيته ، وبخلنا عن ترميم منازلنا - كل هذه ، مضافة الى الاختلاف في الدين ، ساعدت على إذكاء نار البغضاء . ووجدت هذه البغضاء تعبيرها في التشريع ، فكان مشروع القانون القاضي بحرمات الهنود من حق التصويت ، وكان مشروع القانون القاضي بفرض ضريبة على العمال الهنود المشتغلين على اساس التعاقد : وفي معزل عن التشريع ، كان عدد من وخزات الأبر قد بدأ .

كان الاقتراح الاول ينقضي باعادة العمال الهنود ، بالقوة ، الى الوطن ، بحيث ينقضي اجل تعاقدهم في الهند نفسها : وكان خليقاً بالحكومة الهندية أن ترفض هذا الاقتراح ، ومن اجل ذلك قدم عرض آخر يتلخص في ما يلي :

- ١ - على العامل المتعاقد ان يعود الى الهند عند انقضاء اجل تعاقدته ، أو
- ٢ - بتعين عليه ان يوقع عقداً جديداً كل سنتين ، شرط ان يعطى علاوة عند كل تجديد ، أو
- ٣ - في حالة رفضه العودة الى الهند او تجديد العقد بتعين عليه ان يدفع ضريبة سنوية مقدارها ٢٥ جنيهاً .

وأرسل الى الهند وفد مؤلف من السير هنري بنز ومستر مايسون للفوز بموافقة الحكومة الهندية على الاقتراح . وكان نائب الملك ، آنذاك ، هو اللورد ايلجين ، انه لم يوافق على ضريبة الـ ٢٥ جنيهاً ، ولكنه أقر ضريبة على الرؤوس مقدارها ثلاثة جنيهات . واعتقدت آنذاك ، كما اعتدحت في هذه الايام ، ان نائب الملك ارتكب غلطة خطيرة . فهو لم يفكر قط ، عندما اتخذ قراره ، بمصالح الهند : ولم يكن من واجبه ان يجامل اوروبي ناتال ويخدعهم على هذا النحو . فقد كان العامل المتعاقد خليفاً بأن يخضع بعد ثلاث سنوات او اربع ، لهذه الضريبة هو وزوجته وكل ذكر من اولاده تجاوز السادسة عشرة ، وكل انثى من اولاده تجاوزت الثالثة عشرة . وكانت جباية ضريبة سنوية مقدارها ١٢ جنيهاً من اسرة مؤلفة من اربعة اشخاص - الزوج والزوجة وولدين - حين لا يتجاوز متوسط دخل الزوج الشهري ١٤ شلناً ، كانت جباية هذه الضريبة شيئاً فظلاً لا نظير له في اي بلد آخر من بلدان العالم :

ونظمنا حملة ضارية ضد الضريبة . ولو ان المؤتمر الهندي التالي اعتمد بالصمت حول هذا الموضوع اذن لكان من الجائز ان يوافق نائب الملك حتى على ضريبة الخمسة والعشرين جنيهاً . ولعل تخفيض الضريبة من خمسة وعشرين جنيهاً الى ثلاثة جنيهات كان مردّه الى حملة المعارضة التي شنها المؤتمر ليس غيره . ولكني قد اكون مخطئاً في اعتقادي هذا . فمن الجائز أن تكون الحكومة الهندية قد أبكت الموافقة على ضريبة الخمسة والعشرين جنيهاً منذ البدء وخفضتها الى ثلاثة جنيهات ، بصرف النظر عن المعارضة التي حمل المؤتمر لزامها . وعلى اية حال فقد كانت خيانة للامانة ، ارتكبتها الحكومة الهندية ، اذا ما كان ينبغي لنائب

الملك ، بوصفه المؤتمن على مصلحة الهند ، ان يقر بحال من الاحوال مثل هذه الضريبة غير الانسانية .

وما كان في طوق المؤتمر أن يعتبر تخفيض الضريبة من خمسة وعشرين جنيهاً الى ثلاثة جنيهاً نصراً عظيماً . لقد أسف لعجزه عن صيانة مصالح الهند المتعاقدين ، حياة كاملة . ومنذ ذلك الحين وهو يعمل على إلغاء الضريبة ، ولكن عشرين سنة انسلخت قبل ان يحقق المؤتمر هدفه هذا . وانما ذلك ، حين تم ، لا نتيجة لجهود الهنود النازليين وحدهم ، ولكن نتيجة لجهود جميع الهنود في جنوب افريقية . وكان ذلك العهد مع المرحوم السيد غوكهايل هو المناسبة لشحن الحملة الأخيرة ، التي قام فيها العمال المتعاقدون بنصبيهم من النضال كاملاً ، فخسر بعضهم حياته نتيجة لما لجأت اليه الحكومة من اطلاق النار ، وقامى اكثر من عشرة آلاف آلام السجن .

ولكن الحقيقة انتصرت آخر الأمر . وكانت آلام الهنود هي التعبير عن تلك الحقيقة . ومع ذلك فما كان لها ان تنتصر لولا الإيمان الراسخ ، والصبر الطويل ، والجهد الموصول . واوان الجالية اطرحت النضال ، ولو ان المؤتمر تخلّى عن الحملة وأذعن للضريبة كشيء لا بد منه ، اذن لظلت الضريبة تجبى من الهنود المتعاقدين حتى يوم الناس هذا ، واذن لجللب الخزي السرمدي الهنود في جنوب افريقية ، وفي الهند كلها .

## ٢٢ . دراسة مقارنة للأديان

اذا كنت قد وجدت نفسي مستغرقاً كل الاستغراق في خدمة الجالية ، فقد كان السبب الكامن وراء ذلك هو رغبتى في تحقيق الذات : كنت قد جعلت من دين الخدمة ديناً لى ، اذ شعرت ان الله لا يمكن ان يُدرك إلا من خلال الخدمة : وكانت الخدمة عندي هي خدمة الهند ، لأنها كانت "تقبل على" من غير ان سمى لها ، لأننى كنت أتمتع بميل فطري الى ذلك . كنت قد قصدت الى جنوب

افريقية ابتغاء الرحلة ، للبحث عن مفرج عن مؤامرات كاثبساود ، ولكب الرزق ، ولكني وجدت نفسي ، كما قلت ، ابحت عن الله واناضل من اجل تحقيق الذات .

كان اصدقائي المسيحيون قد اثاروا شهوتي الى المعرفة ، هذه الشهوة التي كانت قد اُمتت شرهة لا تشبع تقريبا ، فهم لا يتركونني في سلام ، حتى ولو أردت أن أكون لا مباليا . وفي دوربان ، اكتشفتي مستر سبنسر والتون ، رئيس البعثة التبشيرية العامة لجنوب افريقية . وكدت أصبح عضوا في أسرته : وكان احتكاكي بالنصارى في بريتوريا وراء هذا التعارف . طبعاً . والواقع انه كانت لمستر والتون طريقته الخاصة . فانا لا اذكر انه دعاني في أي يوم من الأيام الى اعتناق النصرانية ، ولكنه وضع حياته أمامي ، مثل كتاب مفتوح ، وأتاح لي أن أراقب حر كانه كلها . وكانت مسز والتون امرأة موهوبة ، ولطيفة جداً . ولقد احببت مملك هذين الزوجين : ولقد عرفنا الفروق الرئيسية بيننا . فما كان في وسع أيما قدر من المناقشة أن يمحوها . ومع ذلك فحتى الفروق نفسها تتكشف عن فائدة ، اذا ما كان ثمة تسامح ، وبر ، وصدق : لقد احببت تواضع مستر ومسز والتون ، ومواظبتها على العمل وتفانيهما فيه . وكثيراً ما كنا نلتقي .

هذه الصداقة أبقت اهتمامي بالدين حياً . كان من المتعذر علي الآن ان اجد أوقات الفراغ التي كنت اجدتها في بريتوريا للقيام بدراساتي الدينية . ولكني كنت احاول الافادة من أيما وقت من أوقات الفراغ ، مهما قصُر . واستمرت مراسلاتي الدينية : فكان رامشانديهاي يهديني سواء السبيل ويبحث الي احد الاصدقاء بكتاب « دارما فيشار » لـ « نارمادا شانكار » . ولقد كانت مقدمته عظيمة اللذة . وكنت قد سمعت عن الحياة البوهيمية التي عاشها الشاعر ، ولقد اسرني ذلك الوصف الوارد في المقدمة للثورة التي احدثتها الدراسات الدينية في نفسه . وأحببت الكتاب ، وقرأته من الغلاف الى الغلاف في انتباه . وطالعت في شوق كتاب ماكس مولر : « الهند - ما الذي تستطيع ان تعلمنا اياه ؟ » ، وترجمة « أوبانيشادز » التي نشرتها الجمعية اليوسوفية . وهذه الكتب كلها

زادت لحرامي للهندوسية ، فأخذت جهالاتها تعظم في عيني . بيد انها لم تولد في أيما كره للأديان الاخرى . وقرأت «كتاب حياة محمد وخلفائه» لواشنطن ايرفنج ، ومديح كارليل للرسول . وهذه الكتب زادتني احتراماً لمحمد . كذلك قرأت كتاباً اسمه «أحدث زرادشت» .

وهكذا اكتسبت معرفة جديدة بالأديان المختلفة . وكان في هذه الدراسة ما شغل استبطاني الذاتي وغرس فيّ عادة العمل على تطبيق كل ما يميجني في مطالعاتي . وهكذا بدأت أمارس رياضة «اليوغي» على قدر ما استطعت أن أفهمها من دراستي الكتب الهندوسية . ولكنني لم استطع أن اذهب الى بعيد جداً ، وعقدت العزم على متابعتها بعد عودتي الى الهند بمعاونة خبير من خبراتها . ولكن هذه الرغبة لم تحقّق قط .

كذلك قت بدراسة عميقة لكتب نولستوني . وترك كتابا «الانجيل موجزة» و «ما الذي يجب ان يعمل ؟» وغيرهما أثراً عميقاً في نفسي . لقد بدأت أدرك ، أكثر فأكثر ، امكانيات الحب الشامل اللانهائية .

وحوالى تلك الفترة نفسها تعرفت الى اسرة مسيحية اخرى . وبناء على اقتراحها اخذت أختلف الى الكنيسة الويزلية . كل يوم احد . وفي ابام الاحد أيضاً كانت الاسرة تدعوني الى تناول طعام العشاء معها على نحو نظامي . ولكن الكنيسة لم تترك أثراً مستحباً في نفسي . ولقد بدت لي العظات غير مُلهمة . وبدا لي جمهور المصلين وكأنّ التقى يعوزهم . انهم لم يكونوا مجموعة من النفوس الورعة . لقد كانوا قوماً دينيوي التفكير ، فهم يقصدون الى الكنيسة للاستجمام وانسجاماً مع العرف . وهناك كانت تأخذني ، في بعض الاحيان ، سنة من النوم . واستبد بي الخجل ، ولكن بعض جيرانني الذي لم يكونوا في وضع خبير من وضعي ، خففوا من وطأة خجلي . ولم يكن في ميسوري ان استمر على هذا

---

• نسبة إل جون ويزلي Wesley (١٧٠٣ - ١٧٩١) المبشر الانكليزي الذي أسس للكنيسة «المثدية» (المرب) .

النحو ، وما هي الا فترة حتى أقلمت عن الذهاب الى الكنيسة .

وانتظمت صلاتي بالاسرة التي كنت ازورها كل يوم من ايام الاحدانة طاعاً مفاعلاً . بل ان في استطاعتي ان أقول اني حذرت من الاستمرار في زيارتها . وتفصيل ذلك ان مضيفتي كانت امرأة صاخبة بسيطة ، ولكنها ضيقة أفق التفكير بعض الشيء . وكنت آنذاك أعيد قراءة « ضياء آسية » لآرنولد . وذات يوم بدأنا نقارن حياة يسوع بحياة بودا . فقلت : « انظري اني حنان غوثاما ! انه لم يكن مقصوراً على الجنس البشري ؛ لقد امتد الى جميع الكائنات الحية . الا يفيض قلب المرء بالحب اذ يفكر بالحمّل جائئاً في ابتهاج فوق كتفيه ؟ ان المرء لا ينع على هذا الحب بل يدع الكائنات الحية في حياة يسوع » . وآلمت المقارنة السيدة الصالحة . كان في ميسوري ان افهم مشاعرهما . فغيرت الحديث . ومضينا الى حجرة الطعام . وكان ابنها معنا ايضاً ، وهو ملاك لم يتجاوز الخامسة من العمر ، وإني لأكون أسعد ما اكون في حفرة الاطفال . وكانت قد نشأت بيني وبين هذا الغلام صداقة قديمة . وتحدثت في سخرية عن قطعة اللحم التي في صحنه ، على حين رحت اطري الشفاة التي في صحنه اطراءً عظيمًا . واستغفرت حديتي الغلام البريء . وشاركني في اطراء الفاكهة .

اما الأم ؟ لقد استبد بها الذعر .

وانتهت خرج الموقف . فكبحت جراح نفسي . وغيّرت موضوع الحديث ؛ وفي الاسبوع التالي زرت الاسرة كالعادة . ولكن في شيء من الاضطراب . أنا لم أر ان عليّ ان انقطع عن الذهاب الى هناك ، كما اني لم اعتد ان ذلك الانقطاع لائق . ولكن السيدة المتدخلة مهدت لي السبيل .

لقد قالت :

— « ستر غاندي . ارجو ان لا تغضب اذا شعرت اني مضطرة الى ان اقول لك ان ولدي لم تنده صحنك شيئاً . لانه يتردد كل يوم في اكل اللحم ، ويطلب بالفاكهة ، مذكراً ابائي بمناقشتك . ان هذا شيء كثير . واذا ما اطرح اكل اتحم فلا ريب انه سوف يغدو ضعيفاً ، ان لم اقل مريضاً . كيف استطيع

احتمال ذلك ؟ ان مناقشاتك ينبغي ان تكون مقصورة علينا نحن الكبار . إنها لا بد ان تحدث أثرأ سيئاً في نفوس الاطفال .  
فاجبت :

- « ايها السيدة ... أنا آسف . استطع ان افهم مشاعرك كاماً ، لأن لي انا ايضاً اولاداً . وفي استطاعتنا بكثير من اليسر ان ننهي هذا الوضع البغيض ، ان ما آكله وما اجتنب أكله جذيران بأن يتركا في نفس الطفل أثراً أعظم من الاثر الذي يتركه كلامي : واذن فالطريقة الفضلى هي ان اوقف هذه الزيارات . ولن يؤثر ذلك في صداقتنا طبعاً .  
فقلت في ارتياح واضح :  
- « اشكرك ! »

## ٢٣ . في حقل تدبير المنزل

لم تكن تجربة جديدة عليّ ان افتح بيتاً وأدير شؤونه . ولكن الأمر في ناتال كان مختلفاً عنه في بومباي ولندن . فقد كان قسم من النفقات . هذه المرة ، مُرّصداً لأجل الجاه والاعتبار ليس غير . فقد رأيت من الضروري أن تنسجم حياتي مع مركزي كمحام هندي في ناتال وكممثل للجمالية : وهكذا استأجرت بيتاً جميلاً صغيراً في حيّ محترم . كذلك كان ذلك المنزل مؤثناً نائياً ملائماً . كان الطعام بسيطاً ، ولكن فوائده تدبير المنزل كانت مرتفعة جداً دائماً ، لأنه كان من دأبي ان ادعو اليه اصدقائي الانكليز وبعض الهندود من رفاقي في العمل .

ان الخادوم الجيد اساسي في كل بيت . ولكني ماكنت اعرف قط كيف اتخذ من أبنائرجل خادماً .

كان لي صديق جعلت منه رفيقاً ومساعداً ، وكان لي طاهٍ ما لبث ان امسى عضواً من اعضاء الاسرة : وكذلك كان بعض موظفي المكتب يشاركونني المآكل

والبيت :

وأحب اني نجحت نجاحاً لا بأس به في هذه التجربة ، ولكنها لم تخلُ من قدر يسير من مرارة تجارب الحياة .

كان الرفيق بارعاً جداً ، وكان كما اعتقدت مخلصاً لي : ولكني كنت في ذلك مخدوعاً . لقد اخذته الغيرة من موظف من موظفي المكتب كان يقيم معي ، ففسج شركاً جعلني أشك في الموظف . والواقع ان ذلك الصديق الموظف كان ذامزاج خاص . فما إن رأى انه موضع ارتياحي حتى غادر البيت والمكتب جميعاً . وآلمني ذلك . لقد شعرت اني قد أكون ظلّمته ، فكان ضميري يخزني على نحو موصول .

وفي غضون ذلك احتاج الطاهي الى اجازة قصيرة لا تعلق بضعة ايام ، أو انه ابتعد عن المنزل لسبب من الاسباب . وكان لا بد من الاستعانة بغيره خلال غيابه . ولقد عرفت في ما بعد ان هذا الرجل الجليل كان قد ما سافلاً بكل ما في الكلمتين من معنى . ولكنه اثبت انه كان نعمة سماوية بالنسبة الي . فلم يكده يمضي على وصوله يومان أو ثلاثة ايام حتى اكتشف بعض الامور الشاذة التي كانت تجري ، من غير علمي ، تحت سقف بيتي ، وعتمد النية على تحذيري . وكان الناس يعرفون عني اني رجل ساذج سريع التصديق ، ولكني مستقيم . وهكذا فقد كان ذلك الاكتشاف صدمة له اي صلعة . كان من دأبي ان اغادر المكتب الى المنزل ، في الساعة الواحدة من كل يوم ، لتناول طعام الغداء . وحوالي الساعة الثانية عشرة اقبل الطاهي الى المكتب وهو يلهث ، وقال :

— « أرجو ان تذهب الى البيت في الحال . ان ثمة مفاجأة تنتظرك » :  
فسأله :

— « ولكن ماهي ؟ يجب ان تخبرني ماهي ؟ كيف استطيع ان اغادر المكتب في هذه الساعة لأذهب وأراها ؟ »

— « سوف تندم اذا لم تجيء . هذا كل ما استطيع ان اقله » :  
لقد أحسنت ان في إلحاحه توسلاً . فضيت الى المنزل ، بصحبي أحد موظفي



المكتب ، والطاهي الذي راح يتقدمنا . لقد قادني الى الدور العلوي مباشرة ،  
واشار الى حجرة رفيقي ، وقال :

— « افتح هذا الباب ، وانظر بنفسك » .

ورأيت كل شيء . وقرعت الباب . فلم اسمع جواباً . وقرعت في حنف كان  
كافياً لزلزلة الجدران نفسها . وفتح الباب . لقد رأيت في داخل الغرفة مومساً .  
وسألته ان تغادر المنزل ، وأن لا تعود اليه ابداً .

والتفت الى الرفيق وقلت :

— « لن تكون لي بك ايما صلة ، ابتداء من هذه اللحظة . لقد أخذتُ على  
اقبح وجه وجعلتُ من نفسي أضحوكة . أهذه الطريقة تقابل ثقتي بك ؟ »  
وبدلاً من أن يثوب الى رشده راح يهدد بفضحي .  
فقلت :

— « ليس عندي ما اخبئه . افصح ايما شيء قد اكون عملته . ولكن عليك  
ان تغادروني في هذه اللحظة » .

وزاده ذلك هياجاً . ولم تكن نمة حيلة لاجراجه . وهكذا قلت للموظف اتوقف  
في ادنى السلم :

— « ارجو ان تذهب وتخبر مدير البوليس ، مع تحيائي ، ان شخصاً كان  
يعيش معي قد أساء السلوك . انا لا اريد ان أبقيه في منزلي ، ولكنه يأبى مغادرة  
البيت . واني لأكون شاكراً اذا ما بعث البوليس اليّ بنجدة » .

حينئذ أدرك ذلك الرفيق اني جاد . وأوهنتهُ جرئته . فراح يعتذر اليّ ،  
ويسألني — ضارحاً — ان لا أخبر الشرطة ، ووافق على مغادرة المنزل في الحال  
وهكذا كان .

كانت هذه الحادثة تحذيراً لي ، جاء في وقته . فأنالم ادرك الا الآن الى أي  
حد كنت مخدوعاً بذلك الإنابة الشرير . كنت قد اخترتُ ، بأبرائه ، وسيلة  
ورديئة لغاية صالحة . كنت قد توقعت « ان أجني من الشوك العنب » . ولقد كنت  
عارفاً بأن لهذا الرفيق مُخلفاً سيئاً . ومع ذلك فقد اعتقدت باخلاصه لي . وفي

محاولتي إصلاحه كدت أقود نفسي الى التهلكة . كنت قد أُرصدت اذني دون تحذيرات بعض الاصدقاء الطيبين . ذلك ان الافتتان كان قد اعماني .

ولولا هذا الطاهي الجديد لما اكتشفت الحقيقة أبداً ، ولما استطعت - اذ كنت خاضعاً لسلطان هذا الرفيق - ان أحيا حياة العزلة التي بدأتها آنذاك . لولا هذا الطاهي الجديد لبقيت أضيق وقتي على ذلك الرفيق . كانت له القوة على ابغائي في الظلام وعلى تضليلي ايضاً .

ولكن الله أقبل لنجدي ، كما قد فعل من قبل . كانت نيازي طاهرة ، وهكذا أنقذت على الرغم من اخطائي ، ولقد كان في هذه التجربة الباكرة تحذير قاسٍ لي افادني في المستقبل .

كاد الطاهي ان يكون رسولاً بعثته السماء اليّ . إنه ما كان يعرف الطهي ، ولم يكن في استطاعته ، كطاهٍ ، ان يبقى في منزلي . ولكن احداً غيره ما كان بقادر على ان يفتح عيني على الواقع البشع . والحق ان هذه لم تكن المرة الاولى التي جيء فيها بهذه المرأة الى منزلي ، كما علمت في ما بعد . كانت كثيراً ما تغد الى المنزل ، ولكن احداً لم يكن يملك من الشجاعة ما يملكه هذا الطاهي . اذ كان كل امريء به لم تقني العمياء بذلك الرفيق . لكان ذلك الطاهي قد بُعث اليّ لأداء هذه الخدمة ليس غير ، ذلك انه سألتني أن آذن له بالانصراف في تلك اللحظة ، قائلاً :

— « انا لا أستطيع ان ابقى في منزلك . إن من السهل تضليلك . ليس في هذا الليت مكان لي » .

وسرعان ما اكتشفت ان الرجل الذي سمم اذني ضد موظف المكتب لم يكن غير هذا الرفيق . وبذلت قصارى جهدي للتعويض على الموظف من الظلم الذي انزلته به . بيد أنني ما أزال أسفاً لانني لم استطع القيام بهذا الواجب على الوجه الأكمل . انك مهما حاولت الإصلاح والرتق فإن التفتق يظل فتقاً .

## ٢٤ . الى ارض الوطن

كان قد انقضى على مقامي في جنوب افريقية ، الآن ، ثلاث سنوات . كنت

قد بدأت أعرف الشعب ، وكان الشعب قد بدأ يعرفني . وفي عام ١٨٩٦ طلبت ان يؤذن لي في الذهاب الى الوطن لأقضي فيه سنة أشهر ، ذلك اني رأيت ان مقامي قد تطاول كثيراً في جنوب افريقية . كنت قد انشأت اسماً طيباً هناك ، وكان في استطاعتي ان أرى ان الناس يشعرون بضرورة بقائي . وهكذا عقدت النية على الذهاب الى الوطن . فأرى الى زوجتي واولادي ، ثم أرجع بهم الى تلك الديار وأستقر فيها . كذلك رأيت اني قد أوفقت ، اذا ما عدت الى الوطن ، الى القيام بشيء من الخدمة العامة عن طريق الاتصال بالرأي العام الهندي وتنويره واثارة اهتمامه اكثر فأكثر بقضية الهند في جنوب افريقية . كانت ضرورة الجنيهاث الثلاثة جرحاً غير مندمل ؛ ولم يكن السلام ممكناً إلا اذا الغيت .

ولكن من الذي سينهض بعمل المؤتمر ، وجمعية التروية ، في غيابي ؟ كان في ميسوري ان افكر في رجلين اثنين : آدجي مياخان ، وبارسي رستمجي . وكان ثمة كثير من ابناء الطبقة التجارية المشتغلين بالقضايا العامة ، ولكن هذين الرجلين كانا أبرزهم وأقدرهم على النهوض بواجبات السكرتيرية من طريق العمل النظامي واكثرهم تمتعاً باحترام الجالية الهندية . وكان السكرتير يحتاج من غير شك الى قدر كاف من المعرفة باللغة الانكليزية . فافترحت على المؤتمر اسم المحرم آدجي مياخان ، فأقر المؤتمر تعيينه أميناً للسر . ولقد اثبتت التجربة ان الاختيار كان موفقاً جداً . فقد أرضى آدجي مياخان الجميع بمواظبته ، وسعة تفكيره ، وبشائسته ، ولطفه ، وأثبت لكل انسان ان عمله السكرتير لا يتطلب رجلاً يحمل شهادة المحاماة أو يتمتع بثقافة انكليزية رفيعة .

وحوالى منتصف عام ١٨٩٦ انجرت الى الوطن على متن الباخرة « بونفولا » التي كانت قاصدة الى كلكتا .

كان على متن الباخرة عدد قليل جداً من الركاب ، وكان بينهم ضابطان انكليزيان ما لبثت صليهما ان توقفت . كنت ألعب الشطرنج مع احدهما ساعة كل يوم . وقدّم اليّ كتاباً يعلم اللغة التاميلية من غير معلم ، وكانت تجربتي في نائال قد أظهرت لي ان عليّ ان أتعلم الأوردية لكي أوثق صلاتي بالمسلمين ،

وان اتعلم التاميلية لكي اوثق صلاتي بالهنود المدراسيين .  
ونزولاً عند رغبة الصديق الانكليزي ، الذي قرأ الأوردية معي ، بحثت عن  
معلم اوروبي بين ركاب الباخرة ، وحققنا تقدماً متساراً في دراستنا . كانت  
للضابط ذاكرة أقوى من ذاكرتي ؛ فإما كان ينسى ؛ فإما كلمة بعد أن تقع عليها  
عيناه مرة واحدة . كنت كثيراً ما أجد من العسر عليّ أن أحل رموز الأحرف  
الأوردية . وواظبتُ على الدراسة أكثر فأكثر ، ولكنني لم استطع أن أحقق  
بالضابط البتة .

وحققت تقدماً صالحاً في تعلم اللغة التاميلية . لم يكن ثمة من يستطيع مساعدتي  
في ذلك ، ولكن كتاب التاميلية من غير معلم ، كان كتاباً حسن التأليف ، ولم  
اشعر بحاجة ماسة إلى كثير من المعونة الخارجية .

وكنت أرجو أن أواصل هذه الدراسة حتى بعد وصولي إلى الهند ، ولكن  
ذلك كان أمراً مستحيلًا . فبعد عام ١٨٩٣ قُت بمعظم قراءاتي في السجن .  
وحققت بعض النجاح في دراسة التاميلية والأوردية ، في السجن : التاميلية  
في بعض سجون جنوبي إفريقية ، والأوردية في سجن بيرافدا . ولكنني لم اتعلم  
قط التكلم باللغة التاميلية ، والمعرفة القليلة التي اكتسبتها من طريق القراءة آخذة  
الآن في الصدأ لانعدام المراتب .

أنا لا أزال اشعر أيّ عائق كان يثقله جهلي هذا للتاميلية أو التيلوغو . ولست  
استطيع أن أنسى العطف الذي غرمني به اللرافيديون في جنوب إفريقية . فكلما  
التقيت صديقاً تاميلياً أو صديقاً من التيلوغو ذكرت ، أقوى ما تكون الذكري ،  
الإيمان والمواظبة والتضحية اللاذاتية التي تكشف عنها مواطنوه في جنوب  
إفريقية . ولقد كان معظمهم أميين ، الرجال منهم والنساء . كان النضال في  
جنوب إفريقية لأمثال هؤلاء ؛ ولقد نهض بعنه جنود أميون . كان نضالاً من  
أجل الفقراء ، ولقد شارك فيه الفقراء مشاركة كاملة . وعلى أية حال فإن جهلي  
لغتهم لم يكن قط عائقاً لي عن سلب أفئدة هؤلاء الرقيقين البسطاء الطيبين . كانوا  
يتكلمون هندستانية محطمة ، أو انكليزية محطمة ، ولم تكن نيجد عسراً في متابعة

حملنا : ولكنني كنت ارجب في ان اكاثهم على عطفهم بتعلم التاميلية والتياوغو ،  
 ولقد حققت بعض التقدم الغشيل في التاميلية ، كما قلت من قبل . أما في التياوغو ،  
 التي حاولت ان أتعلّمها في الهند ، فلم اوفق الى اكثر من حفظ الابدجيدية :  
 واخشى الآن ان اكون عاجزاً كل العجز عن تعلم هاتين اللغتين ، ومن أجل  
 ذلك أرجو ان يتعلم الدرافيديون اللغة الهندستانية : لقد كان غير المتكلمين  
 بالانكليزية من بينهم في جنوب افريقية يتكلمون الهندوسية او الهندستانية ، ولو  
 على نحو ضعيف . وكان الناطقون بالانكايزية هم وحدهم الذين ما كانوا  
 يتعلمون تلك اللغة ، وكان معرفة الانكليزية كانت عقبة تحول دون تعلم لغاتنا ،  
 ولكنني خرجت على الموضوع . فلأنه الآن قصة رحلي . إن عليّ أن اقدم الى  
 قرائي ربان الباخرة « بونفولا » . كنّا قد اصبحنا صديقين : وكانت احاديثنا  
 تدور حول الموضوعات الروحية اكثر مما تدور حول الموضوعات الملاحية ،  
 كان يرسم حداً فاصلاً بين الاخلاقية والايمان . وكانت تعاليم الكتاب المقدس  
 اشبه عنده بعبث الاطفال : إن جالها كامن في بساطتها . وكان يقول : فلزمن  
 للجميع « رجالاً ونساء واطفالاً » ، يسوع وتضحته وعندئذ 'يكفر' عن  
 خطيئاتهم من غير رب . وذكرني هذا الصديق بالأخ البلايموني في بريتوريا :  
 كان يعتقد بأن الدين الذي يفرض أيما قيود اخلاقية دين غير صالح . وكان  
 طعامي انباني هو المناسبة التي أدت الى هذا البحث كله . لماذا أمتنع عن اللحم ،  
 أو لحم البقر على الخصوص ؟ ألم يخلق الله جميع الحيوانات الدنيا لمتعة الجنس  
 البشري ، كما قد خلق المملكة النباتية مثلاً ؟ هذه الاسئلة قادتنا حتماً الى النقاش  
 الديني .

ولم يستطع احدٌ منا ان يقنع الآخر . كنت راسخ الاعتقاد بأن الدين والاخلاقية  
 مترادفان . ولم يكن لدى الربان شك في صدق اعتقاده المضاد .

وفي ختام الايام الاربعة والعشرين انتهت الرحلة الجميلة : وهبطتُ كلكتا  
 وانا ارحل العين بجبال «هولي» . وفي اليوم نفسه امتطيت القطار الى بومباي :

## ٢٥ . في الهند

وفي طريقي الى بومباي توقف القطار ، خساً واربعين دقيقة ، في الله آباد ، وقررت ان أفيد من هذه الفترة فأقوم بجولة في المدينة : وكان علي ايضاً ان اشترى دواء من بعض الصيدليات : كان الصيدلي نصف نائم ، فأخذ وقتاً غير طبعي في تركيب الدواء . فكان من نتيجة ذلك اني حين وصات الى المحطة كان القطار قد انطلق . وكان مندير المحطة قد تلطف فأخبر سير القطار دقيقة واحدة من اجلي . ولكنه حين وجد اني لم أُعد ، أمر بانزال امتعي ، في عناية ، من القطار .

واحتلت غرفة في فندق « كيلر » وقررت ان ابدأ العمل في الحال . كنت قد سمعت اشياء كثيرة عن صحيفة « البايونير » ( الرائد ) الصادرة في الله آباد ، وعلمت أنها تعارض الاماني الهندية . وأحب ان مسر تشبني كان هو محررها آنذاك . والواقع اني كنت راغباً في الحصول على مساعدة الاحزاب جميعاً ، وهكذا كتبت رسالة الى مسر تشبني اخبره فيها كيف فاني القطار ، وأسأله ان يعين لي موعداً لمقابلته بحيث يكون في ميسوري ان اغادر البلدة في اليوم التالي ، وعين لي ، في الحال ، موعداً . ولقد سعدت بهذه المقابلة كثيراً ، وبخاصة عندما وجدت أنه سمع لي في أناة . لقد وعدني بأن يشير في صحيفته الى ايامي قد أكتبه ، ولكنه اضاف قائلاً إنه لا يستطيع ان يعدني بتأييد جميع المطالب الهندية ، باعتبار انه مضطر الى ان يفهم وجهة نظر سكان المستعمرات ايضاً ويعطيها حقها من التقدير :

فقلت :

— « حبي ان تدرس المسألة وتناقشها في صحيفتك . أنا لا اطلب غير العدل الخالص الذي نستحقه . »

وانفقت بقية اليوم في جولة فقت بها في أرجاء المدينة ، معجباً بنقطة الالتقاء الرائعة للأهر الثلاثة ، واضعاً الحطة للعمل الذي ينتظرني .

هذه المقابلة غير المتوقعة مع محرر «الرائد» وضعت الأساس لسلسلة من الاحداث التي قادت ، اخيراً ، الى الاقتصاد مني بدون محاكمة ، في ناناال : ومضيت الى راجكوت مباشرة من غير ان اتوقف في بومبي . وبدأت أستخدم لكتابة كراسة حول الوضع في جنوب افريقية . واحتاجت كتابة الكراسة ونشرها شهراً تقريباً . كانت ذات غلاف اخضر ، واقدُ عُرِفَت في ما بعد بـ «الكراسة الخضراء» . وقد رسمت فيها صورة ملطقة ، عمداً ، لأحوال الهنود في جنوب افريقية . كانت اللغة التي اصطنعتها هنا اكثر اعتدالاً من تلك التي اصطنعتها في الكراستين اللتين اشرت اليهما من قبل ، اذ كنت اعرف ان الاشياء حين تُسمع من بعيد تبدو اكبر من حقيقتها .

وُطِبت عشرة آلاف نسخة ، وارسلت الى جميع الصحف والى زعماء مختلف الأحزاب . وكانت «الرائد» اول صحيفة علقت على الكراسة في مقال افتتاحي . وابرت «رويت» بخلاصة المقال الى انكلترا . وابرق مكتب رويتر في لندن بخلاصة المقال الى ناناال . ولم تكن تلك البرقية اطول من ثلاثة اسطر مطبوعة . كانت نسخة مصغرة ، ولكنها مغالى فيها ، للصورة التي رسمتها للمعاملة التي يلقاها الهنود في ناناال ، ولم تكن مصوغة بكلماتي . وسوف نرى في ما بعد الأثر الذي خلّفته في ناناال . وفي غضون ذلك علّقت جميع الصحف البارزة على المسألة تعليقات مطولة .

ولم يكن لإعداد هذه الكرايس للبريد أمراً يسيراً . ولقد كان جديراً به ان يكلف غالباً أيضاً لو اني استعنت على تغليفها وما اليه بمساعدتين مأجورين : ولكنني وقعت على خطة اكثر بساطة . فتد جمعت جميع الاطفال من ابناء الحي الذي نزلت فيه . وسألتهم ان يتذرعوا لتعمل ساعتين او ثلاث ساعات في الصباح ، حين لا يكون لديهم مدرسة . فوافقوا على ذلك في سرور . ولقد وعدتهم بأن أباركهم وبأن أعطيهم ، كمكافأة ، بعض الطوايع البريدية المستعملة التي كنت قد جمعتها . ولقد انجزوا العمل في وقت قصير جداً . كانت هذه اولي تجاربي في الافادة من الاطفال كمضطوعين . إن اثنين من هؤلاء الأصدقاء

الصغار هم من رفاقي في العمل اليوم .

وانتشر الطاعون في بومباي ، حوالى هذه الفترة ، وعم الذعر ارجاء البلاد كلها . كان ثمة خوف من انتشاره في راجكوت . واذ شعرت اني قد اكون ذا غناء في دائرة الصحة فقد قدمت خدماتي الى الولاية . وقُبلت خدماتي ، وعينت عضواً في اللجنة المؤلفة للدراسة المسألة . ووضعت نو كيداً خاصاً على نظافة المراحيض ، وقررت اللجنة مراقبة هذه المراحيض في كل شارع . ولم يعترض الفقراء على اخضاع مراحيضهم للمراقبة ، بل ادخلوا بعض التحسينات التي اقترحت عليهم . ولكن حين مضينا لمراقبة بيوت الأغنياء أبى بعضهم ان يسبحوا لنا بالدخول ، دع عنك رفضهم السماع لاقتراحاتنا . وكانت تجربتنا المشتركة تؤذن بأن مراحيض الاغنياء اشد قذارة . كانت مظلمة ننته مليئة بالقذر والديدان . وكانت التحسينات التي اقترحناها سهلة جداً ، كوضع العائط في دلاء بدلاً من تركه يسقط على الأرض ، وجمع البول ايضاً في دلاء بدلاً من تركه يسور في الأرض ، ونحطيم الحواجز الفاصلة بين الجدران الخارجية والمراحيض ، بحيث تنال المراحيض مقداراً اكبر من النور والهواء ، وبحيث يصبح في ميسور الزبال ان ينظفها تنظيفاً حسناً . والحق ان الطبقات العليا قدمت اعتراضات كثيرة على هذا التحسين الاخير ، وهو تحسين لم ينفذ في معظم الاحوال :

وكان على اللجنة ان تراقب أحياء المنبوذين ايضاً . ولم يوافق على مراقبتي انى هناك غير عضو واحد من اعضاء اللجنة . اما الآخرون فكانوا يعتقدون ان من المناقض للعقل والطبيعة ان يزوروا هذه الاحياء ، فكيف يفتشون مراحيضها ؟ أما انا فكانت تلك الاحياء مفاجأة مستحبة عندي . فقد كانت تلك اول مرة ازور فيها ذلك الجزء من المدينة ، ولقد دهش الرجال والنساء ، هناك ، لرؤيتنا وسألهم ان يميزوا لنا الفاء نظرة على مراحيضهم .

فصاحوا في دهش :

— « مراحيض في بيوتنا ! اننا نخفي ونقضي حاجتنا في افراء النطق ، المراحيض لكم ، أنتم الكبار ! »



فألتمهم :

- « حسنًا ، اذن هل نديكم مانع من القائنا نظرة على بيوتكم ؟ »  
- « اهلا بكم ، ياسيدي . في استطاعتكم ان تروا كل زاوية في منازلنا . ان  
منازلنا ليست بيوتاً . إنها جُحور . »

ودخلت هذه الجحور ، وقد سررتني ان أرى ان الاقسام الداخلية منها  
لا تقل نظافة عن الاقسام الخارجية . كانت مداخلها مكشّنة تكتيناً جيداً ، وكانت  
أرضيتها مطلية بروث البقر ، وكانت القدور والمقالي القليلة نظيفة لامعة . لم  
يكن ثمة خوف من انتشار الداء في تلك الاحياء .

وفي حي الطبقة العليا شهدنا مرحاضاً لا يستطيع الا ان اصفه في شيء من  
التفصيل . كانت لكل غرفة بالوعتها ، المستعملة للاء والبول جيباً ، مما جعل  
البيت عابقاً بالنّس . ولكن أحد البيوت كانت فيه حجرة نوم ذات طوابق ، وفي  
هذه الحجرة بالوعة تستعمل ميوّلة ومرحاضاً في وقت معاً . وكان للبالوعة  
أنبوب ينحدر الى الطابق السفلي . ولم يكن في ميسور المرء ان يحتمل الرائحة  
النجسة في هذه الغرفة . اما كيف كان في إمكان ماكن تلك الحجرة ان ينام  
هناك فذلك ما أتركه لخيال القراء :

وزارت اللجنة هيكل الفيشنافا أيضاً . كان الكاهن المسؤول عن ذلك الهيكل  
صديقاً حميماً لأسرتي . وهكذا أجاز لنا أن نلقي نظرة على كل شيء ، وان  
نقترح ادخال التحسينات التي نرغب فيها . كان ثمة جزء من اراضي الهيكل لم  
يسبق للكاهن أن رآه قط . كان هو المكان الذي تُطرح فيه ، من فوق الجدار ،  
النفايات واوراق الشجر التي اتخذوا منها صحوناً وأطباقاً . كان مأوى للغربان  
والحداة . وكانت المراحض قدرة طبعاً . ولم أطل المكث في راجكوت لأرى  
الى اي حد نفذ الكاهن مقترحاتنا .

وألني ان أرى هذه القنارة كلها حول بيت من بيوت العبادة . فالمرء يتروّع  
تزاماً دقيماً لقواعد علم الصحة في مكان يعتبره الناس مقدساً . وكان مؤلفو الـ  
« صهرتيس » كما عرفت حتى في ذلك العهد ، قد اكدوا مسألة النظافة الباطنية

والخارجية توكيداً عظيماً .

## ٢٦. نوحان من الهيام

لا أكاد أعرف أن أحداً كان يستشعر مثل الولاء الذي استشعرته أنا للدستور البريطاني . وفي استطاعتي الآن أن أرى أن جبي للحقيقة كان في جلدور ذلك الولاء . فلم يكن في ميسوري قط أن اثير الولاء أو أية فضيلة أخرى . كان النشيد الوطني البريطاني ينشد في كل اجتماع شهدته في نانال ، عندئذ شعرت أن عليّ أن أشارك في الانشاد . وليس معنى ذلك أنني ما كنت أعني مساوئ الحكم البريطاني ، ولكنني حببتُ أنه كان على الجملة مقبولا . في تلك الأيام كنت اعتقد أن الحكم البريطاني كان على العموم نافعا للمحكومين .

وحببت أن اتعصب ضد الملونين ، ذلك التعصب الذي رأيته في جنوب افريقية . مناقض كل المناقضة للتقاليد البريطانية . واعتقدت أنه ظاهرة موقفة ومحلية ليس غير . وهكذا باريت الانكليز في الولاء للعرش . وفي موازنة دقيقة تعلمت لحن النشيد الوطني وشاركت في إنشاده كلما انشد . وكلما سنحت فرصة للتعبير عن الولاء في غير ما ضجيج او تظاهر كنت اشارك فيها في سرور .

ولم استغل هذا الولاء في حياتي قط ، ولم أحاول في أيما يوم أن احقق به غرضاً أناثياً . كان اقرب الى ان يكون . في نظري ، واجباً يتبغي ادائه من غير ان اتوقع عليه جزاءً او شكوراً .

كانت الاستعدادات للاحتفال باليوبيل الماسي للملكة فيكتوريا قائمة على قدم وساق عندما وصلت الى الهند . ودعيت اني الانضمام للجنة المعبنة لهذا الغرض في راجكوت . قبلت الدعوى ، ولكنني خشيت ان تكون الاحتفالات مظاهرات فارغة في المحل الاول . ولقد تسدى لي فيها كثير من المخادعة ، فأبني ذلك إبلاماً شديداً . وبدأت اسأل نفسي ما اذا كان يتعين علي ان اظل في اللجنة ام لا ، ولكنني قررت آخر الامر أن أبقي وأن أقنع بالقيام بقسطي من تلك المهمة ،

وكان من بين المقترحات زرع بعض الاشجار . ورأيت ان كثيراً من الناس قاموا بذلك لمجرد التظاهر ، ولارضاء الموظفين . وحاولت ان اقنعهم بأن غرس الاشجار ليس إلزامياً ، وانه مجرد اقتراح . وقلت ان ذلك ينبغي ان يتم على نحو جدني وإلا فليس ينبغي أن يكون . ويخيل اليّ انهم سخروا من افكاري . واذكر اني كنت جاداً عندما زرعت الشجرة التي قدمت اليّ ، واني ستبتهاء بالماء وعينت بها عناية بالغة .

كذلك علّمت اولاد اسرتي النشيد الوطني . واذكر اني علمته لتلاميذ كلية الصنائع المحلية ، ولكنني نسيت هل كان ذلك لمناسبة اليوبيل أم لمناسبة تتويج الملك ادورد انسابع امبراطوراً للهند . وفي ما بعد بدأ ذلك النص يؤذني . وينا كان مفهومي للأهيمسا ( اللاعنف ) آخذاً في النضج ، امسيت أكثر تنبهاً لأفكاري وكنهاتي . كان في قول للنشيد

• فرق أعداءنا  
ولسقطهم  
أحبب سيانهم  
وأفسد حيلهم الماكرة •

ما آذى عاطفة اللاعنف عندي ، بخاصة . فأفضيت مشاعري الى الدكتور بوث ، فأقرني على انه ليس مما يلائم مؤمناً بالأهيمسا ان يشد هذه الايات . اذ كيف نفترض ان الذين ندعوهم « الاعداء » « ماكرون » ؟ أمحتوم عليهم ، لانهم اعداؤنا ، ان يكونوا على خطأ ؟ إننا نستطيع ان نطلب العدالة من الله وحده . وأيد الدكتور بوث مشاعري ، ونظم نشيداً وطنياً جديداً لمحفله اندبني . ولكنني سأفضل الكلام على اندكور بوث في ما بعد . وكانت ثمة نزعة الى التريية مغروسة ، كالولاء ، في اعماق طبعي . كنت مولعاً بتربية الناس ، سواء أكانوا اصدقاء او غرباء .

وفيما كنت مشغلاً في راجكوت بوضع الكرامة الخاصة بخنوب افريقية منحت لي فرصة القيام بزيارة خاطفة الى بومباي . كنت أعترم ان اتقف الرأي

للعام في المدن حول مسألة تنظيم الاجتماعات ، وكانت بومباي هي اول مدينة اخترتها : واجتمعت ، اول ما اجتمعت ، الى القاضي راينايد الذي اصاخ لي في انتباهه ، ونصحني بأن اجتمع الى السير فيروز شاه مهتا . وقدّم اليّ القاضي بدر الدين طيبيجي ، الذي اجتمعت به بعد اجتماعي بالقاضي راينايد ، النصيحة نفسها . وقال : « انا والقاضي راينايد لا نستطيع ان نرشدك إلا قليلاً . انت تعرف وهمنا . اننا لا نستطيع ان نقوم بدور فعال في الشؤون العامة ، ولكن عواطفنا معك . ان الرجل الذي يستطيع ان يقودك ، في فعالية : هو السير فيروز شاه مهتا . »

و كنت راغباً ، من غير شك ، في الاجتماع بالسير فيروز شاه مهتا ، ولكن كون هذين الرجلين الكبيرين اشاراً عليّ بالعمل وفقاً لنصيحته اعطاني فكرة أفضل عن السلطان المائل الذي يتمتع به السير فيروز شاه علي الجمهور . وفي الوقت المناسب ، اجتمعت به . و كنت مستعداً لأن يُلمّ بي الرعب في حضرته . ذلك اني سمعت بالألقاب الشعبية التي اكتسبها ، وعرفت اني على وشك أن أرى « أسد بومباي » ، و « ملك بومباي غير المتوج » . ولكن الملك لم يقهرني : يقد تلقائي كما يتلقى والد محب ابنه البافع . وإنما تم لقاءنا في مكتبه ، وكانت تحيط به حلقة من الاصدقاء والاتباع . وكان بينهم مسرد : إ . واتشا ، ومستر كاما ، اللذان قدّمتُ اليهما . و كنت قد سمعت بمسرد واتشا من قبل . كان يُعتبر مساعد السير فيروز شاه الأيمن ، وكان فيرتشاند غاندي قد قال لي انه إحصائي كبير . وقال لي مسرد واتشا : « غاندي يجب ان نجتمع مرة أخرى . » ولم يستغرق هذا التقديم كله غير دقيقتين . وأصاخ السير فيروز شاه اليّ في انتباهه . لقد اخبرته أنني اجتمعت بالقاضيين راينايد وطيبيجي . فقال : « غاندي ، يجبل اليّ أن من واجبي ان اساعدك . يجب ان ادعو اليّ عقد اجتماع عام هنا . » لفظ هذه الكلمات والفتت اليّ مسرد مونشي ، أمين السر ، وسأله أن يحدد موعد الاجتماع . واختير الموعد ، وودّعني ، طالباً اليّ ان أراه من جديد قبل الاجتماع بيوم واحد . وازالت المقابلة مخاوتي ، فحضيت الى البيت بتهيج الغرود .

وخلال مُقامي هذا في بومباي زرت اخا زوجتي الذي كان يعيش هناك ، وكان طريق الفراش . انه لم يكن رجلاً موسراً : ولم تكن اختي (زوجته) صالحة لتمريره . كان مرضه خطيراً ، ولقد اقترحت نقله الى راجكوت . فافترنا الاقتراح ، وهكذا عدت الى بيتي مع اختي وزوجها . وتطاول المرض اكثر مما توقعت بكثير . لقد انزلتُ ابن عمي في غرفتي وبقيت الى جانبه ليلاً ونهاراً : ولقد اضطررت ان اخل يقظان جزءاً من الليل ، وكان عليّ ان اقوم بشيء من عملي المتصل بقضية الهنود في جنوب افريقية وأنا اعنى بتمريره . يبدو أن المريض مالبث ان قضى نحبه ، ولقد كان عزاء كبيراً لي اني وجدت فرصة لتمريره في ايامه الاخيرة .

كان ميلي الى التمرير قد تطور شيئاً فشيئاً ، الى هيام ، وبلغ من استبداد هذا الهيام بي حداً كبيراً ما قادني الى اهمال عملي . ولقد كنت اليزم زوجتي ، بل وجميع من اظلمهم سقف بيتي ، بمثل هذه الخدمة ، بين الفينة والفينة . ومثل هذه الخدمة لا يمكن ان يكون لها اي معنى إلا اذا وجد المرء متعة فيها . أما حين تُسدى رياءً أو خوفاً من الرأي العام فانها تعوق الانسان وتسحق روحه . إن الخدمة التي تقدم في غير ابتهاج اعجز من ان تعود بالفائدة على أي من الخادم والمخدوم . ولكن جميع المتع والمفتنيات تهزل حتى العدم أمام الخدمة التي تُسدى في روح من الابتهاج .

## ٢٧ . اجتماع بومباي

وفي اليوم الذي تلا وفاة ابن عمي باللات تعين عليّ ان اذهب الى بومباي لأشهد الاجتماع العام . لم يكن لدي ايما متع من الوقت للتفكير في خطايي : وكنت اشعر اني خائر القوى بعد ايام وليال قضيتها في سهر لأهف ، وكان صوتي قد امسى اجش . وعلى اية حال فقد شخصت الى بومباي متكللاً على الله وحده : أنا لم احلُ قط بكتابة خطايي .

ورفقاً لتعليمات السير فيروز شاه ، قصدت الى مكتبه في الساعة الخامسة بعد الظهر ، من اليوم السابق للاجتماع .

وسألني :

— هل اعددت خطابك . يا غاندي ؟

فقلت وأنا ارتعد خوفاً :

— « لا يا سيدي . أنا افكر في ان اخطب ارتجالاً » .

— « هذا لا يصح في بومباي . إن وسائل الأبناء هنا رديئة . واذا اردنا ان

نفيد من هذا الاجتماع فيتمين عليك ان تكتب خطابك . وينبغي ان يكون مطبوعاً قبل فجر غد . ارجو ان تجد الوسيلة الى تحقيق ذلك » .

وشعرت بشيء من العصبية ، ولكنني قلت لاني سوف احاول .

— « واذن ، قل لي . متى ينبغي ان يجيئك مستر مونشي للحصول على

المخطوطة ؟ »

فقلت :

— « في الساعة الحادية عشرة ليلاً » .

وعند ذهابي الى الاجتماع في اليوم التالي رأيت الحكمة التي انطلوت عليها نصيحة السير فيروز شاه . وعقد الاجتماع في قاعة معهد السير كووارجي جيهانجير . وكنت سمعت ان القاعة كانت تنص دائماً بالمستمعين حين يخطب للسير فيروز شاه مهتاً — ومعظمهم من الطلاب المكثبين على الاستماع اليه — فلا يبقى فيها موطئ لقدم . وكان هذا اول اجتماع من نوعه عرفته في حياتي . لقد رأيت ان صوتي لن يستطيع ان ينتهي الى أبعد من بعض الصفوف الامامية . كان مرتعشاً حين بدأت اتلو خطابي . وشجعتي السير فيروز شاه على نحو موصول بأن راح يسألني ان ارفع صوتي أعلى فأعلت . وشعرت ان ذلك الصنيع جعل صوتي يغور أكثر فأكثر ، بدلاً من ان يفيدني جرأة وشجاعة .

وأقبل صديقي القديم السيد كبشافراو ديشباند الى نجدتي . لقد دفعت خطابي اليه . كان صوته هو الصوت الملائم تماماً . ولكن الجماهير رفضت ان

نسمع . ودوت القاعة بصيحات «واتشاه ، واتشاه» . وهكذا نهض مسرّ واتشاه وألقى الخطاب ، عبقراً نتاج باهرة : وسكنت الجواهر وكان عمل رؤوسها الطير ، وأصفت الى الخطاب حتى النهاية ، مقاطعة آياه بالتصفيق . وبصيحات «يا للعار !» عند الحاجة . وكان في ذلك ما أبهج قوّتي .

وأعجب السير فيروز شاه بالخطاب . وشعرت بسعادة بالغة .

وأكسبني الاجتماع عطقاً فعالاً من السيد ديشباند ومن صديق بارسي انردد في ذكر اسمه لأنه يحلّ اليوم منصباً حكومياً رفيعاً . ولقد عبّر لي كل منها عن عزمها على الذهاب معي الى جنوب افريقية . بيد ان مسرّ كورستجي الذي كان آنذاك قاضي المحكمة الابتدائية نفي الصديق البارسي عن عزمه ، اذ كان ينوي تزويجه . كان عليه ان يختار بين الزواج وبين الذهاب الى جنوب افريقية ، ولقد اختار الزواج . ولكن باسري رستمجي عوّض عن العهد المنكوث به ، وإن عدداً من الأخوات البارسيات ليعوضن اليوم عن ذلك بالنيابة على السيدة التي ساعدت على النكث بالعهد ، بأن وقعن انفسهن على صنع المنسوجات القطنية المحلية . من اجل ذلك ساعدت الرجل وزوجته في سرور . ولم يكن السيد ديشباند يفكر في الزواج ، ولكنه هو ايضاً لم يستطع أن يرحل معي . وهو اليوم يعوّض تعويضاً كافياً عن الوعد الذي لم يفي به . وفي طريق عودتي الى جنوب افريقية التقيت بأحد افراد اسرة طييجي في زنجبار . ولقد وعدني هو الآخر بأن يذهب ويساعدني ، ولكنه لم يذهب قط . إن مسرّ عباس طييجي يكفر اليوم عن هذه الخطيئة . وهكذا فان آياً من محاولاتي الثلاث لاغراء بعض المعامين بالذهاب الى جنوب افريقية لم تؤت ثمرة ما .

وهذه المناسبة أذكر مسرّ بستونجي بادشاه . لقد كنت على صداقة معه منذ مقامي في انكلترا . ولقد لقيته ، اولاً ، لقيته ، في مطعم نباتي في لندن . ولقد عرفت اخاه مسرّ بارجورجي بادشاه بلقب «المحور» الذي اشتهر به . ولم أجتمع اليه قط ، ولكن اصدقائي قالوا إنه كان شاذ الطبع . كان إشفاقه على الخيل يحول بينه وبين ركوب الترام ، لقد رفض ان يقبل الشهادات الجماعية

على الرغم من ذاكرته العجيبة ، وكان يتمتع بروح مستقلة ، وكان نباتياً ، برغم انه بارسى . ولم يكن لبستونجي مثل هذه الشهرة كلها ، ولكنه كان معروفاً بسعة العلم حتى في لندن : بيد ان القاسم المشترك بيننا كان التزعة النباتية ، وليس سعة العلم ، فضاهاته في هذا الميدان كانت شيئاً فوق طاقتي .

ووجدته كرة أخرى في بومباي . كان كبير المؤرخين في المحكمة العليا . وحين لقيناه كان منهماك في الأسهم بتأليف معجم كوجاراني عال . والواقع اني لم أدع صديقاً لم اطلب اليه المساعدة على عملنا في جنوب افريقية ، بيد أن بستونجي بادشاه لم يرفض مساعدتي فحسب ، بل لقد نصحتني بأن لا ارجع الى جنوب افريقية ايضاً .

لقد قال :

« من المتعذر عليّ ان أساعدك ، ولكني اقول لك اني لا احب مجرد ذهابك الى جنوب افريقية . هل ضاقت مجالات العمل في بلادنا ؟ انظر ، ان ثمة خدمة كبرى يمكن ان تؤدي الى لغتنا . إن عليّ ان أضع كلمات علمية . ولكن هذا فرع واحد من العمل ليس غير . فكّر في فقر الارض . إن مواطنينا في جنوب افريقية يعانون كثيراً من البلاء ؛ هذا امر لا شك فيه ؛ ولكني لا اريد ان يضحى رجل مثلك على مذهب ذلك العمل : فلنكسب الحكم الذاتي هنا أولاً وعندئذ نساعد أبناء وطننا هناك ، او توماتيكياً . انا أعلم اني لا استطيع ان اقنعك ، ولكني لن اشجع اي امريء من طرازك على الانضمام اليك : »

ولم أحب نصيحته ، ولكنها زادت من احترامي لمستر بستونجي بادشاه . لقد راغني حبه للوطن وللغة الأم : وكان في هذه الحادثة ما وثق علاقتي به . لقد كان في استطاعتي ان أفهم وجهة نظره . ولكني لم أطرح عليّ في جنوب افريقية ؛ على العكس ، لقد ازداد عزمي صلابة . إن الرجل الوطني لا يستطيع ان يتجاهل إما شعبة من شعب العمل على خدمة الوطن : ولقد كان قول «الجيتاه واضحاً عندي ومؤكداً :

« أخيراً ، لأن ينهض المرء بمهمته الخاصة



على قدر طاقته ، ولو أخفق ،  
خير له من أن ينهض بهام لم يخلق لها ولو كانت سالمة .  
إن موت المرء وهو يؤدي واجبه ليس شراً ،  
ولكن من يلتبس طرقات أخرى لا به أن يفضل ويهتبه .

## ٢٨ . بونا ومدراس

كان السير فيروز شاه قد مهّد في السبيل . وهكذا مضيت من بومباي الى  
بونا : وهناك كان حزبان اثنان . وكنت راغباً في مساعدة الناس على اختلاف  
آرائهم وظلال تفكيرهم . واجتمعت اول ما اجتمعت الى لوكامانيا تيلاك ،  
فقال :

— « انت مصيب في التماس المساعدة من جميع الاحزاب : فليس يمكن ان  
يكون ثمة خلاف في الرأي حول مسألة الهود في جنوب افريقية . ولكن ينبغي  
ان تختاروا لحركتكم رئيساً غير حزبي . اجتمع الى البروفسور بانداو كار . انه  
انقطع مؤخراً عن المشاركة في ايام حركة شعبية . ولكن هذه القضية قد تستهويه ،  
قابله ودعني أعلم ما يقول . انا اريد ان اساعدك الى اقصى حد . ولا ريب في  
انك سوف تجتمع الي ساعة نشاء : انا تحت تصرفك . »  
كان ذلك هو اول اجتماع تم بيني وبين لوكامانيا تيلاك . لقد كشف لي عن  
سر شعبيته الفريدة .

وبعد ذلك اجتمعت الى غوكهايل . لقد قابله في كلية فريغيمون ، فرحب  
بمي ترحيباً حنوناً ، وسرعان ما استحوذت طريقته على ذواذي . وكان هلم هو  
اجتماعي الاول به ايضاً ، ومع ذلك فقد بدا لي وكأننا نجد صداقة قديمة : كان  
السير فيروز شاه قد بدا لي اشته شيء بهمالايا ، وكان لوكامانيا أشبه شيء  
بالأوقيانوس . اما غوكهايل فكان كنهر الغانج : إن في استطاعة المرء ان ينعم  
بحمام منعش في النهر المقدس : ان جبال همالايا بمنفعة على الناس . وليس في  
استطاعة المرء أن يلقي بنفسه في مياه البحر ، ولكن نهر الغانج يدعو المرء الى

صدره. كان من المبهج ان يندفع المرء فوق مياحه في مركب ومجلف. وفحصني غوكهايل فحسناً دقيقاً ، فعلمَ المدرس الذي يفحص مرشحاً بلمس الدخول الى احدى المدارس : ولقد داني على اولئك الذين يتعين عليّ ان اتصل بهم ، وسألني أن أطلعهُ على خطابي. وظاف بي ارض الكلية ، وأكد لي أنه دائماً تحت تصرفي ، وسألني ان احيطه علماً بنتيجة اجتماعي بالدكتور بانداركار ، ووجهني مستبشراً متهاطلاً. وفي نطاق السياسة كانت المنزلّة التي احتلها غوكهايل ، في فؤادي خلال ايام حياته ، والتي لا يزال يحتلها حتى في هذه الساعة ، فريدة بكل ما في الكلمة من معنى .

استقباني الدكتور بانداركار بمثل لفظة الأب . وإنما زرته وقت الظهيرة . ولقد كان في مجرد انهماكي في مزاولة الناس في مثل تلك الساعة ، ما راق الى ابعاد الحدود في عيني هذا العالم الجاد الذي لا يعرف التعب ، وقد حظي إلحاحي على ترؤس رجل غير حزبي للاجتماع موافقته السريعة ، التي عبر عنها بقوله على نحو عفوي : « هو ذاك ! هو ذاك ! » وبعد ان سمع الى حديثي قال :

- « ان كل امريء ليخبرك اني لا أشارك في السياسة . ولكني لا استطيع ان اردّ دعوتك . إن قضيتك باللغة القوة ، وان اجتهادك رائع الى درجة يتعذر عليّ معها ان احجم عن المشاركة في اجتماعكم . لقد احسنت صنعاً في التشاور مع تيلاك وغوكهايل. ورجائي اليك ان تخبرهما اني سوف اكون سعيداً برؤس الاجتماع الذي سيعقد برعايتهما المشتركة . ولست في حاجة الى ان تسألني تحديد موعد الاجتماع . فأما وقت يناسبها يناسبني . » قال ذلك ، وودّعني محملاً ابائي تهنئته وبركانه .

ومن غير ما ضجيج على الاطلاق عقدت هذه العصبة الواسعة العلم ، المنكرة للذات ، العاملة في بونا ، اجتماعاً في مكان صغير متواضع ، فأدخلوا البهجة الى فؤادي وزادوني ثقة برسائي .

ومضيت بعد ذلك الى مدراس . كانت تلفتها عاصفة من حماسة . وكان

حادث بالاسوندارام قد ترك انطباعة عميقة في نفوس الذين شهدوا الاجتماع ؛ كان خطابي قد طبع ، وكان في نظري طويلاً جداً . ولكن افراد النظارة أصاحوا الى كل كلمة في انتباه . وعند انتهاء الاجتماع تراحم الناس على شراء « الكتاب الاخضر » . واخرجتُ طبعة ثانية منقحة عدد نسخها عشرة آلاف ؛ فراجت رواجاً عجبياً ، ولكني رأيت انه لم يكن من الضروري أن اطبع مثل هذا العدد الضخم . كنت ، في غمرة من حماسي ، قد غليت في تقدير رغبة الناس في الكتاب . فقد كان خطابي موجهاً الى الجمهور الناطق بالانكليزية ، ولم يكن في وسع هذه الفئة وحدها ، في مدراس ، ان تستهلك العشرة آلاف كلها .

وتلقيت اعظم العون من المرحوم السيد ج. باراميشفاران بيلاي محرر صحيفة ال « مدراس ستاندرد » . كان قد قام بدراسة واسعة للمسألة ، وكثيراً ما كان يدعوني الى مكتبه ويزودني بنصائحه . كذلك كان السيد ج. سوبرامانيام من صحيفة « الهندوسي » والدكتور سوبرامانيام عاطفين جداً . ولكن السيد ج. باراميشفاران بيلاي وضع اعمدة ال « مدراس ستاندرد » كلها تحت تصرفي ، ولقد أقدمت أكثر ما تكون الافادة من هذا العرض . كان الاجتماع الذي عُقد في « قاعة بانثيا بابا » على ما استطيع ان اذكر ، برئاسة الدكتور سوبرامانيام .

وغمرني معظم الاصدقاء الذين لقيتهم بالحنان ، وكانت حماسهم للقضية عظيمة الى درجة جعلتني - برغم انه كان عليّ ان اتصل بهم باللغة الانكليزية - أشعر وكأنني في بيتي . وهل ثمة حاجز يعجز الحب عن تحطيمه ؟

## ٢٩ . ارجع في الحال !

ومن مدراس شخصتُ الى كلكتا حيث وجدت نفسي محاطاً بضروب المصائب . لم اكن أعرف احداً هناك . وهكذا نزلت في غرفة من غرف « الفندق

الشرقي الكبير . ، وهنا تعرفت الى مستر ايلبرثورب : مندوب « الدايلي تلغراف » . ودعاني الى « النادي البنغالي » حيث كان ينزل . ولم يكن يدرك ، آنذاك ، انه لا يجوز ادخال رجل هندي الى حجرة الاستقبال في النادي . حتى اذا اكتشف هذا القيد اصطحبني الى غرفته . وعبر لي عن اسفه لهذا التعصب الذميم الذي يديه الانكليز المحليون ، واعتذر لعدم تمكنه من ادخالي الى حجرة الاستقبال .

وكان عليّ ، طبعاً ، ان ارى سوراندرانات بانيرجي ، « معبود البنغال » ، وحين لقيناه كان محاطاً بعدد من الاصدقاء . قال :

— « اخذ ، ان لا يهتم الناس بعملك . فأنت تعرف ان مصاعبنا هنا ليست قليلة بحال . ولكن عليك ان تبذل قصارى جهدك . ان عليك ان تخطي بعطف المهرجات ، وان تتصل بممثلي « الجمعية البريطانية الهندية » . كذلك يتعين عليك ان تجمّع الى الراجا السير بياريموهان موكارجي ، ومهراجا تاغور : إن كلاهما منها ذو عقل متحرر ، وهما ينهضان بقسط صالح من العمل الشعبي » .

واجتمعت الى هذين الرجلين ، ولكن على غير طائل : فقد استقبلني كل منهما استقبالا بارداً ، وقال انه ليس من السير عقد اجتماع شعبي في كلكتا ، واذا كان في الامكان عمل شيء ما فإن ذلك كله رهن بمشيئة سوراندرانات بانيرجي .

ورأيت ان مهمتي أخذت تزداد عسراً . وزرت مكتب صحيفة الـ « آمريتا بازار بانيركا » ، فحسبني الرجل الذي لقيته هناك يهودياً ناثماً . اما صحيفة الـ « بانغاباسي » فذهبت الى ابعد من ذلك . لقد ابقاني محررها ساعة انتظره كان لديه ، من غير شك ، مراجعون كثيرون ، ولكنه استكثر ان ينظر الي مجرد نظرة حتى بعد ان ودّعه سائر الزائرين . حتى اذا غامرت فستت موضوعي مسأ رقيقاً بعد ذلك الانتظار الطويل قال : « ألا ترى ان ابدنا مملأ ؟ ليس هناك نهاية لعدد الزائرين أمثالك . كان من الأفضل ان تنصرف . انا لست ميالاً الى الاستماع لك » . وشعرت ، طوال لحظة ، اني أهيت ، ولكنني فهمت ، في الحال

وضع المحرر . كنت قد سمعت بشهرة الـ « بنغابامي » ، وكان في استطاعتي ان ارى ان ثمة ميلاً من الزائرين . وكانوا كلهم من معارفه . لم تكن صحيفته في حاجة الى موضوعات اضافية تعالجها ، وكانت جنوبي افريقية شبه مجهولة آنذاك .

فهما تكن الظلامه خطيرة في عيني الرجل الذي يعانيتها فإنه لا يعدو ان يكون واحداً من مئات الناس الذين يغزون مكتب الصحافي ، وقد حمل كل منهم ظلامته الخاصة . فكيف يستطيع المحرر ان يلبي رغباتهم جميعاً ؟ والى هذا ، فان الفريق المتظلم يتخيل ان المحرر قوة في البلد . ولكنه هو وحده يعرف ان سلطانه نادراً ما تتجاوز عتبة مكتبه . ومع ذلك ، فاني لم اياس . لقد واصلت الاجتماع الى محرري الصحف الاخرى . وكالعادة ، اجتمعت الى محرري الصحف الانكليزية الهندية أيضاً . وادركت صحيفتنا الـ « ستيتسمان » والـ « انجلشمان » اهمية القضية ، وقدّمت اليها احاديث طويلة ، فنشرناها كاملة .

والواقع ان مستر ساوندروز ، محرر الـ « انجلشمان » ، وضع مكتبه وصحيفته تحت تصرفي . بل لقد منحني الحرية في اجراء ايما تعديل أرغب فيه في المقالة الرئيسية التي كتبها تعليقاً على المسألة ، وبعث اليّ بتجارها المطبوعة مقدماً . وليس من المبالغة ان اقول ان صداقة نشأت بيننا . ولقد وعد بأن يقدم اليّ كل عون يستطيعه ، ووفى بوعده وفاء كاملاً ، وظل يرأسني حتى اقعده المرض .

لقد نعمت ، طوال حياتي ، بكثير من مثل هذه الصداقة التي نبئت على انموذج غير متوقع بالكلية . وكان الذي أعجب مستر ساوندروز في بعدي عن المغالاة واخلاصي للحق . لقد اخضعني لاستجواب قاسٍ قبل ان عطف على قضيتي ، وقد رأى اني لم ادخر وسعاً في عرض هذه القضية له ، بل في عرض قضية الرجل الابيض نفسه في جنوب افريقية وتقديرها ، عرضاً نزيهاً غير حزبي .

لقد علمتني تجربتي اننا نكسب للعدالة على نحو اسرع إذا انصفنا الفريق الآخر .

وكانت مساعدة مستر ساوندروز غير المتوقعة قد بدأت تشجيني على التفكير

بأنني قد أوفى الى عقد اجتماع شعبي في كلكتا ، عندما تلقيت البرقية التالية من  
دوربان :

— « البرلمان يُفتح في كانون الثاني . إرجع في الحال » .

وهكذا وجهت رسالة الى الصحافة شرحت فيها السبب الذي من اجله يتعين  
عليّ ان اغادر كلكتا على ذلك النحو المفاجيء ، وانطلقت الى بومباي . وقبل  
انطلاقي ، أبرقت الى وكيل شركة دادا عبدالله في بومباي ليتولى قطع تذكرة لي  
في أول سفينة مبحرة الى جنوب افريقية . وكان دادا عبدالله قد اشترى منذ فترة  
قصيرة الباخرة « كورلانده » وأصرّ على سفرى على متن هذه الباخرة ، عارضاً  
نقلي ونقل اسرتي مجاناً . وقبلت العرض في امتنان ، وفي مطلع كانون الأول  
( ديسمبر ) ابهرت كرتة ثانية الى جنوب افريقية ، تصحبني هذه المرة زوجتي  
وولداي ، وابن اخني الارملة الوحيد . وكانت باخرة اخرى ، « ناديري » ،  
قد ابهرت الى دوربان في الوقت نفسه ، وكان وكلاء الشركة دادا عبدالله  
وشركاءه . ولا ريب ان مجموع المسافرين على هاتين السفينتين كان نحواً من ثمانمئة ،  
نصفهم كانوا يقصدون الى الترانسفال .



# قِصَّةُ تَحْيَا رُبِّي مَعَ الْحَقِيقَةِ

الْقِسْمُ الثَّالِثُ





## ١. زمجرة العاصفة

كانت هي اول رحلة اقوم بها مع زوجتي وولدي. ولقد أشرت غير مرة، في سياق هذه القصة، الى ان الزوج كثيراً ما يكون، بسبب من الزواج الاطفالي بين الطبقة الوسطى من الهندوس، على شيء من الشفقة في حين تظل زوجته أمية تقريباً. وهكذا فان برزخاً عريضاً يفصل ما بينهما، ويتعين على الزوج ان يصبح معلّم زوجته. من اجل ذلك كان عليّ ان افكر في تفاصيل الملابس التي ينبغي ان ترتديها زوجتي وولداي، والطعام الذي ينبغي ان يأكلوه، والعادات التي تلائم محيطهم الجديد. ان من الطريف ان يلقي المرء نظرة ارتجاعية على ذكريات تلك الايام.

ان الزوجة الهندوسية تعتبر ان الخضوع الكامل لزوجها هو الدين الاسمي، والزوج الهندوسي يعتبر نفسه سيد زوجته التي يتعين عليها ان تعنى به عناية موصولة مطلقة.

واعتمدت، في تلك الايام التي أتحدث عنها، ان علينا - لكي نبدو متمدنين - ان نجعل ملابسنا وعاداتنا اقرب شيء الى النمط الاوروبي. لأنني "حسيت" اننا لن نعلم بشيء من التفرد الا من هذه الطريق، ولن يكون في وسعنا، من غير نفوذ، ان نخدم الجالية.

وهكذا قررت زيّ الملابس لزوجتي وولدي. وهل كان في ميسوري ان اجعل الناس يعرفون انهم من كاثياواد، ومن طائفة البانيا؟ وكان البارسيون

يُعتبرون ، آنذاك ، أكثر شعوب الهند تمدناً ، فلما بدا لي الزي الأوروبي غير ملائم ، خلعت عليهم الزي البارسي . وهكذا ارتدت زوجتي « ساري » Sari بارسياً ، وارندى ولداي السرة والسرّوال للبارسين . وليس من ريب في أن أحداً لا يمكن أن يستغني عن الاحذية والجوارب ، ولقد انقضت فترة طويلة قبل أن تألف زوجتي وولداي . كانت الاحذية تضايق اقدمامهم ، وكانت الجوارب تُننن بالعرّاق . وكثيراً ما تقرّحت اصابع القدم . وكانت اجونتي على هذه الاعتراضات جاهزة دائماً . ولكنني اعتقد ان سلطانني عليهم ، لا تلك الاجوبة ، هو الذي كان يُقنعهم . ووافقوا على هذا للتغيت في اللبس ، اذ لم يكن لهم مناص من ذلك . وبالروح نفسها ، بل وبقدّر أكثر من التبرّم ، اخذوا انفسهم باستعمال الشوكة والسكين . وحين تلاشي افتتاني بامارات المدينة هذه أقلموا عن اصطناع الشوكة والسكين . وبعد ان ألقتُ الزي الجديد دهرأ طويلاً لم يكن يسيراً عليّ ان اعود الى الزي الأصلي . ولكنني استطيت ان ارى اليوم أننا نستشعر قدراً اعظم من الحرية والنشاط حين نطرح بهرج « المدينة » .

وكان معنا ، على متن الباخرة نفسها ، بعض الانبياء والمعارف . وكنت كثيراً ما ألتقي هؤلاء المسافرين وبغيرهم من الركاب على ظهر السفينة ، لأنني كنت اتمتع بحرية الطواف بجميع ارجاء السفينة ، بسبب من أن مالكيها هم اصدقاء موكلتي .

واذ كانت الباخرة متجهة الى نانال مباشرة ، من غير ان تضطر الى التوقف في هذا المرفأ او ذاك ، فان رحلتنا لم تستغرق أكثر من ثمانية عشر يوماً . ولكن ربّما هوجاء ما لبثت ان فاجأتنا ، وكأنها تخفروننا من العاصفة الحقيقية التي تنتظرنا على اليابسة ، ونحن على مبعده اربعة ايام من نانال ليس غير . ان كانون الاول ( ديسمبر ) هو شهر صيفي من شهور الرياح الموسمية في نصف الكرة الجنوبي ، ومن هنا فإن الاعاصير الكبيرة والصغيرة شيء مألوف في البحار الجنوبية في ذلك الفصل . وكانت العاصفة التي فاجأتنا عنيفة جداً ومتطاولة جداً حتى لقد دب الذعر في نفوس الركاب : كان مشهداً مهيباً . لقد اصبح الجميع رجلاً واحداً

في وجه الخطر المشترك . لقد نسوا أخلاقهم ، وبدأوا يفكرون في الأله الواحد : مسلمين ، وهندوساً ، ونصارى وغيرهم . ونذر بعضهم نذوراً مختلفة . واشترك الربان مع المسافرين في صلواتهم . فقد أكد لهم انه — على الرغم من ان العاصفة لم تكن خلواً من الخطر — عرف في حياته العملية عواصف أسوأ . وأوضح لهم ان الباخرة المنشأة انشاءً مكيناً قادرة على الصمود لجميع الحالات الجوية تقريباً . ولكن توكيدات الربان عجزت عن التخفيف من روعهم . فكل دقيقة كنا نسمع اصواتاً وقرقعات تؤذن بحدوث فروج وصدوع . واهتزت السفينة ودارت الى حدٍّ بدت معه وكأنها ستتقلب في ايام لحظة ، رأساً على عقب : ولم يكن ثمة مجال لأن يبقى احد على ظهر السفينة . وكانت الشفاه كلها تهتف بعجالة « ما شاء الله كان » ليس غير . ولا شك ان أربعاً وعشرين ساعة تقريباً كانت قد انقضت علينا ، في ما اذكر ، ونحن في غمرة من ذلك البلاء . واخبراً صَحَّتِ السماء ، وأطلت الشمس ، وقال الربان ان العاصفة قد انحسرت ، وأشرقت وجوه الناس بالبشر ، وبزوال الخطر زال اسم الله عن شفاههم . وانغمس الناس من جديد في الاكل والشرب والغناء والطرب . لقد ولى الخوف من الموت ، وحلت اليأس والامام . محل النزعة الموقفة الى الصلاة المخلصة . لقد أدى كثير من المسافرين ، طبعاً ، الصلوات المعتادة في مواقيتها ، ولكنها كانت خلواً من جلال تلك الساعة الراهية .

يبد ان العاصفة كانت قد مزجتني بالمسافرين مزجاً . أنا لم اخش الأعصار إلا قليلاً . لاني سبق ان عرفت اعاصير كثيرة مماثلة . ثم لاني «ملاح» بارع ، لا يعرف الدوار ميلاً الى رأسي . وهكذا كان في ميسوري ان انتقل في غير ما خوف بين المسافرين حاملاً اليهم الطمانينة والتشجيع ، ولأقلاً اليهم ، ساعة بعد ساعة ، تقارير الربان . والواقع ان الصداقة التي انشأتها على هذا النحو افادتني

---

• **Maya** كلمة شهيرة في الفلسفة الهندوسية . وهي تكاد تمنع كل الترجمة . ولكنها تترجم عادة بـ « الوهم » و « الغرور الخادع » . (المغرب)

كثيراً كما سوف نرى .

وألفت السفينة مراسبها في مرفأ دوربان في اليوم الثامن عشر أو اليوم التاسع عشر من كانون الاول ( ديسمبر ) . وكذلك وصلت الباخرة « ناديري » الى ذلك المرفأ في اليوم نفسه .

## ٢ . العاصفة

لقد رأينا ان السفينتين ألتتا المراسي في مرفأ دوربان في اليوم الثامن عشر من شهر كانون الاول ( ديسمبر ) او نحو ذلك . والواقع انه ليس يُجاز للمسافر ان يهبط ابداً من مرانيء جنوب افريقية قبل ان يُخضع لفحص طبي دقيق . فاذا ما كان على متن السفينة مصاب بأحد الأمراض السارية فأن عليها ان تساخ فترة معينة من الحجر الصحي . واذا كان ثمة ، يوم ابخرنا ، طاعون يفتك بأبناء بومباي فقد خشينا ان نُخضع لحجر صحي قصير . وقبل الفحص كان يتمين على كل سفينة أن ترفع علماً اصفر لا يُنزل إلا بعد ان يشهد الطبيب انها مأمية . وليس يُجاز لانساب المسافرين واصدقاتهم أن يقدوا الى متن السفينة إلا بعد انزال العلم الاصفر .

وهكذا فقد كانت باخرتنا ترفع العلم الاصفر عندما اقبل الطبيب وفحصنا . لقد أصدر امره بحجز السفينة خمسة ايام لأن جراثيم الطاعون تحتاج ، في رأيه ، الى ثلاثة وعشرين يوماً على الاكثر حتى تنمو ، وهكذا فقد اخضعت سفيتنا لحجر صحي حتى اليوم الثالث والعشرين لأبحارنا من بومباي . ولكن هذا الحجر كانت تكمن وراءه اسباب اخرى غير السبب الصحي :

كان سكان دوربان البيض قد هاجوا احتجاجاً على اعادتنا الى البلاد ، وكان هياجهم هذا أحد الاسباب التي دفعت الى اصدار الأمر بالحجر الصحي . وواصلت شركة حادا عبدالله اطلاقنا ، يوماً ، على ماجريات الاحوال في المدينة . كان

البيض يعقلون كل يوم اجتماعاً ضخماً . وكانوا يوجهون مختلف ضروب التهديدات الى شركة دادا عبدالله . بل لقد حاولوا في بعض الاحيان اغراءها بصنوف المغريات : كانوا على استعداد لأن يعرضوا على الشركة اذا ما اعيدت الباختران من حيث جاءتا . ولكن أركان شركة دادا عبدالله لم يكونوا قوماً يهابون التهديد . كان الشيث عبدالكريم حاجي آدم مديراً للمؤسسة آنذاك . وكان مصمماً على إرساء السفينتين عند رصيف الميناء ، وعلى إنزال الركاب الى البر بأي ثمن . كان يرسل اليّ يوماً رسائل مسهبة . ومن حسن الطالع ، أن المرحوم السيد مانسوخلان نازار كان آنذاك في دوربان : إذ شخص الى هناك للاجتماع بي . كان مقتدراً ، وشجاعاً لا يعرف الخوف ، وكان يقود الجالية الهندية ، وكان عمامي الجالية ، مترلافتون ، رجلاً لا يقلّ عنه شجاعة وامتناعاً على الخوف . لقد شجب مسلك المقيمين البيض ، وقدم نصائحه الى الجالية ، لا كمحام يتقاضى اجوره فحسب ، بل كصديق مخلص ايضاً :

وهكذا أصبحت دوربان مسرحاً لمبارزة غير متكافئة : ففي جانب كان حفنة من الخود الفقراء ، وقليل من اصدقائهم الانكليز ، وفي الجانب الآخر كان البيض وهم اقرباء في السلاح ، والعبد ، وفي الثقافة ، والثروة . وكان هؤلاء البيض يتمتعون بتأييد الحكومة ايضاً ، ذلك لأن حكومة النائال ساعدتهم على نحو مكشوف . ليس هذا فحسب ، بل إن مستر هاري ايسكومب ، اكثر اعضاء الوزارة نفوذاً ، كان يشارك في اجتماعاتهم جهاراً .

واذن فقد كان الغرض الحقيقي من الحجر الصحي إكراه المسافرين على العودة الى الهند من طريق اربابهم بطريقة ما ، او ارباب الشركة الوكيلة : ذلك ان التهديدات أمست تُوجّه اليّنا نحن ايضاً : « اذا لم ترجعوا فليس من ريب في اننا سوف نلقي بكم في البحر . ولكن اذا وافقتم على العودة ، فقد تسردون ثمان تذاكر السفر . ورحت انتقل ، على نحو موصول ، بين زملائي المسافرين اشجعهم وأقوي من معنويتهم . كذلك وجهت رسائل تشجيع الى ركاب الباخترة « نادبري » . واحتفظوا جميعاً بهدوئهم وشجاعتهم .

ونظمتنا جميع ضروب الالعب ، على متن السفينة ، لتسلية الركاب : وفي عهد الميلاد دعا الربان مسافري « الصالون » الى الغداء : وكنت انا وامرأتي أبرز المدعوين . وفي الخطب التي القيت عقب المأدبة تحدثتُ عن الحصار الغربية : كنت أعلم ان تلك المناسبة لم تكن صالحة لالقاء خطاب جدّي : ولكن خطابي ما كان يمكن أن يكون شيئاً غير ذلك : وشاركتُ في اللهو ، ولكن فؤادي كان في غمرة الصراع الناشب في دوربان . ذلك اني كنت انا الهدف الحقيقي : وكانت ثمة تهتان موجهتان اليّ :

- (١) أنني يوم كنت في الهند هاجمت ابناء ناتال البيض هجوماً ظالماً ؛
- (٢) أنني : بقصد اغراق ناتال بالهنود ، قد تعمّدت الاتيان بركاب الباخرتين جميعاً للاستقرار هناك :

كنت واعياً ومسؤوليتي . وكنت أعلم ان شركة دادا عبدالله قد تعرضت لأخطار كبيرة من اجسلي ، وأن حيوات المسافرين كانت في خطر ، واني عرضت امرتي ، باصطحابي اباها في هذه الرحلة ، للخطر ايضاً .

ولكنني كنت بريئاً براءة تامة . فأنا لم أغر احداً بالذهاب الى ناتال . وما كنت أعرف المسافرين عندما امتطوا متن السفينة : وباستثناء عدد قليل جداً من الانبياء ، لم اكن أعرف اسم شخص واحد من مئات المسافرين وعنوانه . ثم انني لم اقل ، خلال الايام التي قضيتها في الهند ، كلمة عن البيض في ناتال لم اقلها قبل ذلك في ناتال نفسها . وان لديّ "لأدلة" دامغة على كل ما قلت :

وهكذا رثيتُ للحضارة التي كان المقيمون البيض في ناتال يُعمرها ، والتي كانوا يمثلونها ويدافعون عنها . كانت هذه الحضارة ماثلة في ذهني ابداً ، ومن أجل ذلك بسطت آرائي في ما يتصل بها في الخطاب الذي القيته خلال ذلك الاجتماع الصغير . وأصفي الربان ، والاصدقاء الآخرون ، اليّ في أناة وروية ، واستقبلوا خطابي بالروح التي التي بها ، ولست أعرف انه اثر ، بأمة طريقة ، في مجرى حياتهم ، ولكنني تحدثت في ما بعد أحاديث طويلة مع الربان واعوانه حول حضارة الغرب : وكنت قد ذهبت في خطابي الى ان الحضارة الغربية على

خلاف الحضارة الشرقية ، قائمة في الاعسم الاغلب على اساس من القوة ؛  
وأطروني بضروب الاسئلة ؛ واذكر ان الربان قال لي :

- لنفرض ان البيض نفذوا وعيدهم ، فكيف تلتزم مبدأك النائل  
باللاعنف ؟

فأجبت قائلاً :

- ارجو ان يمنحني الله الشجاعة والحصافة لكي اغفر لهم وأحجم عن  
مقاضاتهم . انا لست حاقداً عليهم . كل ما في الامر اني ارثي لجهلهم وضيق  
تفكيرهم . اني اعلم انهم يؤمنون ايماناً صادقاً بأن ما يفعلونه اليوم هو حق وعدل .  
ومن اجل ذلك فلت أجد سبباً يدعوني الى الحقد عليهم .

وبسم السائل . ولعله تبسم في ارتياب .

وهكذا تقضت الايام واهنة متطاولة . كنا ما نزال نجعل مني يتهمي المحجر  
الصحي . وقال القيم على المحجر ان المسألة قد خرجت من يديه ، وانه سوف  
يجيز لنا النزول الى الياسة حالما يتلقى الأوامر من الحكومة .

واخيراً وجّهت الانذارات اليّ والى ركاب الباسخرة . لقد طلب اليّ ان  
نلعن ، لبقاء على ارواحنا . وفي الجواب الذي قدّمته انا والركاب على هذا  
الطلب تمسكنا بحقنا في النزول الى مرفأ نانال ، واعلنا عزمنا على دخول نانال  
مهما كلف الامر .

وعند انتهاء الايام الثلاثة والعشرين أجاز لنا ان ندخل المرفأ ، وصدرت  
الأوامر التي تجيز للركاب النزول الى الياسة .

### ٣. الامتحان

وهكذا دخلت السفينتان الحوض ، وبدأ الركاب يهبطون الى الياسة . ولكن  
مسرّاً يسكوب كان قد ارسل كلمة الى الربان يقول فيها انه لما كان البيض  
حاقدين عليّ حقداً عظيماً يجعل حياتي في خطر فن الحير ان اهبط انا واسرتي



الى الياسة مع الغنى وعندئذ يصبحنا مدير المرفأ ، مسير قاتوم ، الى البيت ، وأعلمني الربان بمحتوى الرسالة . فوافقت على العمل وقها . ولكن لم تكند تنقضي على ذلك نصف ساعة حتى وفد مسر لافتون على الربان وقال : « احب ان آخذ مسر غاندي معي ، اذا لم يكن ثمة اعتراض . وبوصفي المستشار القانوني للشركة الركابة أسألك ان لا تنفذ الرسالة التي تلقيتها من مسر ايسكومب » ، وبعد ذلك أقبل علي وقال شيئاً مثل هذا : « اذا لم تكن خائفاً ، فأنا اقترح ان تركب السيدة غاندي والاطفال متن عربية ما ويقصدوا الى بيت رستمجي ، على أن اتبعهم أنا وأنت سيراً على الاقدام . انا لا أحب على الاطلاق فكرة دخولك الى المدينة مثل اللص في الظلام . ولست اعتقد ان ثمة ايما خوف من ان يؤذيك احد : كل شيء هادئ الآن . ولقد تفرق البيض كلهم . ولكن أياً ما كان الامر فأنا مقتنع بأنه ليس ينبغي لك ان تدخل المدينة خلسة » ، ووافقت على هذا الرأي في الحال : وامتطت زوجتي والاولاد متن عربية الى بيت مسر رستمجي ، فبلغوه في سلام . وبأذن من الربان هبطت الى الشاطئ مع مسر لافتون . كان بيت مسر رستمجي يقع على مبعده ميلين ، تقريباً ، من الحوض ، وما ان وطننا البر حتى عرفني بعض الغلمان فراحوا يصيحون : « غاندي ! غاندي ! » واندفع نحو من نصف دزينة من الرجال ، تقريباً ، الى المكان وشاركوا في الصباح . وخشي مسر لافتون ان يتعاطم الحشد ، فعدعا عجلة ركوب يجرها رجل . ولم أحب في يوم من الايام ركوب عجلة من هذا الضرب . فقد كانت هذه هي تجربتي الاولى . ولكن الغلمان لم يسمحوا لي بأن ادخل العجلة . لقد روعوا الغلام الذي يجر العربية وهددوه بالقتل فولى هارباً ، وفيما نحن ننقدم ، كان الحشد يتعاطم اكثر فاكثرت حتى أصبح من المستحيل علينا ان نواصل سيرنا . لقد أمسكوا قلى كل شيء بمسر لافتون وفصلوا ما بيننا . ثم لانهم رجمونني بالحجارة ، واللين ، والبيض الفاسد . وانتزع امرؤ عماني ، في حين شرع آخرون بوسوني ضرباً ورفساً . وأغمي علي ، وأمسكت بالدرابزون الأمامي من احد البيوت ووقفت هناك لاستعيد انفاسي . ولكن ذلك

كان مستجيلاً . قد انقضوا عليّ بلكموني وبضربوني . وانفق ان كانت زوجة مدير الشرطة ، التي تعرفني ، مارة آنذاك في الطريق . فتقدمت السيدة الشجاعة وفتحت مظلتها ، على الرغم من احتجاب الشمس في تلك اللحظات ، ووقفت بيني وبين الحشد . وكبح هذا من جماح غضبة الحشد ، بعد ان امسى من المتعذر عليهم توجيه الضربات اليّ من غير ان يؤذوا مسر ألكسندر :

وفي غضون ذلك كان شاب هندي من الذين شهدوا الحادث قد هرع الى مخفر الشرطة . فوجه مدير البوليس ، مسر ألكسندر ، ثلة من الرجال للحمايتي وإصالي الى منزلي . ولقد وصل هؤلاء الرجال في الوقت المناسب . كان مخفر الشرطة واقفاً على طريقنا . وحين وصلنا الى هناك سألتني مدير البوليس ان اتخذ من المخفر ملجأ ، ولكنني اعتنرت شاكراً . وقلت : « لا ريب في انهم سيركنون الى السكينة حين يدركون خطأهم . انا واثق من حسن الانصاف عندهم . » وواكبني فريق من رجال الشرطة ، فوصلت الى بيت مسر رستمجي من غير أن يصيبي اذى اضافي . كان جسي مليئاً بالرضوض ، ولكنه لم يعرف الخدوش إلا في موطن واحد . وقدّم اليّ الدكتور داديارجور ، طبيب السفينة ، الذي كان على مقربة مني ، افضل عون ممكن .

كان الهدوء ينجم على الداخل ، أما في الخارج فقد طوق البيض المنزل . كان الليل قد هبط وكان الحشد الهائج يصيح : « نريد غاندي ! » وكان مدير الشرطة الحافظ البصر قد وصل الى هناك ، وراح يحاول السيطرة على الحشد ، لا من طريق التهديد ، بل من طريق التسلية والابهاج . ولكنه لم يكن متحسراً كل التحرر من القلق . لقد بعث اليّ برسالة مفادها : « اذا اردت ان تنقذ بيت صديقك وتملكاته وان تنقذ أسرتك ايضاً ، فبتعين عليك ان تفرّ من البيت خلسة . هلمّا ما أفرحه عليك . »

وهكذا واجهت في يوم واحد وضعين متناقضين . فحين لم يكن الخطر على حياتي اكبر من شيء ومهي نصحتني مسر لافتون بأن امضي لسبيلي في وضع للنهار . ولقد قبلت نصيحتة . وحين كان الخطر حقيقياً ، قدّم اليّ صديق

آخر نصيحة مناقضة ، فقبلتها ايضاً . ومع ذا الذي يستطيع ان يحرر هل فعلت ذلك لاني رأيت حياتي في خطر أم لاني لم ارد ان اعرض حياة صديقي وممتلكاته لو حياة زوجتي والاطفال للخطر ؟ من ذا الذي يستطيع ان يقول ، وانثا ، اني كنت على صواب في الموقفين جميعاً : حين واجهت الحشد في المرة الاولى بشجاعة ، كما ذكر ، وعندما فررت من وجهه متنكراً ؟

من العبث الذي لا طائل نحته ان نقول اننا كنا على خطأ أو صواب في القيام بعمل ماضٍ . ولكن من المفيد ان ندرس هذه الاحداث ، وان نتعلم منها ، اذا أمكن ، درساً للمستقبل . ومن العسير ان نقول ، في يقين ، كيف يتصرف رجل معين في إطار من الظروف معين . وفي استطاعتنا ان نرى ايضاً ان الحكم على المرء من تصرفه الخارجي ليس اكثر من استنتاج يكتفه الشك ، باعتبار انه غير مبني على وقائع كافية .

وأياً ما كان ، فان الاستعداد للهرب جعلني أنسى ما أنزل بي من أذى ، ونزولاً عند اقتراح مدير الشرطة ارتديت بزة بوليس هندي واعتمرت بوشاح مدراسي ، ملفوف حول طبعي من اطباق الطعام كان من المفروض ان يقوم مقام الخوذة . ورافقتي اثنان من رجال الشرطة السرية ، احدهما متنكر في زي تاجر هندي ، وقد صُيغ وجهه لكي يشبه وجوه الهنود . أما الآخر فنسبت في اي زي تنكّر . وساكننا زقاقاً ضيقاً انتهى بنا الى دكان مجاور ، ثم مضينا عسبر اكياس الخيش الحشن المركومة في المستودع ، وفررنا من باب الدكان ، وشققنا طريقنا وسط الحشد الى عربة كانت قد كُلفت بانتظارني عند أقصى الشارع . وبذلك العربة انطلقنا الى مخفر الشرطة نفسه الذي عرض عليّ مسر الكسندر اللجوء اليه قبل برهة قصيرة ، فشكرته وشكرت الشرطين السريين . وفيما كنت أفرّ على هذا النحو ، كان مسر الكسندر قد ألهى الحشد بأنشاد هذا اللحن :

• اشفقوا غاندي المجور  
على شجرة التفاح الحامضة ! •

وحين أبلغ نبأ وصولنا سالمين الى المخفر أذاع ذلك على الحشد قائلاً :  
« حسناً ، إن غريمكم قد ولى هارباً من خلال دكان مجاور . من الخبير لكم ان  
تذهبوا الى بيوتكم الآن . »  
وغضب بعض القوم ، وضحك بعضهم ، ورفض آخرون ان يصدقوا  
الحكاية .

فقال مدير الشرطة :

— « حسناً اذن ، اذا كنتم لا تصدقونني ففي استطاعتكم ان تختاروا مندوباً  
او مندوبين فأتولى أنا ادخالهما الى المنزل : فاذا عمروا عليه هناك فمندئ أسلحه  
اليكم في سرور . أما اذا لم يعثروا عليه ، فيتعين عليكم ان تفرقوا . انا واثق من  
انكم لا تعتزمون تحطيم بيت مسر رستمجي ، او انزال الأذى بزوجة مسر  
غاندي وأولاده . »

ورجعه القوم مندوبتهم لختيش المنزل : وسرعان ما رجعا يحملان انباء غير  
سارة . وتفرق الحشد اخيراً ، ومعظمهم معجب ببراعة مدير الشرطة في التأني  
للموقف ، وقليل منهم متناظ حائق .

وأبرق مسر تشمبرلن الذي كان آنذاك وزيراً للمستعمرات ، يسأل حكومة  
ناتال ان تحيل المعتدين الى القضاء . واستدعاني مسر ايسكومب ، واعرب لي عن  
أسفه للاذى الذي نزل بسي ، وقال : « صدقني ، انا لا يمكن ان أكون سعيداً  
حين يلحق بشخصك اقل اذى . كان من حقلك أن تقبل نصيحة مسر لافتون  
وتواجه أسوأ الحالات ، ولكني واثق من انك لو عملت برأيي لما حدثت هذه  
الأحداث المحزنة : واذا كان في استطاعتك ان تتعرف على المعتدين فأنا اعلن  
استعدادي لالقاء القبض عليهم واحالتهم الى القضاء . ان مسر تشمبرلن يريدني  
ان افعل ذلك ايضاً : »

فأجبت عن ذلك قائلاً :

— « انا لا اريد ان أقيم الدعوى على أحد . في ميسوري ان أتعرف واحداً  
او اثنين منهم ، ولكن اي فائدة ترجى من معاقبتهم ؟ والى هذا ، فانا لا ألوم

المعتدين . فقد أدخل في رؤوسهم اني ادليت ، في الهند ، بتصرّيات مقالٍ ليها  
عن البيض في نانال وأنّي شتمتهم . فاذا صدقوا هذه الأقاويل فلا عجب اذا ما  
استبد بهم الغضب : ان الرعاء ، واذا أجزت لي ان أقول ، إنك انت أيضاً ،  
يجب ان تتحملوا تبعه ما حدث . كان في ميورك ان توجه الشعب توجيهاً  
صحيحاً ، ولكنك انت أيضاً صدقت « رويتر » وافترضت اني تورطت في  
المبالغة : انا لا اريد ان اؤنب أحداً . وانا واثق من انهم سوف يندمون على  
تصرفهم حين تتجلى الحقيقة .

فقال مستر ايسكومب :

« هل لديك ما يحول دون تقديم هذه الاقوال اليّ تحريراً ؟ ذلك لأنني  
سوف ابرق الى مستر تشبرلن بهذا المعنى . انا لا أريدك ان تتعجل اعطاء رأي  
رأي . وفي استطاعتك ، اذا شئت ، ان تستشير مستر لافتون وأصدقاءك الآخرين  
قبل ان تتخذ قراراً نهائياً . ومع ذلك ، فقد استطيع القول انك اذا تنازلت عن  
حقك في مقاضاة المعتدين ساعدتني مساعدة كبيرة على اقرار الأمن ، فضلاً عن  
السمعة الطيبة التي يكسبك اياها مثل هذا الموقف . »  
فقلت :

« أشكرك : لست في حاجة الى ان أستشير أحداً . لقد اتخذت قراري في  
هذه المسألة قبل ان أقابلك . أنا مصمم على عدم الاقتصاص من المعتدين ، وانا  
مستعد في هذه اللحظة لافراغ قراري هذا في صيغة مكتوبة : »  
قلت ذلك وأعلنت موقعي كتابةً .

#### ٤ . الهدوء بعد العاصفة

ودعيت بعد يومين من مغادرتي مخفر البوليس الى مقابلة مستر ايسكومب ،  
لقد أرسل شرطيان لحمايتي ، على الرغم من انه لم تكن ثمة حاجة لمثل هذه  
الوقاية .

ويوم نزولنا الى البر ، بعد انزال الراية الصفراء مباشرة ، كان قد أقبل مندوب من صحيفة « ناثال آدفرتايزر » للتحدث معي . كان قد طرح عليّ هدداً من الاسئلة ، وفي الجواب كنت قد استطلعت أن أدحض جميع التهم التي وُجّهت اليّ ، والواقع أنني لم ألتجئ في الهند غير خطب مدوّنة ، والفضل في ذلك هائد الى السير فيروز شاه مهتا ، وكنت احتفظ بنسخ منها كلها ، كما كنت احتفظ ايضاً بكتاباتني الأخرى . وكنت قد قدّمت الى الصحافي هذه الوقائع كلها ، واظهرت له اني لم اقل - في الهند - شيئاً لم يسبق لي قوله في جنوب افريقية بلغة اقوى واعنف . كذلك كنت قد اظهرت له انه لم تكن لي أي يد في الاتيان بركاب الـ « الكورلاند » والـ « ناديري » الى جنوب افريقية . فكثير منهم كانوا مستوطنين قدماء ، ومعظمهم لم يكونوا يعترمون البقاء في ناثال ، وانما كانوا يبتغون الرحلة الى الترانسفال . ففي تلك الايام كانت الترانسفال تقدم فرصاً أفضل من تلك التي تقلمها ناثال ، الى القادمين التماساً للثروة ، وهكذا كان معظم الهنود يؤثرون الذهاب الى هناك .

هذه المكافحة الصحفية ورفضى اقامة الدعوى على المعتدين أحدثا انطباعاً عميقة جداً في الرأي العام حتى لقد خجل اوروبيو دوربان من مسلكهم . وأعلنت الصحافة اني بريء وشجبت تصرف الغوغاء . وهكذا انتهى اعتداء الجمهور عليّ الى ان يكون نعمة لي ، أعني نعمة للقضية . لقد عزز مكانة الجالية الهندية في جنوب افريقية وجعل عملي أكثر يسراً .

وبعد ثلاثة أو اربعة ايام ، مضيت الى متزلي . وصرعان ما استقررت ككرة أخرى . لقد عززت الحادثة مركزي كمحامٍ ايضاً .

ولكن اذا كانت تلك الحادثة قد رفعت من مقام الجالية ، فأما اذكت نار الحقد عليها ايضاً . فما إن ثبت بالدليل ان الهندي قادر على خوض غمرات المعركة في شجاعة حتى اخذ القوم يعتبرونه خطراً عليهم . وقدّم مشروعاً قانون الى مجلس ناثال التشريعي ، احدهما يهدف الى وضع العراقل في وجه التاجر الهندي ، والآخر يهدف الى فرض قيود صارمة على الهجرة الهندية . ومن حسن الطالع ان

معرفة حق الانتخاب كانت قد اسفرت عن قرار يقول بأنه لا يجوز من قانون ضد الهنود بوصفهم هنوداً ، يعني ان القانون يجب أن لا يميز بين الناس على اساس اللون او العرق . والواقع ان لغة مشروع القانون الآتفي الذكر صيغت في قالب ينطبق على الجميع ، ولكن كان واضحاً من غير ريب انهما مدفا الى فرض قيود جديدة على الهنود المقيمين في نانال .

وزاد مشروع القانون من نشاطي في حقل الخدمة العامة ، وجعلنا الجالية اكثر تحسناً بواجبها من انما وقت مضى . لقد تُرجا الى اللغات الهندية و تُشرحا شرحاً وافياً ، بحيث نترك الجالية مضامينها الدقيقة . واستنصرنا وزير المستعمرات ، ولكنه رفض التدخل ، فأسمى المشروعان قانوناً .

وكان العمل في حقل الخدمة العامة قد بدأ ، الآن ، يستغرق معظم وقتي : وأقبل السيد مانزوخلال نازار ، الذي كان كما قلت من قبل في دوربان ، أقبل للاقامة معي . واذ انفق وقته كله للعمل العام ، فقد خفف من العبء الملقى على عاتقي الى حد بعيد :

وكان الشيث آدجي مياخان قد أدى مهمته ، في اثناء غيابي ، على افضل وجه : كان قد أكثر عدد الاعضاء ، و اضاف نحواً من الف جنيه استرليني الى صندوق مؤتمر نانال الهندي . وسعيت للافادة من البقطة الناشئة من مشروع القانون ، ومن التظاهرة ضد ركاب الباخرتين - اقول سعيت للافادة من هذا كله بأن وجهت نداء الى الهنود دعوتهم فيه الى الانضمام الى المؤتمر وتأييده بالموارد المالية ، التي بلغت الآن خمسة آلاف جنيه استرليني . وكنت راغباً في ان اضمن للمؤتمر مورداً مالياً دائماً ، بحيث يستطيع شراء ملك خاص به ، ثم يواصل عمله من ريع ذلك الملك . كانت هذه أولى تجاربي في ادارة المؤسسات العامة . وعرضت اقتراحي على زملائي في العمل ، فرحبوا به . وأجير العقار الذي اشتريناه ، فكان ريعه كافياً لتغطية نفقات المؤتمر الجارية . ثم ان انفجار سُبُجَل باسم هيئة قوية من الأمناء ، وهو لا يزال قائماً هناك ، بيد أنه أسمى مصدراً لكثير من النزاع المهلك ، مما أدى الى ان يتجمع ريعه الآن في دار العدل :

هذه الحالة المحزنة نشأت بعد مغادرتي جنوب افريقية ، ولكن فكري  
القائلة بحاجة المؤسسات العامة الى موارد ثابتة كان قد طرأ عليها التغير قبل ان  
ينشأ هذا الخلاف بكثير . واليوم ، بعد تجارب واسعة قمت بها في ادارة كثير من  
المؤسسات العامة ، اصبحت أعتقد اعتقاداً جازماً بأنه ليس من الخير ان يكون  
للمؤسسات العامة ممتلكات يُنفق ريعها الثابت عليها : ان الربح الثابت يعمل في  
ذات نفسه بذرة انهيار المؤسسة المناقبي . ان المؤسسة العامة هي مؤسسة تدار  
بموافقة ، وبأموال ، الجمهور : وحين تستفي هذه المؤسسة عن التأييد الشعبي  
تكون قد فرّطت بحقها في الحياة . والمؤسسات التي تحيا على موارد ثابتة كثيراً  
ما تُنشأ لتجاهل الرأي العام ، وكثيراً ما تكون مسؤولة عن اعمال مناقضة لذلك  
الرأي العام . ونحن نعلم هذا ، في بلادنا ، كيفاً اتجهنا . فبعض المؤسسات التي  
ندعى هيئات دينية قد انقطعت عن تقديم بيان بحساباتها : لقد اصبح الامناء عليها  
مالكيتها ، فهم غير مسؤولين أمام أحد . ولست اشك في ان الوضع الأمثل هو  
ان تحيا المؤسسة العامة ، كاتطبعة ، من يوم الى يوم . والمؤسسة التي تعجز عن  
كسب تأييد الجمهور لا حق لها في الحياة كمؤسسة . والاشراكات التي تتلقاها  
مؤسسة ما ، سنوياً ، هي امتحان لشعبيتها ولأمانة المشرفين عليها ، وانا اؤمن  
بأن على كل مؤسسة ان تخضع لهذا الامتحان . ولكن يحسن بالقارىء ان لا  
يسيء فهمي . فلاحظاني لا تنطبق على الجمعيات التي لا تستطيع ، بحكم طبيعتها  
نفسها ، ان تُدار من غير أبنية دائمة . كل ما أقصد قوله ان النفقات الجارية  
ينبغي ان تُصرف من الاشتراكات التي يتطوع الاعضاء بدفعها عاماً بعد عام :  
وأيدت هذه النظرات خلال ايام « الساتياغراها » في جنوب افريقية : فقد  
قنا بتلك الحملة الرائعة ، التي دامت ست سنوات ، من غير موارد مالية دائمة ،  
على الرغم من انها كانت تحتاج الى مئات الآلاف من الروبيات . واستطيع أن  
اذكر أياماً كنت فيها لا أعرف ما الذي سوف يحدث في اليوم التالي اذا لم تردنا  
اشراكات ما . ولكنني لن استبق الحوادث المقبلة . وسوف يجد القارىء ما

« الساتياغراها » : هي تطبيق سياسة اللاعنف .



يُثبت رأيي هذا في الحكاية التالية :

## ٥. تربية الاولاد

عندما هبطت الى اليابسة في دوربان ، خلال شهر كانون الثاني (يناير) ١٨٩٧ ، كان معي ثلاثة اولاد : ابن اخي البالغ عمره عشر سنوات ، وابنائي البالغ عمر احدهما تسع سنوات وعمر الآخر خمس سنوات . فأين كان علي أن أعلمهم ؟

كان في ميسوري ان أبعث بهم الى المدارس الخاصة بالاطفال الاوروبيين ، ولكن على سبيل التلطف والاستثناء ليس غير . إن ايــــاً من الاطفال المنزود الآخرين ما كان يُسمح له بالانتساب اليها . ذلك انها كانت مدارس أنشأتها الارساليات المسيحية ، ولكني لم اكن مستعداً لارسال اولادي الى هناك ، لأنني لم اكن احب الثقافة التي تنشرها تلك المدارس . فقد كانت لغة التعليم فيها هي الانكليزية وحدها ، وربما كانت لغةً نائية أو هندية غير صحيحة ، وهذا ايضاً ما كان يمكن الحصول عليه إلا في صعوبة . ولم يكن في ميسوري ان تحمل هذا وغيره من المساوىء . وفي غضون ذلك ، كنت أقوم بمحاولة قصدتُ بها الى تعليمهم بنفسي . ولكن ذلك كان ، في احسن احواله ، عملاً غير نظامي ، ولقد عجزت عن الوقوع على معلم كوجاراتي مناسب :

واشدت حيرتي وارتابكي : ونشرت في بعض الصحف اعلاناً طلبت فيه مدرساً انكليزياً يعلم اولادي تحت اشرافي . وكان على هذا المدرس ان يقدم اليهم بعض التعليم النظامي ، أما في ما تبقى فقد نعتن عليهم ان يقتنعوا بالقابل الذي استطعت ان اعلمهم اياه على نحو غير نظامي . وهكذا استأجرت مربية انكليزية بسبعة جنيهات في الشهر . ودام ذلك فترة من الزمن ، ولكنه لم يُرضني . واكتب الاولاد بعض المعرفة باللغة الكوجارانية من طريق حديثي معهم واتصالي بهم ، اذ كان ذلك كله يتم باللغة الأم دون غيرها . وكنت اكراه اعادتهم الى الهند ، ذلك بأنني اعتقدت - حتى في ذلك الوقت - ان الاولاد الصغار يجب ان لا

يفصلوا عن آبائهم : فالترية التي يرثفها الاطفال في بيت حسن التنظيم متعلدة في مدرسة داخلية . وهكذا اقيت اولادي معي : والواقع اني كنت قد ارسلت ابن اخي وابني البكر الى بعض المدارس الداخلية ، في الهند ، حيث قضيا بضعة اشهر ، ولكني سرعان ما سألتهما ان يعودا . وفيما بعد انفصل ابني البكر عني - وكان قد شب عن الطوق منذ فترة طويلة - ومضى الى الهند للالتحاق بمدرسة ثانوية في أحمد آباد : ونجبل الي أن ابن اخي كان راضياً بما استطعت ان اقدمه اليه . ولكنه توفي - لسوء الحظ - في ميعه الصبا بعد مرض وجيز : اما اولادي الثلاثة الآخرون فلم يدخلوا الى مدرسة عامة قط ، على الرغم من انهم حصلوا على شيء من التعليم النظامي في مدرسة مرتجلة انشأها لابناء المشتركين في حركة « الساناغراها » في جنوب افريقية .

هذه التجارب كانت كلها غير ملائمة . فانا لم أستطع أن أقف لتعليم الأولاد كل الوقت الذي رغبت في منحهم اياه . وكان في عجزني عن الاهتمام بهم اهتماماً كافياً وفي اسباب أخرى لم يكن من سبيل الى اجتنابها ، ما حال بيني وبين تزويدهم بالثقافة الأدبية التي وددت أن أشر بهم إياها ، ولقد كانت لجميع أولادي شكاوى عليّ من هذه الناحية . فكلما صادفوا من يحمل شهادة « استاذ في العلوم ، أو « بكالوريوس في العلوم » بل من يحمل شهادة التريكيوليشن كان يبدو وكأنهم يستثمرون العائق الناشيء عن عدم تمتعهم بثقافة مدرسية .

وعلى اية حال فانا أعتقد اني لو ألححتُ على تثقيفهم في المدارس العامة اذن لحرموا من التدريب الذي لا يستطيع تزويدهم به غير مدرسة الاختبار ، او الاحتكاك الموصول بالوالدين . واذاً لما كنت متحرراً ، شأني اليوم ، من القلق على نجاحهم في الحياة ، ولما كان في استطاعة التربية الاصلطناعية الجدير بهم ان يحصلوا عليها في انكثرة او جنوب افريقية ، لو فُصلوا عني - أقول ، لما كان في استطاعة هذه التربية ان تعلمهم البساطة وروح الخدمة التي يتكشّفون عنها في حياتهم اليوم ، على حين أن طرائق عيشهم المنكفة كان من الجائز ان تكون حقبة خطيرة تعوقني في عملي الشعبي . وهكذا ، فعلى الرغم من اني لم اوفق الى

إعطائهم تربية ادبية ترضيهم او ترضيني ، فليست واثقاً كل الثقة - حين أُرَجِّعُ البصرَ الى سنواتي الماضية - اني لم أقم بواجبي نحوهم على افضل ما تجيزه لي قدرتي . كذلك لست آسفاً لعدم ارسالي اياهم الى المدارس العامة . لقد شعرت دائماً ان الخصائص ، غير المرغوب فيها ، التي أراها اليوم في ابني الاكبر هي صدى لحياتي الباكرة غير الخاضعة لنظام وحيفة : اني اعتبر ذلك العهد فترة معرفة فجأة وانغماس في الجهالة ، ولقد تطابق مع اكثر سنوات ابني الاكبر تأثراً واستعداداً لتقبل الانحاء ، وكان طبيعياً ان يرفض اعتباره فترة ضلالي وقلة اختباري . لقد اعتقد ، على عكس ذلك ، انه ألع عهد في حياتي ، واعتقد ان التغيرات التي طرأت في ما بعد راجعة الى الوهم ، الذي مخطئون فيدعونه تنوراً . ولماذا يتعين عليه ان لا يفكر ان سنواتي الاولى تمثل فترة يقظة ، وان سنوات النخبر الجلدي المتأخرة تمثل سنوات الغرور والاعجاب بالذات ؟ وكثيراً ما واجهني اصدقاائي بأسئلة مختلفة : أي اذى كان يمكن ان يحدث لو اني اعطيت اولادي ثقافة اكااديمية ؟ بأي حق اقدمت على قصر اجنحتهم على هذا النحو ؟ لماذا اعترضت طريقهم وحللت بينهم وبين الفوز بشهاداتهم الجامعية واختيار مهنتهم بانفسهم ؟

ولست أعتقد ان في هذه الاسئلة صواباً كثيراً : فقد احتككت بعدد كبير من الطلاب : ولقد حاولت انا بنفسي ، او من خلال الآخرين ، ان افرض « نزعاني » التربوية على اولاد غير اولادي ايضاً ، ورأيت نتائج ذلك . فانا اعرف اليوم عدداً من الشباب الذين يُعتبرون لذات او أتراباً لا اولادي . ولست احب ان احداً منهم افضل من احد من اولادي ، او ان على اولادي ان يتعلموا اشياء كثيرة منهم :

ولكن النتائج المطلقة لتجاربي لا تزال في رحم المستقبل : وانما اهدف من مناقشة هذا الموضوع هنا الى ان أقدم لدارس تاريخ الحضارة نوعاً من القياس للفارق بين تربية البيت القائمة على الضبط والنظام وبين تربية المدرسة ، وكذلك للآثر الذي تتركه التغيرات الطارئة على حيوات الآباء في نفوس الأبناء . إن الفرض

من هذا الفصل إظهار المدى الذي يساق اليه طالب الحقيقة بدافع من تجاربه مع الحقيقة، وإطلاع طالب الحرية على التصحيحات التي تقتضيها تلك الالاحة العنيدة. ولو قد كنت خلواً من روح الاحترام الذاتي ولو اكتفيت بأن أقدم لاولادي التربية التي كان الاولاد الآخرون عاجزين عن الحصول عليها اذن لحرمتهم من الدرس العملي في الحرية واحترام الذات الذي قدّمته اليهم على حساب التدريب الادبي. وحيث يتمن الاختيار بين الحرية والثقافة، من ذا الذي لا يقول ان الأولى يجب ان تفضّل الف مرة على الثانية ؟

ان الشبان الذين استنفرتهم عام ١٩٢٠ من معازل العبودية هذه - مدارسهم وكلياتهم - والذين نصحتهم بأن بقاءهم امين وتكسیرهم الحجارة من اجل الحرية افضل بكثير من طلبهم الثقافة الأدبية وهم مكبلون بأصفاد العيد - أقول إن هؤلاء الشبان قد يكون في مقدورهم الآن ان يرجعوا نصيحتي الى مصدرها.

## ٦ . روح الخلعة

وازدهرت اعمالی ، كمحام ، ازدهاراً مرضياً ، ولكن ذلك ما كان له أن يُرضيني . وكانت مسألة تبسيط حياتي اكثر فأكثر ، واسداء خدمة حقيقة الى اخواني في الانسانية تشغل بالي على نحو موصول عندما طرق بلبب بيتي رجل مجلوم . فرق له فؤادي ، وأبى عليّ ان اصرفه من غير ما دعوة الى الطعام ، وهكذا قدّمت اليه مأوى يقني اليه ، وضمدت جراحاته ، وأخذت احسّ بأمره ، ولكنني لم استطع أن اقيم على ذلك الى ما لا نهاية . فلما كنت أطيع إيقاعه معي دائماً ، كانت الارادة تعوزني . من أجل ذلك ارسلك الى مستشفى الحكومة الخاص بالعمال المشتغلين بالتعاقد .

ولكنني ظلمت أعمالي القلبي . كنت تأنفاً الى القيام بعمل انساني ذي طبيعة باقية . وكان الدكتور بوث رئيس ارسالية القديس «ايدان» . وكان رجلاً كريم القلب يعالج مرضاه مجاناً . والواقع انه كان في الأمكان ، بفضل تبرعات بارسي

رستمجي ، فتح مستشفى خيرى صغير بأدارة الدكتور بوٲ . وامشعرت رغبة قوية في ان انقض بجانب من عبء التمريض في هذا المستشفى . وكانت مهمة تركيب الأدوية تستغرق ما بين ساعة وساعتين يوماً ، وهكذا عزمت على اقتطاع هذا الوقت من عملي المكتبي ، لكي يكون في ميسوري ان أقوم بمهمة مركب ادوية في الصيدلية الملحقة بالمستشفى . كان معظم عملي في الحمامة مكتبياً : دراسة صكوك الملكية والاهتمام بأمرور التحكيم . وكان لدي طبعاً بضع دعاوى في المحاكم ، ولكنها في معظمها كانت ذات صفة غير خلافية أو جنائية . وكان مسر خان ، الذي لحق بي الى جنوب افريقية ، والذي كان يشاطرنى منزلي آنذاك ، يتولى أمرها اثناء غيابي . وهكذا وجدت متعباً من الوقت للخدمة في المستشفى الصغير . وكان ذلك يقتضي إنفاق ساعتين كل صباح ، تستغرقها تلك الخدمة وذهابي الى المستشفى وابابي منه . والواقع أن هذا العمل أوقع في فؤادي بعض الطمأنينة . كان قوامه التثبت من شكاوى المريض وبسط الوقائع أمام الطبيب ، وتركيب الوصفات . ولقد جعلني ذلك على صلة وثيقة بالمتألمين من الجنود ، ومعظمهم عمال متقاعدون ، بعضهم من التيلوغو ، وبعضهم الآخر من التاميلين ، ومن ابتاء الهند الشمالية .

وأفادني هذا الاختبار فائدة جلي عندما عرضتُ خدماتي ، خلال حرب البوير ، للإشراف على صحة الجرحى والمرضى من الجنود .

وكانت مسألة تنشئة الاطفال ماثلة دائماً امامي . كان لي ولدان أبصرا النور في جنوب افريقية ، وكانت خدمتي في المستشفى مُعينة لي على حل مشكلة تنشيتهم . وكانت روحي المستقلة مصدراً للتجربة لا ينضب . وكنت قد عزمت ، انا وزوجتي ، على الاستعانة بأحسن ما يستطيع الطب تقديمه من خدمات ، عندما يحين وقت المخاض . ولكن اذا شاء الطبيب وشاءت المرضة تركنا في مأزق ، في اللحظة الحاسمة ، فما الذي يتعين علي ان أفعله ؟ واذن ، فلا بد من ان تكون المرضة هندية . وفي استطاعة المرء ان يتخيل صعوبة الفوز بمعرضة هندية مدربة في جنوب افريقية من مجرد تفكيره بصعوبة ذلك في الهند نفسها . وهكذا

درست الاشياء الضرورية للمخاض الأمين : فقرأت كتاب الدكتور تريوفاندا « نصيحة الى أم » ، وعُنيّت بتربية صغيري وفقاً للتعليمات التي نصّ عليها ذلك الكتاب ، وكثيراً ما كنت أمزجها ببعض التجارب التي اكتسبتها من مواطن أخرى . وأندت من خدمات بعض الممرضات - ولكن طوال مدة لا تزيد على شهرين في كل مرة - لمساعدة زوجتي في الدرجة الأولى ، وليس من أجل العناية بالطفلين ، اذ كنت أقوم بهذه المهمة بنفسني .

وواجهتني ولادة ابني الاخير باختبار ليس أقسى ولا أعنف . لقد جاءها المخاض فجأة . ولم يكن في الامكان استدعاء الطبيب في الحال ، ولقد أضبع بعض الوقت في البحث عن قابلة . وحتى لو حضرت القابلة على جناح السرعة لما كان في ميسورها ان تساعد زوجتي على الوضع : لقد كان عليّ ان أدولى توليدها بنفسني . ولقد كان في دراستي الدقيقة للموضوع ، في كتاب الدكتور تريوفاندا ، عون كبير لي . لقد كنت في نجوة من الاحتياج العصبي ؛

انا مقتنع بأن على الآباء ، لكي ينشئوا أولادهم على وجه صالح ، ان يترودوا بعمرة عامة في موضوع العناية بالأطفال وتربيتهم : فقد لمست ، عند كل خطوة ، لوائح دراستي العميقة للموضوع . وما كان لأولادي ان ينموا بالصحة العامة التي يتمتعون بها اليوم لو لم أدرس الموضوع واستغل معرفتي لصالحهم : إننا نزرع تحت ضرب من الحرافة التي تزعم بأن الطفل في غير ما حاجة الى أن يتعلم في حياته المتأخرة أبداً ما يتعلمه في سنواته الخمس الأولى . إن تربية الطفل تبدأ بالحمل ، فحالات الابوين الجسدية والذهنية ، عند لحظة الحمل ، تنطبع في نفس الجنين ، ثم ان الجنين يواصل ، خلال فترة الحمل ، التأثر بطباع الأم ، ورغباتها ، ومزاجها ، كما يتأثر بطرائقها في العيش ايضاً . وبعد الولادة يقلد الطفل ابويه ، وطوال عدد غير قليل من السنين يعتمد عليها في نموه اعتماداً كاملاً .

والوالدان اللذان يدركان هذه الاشياء لا يقومان بالاتصال الجنسي البتة اشباعاً لشهواتهما ، ولكن يقومان به حين يرغبان في الذرية فحسب . وانا اذهب الى ان

نهاية النهايات في الجهل ، اعتقاد المرء ان العمل الجنسي وظيفة مستقلة ضرورية كالنوم او الأكل . ان العالم يعتمد في وجوده على العمل التناسلي ، ولما كان العالم هو ملجأ الله وانعكاساً لمجده ، فإن العمل التناسلي يجب ان يُضبط ضبطاً يكون فيه الخير لنمو العالم على نحو منظم. وكل من يدرك ذلك خليق به أن يسيطر على شهوته بأي ثمن ، وان يتسلح بالمعرفة الضرورية لسلامة نفسه الجسدية والعقلية والروحية ، وان يقدم جدوى تلك المعرفة الى القرينة .

## ٧ . براهما تشاريا - ١

فصل الآن في هذه القصة الى المرحلة التي بدأت افكر خلالها تفكيراً جدياً في ان أنلر الـ « براهما تشاريا » . كنت قد التزمت منذ زواجي مثلاً أعلى قوامه الاكتفاء بزوجة واحدة على اعتبار ان الاخلاص لزوجتي جزء من حب الحقيقة ، ولكنني لم احرك ، إلا في جنوب افريقية ، أهمية الـ « براهما تشاريا » حتى مع زوجتي . ولست أستطيع أن اعين على وجه الضبط الحادثة ، أو الكتاب الذي وجه افكاري هذه الوجهة ، ولكن الذي أذكره ان تأشير رايشاندهاي ، الذي سبق ان تحدثت عنه ، كان هو العامل الرئيسي في ذلك . وأنا لا أزال اذكر حديثاً دار بيني وبينه . فقد حدثت في إحدى المناسبات ، بكثير من الاطراء ، عن اخلاص مسز غلادستون لزوجها : ذلك اني كنت قرأت في مكان ما ان مسز غلادستون كانت تلح على إعداد الشاي لمستر غلادستون حتى في مجلس العموم ، وان هذا كان قد أمسى قاعدة في حياة هذين الزوجين الشهيرين ، اللذين كانت النظامية تهيمن على أعمالهما . لقد حدثت الشاعر بهذا ، وأطربت الحب الزوجي مصادفةً . فسألني رايشاندهاي : « اي أعظم في ميزان القيمة : حب مسز غلادستون لبعلمها بوصفها زوجة ، أم خدمتها المخلصة بصرف النظر

( العرب )

• السيطرة على الغريزة الجنسية والامتناع عن الاتصال التناسلي .

عن علاقتها بمسرّ غلادستون ؟ لنفرض أنها كانت اخته ، أو خادمتها الامينة ، ومنحته الاهتمام نفسه ، فإذا كنت تقول عندئذ ؟ ألسنا نعرف أمثال هؤلاء الأخوات والخادِمات المخلصات ؟ ولنفرض انك وقعت على التفاني المحبّ نفسه عند خادم من الذكور ، أكنت تسرّ بذلك سرورك بأخلاص مسرّ غلادستون الذي تحدث عنه ؟ كل ما أسألك اباه هو ان تقلّب وجهة النظر التي اقترحتها .

كان رايشاندباي هو نفسه متزوجاً . ويخيّل اليّ ان كتابته بدت قاسية ، آنذاك في نظري ، ولكنها استحوذت عليّ استحواداً لا يُقاوم . لقد شعرت بأن اخلاص خادم من الخدم أحقّ ، الف مرة ، بالشكر ، من اخلاص زوجة لزوجها . فلم يكن ثمة شيء عجيب في اخلاص الزوجة ليعلمها ، على اعتبار ان صلة لا تنفصم تشدّ احدهما الى الآخر . ان الاخلاص هنا طبيعي مئة بالمئة . ولكن تنمية اخلاص مساو بين السيد والخادم تقتضي جهداً خاصاً . وشيئاً بعد شيء ، اقتنعت بوجهة نظر الشاعر .

وسألت نفسي : كيف ينبغي ، اذن ، ان تكون علاقتي بزوجتي ؟ هل يقوم اخلاصي على جعل زوجتي أداة لشهوتي ؟ ما دمت عبداً للشهوة فإن اخلاصي لا قيمة له البتة . ولكي أنصف زوجتي يتعيّن عليّ ان اقول إنها لم تكن هي المغربة في يوم من الأيام . وهذا ما جعل من أسهل الامور عليّ ان آخذ نفسي بنسبتي الى « براهماشاريا » ، شرط ان أرغب في ذلك . كانت إرادتي الضعيفة أو حيي الشهواني هي العقبة .

وحقّ بعد أن تحرّك ضميري للقيام بهذه الخطوة أخفقت مرتين اثنتين . وانما أخفقت لأن الدافع الذي حرّضني على بذل هذا الجهد لم يكن الدافع الأممي : كان غرضي الرئيسي ان اجتنب إنجاب اولاد جدد . وكنت قد قرأت ، اثناء مقامي في انكلترا ، شيئاً عن منع الحمل . ولقد سبقت مني الاشارة ، في الفصل الخاص بالترعة النباتية ، الى الدعاية التي بثها الدكتور آليسون لتنظيم النسل : واذا كانت تلك الدعاية قد تركت بعض الأثر الموقت في نفسي ، فإن معارضة



مستر هيل هذه الطرائق ودفاعه عن الجهد الباطني بدلاً من الاساليب الخارجية ، يعني دفاعه عن ضبط النفس ، كان له أثر أعظم بكثير ما لبث ان اصبح ، في الوقت المناسب ، اثراً ثابتاً لا يتحول . وهكذا ، فحين رأيت اني لم أعد راعياً في إنجاب أيماء ولد جديد ، شرعت اناضل من أجل انقوز بضبط النفس . وكانت تلك المهمة تنطوي على صعوبة لانهاية لما . وبدأنا نضطجع في سريرين مختلفين ، وقررت ان لا آوي الى فراشي إلا بعد أن يكون العمل اليومي قد استنفذ قواي استفاداً كاملاً . ولم يبدُ أن هذه الجهود كلها آتت ثمراً كبيراً ، ولكني حين أرجع البصر الى الماضي اشعر ان القرار النهائي كان هو الاثر التراكمي لتلك الجهود المخففة .

ولم يكن في الامكان اتخاذ القرار النهائي إلا في عام ١٩٠٦ . ولم تكن حركة الساتاغراها قد بدأت . وما كان يخطر ببالي ، البنة ، انها سوف تبدأ وشيكاً . وكنت أمارس المحاماة في جوهانسبرغ إبان « ثورة » الزولو في ناتال ، تلك الثورة التي نشبت بعد حرب البوير بقليل . وشعرت بأن علي ان اقدم خدماتي الى حكومة ناتال ، في تلك المناسبة . وقبل عرضي ، كما سوف نرى في فصل آخر . ولكن العمل وجهه تفكيري على نحو ضار وجهة ضبط النفس ، وجرباً على عاداتي ناقشت افكاري مع أعواني . فقد كنت اقنعت بأن إنجاب الاولاد والعناية بتربيتهم يتعارضان مع العمل في حقل الخدمة العامة . وكان علي أن أوصد منزلي في جوهانسبرغ لكي أكون قادراً على الخدمة في اثناء « الثورة » . وما انقضى شهر على قبول خدماتي حتى اضطرت الى التخلي عن البيت الذي انشأه بكثير من العناية . وأخذت زوجتي وأولادي الى فوينكس ، وتوليت قيادة كتيبة الاسعاف الملحقه بقوات ناتال . وخلال السير الشاق الذي تعين علينا القيام به ، آنذاك ، خطر لي اني اذا رغبت في ان أقف جهودي لخدمة الجماعة ، على هذا النحو ، فيجب ان اقلع عن الرغبة في الولد والثروة ، وان أحيا حياة « فانابر استاه » ، أي حياة امريء متحرر من هموم البيت .

ولم تشغلني « الثورة » أكثر من ستة أسابيع ، ولكن هذه المدة الوجيزة اثبتت

انها فترة هامة جداً في حياتي. واستبدت بي التفكير في أهمية النذور على نحو أوضح مما استبدت بي في أياما وقت آخر. وادركت ان النذر لا يوصد الباب المؤدي الى الحرية الحقيقية، ولكن يفتحها. ولم أكن قد وفقت، حتى ذلك الحين، الى النجاح لأن الارادة كانت تعوزني؛ لأنه لم تكن لي ثقة بنفسي، ولأنه لم يكن لي ايمان بلطف الله، ومن أجل ذلك كان عقلي قد طُرح على بحر الشك المائج العجّاج. لقد أدركت ان المرء، بعدم تقييد نفسه بنذر ما، إنما يساق الى الاغراء، وان تقييد المرء بنذر من النذور يشبه الانتقال من الفسق الى زواج حقيقي من امرأة واحدة ليس غير. «انا أو من بالجهد؛ انا لا أريد ان اتيسر نفسي بالنذور»، تلك هي عقلية الضعف وهي تنم عن رغبة خفية في الشيء الذي ينبغي اجتنابه. او أين يمكن ان تكون الصعوبة في اتخاذ قرار نهائي؟ انا أنذر ان أفر من التعبان الذي أعرف انه سوف يعصتي، انا لا اكتفي بمجرد بذل الجهد، يعني جهل الحقيقة الرائعة القائلة بأن التعبان لا بد ان يقناي. واذن فكوني أستطيع ان أظل مقتنعا بجهد ما، يفيد اني لمسا أدرك، في وضوح، ضرورة العمل المحدد. ولكن لنفرض ان آرائي تغيرت في المستقبل فكيف أستطيع ان أقيد نفسي بنذر ما؟ مثل هذا الشك كثيراً ما يعوقنا. ولكن ذلك الشك ينم أيضاً عن عدم ادراكنا ادراكاً واضحاً أن شيئاً معيناً يجب أن يطرح. وهذا هو السبب الذي من أجله انشد نيشكولانا ند:

«البد من غير اشتزاز شيء لا يدوم».

واذن فحيث تكون الرغبة قد ولت، يكون نذر التخلي والمجر هو الثمرة الطبيعية التي لا مناص منها.

## ٨. براهما تشاريا - ٢

وبعد مناقشة وافية وتفكير مروي فيه نذرنا انه «براهما تشاريا» عام

١٩٠٦. ولم أكن قد أطلعت زوجتي ، حتى ذلك الحين ، على ما يدور في خاطري ؛ فالواقع اني لم استشرها إلا عندما عزمت على تقييد نفسي بالنسك . ولم تُبدِ اعتراضاً ما . ولكني وجدت صعوبة بالغة في اتخاذ القرار النهائي . لم أكن املك القوة الضرورية . فكيف لي ان أسيطر على شهواتي ؟ لقد بدا لي آنذاك ان الغاء المرء علاقته الجسدية بزوجه شيء غريب . ولكني اندفعت بحدوني الايمان بقوة الله الناصرة .

وحينما أرجع البصر الى العشرين السنة التي انقضت على هذا النذر يُفهم نفسي السرور والدهش . إن ممارسة ضبط النفس . الناجحة قليلاً او كثيراً ، كانت قد استُهلّت منذ عام ١٩٠١ . ولكن الحرية والبهجة اللتين أُقبلنا عليّ بعد نذري ذلك شيء لم أعرفه قبل عام ١٩٠٦ . فقَبِلَ النذر كنت عرضة للاغراء في اللحظة من اللحظات . أما الآن ، فقد أمسى النذر درعاً أميناً واقيةً من الاغراء . ويوماً بعد يوم كانت كسُوءية الـ « براهماشاريا » العظيمة تزاد عندي وضوحاً . وإنما نذرت ضبط النفس عندما كنت في فونيكس . فما إن تحررت من عملي الاسعائي حتى قصدت الى فونيكس ، ومن ثمّ تعيّن عليّ ان أعود الى جوهانسبورغ وبعد شهر ، تقريباً ، انقضت على عودتي الى هناك وُضع أساس « الساتياغراها » . كان نذر الـ « براهماشاريا » يُعدّني ، على غير علم مني ، لتلك الحركة . فالساتياغراها لم تكن خطوة مرسومة . لقد نشأت على نحو تلقائي ومن غير ان أرغب أنا فيها . ولكن كان في استطاعتي ان أرى ان جميع خطواتي السابقة كانت قد قادني الى ذلك الهدف . كنت قد خففت نفقاتي المنزلية الباهظة في جوهانسبورغ ومضيت الى فونيكس وكأنما أهدف ان آخذ نذر الـ « براهماشاريا » .

والواقع اني لم أكن مدينّاً للدراسة الـ « شاستراس » بمعرفتي ان الوفاء الكامل بنذر الـ « براهماشاريا » يعني ان يصبح المرء برهياً . ولكني استشعرت ذلك ، شيئاً فشيئاً ، بالتجربة . فانا لم أقرأ نصوص الـ « شاستراس » في الموضوع إلا في فترة متأخرة من حياتي . كان كل يوم من ايام النذر يقربني اكثر فأكثر الى

معرفة ان وقاية الجسد والعقل والنفس كامة في الـ «براهماتشاريا» . ذلك ان الـ «براهماتشاريا» لم تعد الآن عملية تفكير قاسية ؛ كانت قد أمست مسألة عزاء وبهجة . لقد كشف كل يوم عن جمال جديد فيها .

ولكن اذا كانت مسألة ابتهاج بتعاطف على نحو موصول ، فلا يظنن احد انها كانت مسألة يسيرة علي . وحتى بعد ان تجاوزت السادسة والخمسين من العمر أجدني أدرك مدى صعوبتها البالغة . إني ازداد ادراكاً ، يوماً بعد يوم ، انها اشبه شيء بالسبر على حدة السيف ، وانا أرى كل لحظة ضرورة اليقظة السرمدية .

إن السيطرة على حاسة الذوق هي الشرط الاسامي الأول للوفاء بالنذر . لقد وجدت ان السيطرة الكاملة على حاسة الذوق جعلت هذا الوفاء يسيراً جداً ، وهكذا اخذت واصل تجاريسي في حقل التغذية لا من وجهة النظر الثباتية فحسب ، بل من وجهة نظر الـ «براهماتشاريا» ايضاً . وبنتيجة هذه التجارب رأيت ان طعام من نذر ضبط الشهوات الجسدية يجب ان يكون محدوداً ، بسيطاً ، خلواً من التوابل ؛ وان يكون - اذا كان ذلك ممكناً - نيتاً غير مطبوخ .

وأظهرت لي ست سنوات من الاختبار ان الغذاء الأمثل لضبط الشهوة هو الفاكهة الطازجة وضروب الجوز . والحصانة من الشهوة ، تلك الحصانة التي تمتعت بها عندما عشت على هذا الطعام ، كانت غير معروفة لدي بعد ان غيرت هنا الغذاء . ولم تكلفني الـ «براهماتشاريا» أعباءً جهدي في جنوب افريقية عندما عشت على الفاكهة والجوز فحسب . ولقد اصبحت مسألة تقنصيني جهداً كبيراً جداً منذ بدأت اشرب الحليب . أما كيف تعين علي أن ارجع الى الحليب ، بعد ان اعتدت الطعام المقصور على الفاكهة ، فسوف احدثك عنه في موطنه الملائم . وحسبي ان أشير هنا الى أنني لم اشك قط في ان الطعام المنتصور على الحليب يجعل من السير الوفاء بنذر الـ «براهماتشاريا» . ولا يستتجن أحد من ذلك ان جميع الذين نذروا نذر التحرر من الشهوة انتاسلية يجب أن يقلعوا عن تناول الحليب . فأثر المسألة المختلفة في الـ «براهماتشاريا» لا يمكن ان يُحدّد إلا بعد تجارب عديدة . وكان علي أن اجد فاكهة تكون بديلاً عن الحليب الذي يمتاز بأنه

بان صالح للعضلات وغذاء سهل الهضم في وقت معاً . ولقد عجز الاطباء  
و الحكماء و الفدياء عن توجيهي وتنويري . وهكذا فعل الرغم من اني  
اعرف ان الحليب منبهٌ ، جزئياً ، فلت استطيع في الوقت الحاضر ، ان انصح  
احداً بالاقلاع عن تناوله :

وكمكون خارجي لك « براهماشاريا » يُعتبر الصيام ضرورياً كاختيار الطعام  
وتقييده . فالخواس في من القوة العارمة بحيث لا يمكن ضبطها إلا عندما تُسَوَّر  
من جهتها جميعاً ، من فوق ومن تحت . ومن الأمور المعروفة انها تكون عاجزة  
من غير طعام ، وهكذا فلت اشك في أن الصيام ، اذا اتخذته المرء وسيلة الى  
ضبط الخواس ، مُسمفٌ الى حد بعيد . ولكن الصيام لا يُجدي في بعض  
الناس ، لأنهم اذ يفترضون ان الصيام الآلي وحده سوف يمنحهم الحصانة  
فأنهم يحرمون اجسادهم من الطعام ولكنهم يمتنعون عنه ولهم بمختلف ضروب  
اللطائف ، مفكرين دائماً في الذي سوف يأكلونه والذي سوف يشربونه عند  
انقضاء الصيام . ان مثل هذا الصيام لا يساعدهم لا على ضبط حاسة الذوق ولا  
على ضبط الشهوة الجنسية . الصيام يكون مُسمفاً عندما يتعاون العقل مع الجسد  
الجبائع ، يعني عندما ينشئ كراهيةً للأشياء التي تحرم على الجسد . ان العقل  
مائل في أصول التزعات الشهوانية كلها . ومن هنا فإن للصيام جدوى محدودة ،  
لأن الصائم قد يواصل الخضوع لتبار الشهوة . ولكن في الامكان القول إن  
إخماد الشهوة الجنسية مستحيل ، دائماً ، من غير صيام ، كما نستطيع القول ان  
الصيام امرٌ لا غنى عنه للإفقاء بنظر الـ « براهماشاريا » . وكثير من الساعين  
وراء التحقق بنظر الـ « براهماشاريا » يخفقون لأنهم في اصطناعهم حواسهم  
الآخري يريدون ان يواصلوا العيش مثل أولئك الذين لم يقيدوا انفسهم بالنذر .  
فجهدهم ، اذن ، اشبه شيء بذل الجهد لاستعمار برد الشتاء المشط ، في  
اشهر الصيف المحرقة . يجب ان يكون ثمة حدٌ فاصل بين حياة من نذر السيطرة  
على الغريزة الجنسية ومن لم يأخذ نفسه بهذا النذر . ويجب ان يكون هذا الفصل  
واضحاً كالشمس في رابعة النهار . ان كلاً منهما يصطنع بصره ، ولكن فيما

يصطنعه صاحب النور لرؤية أبعاد الله نجد الشخص الآخر يصطنع البصر ليرى الحماقات المحبطة به . إن كلاهما يصطنع اذنيه ، ولكنّ ينال لا يسمع أحدهما غير المسيح لله يبذلّهما الآخر في طرب ضارّ متلاف . كل منهما يغفل الانسان الباطن ، ولكن أحدهما لا يغفل ذلك إلا لكي يبقى هيكلا لله في حال صالحة ، على حين يحشو الآخر نفسه ويجعل الوعاء المقدس بالوعة نثرة . وهكذا يعيش الاثنان منفصلين كالقطين ، وإن المسافة بينهما لتعظم ولا تنقص على كثر الزمان :

إن الـ «براهمانشاريا» تعني السيطرة على الخواص فكراً ، ولفظاً ، وعملاً . وفي كل يوم ، كنت ادرك أكثر فأكثر ضرورة ذلك الضرب من القيود التي افضت في الكلام عليها آنفاً . والحق أنه ليس ثمة حدّ لامكانيات النبذ ، كما أنه ليس ثمة حدّ لامكانيات الـ «براهمانشاريا» . فكل هذه الـ «براهمانشاريا» يتعدّر تحقيقها بالجهد المحدود . إنها يجب أن تبقى ، بالنسبة الى كثير من الناس ، مثلاً أعلى . والراغب في التحقق بالـ «براهمانشاريا» خلق بأن يدرك مواطن ضعفه دائماً ، وبأن يبحث عن الشهوات المريئة في صميم فؤاده ويتناضل على نحو موصول لتخلص منها . وما دام الفكر في نجوة من سلطان الارادة المطلق تكون «البراهمانشاريا» انكاملة أملاً لم يتحقق . إن اعتقل مولع بالتفكير اللا ارادي ، ومن هنا فإن كبح جماح الفكر يعني كبح جماح العقل الذي يُعتبر اصعب من لتجسم الريح . ومع ذلك ، فإن وجود الله في ذات نفس المرء يجعل السيطرة على العقل ممكنة . فلا يظنّ احد أنها مستحيلة لأنها عبثية . إنها الهدف الاسمي ، فلا صعب اذا كان بلوغه يقتضي المرء أسمى الجهد .

ونكفي لم ادرك ، إلا بعد عودتي من الهند ، أن مثل هذه الـ «براهمانشاريا» مستحيلة بمجرد الجهد البشري . فقد كنت ، حتى ذلك الحين ، أرزح تحت عبء التوهم بأن الغذاء المؤلف من الفاكهة قادر وحده على تمكينني من القضاء على الشهوات جميعاً ، ولقد تملّقت نفسي بالاعتقاد بأنه لم يبق ثمة شيء آخر يتعين عليّ عمله .

ولكن ينبغي ان لا أشتق الفصل الخاص بنصالي . ولأوضح ، في غضون ذلك ، ان اولئك الراغبين في الوفاء بنذر الـ « براهماتشاريا » رغبة منهم في إدراك الله ليسوا في حاجة الى ان يأسوا ، شرط ان يكون إيمانهم بالله متكافئاً مع ثقتهم بنجدهم . « ان الاشياء الحسية تشبع بوجهها عن النفس المتقشفة ، تاركة خلفها نكهة طيبة . والنكهة تختفي ايضاً عند ادراك الاسمى » . واذن فاسم الله ونعمته هما الذخيرتان الاخيرتان للساعي بسبيل الـ « موكشا » . ان هذه الحقيقة لم تتكشف لي إلا بعد عودتي الى الهند .

## ٩ . حياة بسيطة

كنت قد بدأت حياة من الراحة والرفه ، ولكن التجربة لم تعمر طويلاً . فعلى الرغم من تأثيبي الييت في عناية ، فإنه لم يستطع ان يستحوذ عليّ البتة ؛ وهكذا ما إن اندفعت في خضم تلك الحياة ، حتى شرعت أخفض النفقات ؛ كانت فانورة الغسل كبيرة ، وإذ كان - الى جانب ذلك - غير معروف بالمحافظة على المواعيد ، فقد اثبتت دزيتان او ثلاث دزينات من القمصان والياقات انها لا تكفي . كان لا بد من تغيير الياقة يومياً ، أما القمصان فكان لا بد من تغييرها يوماً بعد يوم ، إن لم تغير يوماً . وانما عني ذلك نفقة مضاعفة ، وهو شيء بدا لي غير ضروري . وهكذا تزودت بمئات الغسل رغبة في الاقتصاد . ليس هذا فحسب ، بل لقد اشتريت كتاباً يبحث في الغسل ، ودرست هذا الفن ، وعلمته زوجتي . لقد أضاف ذلك شيئاً جديداً الى أعبائي ، ولكن جدّة ذلك العمل جعلت منه متعة وسرّة .

وان أنسى اول ياقة غسلتها بنفسي . كنت قد استعملت قديراً من النشا أكثر مما ينبغي ، ولم تكن المكواة حامية على نحو كاف ؛ وخشية إحراق الياقة لم أكرها كثيراً . فكانت النتيجة ان النشا الزائد ظل ينساقط من الياقة في

استمرار ، على الرغم من صلابتها . ومضيت الى المحكمة وانا مُرْتَدَّة تلك الياقة ، مثيرةً بذلك سخرية زملائي المحامين ، ولكن حتى في تلك الايام كان في ميسوري ان أكون مستعصياً على السخرية .

وقلت :

- « حسنًا : هذه أول تجربة لي في غسل الياقات ، ومن هنا هذا انشأ الرخوة . ولكن ذلك لا يزحزحي ، وفوق هذا فإنه يزودكم بكثير من الفكاهة ؛ وتلك في ذات نفسها فائدة تُذكر . »

فألقي أحد الاصدقاء :

- « ولكن ليس من شك في ان البلد لم تَخُلْ من المصايغ ؟ »

فقلت :

- « إن فانورة المصبغة كبيرة جداً . وأجرة غسل ياقة واحدة تكاد تعدل ثمنها . وحتى في هذه الحال فهناك التبعة الدائمة للغسال . إنني أؤثر الف مرة ان أغسل ملابسي بنفسي ؛ »

ولكني لم أستطع ان أجعل اصدقائي يقدرّون جمال الانكال على النفس . وما هي إلا فترة حتى اصبحت غسّالاً خبيراً ، في ما يتعلق بملابسي على الاقل ، ولم يكن غسلي ليقُلَّ جودة بأية حال عن غسل المصبغة : إن ياقاتني لم تكن أقل صلابة أو لمعاناً من ياقات الآخرين .

وعندما وقد غوكهايل الى جنوب افريقية كان معه قباء أهداه اياه ماهاديو غوفيند راناد . لقد احتفظ بتلك الهدية التذكارية بكثير من العناية ، ولم يستعملها إلا في المناسبات الخاصة . ومن تلك المناسبات المأدبة التي اقامها على شرفه هنود جوهانسبورغ . كان القباء متغضناً . وكان يحتاج الى كي . ولم يكن في الامكان ارساله الى المصبغة واسترجاعه في الحال : فعرضت على غوكهايل ان أجرب فني ؛ فقال :

- « أستطيع أن اثق بمقدرتك كمحام ، ولكن لا كغسّال . وماذا يكون الموقف لو اتلفته ؟ هل تعلم ما يعنيه هذا القباء بالنسبة الي ؟ »



قال ذلك وقصّ عليّ ، في كثير من الابتهاج ، حكاية الهدية . وواصلتُ  
 إلحاحي ، وضمنتُ جودة العمل ، فأذن لي في كَيْتِه ، وكسبتُ شهادته : وما  
 عاد يهمني ، بعد ذلك ، إذا ما رفض سائر الناس ان بمنحوني شهادتهم :  
 وكما حررت نفسي من العبودية للفصال ، وبالطريقة نفسها ، تحررت من  
 التبعية للابلاق . إن جميع الذين يسافرون الى انكلترا يعلمون هناك فن حلانة  
 الذفن على الاقل ، ولكن احداً منهم لا يتعلم — في ما أعرف — كيف يقص شعر  
 رأسه بنفسه . ولقد كان عليّ ان أتلم ذلك ايضاً . فقد قصدت ذات مرة الى  
 حلاق انكليزي في بريتوريا . فرفض ، في ازدياء ، ان يقصّ شعري . فشرعت  
 اني أوديت ، من غير شك ، ولكني ما لبثت ان اشتريت مقصاً وتقصصت شعري  
 أمام المرأة . ولقد نجحت كثيراً أو قليلاً في قص الشعر الامامي ، ولكني أتلفت  
 الشعر الخلفي . وضع اصدقائي ، في دار القضاء ، بالضحك .

— ما الذي أصاب شعرك ، يا غاندي ؟ هل قرصته الجرذان ؟

فقلت :

— لا ، ان الحلاق الأبيض لم يتنازل فيمسّ شعري الاسود . وهكذا أثرت  
 ان أقصه بنفسي ، مهما تكن النتيجة رديئة :  
 ولم يدهش جوابي اولئك الاصدقاء .

والحق ان الحلاق ما كان مخطئاً في رفضه قصّ شعري . فقد كان من شبه  
 الثابت انه لو خدم الرجال السود اذن لحمر زبائنه . اننا لانجيز لحلاقنا ان يخدموا  
 اخواننا النبوذيين . ولقد نلتُ جزاء ذلك في جنوب افريقية ، لا مرة واحدة ،  
 ولكن مرات عديدة : ولقد كان في ايماني بأن ذاك عقاب على آثامنا نحن — أقول  
 — كان في ذلك ما نجّاني من الغضب .

لني سوف أصف : في الموطن الملاثم من هذه القصة . الاشكال المتطرفة  
 التي تمثّلت فيها ، آخر الامر ، نزعني الى البساطة والى الاتكالية على الذات .  
 كانت البلورة قد غرست منذ زمن طويل . فهي لا تحتاج إلا الى ريّ لكي تمتدّ  
 لها جذور ، ولكي تزداد وتندر . وتقد جاءها الري في إيمانه .

## ١٠ . حرب البوير

يتميّز عليّ ان أغفل كثيراً من التجارب التي تمت لي ما بين عام ١٨٩٧ وعام ١٨٩٩ ، لانتقل مباشرة الى الكلام على حرب البوير :

عندما أعلنت الحرب ، كانت عواطف الشخصية كلها مع البوير ، ولكني اعتدت ، آنذاك ، بأنه لم يكن لي إما حقّ في أن افرض معتقداتي الشخصية . وقد عالجت الصراع الداخلي الذي نشأ بسبب من ذلك ، معالجة تفصيلية دقيقة ، في كتابي عن تاريخ الساتياغراها ( اللاعنّف ) في جنوب افريقية ، ولن أعيد الكلام على ذلك هنا . أما الراغبون في الاطلاع على ذلك فأنا أحيلهم الى تلك الصفحات . -حيي ان أقول ههنا إن ولائي للحكم البريطاني قادني الى المشاركة مع البريطانيين في تلك الحرب . لقد شعرتُ بأنني اذا ما طالبت بحقوق ، كمواطن بريطاني ، فإن من واجبي ، بذلك الوصف ، ان اشارك في الدفاع عن الامبراطورية البريطانية . ولقد كنت اعتقد آنذاك ان الهند لا تستطيع ان تحتق تحرورها الكامل إلا ضمن الامبراطورية البريطانية ومن خلالها . وهكذا حشدتُ اكبر عدد ممكن من اصداقائي ، وفي كثير من الصعوبة استطعت ان أقنع السلطات بقبول خدماتهم كفرقة إسعاف .

كان الانكليزي العادي يعتقد ان الهندي جبان ، عاجز عن القيام بأعمال مغامرة ، او النظر الى أبعد من مصلحته الشخصية المباشرة . من أجل ذلك ، صبّ كثير من الاعداء الانكليز ماءً بارداً على مشروعي . ولكن الدكتور بوث ايده تأييداً قليلاً . لقد درّبنا على أعمال الاسعاف . وحصننا على شهادات طبية تؤذن بممارستنا للخدمة . وأيد مشر لافتون والمرحوم مسر ايسكومب الفكرة تأييداً حماسياً ، وقدّمتنا آخر الأمر طلباً بالخدمة في جبهة القتال . ووافقت الحكومة على طلبنا شاكراً ، ولكنها قالت إنه لم تكن ثمة ، آنذاك ، حاجة الى خدماتنا :

بيد ان هذا الرقص لم يفت في عضدي . فقد قدمني الدكتور بوث الى اسقف  
ناتال ، فقممت بزيارته . كان في فرقتنا كثير من الهنود المسيحيين ، ولقد ابتهج  
الاسقف بعرضي ، ووعد بمساعدتنا في إقناع المسؤولين بقبول خدماتنا .

وكان الزمن ايضاً يعمل الى جانبنا . كان البوير قد أظهروا من الاقدام ،  
والعزم ، والنجاعة ، اكثر من المتوقع . وهكذا قُبلت خدماتنا آخر الامر .

كانت فرقتنا مؤلفة من الف ومئة رجل ، على رأسهم نحو من اربعين قائداً ،  
وكان حوالى ثلاثمئة منهم من الهنود الاحرار ، على حين كان الباقون من الهنود  
المعاهدين . وكان الدكتور بوث معنا ايضاً . وسلكت الفرقة سلوكاً مشرفاً . وعلى  
الرغم من ان علمنا كان ينبغي أن يكون خارج خط النار ، وعلى الرغم من اننا  
كنا نتمتع بحماية الصليب الأحمر ، فقد طُلب الينا ، في احدى اللحظات الحرجة ،  
ان نخدم داخل خط النار . ولم يكن ذلك التحفظ شيئاً سعيينا اليه نحن . إن السلطات  
هي التي لم ترغب في ان نعمل ضمن نطاق النار . بيد ان الوضع تغير بعد ان مني  
الهجوم على «سيون كوب» بالاخفاق ، وبعد ان بعث الجنرال بولر الينا برسالة  
يقول فيها إنه على الرغم من اننا غير ملزمين بالمغامرة فأنا الحكومة سوف تكون  
شاكراً اذا ما قمنا بهذه الخطوة ودخلنا ميدان المعركة لانقاذ الجرحى : ولم نتردد  
لحظة ، وهكذا ألقينا انفسنا ، بفضل احداث «سيون كوب» ، نعمل داخل  
خط النار : وخلال هذه الايام ، كان يتعين علينا ان نسير مسافة تتراوح ما بين  
عشرين وخمسة وعشرين ميلاً ، يومياً ، حاملين الجرحى على القالات . وكان  
جنود من مثل الجنرال وودغيت بين الجرحى الذين كان لنا شرف حملهم .

وسُرحت الفرقة بعد ستة أسابيع من الخدمة . فبعد التهنئة في «سيون  
كوب» و «فالكرانز» أفلح القائد العام البريطاني عن محاولة إنقاذ «ليديسمث»  
وغيرها من المواطنين بالاندفاع العاجل ، وقرّر التقدم في ببطء . منتظراً الامدادات  
من انكلترا والمند .

وحظي علمانا المتواضع بكثير من الاستحسان ، آنذاك : ورفع من مكانة

الهنود واعتبارهم : ونشرت الصحف أناشيد إطرائية بهذه اللازمة : ونحن أبناء  
الامبراطورية ، على أية حال .  
وفي البلاغ الذي اذاعه الجنرال بولر أطرى العمل الذي قامت به فرقة الأسعاف ،  
وُمنح مُقوادُها مدالية الحرب :

وأُست الجالية الهندية أحسنَ تنظيمًا . لقد عرفتْ بمقظة أعظم ، وتواصل  
فيها الشعور بأن الهندوس ، والمسلمين ، والنصارى ، والتاميلين ، والكوجاراتيين ،  
والسنديين كلهم هنود وأبناء وطن واحد . لقد آمن كل امرئ ان مظالم الهنود  
لا بدّ أن تُسوّى منذ الآن . وبدا في تلك اللحظة وكأن مملك الرجل الأبيض  
قد تغيرت تغيراً واضحاً . والواقع ان الصلات التي نشأت بيننا وبين البيض ، خلال  
الحرب ، كانت من أحلى الصلات . فقد احتككنا بآلاف من الجنود البريطانيين ،  
لقد كانوا وديين معنا ، شاكرين لنا وجودنا هناك لخدمتهم .

انا لا أستطيع أن أغفل النص على ذكرى حلوة تبيّن كيف تتجلى الطبيعة  
الانسانية ، بأحسن حالاتها ، في لحظات المحنة . كنا نتقدم نحو «معسكر تشيفلي»  
حيث كان اللغثانت روبرتس ، ابن الورد روبرتس ، قد أصيب بجرح مميت ،  
وكان لفرقتنا شرف نقل الجريح من الميدان . كان يوماً حاراً رطباً يومٌ مبرنا  
ذاك . وكان ثمة في طريقنا جدول صغير ، كان في استطاعتنا ان نطفئ ظمأنا بمائه ،  
ولكن من الذي سيشرّب أولاً ؟ وكنا قد اقترحنا أن نريد الماء بعد ان يرتوي  
الجنود البريطانيون . ولكنهم رفضوا الورد قبلنا ، وألجأوا علينا في التقدم عليهم ،  
وهكذا استمرت ، طوال فترة ، تلك المنافسة العذبة في الإيثار .

## ١١ . الاصلاح الصحي واعمال الانعاش اثناء المجاعة

لقد كان من التعذر عليّ ، دائماً ، أن أرضي رؤية أيما عضو من أعضاء  
الجماعة 'مهملاً' غير مستفاد منه . وكنت أنفر دائماً من التناضي عن مواطن  
الضعف عند الجالية أو إخفائها ، كما كنت أكره التثبث بالمطالبة بمحقوقها من

غير أن أظهرها من عيوبها . من أجل ذلك ما كدت أستقر في ناتال حتى بذلت غاية الجهد لثبوتة الجالية من تهمة النقص بها ، في شيء من الحق . فكثيراً ما اتهم الهندي بالنقص : وبأنه لا يعمل على تنظيف بيته وما حوله . وهكذا كان رجاء الجالية البارزين قد بدأوا بتنظيم بيوتهم ، ولكن المراقبة الاجتماعية ، مراقبة المنازل منزلاً منزلاً ، لم تتم إلا عندما علم ان الطاعون يوشك ان يغزو مدينة دوربان . وانما تم ذلك بعد مشاورة اعيان المدينة وانتزاع موافقتهم . وبعد أن أبدى هؤلاء الأعيان رغبتهم في إسهامنا بهذه المهمة . والواقع ان إسهامنا هذا جعل العمل أبسر عليهم . وقابل من متاعبنا أيضاً ذلك ان المسؤولين كانوا يفقدون اعصابهم دئماً ، كما انتشر وباء من الاوبئة ، ويتخذون اجراءات قاسية تثير نفمة الناس وتبرمهم . ولقد اتفقت الجالية نفسها من هذا العف بما اتخذت من اجراءات صحيحة على نحو إرادي .

ولكنني عرفت ههنا تجارب مريرة . لقد رأيت اني لا استطيع الاعتماد على مساعدة الجالية في القيام بالواجب المفروض عليها ، بمثل السهولة التي اعتمدت بها عليها في المطالبة بحقوقها . لقد استقبلت ، في بعض المواطن ، بالاهانات . واستقبلت في بعضها الآخر بلامبالاة مهذبة . لقد ثقل على القوم ان يزعجوا انفسهم بتنظيف ما حولهم ، ولم يكن وارداً ان تتوقع منهم ان يتبرعوا بدفع المائ الضروري للمضي بهذه الحركة . ولقد علمتني هذه التجارب ، اكثر من ايما وقت مضى ، ان من المستحيل عليك ، بغير نصبر اللانهائي ، ان تحمل الناس على القيام بأي عمل . ان المصلح هو وحده الذي يتلطف على الاصلاح ، لا المجتمع الذي يتبع على المصلح ان لا يتوقع منه شيئاً انضل من المعارضة ، والمقت ، بل والاضطهاد الميت . ولماذا لا يعتبر المجتمع تفهراً ما يعتبره المصلح غالباً كالحياة نفسها ؟

ومع ذلك ، فقد كان من ثمرات هذه الاثارة أن ادركت الجالية الهندية ، كثيراً او قليلاً ، ضرورة الاحتفاظ ببيوتها وما حولها نظيفة . واكتسبت تقدير السلطات واحترامها . فقد رأت هذه السلطات اني على الرغم من اني جعلت من

همي الدفاع عن حقوق الجالية والنضال من اجل انصافها ، فان رغبتى في التطهير الذاتي لم تكن اقل حدة وإلحاحاً .

بيد أنه كان قد بقي علينا القيام بشيء واحد ، أعني ابقاء روح الواجب ، في نفس المهاجر الهندي : تجاه الوطن الأم . كانت اشد فقيرة ، وكان المهاجر يقصد الى جنوب افريقية الهاماً للثروة ، وكان مفروضاً فيه ان يقدم جزءاً من مكاسبه لمنفعة ابناء وطنه في ساعات عسرهم وضيقهم . ولقد قام المهاجر الهندي بواجبه هذا خلال مجاعتي ١٨٩٧ و ١٨٩٩ الرحيتين . لقد أسهم إسهاماً صالحاً في دفع غائلة الجوع ، وكان إسهامه عام ١٨٩٩ اعظم منه عام ١٨٩٧ . وكنا قد طلبنا الى الانكليز التبرع ايضاً ، فاستجابوا لذلك استجابة حسنة . وحتى المنود المشتغلون بطريقة التعاقد شاركوا في دفع الاموال . ومنذ ذلك الحين والجهاز الذي "دشن" خلال تينك المجاعتين قائم على نحو مستمر . ونحن نعلم ان المنود في جنوب افريقية لا يحجمون ابداً عن إرسال التبرعات السخية الى الهند ، كلما ألمت بها كارثة وطنية .

وهكذا فان خدمة المنود في جنوب افريقية كانت تكشف لي دائماً ، وفي كل مرحلة ، عن مضامين للحقيقة جديدة . ان الحقيقة اشبه ما تكون بدوحة باسقة كلما زدها تغذية زادتكم ثمراً . وكلما تعمق المرء في منجم الحقيقة تعاظم اكتشافه للجواهر الدفينة هناك ، على شكل ابواب لضروب جديدة من الخدمة ، ضروب لا تفتأ تتكاثر وتتنوع .

## ١٢ . العودة الى الهند

وحين تجمدت من الواجب الحربي شعرت بأن عملي لم يعد في جنوب افريقية ولكن في الهند . وليس ذلك لأنه لم يبقَ ثمة في جنوب افريقية ما ينبغي ان يُعمل ، ولكنني خشيت ان يصبح عملي الرئيسي مجرد جمع المال . وكان اصدقائي في الوطن يلحون عليّ بالعودة ، ايضاً ، ولقد شعرت بأن

بجاء الخدمة في الهند اعظم وأرحب . اما العمل في جنوب افريقية فكان في  
ميسور السيدين خان ومانزوخلال نازار أن ينهض به . وهكذا سألت أعواني أن  
يدعوني من العمل . وبعد صعوبة بالغة جداً اقترن طلبي بموافقة مشروطة . أما  
الشرط فهو أن أعلن استعراضي للعودة الى جنوب افريقية اذا ما احتاجت الجالية  
الي ، خلال عام واحد . وترأى لي أنه شرط عسير ، ولكن الحب الذي كان  
يشدني الى الجالية حلني على قبوله .

لقد قيدني الرب

بحيط الحب القطني

فأنا عبده الرقيق .

هكذا أنشد ميراباي . وبالنسبة الي أنا ايضاً كان خيط الحب القطني الذي  
شدني الى الجالية أقوى من أن يُقَطَّع . ان صوت الشعب هو صوت الله ، وهنا  
كان صوت الاصدقاء حقيقياً الى درجة جعلته ممنوعاً على الرفض . لقد قبلت  
الشرط ، فأذنوا لي بالذهاب .

كانت صلي ، آنذاك ، وثيقة بناتال فحسب . واتخذ أغدق الهنود الناناليون  
رحيق الحب علي . ونُظِّمَت الحفلات التوديعية في كل مكان ، وقُدِّمَت الهدايا  
الشمينة الي .

والواقع ان هدايا كثيرة كانت قد خُليعت علي من قبل ، يوم رجعت الى  
الهند عام ١٨٩٩ ، ولكن الوداع هذه المرة كان غامراً . وكانت الهدايا تشمل  
طبعاً على اشياء ذهبية وفضية ، ولكن كان ثمة هدايا ثمينة من اللباس ايضاً .

بأي حق أقبل هذه الهدايا كلها ؟ واذا ما قبلتها ، فكيف أستطيع ان أقنع  
نفسي بأنني اخادم الجالية من غير أجر أو ثواب ؟ لقد قدِّمَت الي جميع الهدايا ،  
ما عدا قليلاً منها قدِّمها موكلي ، جزاء لي على خدمتي للجالية ، ولم يكن في  
ميسوري ان أفرق بين موكلي وأعواني في العمل ، لأن موكلي ايضاً ساعدوني  
في حفل الخدمة العامة .

وكانت احلى الهدايا ، وهي عقد ذهبي تبلغ قيمته خمسين جنيهاً ، مقدمة  
الى زوجتي . ولكن حتى هذه الهدية انما قدِّمَت بسبب من عملي في حفل الخدمة

العامة ، وهكذا لم يكن في المستطاع فصلها عن سائر الهدايا .

وليلة قدّمت اليّ الكثرة العظمى من هذه الهدايا لم تعرف حينئذ طعم الغمض . رحت أذرع غرفتي جيئة وذهوباً وقد عصف بي الهياج ، ولكني لم استطع ان أجد حلاً . كان عسيراً عليّ ان أتنازل عن هدايا تساوي مئات الجنيهات ، وكان أشدّ عسراً عليّ ان احتفظ بها .

وحقّ لو استطعت الاحتفاظ بها فما الذي افعله بأولادي ؟ وبزوجتي ؟ لقد دُرّبوا على حياة قوامها الخدمة ، وعلى ان يفهموا الخدمة عملاً لا ثواب عليه . لم يكن في منزلي ايمانحة نفيسة . فقد كنا نخطو خطوات واسعة نحو تبسيط حياتنا . فكيف نستطيع بعد ذلك ان نمتلك ساعات ذهبية ؟ كيف نستطيع ان نزين أعناقنا بالعقود الذهبية ، واصابع ايدينا بالخواتم الماسية ؟ وحتى في تلك الفترة كنت أحضّر الناس على أطراح الافتان بالمجوهرات . فما الذي يتعين عليّ انا ، الآن ، ان أصنعه بالمجوهرات التي أغدقت عليّ ؟

وانتهيت الى قرار ، وهو اني لا أستطيع الاحتفاظ بهذه الاشياء : فوضعت صودة رسالة اقترحت فيها وقف هذه المجوهرات لمصلحة الجالية ، وعيّنت بارسي وستمجي وغيره أمناء على هذه الوقفية . وفي الصباح ، شاورت زوجتي وأولادي ، وفلّصت آخر الأمر من ذلك الكابوس الثقيل .

كنت أعلم اني سوف ألقى بعض الصعوبة في اقناع زوجتي ، وكنت واثقاً اني لن ألقى اية صعوبة في ما يتصل بأولادي . وهكذا قررت ان أوكّلهم بمهمتي .

وسرعان ما وافق الأولاد على اقتراحي . وقالوا :

— « اننا في غير حاجة الى هذه الهدايا النفيسة . يجب ان نعيدها الى الجالية ؛ وإذا ما احتجنا الى مثالا ذات يوم ففي استطاعتنا ان نشتره في سهولة ويسر ؛ وأهبّجني ذلك وسألتهم :

— « واذن ، فدوف تحاولون اقناع أمكم ، أليس كذلك ؟ »

فقالوا :



- « طبعاً . هذه مهمتنا . إنها في غير حاجة الى ان تترين بالمجوهرات . انها سوف ترغب في الاحتفاظ بها من أجلنا ، واذا ما أبدينا زهدنا فيها ، فلماذا لا توافق على التخلي عنها ؟ »  
ولكن القول كان أيسر من الفعل .  
فقد قالت زوجتي :

- « انك قد لا تحتاج اليها ، وإن أولادك قد لا يحتاجون اليها . لقد تملقتهم ، فهم يرقصون على نغماتك . انا أستطيع ان افهم عدم سماحك لهم بالتزين بها . ولكن ما قولك في زوجاتهم المقبلات ؟ لهن سوف يحتجن اليها من غير ريب . ومن يدري ما الذي سوف يحدث غداً ؟ إنني خائفة بأن اكون آخر من يتخلى عن هدايا قدّمت بمثل هذه المحبة العارمة . »

وهكذا استمر سيل النقاش ، نعمة العبرات آخر الأمر . ولكن الاولاد لم يتزعزعوا . واحتفظت انا برباطة جأشي .  
واشركت في الحديث في رفق ، فقلت :

- « ان زواج الاولاد لا يزال بعيداً . ونحن لا نريد ان نراهم يتزوجون في ميعة الصبا . وحين يبلغون مبالغ ان رجال يكون في ميسورهم ان يندبروا أمرهم بأنفسهم . وليس من ريب في اننا لن نتخذ لأولادنا عرائس . ولغات بالحلى والمجوهرات . وان احتجنا ، بعد ذلك كله ، الى أن نزرودهن ببعض الحلى ، فأنا موجود . في استطاعتك ان تطلبي هذا مني : آنذاك . »

- « أطلب هنا منك ؟ لقد اصبحت أعرفك بعد هذا الزمن كله . لقد حرمني مجوهراتي ، ولم تركني معها في سلام . تخيل انك تعرض تزويد كنانتي بالحلى والمجوهرات ! انت الذي تحاول ان تجعل من كل ولد من أولادي ناسكاً منذ الآن ! لا ، المجوهرات لن تعاد . والى هنا فأني حق لك في العقد المهدى الي ؟ »

فاندفعت الى القول :

- « ولكن حل أهدي العقد البك لقاء خدماتك أم لقاء خدماني ؟ »

- وهذا صحيح . ولكن الخدمة التي تؤديها أنت هي في الوقت نفسه خدمة  
أؤديها انا . لقد كدحتُ من اجلك ونصبت ليلاً نهاراً . أليست هذه خدمة ؟ لقد  
حشدتهم كلهم ضدي ، فجعلتني أبكي بكاء مريراً ، انا التي علمت من اجلهم  
كالجارية الرقيقة !

تلك كانت طعنات صريحة ، ولقد جاء بعضها بفصل المقال . ولكنني كنت  
مصمماً على إعادة الحلى . ووفقتُ بطريقة ما الى انتزاع الموافقة منها . وهكذا  
اعيدت جميع الهدايا التي قُدمت اليّ عام ١٨٩٦ عام ١٩٠١ . وأعدتُ عَندُ  
بانشاء هيئة وقف ، وأودعت الهدايا مصرفاً من المصارف ، على أن تُصْطَنع في  
خدمة الجالية ، وفقاً لرغباتي أو لرغبات الأمناء .

والواقع اني كبيراً ما كنت احتاج الى بعض المال أنفقه في الاغراض العامة ،  
فما اكاد أشعر بالحاجة الى الافادة من تلك الثروة الموقوفة حتى اوفقتُ الى جمع  
المبلغ المتأرب ، تاركاً مال الوقف سليماً لمُتمسّ . ولا تزال تلك الوقفية هناك ،  
ولا تزال مورداً يُفزعُ اليه في أوقات الحاجة ، ولقد نمت وتراكمت على  
نحو مطرد .

انا لم اندم قط ، منذ ذلك الحين ، لقيامي بتلك الخطوة ، ومع كثر الاعوام  
رأت زوجتي ايضاً ما انطوت عليه من حكمة . لقد انقذتنا من كثير من  
الاغرامات .

لاني اعتقد اعتقاداً جازماً بأن المشتغل في حقل الخدمة العامة يجب ان لا يقبل  
هدايا نفيسة .

### ١٣ . في الهند كرة اخرى

وهكذا أُعجرتُ عائداً الى الوطن . وتوقفت السفينة فترةً طويلة عند مرفأ  
موريتيوس ، فهبطتُ الى البر ، وتعرفت تعرفاً لا بأس به الى الاحوال المحلية .  
وفي احدى الليالي كنت ضيفاً على السير تشارلز بروس . حاكم المستعمرة .

وبعد وصولي الى الهند، قضيت بعض الوقت متجولاً في البلاد. كان ذلك عام ١٩٠١. عندما اجتمع «المؤتمر» في كالكتا برئاسة مستر (السير في ما بعد) ديتشاو واتشا. وشهدت انا المؤتمر، طبعاً. كانت تلك اولى تجاربي في «المؤتمر». ومن بومباي سافرت في القطار نفسه الذي سافر فيه السير فيروز شاه مهتا، إذ كان عليّ ان أأخذه عن الاحوال في جنوب افريقية. كنت أعلم الحياة الملكية التي كان يحياها. فقد احتجز صالوناً خاصاً في القطار. ولقد صدرت اليّ التعليمات بأن اغتصم الفرصة للتحدث اليه من طريق السفر في صالونه مرحلة واحدة. وهكذا مضيت الى الصالون ثم غادرته عند المحطة المعنية. ومع فيروز شاه كان مستر واتشا، ومستر (السير الآن) شيانلال سيتالفا. كانوا يناقشون السياسة العامة. وما إن رأي فيروز شاه حتى قال: «غاندي، يبدو ان شيئاً لا يمكن ان يُصنَّع من أجلك. طبعاً اننا سوف نقرّ الاقتراح الذي تريده. ولكن ايّ حقوق لنا في بلادنا نفسها؟ انا أعتقد اننا ما دمنا لا نملك ايما قوة في أرضنا نفسها فلا يمكن أن نكون حالتنا أحسن في المستعمرات»؛

وإصابني الذهول. لقد بدا مستر سيتالفا وكأنه موافق على هذا الرأي؛ وألقى مستر واتشا اليّ نظرةً فاجعة:

وحاولت ان اجادل السير فيروز شاه، ولكن كان من غير الوارد أن يتغلب شخص مثلي على ملك بومباي غير المتوجّج. واكتفيت بأن يُسمح لي بطرح اقتراحي على التصويت.

وقال مستر واتشا، لكي يشجعي:

«سوف نطعنك على الاقتراح طبعاً».

فشكرته وفارقتهم عند المحطة التالية.

وهكذا وصلنا الى كالكتا. ورجت لجنة الاستقبال بالرئيس واقتادته الى معسكره في كثير من التهليل والضحيج. وسألت أحد المتطوعين الى اين ينبغي ان أذهب. فقادني الى «كلية ريبون»، حتى أنزل عدد من المندوبين. وأسعدني الحظ. فقد أنزل لوكامانيا في البناء نفسه الذي أنزلت فيه. وأذكر

أنه جاء بعدي بيوم واحد.

وطبعي أن يكون لو كامانيا في داربار ، دائم . ولو كنت رساماً اذن لرسمته كما رأيت قاعداً في سريره ، فالمشهد كله لا يزال محور بالحياة في ذاكرتي : ومن بين العدد الالنهائي من الناس الذين وفدوا عليه أستطيع ان اذكر اليوم واحداً فحسب هو المرحوم بابو موتيلال غوز ، محرر صحيفة الـ « آمريتا بازار باتريكا » . إن ضحكهم الصارخ وأحاديثهم عن اختفاء الطبقة الحاكمة وأثامها لا يمكن ان تنسى .

ولكني أحب ان أتحدث في تفصيل عن الاوضاع في ذلك المخيم . كان المتطوعون يصطدم أحدهم بالآخر : وكنت اذا سألت أحدهم ان يعمل شيئاً يحبك الى آخر ، فيحكلك هذا بدوره الى ثالث ، وهكذا . اما المندوبون فلم يكونوا الا هنا ولا هناك .

وصادقت عدداً قليلاً من المتطوعين . لقد حدثتهم عن جنوب افريقية ، فاستثمروا الحجل بعض الشيء . ولقد حاولت أن اوضح لهم سرّ الخدمة . وبدا وكأنهم فهموا ، ولكن روح الخدمة لا تنمو ونمو نبات الفطر : إنها تفترض وجود الارادة ، اولاً ، ثم الخبرة . ولم تكن الارادة لتعوز اولئك الشبان الطيبين البسطاء القلب ، ولكن خبرتهم كانت صفراً . فقد كان المؤتمر يجتمع ثلاثة ايام كل عام ثم يستلم الى الرقاد . واي تدريب يمكن ان يستفيد المرء من مظاهرة تدوم ثلاثة ايام مرة في كل عام ؟ وكان المندوبون لا يختلفون عن المتطوعين في شيء . انهم ما كانوا احسن منهم تدريباً ولا أطول : كانوا لا يفعلون شيئاً بأنفسهم . وإنما كانوا يكفون باصدار الأوامر على نحو موصول : « ايها المتطوع ، افعل كيت » . « ايها المتطوع ، افعل زيت ! »

وحقاً هنا ، في المؤتمر ، وجدت نفسي وجهاً لوجه . وعلى نطاق واسع ، مع « اللامساس » . كان المطبخ التاميلي بعيداً جداً عن سائر المطابخ . فتد كان المندوبون التاميليون يعتقدون أن مجرد رؤية الآخرين ، فيما هم يتناولون الطعام ،

---

• الداربار كلمة هندية تعني « الاستقبال الرسمي » و « التشریفات » . ( العرب )

دنس<sup>١</sup> ونجاسة. وهكذا فقد أفرد لهم مطبخ خاص في أراضي الكلية ، أحيط بسياج من الاغصان المضفورة . كان ذلك غاصاً بالدخان الخائض . فهو مطبخ ، وحجرة طعام ، وحجرة غسل في آن معاً : مستودع موصد لا منفذ له . وبدا ذلك في ناظري اشته شيء بمحاكاة مضحكة لـ « فارنادارما » . . . وقلت في ذات نفسي : اذا كان ثمة « لاماس » الى هذا الحد بين مندوبي « المؤتمر » ففي استطاعة المرء ان يتخيل مدى وجود هذا « اللاماس » بين ناخبيهم . واطلقت اذ خطر لي ذلك ، زفرة عميقة .

لم يكن ثمة حدود لكل ما هو غير صحي . كانت برك الماء منتشرة في كل مكان . ولم يكن ثمة غير عدد قليل من المراحيض ، ولا تزال ذكرى روائحها الكريهة ترعجني . ونهت المتطوعين الى ذلك فقالوا لي في غير مواربة : « هذا ليس من عملنا . إنه عمل الزبال » . وسألت احدهم أن يجيئي بمكنة ، فحدق الرجل اليّ في دهش . وحصلت على المكنة ، ونظفت المراض . ولكن ذلك كان من اجلي أنا . فالازدحام كان شديداً ، وكانت المراحيض قليلة الى حدّ يجعلها في حاجة الى تنظيف موصول . وكان ذلك شيئاً وراء طاقتي : وهكذا حين عليّ ان أقوم بأعمال التنظيف في حدود حاجتي الشخصية . ولم يبدُ وكان الآخريّن كانوا يبالون بالقدر والرائحة التنتنة .

ولكن ذلك لم يكن كس شيء . ان بعض المندوبين لم يرددوا في استعمال شرفات غرفهم لقضاء حاجتهم في الليل . وعند الصباح لفت نظر المتطوعين الى مواطن القنر . ان اياً منهم ما كان على استعداد للقيام بعملية التنظيف ، ومن هنا لم أجد من يشاركني شرف النهوض بهذا العبء . ولا ريب في ان الاحوال قد تغيرت منذ ذلك الحين تغيراً كبيراً . ولكن لا يزال الى اليوم بعض المندوبين الذين يشبهون اجتماعات المؤتمر من طريق قضاء الحاجة حيثما يحاولهم ، كما أن جميع المتطوعين ليسوا مستعدين دائماً للتنظيف من بعدهم .

لقد تراءى لي انسه لو قدر للمؤتمر أن يمدد فترة اخرى إذن لكانت

---

• واجبات الاقسام الاربعة الرئيسية التي يتألف منها المجتمع المنعوسي .

الاحوال ملائمة أحسن الملازمة لانتشار وباء من الوباء :

#### ١٤ . منسق أوراق ومزور قمصان ...

كان لا يزال نمة يومان لانعقاد « المؤتمر » . وكنت قد عقدت النية على ان اقدم خدماتي الى مكتب « المؤتمر » اكتساباً لبعض الخبرة . فما ان أتممت واجبات التطهير اليومي لدن وصولي الى كلكتا حتى وجهت وجهي نحو مكتب « المؤتمر » . كان بابو بوباندرانات باسو والسيد غوزال هما اميني السر . فقابلت بوبنابو وعرضت خدماتي عليه . فنظر اليّ وقال : ليس عندي عمل ، ولكن لعل عند غوزالبابو شيئاً يعهد به اليك . فأرجوك ان تقصد اليه .

وهكذا قصدت اليه . فأنعم النظر اليّ وقال في ابتسامة :

— « انا لا استطيع ان أعطيك إلا أعمالاً كتابية . فهل ترغب في ذلك ؟ »  
قلت :

— « طبعاً . انا هنا لأعمل بما شئء أقدر عليه . »  
فقال :

— « هذه هي الروح الصحيحة ، ايها الفتى . »

ثم خاطب المتطوعين المحيطين به :

-- « حل تسمعون ما يتوله هذا الشاب ؟ »

وانشفت اليّ وأضاف :

— « حسن اذن ، وهنا ركّام من الرسائل للتنسيق . خذ ذلك الكرمي وابدأ »

وكما ترى ، فإن مئات من الناس يُقبلون ليروني . ما الذي استطيع أن أفعله ؟

أجتمع بهم أم اجيب هؤلاء الففوليين الذين يغرقوني بالرسائل ؟ ليس عندي

سكرتيرون استطيع ان أكلّفهم القيام بهذا العمل . ومعظم هذه الرسائل فارغة ،

ولكن أرجوك ان تتصفحها . أشعر أصحاب الرسائل التي تستحق ذلك باستلامنا

رسائلهم ، وأحيل اليّ الرسائل التي تحتاج الى جواب . روتى فيه .

وابتهجت بالثقة التي أوليتها.

ان السيد غوزال لم يكن يعرفني عندما أسند اليّ هذه المهمة . وهو لم يسأل عن هويتي إلا في ما بعد .

لقد وجدت عملي يسيراً جداً : غربة ذلك الركام من الرسائل . ولقد انجزت المهمة في فترة قصيرة ، فكان السيد غوزال سعيداً جداً . كان كبير اللغو . فهو يتحدث ساعات بطولها . وحين عرف مني شيئاً عن ماضيّ اخذه الأسف لتكليفي بذلك العمل الروتيني . ولكنني طمأننته : « أرجوك أن لا تقلق . من أنا بالنسبة اليّ ؟ لقد اشتغل رأسك شيئاً في خدمة « المؤتمر » ، وأنت بمثابة الشيخ الأكبر لي . انا لست الا شاباً عاصم التجربة . ولقد ماوّقت عنقي بجميل عندما عهدت لي في اقيام هذه المهمة . ذلك اني ارغب في المشاركة بنشاط « المؤتمر » ، ولقد أتحت لي فرصة نادرة لفهم التفاصيل . »

فقال السيد غوزال :

« أقول لك الحق ؟ تلك هي الروح الحفيفية . ولكن شبان اليوم لا يدركونها . طبعاً ، لقد عرفت « المؤتمر » منذ ولادته . والواقع اني استطعت ان ادعي انه كان لي ، مع متر هبوم ، فضل إنشاء المؤتمر واخراجه الى حيز الوجود . »

وهكذا أصبحنا صديقين . ولقد أصرّ على أن أتناول طعام العشاء معه .

كان من عادة السيد غوزال أن يعهد الى حامل ملابسه في ترزير قيصره . ولقد تطوعت للقيام بمهمة هذا الحامل ، وأحببت هذه المهمة ، إذ كان احترامني لمن هم اكبر مني شأناً عظيماً دائماً . وحين عرف السيد غوزال ذلك لم يعد يجيد بأساً في ادائي بعض الخدمات الشخصية له . والواقع انه ابتهج بذلك . وكان يقول اذا ما سألتني ترزير قيصره : « وهكذا ترى ان سكرتير المؤتمر ليس لديه متسع من الوقت لمجرد ترزير قيصره . ان لديه دائماً عملاً يقوم به . » وسألتني سداجة السيد غوزال ، ولكنها لم توقع في نفسي أيها كراهية لاداء مثل تلك الخدمة . ان الفائدة التي جنيتها من هذه الخدمة لا تُشعّن .

وما هي إلا أيام معدودات حتى عرفت عمل المؤتمر . لقد اجتمعت الى معظم القادة ، ولاحظت حركات أبطال من مثل غوكهايل وسوراندرانات . كذلك لاحظت كم أصبح هناك من وقت . ليس هذا فحسب ، بل لقد لاحظت ، في حزن حتى في ذلك الحين ، المركز الممتاز الذي تمتعت به اللغة الانكليزية في شؤوننا . كان الاهتمام قليلاً بالاقتصاد في الجهد والطاقة . فكان أكثر من واحد يقومون بعمل شخص واحد ، وكانت ثمة أعمال هامة كثيرة لم يُسند أي منها الى أحد البتة .

وعلى الرغم من ملاحظتي لهذه الاشياء كلها بروح انتقادية قوية فقد كان في ذات نفسي قدّر كافٍ من المحبة ، وهكذا اعتقدت دائماً ان من الجائز ، على أية حال ، أن يكون من المتعذر أن يوفق المرء الى ما هو أفضل في حدود تلك الظروف . وقد اتقذني ذلك من أن اغضب أجمعاً عمل حقّه من التقدير .

## ١٥ . في المؤتمر

واخيراً عقد المؤتمر . لقد راغني السرايق الضخم ، ومشهد المتطوعين في انتظام فخم ، فيما كان الزعماء يجلسون على المنصة . وتساءلت أين ينبغي ان يكون مكاني في ذلك التقاء العظيم .

كان خطاب الرئاسة كتاباً في ذاته فلم يكن من المعقول ان يُتلى من الغلاف الى الغلاف . من أجل ذلك تُلّيت بضعة مقاطع منه ليس غير .

وبعد ذلك انتقل « المؤتمر » الى انتخاب « لجنة الموضوعات » . واصطحبني غوكهايل الى اجتماعات اللجنة .

كان السير فيروز شاد قد وافق ، من غير شك ، على تقديم اقتراحي ، ولكنني كنت اتساءل من الذي سوف يعرضه على « لجنة الموضوعات » ، وهي ؟ كانت ثمة خطب معزولة تلقى بين يدي كل اقتراح . واني هذا فقد كانت كلها بالانكليزية . وكان وراء كل اقتراح زعيم معروف يتصدى لدعمه . وكنت انا



أشبه بقصبة واهنة بين تلك الطبول المجرّبة ، وفيما كان الليل يبحث الخطي ، أخذ قلبي يخفق خفقاناً شديداً . وعندئذ أخذ المؤتمر - في ما أذكر - ينظر في المقترحات بسرعة البرق ؛ فقد كان كل امرئ يتعجل الانصراف . كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة . ولم أجد الجرأة على الكلام . وكنت قد لقيت غوكهايل فألقى نظرة على اقتراحي ، وهكذا اقتربت من كرسيه وهمست في اذنه :

« أرجوك ان تؤدي اليّ نخلة » .

فقال :

« انالمنسّ اقترحك . وانت ترى بأي سرعة ينظرون في الاقتراحات ، ولكنني لن أدع المؤتمر يدخل اقترحك » .

وقال السير فيروز شاه مهتا :

« واذن فقد انتهينا ؟ »

فصاح غوكهايل :

« لا . فلا يزال ثمة اقتراح خاص بمجنوب افريقية . لقد انتظر مسر غاندي طويلاً » .

فأله السير فيروز شاه :

« حل اطلعت على الاقتراح ؟ »

« طبعاً » .

« حل أعجبك ؟ »

« انه حسن » .

« اذن ، فأسمعنا اياه ، يا غاندي »

وتأوّه مرتدشاً .

وأيده غوكهايل .

وصاح كل امرئ :

« موافقة لإجماعية » .

فقال مسر واتشا :

- « سوف يكون لديك خمس دقائق للكلام على اقتراحك » :

ولم يرضني مملك المؤتمر . فأن أحداً لم يجشم نفسه عنه فهم الاقتراح . فقد كان كل امرئ يتمجّل الانصراف . ولما كان غوكهايل قد اطلع على الاقتراح فأن المؤتمرين لم يجدوا ان من واجبه ان يروه أو ان يفهموه :

وطاع علي الصباح وأنا مضطرب بسبب من خطابي ، ما الذي أستطيع ان أقوله في خمس دقائق ؟ كنت قد استعددت استعداداً حسناً ، ولكن الكلمات أبت ان تتطلق . وكنت قد قررت ان لا أنلو خطابي ، بل ان اتكلم ارتجالاً ، ولكن ملكة الخطابة التي كنت قد اكتسبتها في جنوب افريقية بدت وكأنها فارقتني موقتاً .

وما إن آن أو ان النظر في اقراحي حتى ناداني مستر واتشا . فوقفت . كان الدور يعصف برأسي . وتلوت الاقتراح بطريقة ما . وكان بعضهم قد طبع ووزع على المندوبين نسخاً من قصيدة نظمها تمجيداً للهجرة الى البلدان الاجنبية ، وتلوت القصيدة ، واشرت الى المظالم التي يعانيها المتوطنون في جنوب افريقية ، وفي تلك اللحظة بالذات قرع مستر واتشا الجرس . وكنت واثناً من انني لم اكن قد تكلمت خمس دقائق . ولم أعلم ان الجرس إنما قرع لتنبيهي الى ضرورة الانتهاء من الكلام بعد دقيقتين اضافيتين . وكنت قد سمعت آخرين يتكلمون طسوال نصف ساعة أو ثلاثة ارباع الساعة ، ومع ذلك فلم يُقرع لهم جرس . وشعرتُ بأنني أوديت ، وجلست حالماً قرع الجرس . ولكن تنكير الصياني اعتقد أنذاك ان القصيدة تحوي جواباً على السير فيروز شاه . ولم يكن ثمة ريب في ان الاقتراح سوف يُقرّر . ففي تلك الايام كان الفرق شبه مفقود بين الزائرين والمندوبين . فكان كل امرئ يرفع يده ، فيقرّر الاقتراحات كلها بالاجماع . ولقد أقرّر اقتراحي بالطريقة نفسها . وهكذا فقد كان كافي لايتاع البهجة في فؤادي . إن ادراك المرء ان موافقة « المؤتمر » تعني موافقة البلاد كلها كافٍ لان يوقع البهجة

• انظر تفصيل الثالث عشر ، الفقرة الثالثة .

في قلب كل انسان .

## ١٦ . داربار ، اللورد كورزون

وانفض المؤتمر ، ولكن لما كان عليّ ان أجتمع الى اعضاء «غرفة التجارة»  
والى اناس مختلفين لأحدثهم في قضايا جنوب افريقية ، فقد بقيتُ في كلكتا  
طوال شهر . وبدلاً من ان انزل هذه المرة في فندق ، سميت للفوز بالتركية  
الضرورية التي تخولني حق النزول في غرفة من غرف «نادي الهند» . وكان  
بين أعضائه بعض الخنود البارزين ، فتطلعت الى الاتصال بهم وإثارة اهتمامهم  
بالعمل الذي تقوم به في جنوب افريقية . وكان من دأب غوكهايل ان يقصد  
ان هذا النادي لكي يلعب البليارد ، وحين علم اني سوف ابقى فترة من الزمن  
في كلكتا ، دعاني الى الإقامة معه . وقبلت الدعوة شاكراً ، ولكني لم أجد من  
المناسب ان أذهب الى هناك بنفسي . وانتظر يوماً أو يومين ثم أقبل هو  
لاصطحابي . واكتشف تحفظي فقال :

— «غاندي ، ان عليك أن تبقى في البلد ، وهذا الضرب من التحفظ لن  
يفيدك . يجب ان تتصل باكبر عدد ممكن من الناس . أريد منك ان تشارك في  
أعمال المؤتمر» .

ولسوف أدون هنا حادثة وقعت في «نادي الهند» قبل ان انتقدتم الى الكلام  
على مقامي مع غوكهايل .

فقد أقام اللورد كورزون «دارباراً» . في هذه الفترة . وكان بعض  
الراجات والمهرجات الذين دُعوا الى «داربار» أعضاء في النادي : وفي  
النادي ، كنت أرى كلاً منهم وهو يرتدي «دوطياً» بنغالياً رائعاً وقبصاً  
وطيلساناً . حتى اذا كان يوم الـ «داربار» ارتدوا سراويل تناسب خدم الفنادق

---

• الداربار : • الاستقبال الرسمي • ، • للتشريفات • .

والمقامي واحذية لماعة : وآلني ذلك ، وسألت واحداً منهم عن السبب في  
هذا التغير :

فأجاب :

— ونحن وحدنا نعرف حالتنا البائسة. اننا وحدنا نعرف الاهدانات التي يتعين  
عليها ان نصبر عليها ، لكي نتمتع بثرواتنا وألقابنا .  
فألتته :

— ولكن ما علاقة هذه العائم الجديرة بتدليل المقامي وهذه الاحذية اللامعة  
بهذا كله ؟  
فقال :

— وهل ترى اي فارق بيننا وبين التدليل ؟  
ثم اضاف :

— التدليل آخذ منّا ، ونحن نُدلُّ اللورد كورزون . ولو اني لم اشهد  
حفلة الاستقبال الرسمي اذن لكان عليّ ان اتحمل النتائج. ولو اني شهدتها بملابسي  
المألوفة اذن لا اعتبر ذلك اهانة . وهل تحسب اني سأجد هناك فرصة للتحدث مع  
اللورد كورزون ؟ اذا حسبت ذلك كنت مغرماً في الوهم !  
وأخذني الشفقة على هذا الصديق الصريح .  
وهذه الحادثة تذكرني بـ « داربار » آخر .

فحين وضع اللورد هاردينج الحجر الاساسي للجامعة الهندوسية أقسم  
« داربار » شهوده الراجات والمهرجات طبعاً ، ولكن البانديت مالانيساجي وجه  
إليّ دعوة خاصة لحضوره ايضاً ، ولقد لبيت الدعوة .

وآلني ان ارى المهرجات متزينين كالنساء : مراويل و « آتشخانات »  
حريرية ، وعقود من اللآلئ حول الأعناق ، وأساور حول المعاصم ، وشرابات  
من اللؤلؤ والماس على العائم ، وفوق هذا كله سيوف ذات مقابض ذهبية تتدلّى  
من المناطق التي تطوق خصورهم .

لقد اكتشفت انها لم تكن رمزاً على سلطانهم ، ولكنها رمز على عبوديتهم :

و كنت قد اعتقدت أنهم لا بد قد ارتدوا شاروا العجز هذه بأرادهم ، ولكن قيل لي بَعْدُ ان هؤلاء الراجات ملزمون بالتزين بهذه المجوهرات النفيسة في مثل تلك الاستقبالات الرسمية . ولقد استنتجت كذلك ان بعضهم بكرهون التزين بتلك المجوهرات كرهاً شديداً ، وانهم لم يتزينوا بها قط الا في مناسبات كمنااسبة الـ « الداربار » .

ولست ادري الى اي حد كانت معاوماتي صحيحة . ولكن سواء اتزينوا بها في المناسبات الاخرى أم لم يتزينوا بها ، فإن من المألوم الى حد بعيد ان يضطر المرء للذهاب الى الـ « داربار » متحلياً بمجوهرات لا تتحلّى بها الا بعض النساء . ما انقل ضريبة الآثام والشروع التي تبتزها الثروة والسلطان والجاه من الانسان !

## ١٧ . شهر مع غوكهايل - ١

منذ اليوم الاول لمقامي مع غوكهايل جهاني هذا الرجل أحسن وكأني في بيتي بكل ما في الكلمة من معنى . لقد عاماني وكأني أخوه الاصغر ، ولقد تعرفت الى جميع مطايعي وسعى الى تزويدي بكل ما احتاج اليه . ومن حسن الطالع ان حاجاتي كانت قليلة ، واذ كنت قد تودت الاتكال على النفس فلم أحتج الا الى مقدار قليل جداً من الخدمة الشخصية . ولقد كان شديد الإعجاب بما اخذت نفسي به من الاعتماد على الذات ، وبنظامي الشخصية ، وبمواظبي ونظامي ، فهو كثيراً ما يفتدق علي الشاء والاطراء .

لقد بدا وكأنه لا يخفي عني شيئاً . وكان يقدمني الى جميع الرجال البارزين الذين يقومون بزيارته . واذكر من بين هؤلاء ، أكثر ما أذكر ، الدكتور ( السبر الآن ) بي . سي . راي . فقد كان يجبا على مقربة دانية من بيته ، وكان كثير التردد عليه .

واليك الطريقة التي عرفني بها الى الدكتور راى : « هوذا البروفسور راى ،  
الذي يتقاضى راتباً شهرياً مقداره ثمانمائة روبية - فيحتفظ باربعة منها لنفسه  
ويجعل البقية وفقاً على المصلحة العامة . انه لم يتزوج : ولا يريد ان يتزوج .  
انا ارى فرقاً ضئيلاً بين الدكتور راى كما هو اليوم ، وكما كان آنذاك .  
كانت ملابسه على مثل بساطتها اليسوم ، تقريباً ، مع هذا الفارق طبعاً وهو انه  
يرتدي اليوم ثوباً من نسيج قطني وطني . على حين كان يرتدي في تلك الايام  
ثوباً من قماش من نتاج بعض المصانع الهندية . وشعرت بأنني لا يمكن ان أسأل  
الاستماع الى الاحاديث الدائرة بين غوكهايل والدكتور راى ، لأنها كلها كانت  
تتصل بالخبر العام او لأنها كانت ذات قيمة تربوية . وكانت تلك الاحاديث  
تؤاني ، في بعض الاحيان ، بسبب من انقوائها على نقد للرجال المشتغلين في  
الشؤون العامة . وكنتييجة لذلك اخذ بعض اولئك الذين خيل الي انهم مناظرون  
بواسل يراهمون لي أقزماً صفاراً .

كان النظر الى غوكهايل ، وهو منهمك في عمله ، متعة وترية في آن معاً .  
إنه ما كان يضيق دقيقة واحدة . وكانت صداقته وصلاته الخاصة كلها من اجل  
المصلحة العامة . وكانت احاديثه كلها لا تشير الا الى صالح البلاد ، وكانت  
خالية خلواً كاملاً من ايما اثر للخداع أو النفاق . وكان فقر المنسوخ وخضوعها  
لللاجبي بشغلان تفكيره على نحو موصول . وكان كثير من الناس يحاولون اثاره  
اهتمامه بأشياء مختلفة ، فكان يجيب كلاً منهم بالجواب نفسه : « قم انت بهذه  
المسألة بنفسك . ودعني انا اقوم بعلي . ان ما اريده هو الحرية لبلادي . وبعد  
ان نكسب هذه الحرية نستطيع ان نفكر في الاشياء الاخرى . ان هذا الشيء  
الواحد كاف ، اليوم ، لاستغراق وقتي كله وطاقتي كلها . »

وكان لإجلاله لـ « ريتايد » واضحاً في كل لحظة . فقد كانت كلمة ريتايد  
هي الاخيرة في المسائل كلها ، وكان يستشهد بها في كل مناسبة . وصادفت  
الذكرى السنوي لوفاة ريتايد ( او لجلاده . فقد نسبت ذلك ) اثناء مقامي مع  
غوكهايل ، الذي كان يشهدا على نحو موصول . وكان معه آنذاك : بالاضافة

التي ، صديقاه البروفسور كانافايت ، وقاض مساعد . لقد دعانا الى المشاركة في الاحتفال ، وفي خطابه حدثنا عن ذكرياته مع رينايد . وقارن ما بين رينايد وتيلانغ ، وماندليك . لقد أطرى اسلوب تيلانغ الساحر ، وعظمة ماندليك كمصلح ، وفي معرض حديثه عن عطف ماندليك على موكله وحرصه على مصلحتهم روى لنا كيف فاته قطاره المسألوف ذات مرة ، فاستأجر قطاراً خاصاً لكي لا يتخلف عن حضور الجلسة ، ولكي يكون في ميسوره ان يدافع عن موكله . ولكن رينايد - كذلك قال غوكهايل - تفوق عليها جميعاً بوصفه رجلاً متعدد جوانب العبقري . انه لم يكن قاضياً كبيراً وحسب ، ولكنه كان الى ذلك مؤرخاً كبيراً ، وعالمًا اقتصادياً كبيراً ، ومصلحاً كبيراً . وعلى الرغم من انه كان قاضياً ، فقد كان يشهد جلسات « المؤتمر » في غير ما وجل ، وكان الناس جميعاً يثقون بحكمته الى درجة جعلتهم يقبلون قراراته في غير تردد . ونخطي ابتهاج غوكهايل الحدود كلها عندما شرع يصف مزاي العقل والقلب هذه التي اجتمعت لأستاذه :

وكانت لغوكهايل عربة خيل في تلك الايام . ولم اكن أعلم الظروف التي جعلت عربة الخيل ضرورة بالنسبة اليه ، وهكذا احتججت عليه قائلاً : « الا تستطيع ان تتركب الترام في انتقالك من مكان الى مكان ؟ هل يحط ذلك من قدر الزعيم ؟ »

فقال وقد آلمه ذلك بعض الشيء :

- « وهكذا عجزت انت ايضاً عن فهمي ! انا لا اتفق مخصصاتي الرسمية لراحتي الشخصية . انا أغبطك على حريتك في ركوب الترام ، ولكنني آسف لعدم استطاعتي ان احذو حذوك . فحين تصبح ضحية شهرة عريضة منسلي فعندئذ يكون عسيراً عليك ، ان لم اقل متعذراً ، ان تحتطي متن الترام . وليس ثمة داع للافتراض ان كل شيء . يعمل الزعماء مرده الى رفاهيتهم الشخصية . انا احب عاداتك البسيطة . وأنا احب اأبسط حياة أقدر عليها ، ولكن بعض الاتفاق ضروري لرجل مثلي . »

وهكذا تخلص من شكواي تخلصاً مرضياً ، ولكن كانت ثمة شكوى أخرى لم يستطع ان يتخلص منها على النحو الذي يرضيني .

لقد قلت :

« ولكنك لا تخرج حتى للترهه سيراً على قدميك . فهل يكون عجباً ان تشكو الآلام دائماً ؟ وهل ينبغي للخدمة العامة ان لا تترك أبداً وقت للرياضة البدنية ؟ »

فأجاب :

« وهل وجدت في يوم من الايام ان أعمالي سمحت لي بالترهه على قلبي ؟ كنت احترم غوكهايل احتراماً بالغاً جعلني لا أختصم معه البتة . وعلى الرغم من ان هذا الجواب لم يقتضي فقد اعتصمت بالصمت . لقد اعتصمت آنذاك ، كما أعتقد حتى في هذه الايام ، ان على المرء - مهما تكاثرت عليه الاعمال - ان يجد بعض الوقت للرياضة البدنية ، كما يجد وقتاً لتناول الطعام . وفي رأبي المتواضع ان ذلك التصنيع لا ينقص من قدرته على العمل . إنه - على نقبض ذلك - يزيد في هذه القفزة . »

## ١٨ . شهر مع غوكهايل - ٢

إذا كنت قد عشت تلك المدة كلها تحت سقف منزل غوكهايل ، فليس معنى هذا أنني كنت بعيد البيت .

وكنت قد اخبرت اصدقائي المسيحيين في جنوب افريقية اني سوف أتي ، في اخيراً ، المسيحيين المنسود ، وأنعرف الى أحوالهم . وكنت قد سمعت به بابو كاليثاوان ، أنبرجي ، واحترمه احتراماً كبيراً . لقد قام بدور بارز في « المؤتمر » ، ولم أكن أحمل نحوه أبداً من تلك الريب التي ساورتني تجاه الهندي المسيحي العادي الذي تحي عن المؤتمر وعزل نفسه عن الهندوس والمسلمين . واخبرت غوكهايل اني كنت أفكر في الاجتماع به . فقال : « وأي فائدة ترجى



من اجتماعك به ؟ انه رجل طيب جداً ، ولكنني أخشى ان لا يعجبك . انا أعرفه معرفة جيدة جداً . وعلى أية حال ، فني استطاعتك من غير ريب ان تجتمع به اذا شئت .

وطلبت مقابلته ، فرحب بذلك في سرور . وحين قصدت اليه وجدت ان زوجته كانت على فراش الاحتضار . كان بيته بسيطاً . وفي المؤتمر كنت قد رأيته يرتدي سترة وبنتلوناً ، ولكن سرني الآن ان أراه يرتدي « دوطياً » بنغالياً وقيصاً . لقد أحببت زي ملابسه البسيط ، على الرغم من اني كنت ارتدي آنذاك سترة بارسية وبنتلوناً . ومن غير ما اضطراب ، بسطت له مصاعبي ، فسألني :

- « هل تؤمن بعبيدة الخطيئة الاصلية ؟ »

فقلت :

- « أقوم » .

فأضاف :

- « اذن ، فاندوسية لا تقدم إما غفران لتلك الخطيئة ، على حين ان المسيحية تقدم مثل هذا الغفران . ان جزاء الخطيئة الموت ، والكتاب المقدس يقول ان سبيل الخلاص الوحيدة هي الاستسلام ليسوع » .

فوجهت نظره الى ال « هاكني مارغا » ( طريق التقوى ) في ال « باغاناد جيتا » ، ولكن على غير طائل . فشكرته على لطفه . لقد عجز عن افناعي ، ولكنني أفدت من الاجتماع به .

وفي تلك الايام كان من دأبي ان أذرع شوارع كلكتا جيئة وذهوباً . لقد قصدت الى معظم الاماكن سيراً على قدمي . ولقد اجتمعت بالقاضي مينر والسير غوروداس بانبرجي ، الذي كنت في حاجة الى مساعدته على عملي في جنوب افريقية . وحوالي هذه الفترة التقيت الراجا السير بياريموهان موكارجي . وكان كاليشاران بانبرجي قد حدثني عن هيكل « كالي » الذي كنت نائفاً الى رؤيته ، وخاصة لانني كنت قد قرأت عنه في بعض الكتب . وهكذا شخصت

ذات يوم الى هناك . وكان بيت انقاضي مثير يقوم في الحمي نفسه ، وهكذا اقتصدت الى الميكل يوم زيارتي للفاضي . وفيما انا في بعض الطريق رأيت قطيعاً من الخراف يساق لبضحي به على مذبح « كالي » . وكانت جماعات من الشحاذين تصطف على طول الطريق المؤدية الى الميكل . وكان ثمة متسولون دينيون ايضاً ، وحتى في تلك الايام كنت أرفض في شدة تقديم الصدقات الى الشحاذين الاشداء . وتعقبني حشد منهم . وكان أحد هؤلاء الرجال جالساً على شرفة . فأوقفني ووجه اليّ الخطاب قائلاً : « الى أين انت ذاهب . يا بني ؟ » فأجبته .

ودعاني ورفقي الى الجلوس ، ففعلنا .

وسأله :

- « هل تعتبر هذه التضحية ديناً ؟ »
- « ومن يعتبر قتل الحيوانات ديناً ؟ »
- « اذن ، فلماذا لا ندعو الى الامتناع عن ذلك ؟ »
- « هذه ليست مهمتي . مهمتي هي ان أعبد الله . »
- « ولكن ألم تستطع ان تجد مكاناً آخر تعبد فيه الله ؟ »
- « كل الاماكن صالحة بالنسبة الينا . والناس أشبه بشيء بقطيع من الماشية فهم يتبعون زعماءهم الى حيث يقودونهم . هذا ليس من شأننا نحن النساك الفقراء . »

ولم نطيل الجدل ، بل مضينا الى الميكل . فرجبت بنا أنهار من الدم . ولم أطق الوقوف هناك . كنت ساخطاً قلقاً . ولم أنس ذلك المشهد قط . وتلك الليلة دعيت الى تناول طعام العشاء في سهرة أحيائها بعض الاصدقاء البنغاليين . وهناك تحدث اليّ صديق منهم عن هذا الشكل الوحشي من العبادة ، فقال :

- « الخراف لا تحس بشيء . فالضجة وقرع الطبول : هناك ، يمتنان كل شعور بالالم . »

ولم أستطع ان أزدرد هذا . فقلت له : لو كان في ميسور الخراف ان تتكلم اذن

لروت علينا قصة مختلفة . وفكرت بقصة بوذا ، ولكني رأيت أيضاً ان المهمة كانت فوق طاقتي .

وانا اليوم لا أزال أقول بالرأي نفسه الذي كنت أقول به من قبل . فانا اعتقد ان حياة الحمل ليست أقل قيمة من حياة الانسان . وخلق بي ان أرفض انتزاع حياة حمل من الحملان من اجل جسد الانسان . اني أذهب الى انه كلما كان المخلوق أضعف ، كان أحق بحماية الانسان منه بقساوة الانسان . ولكن السلي لم يحمى نفسه لمثل هذه الخلة عاجز عن أن يقدم اليه أيما حماية . ويتمين علي أن اجتاز مراحل اضافية من التطهير الذاتي ومن التضحية قبل ان أطعم في انقاذ هذه الحملان من هذه التضحية غير المقدسة . واني لأصلي أبد الدهر املاً بأن يولد على ظهر الأرض روح عظيم ، سواء أكان رجلاً او امرأة ، متقداً بالشفقة الالهية ، روح يخلصنا من هذا الأثم المنكر ، وينقذ حيوات المخلوقات البريئة ، وبطهر الميكل . عجيب أمر البنغال كيف تجيز - وهي التي تتمتع بذلك القدر كله من المعرفة والذكاء والتضحية - هذه الجزرة وتسمح بها ؟

### ١٩ . شهر مع غوكهايل - ٣

والواقع أن القربان الرهيب التقدم الى « كالي » باسم الذين استحثت رغبتني في التعرف الى الحياة البنغالية . كنت قد قرأت وسمعت شيئاً كثيراً عن ال « براهمو ساماج » . وكنت أعرف شيئاً عن حياة براتاب تشاندرا مازومدار . وكنت قد شهدت بعض الاجتماعات التي حضر فيها . وحصلت على نسخة من

---

(\*) Brahmo Samaj فرقة هندوسية مؤلفة منها في البنغال راجا رام موهان روي Raja Ram Mohan Roy عام ١٨٣٠ لم أعاد تنظيمها بابو كيشوب تشوندر سين Babu Kesab Chunder Sen . وهي تقاوم الزواج الباكر . ثم زواج الأطفال . والقيود الطبقية . (المغرب)

ترجمته حياة كيشاف تشاندراسين ، وقرأتها في شوق عظيم ، وفهمت الفرق بين « سادهاران براهمو ساماج » و « آدي براهمو ساماج » . والتقيت البانديت شيفانات شاستري ، ومضيت برفقة البروفسور كانافيت لأرى ماهارشي ديفيندرانات ملاغور . ولكن لما كان الاجتماع به محظوراً آنذاك فانالم نستطع ان نراه . بيد أننا دعينا الى احتفال لا « براهمو ساماج » اقيم في منزله . وهكذا حظينا بالاستماع الى موسيقى بنغالية رائعة . ومنذ ذلك الحين وأنا من محبي الموسيقى البنغالية .

واذ رأيت مقداراً كافياً من الـ « براهمو ساماج » فقد أمسى من المتعذر عليّ ان اصبر على عدم رؤية سوامي ذايكثاناند . وهكذا مضيت في حاسة عظيمة ، الى « بينور ماث » مجتازاً معظم الطرق ، اوروباً كلها سيراً على القدمين . لقد أعجبني موقفه المنعزل وساءني ان يكون الـ « سوامي » مريضاً في بيته بكلكتا ، فليس في الامكان رؤيته .

وبعد ذلك سألت عن مقر الاخت نيفيديتا ، واجتسعت بها في منزل بشارع تشاورينجيهي . وذهلت بالابهة التي كانت تحيط بها . وحتى في حديثنا لم يكن ثمة صعيد عريض من التناهم . وحدثت غوكهايل عن ذلك . فقال انه لا يعجب لعدم وجود نقطة اتصال بيني وبين شخص طائش متقلب مثلها .

والتقيتها مرة ثانية في بيت مـتر بيستونجي بادشاه . واتفق ان وفدت الى ذلك البيت فيما كانت تتحدث مع امه المعجوز ، وهكذا اخذت أقوم بدور المترجم بين الاثنين . وعلى الرغم من اخفاقي في الوصول الى أيما اتفاق معها فلم يكن في وسعي إلا ان ألاحظ حبها الغامر للهندوسية وأن اعجب بهذا الحب . ولقد عرفت شيئاً عن كتبها في ما بعد .

وكان من دأبي أن أقسم وفي بين الاجتماع الى قادة الرأي في كالكتا

---

(\*) الـ Sadharan Brahmo Samaj والـ Adi Brahmo Samaj فرقان هندوسيتان أيضاً . وقد أنشئت الأخيرة في كالكتا عام ١٨٥٥ . (المغرب)

لمباحثتهم في موضوع عملنا بجنوب افريقية ، وبين زيارة مؤسسات المدينة الدينية والشعبية ودراستها . وذات مرة القيت خطاباً ، في اجتماع ترأسه الدكتور موليك ، عن عمل فرقة الاسعاف الهندية في حرب البوير : وقد أفادتني معرفتي لصحيفة الـ « الانجلشان » في هذه المناسبة أيضاً . كان متر سارنדרز مريضاً ، ولكنه اسدى اليّ عوناً كثيراً ، شأنه عام ١٨٩٦ : وأعجب غوكهايل بخطابي ذاك ، وكان سعيداً جداً بأن يسمع اطراء الدكتور راي له :

وهكذا فأن 'مقامي تحت سقف بيت غوكهايل جعل عليّ في كلكتا هيناً جداً ، وجعلني على اتصال مع أبرز الأسر البنغالية ، وكان استهلالاً لصلاتي الحميمة بالبنغال .

إن عليّ أن أغفل كثيراً من ذكريات هذا الشهر الذي لا يُنسى . فلأقتصر على الإشارة الى زيارتي الخاطفة الى بورما ، والى « الفونجي » . هناك . لقد آلمني نومهم المستغرق . لقد رأيت الباغودا . . الذهبي . ولم احب الشموع الصغيرة ، غير المعدودة ، المشتعلة في الهيكل : وكان في الجرذان الجسارية في المكان المقدس ما ذكرني بأفكار عن تجارب سوامي دياناند في مورفي ، وفنتني حرية انسوة البورميات ونشاطهن بقدر ما آلمني تواني الرجال وكلهم . ورأيت ، ايضاً ، خلال زيارتي انقصيرة تلك ، أنه كما أن بومباي لم تكن الهند كذلك فأن راينسون لم تكن بورما ، وأنه كما أصبحنا نحن في الهند « وكلاء كومسيون » للتجار الانكليز كذلك فقد اشتركنا ، في بورما ، مع التجار الانكليز في جعل الشعب البورمي « وكيل كومسيون » لنا .

وعند عودتي من بورما استأذنت غوكهايل في الانصراف . كان انفراق مفاجأة قاسية ، ولكن عملي في البنغال ، او بالاحرى ، في كلكتا ، كان قد

• الرهبان .

• • الباغودا : في الهند والصين وبورما ، هيكل أو بناء مقدس يكون شبه هرمي حادة ، أو مل شكل برج ذي طبقات متعددة . ( المغرب )

انتهى ، ولم يكن بى حاجة الى البقاء فترة أطول .

وقبل أن استقر ، كان قد خطر لي ان أقوم بجولة في الهند ، مسافراً في حافلات الدرجة الثالثة ، ومتعراً الى هوم ركوب تلك الدرجة والمصاعب التي يعانونها . وحدثت غوكهايل عن هذا الخطر . فسخر من الفكرة ، يادىء الأمر ، حتى اذا شرحت له ما الذي كنت آمل أن أراه ، وافق في ابتهاج . واعترمت ان امضي أولاً الى بيناريس لكي أقدم احتراماتي الى مسريزانت ، التي كانت مريضة آنذاك .

كان ضرورياً أن اتزوّد من جديد لجولة الدرجة الثالثة هذه : واعطاني غوكهايل نفسه صندوقاً معدنياً من صناديق الطعام : وملاؤه باقراص الحاوى والخبز المحمص . واشترت حقيبة من خيش ثمنها اثنتا عشرة آنة . وسترة طويلة مصنوعة من صوف « تشايا » . . وكان على الحقيبة ان تضم هذه السترة ، و« دوطي » ، ومندبلاً كبيراً ، وقميصاً . وكان لديّ أيضاً بطانية أنغطى بها ، وابريق ماء . حتى اذا تمّ لي هذا الزاد بدأت الرحلة . وأقبل غوكهايل والدكتور راي الى المحطة لتوديعي ، وكنت سألتهم أن لا يتجشأ عناء المجيء ، ولكنهما أصرّا على ذلك . وقال غوكهايل :

« ما كنت لأجيء لو سافرت في الدرجة الأولى . أما الآن فقد تعيّن عليّ ذلك . »

ولم يحلّ احد دون تقدّم غوكهايل الى منصّة المحطة . كان يعتمر بعمامة الحريية ، وسترة ، ودوطي . أما الدكتور راي فكان يرتدي ملابس الزنغالية . ولقد اعترضه جامع التناكر ، ولكنه أجاز له المضي الى المنصة حين أخبره غوكهايل أنه صديق له : وهكذا بدأت رحلتي مشياً بتمنياتها الطيبة .

---

• موضع في ولاية هورباندر ، مشهور حالياً بمنوجاته الصوفية البيضاء .

## ٢٠ . في بيناريس

كانت الرحلة من كلكتا الى راجكوت ، ولقد اعترمت أن أتوقف في الطريق عند بيناريس ، وآغرا ، وجايپور ، وبالانبور . لم يكن لديّ منع من الوقت لرؤية أماكن أخرى غير هذه . وفي كل مدينة مكث يوماً واحداً ، ونزلت في بعض الـ « دارماشالات » اومع الـ « باندات » . . . ، مثل الحجاج العاديين ، إلا في بالانبور . وهكذا فأنني لم أنفق ، على ما أذكر ، أكثر من احدى وثلاثين روبية ( وفي جملتها اجرة السفر بالقطار ) في هذه الرحلة :

وفي سفري بالدرجة الثالثة آثرت في معظم الاحوال القطار العادي على قطار البريد ، اذ كنت أعرف ان القطار الاخير أشد ازدحاماً وأغلى أجراً .

ان حاملات الدرجة الثالثة تكاد تكون اليوم على مثل وساحتها آنذاك ، وكذلك المراحض الخاصة بتلك الدرجة هي اليوم على مثل رداؤها في تلك الأيام : قد يكون ثمة تحسن بسيط اليوم ، ولكن الفرق بين التسهيلات الخاصة بالدرجة الاولى والدرجة الثالثة لا تتناسب البتة مع الفرق بين اجور السفر في كل من الدرجتين . إن ركاب الدرجة الثالثة يعاملون كالخراف ، وأسباب الراحة المقدمة اليهم هي اسباب الراحة التي تألفها الخراف . والواقع انني في اوروبة سافرت في الدرجة الثالثة - وسافرت مرة واحدة فقط : لمجرد التعرف والتجربة - ولكنني لم ألاحظ ، هناك ، مثل هذا الفرق بين الدرجتين الأولى والثالثة : وفي جنوب افريقية يتألف معظم ركاب الدرجة الثالثة من الزنوج ، ومع ذلك فأن أسباب الراحة في الدرجة الثالثة هناك هي خيرة منها هنا . وفي بعض أجزاء جنوب افريقية ، زوّدت حافلات الدرجة الثالثة بما يساعد ركبها على النوم فيها ، وبمقاعد ذات وسائد . ليس هذا فحسب ، بل انهم هناك لا

---

٠ بيوت مخصصة لفساك .

الكهان .

يُحْمَزُونَ أَزْدَحَامَ الْحَافِلَاتِ بِالرَّكَابِ ، فِي حِينِ أَنِي وَجَدْتُ ، هَهُنَا ، أَنَّ إِدَارَةَ السَّكَّةِ الْحَدِيدِيَّةِ تَسْمَحُ عَادَةً<sup>١</sup> بِأَنْ يَتَجَاوَزَ رُكَّابُ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ الْعَدَدَ الْأَقْصَى الْمَفْرُوضَ لِكُلِّ حَافِلَةٍ .

إِنْ لَا مَبَالَاةَ إِدَارَةِ السَّكَّةِ بِرَاحَةِ رُكَّابِ الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ مُضَافًا إِلَيْهَا قُدْرَةَ أَوْلَئِكَ الرُّكَّابِ أَنْفُسَهُمْ وَحِمَاqَتَهُمْ ، لَتَجْعَلَ مِنَ السَّفَرِ بِالدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ مَحْنَةً قَاسِيَةً لِلْمَسَافِرِ الَّذِي تَعَوَّدَ النَّظَافَةَ . وَهَذِهِ الْعَادَاتُ الْمَقْبُوعَةُ تَشْمَلُ ، عَادَةً<sup>٢</sup> ، طَرَحَ النَّفَايَاتِ عَلَى أَرْضِ الْحَافِلَةِ ، وَالتَّدْحِينَ فِي مَخْتَلَفِ الْأَوْقَاتِ وَفِي مَخْتَلَفِ الْأَمَاكِنِ ، وَمَضْغَ الْبَيْتْلِ<sup>٣</sup> ، وَالتَّبَغِ ، وَتَحْوِيلَ الْحَافِلَةِ كُلِّهَا إِلَى مَبْصَعةٍ<sup>٤</sup> ، ، وَالصِّيحَ وَالصَّرَاحَ ، وَاصْطِنَاعَ اللُّغَةِ الْبَذِيئَةِ ، مَهَا كَانَتْ تِلْكَ اللُّغَةُ مُثْبِرَةً لِاشْتِرَازِ سَائِرِ الرُّكَّابِ . وَلَقَدْ لَاحَظْتُ فَرَقًا ضَمِيلًا<sup>٥</sup> بَيْنَ تَجْرِبَتِي لِلسَّفَرِ بِالدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ عَامَ ١٩٠٢ وَتَجْرِبَتِي فِي جَوْلَاتِي الْمُتَوَاصِلَةِ ، فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ أَيْضًا ، مِنْ عَامِ ١٩١٥ إِلَى عَامِ ١٩١٩ .

وَاعْتَقَدْتُ أَنَّ ثَمَّةَ عِلَاجًا وَاحِدًا لَيْسَ غَيْرُ هَذَا الرُّوْضِ الرَّهِيْبِ : أَنَّ يَفْرَضَ الْمُتَقَفُّونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ السَّفَرَ فِي الدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ وَاحْصِلَاحَ عَادَاتِ النَّاسِ ، وَأَنْ لَا يَدْعُوا إِدَارَةَ السَّكَّةِ تَعْرِفَ الْأَمْنِ وَالرَّاحَةِ ، وَذَلِكَ بِتَوْجِيهِ الشِّكَاوَى إِلَيْهَا كُلِّهَا كَانَ ذَلِكَ ضَرُورِيًا ، وَبَعْدَ اللُّجُوءِ إِلَى الرِّشْوَةِ أَوْ أَيْمًا وَسَيْلَةً غَيْرَ شَرْعِيَّةٍ لِلْحَصُولِ عَلَى أَسْبَابِ الرَّاحَةِ ، وَبَعْدَ الصَّبْرِ عَلَى أَيِّ خُرُوجٍ عَلَى الْقَوَاعِدِ كَأَنَّهَا مَنْ كَانَ الْمُقَدِّمُ عَلَى ذَلِكَ . وَإِنِّي لَوَاقِفٌ مِنْ أَنَّ هَذَا سَوْفَ يُوْدِّي إِلَى تَحْسُنٍ كَبِيرٍ .

وَلَكِنْ مَرَضِي الْخَطِيرَ عَامَ ١٩١٨ - ١٩١٩ قَدْ اضْطَرَّنِي ، مَعَ الْأَسَفِ ، إِلَى التَّخَلِّيِ عَنِ السَّفَرِ بِالدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ مَعْدَرَأَمٌ وَخَجَلٌ مُوَصُولِينَ ، بِالنِّسْبَةِ إِلَيَّ<sup>٦</sup> ، وَبِخَاصَّةٍ لِأَنَّ عَجْزِي ذَاكَ حَدَثَ فِي وَقْتِ كَانَتْ فِيهِ الْحَمْلَةُ مِنْ أَجْلِ إِبْرَازَةِ الْمَسَاوِيءِ الَّتِي تَكْتَنِفُ السَّفَرَ بِالدَّرَجَةِ الثَّالِثَةِ قَدْ تَقَدَّصَتْ شَوْطًا صَالِحًا<sup>٧</sup> . إِنْ الْمُنَاعِبَ الَّتِي يَعْانِيهَا الْفُقَرَاءُ مِنْ رُكَّابِ الْبُؤَاخِرِ وَالْقَطَرِ الْحَدِيدِيَّةِ ، هَذِهِ الْمُنَاعِبَ الَّتِي تَجْعَلُهَا عَادَاتُهُمُ السَّيئةَ أَكْثَرَ حِدَةً ، وَالتَّسْهِيلَاتِ غَيْرَ الْفَرُوضِيَّةِ الَّتِي تَقْدِمُهَا الْحُكُومَةُ إِلَى

١ . الْبَيْتْلُ Betel ضَرْبٌ مِنَ الثَّمَرَاتِ يُضَغُّ بِعُضَى الْيَدِ وَرَقُهُ .

٢ . الْمَبْصَعةُ : آتِيَةٌ لِلْبَهَاقِ .



التجارة الاجنبية ، وما الى ذلك ، لتشكل مجموعة هامة من الشؤون الجديرة بأن ينصرف لمعالجتها مناضل مغامر او مناضل مغامران ، وان يقفا وقتها كله على الاشتغال بها :

ولكني سوف اترك ركاب الدرجة الثالثة ، عند هذا الحد ، لأتحدث عن تجاربي في بياريس . لقد وصلت الى هناك صباحاً . وكنت قد عقدت النية على النزول على أحد الكهان . وأحاط بي عدد كبير من البراهمة ، حاملين غادرت القطار ، واخترت واحداً منهم وقع في نفسي انه أنظف ، نسياً ، وافضل من بقية زملائه . ولقد ظهر في ما بعد ان اختياري كان موفقاً . كان ثمة بقرة في فناء بيته ودور علوي حيث قدّمت اليّ غرفة أبيت فيها . ولم أرغب في ان أتناول ايما طعام من غير ما تطهر في نهر الغانج على الطريقة التقليدية القويمة . واتخذ الـ « باندا » ( الكاهن ) الاستعدادات لذلك . وكنت قد قلت له منذ البداية انني لن استطيع ان أعطيه ، بأية حال ، أكثر من روية واحدة وأربع آفات كمنحة او « داكشينا » ، وان عليه ان يذكر ذلك جيداً وهو يتخذ استعداداته لذلك :

ووافق الـ « باندا » في سرور : وقال لي : « سواء أكان الحاج غنياً أو فقيراً فالخدمة واحدة في كل حال . أما مقدار الـ « داكشينا » التي تفوز بها فمرن بأرادة الحاج وقدرته . ولم أجدان الـ « باندا » اختصر الرسومات المعقدة ، نتيجة لذلك ، أما اختصار . وانتهت العبادة في الساعة الثانية عشرة ، ومضيت الى هيكل كاشي فيشغانات للزيارة : وآمني ما شهدته هناك إلاماً عميقاً . فعين كنت أندرّب على الحمامة في بومباي ، عام ١٨٩١ ، قدّر لي ان أستمع الى محاضرة عن « الحج الى كاشي » في قاعة برارثانا ساماج . وهكذا كنت مستعلاً لمقدار ما من الاستياء . ولكن الاستياء الفعلي كان أعظم مما توقعت .

وكان الوصول الى الهيكل يقتضيك اختيار ممر ضيق زلق . أما الهدوء فكان مفقوداً هناك . والواقع ان الذباب المحتشد والضجة المتباعدة من اصحاب الخوانيت ومن الحجاج كانوا شيئاً لا يحتمل .

كان التأمل الروحي يُعوز ذلك المكان الذي يتوقع المرء أن يجده فيه : فكان عليه ان يلتصق ذلك الجو في صميم نفسه . لقد لاحظتُ متسكاتٍ مستغرقات في التأمل ، غافلات عن كل ما حولهن . ولكن الفضل في ذلك لا يمكن ان يُعزى الى المشرفين على الهيكل ، إلا في النادر النادر . إن على هؤلاء المشرفين ان يخلقوا حول الهيكل جوّاً طاهراً ، عذباً ، رائقاً ، من الوجهتين المادية والاخلاقية ، وان يحافظوا على هذا الجو . ولكني وجدت ، بدلاً من ذلك ، سوقاً أو بازاراً ، حيث كان بعض اصحاب الخوانيت الماكرين يبيعون حلويات ودمى من أحدث طراز .

وحين وصلت الى الهيكل رحب بي على المدخل ركام نئين\* من الازهار المهترئة . كنت الارض مفروشة بالرخام الفاخر ، ولكن احد المتعبدین المحرومين من النوق الفني حطم هذا الرخام لكي يرصعه بالروبيات التي امست منذ ذلك الحين وعاء ممتازاً للأقذار .

ومضيت الى مقربة من الـ « جنانا - فابي » ( بئر المعرفة ) : وبحثت ههنا عن الله ، ولكني لم أجده . وهكذا لم اكن في مزاج صالح جداً . ولقد وجدت ان ما يحيط بالـ « جنانا - فابي » كان قذراً ايضاً . ولم اكن أعترم ان اقدم أماماً هبة . وهكذا قدمت « باية » . واحدة . فاستبد الغضب بالـ « باندا » المكثف ، وألقى بالـ « باية » عرض الحائط . ثم انه شتمني وقال : « هذه الالهانة سوف تقودك الى الجحيم مباشرة » .

ولم يزعجني ذلك فقلت :

— « ايها المهرجا ، مهما يكن القدر الذي يتظنني ، فليس بلائم رجلا من طبقتك ان يطلق لسانه بمثل هذه اللغة . في استطاعتك ان تأخذ هذه الـ « باية » اذا شئت ، وإلا فقدتها ايضاً » .

فأجاب :

— « أغرب من هنا . انا لا أبالي بـ « بايتك » هذه . »

\* « الباية » قطعة نقد برونزية تساوي جزءاً من النفي عشر جزءاً من « الآنة » . ( المرب ) .

ثم أمطرنى بوابل آخر من الباب .

وتناولت الـ « بابة » ومضيت لسييلي ، معزياً نفسي بأن البرهمي قد خسر « بابة » ، واني قد انقذت « بابة » . ولكن الكاهن لم يكن بالرجل الذي يدع « بابة » تفلت منه . فناداني وقال :

— « حسن ، دع البابة هنا . انا أؤثر ان لا أكون مثلك . اذا رفضتُ بابتك فسوف يكون ذلك شراً عليك » .  
وأعطيته « البابة » ، في صمت ، وانصرفت وانا أطلق زفرة .

ومنذ ذلك الحين ذهبت مرتين الى كاشي فيشفانات ، ولكن ذلك تم بعد أن خُلِعَ عليّ لقب « مهاتما » وبعد أن أصبحت امثال التجارب التي فصلتها آنفاً امرأ متعذراً . إن بلابا « المهاعات » لا يعرفها إلا « المهاعات » أنفسهم . وفي ما عبداً ذلك ، فقد كانت القذارة والفضجة كعهدهما من قبل .

واذا كان ثمة من يشك في رحمة الله اللامتناهية فليلق نظرة على هذه الاماكن المقدسة . فكم يقاسي امير « اليوغي » حين يرى الى كل ذلك الرياء واللادين يُرتكبان باسمه المقدس ؟ لقد أعلن منذ القدم : « ما يزرعه الانسان فأياه يحصد » . إن قانون الـ « كارما » منيع لا سبيل الى خرقه . وهكذا فليس ثمة ابداً حاجة ، تقريباً ، الى تدخل الله . لقد وضع القانون ، وأدخل الى الراحة .

وبعد هذه الزيارة الى الهيكل زرت مسر بيزانت . كنت أعلم انها قد أبلت منذ مدة يسيرة من مرض ألم بها . وبعث اليها باسمي ، فأقبلت في الحال . واذ كنت ابتغي ان أقدم اليها احترامي لبس غير فقد قلت : « انا ادرك ان صحتك منحرفة . كل ما اريده ان أقدم اليك احترامي . أنا شاكر لك تلطفك باستقبالي رغم صحتك المنحرفة . واني لن أعوقك أكثر مما فعلت » .

---

• الـ Karma : مذهب في الهندوسية والبروذية خلاصته ان الانسان محاسب ، في حياته الأخرى ، بتصرفاته في حياته الأولى .

قلت ذلك واستأذنتها بالانصراف :

## ٢١ . استقرار في بومباي ؟

كان غوكهايل شديد الرغبة في اقناعي بأن أستقر في بومباي ، وأمارس مهنة المحاماة فيها وأساعد في عمله الشعبي . وكانت الخدمة العامة تعني ، في تلك الايام ، المشاركة في نشاط « المؤتمر » .

وأعجبني نصيحة غوكهايل ، ولكني لم أكن شديد الثقة بالنجاح كمحام . كانت ذكرياتي المقيتة عن اخفاقي الماضي لا تزال ماثلة في ذهني ، وكنت لا أزال اكره اصطناع التملق من اجل الحصول على الدعاوى .

وهكذا فكرت ان ابدأ العمل في راجكوت أولاً . ان كيفالرام مافجي دايف - الذي تمخى لي النجاح قديماً - والذي كان قد خفي على الذهاب الى انكلترا - كان هناك . ولقد عهد اليّ بثلاث دعاوى . كانت اثنتان منهما استئنافاً امام المساعد القضائي للمندوب السياسي في كاثياواذ ، وكانت الثالثة دعوى أصابة في جامناغار . وهذه الأخيرة كانت ذات شأن . فان قلت اني لست واثقاً من انني استطيع النهوض بعثها على الوجه الأكمل حتى نتف كيفالرام دايف :

— « لا تشغل بالك بأمر الفوز والاختفاق . كل ما عليك هو ان تبذل قصارى جهدك . وأنا هناك طبعاً لأمدّ اليك يد المساعدة . »

وكان محامي الفريق الآخر المرحوم الامتاذ سامارث . وكنت مستعداً استعداداً حسناً . ولست اقصد أنني كنت اعرف شيئاً كبيراً من القانون الهندي ، ولكن كيفالرام كان قد وجهني توجيهاً دقيقاً . وكنت قد سمعت . قبل ذهابي الى جنوب افريقية ، ان السير فيروز شاه مهتا كان يعرف قانون البيّنات كما يعرف اسمه ، وان ذلك هو السر في نجاحه . وكنت قد وضعت هذه الواقعة نصب عيني ، فدرست خلال الرحلة قانون البيّنات الهندي درساً عميقاً واطلعت

على الشروح الخاصة به . ولقد أفدت طبعاً من خبرتي التشريعية في جنوب افريقية أيضاً .

وربحتُ الدعوى رُكبتُ بعض الثقة . ولم أتوجس خيفة من قضيتي الاستئناف اللذين كسبتهما أيضاً . كل ذلك ادخل في روعي اني على اية حال لن اخفق حتى في بومباي .

ولكن قبل أن أوضح الظروف التي رافقت عزمي على الذهاب الى بومباي سأروي ما خبرتهُ بنفسه من جهل الموظفين الانكليز وحققهم . كانت محكمة المساعد القضائي مشائية . فهي تنتقل من مكان الى مكان على نحو موصول ، وكان على المحامين وعلى موكلهم أن يلحقوا به الى حيث ينقل معسكره . وكان المحامون يتقاضون من موكلهم اجوراً اضافية كلما تعين عليهم أن يغادروا مقر عملهم ، وهكذا كان على الموكلين - طبعاً - أن يتحموا ضعف النفقات . ولم يكن القاضي ليالي هذا الازعاج كله .

وكانت دعوى الاستئناف التي أتحدث عنها من الدعاوى التي سوف تُنظر في « فيرال » حيث كان الطاعون يفتك بالناس . واذكر انه كان ثمة نحو من خمسين دعوى تُنظر يومياً في بلد لا يزيد عدد سكانه على خمسة آلاف وخمسة مئة . كان بلداً شبه معزول ، ولقد نزلت في « داره اشالا » قائم على مسافة ما من البلد . ولكن أين كان ينبغي للموكلين ان ينزلوا ؟ اذا كانوا فقراء فليس أمامهم إلا ان يُسلموا أنفسهم الى رحمة الله .

وكان احد الاصدقاء ممن لهم دعاوى ستنظرها المحكمة ايضاً قد أبرق قائلاً ان عليّ ان اتقدم بعريضة اطالب فيها نقل المحكمة الى مكان آخر بسبب من الطاعون في فيرال . حتى اذا قدمت العريضة سألني « الصاحب » :  
- « هل انت خائف ؟ »

فأجبت :

- « ليست المسألة مسألة خوف من جانبي . ان في استطاعتي ان أنتقل الى

• الصاحب ( Sabib ) لقب يملطه المنرد حين يخاطبون رجلاً اوروياً .

مكان آخر ، ولكن ما الذي يستطيع الموكلون أن يفعلوه ؟

فأجاب « صاحب »

— « لقد أصبح الطاعون مستقراً في الهند . فعلام الخوف منه ؟ ان مناسخ فيرافال بديع ( كان « صاحب » ينزل بعيداً عن المدينة في مخيم فخم أقيم على شاطئ البحر . ) ان على الناس : من غير شك ، ان يتعلموا كيف يعيشون هكذا في الهواء الطلق . »

ولم يكن ثمة فائدة من مناقشته في هذه الفلسفة فقال « صاحب » له « شيراستيدار » التابع له :

— « دون ما يقوله مستر غاندي . وأعلمي هل يزجج هذا الوضع المحابن والموكلين ازعاجاً بالماً ؟ »

كان « صاحب » يعمل ، طبعاً ، « خبيل » اليه أنه الصواب . ولكن اننى تكون للرجل فكرة عن متاعب الهند البائسة ؟ اننى يستطيع ان يفهم حاجات الشعب ، وعاداته ، وأمرجته الذاتية ؟ كيف يستطيع امرؤ ، متوّد ان يقبس الاشياء بالجنية الذهبي . ان يجري ، فجأة ، حساباً بقطع النقد النحاسية الضئيلة ؟ وكما أن الفيل عاجز عن التفكير بلغة النملة ، مهما اجتهد وحاول . فكذلك الرجل الانكليزي عاجز عن التفكير بلغة الهندي أو سنّ الشرائع له .

ولكن فانصل ما انقطع من خيوط القصة . كنت على الرغم من نجاحاني أفكر في البقاء في راجكوت فترة أطول عندما جاءني كيفالرام دايف ذات يوم وقال :

— « اننا لن نجيز لك أن نضج وقتك هنا . يجب أن تنتقل الى بومباي وتستقر

فيها . »

فسأله

— « ولكن من الذي سوف يجد لي عملاً هناك ؟ هل تستطيع ان تضمن لي

التفقات ؟ »

فقال

— ١ اجل ، اجل ، سوف أفعل . سوف نستدعيك الى هنا في بعض الأحيان كما نستدعي محامياً كبيراً من بومباي ، وسوف نكلفك وانت هناك بوضع اللوائح . إننا نحن « الوكلاء » قادرون على ان نخلق المحامي أو نمنعه . لقد اثبت جدارتك في جماناغار و فيرافال . ومن اجل ذلك تراني لا أستشعر أما قلق عليك . لقد هبأتك الاقدار للخدمة العامة ، ولن نسمح لك بأن تدفن في كاثياواد . من اجل ذلك قل لي : اذن ، متى سوف تذهب الى بومباي ؟  
فأجبت قائلاً :

— « أنا انتظر حوالة مالية من ناثال . وسوف اذهب حالما تصلني هذه الحوالة . »

وتلقيت الحوالة بعد اسبوعين تقريباً ، ومضيت الى بومباي . واتخذت مكتباً في مكاتب باين وجيلبرت وساباني . وبدأ وكائني قد استقررت في بومباي .

## ٢٢ . الايمان رهن الامتحان

على الرغم من اني استأجرت مكتباً في الـ «فورت» ومنزلاً في «جير غاوم» فإن الله لم يشأ لي ان أعرف الاستقرار . فساكدت انتقل الى بيتي الجديد حتى أصيب ابني الثاني : مانيلال . بحمى تيفوئيدية حادة (وكان قد أصيب قبل بضعة سنوات بأصابة خطيرة بالجدري) . وكانت هذه الحمى التيفوئيدية مصحوبة بذات الرئة وبأمارات هذيان في الليل . واستدعي الطبيب . فقال ان الطب لن يكون له غير أثر ضئيل ، ولكن البيض ومرق الدجاج قد يفيدانه .

كان مانيلال في العاشرة من عمره ليس غير . فلم يكن في امكاني ان أستشير في المسألة . واذ كنت الوصي عليه فقد تعيّن عليّ أنا ان أقرر . وكان الطبيب رجلاً بارسياً صالحاً جداً . فقلت له اننا جميعاً نباتيون ، واني لا استطيع بحال من الأحوال ان أقدم أياً من البيض والمرق الى ولدي . وسأله أن يصف له

شيئاً آخر :

فقال الطبيب الصالح :

« ان حياة ولدك في خطر . في استطاعتنا أن نعطيه الحليب المزوج بالماء ، ولكن ذلك لن يزوده بتغذية كافية . وأنت تعلم ان كثيراً من الأسر الهندوسية تستدعيني ، وهي لا تعرض على أي شيء أصفه . وأحب ان من الخير لك ان لا تكون قاسياً على ولدك إلى هذا الحد . »

فقلت :

« ان ما تقوله صحيح تماماً . وليس في مسورك ، كطبيب . أن تفعل غير ذلك . ولكن مسؤوليتي ضخمة جداً . ولو ان الصبي كان أكبر من ذلك إذن لحاولت أن أستطلع رغباته فأحترمها . أما الآن ، فإن علي أن أفكر بالنيابة عنه وان أقرر بالنيابة عنه . وعندي ان ايمان المرء انما يُمتحن امتحاناً حقيقياً في مثل هذه الأحوال ليس غير . وسواء أكان ذلك حقاً أو باطلاً فإن تحريم اللحم والبيض وما اليها يشكل جزءاً من عقيدتي الدينية . ينبغي أن يكون ثمة حد حتى للوسائل التي نُبقي فيها على حياتنا . وان علينا ان لا نفعل أشياء بعينها ولو كلّفنا ذلك حياتنا نفسها . والدين ، كما أفهمه ، لا يجيز لي أن أطعم اللحم أو البيض أو ان أجيز لأهلي أن يَطْعَمَاهُ حتى في ظروف كهذه ، ومن أجل ذلك فانه بتعيين عليّ ان أخطر المخاطرة التي تحذرني منها . ولكني ألتمس منك شيئاً واحداً . لما كنت لا أستطيع ان أفيد من طريقتك في العلاج ، فأنا أقترح أن أجرب ما أعرفه من المعالجة بالماء . ولكني لا أدري كيف أفحص نبض الصبي ، وصدرة ، ورثبه الخ . فاذا تلطفت بالتردد علينا بين الفينة والفينة لفحصه ولاحاطتي علماً بحاله على نحو موصول كنت شاكرًا لك صنعك هذا . »

وقدّر الطبيب الصالح موقعي ووافق على ما طلبته منه . وعلى الرغم من أن مايلال لم يكن قادراً على الاختيار فقد اخبرته بالذي جرى بيني وبين الطبيب وسأله رأيه .

فقال :



« جرّب المعالجة بالماء . أنا لن أتناول البيض أو مرق الدجاج . »  
وسرني ذلك ، على الرغم من ادراكي اني لو أعطيتُهُ أياً منهما لما أحجم  
عن تناوله .

كنت أعرف طريقة « كوهن » Kubn في المعالجة . وكنت قد جربتُها  
أيضاً . وكنت أعلم ، إلى ذلك ، ان الصيام يمكن ان يجرب في نجاح . وهكذا  
بدأت أعطي مانيلال حمامات للوركين على طريقة « كوهن » غير « مبني إياه  
في حوض الماء أكثر من ثلاث دقائق ، وقصّرتُ غذاءه على عصير البر تقال  
مزوجاً بالماء ، طوال ثلاثة أيام .

ولكن الحرارة استمرت وارتفعت حتى ١٠٤ درجات . وفي الليل ، كان  
مانيلال يهذي . فبدأ القلق يساورني . ما الذي سيقوله الناس عني ؟ وما الذي  
سيقوله أخي الأكبر أيضاً ؟ ألا نستطيع أن نستدعي طبيباً آخر ؟ لم لا نستشير  
طبيباً أيورفيديكياً ؟ بأي حق يفرض الآباء بدعهم على أولادهم ؟

كانت أفكار مثل هذه تستبدّ بي . لينطلق بعدها تيارٌ مضاد . إن الله ليسعد  
من غير شك أن يراني أعالج ولدي بالمعالجة نفسها التي كنت خليقاً  
باختيارها لنفسي . ولقد كنت أوّمن بالمعالجة بالماء ، وكنت قليل الايمان بالمعالجة  
بالادوية . إن الأطباء لا يستطيعون أن يكفلوا الشفاء . فقصارى ما يستطيعون فعله  
هو التجربة . كان خيط الحياة في يدي الله . فلماذا لا أسلم أمره إليه وأمضي .  
باسمه . في ما اعتقدتُ انه المعالجة الصحيحة ؟

كان عقلي ممزقاً بين هذه الأفكار المتعارضة . وكان ذلك في موهن من  
الليل . كنت متخلياً إلى جانب مانيلال في سريره . ولقد قررت ان ألقه بغطاء  
ندي . فنهضت . وبللت غطاء من أغطية السرير . ثم عصرته . ولففت مانيلال  
به . غير « مظهر منه غير رأسه » ، ثم غطيته ببطانتين اثنتين . أما الرأس فطوقته  
بمنديل رطب . كان جسده كله يتقد كالحديد الحامي . وكان جافاً كل الجفاف .  
لم يكن ثمة تعرق البتة .

كنت متعباً إلى حد مومع . وغادرت مانيلال في رعاية أمه ، وخرجت

أتمنى في « تشوباني » لأرواح عن نفسي بعض الشيء . كانت الساعة العاشرة تقريباً . ولم يكن هناك غير عدد قليل جداً من السابلة . وكنت لشدة استغراقي في التفكير لا أنظر إليهم إلا لماماً . « ان شرفي بين يديك ، يا رب ، في ساعة المحنة هذه » ، كذلك كنت أكرر بيني وبين نفسي . كانت الـ « راما ناما » على شفتي . وبعد فترة قصيرة انقلبت إلى المتزل . وقلبي يخفق في صدري .

ولم أكد أدخل الغرفة حتى قال مانيلال :

« هل عدت ، يا بابا ؟ »

« أجل ، يا حبيبي . »

« هل تفضل فتخرجني من هذه الأغلفة ؟ إنني أحترق . »

« وهل تتصب عرقاً ، يا بني ؟ »

« إن العرق يغمرنني . أرجوك ان تخرجني . »

وجست جبينه . كان مكسوّاً بقطرات من العرق . وكانت الحرارة آخذة في الانخفاض . فحمدت الله على ذلك .

« مانيلال . لا بد أن تزيلك الحمى الآن . سوف أخرجك من أغلفتك

بعد أن يتصب منك مقدار آخر قليل من العرق . »

« لا ، أتوسل إليك . أنقذني من هذا القرن . لنفني إذا شئت في أيّما

وقت آخر . »

وحاولت ان أبقيه متدنئاً بضع دقائق أخرى من طريق إلهائه وتسليته . وسالت قطرات العرق على جبينه . فأخرجته من الدثّر وجففت جسمه . واستسلم الأب والابن للرقاد في فراش واحد .

لقد نام كل منا مثل زند من الحطب . وفي صباح اليوم التالي كانت حمى مانيلال قد فترت كثيراً . ولقد أبقينه هكذا . على الحليب المزوج بالماء وعلى عصير القماكهة ، اربعين يوماً متواصلة . كان الخوف قد زالني الآن . صحيح انها كانت ضرباً عنيداً من الحمى . ولكننا كنّا قد سيطرنا عليها .

إن مانيلال اليوم هو أوفر أولادي صحة . ومن ذا انذي يستطيع أن يقول

هل كان الفضل في ابلاله لرعاية الطيب ولطفه ، أم للمعالجة بالماء ، ام لحسن التمريض والعناية بأمر التغذية ؟ فليقرر كل امرئ ما يشاء وفقاً لإيمانه . أما أنا فقد كنت واثقاً من أن الله قد أنقذ شرقي ، ولا يزال هذا الاعتقاد جازماً ، لم يتغير ، حتى يوم الناس هذا .

## ٢٣ . الى جنوب افريقية كرة اخرى

استردت ما نلّال صحته ، ولكني رأيت ان مترل « جبر غاوم » لم يكن صالحاً للسكنى . كان رطباً لا ينفذ اليه النور إلا قليلاً . وهكذا استشرت شري ريفاشانكار جاججيفان . وقررت ان استأجر « بنجلاً » . حسن التهوية في « باندر » أو « ساننا كروز » . وكان في وجود المسلخ في باندر ما صرف تفكيرنا عنه ، آخر الأمر . وكان حيّ « غاتكوبار » والمواطن القرية منه بعيدة عن البحر أكثر مما ينبغي . وأخيراً عثرنا على « بنجل » لطيف في ساننا كروز ، فاستأجرناه بوصفه أفضل البيوت من وجهة النظر الصحية .

واشترت تذكرة موسمية من تذاكر الدرجة الأولى للانتقال من ساننا كروز إلى تشير تشجاي . وأذكر اني كثيراً ما استشعرت بعض الفخر لكوني راكب الدرجة الأولى الأوحده ، في مقصوري . وكثيراً ما مشيت إلى باندر لكي أستقل القطار السريع من هناك إلى تشير تشجاي مباشرة .

وازدهر عملي في المحاماة أكثر مما توقعت . وكان موكلتي في جنوب افريقية كثيراً ما يكلفوني ببعض الأعمال ، وكان ذلك كافياً لتمكيني من النهوض بأعباء العيش .

ولم أكن قد وقفت ، بعد ، إلى الفوز بأيما عمل في المحكمة العليا ، ولكني كنت أشهد جلسات « حلقة المناقشات » التي كانت تُعقد في تلك الأيام ، على الرغم من اني لم أغامر يوماً في المشاركة بأعمالها . وأنا أذكر ان جينميترام ناناباي كان

• bungalow كلمة هندية تعني بيتاً صغيراً من طابق واحد .

يقوم بدور بارز فيها . ومثل سائر المحامين الجدد كنت آخذ نفسي بالاستماع إلى الدعاوى التي كانت تُنظر في المحكمة العليا . وأخشى أن تكون رغبتى في ذلك الاستماع راجعة إلى التمتع بالنسيم المنوم الذي كان يهب من جانب البحر مباشرة ، أكثر مما كانت راجعة إلى رغبتى في الاستزادة من المعرفة . ولقد لاحظت أنني لم أكن وحدي أتمتع بذلك النسيم العليل . يبدو أن ذلك كان شائعاً . ومن هنا فليس يُعتبر شيئاً يُعذر بالمرء أن يستحي به .

وأياً ما كان . فقد بدأت أفيد من مكتبة المحكمة العليا : وأتعرّف إلى أصدقاء جدد . واستشعر أن عليّ أن أضمن عملاً في المحكمة العليا . وفي وقت قريب .

وفيا كنت قد أخذت أحسنّ بالارتياح في أمر عملي الخفوق كان غوكهايل ، الذي كانت عيناه لا تفارقاني أبداً . منهمكاً في وضع خطته الخاصة من أجلي : كان يختلف إلى مكنتي مرتين أو ثلاث مرات كل اسبوع . وكثيراً ما كان يصحب في هذه الزيارات أصدقاء يرغب في تعريفني إليهم . ولقد أبقاني على اتصال بطريقته في العمل .

ولكن في استطاعتي أن أقول أن الله لم يشأ لأيّ من خططي أن تصمد وتستمر أبداً . لقد وجهها كلها وفق ما يجب وبرضى .

فلم يكد يبدو أنني وفقت إلى ما أوجب فيه من استقرار حتى تلقيت برقية غير متوقعة من جنوب افريقية : « تشيرلن منتظر حضوره إلى هنا . الرجاء أن ترجع حالاً » . وتذكرت وعدي ، فأبرقت أقول أنني سوف أكون مستعداً للسفر حالماً أزود بنفقات الرحلة . فاستجاب القوم في الحال . فتخليت عن مكنتي . وذهبت إلى جنوب افريقية .

وكنّ أحسب أن العمل هناك سوف يشغلني عاماً على الأقل . وهكذا احتفظت بالـ « بنجل » ، وتركزت زوجتي وأولادي هناك .

واعتقدت آنذاك أن الشبان المخامرين الذين حجزوا عن أن يبدوا منفذاً في البلاد يجب أن يهاجروا إلى بلدان أخرى : وهكذا اصططحت أربعة أو خمسة من

مثل هؤلاء الشبان . وكان أحدهم ماغانلال غاندي .

لقد كانت اسرة غاندي . ولا تزال . اسرة ضخمة . وكنت اريد ان أبحث عن جميع اولئك الذين يرغبون في هجر المجاز المهد وفي المغامرة ما وراء البحار . لقد كان من دأب أبي أن يوظف بعضهم في بعض الدوائر الحكومية ؛ ولقد رغبت في تحريرهم من هذا الداء . ولم أكن قادراً على ضمان عمل آخر لهم ، لا ، ولا كنت راغباً في ذلك . كنت أريد منهم أن يتكلموا على أنفسهم ؛ ولكن . فيها تقدمت مثلي العليا . حاولت أن أقنع اولئك الشبان أيضاً بأن يساقوا ما بين 'مثلهم' و'مثلي' . ولقد نجحت أعظم النجاح في توجيه ماغانلال غاندي . بيد أنني سوف أترك الكلام على ذلك لنصل قادم .

إن افتراقني عن زوجتي وأولادي . وقطعي لاقامة مستقرة . وانظامي من اليقيني إلى غير اليقيني - كل ذلك كان مؤلماً في أول الأمر . ولكني كنت قد عودت نفسي الحياة القلقة . واحسب أن من الخطأ أن يتوقع المرء اليقنيات في هذا العالم . حيث كل شيء - باستثناء الله الذي هو الحقيقة - غير يقيني . إن كل ما يبدو لنا ويحدث حولنا هو لا يقيني ، عرضي . ولكن ثمة كائناً أسمى مستتراً في ذلك كله كشيء يقيني . ومبارك هو ذلك الذي يلمح ذلك اليقين ، ويشد عرَبته اليه . إن السعي وراء هذه الحقيقة هو خير الحياة الأعلى . .

ووصلت إلى دوربان في اللحظة التي كان ينبغي أن أصل فيها . كان ثمة عمل ينتظرنني . وكان موعد مقابلة الوفد لمستر تشمبرلن قد حُدد . وكان عليّ أن أضع مسودة المذكرة التي ستقدم اليه ، وأن أرافق الوفد .

# قِصَّةُ تَجَارِبِي مَعَ الْحَقِيقَةِ

القِسمُ الرَّابِعُ



## ١ . مقابلة مسر تشمبرلن

كان مسر تشمبرلن قد أقبل ليتلقى هبةً تبلغ قيمتها خمسة وثلاثين مليون جنيه من جنوب افريقية ، وليكسب قلوب الانكليز والبوير . وهكذا طسوى كسحاً عن الوفد الهندي .

لقد قال :

— « انتم تعلمون ان الحكومة الامبراطورية لا تسيطر على المستعمرات ذات الاستقلال الذاتي إلا قليلا . والذي يبدو لي ان مظامكم حقيقية . وسوف أعمل من أجلكم ما أستطيع . ولكن عليكم ان تهذبوا من نائرة الأوروبيين : مسا استطعتم . إذا كنتم ترغبون في العيش بينهم . »

وأوقع هذا الجواب القشعريرة في أوصال أعضاء الوفد . وأصبت أنا أيضاً بخيبة أمل . لقد كان ذلك موقظاً لنا جميعاً ، ولقد رأيت ان من واجبتنا ان نبداً عملنا من جديد . وأوضحت الموقف لزملائي .

والواقع انه لم يكن ثمة علة في جواب مسر تشمبرلن . ولقد احسن صنعاً في عدم تلطيفه للأمر . لقد أفهمنا بطريقة رقيقة ان الحق للقوة ، وان شريعة السيف هي السائدة .

ولكننا ما كنا نملك سيفاً . بل لقد كدنا نكون فاقدين للأعصاب والعضلات التي تمكنا من احتماج جراحات السيف .

إن مسر تشمبرلن لم يُفرغ « لنائرة الفرعية » غير قليل من الوقت ، وإذا كانت المسافة من شريناغار إلى رأس كورورين ١٩٠٠ ميل . فان المسافة من دوربان إلى مدينة الرأس ( كاياب ناو ) لا تقل عن ١١٠٠ ميل ، ولقد كان على مسر



تشمير لن ان يقطع المسافة الطويلة بسرعة الاعصار :

فمن ناتال انطلق مسرعاً إلى الترانسفال . وكان عليّ ان اهيّ مذكرة الدفاع عن الهنود المقيمين هناك ، أيضاً ، وأن أقدمها اليه . ولكن انّنى لي ان أصل إلى بريتوريا ؟ ان شعبنا هناك لم يكن في مركز يمكنه من الفوز بالتسهيلات القانونية الضرورية لا يصاله إلى بريتوريا في الوقت المناسب . كانت الحرب قد احوالت الترانسفال إلى تيج بعوي وينج . ولم يكن من سبيل إلى الحصول على المؤن والملابس . كانت ثمة دكاكين فارغة أو موصدة ، تنتظر ان تُملا أو تفتح ثانية ؛ ولكن ذلك كان يحتاج إلى وقت . وحتى المهاجرون لم يكن في الامكان ان يُسمح لهم بالعودة إلا بعد ان تزود الدكاكين بالمؤن . وهكذا كان على كلّ ترانسفالي ان يستصدر اذنًا بالانتقال . ولم يكن الأوروبيون ليجدوا أيما صعوبة في الفوز بالاذن ، ولكن الهندي كان يجد ذلك أمراً عسيراً جداً .

وخلال الحرب كان كثير من الضباط والجنود قد وفدوا إلى جنوب افريقية من الهند وسيلان ، ولقد كانت السلطات البريطانية تعتبر من واجها ان تعنى بأمر الراغبين منهم في الاستقرار هناك . كان عليها ، بأية حال ، ان تعين ضباطاً جدداً ، وكان اولئك الرجال المجربون في متناول اليد . وأدت براعة بعضهم إلى خلق دائرة جديدة . ولقد كشف ذلك عن دهائهم . فقد كان ثمة دائرة خاصة بالزنوج ، فلم لا يكون ثمة دائرة خاصة بالآسيويين ؟ وبدت الحجة صائبة جداً . وحين وصلت إلى الترانسفال كانت هذه الدائرة قد افتتحت . وكانت قد بدأت تمد ملاسها . . وكان في ميسور الموظفين الذين كانوا يمنحون الاجازات للاجئين العائدين ان يمنحوها للجميع ، ولكن انى لهم أن يفعلوا ذلك ، في ما يتصل بالآسيويين ، من غير تدخل الدائرة الجديدة ؟ وإذا ما أصدرت الاجازات بناء على توصية الدائرة الجديدة ، فان بعض مسؤوليات

---

• الملاس : ما تشمين به بعض الحيوانات ، واللائقية منها بصورة خاصة ، على  
لسان والجس . tentacles

وأعباء موظفي الاجازات سوف تُنتقص . على هذا النحو كانوا يناقشون المسألة ، وأياً ما كان . فالواقع ان الدائرة الجديدة كانت تلتزم مبرراً لوجودها ، وكان القوم في حاجة إلى مال . فاذالم يكن ثمة عمل ما فعندئذ تجد السلطات ان الدائرة غير ضرورية . فتعتمد إلى الغائها . وهكذا أوجدوا هذا العمل لأنفسهم .

وكان على الهنود ان يراجعوا هذه الدائرة في كل ما يتصل بشؤونهم ، فتمنحهم الجواب بعد عدة أيام . وإذا كان ثمة كثير من الراغبين في العودة إلى الترانسفال . فقد نما جيش من الوسطاء أو السامسة . الذين راحوا يبتزون ، هم والضباط . آلاف الجنيهاً من فقراء الهنود . ولقد قيل لي إن أياً من الاجازات ما كانت تمنح إلا لمن يدعمهم أصحاب النفوذ ، وانه كان على المرء في بعض الأحيان ان يدفع رشوة قد تبلغ مئة جنيه ، على الرغم من تمتعه بتأييد أحد النافذين . وهكذا بدا لي وكأن ليس ثمة من سبيل مفتوح أمامي . وقصدت إلى صديقي القديم ، مدير شرطة دوربان ، وقلت له : « ارجوك أن تقدمني إلى موظف الاجازات ، وتساعدني على الفوز بأذن . أنت تعرف اني كنت في يوم من الأيام مقيماً في الترانسفال . فاعتمر بقبعة في الحال ، وخرج . وضمن لي ذلك الاذن . ولم يكن قد بقي لانطلاق قطاري غير ساعة أو أقل . وكنت قد أعددت أمتعتي . فشكرت المدير ألكسندر ، واتخذت سبيلي إلى برينوريا .

كنت قد كونت . الآن . فكرة حسنة عن المصاعب التي تتظنني . فما ان وصلت إلى برينوريا حتى وضعت مسودة المذكرة . وفي دوربان ، لا أذكر ان الهنود كلّفوا بتقديم أساء مندوبيهم قبل المقابلة . ولكن كانت ههنا الدائرة الجديدة التي تحدث عنها . ولقد سألتهم ان يفعلوا ذلك . وكان هنود برينوريا قد عرفوا ان الموظفين أرادوا استبعادني من عضوية الوفد .

ولكن من الضروري ان أفرد فصلاً خاصاً لهذه الحادثة المؤلمة . المسلية في وقت واحد .

## ٢ . مستبدون من آسية

وكان الموظفون القيمون على الدائرة الجديدة في حيرة من أمرهم ، متحرقين إلى اكتشاف الطريقة التي دخلت فيها إلى الترانسفال . لقد استجوبوا الهنود الذين اعتادوا الذهاب إلى دواوينهم ، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا ان يقولوا شيئاً محدداً : وُحِيلَ إلى الموظفين اني انما وفقت إلى دخول البلد من غير اجازة ، وذلك بفضل علاقتي القديمة . ولو كان الحال كذلك اذن لكنت عرضة للاعتقال !

لقد جرى العرف ، عندما تضع احدى الحروب الكبرى أوزارها ، أن تُمنح الحكومة القائمة صلاحيات استثنائية . وهذا ما حدث في جنوب افريقية : كانت الحكومة قد أصدرت « قانون صيانة الأمن » ، الذي نصّ على ان كل من يدخل الترانسفال من غير اجازة يعتقل ويلقى به في غياهب السجن . وتداول القوم في أمر اعتقالي وفقاً لهذا القانون ، ولكن احداً لم يجد في نفسه الجرأة على ان يطلب اليّ ابراز اجازتي :

وكان موظفو دائرة الاجازات قد طيروا برقيات إلى دوربان ، طبعاً ، حتى إذا وجدوا اني دخلت البلد بأجازة ، أصيبوا بخيبة أمل . ولكنهم لم يكونوا من نوع الرجال الذين نفتّ خيبة الأمل في ساعدهم . فعلى الرغم من اني وفقت إلى دخول الترانسفال فقد كان لا يزال في استطاعتهم ان يحولوا بيني وبين مقابلة مستر تشمبرلن .

وهكذا طُلب إلى الجالية ان تقدم بياناً بأسماء المندوبين الذين سيتألف منهم الوفد . وكان التمييز العرقي واضحاً ، طبعاً ، في كل مكان من جنوب افريقية ، ولكني لم أكن مستعداً لأن أجد هنا المعاملة القنرة الخادعة التي وجدتها بين الموظفين الذين عرفتهم في الهند . كانت دوائر الحكومة ، في جنوب افريقية ، تقاوم من أجل خير الشعب ، وكانت مسؤولة أمام الرأي العام . وهكذا فقد كان الموظفون في تلك البلاد ذوي كياسة وتواضع ، وكانت الشعوب الملونة نفسها

تفيد من ذلك ، قليلاً أو كثيراً . ومع مجيء الموظفين من آسية . جاءت  
اوتوقراطيتها أيضاً ، والعادات التي غرسها المستبد هناك . وفي جنوب افريقية  
كان ضرب من الحكومة المسؤولة أو الديمقراطية ، على حين ان البضاعة المستوردة  
من آسية كانت الاوتوقراطية الصرفة ! ذلك ان الآسيويين لم تكن عندهم حكومة  
مسؤولة . لأن هناك دولة أجنبية تحكمهم . وفي جنوب افريقية ، كان الأوروبيون  
مهاجرين متوطنين . لقد أمسوا مواطنين « جنوباًفريقيين » ، وكان لهم رقابة على  
موظفي الدوائر الرسمية . ولكن الاوتوقراطيين الآسيويين برزوا الآن على  
المسرح ، وهكذا وجد الهنود أنفسهم بين الشيطان والبحر البعيد الغور .

ولقد ذقت طعم هذه الاوتوقراطية وخبرتها بنفسي . فقد أحضرتُ لمقابلة  
رئيس الدائرة ، وكان موظفاً من سيلان . وخشية ان يُظن اني أغالي بقولي اني  
« أحضرتُ » للمقابلة الرئيس ، سأسارع إلى توضيح الأمر . انهم لم يرسلوا إلي  
احضاراً خطياً . بيد أن الزعماء الهنود كانوا كثيراً ما يزورون الموظفين الآسيويين ،  
وكان من بين هؤلاء الزعماء المرحوم الشيث طيب حاجي خان محمد . وسأله  
رئيس المكتب من أنا ، ولماذا جئت إلى هنا .

فقال طيب شيث :

— « إنه مشراننا ، ولقد جاء إلى هنا بناء على طلبنا . »

فسأله الاوتوقراطي :

— « إذن فلأي شيء نحن موجودون هنا ؟ ألم نعيّن في هذه الوظيفة لحمايتكم ؟ »

وما الذي يستطيع غاندي أن يعرفه عن الأحوال هنا ؟ »

ورد طيب شيث على التهمة احسن ما استطاع ان يردّ عليها :

— « انتم هنا طبعاً . ولكن غاندي هو رجُلنا . إنه يعرف لغتنا ، ويفهمنا ، »

وانتم ، على أية حال ، موظفون . »

وأمر « صاحب » طيب شيث ان يأتي بي اليه . فقصدت إلى « صاحب » ،

يصحني طيب شيث وآخرون . ولم تقدم الينا كراسي . لقد بقينا كلنا واقفين :

وقال صاحب موجهاً الخطاب إليّ :

— « ما الذي جاء بك إلى هذا البلد ؟ »

فأجبت :

— « لقد جئت نزولاً عند طلب أبناء وطني لكي أساعدهم بتوجيهي

ونصيحتي . »

— « ولكن ألا تعلم أنه لا حق لك في المجيء إلى هنا ؟ ان الاجازة التي تحملها قد أعطيت اليك خطأ . وليس في استطاعتنا ان نعتبرك هندياً مقيماً . يجب أن تغادر البلاد . ولن يُسمح لك بمقابلة مستر تشمبرلن . ان « الدائرة الآسيوية » انما تُخلقت خصيصاً لحماية الهنود في هذه البلاد . حسناً : في استطاعتك أن تنصرف . »

قال ذلك وصرفي ، من غير ان يعطيني فرصة للاجابة . ولكنه استبقى رفاقي ، وعنفهم تعنيفاً شديداً ، ونصحهم بأعادتي إلى الوطن . وانقلب الرفاق محزونين . لقد كنا نواجه ، الآن ، وضعاً غير مرتقب .

### ٣ . السكوت على الالهانة ..

وأوجعتني تلك الالهانة ، ولكنني كنت قد تعودت الالهانات بعد ان سكنت على كثير منها في الأيام الماضية . وهكذا قررت أن أتناسى هذه الأخيرة ، وأسلك السبيل الذي قد تلميه نظرة رصينة إلى الموقف .

وتلقينا رسالة من رئيس الدائرة الآسيوية ، مفادها اني لما كنت قد قابلت مستر تشمبرلن في دوربان فقد رثي ان من الضروري حذف اسمي من بين أسماء أعضاء الوفد الذي سوف يقابله .

وكانت الرسالة أقسى من أن يحتملها أعواني في العمل : فاقترحوا إلغاء فكرة المقابلة جملةً واحدة ، فلفت نظرهم إلى حالة الجالية الحرجة :

وقلت :

— « إذا لم تبسطوا قضيتكم لمستر تشمبرلن فسوف يُفترض أنه لبست لكم قضية البنة . وعلى أية حال : فإن هذه القضية يجب أن تبسط في مذكرة خطية . ولقد أعدنا هذه المذكرة . وليس مما يقدم أو يؤخر على الإطلاق أن اتلوها أنا أو أيما شخص آخر . ومستر تشمبرلن لن يناقشنا في المسألة . وأخشى أن نكون مضطرين إلى ازدراد الإهانة . »

ولم أكد أنه سيكلامي حتى صاح طيب شيث :  
— « أليست الإهانة الموجهة إليك إهانة إلى الجالية كلها ؟ كيف نستطيع أن ننمى أنك مثلنا ؟ »  
نقلت :

— « هذا صحيح مئة بالمئة . ولكن حتى الجالية يتعين عليها أن تكتم على إهانات مثل هذه . هل يوجد ثمة طريق آخر يمكن أن نسلكه ؟ »  
فتساءل طيب شيث :

— « ليكن ما يكون ! فما الذي يحملنا على ازدراد إهانة جديدة ؟ إن شيئاً أسوأ من ذلك لن يحدث لنا . هل نملك كثيراً من الحقوق حتى نخشى فقدانها ؟ »  
كان ذلك جواباً جريئاً . ولكن أي فائدة كان ينطوي عليها ؟ لقد كنت أعني ، أحسن الوعي . مواطن الضعف عند الجالية . فهدأت ثائرة أصدقائي ، ونصحتهم بأن يصطحبوا . مكاني . مستر جورج غودفراي . وهو محام هندي .

وهكذا قاد مستر غودفراي الوفد . وأشار مستر تشمبرلن في جوابه إلى إقصائي عن عضوية الوفد . فقال محاولاً أن يلازم الجرح :  
— « اليس الاستماع إلى مندوب جديد خيراً من الاستماع مرة بعد مرة إلى رجل واحد ؟ »

ولكن هذا كله لم يَنْهَ المسألة . لا . لقد أضاف إلى عمل الجالية وإلى عملي أيضاً عبئاً جديداً . كان علينا أن نعاود البدء من أول الطريق .  
— « لقد قدمت الجالية مساعداتها في الحرب بناء على إلحاحك ، وها أنت

تري النتيجة الآن ! هذه الكلمات أخرجني بعض القوم . ولكن هذا الاحراج لم يوت أيما ثمرة . فقلت :

— كنت نادماً على نصيحتي . فانا لا أزال أعتقد أننا أحسننا صنعا في المشاركة في الحرب . فنحن بذلك إنما قمنا بواجبنا ليس غير . وقد لا نطمح في الفوز بأي ثواب على أعمالنا ، ولكني مؤمن أشد الايمان بأن كل عمل صالح لا بد أن يشمر في النهاية . فلننس الماضي ، ولنفكر في المهمة التي تنتظرنا .

فأقروني القوم على ذلك .

وأضفت قائلاً :

— « أقول لكم الحق : إن العمل الذي استدعيتوني من أجله قد انتهى عملياً . ولكني أعتقد ان من واجبي أن أبقى في الترانسفال ، أطول مدة ممكنة ، حتى ولو أجزتم لي العودة إلى الوطن . وبدلاً من متابعة عملي من ناتال ، شأني في ما مضى ، يتعين علي الآن ان أبأشر هذا العمل من هنا . إن علي أن لا أفكر بعد الآن في العودة إلى الهند خلال عام واحد ، وان علي أيضاً ان أسعى لادراج اسمي في سجل المحامين الذين يحق لهم الترافع أمام محكمة الترانسفال العليا . وان عندي من الثقة بالنفس ما يمكنني من التعامل مع هذه الدائرة الجديدة . وإذا لم تفعل ذلك ، فان الجالية سوف تطرد من هذه البلاد ، بالاضافة إلى ما تعرض له من نهب موصول . وسوف تراكم عليها في كل يوم اهانات جديدة . ان رفض مسر تشمبرلن استقبالي واهانة الموظف لي ليس شيئاً يُذكر أمام إهانة الجالية كلها . وعندئذ يصبح من المتعذر علينا ان نحتمل حياة الكلاب الحقيقية التي يُستظر أن تُفرض علينا . »

وهكذا أقنعتهم ، وأخذت أدرس مختلف المسائل مع الهنود في برينوريا وجوهانسبورغ . وقررت آخر الأمر انشاء مكتب لي في جوهانسبورغ .

وكنت في ريب من أنهم سيجيزون لي الترافع في محكمة الترانسفال العليا . ولكن « الجمعية القانونية » لم تعرض على طلبي ، ولقد أقرته المحكمة أيضاً ، وكان من العير على امرئ هندي ان يجد مكاناً يتخذ منه مكتباً في حيّ من

الاحياء المناسبة . ولكني كنت عقدتُ صلوات وثيقة مع مسر ريتش ، الذي كان آنذاك أحد التجار في ذلك البلد . ومن طريق أحد مكاتب الاستخبار التي يعرفها هذا التاجر ، اهديت إلى مكان مناسب أقيم فيه مكتباً لي في حيّ المحامين من تلك المدينة ، وبدأت عملي الحقوقي .

#### ٤ . اذكاء روح التضحية

قبل ان أروي حكاية النضال من أجل حقوق الهنود المقيمين في الترانفال وصالاتهم بالدائرة الآسيوية ، يتعيّن عليّ أن التفت إلى وجوه أخرى من حياتي . كانت تتنازعني حتى الآن رغبة مختلطة . فقد امتزجت روح التضحية بالنفس ، بالرغبة في ادّخار شيء للمستقبل .

فيوم استأجرت مكتباً لي في بومباي وفد إلى هناك وأخذ وكلاء التأمين الأميركيين ، وكان رجلاً جميلاً المحيا عذب اللسان . لقد راح يناقش مصلحتي المستقبلية وكأننا صديقان قديمان ، فقال :

« إن جميع الرجال الذين يحتلون في أميركا مثل مكانتك الاجتماعية يعتمدون إلى التأمين على حياتهم . فهلاً سارعت أنت أيضاً إلى التأمين على حياتك ضد أخطار المستقبل ؟ إن الحياة قلقة . ونحن في أميركا نعتبر تأمين المراه على حياته شبه فريضة دينية . هل سأوفق إلى اقناعك بأن نخسار عقداً صغيراً من عقود التأمين ؟ »

كنت حتى تلك اللحظة قد أعرضت عن جميع وكلاء التأمين الذين لقيتهم في جنوب إفريقيا والهند ، ذلك أنني كنت أعتقد ان التأمين ينطوي على الخوف وعلى فقدان الايمان بالله . ولكني استسلمت الآن لأغراء الوكيل الأميركي . وفيها كان مسرلاً في محاولة اقناعي تراءت في ذهني صورة " لزوجتي وأولادي . فقلت في ذات نفسي : « يا رجل ، لقد بعث جميع حلي زوجتك تقريباً . فاذا ما اصابك شيء فان عبء إعالتها وإعالة الأولاد سوف يقع على



عائق أخبك المسكين الذي عرف كيف يحلّ ، في كثير من النبل ، محلّ والد . فكيف ترضى بشيء مثل ذلك ؟ بمثل هذه الحجج اقنعت نفسي باختيار عقد تأمين بقيمة عشرة آلاف روبية .

ولكنّ حين تغيرت طريقة حياتي في جنوب افريقية تغيرت نظرتي إلى الأمور أيضاً . كنت قد قمت بجميع خطواتي في تلك الفترة من التجربة على اسم الله وفي سبيله . وما كنت أعرف كم سيطولُ مقامي في جنوب افريقية . وكان يساورني خوف بخيل اليّ أنّي لن أستطيع العودة إلى الهند البتة . وهكذا قررت أن أبقي زوجتي وأولادي إلى جانبي وأن اكسب دخلاً يكفي لعائلتهم . هذه الخطة جعلتني أتأسف لتوقيعي عقد التأمين ، وأسئني من وقوعي في شرك وكيل الشركة الاميركي . وقلت في ذات نفسي : إذا كان أخي في منزلة أبي حقاً ، فلا ريب في أنه لن يستكثّر عبء اعادة ارملي ، إذا ما احتاج الأمر إلى ذلك . ثم ، ما الذي يجعلني أفترض ان الموت سيتخطّفني قبل غيري ؟ وإياً ما كان فالهامي الحقيقي ليس أنا ولا أخي ، ولكنه الكلي القدرة . إنني ، بالتأمين على حياتي ، قد سلبت زوجتي وأولادي اتكالمهم على أنفسهم . ولماذا أفترض أنهم لن يحسنوا إعالة أنفسهم ؟ ما الذي حدث لأسر الفقراء الذين لا يحصى عددهم ، في العالم ؟ لماذا لا أعدّ نفسي واحداً منهم ؟

إن جمهرة من مثل هذه الأفكار مرّت في خاطري ، ولكني لم أعمل بموجبها في الحال . وأذكر أنّي دفعت قطعاً واحداً من أقساط التأمين ، على الأقل ، في جنوب إفريقيا .

ودعمت الاحداث الخارجية هذا النسق من التفكير أيضاً . ففي خلال مقامي الأول في إفريقيا الجنوبية كان التأثير النصراني هو الذي أبقي الحس الديني حياً في ذات نفسي . أما الآن فكان التأثير الثيوصوفي هو الذي زاده قوة . فقد كان مستر ريتش ثيوصوفاً ، ولقد مهد لي سبيل الاتصال بالجمعية الثيوصوفية في جوهانسبورغ . ولم أصبح قط عضواً ، فقد كانت لوجهات نظري المغايرة ، ولكني

احتكتك احتكاكاً وثيقاً بجميع الثيوصوفيين تقريباً . كنت أناقشهم في المسائل الدينية ، كل يوم . وكان من عادة القوم ان يستمعوا إلى تلاوة من الكتب الثيوصوفية ، وكانت تتاح لي بعض الأحيان ، فرصة الخطابة في اجتماعاتهم . إن قوام الثيوصوفية العمل على تنمية فكرة الأتقاء وتعزيزها . ولقد تناقشنا كثيراً في هذا الموضوع ، وانتقدت الاعضاء كلما بدا لي ان سلوكهم لا ينسجم مع مثلهم الأعلى . ولم يكن هذا النقد خلواً من الفائدة لي . فقد قادني إلى الاستبطان . .

## ٥ . نتيجة الاستبطان

عندما احتكتك ، عام ١٨٩٣ ، احتكاكاً وثيقاً بأصدقائي النصارى ، كنت مجرد مبتدئ غرّ . لقد بذلوا غاية جهدهم لتوضيح رسالة المسيح لي ، وحملني على الإيمان بها ، فكنت استمع اليهم ، بعقل منفتح ، وبروح من التواضع والاحترام . وكان من الطبيعي أن أدرس ، في ذلك العهد ، الديانة الهندوسية ، على احسن ما تمكنني مقدرتي ، وان احاول فهم الأديان الأخرى . أما في سنة ١٩٠٣ فكان الوضع مختلفاً بعض الشيء . لقد حاول أصدقائي الثيوصوفيون ان يذبوني إلى جمعيتهم ، طبعاً ، ولكنهم إنما فعلوا ذلك لكي يفوزوا مني بشيء ، بوصفي هندوسياً . إن الأدب الثيوصوفي "مفعم" بالآثر الهندوسي ، وهكذا توقع هؤلاء الأصدقاء أن أكون مفيداً لهم . وأوضح أن دراستي السنسكريتية لا تستحق الذكر ، واني لم أقرأ الكتب الهندوسية في أصولها ، وأن اطلاعي على الترجمات كان هو الآخر ضئيلاً إلى أبعد الحدود . ولكن لما كانوا يؤمنون بالـ "سامسكارا" ( التزعات الناشئة عن الولادات السابقة ) وبالـ "بونارجانما" ( الولادة من جديد ) فقد افترضوا اني لا بد قادر على ان أسدي اليهم بعض العون ، على الأقل ، وهكذا شعرت وكأنني

تريتون • بين اسماك المتونة minnows . وبدأت اقرأ في « راجايوغا »  
سوامي فانيكاناندا مع نقر مع هؤلاء الاصدقاء ، و « راجايوغا » ديفيدي مع  
نفر آخرين . وكان عليّ ان اقرأ كتاب « يوغا سوتراس » مع احد الاصدقاء ،  
وال « باغافادجيتا » مع اصدقاء متعددين . وشكلنا ضرباً من « نادي الساعين  
إلى المعرفة » حيث كنا نستمع إلى تلاوات نظامية . وكان لي إيمان سابق بالجيता ،  
هذا الكتاب الذي كان يفتني . والآن أدركت ضرورة الغوص فيه أعمق فأعقب ،  
وكانت الذي ترجمة أو ترجمتان ، حاولت بواسطتها ان افهم النص السنسكريتي  
الاصلي . ووطنت النية أيضاً على ان أحفظ عن ظهر قلب بيتاً أو بيتين كل يوم .  
ومن أجل هذا الغرض أفدت من فترة الاغتسال الصباحي . وكانت هذه العملية  
تستغرق خمساً وثلاثين دقيقة من وقتي ، خمس عشرة دقيقة لفرشاة الاسنان ،  
وعشرين للحمام . وكنت أقوم بالشق الأول واقفاً على الطريقة الغربية . وهكذا  
ألصقت على الجدار المقابل قصاصات من الورق كتبت عليها أبيات الجيتا ،  
فكنت أعاود لقاء النظر عليها بين القينة والفينة تطريةً لذاكرتي . ولقد وجدت  
أن هذا الوقت كاف لحفظ الجزء اليومي ، ولاستحضار الايات التي سبق لي  
حفظها . واذكر أنني حفظت بهذه الطريقة ثلاثة عشر فصلاً . ولكن حفظ  
الجيتا عن ظهر قلب كان لا بدّ من أن يفسح الطريق لعمل آخر ولخلق  
« الساتياغراها » وتغذيتها ، وهو جهد استغرق كل وقت التفكير عندي ، كما أن  
تغذية الساتياغراها ( اللاعنف ) لا تزال تستغرق الوقت نفسه حتى اليوم .

إن أصدقائي وحدهم هم الذين يستطيعون ان يقدروا الأثر الذي تركته  
تلاوة الجيتا في نفوسهم ، أما أنا فقد كان من نتائج تلك التلاوة أن أصبحت  
الجيتا هادياً للسلوك معصوماً عن الخطأ . لقد أصبحت المعجم الذي أرجع اليه  
كل يوم . فكما كنت أفزع إلى المعجم الانكليزي التأسلي للكلمات الانكليزية

---

• Triton ، في الميثولوجيا ، اله من آله البحر ، ابن بوسيدون وأثينيت ،  
وكانوا يعتقدون ان له رأساً وجلماً مثل رأس الانسان وجلماً ، وذيل كذيل السمكة ،  
وانه يحمل بوقاً من المحار ( المرب )

التي لا أهمها ، كذلك كنت أرجع إلى قاموس السلوك هذا التماساً لحلّ جاهر لجميع متاعبي ومعني . لقد استحوذت عليّ كلمات من مثل « آباريفراهه ( اللاتملك ) » وال « سامباهافا » ( التعادلية ) . وكان هذا السؤال يتلخص في كيف يستطيع المرء ان ينمّي تلك التعادلية ويحافظ عليها . كيف يتعيّن على المرء أن يسوّي في المعاملة ما بين الموظفين الفاسدين المتغطرسين المُهمنين ، رفاق العمل بالأمس المثيرين معارضة لا معنى لها ، وبين الأفراد الذين طالما أحسنوا إليه على غير انقطاع ؟ كيف يستطيع المرء ان يحرّد نفسه من كل ممتلكاته ؟ أليس الجسد في ذات نفسه ملكاً ؟ أليست الزوجة والأولاد ممتلكات ؟ هل يتعيّن عليّ ان احطم جميع خزائن الكتب التي عندي ؟ هل يتعيّن عليّ ان اتخلّى عن كل ما أملك وأتبع الملأ الاالهية ؟ وجاءني الجواب في الحال : اني لن استطيع أن أتبع الذات الاالهية إلا إذا تخلّيت عن كل ما أملك . وأسّرت دراسي للقانون الانكليزي إلى مساعدتي . فتذكرت مناقشة « سنيل » Snell لقواعد العدل . وعلى ضوء تعاليم الجيتا فهمت مضامين لفظة « الوحي » فهماً أوضح : وازداد احترامي لعلم التشريع ، لقد اكتشفتُ فيه الدين . وفهمت تعاليم الجيتا الخاصة باللاتملك على هذا النحو : ان اولئك الذين يرغبون في الخلاص يجب ان يسلكوا ملك الوصي الذي يسيطر على ممتلكات ضخمة ، ومع ذلك فهو لا يعتبر أن ذرّة واحدة منها هي ملكٌ له . واثّض لي ، وضوح الشمس في رابعة النهار ، ان اللاتملك والتعادلية يفترضان تغيّر القلب ، تغيّر السلوك . وعندئذ كتبت إلى ريفاشانكاراياي بأبطال عقد التأمين واسترجاع ايماء مبلغ يستطيع استرجاعه ، والا فليعتبر جميع الاقساط المدفوعة وكأنها ضاعت ، ذلك لانني كنت قد اقتنعت بأن الله ، الذي خلق زوجتي وأولادي كما خلقني أنا ، سوف يُعني بهم . وإلى أخوتي ، الذي كان بمثابة الاب بالنسبة اليّ . كتبت موضحاً اني سبق لي ان اعطيته كل ما ادّخرته حتى تلك اللحظة . وان عليه ان لا يتوقع شيئاً مني بعد اليوم ، لأن ما سأقتصده في المستقبل - هذا إذا اقتصدت شيئاً - سوف يرصد لخبر الجالبة .

ولم أوفق إلى إفهام أخي هذه المسألة ، في سهولة ويسر . فقد أوضح لي ، في لغة صارمة ، واجباتي إزاءه ، وقال ان عليّ ان لا أطمع في أن أصبح أكثر حكمة من والدنا . وأن عليّ ان أعيل الاسرة كما فعل . فلفت نظره إلى اني انما أفعل ما فعله والذي بالضبط . كل ما في الأمر ان معنى « الاسرة » يحتاج إلى أن يوسّع توسيعاً ضئيلاً ، وعندئذ تنضح الحكمة التي تنطوي عليها خطوتي هذه .

وهجرني أخي ، وحجب عني رسائله . وآلني ذلك ابلاماً عميقاً ، ولكنني كنت جديراً بأن اتألم أكثر لو تخلّيت عما اعتبرته واجباً عليّ ، ولقد آثرت الألم الأصغر . ولكن ذلك لم يقلل من اخلاصي له ، ذلك الاخلاص الذي ظلّ طاهراً عظيماً شأنه في أيما وقت مضى . والواقع أن حبه العظيم لي كان أصل حزنه وشقائه . فهو ما كان راغباً في مالي بقدر ما كان راغباً في أن يراني براً بالاسرة ؛ بيد أنه قدّر ، في أخريات أيامه ، وجهة نظري . فقد كان على فراش الاحتضار تقريباً عندما أدرك ان خطوتي كانت صائبة ، وكتب اليّ رسالة مؤثرة إلى أبعد الحدود . لقد اعتنر اليّ ، إذا جاز لأب أن يعتنر إلى ولده . وعهد اليّ في العناية بأولاده ، لكي انشغلهم على الوجه الذي أراه ملائماً ، وعبر عن تحرقه إلى لقائي . وأبرق اليّ يقول إنه راغب في المجيء إلى جنوب افريقية ، فأبرقت قائلاً إن في استطاعته ذلك . ولكن هذا لم يتمّ ، وكذلك لم تتحقق رغبته في ما يتصل بتنشئة أولاده . فقد توفي قبل ان يوفق إلى السفر إلى جنوب افريقية ، وكان أولاده قد نشئوا في الجو القديم فلم يستطيعوا تغيير مجرى حياتهم . لقد عجزت عن اجتذابهم نحوّي . ولم تكن تلك غلظتهم . فمن ذا الذي يستطيع ان يقول إلى هنا ، لا إلى أبعد ، لأمواج طبيعته الخاصة ؟ من ذا الذي يستطيع ان يحو الانطباعات التي فطر عليها ؟ من العبث الذي لا طائل تحته أن يتوقع المرء من أولاده ومن القاصرين الموكول أمرهم اليه أن يتبعوا بالضرورة سبيل التطور نفسه الذي اتبعه هو .

وهذه الحادثة تظهر أي مسؤولية رهبة أن يكون المرء والدًا .

## ٦ . فضيحة من اجل المذهب النباتي

فيما كانت مُثُل التضحية والبساطة تحقق عندي أكثر فأكثر ، وفيما كان الوعي الديني يُذكرى أكثر فأكثر في حياتي اليومية ، أخذ ولوعي بالمذهب النباتي ، بوصفه رسالة ، يقوى ويتعاظم . وكنت قد عرفت حتى ذلك الحين طريقة واحدة من طرائق القيام بالعمل التبشيري ، أعني ضرب المثل الشخصي ، والمناقشة مع الباحثين عن الحقيقة .

وكان في جوهانسبورغ مطعم نباتي يديره رجل الماني كان يؤمن بطريقة « كوهن » في المعالجة بالماء . وكنت أنا أختلف إلى ذلك المطعم واساعده بأن أصطحب بعض الاصدقاء الانكليز إلى هناك . ولكني وجدت انه لن يُعَمَّر ، إذ كان يعاني مصاعب مالية موصولة . وساعدته على قَدْر ما رأيت انه يستحق المساعدة ، وانفقت بعض المال عليه ، ولكن صاحبه اضطر آخر الامر إلى إغلاقه ،

إن معظم الثيوصوفيين نباتيون ، كثيراً أو قليلاً ، ولقد برزت الآن على المسرح سيدة مغامرة من ميدات تلك الجمعية فأنشأت مطعمًا نباتيًا على نطاق واسع . كانت شغفة بالفن ، متلافة ، جاهلة بالحمايات . وكانت حلقة أصدقائها واسعة جداً . ولقد بدأت عملها على نحو مصغر ولكنها قررت آخر الأمر ان توسع المغامرة بالانتقال إلى مكان رحب ، وسألني ان امدّ اليها يد العون . ولم أكن أعرف شيئاً عن ماليتها عندما طلبت اليّ ذلك ولكني اعتقدت ان تقديرها كان لا بدّ دقيقاً إلى حد صالح . وكنت في وضع يمكنني من مساعدتها . فقد كان من عادة موكلي ان يستودعوني مبالغ كبيرة من المال . حتى إذا أخذتُ موافقة واحد من هؤلاء الموكلين أعرتها نحواً من الف جنيه من ماله المودع عندي . وكان هذا الموكل كبير القلب ، حسن الثقة . وكان قد قدم ، فسي الأصل ، إلى جنوب إفريقيا بوصفه عاملاً معاهداً ، ولقد قال لي : « اعطها المال إذا شئت . أنا لا أفهم شيئاً في هذه الأمور . أنا اعرفك انت ليس غير . »

كان اسمه بدري . ولقد لعب في ما بعد دوراً بارزاً في حركة اللاعنف، ونحمل آلام السجن أيضاً . وهكذا قدمت القرض إليها ، فمترضاً ان هذه الموافقة كافية .

وفي مدى شهرين أو ثلاثة أشهر عرفت ان المبلغ لن يُسترد . ولم يكن في استطاعتي احتمال مثل هذه الخسارة . وكانت ثمة أغراض كثيرة أخرى كان في ميسوري ان أفيد من هذا المبلغ فيها . ولم يُسترد القرض قط . ولكن كيف أرضى بأن يتحمل بدري الحسن الثقة هذه الخسارة ؟ إنه لم يكن يعرف أحداً غيري ، كما قاله . وهكذا عوضته عما فقد .

وأنبني على حماقتي هذه احد الاصدقاء الموكلين عندما حدثته عن تلك المعاملة . فقد قال لي ( وكنت لحسن الحظ لما أصبح « مهاتما » بعد ، بل ولا « بابو » - أي أب - أيضاً ، فكان أصدقائي يخاطبونني بلقب بابي - أي الأخ - المحب ) :

« بابي » ، لم يكن جديراً بك ان تقدم على شيء كهذا . إننا نعتد عليك في كثير من الاشياء . وأنت لن تسترجع هذا المبلغ بعد اليوم . وأنا أعلم أنك لن تجيز لبدري ان يتحمل أي أذى ، لأنك سوف تدفع اليه ماله من جيبتك . ولكن إذا مضيت في دعم خططك الاصلاحية بأموال موكليك فان هؤلاء الموكلين المساكين سيحل بهم الخراب ، ولن يتقضي زمان طويل حتى تصبح أنت شحاذاً . ولكنك الوصي علينا ، ويجب ان تعرف أنك إذا ما أصبحت شحاذاً فعندئذ يتوقف نشاطنا العام كله . »

هذا الصديق - وأنا أحمد الله على ذلك - لا يزال حياً . والواقع اني لم أعرف قط حتى الآن رجلاً أظهر نساً منه ، في جنوب افريقية أو في أيما مكان آخر . ولقد عرفت من أمره انه كان يعتذر إلى الناس ويرى ذمته حين يجد ان شكوكه فيهم - إذا اتفق له ان شك في احد - لم يكن لها اساس من النصفة . ولقد رأيت ان تحذيره كان في محله . صحيح اني عوضت بدري عما خسره ، ولكني ما كنت قادراً بعد على احتمال ايما خسارة مماثلة . وان ذلك كان خليفاً

به ان بورطني في مهاوي الديون - وهو شيء لم أقدم عليه في حياتي قط ، ولطالما كنت أمقته واكرهه . لقد أدركت ان حاسة الانسان الاصلاحية نفسها ينبغي ان لا تدفعه إلى تجاوز حدوده . كذلك رأيت اني في إعارتي ، على هذا النحو ، المال المودع لديّ ، قد خالفت احد تعاليم الجيتا الرئيسية ، الذي يقضي على الرجل الراجح العقل بأن يعمل من غير ما رغبة في الفوز بشمرة ما . لقد أمست الغلطة مناراً لي يهديني سواء السبيل ويحذرنني من الزلل .

إن التضحية التي قمت بها على مذبح المذهب النباتي لم تكن مقصودة ولا متوقعة . كانت فضيلة من فضا ئل الضرورة .

## ٧ . تجارب في المعالجة بالتراب والماء

كان كرهني للادوية يتعاظم تعاظماً مطرداً كلما ازدادت حياتي بساطة : وفيما كنت امارس عملي الحقوقي في دوربان شكوتُ فترةً من الزمان وهناً والتهاباً روماتيزمياً . فأقبل الدكتور ب . ج . مهتا لمعالجتي ، فشفيت . ومنذ ذلك الحين ، وحتى عودتي إلى الهند ، لا أذكر اني شكوت أبداً مريض يستحق الذكر .

ولكني كنت وأنا في جوهانسبورغ اعاني الامساك وصداعاً متكرراً . فكننت اعالج نفسي بالمسهلات وبالغذاء المشق أحسن تنسيق . ولكني لا أستطيع ان اقول اني كنت ذا صحة جيدة ، وكنت اتساءل دائماً متى سأتححر من كابوس هذه الادوية المليئة .

وحوالى هذه الفترة قرأت عن انشاء « جمعية الاستغناء عن طعام الصباح » في مانشستر . وكانت حجة منشئها ان الانكليز يأكلون أكثر مما ينبغي ، وان واجبات الطعام عندهم أكثر مما ينبغي أيضاً ، وان فوائير اطبا ئهم ضخمة لانهم يواصلون الطعام حتى منتصف الليل ، وان عليهم ان يجتنبوا فطور الصباح ، على



لاقل ، إذا ما أرادوا تحمين حالهم تلك . وعلى الرغم من أن هذه الاشياء لا تصح في ، فقد استشرت ان الحجة تنطبق عليّ جزئياً . فقد كنت اتناول ثلاث وقعات كاملة يومياً ، بالاضافة إلى شاي الاصيل . أنا لم أكن في يوم من الايام ضئيل الاكل ، ولقد كنت استمتع بجميع الطُرف التي يستطيع الغذاء النباتي غير المتّكّل بالبحار أن يقدمها . وكنت نادراً ما استيقظ قبل الساعة السادسة أو السابعة . وهكذا قلت في ذات نفسي : إذا استغيت أيضاً عن طعام الصباح ، فقد تحرر من ضروب الصداع . ومن ثم قمت بالتجربة . كانت صيرة جداً في الايام القليلة الأولى ، ولكن الصداع زال بالمرّة . وقادني ذلك إلى ان استجيت اني كنت آكل أكثر مما ينبغي .

ولكن التغير كان اعجز من ان يتخذني من الامساك . وجربتُ طريقة " كوهن " القائمة على اساس من تحميم الوركين ، مما خفف من وطأة العلة بعض الشيء ولكنه لم يشفي شفاء كاملاً . وفي غضون ذلك اطلعني الالماني صاحب المطعم القديم ، أو صديق آخر ، فقد نيت ، أقول اطلعني على كتاب " عودة إلى الطبيعة " لـ " جوست " . وفي ذلك الكتاب قرأت شيئاً عن المعالجة بالتراب . ودعا المؤلف أيضاً إلى اعتبار الفاكهة الغضة وضروب الجوز طعام الانسان الطبيعي . ولم ألتم غذاء الفاكهة دون غيره في الحال ، ولكنني بدأت التجارب في المعالجة بالتراب على التو ، وبنتائج رائعة . وكانت هذه المعالجة تقضي بتطويق البطن بعصابة من التراب النظيف ، مرطبة بالماء ، ومنشورة مثل كمادة فوق نسيج من الكتان الناعم . وكنت أصطنع تلك العصابة عند ابوائي إلى النوم ، وأزعمها اثناء الليل أو في الصباح ، عندما يتفق لي ان افيق . ولقد أثبتت تلك المعالجة انها معالجة جلمرية . ومنذ ذلك الحين جربت هذه المعالجة على نفسي وعلى أصدقائي ، ولم اندم على ذلك قط . وفي الهند لم استطع ان اجرب تلك المعالجة بثقة ماثلة . وذلك ، قبل كل شيء ، لأنني لم اجد متسعاً من الوقت للاستقرار في مكان واحد لاجراء التجارب . ولكن ايمانني بالمعالجة بالتراب والماء لم يتضاءل قط . وحيث في هذه الايام اجدني أعالج نفسي بالتراب ، إلى حد ما ، وأوصي أعواني بهذا الضرب من العلاج كلما سنحت مناسبة .

وعلى الرغم من اني اصبْتُ بِمَرَضَتَيْنِ خطيرتين في حياتي فانا اعتقد ان المرء لا يحتاج إلى المعالجة بالعقاقير إلا قليلاً . ففي تسعئة وتسع وتسعين حالة من ألف يستطيع المرء الحصول على نتائج حسنة من طريق الغذاء المنظم تنظيمياً حسناً ، والمعالجة بالماء والتراب ، وأمثال ذلك من أساليب الشفاء المترتبة . والرجل الذي يهرع إلى الطبيب أو إلى « الحكيم » كلما ألمت به علة صغيرة ، ويزدرد مختلف ضروب العقاقير النباتية والمعدنية لا يُقَصِّرُ عمره فحسب ، ولكنه - بصيرورته عبداً لجسده بدلاً من أن يظل سيد ذلك الجسد - يفقد سيطرته على ذاته ، ويصبح من العير اعتباره رجلاً .

ولا يهملن أحد هذه الملاحظات لمجرد انها دُوِّنت في فراش المرض - فانا أعرف أسباب العلل التي كانت تلمّ بي . وأنا أعني احسن الوعي اني وحدي المسؤول عنها ، وهذا الوعي هو الذي جعلني لا أفقد الصبر . والواقع اني شكرت الله عليها بوصفها دروساً . وقاومت - في نجاح - الاغراء الذي كان يدفعني إلى تناول عقاقير متعددة . أنا أعلم ان عنادي كثيراً ما يُتعب أطبائي ، ولكنهم يتحملونني في تلطّف ولا يتخلّون عني .

بيد ان عليّ ان لا أخرج عن الموضوع ، فقبل التقدم إلى أبعد يتعيّن عليّ أن أقدم إلى القارئ كلمة تحذير . ان اولئك الذين يشترّون كتاب « جوست » بعد قراءتهم لهذا الفصل ينبغي ان لا يحسبوا كل شيء فيه حقيقة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فكلّ شيء يمثل مظهراً واحداً من القضية ، دائماً تقريباً ، في حين ان كل قضية يمكن ان تُرى مما لا يقل عن سبع وجهات نظر ، كلها قد تكون صحيحة في ذات نفسها ، ولكنها ليست صحيحة في المناسبة الواحدة وفي الظروف نفسها . ثم ان كثيراً من الكتب تؤلف ابتغاء اكتساب القراء ، والفوز بالصيت والشهرة . واذن فمن الخير لاولئك الذين يطالعون أمثال هذه الكتب ان يطالعوها في استبصار ، وان يستمعوا إلى نصيحة رجل من أهل الخبرة قبل ان يجربوا أيّاً من التجارب المنصوص عليها . أو قل ان من الخير لهم ان يقرأوا الكتب في روية وان يهضموها هضمًا عميقاً قبل ان يعملوا

بمقتضاها :

## ٨ تحذير

بجمل اليّ اني سأضطرّ إلى الاستمرار في الخروج على الموضوع حتى الفصل التالي . فالى جانب تجاربي مع المعالجة بالماء ، واصلتُ تجاربي في قضايا الاغذية ، ولن يكون من غير المناسب هنا أن أدوّن بعض الملاحظات في ما يتصل بهذه التجارب الأخيرة : على الرغم من اني سوف أجد مناسبة أخرى للتحدث عنها في ما بعد .

ولن أحاول ، لا الآن ولا في ما بعد ، ان افصل القول في تجاربي الخاصة بقضايا الاغذية ، لأنني فعلت ذلك في سلسلة من المقالات الكوجارائية ظهرت منذ سنوات في صحيفة « الرأي الهندي » ، ثم نشرت على شكل كتاب عرفه الناس في الانكليزية باسم « دليل إلى الصحة » . ولقد كان هذا الكتيب أوسع كتبتي الصغيرة انتشاراً في الشرق وفي الغرب ، وهو شيء لم أستطع حتى الآن أن أفهمه . لقد كُتِبَ لفائدة قراء « الرأي الهندي » ، ولكني أعلم ان الكتيب أنثر أعمق التأثير في حيوات الكثيرين ، في الشرق والغرب ، ممن لم تقع أعينهم قط على صحيفة « الرأي الهندي » . ذلك أنهم كانوا يراسلونني في هذا الموضوع . وهكذا بدا من الضروري ان اقول ههنا شيئاً عن الكتيب ، إذ على الرغم من اني لا أرى سبباً لتعديل الآراء المنصوص عليها فيه فقد اجريت تغييرات جلية في ممارستي العملية ، لا يعرفها جميع قراء الكتاب ، واحسب ان من حقهم ان يطلعوا عليها .

لقد وُضِعَ ذلك الكتيب ، شأن سائر كتاباتي ، لهدف روحي كان أبداً يلهم كل عمل من أعمالي ، ومن أجل هذا فان مما يحزنني أعظم الحزن ان لا أكون قادراً اليوم على ممارسة بعض النظريات المقترحة في الكتاب .  
لاني أوّمن إيماناً راسخاً ان الانسان ليس في حاجة إلى تناول اللبن البتة ، بعد

فطامه عن لبن امه . وان غذاءه يجب ان لا يحتوي على شيء غير الفواكه وضروب الجوز التي لوحتها الشمس . ان في استطاعته ان يفوز بمقدار من الغذاء كاف للانسجة وللاعصاب معاً من العنب ، واللوز مثلاً . وكبح الشهوات الجنسية وغيرها يصبح سيراً على رجل يقاتل بمثل هذا الطعام . وقد وجد أعواني ، ووجدت أنا ، بالتجربة ان ثمة صدقاً كثيراً في المثل الهندي القائل : إذا عرفت ما يأكله الانسان عرفت أي شيء سيصبح . هذه الآراء شرحت في ذلك الكتاب بتفصيل ٥

ومن سوء الحظ اني وجدت نفسي مضطراً ، في الهند ، إلى تجاهل بعض هذه النظريات في الحياة العملية . ففينا كنت منهمكاً في حملة التعبئة في خيدا ، ألقاني خطأ من اخطاء التغذية طريح الفراش ، وقذف بي إلى عتبة الموت . وحاولت أن اعيد بناء صحي المتداعية من غير ما لجوء إلى اللبن ، ولكني أخفقت . والتست معادة الاطباء والفيدياس والعلماء الذين أعرفهم لكي يعينوا لي بدلاً عن اللبن . فاقترح بعضهم ماء المانغ ، واقترح بعضهم زيت الماوهر ، واقترح بعضهم حليب اللوز . وأنهكت جسدي في اجراء التجارب على هذه المواد المقترحة ، ولكن أباً منها لم يساعدني على مفارقة فراش المرض . وتلا الفيدياس لي آياتاً من الكونشاكاسا لكي يظهروا ان الوسواس الدينية في موضوع الغذاء لا محل لها في فن العلاج . وهكذا لم يكن في استطاعتي ان اتوقع منهم ان يساعدوني على العيش من غير لبن . وكيف يستطيع اولئك الذين يوصون ، من غير تردد ، باستعمال عصارة لحم البقر والبراندي ان يساعدوني على الاحتفاظ بغذاء خلوه من اللبن ؟

ولم يكن في ميسوري ان اشرب لبن البقرة أو الجاموس ، فقد كنت مقيداً بنكدر . وكان النذر يقتضي اجتناب جميع ضروب اللبن طبعاً ، ولكن لما كنت أفكر بالبقر والجواميس ليس غير عندما قيدت نفسي بذلك النذر ، ولما كنت راعياً في ان أحياناً قد خدعت نفسي بطريقة ما وحملتها على التوكيد على حرقة النذر ، فعزمت على شرب لبن المعيز . وكنت أعني احسن الوعي ، عندما

بدأت أشرب لبن المعيز ، إن روح نلري قد انتُهكت .  
ولكن فكرة شن حملة على قانون « راولات » كانت قد استحوذت عليّ ،  
ومعها نمت في ذاتي الرغبة في الحياة . وهكذا وُضع حدٌ لأحدى التجارب  
الكبرى في حياتي .

أنا أعرف ما يذهب اليه الناس من أن الروح لا علاقة لها بما يأكله الإنسان  
أو يشربه ، لأن الروح لا تأكل ولا تشرب . وإنّ ما تدخله إلى جوفك من  
خارج ليس هو الذي يقدم أو يؤخر ، فالذي يقدم أو يؤخر هو ما تعبّر عنه ،  
خارجياً ، من داخل . وليس من شك في أن هذا الكلام ينطوي على قدر كبير  
من الصحة . ولكن بدلاً من تمحيص هذا النوع من التفكير سوف اجتزئ  
بمجرد اعلان إيماني الراسخ بأن كبح جماح الغذاء من ناحيتي الكمية والكيفية هو  
أساسي - بالنسبة إلى الباحث الذي يحيا في خوف من الله والذي يراه وجهاً  
لوجه - ككبح جماح الفكر والكلام .

بيد أنني في هذه المسألة التي خذلتني فيها نظريتي ، يتعين عليّ أن لا أكتفي  
بتقديم المعلومات ، بل ينبغي أن اعدو ذلك إلى اصدار تحذير ضدّ تبنيها . من  
أجل هذا اودّ أن احثّ أولئك الذين ربما اجتنبوا اللبن عملاً بالنظرية التي  
روّجت لها - اقول اودّ أن احثّ هؤلاء على عدم الاستمرار في التجربة ، إلا  
إذا وجلوها مفيدة من كل ناحية ، وإلا إذا نصحهم بها أطباء مجربون . أن  
تجربتي قد اظهرت لي ، حتى الآن ، أنه ليس ثمة - بالنسبة إلى ذوي المِعَد  
الضعيفة وطريحي الفراش - طعام أخف من اللبن وأحفل بالغذاء .

ولسوف أكون شاكراً جداً إذا ما عمد أيما امرئ يتفق له أن يقرأ هذا  
الفصل ( وكان من ذوي الخبرة في هذا الموضوع ) إلى اعلامي بأما بديل نباتي  
للبن يكون قد عرفه بالتجربة لا بالمطالعة ، ويكون له مثل مزاياه الغذائية  
والهضمية :

## ٩ . مشادة مع السلطة

فلنرجع الآن إلى « الدائرة الآسيوية » .

كانت جوهانسبورغ معقل الموظفين الآسيويين . وكنت لاحظ ان هؤلاء الموظفين ما كانوا يحملون المنودَ والصينيين وغيرهم ، بل كانوا يحقونهم سحاً . وكل يوم ، كنت اتلقى شكاوى مثل هذه : « إن ذوي الحق لا يُسمع لهم بالدخول إلى البلاد ، على حين ان اولئك الذين لا حق لهم يُهرَّبون لقاء مئة جنيه يدفعونها . وإذا لم تداوِ انت هذا الوضع فمن يداويه ؟ » وكنت أشارك الشاكين شعورهم . إذا لم أوفق إلى سحق هذا الشرّ فعندئذ يكون مُقامي في الترانسفال على غير طائل

وهكذا بدأت أجمع البيّنات ، حتّى إذا اجتمع لديّ منها مقدار صالح اتصلتُ بمفوض الشرطة . لقد بدا رجلاً مستقيماً . إنه لم يُعرض عن سماع شكواي ، بل أصغى إليها في روية وسألني ان اطلعه على جميع البيّنات التي أملكها . كان يستجوب الشهود بنفسه . ولقد اقتنع بصدق دعواي ، ولكنه يعرف مثل ما أعرف ان من العسير عليك ، في جنوب افريقية ، أن تقع على هيئة من المحلفين البيض تدين رجلاً أبيض بالاساءة إلى جماعة من الملونين فقال

— ولكن دعنا نجرب على أية حال . إنه ليس من اللائق ، أيضاً ، ان تدع مثل اولئك المجرمين يسرحون ويمرحون لمجرد خوفا من ان تيرثهم هيئة المحلفين . يجب أن القي عليهم القبض . وانا أوكد لك اني سوف ابذل قصارى جهدي .

ولم أكن في حاجة إلى مثل ذلك التأكيد . فقد كنت اشكّ في عدد كبير من الموظفين ، ولكنّ لما كنت لا أملك بيّنة قاطعة ضدهم جميعاً فإن مذكرات الاعتقال لم تصدر إلا بحقّ اثنين ما كان يساورني أقلّ الشكّ في جريمتها .

ولم يكن في الامكان ابقاء حركاتي طي الكتمان. فقد عرف كثير من الناس اني اقصد إلى مفوض الشرطة كل يوم تقريباً . كان للموظفين اللذين صدرت مذكرتنا الاعتقال بحققها جواسيس اكفاء قليلاً أو كثيراً . وكان من دأب هؤلاء ان يحوسوا حول مكثبي ويقدموا التقارير ، عن حركاتي ، إلى الموظفين . بيد ان عليّ ان اسلم بأن هذين الموظفين كانا من سوء بحيث ما كان يمكن أن يكون لهما جواسيس كثيرون . ولولا المساعدة التي قدمها الهنود والصينيون اليّ لما كان في الامكان اعتقالهما ابد الدهر .

وفرّ احد هذين . فاستصدر مفوض الشرطة مذكرة بضرورة تسليمه إلى الحكومة ، فاعتقل وسبق إلى الترانسفال . وحوكم الرجلان ، وعلى الرغم من انه كان ثمة دليل قوي ضدهما ، وعلى الرغم من ان هيئة المحلفين كانت تملك بيّنة على ان احدهما قد فرّ ، فإن كلا الرجلين قد برئ .

وأصبحتُ بحجة أمل مريرة . وكان مفوض الشرطة أيضاً أسفاً جداً. وأشمازت نفسي من مهنة المحاماة . لقد غدا التفكير نفسه بغيضاً اليّ بقدر ما وجدتُ ان في الامكان تسخير الحماية الجريمة .

بيد أن جريمة هذين الموظفين كانت جليّة إلى درجة جعلت الحكومة عاجزة عن إيوائهما . وأجل كل منهما إلى الاستيداع ، وغدت الدائرة الآسيوية نظيفة نسبياً ، واطمأنت الجالية الهندية بعض الشيء .

وعززت الحادثة من شهرتي ومكانتي ، وزادت الاقبال على مكثبي . لقد أنقذتُ الكثرة الكبيرة من مئات الجنيّات - لا كلها - التي كانت الجالية تبددها كل شهر على مستغليها وسارقي أموالها . إنها لم تُنقذ كلها لأن من لا خلاق لهم أقاموا على ممارسة تجارتهم . ولكن كان قد أصبح في إمكان الرجل الأمين ، الآن ، الاحتفاظ بأمانته .

ويتعيّن عليّ ان أقول انه على الرغم من ان هذين الموظفين كانا على ذلك سوء كله ، فلم أكن أضمر لهما أي حقد شخصي . ولقد كانا هما نفسيهما

يدركان ذلك ؟ حتى إذا اتصلابي ، خلال محبتها ، عمدت إلى مساعدتها أيضاً . وكانت أمامهما فرصة للعمل في بلدية جوهانسبورغ إذا لم أعترض أنا على ذلك الاقتراح . واجتمع اليّ صديق لهما وحدثني في هذا الشأن ، فوافقت على عدم الاعتراض على استخدامهما ، فتم تعيينهما في البلدية .

هذا الموقف الذي اتخذته جعل الموظفين الذين احتككت بهم يستشعرون الاطمئنان والارتياح . وعلى الرغم من اني كثيراً ما تعين علي ان أصارع دائرتهم وان أصطنع لغة عنيفة فقد ظلوا على مودة معي . ولم أكن أدرك ، آنذاك ، ان مثل هذا السلوك كان جزءاً من طبيعتي . لقد عرفت في ما بعد انه كان جزءاً أساسياً من « الساتاغراها » ، وصفة من صفات « الاهيمسا » .

ان الرجل وعمله شيان متميزان . ففي حين يتحتم ان يقرن العمل الصالح بالاستحسان والعمل الطالح بالاستهجان ، فإن فاعل العمل ، سواء كان خيراً أم شراً ، يستحق دائماً الاحترام أو الشفقة تبعاً لطبيعة الحالة . ان قاعدة « أبغضو الأنثم لا الآثم » نادرأ ما تطبق على الرغم من سهولة فهمها . وهذا هو السبب الذي من أجله يتشرّسُ سَمُّ الغضب في العالم .

هذه « الاهيمسا » هي أساس البحث عن الحقيقة . وأنا أدرك كل يوم أن البحث يكون على غير طائل ما لم يتخذ من « الاهيمسا » أساساً له . ان من السديد ان يقاوم المرء نظاماً ما ويهاجمه ، ولكن مقاومة واضعه ومهاجمته توازيان مقاومة المرء نفسه ومهاجمته إياها . ذلك اننا كلنا قد طلينا بالفرشاة نفسها ، وأننا كلنا أولاد خالتي واحد ، ومن هنا فان القوى الالهية التي تعمر نفوسنا لا نهائية . ولأن تمتن كائناتاً بشرياً واحداً يعني ان تمتن هذه القوى الالهية ، وبذلك لا تؤذي ذلك الكائن فحسب ، بل تؤذي معه العالم كله .

## ١٠ . ذكرى مقلدة وتكفير

لقد تعاونت مجموعة من الاحداث في حياتي على إقامة صلوات وثيقة بيني



وبين رجال من أديان مختلفة وجاليات مختلفة ، وان في تجربتي معهم جميعاً ما يحجز لي النص على اني لم أعرف أبداً تمييز بين الانسباء والاغراب ، وابناء للوطن والاجانب ، والبيض والملونين ، والهندوس والهند من أهل الأديان الأخرى سواء أكانوا مسلمين أم بارسين أم نصارى أم يهوداً . وفي استطاعتي ان أقول انه فؤادي كان عاجزاً ، دائماً ، عن اجراء مثل هذا التمييز . ولست أستطيع ان اعتر بذلك كفضيلة خاصة ، لأنها شيء في فطرتي ذاتها وليس ثمرة لأبما جهد شخصي في حين اني في مجال « الاهيماء » ( اللاعنف ) ، و « البراهمشاريا » ( التبتل ) ، و « آباريغراها » ( اللاتملك ) وغيرها من الفضائل الرئيسية ، أعني أكمل الوعي فضلاً موصولاً من أجل تنميتها .

حين كنت أمارس المحاماة في دوربان كان موظفو مكتبي كثيراً ما يقيمون معي ، ولقد كان بينهم هندوس ومسيحيون ، وإذا أردت ان اصفهم بأقاليهم قلت انه كان بينهم كوجاراتيون وتاميليون . واذكر اني كنت اعتبرهم دائماً أهلي وعشيرتي . لقد عاملتهم وكأنهم أفراد اسرتي ، وكنت أستشعر النور من زوجتي إذا ما حالت بيني وبين معاملتهم بهذا الوصف . وكان احد موظفي مكتبي هؤلاء مسيحياً ، من أبوين من « البانشاما » .

كان البيت مشيداً على الطراز الغربي ، ولم يكن للغرف مصارف للمياه القليرة . وهكذا كان لكل غرفة نونية خاصة . وبدلاً من ان يقوم بتنظيف هذه النونيات خادماً أو كناس كانت زوجتي — أو أنا — تقوم بهذه المهمة . وكان الموظفون الذين يستشعرون وكأنهم في بيوتهم ينظفون نونياتهم بأنفسهم ، طبعاً ، ولكن الموظفين المسيحي كان وافداً جديداً ، وكان من واجبتنا ان نظف حجرة نومه . كانت زوجتي تعني بنونيات الآخرين ، ولكن تنظيف نونية رجل كان في وقت من الاوقات « بانشاما » بدا لها شيئاً فوق الاحتمال ، فكان ذلك مثار نزاع بيننا . انما لم تستطع ان تطبق تنظيفي لتلك النونية ، ولم تكن هي لترغب في مباشرة ذلك العمل بنفسها . وحتى في هذه الاحظات استطيع ان اتمثل صورة توبيخها لي ، وقد احمرت عيناها بالغضب ، وسالت العبرات على خديها ، فيما كانت

تهبط السام ، والنونية في يدها . ولكني كنت زوجاً قاسياً إلى أبعد الحدود . لقد اعتبر نفسي معلماً ، وهكذا اضجرتها بسبب من حبي الاعمى لها . وما كان ليكفيني أن أراها تحمل انثوية . كنت أريد منها أن تحملها في بشر وابتهاج . وهكذا قلت رافعاً صوتي :

— « أنا لن أحتمل هذا المراء في بيتي ! »

وطعته الكلمات وكأنها سهم . وصاحت قائلة :

— « احتفظ ببيتك لنفسك ، ودعني أذهب ! »

ونسيت نفسي ، وجفّ ينبوع الحنان في ذات نفسي . فامسكت بها من يدها ، وجرّرت المرأة البائسة إلى الباب ، الذي كان مقابل السلم تماماً ، وتقدمت لافتحه وفي نيتي أن أدفعها إلى الخارج . كانت العبرات تحلر على وجنتيها كالسيول ، وصاحت :

— « اليس عندك شيء من حسّ الخجل ؟ هل ينبغي أن تفقد صوابك إلى هذا الحد ؟ إلى أين أستطيع أن أذهب ؟ ليس لي ههنا أبوان أو أنباء يحموني . هل تحب اني ، لمجرد كونني زوجتك ، يتحتم علي أن أحتمل لكلماتك ورفساتك ؟ احلفك بحق السماء ان تسلك مسلكاً لائقاً وان توصلد الباب . من الخير ان لا يرانا أحد نشاجر على هذه الشاكلة ! »

وتظاهرت بالشجاعة ، ولكني كنت في الواقع خجلاً . وأوصدت الباب . إذا كانت زوجتي لا تستطيع أن تفارقني فأنا أيضاً ما كنت أستطيع أن أفارقها . لقد عرفنا كثيراً من المشاهدات ولكن السلام كان ينجم علينا في النهاية دائماً . كانت الزوجة ، بقدرتها على الاحتمال إلى حد لا يحارى ، هي المتصرة أبداً .

اني أجد نفسي ، اليوم ، في مركز يمكنني من رواية الحادثة في شيء من التجرد والتزاهة ، باعتبار أنها ترجع إلى عهد اجتزته لحسن الطالع . أنا لم أعد زوجاً أعمى مختلس اللب ، أنا لم أعد استاذ زوجي . وفي استطاعة كامتوريابي ، إذا شئت ، ان ترعجني اليوم كما قد أزعجتني من قبل . نحن صديقان مجريان ، فليس احد منا يعتبر الآخر هدفاً لشهوته وشبقه . ولقد كانت ممرضة مخلصه لي .

في جميع فترات مرضي ، فهي تخدمني من غير ان تطمع في مثوبة .  
وانما وقعت الحادثة التي أتكلم عليها عام ١٨٩٨ يوم لم تكن لديّ أيما فكرة  
عن « البراهماتشاريا » . كان ذلك في فترة كنت اعتقد خلالها ان المرأة لا تعدو  
أن تكون هدفاً لشهوة الرجل ، « خلقت لتنفذ إرادة زوجها ، بدلاً من أن  
تكون رفيقة ، وصديقة ، وشريكة في أفراح زوجها وأتراحه .

ولم يطرأ على هذه الافكار تحول جنسي الا في عام ١٩٠٠ ، وفي عام ١٩٠٦  
اتخذت شكلاً مميزاً . ولكنني لن أسهب في الكلام على هذا ، الآن ، لأنني أعتزم  
أن أقدم إلى القارئ تفصيله في موطنه المناسب . حسبي أن أقول اني بعد أن  
زابلتني الشهوة الجسدية تدريجياً أصبحت حياتي المترلية ، ولا تزال تصبح ،  
أكثر أمناً ، وعذوبة ، وسعادة .

ولا يحسن أحد بعد هذه الرواية لاحدى الذكريات المقدسة أننا بأية حال  
زوجان مثاليان ، أو ان بيننا وحدة كاملة في المثل العليا . ان كاستورباي نفسها  
قد لا تعرف ما إذا كان لها أيما مثل عليا في معزل عني ، ومن الجائز أن  
يكون كثير من أفعالي لا يقرن بموافقتها حتى في هذه الأيام . إننا لا ناقش هذه  
المثل ابداً ، ولست أرى أيما خير في مناقشتها . ذلك بأنها لم تنف لا على يدي  
أبويها ولا على يدي ، في حين كان يتعين عليّ أن أنهض بهذه المهمة . ولكنها  
تتمتع بحسنة سامية إلى حد بعيد ، حسنة تتمتع بها جميع الزوجات الهندوسيات  
إلى حد ما . وهذه هي : أنها اعتبرت نفسها ، ارادياً أو لا ارادياً ، بوعي أو  
من غير وعي ، معيدة برسم خطاي ، فلم تنف قط في طريق محاولتي أن أحيا  
حياة كبت وكبح . وهكذا فعلت الرغم من ان بيننا شقة واسعة من الوجهة  
العقلية فقد كنت دائماً أشعر ان حياتنا حياة رضا ، وسعادة ، ونقدم .

## ١١ . اتصالات اوروبية حميمة

هنا الفصل بقودني إلى مرحلة أصبح من الضروري فيها ان اشرح للقارئ

كيف تُكتب هذه القصة اسبوعاً بعد اسبوع .

فحينما بدأت كتابة هذه القصة ، لم يكن امامي خطة مرسومة . فانا ما كنت املك أية مذكرات أو وثائق أبني عليها قصة تجاربي . فانا أكتب كما يحركني « الروح الأعلى » وقت الكتابة . ولست أدعي اني أعلم على وجه اليقين أن كل تفكير وعمل واعين من ناحيتي إنما يوجهه الروح الأعلى . ولكنني حين أدرس الخطوات العظمى التي قمت بها في حياتي ، والخطوات التي تعتبر خطوات صغرى أيضاً ، يتبدى لي انه ليس من الخطأ ان أقول إنها كلها كانت خاضعة لتوجيه الروح الأعلى .

أنا لم أر الذات الالهية ، ولم أعرفها . لقد جعلت ايمان العالم بالله ايماني . وإذا كان ايماني لا يمحي فانا أعتبر ذلك الايمان صنواً للتجربة . ولكن لما كان من الجائز ان يقال ان اعتبار الايمان تجربة تزييف للحقيقة ، فقد يكون من الاصول ان يقال اني لا أعرف كلمة أصف بها ايماني بالله .

ولعل من اليسر على القارئ ان يفهم الآن لماذا أو من بآني اكتب هذه القصة كما يدفني الروح الأعلى . فحين شرعت في كتابة الفصل الماضي اخترت له العنوان الذي عثرتُ به هذا الفصل ، ولكن فيما أنا منصرف إلى كتابته أدركت ان عليّ قبل رواية تجاربي مع الاوروبيين ان اقدم لهذا الامر بمقدمة . وهكذا كان . وغيرت العنوان .

والآن أيضاً ، فيما أنا استهل هذا الفصل ، أجد نفسي أمام مشكلة جديدة : ما الذي ينبغي تدوينه وما الذي ينبغي إغفاله في ما يتصل بالاصدقاء الانكليز الذين أوشتُ ان أتحدث عنهم ؟ تلك مشكلة عويصة . إذا أغفلت الأشياء المناسبة كدُرت الحقيقة . ومن الصبر على المرء ان يقرر ، للوهلة الأولى ، ما هو مناسب ، وخاصة اني استُ واثقاً من ان مجرد كتابة هذه القصة عمل مناسب .

أنا أفهم اليوم فهماً أكثر وضوحاً ما كنت قد قرأته منذ زمن طويل عن نقص السير الذاتية كمصدر من مصادر التاريخ . فانا أعلم اني لا انص في هذه القصة على كل ما علق بذاكرتي . ومن ذا الذي يستطيع ان يقول كم يتعين علي ان اروي

وكم يتعين علي ان اعمل لمصلحة الحقيقة ؟ وأي قيمة يمكن ان تكون لتقديمي ، في بعض أحداث حياتي ، بيئة ناقصة لصالح جانب معين في محكمة المحاكم ؟ وإذا ما احب فضولي ان يستجوبي عن الفصول التي تمت كتابتها اذن لألقى عليها في أغلب الظن ضوءاً أعظم . وإذا اتفق ان صدر ذلك الاستجواب عن ناقد معاد ، فانه قد يذهب إلى حد التمدح بأنه كشف عن « الرياء الذي ينطوي عليه كثير من دعاوي » .

من أجل ذلك أنساءل ، في بعض اللحظات ، أليس من الخير ان أكف عن كتابة هذه الفصول ؟ ولكن ما دام الصوت الباطني لم يحرم ذلك فيتعين علي ان أواصل الكتابة . يجب ان اعمل بالقاعدة الحكيمه التي تقول ، انك إذا بدأت عملاً ما فليس ينبغي لك ان تتركه إلا إذا قام الدليل على انه سيء اخلاقياً .

أنا لا أكتب هذه السيرة الذاتية لأرضاء النقاد . ان تدوينها هو في ذات نفسه إحدى التجارب مع الحقيقة . ومن أغراضها من غير شك ان تزود أعواني وزملائي في العمل ببعض الارتياح وبغذاء للذكير . والحق اني انما شرعت في كتابتها استجابة لرغباتهم . ولقد كان من الجائر ان لا تكتب لولا الحاح جبرامداس وسوامي آناند في اقتراحها . فاذا كنت مخطئاً في كتابة هذه السيرة الذاتية فينبغي ، اذن ، ان يشاركاني في حمل اللوم .

والآن ، فلأنتقل إلى الموضوع الذي يشير اليه عنوان الفصل . فكما كنت احيا مع بعض الهنود ، وكانهم أفراد من اسرتي ، هكذا كان لي أصدقاء انكليز يجيئون معي في دوربان . وأنا لا أستطيع ان أقول ان جميع الذين عاشوا معي أحبوا تلك الحياة . ولكني كنت أنا الذي ألح على إنزالهم في بيبي . بل اني لم أكن حكيماً في جميع الحالات . لقد عرفت بعض التجارب المريرة ، ولكن هذه التجارب كانت مع الهنود والاوروبيين معاً . ولست نادماً على هذه التجارب . فعلى الرغم منها ، وعلى الرغم من الازعاج والقلق اللذين كثيراً ما سببتهما للأصدقاء ، فاني لم أغير سلوكي ، ولقد صبر علي أصدقاؤني في لطف كثير . فكلمة كانت احتكاكاني بالأغراب مؤلمة للأصدقاء ، لم أتردد في

لومهم . فانا أقول بأن المؤمنين ، الذين ينبغي ان يروا في الآخرين نفس الإله الذي يرونه في نفوسهم ، يجب ان يكونوا قادرين على الحياة مع جميع الناس في مودة وتعاطف . والقدرة على مثل هذه الحياة يمكن ان تربي ، لا بالابتعاد عن المناسبات المؤدية ، على نحو غير متكلف ، إلى مثل تلك الاحتكاكات ، بل بالترحيب بها بروح من الخدمة ، مع اجتناب التأثير بها ، في الوقت نفسه .

وهكذا ، فعلى الرغم من ان منزلي كان مليئاً عند اندلاع حرب البوير ، فقد استقبلت رجلين انكليزيين كانا قد اقبلا من جوهانسبورغ . كان كل منهما ثيو صوفياً ، وكان احدهما هو مستر كيتشين الذي سأحدث عنه في ما بعد حديثاً اضافياً . والواقع ان هذين الصديقين كثيراً ما كلفنا زوجتي دموعاً مريرة . وقد تعين عليها ، مع الأسف ، ان تتحمل كثيراً من أمثال هذه المحن بسبي . وكانت هذه هي أول مرة استقبلت فيها أصدقاء انكليزاً ليعيشوا معي في بيتي وكانهم من أفراد أسرتي . وكنت قد نزلت في بيوت انكليزية خلال مُقامي في انكلترا ، ولكي انسجت مع طرائق عيشهم ، وكان ذلك شبيهاً إلى حد كثير أو قليل بالتزل في فندق . أما هنا فكان الوضع مناقضاً تماماً . لقد أصبح الصديقان الانكليزيان عضوين من أعضاء الأسرة . لقد تبنيا الأسلوب الهندي في شؤون كثيرة . فعلى الرغم من ان المواعيد في المنزل كانت تتم على الطريقة الغربية ، فان الحياة الداخلية كانت هندية في معظمها . وأذكر اني وجدت بعض العسر في ابقالها عضوين في الأسرة ، ولكن في استطاعتي ، من غير شك ، ان أقول انها لم يجد اي عسر في الشعور ، تحت سقف منزلي ، وكأنها في بيتها . ان هذه الاتصالات تطورت في جوهانسبورغ إلى أبعد مما تم لها في دوربان .

## ١٢ . اتصالات اوروية (تابع)

كان مكثبي في جوهانسبورغ يتنظم في وقت معاً أربعة كتاب هنود ، لعلهم كانوا يستشعرون انهم ابناي أكثر منهم موظفين في مكثبي . ولكن حتى هؤلاء

الاربعة ما كانوا قادرين على النهوض بأعباء المكتب كلها . وكان من المتسلر الاستغناء عن الطبع بالآلة الكاتبة ، وهي مهمة كنت وحدي ، بين أولئك الموظفين ، قادراً على أدائها ، هذا إذا جاز لي ان اعتبر معرفتي البسيطة في هذه الصناعة شيئاً يستحق الذكر . لقد علمت اثنين من موظفي كيف يستخدمان الآلة الكاتبة ، ولكنها لم يبلغا البراعة المطلوبة بسبب من انكليزيتهم الرديئة . ثم انني كنت أود ان أدرب احد هذين على أعمال المحاسبة . ولم يكن في ميسوري أن استقدم احداً من ناتال ، لأن احداً ما كان قادراً على دخول الترانسفال من غير اجازة . أضف إلى ذلك انني لم أكن مستعداً ، لأسباب تتصل بارتياحي الشخصي ، لالتباس اياما خدعة من الموظف المسؤول عن الاجازات :

كنت في غابة الارتباك . فقد كانت الأعمال المتأخرة تراكم تراكمًا مخيفاً ، حتى لقد بدا ان من المتعذر عليّ ، مهما بذلت من جهد ، ان أنهض بأعباء العمل المهني والخدمة العامة في وقت معاً . وكنت شديد الرغبة في الاستعانة بأحد المستخدمين الأوروبيين ، ولكنني ما كنت واثقاً من أنني سأجد رجلاً أوروبياً أو امرأة أوروبية على استعداد لخدمة رجل ملون مثلي . وأياً ما كان ، فقد عازمت على اجراء محاولة . واتصلت بوكيل من وكلاء الطبع على الآلة الكاتبة وسأله ان يبحث لي عن مختزل . كان ثمة عدد من الفتيات القادرات على النهوض بهذه المهمة ، ولقد وعدني بالسعي للحصول على خدمات واحدة منهن . وعثر على فتاة اسكتلندية تدعى مس ديك وكانت قد وصلت حديثاً من اسكتلندة . ولم يكن لديها اعتراض على كسب الرزق الشريف ، حيثما وجد ، وكانت في حاجة إلى ذلك . وهكذا أرسلها الوكيل الي . ولقد استحوذت عليّ في الحال .

وسألتها :

— « الاتجدين مانعاً يمنعك من العمل في خدمة رجل هندي ؟ »

فكان جوابها الجازم :

— « لا ، على الإطلاق . »

— « ما الراتب الذي تتوقعين أن تناليه ؟ »

« أ يكون مبلغ سبعة عشر جنياً وعشرة شلنات شيئاً كثيراً ؟ »  
« لن يكون كثيراً إذا قدمت إلى العمل الذي أريده منك . متى تستطيعين أن تباشري ؟ »

« في هذه اللحظة ، إذا شئت . »

و كنت سعيداً جداً ، وأخذت أملئ الرسائل عليها في الحال .  
وما هي إلا فترة حتى أصبحت بتاً أو شقيقة لي أكثر منها مختلة طابعة :  
ونادراً ما كنت أجد أيما خطأ في عملها . و كنت كثيراً ما أعهد إليها  
بالإشراف على أموال تقدر بآلاف الجنيهات ، ولقد كانت هي المسؤولة أيضاً عن  
تنظيم دفاتر الحسابات . واكتسبت هذه الفتاة تفصي الكاملة . ولعل ما هو أهم من  
ذلك أنها أفضت إلي بأفكارها ومشاعرها الباطنية . لقد التمت نصيحتي في اختبارها  
النهائي لزوجها ، كما كان لي شرف تقديمها زوجة له . وما إن أصبحت مسديك  
السيدة ماكدونالد حتى اضطرت إلى تركي . ولكنها حتى بعد زواجها . لم  
تخلف مرة عن الاستجابة كلما التمت مساعدتها تحت ضغط الظروف .

ولكني كنت في حاجة ، الآن ، إلى « مختلة طابعة » تحل معها ، ولقد  
كنت سعيداً في الفوز بفنانة أخرى . وكانت هذه هي مس شليزن . وقد عرفني  
إليها المستر كالبيناش الذي سيعرفه القارئ في حينه . إنها اليوم معلمة في إحدى  
المدارس الثانوية في الترانسفال . كانت في السابعة عشرة تقريباً حين وفدت إلي ،  
وكانت بعض أطوارها الشاذة شيئاً وراء احتمالي واحتمال مستر كالبيناش . كانت  
قد أقبلت لتكسب خبرة وتجربة أكثر مما أقبلت لتعمل كمختلة طابعة .  
وكان التعصب العرقي غريباً عن مزاجها . ولقد بدت وكأنها لا تراعي حرمة  
السن أو التجربة . فكانت لا تردد في الذهاب إلى حداهانة المرء وابداء رأيها  
الصريح فيه على مسمع منه . والواقع أن تهورها كثيراً ما أوقعني في مشكلات  
ومتاعب ، ولكن مزاجها الصريح الصادق كان يزيلها بعيد حدودها تماماً .  
وكثيراً ما كنت أوقع ، من غير ما مراجعة ، رسائل طبعتها هي على الآلة الكاتبة  
إذ كنت أعتبر انكليزيتها خبراً من انكليزيتي . وإذا كانت لي ثقة كاملة في



## إخلاصها :

كانت تضحياتها عظيمة. فطوال فترة غير قصيرة لم تتقاضى غير ستة جنيهات، ولقد رفضت بعد ذلك ، وطوال عملها معي ، ان تتقاضى أكثر من عشرة جنيهات شهرياً. وحين ألححت عليها بأن تتقاضى أكثر عتفتني ، وقالت :

— أنا لست هنا لكي أتقاضى راتباً منك . أنا هنا لأنني أحب ان اعمل معك ولأنني أحب مثلك العليا .

واحتاجت ذات يوم إلى ان تأخذ مني اربعين جنيهاً . ولكنها اصررت على ان تأخذها كقرض ، ولقد أعادت اليّ المبلغ كله في العام الماضي . وكانت شجاعته متكافئة مع تضحياتها. انها احدى النساء القلائل اللواتي تشرفت بمعرفتهن وكن يتمتعن بشخصية كالبلور وشجاعة توقع الخجل في نفس الجندي المحارب، لقد أصبحت اليوم امرأة في خريف العمر . ولست أعرف ما الذي يحول في ذهنها الآن شأني حين كانت تعمل معي، ولكن اتصالي بهذه السيدة الثابتة سوف يظل إلى الأبد ذكرى من ذكرياتي المقدسة . من أجل ذلك يكون من الظلم للحقيقة أن أستبعد ما أعرفه عنها .

كانت لا تعرف ليلاً أو نهاراً في نضالها من أجل القضية . وكانت تغامر فتخرج في الظلام وحدها ، حاملة رسالة شفوية ما . وكانت ترفض في ازدياد وفي غضب كل اقتراح بضرورة مواكبتها وحرصاتها . وكان آلاف من الهنود الشجعان يلتمسون لديها النصح والارشاد . وفي أيام اللاعنف ، عندما كان جميع الزعماء تقريباً في السجن قادت هي الحركة منفردة . كانت تشرف على إنفاق آلاف الجنيهات ، وتتولى توجيه المئات من الرسائل ، وتدير شؤون صحيفة « الرأي الهندي » بنفسها ، ولكنها لم تعرف الكلال قط .

إن في استطاعتي ان أتحدث إلى ما لا نهاية عن مس شليزن ، ولكنني سأختتم هذا الفصل بالنص على اعجاب غوكهايل بها . كان غوكهايل يعرف كلا من أعواني . كان معجباً بكثير منهم ، وكان كثيراً ما يبدي رأيه فيهم . ولقد

أحلّ مس شليزن المترلة العليا بين جميع أعواني الهنود والأوروبيين : لقد  
قال :

— واني نادراً ما شهدتُ مثل التضحية ، والصفاء ، والشجاعة التي شهدتها  
في مس شليزن . إنها تتمتع بين معاونيك جميعاً ، بتقديرى الأعظم . »

## ١٢ « الرأي الهندي »

قبل أن أتقدم إلى الكلام على الاتصالات الأوروبية الحميمية الأخرى، ينبغي  
عليّ أن ألقت الانظار إلى نقطتين أو ثلاث نقاط هامة . ولكن واحداً من تلك  
الاتصالات يجب أن يُذكر في الحال . لقد كان تعيين مس ديك غير وافٍ  
بغرضي . كنت في حاجة إلى عون اضافي . ولقد سبق لي ان أشرت ، في  
الفصول السابقة ، إلى مسر ريتش . لقد عرفته جيداً . كان مديراً لأحدى  
المؤسسات التجارية . ولقد وافق على اقتراحي ، فترك تلك المؤسسة والتحق  
بمكتبى ، فخفض عني عبء العمل إلى حد بعيد .

وحوالى هذه الفترة اتصل بي الأستاذ مادانجيت وسألني رأيي في موضوع  
انشاء صحيفة « الرأي الهندي » . كان يدبر حتى ذلك الحين مطبعة ما ، ولقد  
وافقت على اقتراحه . وصدرت الجريدة عام ١٩٠٤ ، وأصبح السيد « مانسو  
خلال نازار » محررها الأول . ولكن كان عليّ أنا أن أتحمّل عبء العمل، إذ  
توليت أمور الجريدة عملياً معظم الوقت . ولم يكن مردّ ذلك إلى أن السيد  
مانسو خلال لم يستطع النهوض ب تبعاتها ، فقد مارس الصحافة ممارسة واسعة أياماً  
كان في الهند ، ولكنه ما كان يستطيع ابداً ان يغامر في معالجة المشكلات  
الجنوبافريقية المعقدة ما دمت أنا هناك .

كان له أعظم الثقة بمصافى ، ومن أجل ذلك القى على كاهلي عبء

كتابة المقالات الافتتاحية . وكانت الصحيفة حتى هلا اليوم اسبوعية ، وكانت تحرر بادئ الأمر بأربع لغات ، الكوجاراتية ، والهندية ، والتاميلية ، والانكليزية، بيد أنني رأيت ان القسمين التاميلي والهندي كانا ضريباً من التظاهر والتدليس . انهما لم يعلما الغرض الذي انشأ من أجله ، وهكلما الفيتها ، بعد ان شعرت بأنني في الاستمرار في تحريرهما قدراً من الخلداع .

ولم يكن يخطر ببالي ان عليّ ان أوظف أبداً مال في هذه الصحيفة ، ولكنني ما لبثت ان اكتشفت انها لا تستطيع الاستمرار من غير مساعدتي المالية . وكان الهنود والأوروبيون يعرفون اني - على الرغم من اني لست محرر - الرأي الهندي - رسمياً - مسؤول عملياً عن سلوكها . ولو أن الصحيفة لم تُنشأ ، إذن لما كان في صرف النظر عنها أيّ بأس . أما للتخلي عنها بعد ان صدرت فمعنى ذلك الخسارة والخزي معاً . وهكذا واصلت اتفاق أموالي عليها حتى كسدت أخسر في ذلك جميع ما أدخرته تقريباً . وأذكر ان ما أنفقتة عليها بلغ في بعض الأحيان خمسة وسبعين جنيهاً شهرياً .

ولكن بعد هذه السنوات كلها أشعر أن الصحيفة أسدت إلى الجبالية خامة جلي . إنها لم تُنشأ قط لتكون عملاً تجارياً ، وطوال اشراني على تلك الجريدة ، كانت التغيرات التي طرأت عليها مؤذنةً بالتغيرات التي طرأت دلي حياتي : كانت صحيفة « الرأي الهندي » ، في تلك الأيام ، مثل « الهند الفتاة » و « نافاجيفان » اليوم ، مرآة لجزء من حياتي . لقد أفرغت روحي ، أسبوعاً بعد اسبوع ، في أعمدتها ، ناشراً مبادئ اللاعنّف وأسلوب ممارستها كما فهمتها : وخلال عشرة أعوام ، يعني حتى عام ١٩١٤ ، باستثناء فترات راحتي الاجبارية في السجن ، لم يكذب يخلو عدد من أعداد « الرأي الهندي » من مقال لي . ولست اذكر ان كلمة واحدة من تلك المقالات خُطت من غير روية أو تفكير ، أو ان كلمة واحدة خطت في رغبة واعية في المبالغة أو لمجرد الارضاء . والواقع ان الصحيفة أمست ، بالنسبة اليّ ، تدريجاً على كبح الذات ، وأمست ، بالنسبة

إلى الاصدقاء ، أداة يستطيعون من خلالها البقاء على صلة بأفكارى . ولم يجد النقاد غير التليل القليل مما يستطيعون الاعتراض عليه . والحق أن لمجة « الرأي الهندي » أكرمت الناقد على أن يلجم قلمه . ولعل اللاعنف كان شيئاً متعزراً لولا صحيفة « الرأي الهندي » . ولقد كان القراء يتطلعون إليها التماساً للانباء الصحيحة عن سير حملة اللاعنف ، كما كانوا يتطلعون إليها لفهم حالة الهنود الحقيقية في جنوب افريقية . لقد أمت بالنسبة الى وسيلة للدراسة الطيبة البشرية على اختلاف ميولها وظلالها ، إذ هدفت دائماً إلى إقامة صلة حميمة ونظيفة بين المحررين وبين القراء . لقد وُجهت الى آلاف الرسائل الطافحة بفيض من قلوب مرسلها ، وكانت تلك الرسائل ودية حينا ، انتقادية حينا ، ومريرة حينا ، تبعاً لمزاج الكاتب . ولقد وجدت في دراسة هذه الرسائل كلها وهضمها والاجابة عنها تربية رائعة لي . لكأن الجالية كانت تفكر ، من خلال هذه الرسائل ، تفكيراً مسموعاً . لقد جعلتني أفهم ، أعق القهم ، مسؤولية الصحافي . ولقد كان في السيطرة التي تمت لي ، بهذه الطريقة ، على الجالية الهندية ما جعل مستقبل الحملة ناجحاً ، مشرفاً ، ممتعاً على المقاومة .

وحى في الشهر الأول من حياة « الرأي الهندي » أدركت أن هدف الصحافة الأواحد يجب أن يكون الخدمة العامة . إن الجريدة قوة عظيمة ، ولكن كما تفرق السيول أراضي برمتها وتلف محاصيل كاملة ، كذلك ليس في مستطاع القلم غير الملجم إلا أن يدمر ويخرب . وإذا كان الالجام من خارج كان أشد خطراً من فقدانه بالكلية . انه لا يمكن أن يكون مفيداً الا حين يصدر من باطن . وإذا كان هذا الضرب من التفكير صحيحاً فكم من جريدة في العالم تثبت للامتحان ؟ ولكن من ذا الذي يوقف تلك الجرائد غير المفيدة ؟ ومن الذي ينبغي أن يقرر ؟ إن المفيد وغير المفيد ، مثل الخير والشر عموماً ، يجب أن يشيا جنباً إلى جنب ، وعلى المرء أن يختار بنفسه .

## ١٤ . احياء الكولي او « الغيتو » .

إن بعض الطبقات التي تؤدي لنا أعظم الخدمات الاجتماعية ، والتي اخبرنا نحن الهندوس ان نعتبرها « منبوذة » ، منفية في الاحياء القصبية من المدن أو القرى ، تلك الاحياء التي تدعى في الكوجاراتية « ديدفادو » وهو أسم أصبحت له مع الزمن رائحة كريهة . وحتى في أوروبا النصرانية كان اليهود في وقت من الاوقات « منبوذين » ، وكان يطلق على الاحياء المخصصة لهم اسم « الغيتو » البغيض . وبطريقة مماثلة ، أصبحنا نحن اليوم « منبوذين » جنوب افريقية . بقي ان نرى إلى أي حد نجحت تضحية آندروز وعصا ساستري . لحررة في اعادة الاعتبار لنا ،

كان اليهود القدماء يعتبرون أنفسهم ، من دون سائر الناس ، شعب الله المختار ، فكان من نتيجة ذلك ان انزلت بأحفادهم عقوبة غريبة ظالمة . وعلى النحو نفسه تقريباً اعتبر الهندوس أنفسهم « آرياس » أو متمدين ، واعتبروا جزءاً من عشيرتهم « آنارياس » أو « منبوذين » فكان من نتائج ذلك ان انزلت عقوبة غريبة وظالمة لا بالهندوس في جنوب افريقية وحدهم ، بل بالمسلمين والبارسين أيضاً ، باعتبار انهم ينتسبون إلى الوطن نفسه واللون نفسه اللذين يتسب اليهما اخوانهم الهندوس .

ولا ريب في أن القارئ قد أدرك الآن ، إلى حد ما ، معنى كلمة « احياء » التي توجت بها هذا الفصل . فقد كنا قد اكتسبنا في جنوب افريقية اسم « الكولي » المقيت . ان كلمة « كولي » لا تعني في الهند غير حمال أو حامل مستأجر ، أما في جنوب إفريقيا فان لما مدلولاً حقيراً . انها تعني ما نعنيه نفضة « المنبوذ » عندنا ، والاحياء المخصصة للكولي تعرف بـ « احياء الكولي » . وكان في

---

• الكثير ghetto لفظ يطلق على احياء اليهود في المدن الكبرى .

جوهانسبورغ حي واحد من الما الضرب، ولكن على خلاف المراتن الاخرى ذات الاحياء التي يملك الهنود فيها حق الاجارة ، فانهم قد اكتسبوا هنا في جوهانسبورغ أراضيهم الصغيرة بعقد ايجار مدته تسع وتسعون سنة. كان الناس مزدحمين في الحي ، الذي كانت مساحته لا تزيد ابداً بازدياد السكان ، فباستثناء تنظيف مرابض الحي بطريقة اعتباطية ، لم تنم البلدية بأيما عمل يساعد على صيانة الصحة ، أما الطرق الجيدة والاضواء النيرة فلم يكن لها وجود البتة . وهل كان منتظراً من البلدية ان تعنى بصحة الاهلين وهي التي لا تبالي برفاهيتهم البتة ؟ وكان هؤلاء يجهلون قواعد الصحة البلدية إلى حد جعلهم لا يستطيعون صيانتها من غير ما مساعدة أو رقابة من البلدية . ولو قد كان اولئك الذين ذهبوا إلى هناك كلهم من طراز روبنسون كروزو ، اذن لكانت قصتهم قصة أخرى . ولكننا لا نعرف ان ثمة في العالم مستعمرة مهاجرين واحدة يتألف أفرادها من رجال من طراز روبنسون كروزو ، فالتاس يهاجرون عبر البحار عادة ، التماساً للثروة والتجارة ، ولكن جمهرة الهنود الذين قصدوا إلى جنوب افريقية كانوا مزارعين جاهلين فقراء محتاجين إلى كل عناية وحماية يمكن أن تقدمها اليهم . فكان التجار والمتقنون الهنود الذين لحقوا بهم قلائل جداً .

وهكذا تأمر اهمال البلدية المجرم وجهل المهاجرين الهنود على جعل الحي الهندي موطناً غير صحي إلى أبعد الحدود . ومن عجب ان البلدية التي لم تعمل شيئاً من أجل تحسين الاحوال الصحية في ذلك الحي اتخذت من الوضع غير الصحي فيه ، ذلك الوضع الناشيء عن اهمالها هي ، ذريعة لهدم الحي ، ومن أجل هذا الغرض استصدرت من المجلس التشريعي المحلي إجازة بأخراج الهنود من منازلهم ، تلك كانت هي الحال عندما استقر بي المقام في جوهانسبورغ .

وكان لسكان الحي حق طبيعي بالتعويض ، باعتبار ان لهم حقوق تملك في أرضهم . وأقيمت محكمة خاصة للنظر في قضايا استملاك الأراضي . فاذا كان المستأجر غير مستعد لقبول عرض البلدية فقد كان يحق له ان يلجأ إلى المحكمة ، فاذا قضت له بمبلغ يزيد على ما عرضته البلدية فعندئذ يتعين على البلدية أن تتحمل

نفقات الدعوى .

ولجأ اليّ معظم المستأجرين وكلفوني بالدفاع عن حقوقهم . ولم تكن بي رغبة في كسب المال من هذه الدعاوى ، وهكذا قلت للمستأجرين اني سوف اكنني بأبما نفقة تعينها المحكمة إذا اقترنت قضاياهم بالنجاح ، وبرسم مقداره عشرة جنيهات على كل عقد من عقود الايجار بصرف النظر عن نتيجة الدعوى . وقلت لهم أيضاً اني أقترح ان افرد نصف المال الذي سيدفعونه لبناء مستشفى أو أي مؤسسة مماثلة من أجل الفقراء . وأوقع ذلك البهجة في نفوسهم جميعاً طبعاً .

ومن بين سبعين قضية تقريباً لم أخسر إلا قضية واحدة ليس غير . وهكذا بلغت الرسوم مبلغاً ضخماً . ولكن صحيفة « الرأي الهندي » كانت هناك بمطالبة الملحة ، ولقد التهمت - على قدر ما أذكر - مبلغاً مقداره الف وستمئة جنيه . لقد بذلتُ جهداً كبيراً في الدفاع عن تلك القضايا . وكان الموكلون يحيطون بي دائماً ، وكان معظمهم في الأصل عمالاً معاهدين أقبلوا من بيهار وما جاورها ومن جنوب الهند . ومن أجل رفع المظالم النازلة بهم ، كانوا قد أنشأوا جمعية خاصة بهم ، مستقلة عن تلك التي أنشأها التجار الهنود الاحرار . وكان بعضهم رجالاً مخلصين منحررين ، ذوي خلق عالٍ . وكان زعيمهم الاستاذ جيرامسينغ ، الرئيس ، والاستاذ بدري ، الذي كان لا يقل عن الرئيس صلاحاً . ولقد مات كلا الرجلين ، الآن ، ولقد كانا مُسْعَفَيْن لي إلى أبعاد الحدود . واتصل الاستاذ بدري اتصالاً وثيقاً بي . ولعب دوراً بارزاً في حركة اللاعنف . ومن طريق هذين الصديقين وغيرهما احتككت احتكاً حميماً بكثير من المهاجرين من الهند الشمالية والجنوبية . لقد أصبحت أخاصهم أكثر مني مستشارهم القانوني ، وشاركت في جميع أحزانهم ومصاعبهم الخاصة والعامة .

وقد يكون من الظريف بعض الشيء أن تعلم كيف كان الهنود ينادوني : كان عبدالله شيت يخاطبني بقوله : غاندي . ومن حسن الحظ أن احداً منهم ما اهانني قط فخاطبني بلقب « صاحب » . ووقع عبدالله شيت على نداء رائع هو

« باي » ، اي الأخ . وتابعه في ذلك آخرون . وأقاموا على مخاطبتي بلفظة  
« باي » حتى اللحظة التي غادرت فيها جنوب افريقية ، وكانت لذلك الاسم  
نكهة عذبة حين بصطنعه الهنود الذين كانوا من قبل عمالاً معاهدين .

## ١٥ . الطاعون الأسود - ١

ولم يُخْرِجِ الهنود من الحلي حالما فازت البلدية بملكيتهم . كان من الضروري  
أن يُبْحَثَ لهم عن أحياء جديدة ملائمة قبل أن يُطلب اليهم اخلاء البيوت ،  
ولكن لما كانت البلدية قد عجزت عن القيام بذلك في سهولة ويسر فقد اضطر  
الهنود إلى البقاء في الحلي « القدر » نفسه ، مع فارق واحد ، هو أن حالتهم  
أُستِ اسوأ مما كانت من قبل . لقد انتهوا ، بعد ان فقدوا ملكيتهم ، إلى أن  
يصبحوا مستأجرين عند البلدية ، فكانت النتيجة ان غدت المناطق المجاورة  
لهم لا صحية أكثر من أيما وقت مضى . كان يتعين عليهم أيام كانوا هم  
المالكين ، ان يحافظوا على ضرب من النظافة ، خشية ان يقعوا تحت طائلة  
القانون ، على الاقل . أما البلدية فما كانت تستشعر مثل هذا الخوف ! لقد تكاثر  
عدد المستأجرين ، وبترايدهم تزايدت القذارة والقوضى .

وفيما كان الهنود قلقين مضطربين النفوس لهذا الوضع انتشر فجأة وباء  
الطاعون الأسود ، المدعو أيضاً الرئوي ، وهو أفظع وأخطر من الطاعون  
الدملي .

ومن حسن الطالع ان احد مناجم الذهب في ضواحي جوهانسبورغ كان  
هو المسؤول عن اندلاع الوباء ، لا الحلي الهندي . وكانت الكثرة الكاثرة  
من عمال هذا المنجم من الزنوج الذين كان مستخدموهم البيض مسؤولين وحدهم  
عن نظافتهم . وكان عدد قليل من الهنود ينهضون بأعمال تتصل بالمنجم ،



فأصيب ثلاثة وعشرون منهم بالعدوى ، في الحال ، ورجعوا ذات مساء إلى بيوتهم في الحي وقد ألمّ بهم الطاعون على نحو خطير . وكان الأستاذ مادانجيت يقوم بحملة اشترابات لصحيفة « الرأي الهندي » ، واتفق أن كان في تلك اللحظة في الحي الهندي . وكان رجلاً لا يعرف الخوف إلى قلبه سيلاً . ولقد بكى فؤاده إذ رأى ضحايا الكارثة هؤلاء ، وكتب اليّ بالقلم الرصاصي مذكرة مفادها ما يلي : « لقد اندلع الطاعون الاسود فجأة . يجب ان تأتي في الحال وتتخذ اجراءات عاجلة ، وإلا فينغي ان نواجه نتائج رهيبية . أرجوك أن تأتي في الحال . » وفي رسالة ، كسر الأستاذ مادانجيت قفل احد البيوت الخالية ، ووضع جميع المرضى هناك . وامتطيت دراجة وقصدت إلى الحي ، وكتبت إلى حافظ سجلات المدينة أعلمه بالظروف التي حملتنا على اقتحام المنزل .

وهرع الدكتور وليام غودفري ، الذي كان يمارس الطب في جوهانسبورغ ، إلى نجدة المصابين حالما اتصل به النبا ، فأسمى ممرضاً وطبيباً لاولئك البائسين ، ولكن الثلاثة والعشرين مريضاً كانوا أكثر من أن يقدر ثلاثة منا على العناية بشؤونهم .

اني أو من إيماناً مبنياً على التجربة بأنه إذا كان قلب المرء طاهراً فإن الكارثة تسوق إليه الرجال والاجراءات لمكافحتها . وكان في مكتبي آنذاك اربعة هنود : الاساتذة « كاليانداس » و « مانيكلال » و « غونفانتراي ديزاي » ورابع لا أستطيع ان اذكر اسمه . وكان والد كاليانداس هو الذي عهد اليّ به . ونادراً ما عرفت في جنوب افريقية رجلاً أكثر لطفاً وكرماً وطاعة من كاليانداس ، ومن حسن الطالع انه كان عزباً آنذاك ، فلم أتردد في تكليفه بالقيام ببعض الواجبات المحفوظة بالمخاطر مهما عظمّت . أما « مانيكلال » فكان قد التحق بمكتبي في جوهانسبورغ . وكان هو الآخر — على قدر ما أذكر — عزباً غير متزوج ، وهكذا عزمت على ان أضحي بالاربعة جميعاً — سنهم كتاباً ، أو أعراناً ، أو أبناءً . ولم يكن ثمة حاجة إلى استشارة كاليانداس البتة . وعبر الآخرون عن استعذابهم للعمل حالما دُعوا اليه . « حيث تكون أنت فسنكون

نحن أيضاً . ، ذلك كان جوابهم الموجز العذب .  
وكان لمستر رينش أسرة كبيرة . كان مستعداً لخوض المعركة ، ولكنني  
منعته من ذلك . ان قلبي لم يُحِز لي أن أعرضه للخطر . وهكذا قام بنصيبه من  
الواجب خارج منطقة الخطر .

كانت ليلة رهيبة - ليلة السهر والتمريض تلك . لقد سبق لي أن سهرتُ  
على راحة عدد من المرضى من قبل ، ولكن أحداً من هؤلاء لم يكن مصاباً  
بالطاعون الاسود . وأعدتنا شجاعة الدكتور غودفري . ولم يكن المصابون في  
حاجة إلى كثير من التمريض . كان كل ما علينا أن نقوم به هو اعطائهم  
جرعات الدواء ، وتأمين حاجاتهم والمحافظة على نظافتهم ونظافة مُفرشهم ،  
وعلى بث روح التفاؤل فيهم .

وسررت أعظم السرور بالشجاعة التي عمل بها الشبان ، وبحماسهم الذي  
لا تعرف الكلال. إن في استطاعة المرء ان يفهم شجاعة الدكتور غودفري  
وبسالة رجل مجرب مثل الأستاذ مادانجيت . ولكن روح اولئك الشبان الأغرار  
هي التي تدعو إلى فضل من الاعجاب !

وفي تلك الليلة أخرجنا ، على ما أذكر ، جميع اولئك المرضى من المأزق  
الذي كانوا فيه .

ولكن الحادثة كلها ، بصرف النظر عن اشجانها ، تتمتع بمتعة غامرة ،  
وبالنسبة إليّ ، بقيمة دينية إلى درجة نحتم عليّ ان اخصص لها فصلين آخرين  
على الأكل .

## ١٦ . الطاعون الاسود - ٢

وعبر حافظ سجلات المدينة عن شكره لي لاشرافي على البيت الخالي وعنايتي  
بأمر المرضى . ولقد اعترف في صراحة ، بأن مجلس المدينة لا يملك أي وسيلة  
مباشرة لمواجهة طارئ من هذا النوع ، ولكنه وعد بأن هذا المجلس سوف

بقدم كل ما يستطيع من عون . وما ان استيقظ حس الواجب عند أعضاء البلدية حتى سارعوا إلى اتخاذ الاجراءات الضرورية في غير ابطاء .

وفي اليوم التالي وضعوا في تصرفي مستودعاً خالياً ، واقترحوا نقل المرضى إلى هناك ، ولكن البلدية لم تقم بمهمة تنظيف البناء . وكان البناء قاراً ، فنظفناه بأنفسنا ، وجمعنا بضعة فرش وبعض الحاجات الضرورية الأخرى من المحنين الهنود ، وارتجلنا مستشفى مؤقتاً . وقدّمت اليها البلدية ممرضة أقبلت علينا حاملة الكونياك وبعض المعدات الخاصة بالمستشفيات . وواصل الدكتور غودفري إدارة المستشفى والاشراف عليه .

وكانت الممرضة سيدة شغوفة ، وكانت تسهر على راحة المرضى في ارتباح وسرور ، ولكن نادراً ما سمحنا لها بأن تمسّهم حيث يمكن أن تصاب بالعدوى . وكانت التعليمات التي قدّمت اليها تقضي باعطاء المرضى جرعات من البراندي والكونياك . ولقد ذهبت الممرضة إلى أبعد من ذلك فأسألتنا ان نتجرّع البراندي على سبيل الوقاية ، كما كانت تفعل هي ، ولكن احداً منا لم يرض ان يمسّه . وكنت لا أثق بفائده حتى للمرضى . وبموافقة الدكتور غودفري ، اخضعت ثلاثة من المرضى كانوا على استعداد للاستغناء عن البراندي ، اخضعت هؤلاء المرضى الثلاثة للمعالجة بالتراب ، مطوّقاً رؤوسهم وصدورهم بغطالب ترابية رطبة . وأنقلد اثنان من اولئك الثلاثة . أما العشرون الآخرون فماتوا في المستودع .

وفي غضون ذلك كانت البلدية منهمكة في اتخاذ اجراءات أخرى . وكان حجر صحي قد ضُرب على مسافة سبعة أميال من جوهانسبورغ تقريباً . ونُقل المريضان اللذان ظلا على قيد الحياة إلى خيمتين اقيمتا على مقربة من الحجر ، واتُخذت الترتيبات لارسال جميع المصابين الجدد إلى هناك . ومكلاً رُفع عبء العمل عن عائقنا .

وفي خلال أيام قليلة علمنا ان الممرضة الصالحة كانت قد أُصيبت بالعدوى فصروعها في الحال . ومن المتعلو علي أن السر كيف انقلد المريضان اللذان ظلا

على قيد الحياة ، وكيف بقينا نحن في نجوة من الداء ، ولكن التجربة زادني إيماناً بالمعالجة بالتراب ، كما زادني شكاً بفعالية البراندي ، حتى كدواء . أنا أدري أن أياً من هذا الايمان وذلك الشك لم يكن قائماً على أساس متين . ولكني لا أزال احتفظ بالانطباع التي تلقيتها آنذاك . ومن أجل ذلك رأيت ان من الضروري ان أشير إليها هنا .

وكنت قد وجهت ، عند انفجار الوباء ، رسالة عنيفة إلى الصحافة أهمت فيها البلدية بالاهمال بعد استملاكها الحي الهندي ، وحملتها مسؤولية اندلاع الطاعون نفسه . وهذه الرسالة ضمنت لي صداقة المستر هنري بولاك ، وكانت مسؤولة جزئياً عن صداقتي مع المرحوم القس جوزيف دوك .

كنت قد ذكرت في فصل سابق اني كنت أتناول طعامي في مطعم نباتي . وهناك التقيت بالمستر البرث وست . كان من دأبنا ان نجتمع في هذا المطعم كل مساء ونخرج فتمشي بعد العشاء . وكان مستر وست شريكاً في بعض المؤسسات الطباعية . وقرأ رسالتي التي وجهتها إلى الصحافة حول انتشار الطاعون ، حتى إذا لم يجدني في المطعم استبد به القلق .

وكنت أنا وأعواني قد اختصرنا غداءنا منذ اندلاع الوباء ، باعتبار اني كنت قد فرضت على نفسي ان احيا على غذاء خفيف في أيام الاوبئة . وهكذا تخلّيت في تلك الايام ، عن وجبة العشاء . ليس هذا فحسب ، بل لقد كنت انتهي من تناول طعام الغداء قبل وصول الزبائن الآخرين . كنت أعرف صاحب المطعم معرفة جيدة ، وكنت قد أخبرته بأنني راغب - بسبب انهماكي في تمرير المصابين بالطاعون - في اجتناب الاحتكاك بالاصدقاء جهد الطاقة .

وإذا افقدني مستر وست في المطعم يوماً أو يومين فقد قرع باب بيتي ذات صباح مبكر فيما كنت استعد للتزّه سيراً على القدمين . حتى إذا فتحت الباب قال مستر وست :

- هأنالما اجدك في المطعم ، وخشيت أن يكون قد أصابك شيء . وهكذا قررت ان أجيء وراك في الصباح لكي أكفل الاجتماع بك في البيت . حسناً ،

ها أنا في تصرفك . أنا مستعد للمساعدة في تمرير المصاين . أنت تعرف انه ليس لدي من أعيله .

وعبرت عن شكري له ، ومن غير ان آخذ ولونانية واحدة للتذكير أجته قائلاً :

- « أنا لن اكلفك القيام بمهمة التمريض . وإذا لم تقع اصابات جديدة فسوف ينتهي عملنا في يوم أو يومين . ومع ذلك فهناك شيء واحد . أحب ان أعهد به اليك . »  
- « اجل وما هو ؟ »

- « هل تستطيع ان تتولى الاشراف على مطبعة « الرأي الهندي » في دوربان ؟ من المرجح ان يُشغَل مسر مادانجيت هنا ، ولا بد لنا من رجل نعتمد عليه في دوربان . فاذا استطعت أنت ان تذهب إلى هناك استعمرتُ ابلغ الرضا والارتياح . »

- « أنت تعلم ان عندي مطبعة . وسوف أكون قادراً ، في أغلب الظن ، على الذهاب ، ولكن هل استطيع ان اقدم اليك جوابي النهائي في المساء ؟ سوف نقاب الرأي في المسألة في حديثنا المسائي . »

وابتهجت نفسي ، وتحدثنا في المسألة . ووافق على الذهاب . ولم يكن أمر الراتب يهمه ، إذ لم يكن المال هو حافزه . ولكننا حددنا راتباً مقداره عشرة جنيهات في الشهر ، بالإضافة إلى جزء من الارباح ، في حال تحققها . وفي اليوم التالي نفسه غادر مسر وست المدينة إلى دوربان على متن عربة البريد المسائية بعد ان عهد الي في تحصيل ديونه المستحقة . ومن ذلك اليوم حتى مغادرتي شواطئ افريقية الجنوبية ظل شريكاً لي في أفراحي وأحزاني .

كان مسر وست يتسب إلى اسرة ريفية في لاوث ( لنكولشاير ) . وكان قد تلقى ثقافة مدرسية عادية ، ولكنه كان قد تعلم أشياء كثيرة في مدرسة الاختبار ، وبفضل الاتكال على الذات . لقد عرفته دائماً رجلاً انكليزياً

انسانياً ، طاهراً ، رصيناً ، يخاف الله .  
ولسوف نعرف أشياء اضافية عنه وعن أسرته في الفصول التالية.

## ١٧ . اضرام النار في الحمي

وعلى الرغم من اني واعواني قد تحورنا من عبء الاهتمام بالمرضى ، فقد كان لا يزال ثمة أمور كثيرة ناشئة عن الطاعون الاسود ينبغي ان تُعالج .  
لقد أشرت إلى اهمال البلدية للحمي الهندي . ولكنها كانت ماهرة أحسن ما يكون السهر على صحة مواطنيها البيض . كانت قد أنفقت مقادير ضخمة من المال للحفاظ على صحتهم ، وها هي ذي الآن تصب المال كالماء لكي تقضي على الداء . وعلى الرغم من الآثام الكثيرة التي اهتمت البلدية بارتكابها في حق الهنود الذين أهملتهم اهاناً مريعاً فاني لم أستطع إلا ان أمتدح جزعها على المواطنين البيض ، ولقد قدمت اليها أقصى ما أستطيع من عون في جهودها الحميدة . وأشعر اني لو حجت تعاوني اذن لكات مهمة البلدية أشد عسراً ، واذن لما ترددت في اللجوء إلى القوة المسلحة وبذلك تزيد الاحوال سوءاً .

ولكن موقعي ذاك وفر علينا هذا كله . فقد ارتاحت السلطات البلدية للمسلك الذي اتخذته الهنود ، وهكذا سهّل كثير من العمل الذي تمّ في المستقبل في مجال الاجراءات الخاصة بالطاعون . والحق اني استخفمت كل ما كنت أتمتع به من نفوذ عند الهنود لكي أحملهم على الاذعان لمطالب البلدية ، ولست أذكر ان أياً منهم قد قاوم نصيحتي .

وفُرضت على الحمي حراسة قوية ، وحُظِر الدخول اليه والخروج منه إلا بإذن . واعطيت انا واعواني حق الدخول والخروج على نحو حر . وكان القرار يقضي بإخلاء الحمي من سكانه جميعاً ، وحملهم على العيش في الخيام طوال ثلاثة اسابيع في الهواء الطلق على بعد ثلاثة عشر ميلاً من جوهانسبورغ تقريباً ،

ليُصار بعد إلى اضرام النار في الحبي . وكان حشد القوم في الخيام مع ما يحتاجون اليه من المؤن وغيرها من الضروريات يحتاج إلى شيء من الوقت ، وكان لا بد من اقامة حرس طوال فترة الانتقال .

كان الناس في ذعر رهيب ، ولكن وجودي المستمر كان عزاء لهم . وكان من عادة كثير من الناس أن يخبثوا مدخراتهم الضئيلة تحت الأرض . فكان عليهم ان ينقبوا الارض حتى يعثروا عليها . لم يكن لديهم مصرف ، وما كانوا يعرفون مصرفاً من المصارف . وهكذا أصبحت أنا مصرفهم . فتدفقت على مكثبي سيول من المال . ولم يكن في ميسوري ان اتقاضى أبما رسم على أنعابي في مثل هذه الازمة . واستطعت ان أنهض بذلك الاعباء كلها بطريقة ما . كنت أعرف مدير المصرف الذي أعامله معرفة حسنة . فقلت له إن عليّ أن استودعه هذه الاموال . ولم تكن المصارف شديدة الرغبة في قبول مبالغ ضخمة من النحاس والفضة . وكان ثمة خوف موظفي المصارف من مسّ الاموال الآتية من منطقة موبوءة بالطاعون . ولكن المدير بذل غاية جهده لارضائي . لقد استقر الرأي آخر الأمر على تطهير تلك الاموال كلها قبل ارسالها إلى البنك . وهكذا اودعت المصرف ، في ما اذكر ، نحواً من مئتين الف جنيه . ونصحت اولئك الذين يملكون مقداراً كافياً من المال ان يضعوه في المصرف كوديعة ثابتة ، ولقد قبلوا تلك النصيحة . فكان من نتيجة ذلك ان تعود بعضهم توظيف أموالهم في المصارف .

ونُقل سكان الحبي . على متن قطار خاص ، إلى مزرعة كليسبروت قرب جوهانسبورغ ، حيث قدّمت البلدية اليهم المؤن بدون مقابل . وبدت تلك المدينة المؤلفة من خيام أشبه شيء بمعسكر من معسكرات الجيش . وساور الانزعاج نفوس اولئك الذين لم يتعودوا حياة المعسكرات هذه ، وأخذهم الدهش لهذه الترتيبات . ولكنهم ما كانوا مضطرين إلى احتمال أبما انزعاج مخصوص . كنت أمتطي من الدراجة الهوائية وأمضي لزيارتهم كل يوم . فما إن انقضت اربع وعشرون ساعة على انتقالهم إلى « معسكرهم » ذاك حتى نسوا شقائهم كله وبدأوا يحجون في ابتهاج . كنت كلما ذهبت إلى هناك أجدهم يرححون ويفنون . إن الإقامة ثلاثة أسابيع في الهواء الطلق قد حسنت صحتهم على نحو واضح .

وأضرمت النار في الحمي في اليوم الذي تلا اخلاءه مباشرة ، على ما إستطيع ان اذكر . ولم تُظهر البلدية أقل ميل إلى انقاذ ايما شيء من الحريق . وحوالي هذه الفترة ، والسبب نفسه ، أحرقت البلدية كل ما تملكه من الواح الخشب في السوق ، ونعملت خسارة لا تقل عن عشرة آلاف جنيه . وكان السبب الذي من اجله قامت بهذه الخطوة العنيفة انها اكتشفت بعض الجرذان الميتة في السوق . كان على البلدية ان تحمل نفقات ثقيلة . ولكنها نجحت في وضع حد لانتشار الطاعون ، ونفست المدينة في حرية ، كرة أخرى .

## ١٨ . رُقِيَّة كتاب

عزّز الطاعون الأسود نفوذي عند الخنود الفقراء ، وضخم مسؤولياتي وأعمال مكنتي القانونية . كانت بعض اتصالاتي الجديدة بالاوروبيين قد غدت حسيمة إلى درجة جعلتها تضاعف التزاماتي الاخلاقية . كنت قد تعرّفت إلى ستر بولاك في المطعم النباتي ، كما تعرّفت إلى ستر وست . ففي ذات مساء ارسل إلي شاب كان يتعشى على مائدة قريبة مني بطاقته مبدئياً رغبت في الاجتماع بي . فدعوته إلى المجيء إلى مالدتي . ففعل . وقال :

— « أنا المحرر المساعد لمجلة « الناقد » . وحين تلوت رسالتك إلى الصحافة في موضوع الطاعون شعرت برغبة قوية في رؤيتك . إنني سعيد بأن نتاح لي هذه الفرصة . »

واعجبني صراحة ستر بولاك وجذبتني اليه . وفي المساء نفسه عرف كل منا الآخر . لقد بدا أننا نقول بآراء متشابهة إلى حد بعيد في ما يتصل بأمور الحياة الأساسية . كان يحب الحياة البسيطة . . وكانت له براعة عجيبة في إخراج كل ما يروق لعقله من حيز الفكر إلى حيز التطبيق . ولقد كانت بعض التعديلات التي أحدثها في حياته عاجلة بمقدار ما كانت جذرية .



كانت نفقات صحيفة « الرأي الهندي » ترتفع كل يوم أكثر فأكثر . وكان أول تقرير تلقينته من مسر وست مقلداً . لقد كتب يقول : « لست أتوقع أن يعود علينا المشروع بالربح الذي رجحت أنت انه سيعود علينا به . بل اني أخشى ان تقع في خسارة . إن دفاتر الحسابات غير منظمة . وهناك ديون كبيرة متأخرة ، ولكي لا أكاد أفهم رأسها من ذنبها . ان عليّ ان أقوم بقدر وافر من التحقيق والتدقيق . ولكن هذا كله لا ينبغي ان يقلقك . سوف أبذل قصارى جهدي في تصحيح هذا الوضع . وسوف أتابع العمل سواء أكان ثمة ربح أم لا . »

كان في استطاعة مسر وست أن يتخلى عن العمل حين اكتشف ان ليس ثمة ربح ، وما كان لي أن ألومه على ذلك . والواقع أنه كان من حقه أن يقاضيني لأنني صورت له المشروع رابحاً من غير دليل راهن . ولكنه لم يندلق ، في ايما وقت ، بكلمة شكوى واحدة . بيد أنني أعتقد أن هذا الاكتشاف قاد مسر وست إلى اعتباري رجلاً ساذجاً . فقد كنت قبلتُ تقديرات الاستاذ مادانجيت من غير أن أكلف نفسي عناء تمحيصها ، وقلت لمسر وست ان في استطاعته أن يتوقع ربحاً .

أنا أدرك الآن ان المشتغل في حقل الخدمة العامة يجب أن لا يطلق أحكاماً لم يتأكد من صحتها . إن على الباحث عن الحقيقة ، قبل كل شيء ، ان يصطنع أعظم الحذر والحيلة ، ذلك أن إقناع رجل ما بشيء لم يستيقن هو منه استيقاناً كاملاً ضرب من الاعتداء على الحقيقة . ويؤلمني أن أعترف بأنني ، على الرغم من ادراكي لذلك ، لم انتقلب بعد على سرعة التصديق ، هذه العادة التي يغريني بها طموحي إلى القيام بأعمال أعجز عن النهوض بها كلها . وهذا الطموح غالباً ما كان مصدر قلقي عولاًني أكثر مما كان مصدر قلق لي .

ولم أكد ائلقى رسالة مسر وست حتى شخصت إلى ناتال . وكان مسر بولاك قد أصبح موضع ثقتي . وكان قد وفد إلى المحطة لتوديعي ، وقدّم اليّ كتاباً أقرأه خلال الرحلة ، كتاباً قال إنه واثق من أنني سأحبه . وكان ذلك

للكتاب هو مؤلف راسكين « حتى هذه النهاية » .

ولم يكن في امكاني اطراح ذلك الكتاب بمجرد شروعي في مطالعته : لقد استحوذ عليّ . وكانت الرحلة بين جوهانسبورغ ودوربان تستغرق اربعاً وعشرين ساعة . ولقد وصل القطار إلى هناك عند المساء . ولم تعرف عيناى الغمض تلك الليلة . لقد قررت ان أغير حياتي وفقاً للمثل العليا التي يدعو اليها الكتاب .

كان ذلك أول كتاب مُدْر لي ان اقرأه لراسكين . فانا لم أكد أقرأ ، طوال ايام دراسي ، شيئاً غير كتب التعليم المقررة ، حتى إذا خضت غمار الحياة العملية لم يكن لدي غير متسع ضئيل من الوقت للمطالعة . من اجل ذلك لا ستطيع ان أزعم ان لي بالكتب معرفة واسعة . وأياً ما كان ، فانا أعتقد اني لم أخسر كثيراً بسبب من هذا الكبح الالزامي ، ففي استطاعتي ان اقول إن ندرة مطالعاتي قد مكنتني من أن أهضم ما قرأت هضمًا وافياً . ومن بين تلك الكتب التي طالعتها ، كان كتاب « حتى هذه النهاية » هو الذي احدث في حياتي تحولاً فجائياً وعملياً . لقد نقلته في ما بعد إلى الكوجارانية ، وجعلت عنوانه « سارفودايا » ( مصلحة الجميع ) .

أنا أعتقد أنني اكتشفت بعض معتقداتي الأكثر عمقاً جليةً في هذا الكتاب العظيم الذي وضعه راسكين ، وهذا هو السبب الذي من أجله استحوذ عليّ ذلك الاستحواذ كله ، وحملني على إحداث ذلك التحول في حياتي . ان الشاعر هو الشخص القادر على تفجير الخير الكامن في الصدر البشري . والشعراء لا يتركون في نفوسنا جميعاً اثراً متاثلاً ، ذلك لأننا لم نفتح كلنا نفتحاً متساوياً .

وهذه هي ابرز تعاليم « حتى هذه النهاية » كما فهمتها :

١ . ان خير الفرد منطوي في خير المجموع .

٢ . ان لعمل المحامي نفس القيمة التي لعمل الحلاق : لأن لكل منهما نفس

الحق في أن يكسب رزقه من عمله .

٣ . ان حياة الكدح : يعني حياة الفلاح وصاحب الحرفة اليدوية . هي الحياة الجديرة بأن تعاش .

أما أول هذه التعاليم فكنت أعرفه . وأما ثانيها فكنت قد أدركته ادراكاً باهتاً . وأما ثالثها فلم يكن قد خطر لي البتة . لقد أوضح لي كتاب « حتى هذه النهاية » وضوح الشمس في رابعة النهار ان المبدأين الثاني والثالث منظومان في المبدأ الأول . فنهضت مع الضحى ، وأنا على استعداد لأن أطبق هذه المبادئ تطبيقاً عملياً .

## ١٩ . مزرعة فونيكس التعاونية

ودرس المسألة كلها مع مستر وست ، ووصفت له الأثر الذي أحدثته كتاب « حتى هذه النهاية » في عقلي ، واقترحت أن تُنقل مطبعة « الرأي الهندي » إلى مزرعة بتعين على كل امرئ ان يشتغل فيها ، ويتقاضى اجراً أدنى مساوياً لأجر زملائه جميعاً ، على ان ينهض بأعباء العمل الطبايعي في ساعات الفراغ . ووافق مستر وست على الاقتراح . وحددنا ثلاثة جنيهات تعويضاً شهرياً للفرد . بصرف النظر عن اللون أو الجنسية .

وكانت المسألة الآن تلخص في هذا السؤال : هل يوافق عمال المطبعة العشرة أو أكثر على الاستمرار في مزرعة نائية ، والاكتفاء بما يسدّ الرمي ؟ وهكذا اقترحنا على اولئك الذين لم يستطيعوا الانسجام مع الخطة الجديدة أن يواصلوا قبض رواتبهم ، وان يسعوا تدريجياً إلى بلوغ هذا المثل الأعلى : ان يصبحوا أعضاء في مزرعة تعاونية .

وحدثت العمال حديث هذا الاقتراح . ولكنه لم يعجب الاستاذ مادانجيت الذي ذهب إلى ان اقتراحي ذاك سخيف أحق : والذي قال ان ذلك الاقتراح سوف يخرب مشروعاً خاطئاً بكل شيء من أجله . وان العمال سوف يفرون ، وان صحيفة « الرأي الهندي » ستقطع عن الصدور . وان المطبعة ستفلق

أبوابها .

وكان بين المشتغلين في المطبعة ابن عمي شاذانلال غاندي . وكنت قد قدمت إليه الاقتراح يوم قدمته إلى مستر وست . كان له زوجة وأولاد ، ولكنه كان قد اختار ، منذ طفولته ، أن يتدرب ويعمل تحت قيادتي . كان له إيمان كامل بي . وهكذا وافق على المشروع من غير مناقشة ، ومنذ ذلك الحين وهو يلازمي . ووافق الميكانيكي غوفيندا سوامي على الاقتراح أيضاً . ولم يوافق سائر العمال على المشروع ، ولكنهم وافقوا على الذهاب إلى أيما مكان انقل المطبعة إليه . ولست أعتقد أنني انفقت أكثر من يومين لاسوي هذه المسائل مع القوم . وهكذا سارعت إلى نشر إعلان يعبر عن حاجتنا إلى قطعة من الأرض قائمة قرب محطة من محطات السكة الحديدية في ضواحي دوربان . وعرضت علينا قطعة أرض في فونيكس . فذهبت أنا ومستر وست لرؤيتها . وما هو إلا أسبوع حتى اشتريتنا عشرين أكرًا من الأرض . وكان فيها نبع ماء صغير ، وبضع من شجرات البرتقال والمانغو . وفي محاذاتها ، كانت تقوم أرض مساحتها ثمانون أكرًا أغنى من الأولى بالأشجار المثمرة ، وكان في هذه الأرض المحاذية كوخ منهدم . فاشتريتنا هذه أيضاً ، فبلغ الثمن الاجمالي ألف جنيه .

وكان من دأب المرحوم مستر رستمجي أن يدعمني في مثل هذه المشاريع . وأعجب بالمشروع . ووضع في تصرفي صفائح من الحديد الموج كانت مستعملة في بناء احد المستودعات ، كما وضع في تصرفي مواد بناء بدأنا بها العمل . وساعدني بعض التجارين والبائين الخنود - الذين عملوا معي خلال حرب البوير - في إقامة سقيفة للمطبعة . ولقد أنجز هذا البناء ، الذي بلغ طوله خمسة وسبعين قدماً وبلغ عرضه خمسين قدماً ، في أقل من شهر واحد . وأقام مستر وست وغيره مع التجارين والبائين ، مغامرین بجياتهم . فقد كان المكان ، غير الآهل المغطى بالعشب الكثيف الباسق ، غاصاً بالافاعي ، فمن الخطر الإقامة فيه . وفي بادئ الأمر ، عاش القوم كلهم في الخيام . وقلنا معظم أشيائنا بالمربات إلى فونيكس ، في مدى أسبوع تقريباً . كانت تقع على مسافة أربعة

عشر ميلاً من دوربان ، وعلى مسافة ميلين ونصف ميل من محطة فونيكس .  
ولم نطبع غير عدد واحد من « الرأي الهندي » في الخارج . وكان ذلك في  
« مذبحة ميركوري » .

وحاولت ، الآن ، ان اجتذب إلى فونيكس اولئك الانبياء والاصدقاء الذين  
أقبلوا معي من الهند ليجربوا حظهم ، والذين كانوا منهمكين في ضروب من  
الأعمال التجارية . كانوا قد أقبلوا انتماساً للثروة ، وهكذا كان من العسير  
اقتناعهم ، ولكن بعضهم وافق . ومن بين هؤلاء أستطيع ان انصّ هنا على اسم  
ماغانلال غاندي ليس غير . أما الآخرون فانقلبوا إلى التجارة . لقد هجر ماغانلال  
غاندي عمله التجاري إلى الابد لكي يربط مقدراته بمقدراتي ، ولقد احتل  
بمقدرته ونصيحته واخلاصه مقام الصدارة بين أعواني الاصلين في تجاربي  
الاخلاقية . أما مكانته بينهم ، بوصفه صاحب حرفة بدوية تقف نفسه بنفسه ،  
فكانت فريدة .

وهكذا بدأت مزرعة فونيكس التعاونية حياتها عام ١٩٠٤ . ومن هناك  
واصلنا اصدار « الرأي الهندي » على الرغم من الظروف العسيرة .  
ولكن المصاعب الأولية ، والتغيرات التي أحدثت ، والآمال وضروب  
الاحقاق وخيبة الأمل ، تحتاج إلى فصل مستقل .

## ٢٠ . اللبلة الأولى

لم يكن من اليسر اصدار العدد الأول من صحيفة « الرأي الهندي » من  
فونيكس . ولو لم اتخذ احتياطين اثنين اذن لتعين علينا اطراح المحاولة أو  
ارجاؤها . ولم تكن فكرة اقتناء محرك لتسير الآلة الطابعة قد رافت لي . كنت  
قد اعتقدت ان الطاقة البدوية أكثر انسجاماً مع جوّ كان يتعين علينا فيه القيام  
بالعمل الزراعي أيضاً باليد . حتى إذا أخفقنا في ذلك أقمنا محرّكاً زبنيّاً . بيد أنني  
كنت قد اقترحت على وست ان نقي في تناولنا شيئاً نستطيع اللجوء إليه إذا ما

خذلنا المحرك . وهكذا أقام دولاباً يمكن أن يُدار باليد . وتبدى لنا أن قَطَعَ  
الصحيفة ، وهو قَطَعَ جريدة يومية ، لا يتلاءم مع موطن ناء مثل فونيكس ؟  
وهكذا صفرناها فجعلناها في حجم الفولسكاب ، لكي يكون في ميسورنا ، إذا ما  
طراً طارئ ، ان نطبعها بمساعدة دَوَاسَة من دَوَاسَات الأرجل .

وفي المراحل الأولى كان علينا أن نطيل السهر عشية يوم الصدور . كان على  
كل امرئ منا ، صغيراً كان أم كبيراً ، ان يساعد على طي الصحف . وكنا  
ننجز عملنا ، عادة ، في ما بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل . ولكن الليلة  
الأولى كانت ليلة لا تُنسى . كانت الصفحات قد مُثِلت للطبع ولكن المحرك  
ابى أن يعمل . وكنا قد استقدمنا مهندساً من دوربان لاقامة المحرك وإدارته ،  
فبذل هو و « وست » قصارى جهدهما ، ولكن على غير طائل . واستبد القلق  
بنا جميعاً . وأخيراً أقبل « وست » عليّ ، يائساً ، والدمع يترقرق في عينيه ،  
وقال :

— « ان المحرك لن يعمل : أخشى أن لا نوفق إلى اصدار الصحيفة في  
موعدنا . »

قلت « مرئياً عنه :

— « إذا كان الأمر كذلك فليس لنا قبلٌ به . لا فائدة من صفح الدموع ،  
فلنبدل كل ما في مستطاع البشر أن يبدلوه من جهد . ما قولك في الدولاب  
لليدوي ؟ »

فأجاب :

— « ومن أين تأتي بالرجال لإدارته ؟ ان عددنا لا يكفي للنهوض بهذه  
المهمة . انه يحتاج إلى عدة فرق تتألف كل فرقة منها من اربعة رجال ، ورجالنا  
جميعاً مرهقون . »

كانت أعمال البناء لما تنته بعد ، وهكذا كان التجارون لا يزالون معنا ،  
وكانوا ينامون في الطابق الذي وُضعت فيه المطبعة . وقلت مشيراً إليهم :

— « ولكن ألا نستطيع ان نقيّد من هؤلاء التجارين ؟ وفي استطاعتنا أن نعمل  
الليل بطوله . أنا أحب ان هذه السبيل لا تزال مفتوحة أمامنا . »

فقال وست :

— « لست أجرد على إيقاظ التجارين . ولا ريب في أن رجالنا مرهقون أكثر مما ينبغي . »  
فقلت :

— « حسن ، سوف أتولى أنا هذه المهمة . »

وأيقظت التجارين ، وطلبت تعاونهم . ولم يحتاجوا إلى أيما ضغط . لقد قالوا : « إذا لم يكن في المستطاع الاستعانة بنا في ساعات الحرج فما نفعلنا ؟ استريحوا أنتم . وسوف نقوم نحن بإدارة الدولا ب . ذلك أمر يسير بالنسبة اليّنا . » وكان رجالنا على استعداد للعمل طبعاً .

وابتهج وست أعظم ابتهاج . وشرع يشد ترنيمة فيما كنا نباشر العمل . وشاركت التجارين في جهودهم . وشاركهم الآخرون كل بدوره . وهكذا واصلنا العمل حتى الساعة صباحاً . ولم نكن قد انجزنا المهمة بعد . من أجل ذلك اقترحت على وست ان نوقظ المهندس وندعوه إلى القيام بمحاولة جديدة لإدارة المحرك ، بحيث يكون في استطاعتنا ، إذا ما نجح ، ان ننتهي في الوقت المناسب .

وأيقظه وست ، فمضى في الحال إلى حجرة المحرك ، وهنا حدث ما لم يكن بالحسبان . ذلك ان المحرك أخذ في الدوران لحظة مسّه المهندس ، تقريباً : وضجت المطبعة كلها بصيحات الابتهاج . وتساءلت :

— « كيف جاز ذلك ؟ كيف جاز ان نحقق جميع الجهود التي بذلناها الليلة البارحة ، ثم يُدار المحرك هذا الصباح وكان ليس فيه خلل ؟ »

وقال وست ، أو المهندس ، فقد نسيت أيها الذي نطق بهذه الكلمات :

— « من العسير علينا ان نفسر ذلك . الماكينات أيضاً تسلك ، في ما يبدو ، وكأنها تطلب الراحة مثلاً . »

أما بالنسبة اليّ فقد جاء توقف المحرك عن العمل اختباراً لنا جميعاً ، وكان دورانه في الوقت المناسب ثمرة جهودنا المخلصة الصادقة .

ووزعت النسخ في موعدها ، وكان كل امرئ صعبداً .  
هذا الاصرار الأوليّ ضمنَ نظاميّة صدور الصحيفة ، وخلق جواً من  
الانكال على النفس في فونيكس . ولقد مرّت بنا فترة اقلعنا خلالها ، بطوّعنا ،  
عن اصطناع المحرك واشغلنا بالطاقة اليدوية ليس غير . كانت تلك ، في ما  
أعتقد ، هي ابام الأَعلاء الأخلاقي الأعظم الذي حققته فونيكس .

## ٢١ . بولاك يخوض الغمار

لقد طالما أسفتُ لأنّي ، على الرغم من انشائي المزرعة التعاونية في فونيكس ،  
لم أستطع الإقامة هناك إلا فترات قصيرة . كانت فكريتي الاساسية ان انسحب  
تدريجياً من ميدان العمل الحقوقي ، وان أحيا في المزرعة التعاونية ، واكسب  
رزقي بالعمل اليدوي هناك ، وألتمس بهجة الخدمة في إتمام مشروع فونيكس :  
ولكن ذلك لم يُكتب لي . لقد وجدت بالاختبار ان المرء كثيراً ما يضع خططه  
ليقبلها الله رأساً على عقب ، ولكن حيث يكون الهدف النهائي هو البحث عن  
الحقيقة فان إبطال خطط المرء مهما كان قاسياً لا يمكن ان يكون مؤذياً ، وكثيراً  
ما يكون خيراً مما يتوقع المرء . إن الانعطاف غير المرتقب الذي عرفه مشروع  
فونيكس ، والاحداث غير المرتقبة لم تكن مؤذية حقاً ، على الرغم من ان من  
العسير القول إنها كانت أفضل مما توقعناه من قبل .

ولكي نمكّن كل امرئ منا من كسب رزقه بالعمل اليدوي قسمنا الارض  
المحيطة بالمطبعة اجزاء ، مساحة كل منها ثلاثة أكرات . وأصابني انا جزء من  
تلك الأجزاء . وعلى تلك القطع كلها بنينا ، برغم ارادتنا ، بيوتاً من الحديد  
الموج . كانت رغبتنا تقضي بانشاء أكواخ من لبن أو بيوت آجريّة صغيرة  
كالثي تليق بالفلاحين العاديين ، ولكن تلك الرغبة لم تتحقق . ذلك ان تحقيقها  
كان في حاجة الى نفقات أكبر ، ووقت أطول ، وكان كل منا راغباً في



الاستقرار بأسرع ما يستطيع .

كان مانسو خلال نازار ، ما يزال يتولى تحرير الصحيفة . وكان قد رفض المشروع الجديد ، وراح يدبر الصحيفة من دوربان حيث كان له الرأي المهندي « مكتب فرعي . وعلى الرغم من انه كان لدينا متضدو أحرف مأجورون ، فقد كانت فكرتنا الأساسية تقضي بأن يتعلم كل عضو من أعضاء المزرعة التعاونية صف الحروف ، الذي يعتبر أسهل جانب من جوانب العمل الطباعي ، وإن يكن ادعائها الى الضجر . وهكذا تعلم هذا الصنيع كل من لم يكن متمرساً به من قبل . وبقيت أنا بليداً جاهلاً الى النهاية . وفي هذا الميدان ، تفوق ماغانلال غاندي علينا كلنا . فقد أسمى متضداً خبيراً على الرغم من انه لم يشغل قبل ذلك في أيما مطبعة . وهو لم يكتف بان حقق سرعة عظيمة في هذه العملية بل اتقن في سرعة اثارت دهشتي واعجابي جميع فروع العمل الطباعي . ولقد كنت أعتقد دائماً أنه كان لا يبي مبلغ براعته .

ولم نكد نستقر ، ولم نكد الأبنية تُنجز ، حتى اضطرت الى مغادرة ذلك المأوى الجديد والعودة الى جوهانسبورغ . فقد كنت في مركز لا يميز لي إهمال العمل هناك أكثر مما فعلت .

ولدى عودتي الى جوهانسبورغ ، حدثت بولاك عن التغييرات المهمة التي أحدثتها . وغمرته موجة من الابتهاج عندما علم ان إعارته ذلك الكتاب لي كانت مشرة الى هذا الحد . وتساءل :

— « اليس في ميسوري ان أشارك في المغامرة الجديدة ؟ »

قلت :

— « من غير ريب . تستطيع ان تنضم إلى اسرة المزرعة اذا شئت . »  
فأجاب :

— « انا على أتم الاستعداد اذا أجزت لي ذلك . »

وفتني تصميمه . لقد اعطى رئيسه مهلة شهر لكي يعقبه من العمل فسي

صحيفة « الناقذ » وانطلق الى فونيكس في الحال . والحق انه اكتسب بدمائه وحسن مؤانسته قلوب القوم جميعاً ، وما هي إلا فترة حتى أمسى فرداً من أفراد الاسرة . كانت البساطة جزءاً من طبيعته فلم يجد في الحياة في فونيكس ايماً شيء غريب او شاق ، بل لقد ألفتها كما تألف البطة الماء . ولكنني لم أستطع أن أبقيه هناك طويلاً . كان مسرر ريتش قد قرر انهاء دراسته الحقوقية في لندن ، وكان من المتعذر عليّ ان انقض بعقب المكتب منفرداً ، وهكذا اقترحت على بولاك ان يلتحق بالمكتب ويعد نفسه للعمل كمحام . وكنت قد قدرت أننا كلينا سوف نتخلى عن المحاماة آخر الأمر ونستقر في فونيكس ، ولكن ذلك لم يتم قط . وكان بولاك مفطوراً على الوثوق بحيث لا يكاد يضع ثقته في صديق حتى يحاول ان يتفق معه بدلاً من ان يجادله . لقد كتب اليّ من فونيكس يقول انه على الرغم من حبه الحياة هناك ، وسعادته الكاملة فيها ، وآماله في تطوير المزرعة ، فانه مستعد لمخادرتها والالتحاق بالمكتب ليهيئ نفسه للعمل كمحام اذا كنت أعتقد أننا نستطيع بذلك ان نحقق مثلاً العليا تحقيقاً أسرع . ورحبت بتلك الرسالة ترحيباً قليلاً . وغادر بولاك فونيكس ، وشخص السى جوهانسبورغ ، ووقع اتفاقية للعمل معي .

وحوالى هذه الفترة انضم الى مكنتي ثيو صوفي اسكتلندي كنت أدريه لامتحان حقوقي علمي ، وذلك بعد ان دعوته الى اقضاء آثار بولاك . وكان اسمه مسرر ماك انتاير .

وهكذا ، ومن أجل تحقيق مُثل فونيكس تحقيقاً سريعاً ، بدا لي وكأنني أندفع أبعد فأبعد مع تيار معاكس . ولولا ان الله شاء غير ذلك اذن لوجدت نفسي في ذلك الشرك المنسوب باسم الحياة البسيطة .

وبعد بضعة فصول أخرى سأصف كيف أنقذتُ أنا وأنقذت مثلي العلي بطريقة لم يتصورها أحد ، أو يتوقعها أحد .

## ٢٢ . الذين يسبغ الله حمايته عليهم

كنت قد قطعت الآن كل أمل في العودة الى الهند في مستقبل قريب . وكنت قد وعدت زوجتي بالعودة الى الوطن في خلال سنة واحدة . وكانت السنة قد انقضت من غير ان تبدى أي أماراة تؤذن بوشك عودتي الى الوطن . من أجل ذلك قررت أن أستقدمها وأستقدم أولادي الى جنوب افريقية .

وعلى متن السفينة التي أقلتهم الى جنوب افريقية كسرابني الثالث ، رامداس ، ذراعه فيما كان يلعب مع ربان السفينة . واهم الربان بأمر رامداس اهتماماً كبيراً وعهد الى طبيب السفينة بالسهر على راحته . وهبط رامداس اليابسة ويده في حالة . وكان الطبيب قد نصح بان يُعهد الى طبيب اختصاصي بتضميد الجرح حالما نصل الى البيت . وكان ذلك في الفترة التي كنت خلالها مؤمناً كل الايمان بتجاربتي في المعالجة بالتراب . بل لقد كنت وفقت الى إقناع موكلي ، المؤمنين بأساليب الطيبة ، بأن يجربوا المعالجة بالتراب والماء .

ما الذي كان عليّ إذن أن أفعله لرامداس ؟ كانت سنه لا تزيد على ثماني سنوات ، ولقد سألته ما اذا كان يمانع في تضميدي جرحه . فقال وهو يبتسم انه لا يمانع في ذلك البتة . فلم يكن من اليسر عليه ، وهو في تلك السن ، أن يقرر أي شيء هو أفضل له ، ولكنه عرف جيداً الفرق بين الدجل والمعالجة الطبية الصحيحة . وعرف حرصي على المعالجة المترلية . وكان له من الايمان ما جعله يُسلم نفسه إليّ . وفي خوف وارتعاد ، فككت العصابة ، وغسلت الجرح وامسحت كمادة ترائية نظيفة وأعدت ربط الذراع من جديد . وكررت القيام بعملية التضميد هذه طوال شهر حتى التأم الجرح التاماً كاملاً . لم يكن ثمة عقبة ما ، ولم يحتج الجرح لكي يلتئم الى أكثر من المدة التي كان طبيب السفينة قد قدرها لالتئامه بطريقة المعالجة المألوفة .

هذه التجربة وغيرها قوت ايماني بمثل تلك الأدوية المترلية ، فأخذت اصطنعها في ثقة أعظم . لقد وسعت دائرة تطبيقها ، مجرباً المعالجة بالتراب

والماء والصوم في حالات الجراح والحُمَيَات وسوء الهضم واليرقان وغيرها من العلل ، وبنجاح في معظم الاحيان . ولكني لا أنعم اليوم بمثل الايمان الذي كنت انعم به في جنوب افريقية ، بل لقد أظهر الاختبار أن هذه التجارب تنطوي على مخاطر واضحة .

واذن فالإشارة هنا الى هذه التجارب لا يُقصد بها اظهار نجاحها . فلست أستطيع أن أدعي النجاح الكامل لأي منها ، وحتى الاطباء لا يستطيعون ان يدعوا مثل هذا النجاح لتجاربهم . إن غرضي لا يعدو اظهار ما أعتقد من أن على كل من يحاول القيام بتجارب جديدة ان يبدأ بنفسه . ذلك أجدر بأن يقوده الى اكتشاف الحقيقة على نحو أسرع ، والله يسبح حماته دائماً على المجريين المخلصين .

وكانت المخاطر التي انطوت عليها تجارب انشاء اتصالات حميمة مع الاوروبيين لا تقل شأنًا عن تلك التي انطوت عليها تجارب العلاج بالاساليب الطبيعية ، مع فارق واحد هو أن تلك المخاطر كانت من ضرب آخر . بيد اني لم افكر ، إبان انشائي تلك الصلات ، بالمخاطر قط .

لقد دعوت بولاك الى الإقامة في منزلي ، وبدأنا نجما مع أخوين من أب وأم واحدة . وكان قد خطب منذ بضعة سنوات تلك السيدة التي سرعان ما أصبحت فيما بعد مسز بولاك ، ولكن الزواج أرجيء الى ظرف أكثر ملاءمة . واحسب ان بولاك أراد أن يجمع بعض المال قبل أن يفيء الى الحياة الزوجية . كان مطلعاً على راسكين أكثر مني ، ولكن بيته الغريبة كانت تحول بينه وبين تطبيق تعاليم راسكين ، في الحال ، في حياته العملية . ولكني ناقشته قائلاً : « حين يكون ثمة وحدة بين قلين ، كما هو الحال بينك وبين من تحب ، فليس من الخير لإرجاء الزواج لمجرد الاعتبارات المالية . ولو كان الفقر حائلاً ، اذن لتعذر على الفقراء ان يتزوجوا عمرهم كله . ثم انك تقيم الآن معي . وهكذا فالنفقات المنزلية غير واردة . انا أعتقد أن عليك ان تتزوج بأسرع ما تستطيع . وما كنت في حاجة ، كما ذكرتُ في فصل سابق ، الى ان أناقش ايما مسألة ، مرتين ، مع بولاك : فقد قدّر قوة حجتي وبادر الى الاتصال بمسز بولاك ، وكانت انذاك في انكلترا ،

يبحثها في الأمر . وافترت الاقتراح في ابتهاج، وما هي الا شهور معدودة حتى وصلت الى جوهانسبورغ . كانت آل نفقة خاصة بالعرس غير واردة، بل لقد رُمي انه لا داعي لاعداد ثوب خاص بتلك المناسبة. ولم يكونا في حاجة الى طقوس دينية تكرر رباطهما . كانت مز بولاك مسيحية بالولادة ، وكان بسولاك يهودياً . وكان بينهما المشترك هو دين الأخلاق .

ولعل من الخير أن أشير ، عَرَضاً ، الى حادثة طريقة تتصل بهذا العرس ه ذلك ان مسجل عقود الزواج الأوروبية في الترانسفال لم يكن في ميوره أن يسجل الزيجات التي تجمع ما بين الافراد السود او الملونين . وفي الزواج الذي نتحدث عنه ، كنت أنا شاهد الزواج الرئيسي . ولم يكن ذلك لاننا عجزنا عن الاتيان بصديق أوروبى يقوم بهذه المهمة ، ولكن بولاك ما كان ليقر مثل هذا الاقتراح . وهكذا مضينا ثلاثنا الى مسجل عقود الزواج . ولكن كيف له أن يتق بأن الزوجين اللذين كنت أنا شاهد زواجهما الرئيسي سيكونان رجلاً أبيض وامرأة بيضاء ؟ وافترح تأجيل التسجيل ريثما يجري تحقيقاً في الأمر . وكان اليوم التالي يوم أحد ، وكان اليوم الذي بعده عيد رأس السنة ، وهو يوم عطلة رسمية . والواقع ان تأجيل موعد زواج ينضع بالخشوع على أساس من تلك اللريعة الواهنة ، كان شيئاً فوق طاقة المرء على الاحتمال . وكنت أعرف القاضي الأول الذي كان رئيساً لدائرة التسجيل . وهكذا قصدت اليه مع العروسين . وضحك القاضي ، واعطاني مذكرة الى المسجل ، فتم تسجيل الزواج في الحال .

حتى تلك اللحظة كان جميع الاوروبيين الذين عاشوا معي هم ممن كانت تربطني بهم صداقة قوية أو ضعيفة . أما الآن فقد انضمت الى الاسرة سيادة انكليزية كانت غريبة عنا بكل ما في الكلمة من معنى . ولست أذكر أننا اختلفنا قط مع العروسين ، ولكن حتى لو صح أن مز بولاك وزوجتي عرفنا بعض التجارب غير المستحبة ، فلم تكن التجارب لتعدو ما يقع في الامر الممعة في الانسجام . ويحسن بالقاريء ان يذكر ان اسرتي جديدة بان تعتبر أسرة متنافرة جوهرياً ، أسرة كان في ميور الناس من جميع الاجناس والامزجة ان ينضموا

اليها في حرية . وحين يفكر المرء في المسألة ، يكشف ان التميز بين المنسجم والمتنافر وهمي ليس غير . اننا جميعاً أسرة واحدة .

ومن الخير ان أتحدث عن زواج « وست » في هذا الفصل ايضاً . ففي تلك المرحلة من حياتي لم تكن افكاري في ما يتصل بالبراهمانشارييا قد نضجت نضجاً كاملاً ، وهكذا كنت أشتعر السعادة في ادخال جميع أصدقائي العازبين الى هيكل الزواج . حتى اذا قصدت الى لاوث لسرى أبويه ، نصحتهم بأن لا يعودوا لامتزوجاً ، اذا وجد الى ذلك سبيلاً . كانت فونيكس هي البيت المشترك ، واذ كان المفروض اننا أصبحنا جميعاً مزارعين فلم تكن نخشى الزواج وعواقبه المألوفة . ورجع وست مع مسز وست ، وكانت سيدة شابة جميلة من لايسستر . لقد تحدثت من أسرة من صانعي الاحذية تعمل في مصنع من مصانع لايسستر . وكانت مسز وست نفسها قد اشتغلت فترة في ذلك المصنع . ولقد قلت انها جميلة لأن جمالها الخلقي هو الذي جذبني على التو . ان الجبال الحقيقية قوامه ، بعد كل شيء ، طهارة القواد. ومع مسر وست جاءت حماته ايضاً . وهذه السيدة العجوز لا تزال على قيد الحياة . انها توقع الحجل في نفوسنا جميعاً ببراعتها ، وبطبيعتها البهيجة المستبشرة .

وكما أقنعت هؤلاء الاصدقاء الاوروبيين بالزواج شجعت الاصدقاء الهنود على استخدام أسرهم من الوطن . وهكذا تطورت فونيكس الى قرية صغيرة ، كانت ست أسر قد أقبلت واستقرت وشرعت تتكاثر هناك .

## ٢٣ . نظرة الى المنزل

لقد رأينا من قبل ان نزعتي الى البساطة بدأت في دوربان على الرغم من ضخامة نفقات المنزل الذي فتحته هناك . ولكن منزلي في جوهانسبورغ خضع بنمط أشد صرامة على ضوء تعاليم راسكين.

فقد أدخلت أقصى قدر من البساطة يمكن ادخاله الى منزل محام . كان من

المتعذر عليّ ان احيا من غير مقدار معين من الاثاث . وكان التغير باطنياً أكثر منه خارجياً . لقد تعاظمت رغبتي في القيام شخصياً بكامل العمل البدني . وهكذا شرعت أخضع أولادي لهذا النظام .

فبدلاً من ان نشري خبز الخبز بدأنا نعدّ خبز الخنطة الكامل غير المخمر وفقاً لوصفة كوهن . وكان دقيق الخنطة العادي غير ملائم لهذا النوع من الخبز . وكنت أعتقد أن الدقيق المطحون باليد يضمن قدراً أكبر من البساطة والصحة والاقتصاد . وهكذا اشترت مطحنة يدوية بسبعة جنيهات . وكان الدولار الحديدي أثقل من ان يديره شخص واحد ، ولكنه كان ينصاع لشخصين اثنين ، وكان من دأب بولاك وأولادي أن يتولوا ادارة ذلك الدولار . وكانت زوجتي تعاونهم على ذلك بين الفينة والفينة ، على الرغم من أن ساعة الطحن كانت هي الساعة التي جرت العادة بأن تستهل فيها أعمال المطبخ . وشاركتنا مزر بولاك في هذه المهمة بعد وصولها جوهانسبورغ . ولقد نهض الدليل على أن الطحن كان تمريناً مفيداً جداً للأولاد . ان هذا العمل لم يفرض عليهم فرضاً - والشيء نفسه يصح في الاعمال الأخرى - ولكنهم كانوا يجدون شقة وسلوى في مدّ يد المساعدة على ذلك ، ولقد كانت لهم حرية الكف عن العمل حين يشعرون التعب . ولكن الاولاد - وفيهم اولئك الذين سيتاح لي تقديمهم الى القسراء في ما بعد - لم يخذلوني قط . وليس معنى هذا انه لم يكن بينهم مثلثون البتة ، ولكن كثرتهم الكبيرة ادت عملها في كثير من الابتهاج . ولست أذكر انهم كانوا يحاولون الفرار من العمل ، أو الاحتجاج بالتعب الا قليلاً .

وكنّا قد استأجرنا خادماً للعناية بأمر البيت . لقد عاش معنا . ولقد عاش معنا كعضو من اعضاء الاسرة ، وكان من دأب الاولاد أن يساعده في عمله . وكان كنّاس البلدية يزيل أقدار المراحيض ، ولكننا كنّا نغني شخصياً بتنظيف المرحاض بدلاً من أن نسال الخادم ، أو ننتظر من الخادم ان ينظفه . ولقد كان في ذلك تدريب حسن للأولاد . ونجح من هذا ان أحداً من أولادي لم ينشأ على الاشتراز من عمل الزبّال ، ولقد اكسبوا بحكم الطبع تأسياً صالحاً في حفظ الصحة

للعامه . ولم يعرف بيتنا في جوهانسبورغ المرض الا في النادر ، ولكن الاولاد كانوا يقومون بعبء التريض ، طوعاً وبطية خاطر ، كلما ألمّ المرض بساحتنا . ولست اقول اني كنت لا مبالياً بثقافتهم الادبية ، ولكنني لم أتردد من غير شك في التضحية بها . وهكذا فان لأولادي بعض الحق في التظلم مني . والواقع أنهم قد عبروا عن ذلك بين الفينة والفينة ، ويتعين عليّ ان أبرر ذنبي الى حد ما . كانت الرغبة في تزويدهم بالثقافة الأدبية موجودة ، بل لقد حاولت ان أقدمها اليهم بنفسي ، ولكن عقبة من العقبات كانت تقوم في طريقي بين حين وآخر . وإذ كنت لم ألتخذ أية ترتيبات لتدريسهم تدريباً خصوصياً ، فقد اعتسدت أن أحملهم على السير معي كل يوم من البيت الى المكتب ومن المكتب الى البيت - مسافة تبلغ في مجموعها خمسة أميال تقريباً . وكان ذلك يبيع لهم ولسي قدراً صالحاً من التمرين البدني . ولقد حاولت أن أعلمهم بالمحادثة أثناء فترات السير اذا لم يكن ثمة شخص آخر يصرف انتباهي عنهم . وكان جميع أولادي ، باستثناء أكبرهم ، هاريلال ، الذي ظل في الهند ، قد نُشثوا في جوهانسبورغ على هذه الشاكلة . ولو قدّر لي أن أترد ساعة واحدة ، على الأقل ، لثقافتهم الادبية في نظامية صارمة اذن لاستطعت أن أزودهم ، في ما أعتقد ، بثقافة مثالية . ولكن كان من دواعي أسفهم ، وأسفي أنا أيضاً ، اني حجزت عن ان اضمن لهم تدريباً أدبياً كافياً . وكثيراً ما عبر نجلي الأكبر عن أساه على نحو شخصي أمامي ، وعلى نحو علني في الصحافة . أما أبنائي الآخرون فقد اغتفروا لي ، في ساحة ، إخفائي ذلك بوصفه شيئاً لا سبيل الى اجتنابه . ان قلبي ليس متفطراً بسبب من ذلك . وانما ينحصر أسفي - اذا كان ثمة أسف - في عجزني عن القيام بدور الأب المثالي . ولكنني أعتبر اني ضحيت بتزويدهم بالثقافة الادبية من اجل ما اعتقدت اعتقاداً جازماً - على الرغم من أن ذلك الاعتقاد قد يكون مخطئاً - انه خدمة أسديها الى الجالية . وانا واثق اني لم أهمل القيام بكل ما كان ضرورياً لبناء شخصيتهم . واعتقد ان من الواجب المحتم على كل أب وأم أن لا يتدخرا وسعاً في اداء هذه المهمة على الوجه الافضل . وانا أوّمن إيماناً



راسخاً بأنه اذا كان اولادي - برغم محاولاتي تلك - يعوزهم شيء فانيهم بذلك يعكسون ، لا اهاناً من جانبي ، ولكن نقائص أبويهم جميعاً .

ان الابناء يرثون خصال آبائهم كما يرثون خصائصهم الجسدية . والبينة تلعب دوراً هاماً من غير ريب ، ولكن رأس المال الاساسي الذي يستهل به الطفل حياته موروث من أسلافه . ولقد رأيت أولاداً ، أيضاً ، يتغلبون في نجاح على آثار ميراثهم الشرير . ومرد ذلك الى الطهارة بوصفها سجية من سجايا الروح الفطرية .

وكثيراً ما دارت بيني وبين بولاك مناقشات حامية جداً حول هذه المسألة : هل من المستحسن تزويد الاولاد بثقافة انكليزية أم لا ؟ فلقد كنت أعتقد ، دائماً ، بأن الآباء الهنود الذين يُنشئون أولادهم ، منذ الطفولة ، على التضكير والكلام بالانكليزية إنما يخنون أولادهم ووطنهم . إنهم يحرمونهم ميراث الامة الروحي والاجتماعي ، ويعملونهم بذلك غير أكفاء لخدمة الوطن . بهذا النوع من النظر جعلت همي ان اتحدث الى أولادي بالكوجاراتية . ولم يكن ذلك ليمعجب بولاك البتة . لقد اعتقد اني افسد بذلك مستقبلهم . ولقد أصررت ، بكل ما يعمر صدره من عزم وحب ، على أن الاولاد اذا ما تعلموا لغة عالمية كالانكليزية منذ طفولتهم فعندئذ يسهل عليهم أن يبرزوا أقرانهم في سباق الحياة . ولكنه عجز عن اقناعي . ولست أتذكر الآن هل أفنته بصوابية مسلكتي ، أم نفّض يده مني بوصفي عنيداً أكثر مما ينبغي . لقد حدث ذلك منذ عشرين سنة تقريباً ، ولم يزد الاختبار اعتقادي ذاك الا عمقاً . وعلى الرغم من ان أولادي قاموا أسى الحرمان من ثقافة أدبية كاملة ، فان ما اكسبوه على نحو طبيعي من معرفة باللغة الأم كان في مصلحتهم وفي مصلحة البلاد ، بسبب من أنهم لا يظهرون ، شأن غيرهم من الهنود ، بمظهر الاجانب . ولقد أصبحوا يحكم الطبع مزدوجي اللغة ، يتكلمون الانكليزية ويكتبون بها في كثير من اليسر ، بفضل اتصالم الشخصي بخلق واسعة من الاصدقاء الانكليز ، وبفضل اقامتهم في بلاد كانت الانكليزية هي لغة الكلام الرئيسية فيها .

## ٢٤ . ثورة الزولو

وحتى بعد أن حسب أن المقام استقر بي في جوهانسبورغ ، فاني لم أعرف الحياة المستقرة حقاً . ولحظة شعرتُ اني بدأت أنتفس في حرية وقعت حادثة غير متوقعة . فقد حملت الصحف انباء اندلاع « ثورة » الزولو في ناتال . ولم أكن أحمل أيما ضغينة على الزولو ، فهم لم يؤذوا أيما هندي قط . وكانت لي بعض الشكوك حول « الثورة » نفسها . ولكنني كنت اعتقد آنذاك ان الامبراطورية البريطانية إنما أوجدت لمصلحة العالم . وكان حيس صادق بالولاء يحظر علي أن ارتضي أيما اساءة تتزل بتلك الامبراطورية ، وهكذا فان عدالة « الثورة » أوعلم عدالتها لم تكن خليفة بان تُحدث أيما اثر في قراري . وكانت لناتال فرقة دفاع مطوعة ، وكان في ميور المرء ان ينضوي تحت لوائها ، وقرأت ان تلك الفرقة كانت قد عُيِّنت لسحق « الثورة » .

و كنت أعتبر نفسي مواطناً من مواطني ناتال ، لوثيق صلتني بها . وهكذا كتبت الى الحاكم رسالة اعبر فيها عن استعراضي ، اذا كن ثمة ضرورة ، لتأليف فرقة اسعاف هندية . فأجابني في الحال معلناً قبوله العرض .

ولم أكن قد توقعت مثل هذا القبول العاجل . وكان من حسن الحظ اني اتخذت جميع الترتيبات الضرورية حتى قبل كتابة الرسالة . وكنت قد قررت اذا ما قُبِلَ عرضي ، أن اغلق بيتي في جوهانسبورغ . كان علي بولاك أن يستأجر بيتاً أصغر ، وكان علي زوجتي أن تذهب الى فونيكس وتستقر فيها ، كنت قد فزتُ بمرافقتها الكاملة على هذا القرار . ولست أذكر انها اعترضت سبيلي قط في أمور كهذه . وهكذا ما ان جاءني جواب الحاكم حتى أحطت صاحب المنزل علماً بانني سأخلي المنزل في مدى شهر ، وارسلت بعض امتعتي الى فونيكس ، وتركت بعضها الآخر عند بولاك .

وقصدتُ الى دوربان ودعوت المنود الى التطوع في الفرقة . ولم يكن ثمة حاجة الى تأليف فرقة كبيرة . فقد كنا اربعة وعشرين ، اربعة منهم — بالاضافة الي —

كانوا كوجاراتيين . أما سائرهم فكانوا عمالاً معاهدين سابقين هاجروا من جنوب الهند ، باستثناء واحد كان باتانياً حراً .

ورغبة في منحى صفة قانونية وفي تسهيل العمل ، ووفقاً للعرف القائم أيضاً ، خلع عليّ كبير الاطباء العسكريين ، موقناً ، رتبة « سارجنت مايور » كما خلع على ثلاثة رجال انتخبهم انا رتبة « سارجنت » ، وعلى رجل واحد رتبة « كابورال » . كذلك تلقينا بذلاتنا العسكرية من الحكومة . واستمرت فرقنا تقوم بالخدمة الفعلية طوال ستة أسابيع تقريباً . ولدن وصولنا الى مسرح « الثورة » رأيت أنه ليس ثمة ما يررر اسم « الثورة » البتة . لم يكن هناك مقاومة ما . أما السبب الذي من أجله « ضحمت القلائل » الى ثورة ، فهو أن أحد زعماء الزولو كان قد نصح قومه بالامتناع عن دفع ضريبة فرضت عليهم ، وكان قد طعن بسنانه جندياً أقبل لجباية الضريبة . وعلى أية حال ، فقد كان فؤادي مع الزولو . ولقد أبهجنى ، اذ وصلت الى مركز القيادة ، أن اسمع أن عملاً الرئيسي سوف يكون السهر على راحة الجرحى من الزولو . ورحب بنا الضابط الطبيب المسؤول . لقد قال ان البيض ما كانوا يعالجون جرحى الزولو بشهامة ، وان جراحتهم كانت تنقيح ، وإنه كان مرتبكاً لا يدري ما يفعل . لقد هلل لوصولنا معتبراً ذلك نعمة وجهتها السماء الى هؤلاء القوم الابرياء ، وزودنا ببعضائب ومطهرات وغيرها ، وقادنا الى المستشفى المرتجل . وابتهج الزولو بروتينا . وكان من دأب الجنود البيض ان يختلسوا النظر من خلال النرابزون الذي فصلنا عنهم ، وحاولوا ان يثبونا عن تضديد جراحات الزولو . حتى اذا لم نكثر بهم غضبوا وقذفوا الزولو بوابل من أقبح الشتائم .

وشيئاً بعد شيء تعاظم اتصالي بهؤلاء الجنود ، فكفوا عن التدخل . وكان بين كبار الضباط الكولونيل سباركز والكولونيل ويلي اللذان قاوماني ، بمرارة ، عام ١٨٩٦ . ولقد أدهشهما مسلكتي ، فاستدعياني وعبراً لي عن شكرهما . وعرفاني الى الجنرال ماكيتري . ويحسن بالقاريء ان لا يحب أن هؤلاء كانوا جنوداً محترفين . فقد كان الكولونيل ويلي عامياً شهيراً من محامي دوربان ، وكان

الكولونيل سباركر معروفاً بوصفه صاحب محل لبيع اللحم في دوربان . أما الجنرال ماكيتري فكان مزارعاً فناناً بارزاً . إن جميع أولئك الرجال كانوا متطوعين ، وكانوا قد تلقوا تدريبهم العسكري وتجربتهم الحربية بهذا الوصف . والواقع ان الجرحى الذين عُهد اليها في العناية بأمرهم لم يُجرحوا في ميدان المعركة . إن قسماً منهم كانوا قد أسروا لارتياب السلطات بهم . وكان الجنرال قد أصدر أمره بجلدهم . فأحدث الجاهل جراحاً خطيرة . حتى اذا أهملت هذه الجراح أخذت في التقيح . أما الآخرون فكانوا من الزولو المتعاونين مع السلطة ، وعلى الرغم من أن هؤلاء كانوا قد أعطوا سباتٍ لتميَّزهم عن « العدو » فقد أطلق الجند عليهم النار خطأً .

وبالإضافة الى هذه المهمة ، كان عليّ ان أركبَ وصفات الأدوية للجنود البيض . وكان هذا سيراً عليّ ، اذ سبق لي ان تدرّبت طوال عام في مستشفى الدكتور بوث الصغير . وهذا الصنيع جعلني على اتصال وثيق بكثير من الأوروبيين .

كنا ملحقين بكثية خفيفة الحركة . وكانت هذه الكثية قد أمرت بالزحف الى كل مكان مُحاط علماً بأنه مهدد بخطر . وكانت تتألف في معظمها من مشاة واكبين . فما أن نُقل معسكرنا حتى تعيّن علينا ان نلحق بالكثية سيراً على الاقدام ، حاملين نقالاتنا على أكتافنا . ومرةً أو ثلاث مرات ، نحتم علينا ان نمشي أربعين ميلاً يومياً . ولكني كنت ، حينما ذهبنا ، سعيداً بادانتنا عملاً من الأعمال القسمية الخبيرة ، اذ كان علينا ان نحمل على نقالاتنا الى المعسكر أولئك لزولو الموالين الذين جُرحوا خطأً ، وان نسهر على صحتهم كالممرضات .

## ٢٥ . كيف نلذت البراهمانشاريا

كانت « ثورة » الزولو حافلة بالتجارب الجديدة ، ولقد قدّمت اليّ غلاء كثيراً للفكر . والحق أن حرب البوير لم تكن قد كشفت لي عن أهوال الحرب

يمثل القوة الصارخة التي كشفتها لي « الثورة » . إن هذه لم تكن حرباً ولكن عملية « قص بشري » ، لا في رأبي أنا وحسب ، بل في رأي كثير من الانكليز الذين أتبع لي التحدث معهم أيضاً . كان سماع الاخبار التي تروي كل يوم انباء انفجار بنادق الجنود مثل المتفجرات في القرى الصغيرة البريثة تجربة قاسية ، وكانت الحياة وسط اولئك القوم محنة عسيرة . ولكني ابتلعت الجرعة المريرة ، خاصة وان عمل فرقنا لم يكن يعدو العناية بالجرحى من الزولو . لقد كان في استطاعتي أن أرى أننا اذا لم نعلن بأولئك الزولو فلن يُعنى بهم أحد . وهكذا فان هلم العمل أراح ضميري .

ولكن كان ثمة أشياء أخرى تحمل المرء على التفكير : كانت تلك المنطقة جزءاً من البلاد قل سكانه وتناثروا ههنا وههناك . ففي الكتيان والادوية تباعدت مشتة الشمل قرى الزولو البسطاء الذين يوصفون بأنهم غير « منمدين » . وفيما كنت أجوس ، مع الجرحى أو بدونهم ، خلال تلك الديار المعزولة المهيبة ، كنت كثيراً ما اسلم لتفكير عميق .

لقد فكرت في البراهماتشاريا ومضامينها ، وامتدت جلور الايمان بها أعماق فأعماق في نفسي . وناقشت الفكرة مع أعواني . ولم أكن قد أدركت آنذاك الى أي حد كانت البراهماتشاريا ضرورية لتحقيق الذات ، ولكني رأيت بوضوح ان الفرد الطامع الى خدمة الانسانية بكل قلبه لا يستطيع الاستغناء عنها . لقد تبدى لي اني سوف نتاح لي مناسبات أكثر فاكثر للقيام بخدمات مماثلة لتلك التي كنت اؤديها ، واني خليق بأن أجد نفسي غير كفء للنهوض بمهمتي إذا انقسمت بملاذ الحياة العائلية وفي إنجاب الأولاد وتربيتهم . وبكلمة ، اني كنت غير قادر على ان أحيأ من أجل الجسد والروح جميعاً . ففي الطرف الحاضر ، مثلاً ما كان ليسنى لي ان ألقي بنفسي في هذا الصراع لو كانت زوجتي تنتظر طفلاً . إن خدمة الاسرة خليقة بأن تكون ، من غير ما يراهاتشاريا ، متنافية مع خدمة المجتمع . أما في ظل البراهماتشاريا فان الخدمتين تتساوآن تساوقاً كاملاً .

وفما كانت هذه الافكار تستحوذ عليّ اشتد بي الشوق الى تقييد نفسي نهائياً بنذر البراهماتشاريا . وكان في مجرد تفكيري باني سأقوم بهذه الخطوة ما ملأ نفسي تهلاً وجوراً . وصرح بي الخيال أيضاً ما شاء ان يصرح ، وفتح أمامي آفاقاً من الخدمة لا حد لها .

وانما كنت في غمرة من مثل هذا العمل الجسدي والعقلي المرهق عندما جاءت الانباء بأن اخضاع الثورة قد أوشك ان يتم ، وبأننا سوف نسرّح عملاً قريب . ولم ينقض على ذلك يوم أو يومان حتى سرّحنا ، فانتقلنا بعد بضعة ايام الى يوتنا .

وبعد برهة يسيرة جاءني رسالة من الحاكم يشكر فيها فرقة الاسعاف على الخدمات التي أدتها .

ولدى وصولي الى فونيكس أثرت موضوع البراهماتشاريا ، في لفقة ، مع تشاغانلال ، وماغانلال ، ووست ، وغيرهم . واعجبنيهم الفكرة . وأقروا ضرورة الافدام على النذر ، ولكنهم بسطوا في الوقت نفسه مصاعب المهمة ، لقد آلى بعضهم على نفسه ان يسير في هذه السيل ، وأنا أعرف أن بعضهم قد نجح في ذلك أيضاً .

وخضت أنا الغمار كذلك—غمار تقييد النفس بنذر البراهماتشاريا—صمري كله ، ويتعين عليّ ان أعترف بأنني لم أدرك كل الادراك ، آنذاك ، ضخامة المهمة التي فرضتها على نفسي وعيظمتها . والحق ان المصاعب لا تزال ، حتى اليوم ، تحدق اليّ في وجهي . بل ان أهمية النذر لتجلى لي أوضح فأوضح يوماً بعد يوم . فالحياة من غير براهماتشاريا تبدو في نظري تافهة وبهيمية . فالبهائم لا تعرف بالفطرة كبحاً للغرائز . والانسان انما يكون انساناً لأنه قادر على هذا الكبح ، وبمقدار ما يمارس هذا الكبح . ان ما بدا لي ، من قبل ، اطراءً مغالى فيه للبراهماتشاريا في كتبنا الدينية ، ليلبدو لي الآن ، بوضوح متعظم كل يوم ، شيئاً أصيلاً كل الاصاله ، شيئاً مؤسساً على التجربة .

لقد رأيت ان البراهماتشاريا ، الحافلة الى أبعد الحدود بالقوة الرائعة ، ليست

مسألة يسيرة بحال ، وليست من غير شك مجرد مسألة من مسائل الجسد . إنها تبدأ بالكبح الجسدي . ولكنها لا تنتهي هناك . إن بلوغ غاية الكمال فيها يعوق التفكير غير الطاهر نفسه . فالبراهماتشاري الحق لا يحلم ، ولو مجرد حلم ، بإشباع شهوته الجسدية . ولكن لكي ينتهي هذا البراهماتشاري الى هذه الحالة يتعين عليه ان يمتاز مرحلة طويلة شاقة .

وبالنسبة اليّ كان الوفاء بنذر البراهماتشاريا الجسدية نفسها مليئاً بالمصاعب ، واليوم أستطيع أن أقول إنني أستشعر قدراً حسناً من الأمن ، ولكن لا يزال علي أن أحقق السيطرة الكاملة على الفكر . وهي أساسية جداً . وليس مردّ هذا الى ان الارادة أو الجهد يُعوّزانني ، ولكنني لا أزال أجهل من أين تنبع الانكار غير المرغوب فيها وتشنّ غزواتها المخائلة ؟ ولست أشك في أن ثمة مفتاحاً لا يصاد الباب في وجه الاخطار غير المرغوب فيها ، ولكن على كل امرئ أن يبحث عنه بنفسه . لقد خلف القديسون واهل الكشف خبراتهم لنا ، ولكنهم لم يقدموا لنا وصفة شاملة ومعصومة عن الخطأ . ذلك ان الكمال أو التحرر من الخطأ لا يأتي إلا من العناية ، ومن هنا فان الباحثين عن الله قد تركوا لنا صلوات وأدعية ، مثل ال « راما ناما » ، مباركة بتعقّفهم ، مثقلة بطهرهم . ومن غير ما استسلام مطلق لعنائه تعالى ، يتعلم التحقق بالسيطرة الكاملة على الفكر ، ذلك ما يعلمنا إياه كل كتاب عظيم من كتب الدين ، واني لأدرك صحته في كل لحظة من لحظات نضالي من أجل البراهماتشاريا الكاملة .

ولكن جزءاً من تاريخ ذلك النضال والكفاح سوف يُروى في الفصول التالية . أما هذا الفصل فسأختمه بإشارة الى الطريقة التي استهلّت بها هذه الخطوة : ففي سورة الحامسة الأولى وجدت الوفاء بالنذر هيناً جداً . وكان اول تغيير أجريته في طريقة حياتي امتناعي عن اقتسام الفراش الواحد مع زوجتي ، أو اللباس الخلوة بها .

وهكذا فان البراهماتشاريا التي كنت أعمل بها على نحو غير اختياري منذ عام

١٩٠٠ ، كُرست بنظر قبلة به نفسي في منتصف عام ١٩٠٦ .

## ٢٦ . مولد الساتياغراها (اللاعنف)

كانت الاحداث تشكك في جوهانسبورغ وكأنها تبغي ان تجعل هذا التطهير الذاتي الذي قمت به شبه تمهيد لحركة الساتياغراها أو اللاعنفي . وفي استطاعتي الآن أن أؤكد ان جميع احداث حياتي الرئيسية ، متوجةً بـتَذَر البراهماتشاريا ، كانت مُعدّتي على نحو سري لتلك الحركة . إن المبدأ المسمى «ساتياغراها» أبصر النور قبل أن يُختَرع ذلك الاسم . والحق اني أنا نفسي لا أستطيع أن أقول متى كان مولده . وفي الكوجاراتية ايضاً استعملنا تعبير « المقاومة السلبية » لوصفه . وحين اكتشفت في اجتماع لبعض الاوروبيين ، ان تعبير « المقاومة السلبية » كان يوثر تأويلاً ضيقاً جداً ، حتى لقد افترض انه سلاح الضعيف ، وأنه قد يتميز بالبغض ، وأنه قد يتخذ آخر الأمر شكل العنف ، أقول حين اكتشفت ذلك تعيّن عليّ ان اعترض على التصريحات كلها ، وشرح حقيقة الحركة الهندية . كان واضحاً ان الحاجة تقضي بأن يصوغ الهنود انفسهم كلمة تجسد نضالهم . ولكي لم أوفّق الى صياغة اسم جديد . ومن أجل ذلك أذعت بواسطة صحيفة « الرأي الهندي » اني أقدم جائزة رمزية الى القارئ الذي يقترح اسماً للحركة . وهكذا نحت ماغانلال غاندي كلمة ساداغراها (ساد: الحقيقة، آغراها : الثبات ) وربح الجائزة . ولكي أجعل الكلمة أوضح صحفيتها الى ساتياغراها التي أصبحت منذ ذلك الحين ، في اللغة الكوجاراتية ، علماً على النضال .

ان تاريخ هذا النضال هو ، عملياً ، تاريخ الجزء الباقي من مقامي في جنوب افريقية وبخاصة تاريخ تجاربي مع الحقيقة في تلك الديار . لقد دوت الشطر الاعظم من هذا التاريخ في سجن بيرافدا ، ثم أتممته بعد اطلاق سراحي . لقد نُشر في مجلة نافاجيفان ، ومن ثم ظهر على شكل كتاب . ومنذ زمن والامشاذ فالجي غوفينجي ديزاي يعمل على ترجمته الى الانكليزية لمجلة «الفكر السائر»



**Current Thought** ولكنني أسمى الآن الى نشر هذه الترجمة الانكليزية . على شكل كتاب في وقت مبكر لكي يكون في ميسور الراغبين أن يتعرفوا الى أهم تجاربي في جنوب افريقية وأخطرها شأناً . واني لانصح القراء الذين لم يتابعوا تاريخ اللاعنف في جنوب افريقية ان يرجعوا اليه في ذلك الكتاب . فأننا لن أكرر ما دوتته هناك ، ولكنني في الفصول القليلة التالية سأجتزئ به بالنص على بضعة أحداث شخصية قليلة وقعت لي في جنوب افريقية ولم اتكلم عنها في ذلك الكتاب . حتى إذا تم لي ذلك ، تقدمت في الحال إلى اعطاء القارئ فكرة ما عن تجاربي في الهند . وهكذا فيحسن بكل من يرغب في الاطلاع على تلك التجارب في تسلسلها الزمني الصارم أن يبقى قصة اللاعنف في جنوب افريقية أمامه .

## ٢٧ . تجارب جديدة في حقل الغذاء والحمية

كنت شديد الحرص على الوفاء بنظر البراهمة اثاريا فكرياً ، وقولاً ، وعملاً ، كما كنت استشر حرصاً مائلاً على تخصيص أعظم قدر من الوقت لنضال اللاعنف ، وإعداد نفسي لذلك النضال بتعزيز طهارتها وصفاتها . وهكذا رأيتني مسوقاً إلى إحداث تغييرات اضافية وإلى فرض قيود أعظم على نفسي في مسألة الطعام . لقد كان الحافظ إلى التغييرات السابقة صحيحاً في المحل الأول ، أما التجارب الجديدة فقد قمت بها من زاوية دينية .

أخذ الصيام وتقييد الغذاء يلعبان ، الآن ، دوراً أكثر أهمية في حياتي . إن الشهوة عند الانسان متلازمة الوجود عادة مع الترق إلى ملذات القم . وقد صحّ ذلك فيّ أنا أيضاً . فقد لقيت مصاعب كثيرة في محاولة السيطرة على الشهوة

---

• لقد ظهرت هذه الترجمة الانكليزية في ما بعد في كتاب نشره . م . غانيزان في معراس .

وعلى حاسة اللوق ، ولست أستطيع ان أدعي حتى في يومي هلا اني وفقت إلى إخضاعهما إخضاعاً كاملاً . كنت دائماً أعتبر نفسي أكرلاً . وما تراءى لأصدقائي وكأنه تقييد للشهوة إلى الطعام لم يَبْدُ لي قط تقييداً البتة . ولو اني عجزت عن تحقيق ذلك الكبح إلى الحد الذي نَمَ لي اليوم اذن لاحتدت إلى مترلة أدنى من مترلة البهائم ولحق عليّ الهلاك منذ عهد بعيد . وأياً ما كان ، فقد أدركت مظاهر قصوري إدراكاً ملانماً ، ومن أجل ذلك بذات جهوداً كبيرة للتخلص منها .

واذ وعيتُ ضعفي وأخذت أنصل على نحو غير متوقع برفاق مؤنسين ، فقد شرعت اقتصر على غذاء من الفاكهة أو أصوم في يوم « الأيكاداشي » ، وأودّي القريضة الخاصة بيوم « جانماشامي » وغيره من الأعياد .

لقد بدأت بغذاء من الفاكهة ، ولكنني من وجهة نظر التقييد والكبح ، لم اكشف فروقاً كبيرة تقتضي ان اختار بين الغذاء المقصور على الفاكهة والغذاء المقصور على الحبوب . فقد لاحظت ان ارضاء حاسة الذوق ممكن مع الأول إمكانه مع الثاني ، بل أكثر إذا ما أليفَ المرء وتعوده . ومن أجل ذلك أخذت أعلق أهمية أعظم على الصيام أو على الاكتفاء بوقعة من الطعام واحدة ليس غير في الأعياد والايام المباركة . وكنت إذا ما منحت لي فرصة للتكفير وما اليه أسارع إلى الصيام مفيداً من الفرصة السانحة .

ولكنني رأيت أيضاً - وقد استُنزِفَ الجسد الآن على نحو أكثر فعالية - أن الطعام أصبح ذا مذاق أعظم وان الشهوة اليه أصبحت أكثر قوة . وتبلى لي أن في امكان المرء ان يجعل الصيام سلاح ارضاء أو اشباع ، شأنه في ذلك شأن الكبح أو التقييد . وكثير من تجاربي المتأخرة المشابهة ، ومن تجارب الآخرين أيضاً ، يمكن أن تُقدم دليلاً على هذه الواقعة المذهلة . لقد اردت أن أحسن جسدي وأدربه ، ولكن لما كان غرضي الرئيسي الآن ان أحقق كبح الشهوة والتغلب على مطالب النَم فقد اخترت أول الأمر طعاماً ثم اخترت بعد ذلك

طعاماً آخر ، واختصرتُ المقادير في الوقت نفسه . ولكن حسَّ المذاق كان يلاحقني ، في ما يبدو . وكنت كلما هجرت طعاماً وأقبلت على آخر قدّم الي هذا الأخير مذاقاً انضروا زكى من سابقه .

وكان يرافقني في القيام بهذه التجارب رفاق متعددون كان ابرزهم هيرمان كالينباتش . ولقد سبق لي ان كتبت عن هذا الصديق في التاريخ الذي وضعته لحركة اللاعنف في جنوب افريقية ، ولن أكرر ذلك هنا . والواقع ان مسر كالينباتش كان دائماً معي سواء في الصيام أو في التغييرات المتصلة بمسألة الغذاء والحمية . كنت أحيأ معه في منزله عندما بلغ كفاح اللاعنف ذروته . ولقد درسنا التغييرات التي أدخلناها على طعامنا ، وفزنا من الغذاء الجديد بمتعة أعظم من تلك التي كان يقدمها لنا الغذاء القديم . وكانت هذه الاحاديث وما إليها تبدو سائغة جداً في تلك الايام ، ولم تبدْ هني قط كشيء غير لائق . بيد ان التجربة علمتني ان من الخطأ اطالة التفكير والحديث في مذاق الطعام . إن على المرء ان لا يأكل لأمتاع الفكين ، ولكن لمجرد ابقاء الجسد في حال تمكنه من العمل . وحين يعمل كل من أعضاء الحس في خدمة الجسد ، ومن خلال الجسد ، في خدمة الروح ، فعندئذ يتلاشى مذاقه الخاص ، وعندئذ فقط يبدأ نشاطه في الطريقة التي أرادتها الطبيعة له .

ومهما تعددت التجارب فإنها تظل قليلة ، ومهما عظمت التضحية فإنها تظل هزيلة ، في السبيل المؤدية إلى تحقيق هذا التناغم السيمفوني مع الطبيعة . ولكن التيار يتدفق اليوم ، مع الاسف ، اندفاعاً قوياً في الاتجاه المعاكس . فنحن لا نخجل من التضحية بجمهرة من الارواح الأخرى لتزيين الجسد القاني ومحاولة إطالة حياته بضع لحظات خاطفة ، مما يؤدي بنا آخر الأمر إلى أن نقتل أنفسنا ، جسداً وروحاً . إننا اذ نسعى إلى شفاء أنفسنا من مرض قديم نعمل على خلق مآث من الامراض الجديدة . وإذ نحاول الاستمتاع بملذات الحس نفقد في النهاية حتى قدرتنا على الاستمتاع . وكل ذلك يجري أمام أعيننا بالذات ،

ولكن ليس ثمة من هو أشدّ عُمى من أولئك الذي لا يريدون ان يروا .  
حتى إذا قدمتُ . على هذا النحو . اهدف من التجارب الخاصة بالغذاء  
والحمية وسلسلة الافكار التي ساقني اليها . بحسبى الآن أن أصف هذه  
التجارب في شيء من الاسهاب .

## ٢٨ . شجاعة كاستورباي

لقد نجت زوجتي من الموت . وبشقّ النفس . ثلاث مرات في حياتي ،  
بعد مرض خطير أصابها في كل مرة . وكان الفضل في شفائها إلى أدوية أعدت  
في البيت . وحين أصيبت بمرضتها الأولى كانت حركة الساتياغراها قد استهلّت  
أو على وشك ان تُستهل . كانت تعاني نزف الدم بين الفينة والفينة . ولقد  
اقترح أحد الاصدقاء إجراء عملية جراحية وافقت هي عليها بعد شيء من التردد .  
كان جسمها قد هزل هزلاً شديداً . وكان على الطبيب ان يجري الجراحة من  
غير مخدر . ونجحت الجراحة . ولكنها أورثتها كثيراً من الالم . بيد أنها تحمّلت  
ذلك في شجاعة رائعة . وكان ذلك في دوربان . وأجاز لي الطبيب أن أمضي إلى  
جوهانسبورغ ، وسألني ان لا أقلق على المريضة .

ولكن ما إن انقضت أيام قليلة حتى تلقيت رسالة مفادها ان حالة كاستورباي  
أمت أسوأ من ذي قبل . وأنها كانت أضعف من ان تجلس في فراشها ، وأنها  
فقدت الرشذ ذات مرة . وكان الطبيب يعلم أنه لا يستطيع أن يقدم اليها ضروب  
الخمير أو اللحم من غير موافقتي . وهكذا تلقن لي إلى جوهانسبورغ يسألني ان  
أأذن له في إعطائها مرق لحم البقر . فاجبته قائلاً اني لا أستطيع أن اعطيه هذا  
الاذن . ولكن في امكانه استشارتها إذا كانت في حال تمكنها من التعبير عن رأيها  
في المسألة . وأنها حرة في اختيار المسلك الذي تستحبه . فقال الطبيب :

— ولكني أرفض ان استشير المريضة في هذه المسألة . يجب ان تأتي انت

إلى هنا ، وإذ لم تمنحني الحرية التي تمكنني من ان اصف لما إيما غذاء ارتضيه فلن  
أعتبر نفسي مسؤولاً عن حياة زوجتك .»

وامتنطت من القطار ، في اليوم نفسه ، إلى دوربان ، واجتمعت إلى الطبيب  
الذي أدلى اليّ ، في هدوء ، بهذا البناء :

« كنت قد أعطيت السيدة غاندي مرق لحم البقر عندما تلفتُ اليك . »  
فقلت :

« ولا ، أيها الطبيب . أنا أدعو هذا خيانة . »

فقال الطبيب في تصميم :

« ليس هناك من خيانة في وصف علاج أو غذاء لأحد المرضى . الواقع  
اننا نحن الاطباء نعتبر من الفضيلة ان نخدع المرضى أو أقرباءهم الاذنين إذا  
استطعنا من طريق هذه الخديعة أن ننفذ مرضانا . »

واستدبني الحق ، ولكنني احتفظت برباطة جأشي . كان الطبيب رجلاً  
صالحاً . وكان صديقاً لي . وكان له ولزوجته دين معنوي في عني ، ولكنني لم  
أكن مستعداً للرضا بأخلاقيته الطيبة . فقلت له :

« أخبرني ، أيها الطبيب ، ما الذي تعترف أن تفعله الآن ؟ أنا لن أسمح  
لزوجتي بأن تعطى اللحم أو لحم البقر ، حتى ولو كان هذا الرفض معناه  
موتها ، إلا إذا رغبت هي في ذلك طبعاً . »

« لك ، يا الحرة في اعتناق الفلسفة التي تريد . ولكنني أقول لك : ما دمت  
تبقي زوجتك تحت إشرافي الطبي فيجب أن تكون لي الحرية في إعطائها أيما  
شيء أريد . وإذا كنت لا تحب هذا فعندئذ أجد نفسي مضطراً ، مع الأسف ،  
إلى أن أسألك ان تعهد في أمرها إلى طبيب غربي . أنا لا أستطيع ان أراها تحت  
سقف مستشفى . »

« هل تعني ان عليّ أن أنقلها في الحال ؟ »

« متى سأنتك ان تنقلها ؟ كل ما أريده هو ان امنح الحرية الكاملة . فإذا

منحتني هذه الحرية فعندئذ أقوم أنا وزوجتي بكل ما هو مستطاع من أجلها ،  
وعندئذ تستطيع ان تعود أدراجك من غير ان تقلق عليها البتة . ولكن إذا عجزت  
عن فهم هذه المسألة البسيطة فسوف تكرهني على ان أسالك نقل زوجتك من  
مستشفى .

وأحسب ان احد اولادي كان معي . فوافق على رأيي موافقة كاملة ، وقال  
ان امه يجب أن لا تعطى مرق لحم البقر . ثم اني تحدثت إلى كاستورباي نفسها .  
كانت في الواقع أضعف من أن تستشار في هذه المسألة . ولكني اعتقدت ان من  
واجبي ، مهما يكن ذلك مؤلماً ، أن أستشيرها . لقد احطتها علماً بالذي دار بيني  
وبين الطبيب ، فردت بجواب جازم :

— « أنا لن أتناول مرق لحم البقر . اذه لشيء عظيم في هذا العالم ان يولد  
المخلوق كائناً بشرياً ، وأنا اوثر الف مرة أن أموت بين ذراعيك على ان ألوث  
جسدي بمثل هذه الاشياء البغيضة إلى أبعد الحدود . »

وناقشنا في ذلك . لقد قلت لها انها غير ملزمة باتباعي . وحدثتها عن بعض  
أصدقائي ومعارفي المندوس الذين لم يتخرجوا من التدوي باللحم أو الخمر .  
ولكنها ظلت متمسكة برأيها في عناد . وقالت :

— « أرجوك أن تنقلني من هنا في الحال . »

وابتهجت نفسي . وفي شيء من الاضطراب وطلت النية على نقلها . وأفضيت  
إلى الطبيب بقرارها فهتف في حثي :

— « يا لك من رجل غليظ القلب ! كان ينبغي ان نحجل من مباحثتها بهله  
المسألة وهي في حالتها الحاضرة . أقول لك ان زوجتك ليست في وضع يساعدها  
على الانتقال . انها لا تستطيع احتمال اي اهتزاز مهما كان ضئيلاً . ولن أعجب  
أبداً إذا ما قضت نحبها على الطريق . ولكن إذا اصررت ، فلك الحرية في أن  
تعمد إلى نقلها . إذا لم تسمح لي باعطائها مرق لحم البقر فلن أغامر بإبقائها تحت  
سففي ولو يوماً واحداً ليس غير . »

وهكذا قررنا ان نغادر المكان في الحال . كان المطر يتساقط رذاذاً ، وكانت المحطة

بعيدة بعض الشيء . وكان علينا ان نركب القطار من دوربان إلى فونيكنس ، لنبلغ مزرعتنا التعاونية بعد ذلك إثر اجتيازنا طريقاً طويلاً مبلان ونصف ميل . كنت من غير شك أقوم بمغامرة خطيرة جداً . ولكني فوضت امري إلى الله ، وتابعت القيام بالمهمة : ووجهت رسولاً إلى فونيكنس ليكلف وست باستقبالنا على المحطة مع ارجوحة شبكية الفزّل . وزجاجة لبن ساخن وزجاجة ماء حار ، وستة رجال ليحملوا كاستورباي في الأرجوحة . واستأجرت ركشة\* . لتمكينني من نقلها في القطار التالي ، فوضعتها في الركشة ، وهي على تلك الحال الخطرة ، ورحنا نسير .

ولم تكن كاستورباي في حاجة إلى من يشدد من عزيمتها . على العكس . لقد حاولت ان تسري عني قائلة :

« لن أصاب بشيء . لا تقلق . »

كانت مجرد جلد على عظم . بعد ان أحرمت التغذية طوال أيام . وكانت منصة المحطة واسعة جداً ، وإذ لم يكن في الامكان التقدم بالركشة إلى الداخل فقد كان يتعين على المرء ان يمشي مسافة ما قبل ان يصل إلى القطار . وهكذا حملتها بين ذراعي ووضعتها في الحافلة . ومن فونيكنس حملناها في الأرجوحة الشبكية ، وهناك استعادت نشاطها شيئاً بعد شيء بفضل المعالجة بالماء .

وما ان انقضى يومان أو ثلاثة أيام على وصولنا إلى فونيكنس حتى وفد علينا معلم ديني هندوسي . كان قد سمع بالطريقة الصارمة التي رفضنا بها نصيحة الطبيب ، وكان قد أقبل ، بدافع من الشفقة ، ليناقتنا في الأمر . وكان ولداي الثاني والثالث ، مانيلال ورامداس ، حاضرين على ما أذكر عندما وفد ذلك الرجل . لقد أكد ان تناول اللحم لا يغير العقيدة الدينية ، مستشهداً ببعض الثقات من ال « مانو » . ولم يعجبني استرساله في هذا الجدل في حضرة زوجتي ، ولكنني احتملت ذلك كله بحكم اللباقة . كنت أعرف أبيات ال « مانوسمريتي » ، ولم

---

\* الركشة : Ricksha , Rickshaw عجلة ركوب يجرها رجل . وأصلها ياباني .

(المغرب)

اكن في حاجة اليها لاقناعي . وكنت أعرف أيضاً ان ثمة مدرسة تعتبر هذه الابيات مدموسة<sup>٢</sup> . ولكن حتى لو لم تكن مدموسة فيما كان ذلك ليقدم أو ليؤخر، فقد كنت اتمسك بأرائي في التزعة النباتية في معزل ، وباستقلال ، عن النصوص الندية ، ولقد كان ايمان كاستورباي وطيداً لا يتزعزع . كانت نصوص الكتب المقدسة كتاباً مخنوماً بالنسبة اليها ، ولكن دين اجدادها التقليدي كان يكفيها ؛ واعلن ابناي ايمانها بمعتقد أبيهما ، وهكذا استخفوا بمحدث الرجل . ولكن كاستورباي سارعت إلى وضع حد للحوار فقالت :

— « سواميجي ، مهما حاولت ان تقول فاني لا أريد ان اشفى بواسطة مرق لحم البقر . أرجوك ان لا تزعجني أكثر مما فعلت . في استطاعتك ان تناقش المسألة مع زوجي وأولادي إذا شئت . أما أنا فقد عقدت العزم على عدم اللجوء إلى المرق . »

## ٢٩ . لاعنف منزلي...

لقد عرفتُ اولى تجاربي لحياة السجن في عام ١٩٠٨ . لقد رأيت ان بعض الانظمة التي كان يتعين على السجناء مراعاتها تشبه ، إلى حد بعيد ، القيود التي يرضيها طواغية<sup>٣</sup> كل براهماشاري ، اي كل رجل يرغب في كبح شهواته . من ذلك مثلاً القانون الذي يتقرر ان تنتهي وقعة الطعام الاخيرة قبل مغرب الشمس . ومن ذلك ان السجناء الهنود والافريقين ما كان يسمح لهم بتناول الشاي . كان في استطاع اولئك السجناء أن يضيفوا الملح إلى الطعام المطبوخ إذا شاءوا ، ولكن<sup>٤</sup> كان بحال بينهم وبين تناول ألبا شيء لمجرد لذة الفكين . وحين سألت طبيب السجن ان يقدم الينا ذرور الكري . وان يسمح

(المرب)

٢ . الكري curry ضرب من البهار الهندي .



لنا بأضافة الملح إلى الطعام إبان طهوه قال :

- « انتم لم توضعوا هنا لامتاع أفواهكم . وذروا الكري غير ضروري من وجهة نظر الصحة ، ولا فرق بين اضافة الملح إلى الطعام أثناء طهوه أو بعد طهوه . »

واخيراً أُعدّل هذان القيدين ، ولكن في كثير من الصعوبة ، بيد أن كلاّ منهما كان قاعدة صحية من قواعد كبح الذات . ان ضروب التحريم المفروضة من خارج نادراً ما تنجح ، ولكنها حين تُفرض من داخل ، على نحو تلقائي ، تكون ذات أثر مفيد للصحة من غير ريب . وهكذا ، ما ان أطلق سراحى حتى فرضت على نفسي كلتا القاعدتين . وعلى قدر ما كان ذلك ممكناً في تلك الاثناء أقلعت عن شرب الشاي ، وأتممت تناول وقعة طعامي الاخيرة قبل مغيب الشمس . ولست أحتاج اليوم إلى بذل أيما جهد لتطبيق هاتين القاعدتين .

بيد ان ظرفاً ما لبث ان نشأ فأكرهني على اطراح الملح بالكلية ، وقد تشبث بهذا القيد طوال عشر سنوات موصولة . وكنت قد قرأت في بعض كتب المذهب الباني ان الملح ليس مادة من مواد الغذاء الاساسية للانسان ، وان الاغذية الخالية من الملح هي - على العكس - أدعى إلى حفظ الصحة . وكنت قد استتجت ان البراهماتشاري يفيد من الغذاء غير المملح . وكنت قد قرأت وادركت ان ضعاف البنية يجب ان يمتنعوا أكل الحبوب . وكنت شديداً الولوع بها :

واتفق ان عاود الترف كاستورباي ، التي فازت بمهلة قصيرة بعد عمليتها الجراحية ، ولقد بدا ان الداء عنيد . ولم يُجَدِ العلاج بالماء في ذاتها . ذلك ان كاستورباي كانت قليلة الايمان بأدويتي ، على الرغم من انها لم تعارض في أخذها . وهي لم تطالب ، من غير شك ، بالجوء إلى عون خارجي . وهكذا توصلت إليها ، حين أخفقت جميع أدويتي ، ان تمتنع الملح والحبوب . ولكنها رفضت الموافقة على ذلك ، رغم مناقشتي الطويلة لها ، ورغم اني استعنت في هذه المناقشة بآراء كثير من الثقات . وأخيراً تحدتني ، قائلة اني أنا نفسي خلقت

أن لا أجنب الملح والحبوب إذا اشير علي بذلك . وآلمني هذا وابهجني في وقت  
معاً - أبهجني إذ أناح لي فرصة إمطارها بجبي . لقد قلت لها : « أنت مخطئة .  
لو كنت أشكو مرضاً ، وأشار علي الطبيب بالاقلاع عن هذه الاشياء أو عن  
غيرها ، اذن لأطعته في غير تردد . ولكن على رأسك ! اني سأقلع عن تناول  
الملح والحبوب طوال عام ، ومن غير ما اشارة من طبيب ، سواء فعلت انت  
ذاك أم لم تفعلي ! »

وأصيبت بصدمة عنيفة ، وهتفت في حزن عميق :

- « ارجوك ان تغفر لي . ما كان لي ، وقد عرفتك ، أن أشيرك . إنني  
أعدك باجتنب هذه الاشياء ، ولكن ارجع عن نلرك بحق السماء . ان ذلك  
أقصى من ان أحتمله . »

- « انه لما يفيد صحتك كثيراً ان تغلعي عن هذه الاشياء . ولست أشك  
أقل الشك بأن حالك سوف تتحسن كثيراً بفضل الاستغناء عنها . أما انا فلست  
أستطيع ان احث بنذر قيدت به نفسي . وانا واثق أنه سيعود علي بالخير ، لأن  
كل كبح - مهما يكن الدافع اليه - مفيد من وجهة النظر الصحية . سوف يكون  
ذلك اختباراً لي ، وتأيداً معنوياً لك في الوفاء بالعهد الذي اخذته على نفسك . »  
وهكذا نفقت يدها مني . وقالت ملتزمة الراحة بسفع الشموع :

- « انت عنيد أكثر مما ينبغي . أنت لا تصني إلى احد . »

إنني احب ان أعتبر هذه الحادثة مثلاً على اللاعنف . وهي واحدة من أجمل  
ذكريات حياتي .

وبعد ذلك ، شرعت كاستورباي تتعافى سريعاً ، ولست أدري هل كان  
ذلك نتيجة الغناء الخالي من الملح والحبوب أو التعديلات الأخرى التي طرأت  
على طعامها في ما بعد ، أم كان نتيجة اليقظة الصارمة في مراعاة قواعد الحياة  
الأخرى ، أم نتيجة الجيور العقلي الناتج عن الحادثة ، وإذا كان الأمر كذلك  
فما مدى الاثر الذي كان له في تعافيا . ولكنها استردت قوتها في سرعة ،

وانقطع نزف الدم انقطاعاً كاملاً : وكعب : شهرة اضافية كمتنزل على الصناعة الطبية .

أما أنا فقد أفدت عافية وصحة بالنذر الجديد . اني لم اشته قط الاشياء التي هجرتها . وتصرت انعام : وألقيت حواسي أكثر اذعاناً من ايما وقت مضى . لقد اذكت التجربة ميلي إلى كبج الذات فواصلت اجتناب تلك الاشياء إلى ما بعد عودتي الى الهند بزم من طويل . ومرة واحدة اتفق لي ان تناولت الحبوب والطعام المملح معاً عندما كنت في لندن عام ١٩١٤ . ولكني سوف أتحدث عن تلك المناسبة في فصل تال .

ولقد قمت بتجربة الغذاء الخالي من الملح والحبوب على كثير من أعواني . وبتائج صالحة ، في جنوب افريقية . وقد يكون ثمة - من وجهة النظر الطبية - رأيان في قيمة هذه الحمية ، ولكني لا أشك - من وجهة النظر الاخلاقية - في أن كل انكار للذات مفيد للروح . ان غذاء الرجل الساعي إلى كبج النفس يجب ان يكون مختلفاً عن غذاء الرجل الساعي إلى المتعة ، كما يتحتم ان تكون أساليب حياتها مختلفة . والطامحون إلى البراهماتشاريا كثيراً ما يخذلون هدفهم نكس باتباع مسالك ثلاث حياة المتعة واللذة .

### ٣٠ . نحو الكبج الذاتي

وصفت في الفصل السابق كيف كان مرض كاستورباي مساعداً على إحداث بعض التغيرات في غذائي . وفي مرحلة متأخرة ادخلت تغيرات اضافية ابتغاء توطيد البراهماتشاريا .

كان أول هذه التغيرات الاقلاع عن شرب اللبن . وكنت قد تعلمت من رايشاندهاي ، أول ما تعلمت ، ان اللبن يثير الشهوة البهيمية . وزكّيت كتب

المذهب النبائي هذه الفكرة . ولكني لم أستطع ان أوطن النية على هجر اللبـن  
ما دمت لم أقيـد نفسي بنظر البراهماتشاريا . وكنت قد أدركت منذ عهد بعيد ان  
اللبـن ليس ضرورياً لصيانة الجسد . ولكن هجره لم يكن امراً هيناً . وفيما  
كان اقتناعي يزداد بضرورة اجتناب اللبـن ابتغاء تعزيز الكبح الذاتي اتفق لي  
ان وقعت على نشرة وردت من كلكتا وفيها وصف لضروب التعذيب التي تخضع  
لها الابقار والجواميس من قبل مالكيها . وكان لهذا أثر عجيب في نفسي .  
ودرس الأمر مع مسر كالينباتش .

وعلى الرغم من اني قدمت مسر كالينباتش إلى قراء قصة اللاعنـف في  
جنوب افريقية ، وأشرت اليه في فصل سابق فأذا أعتقد ان من الضروري ان أقول  
شيئاً أكثر عنه هنا . لقد كان التقاؤنا مصادفة خالصة . فقد كان صديقاً لمسـر  
خان ، وإذا اكتشف هذا الأخير فيه عرفاً من العناية بالأمور الخيالية والغيبية فقد  
عرفني اليه .

حتى إذا عرفته أذهلني حبه للترف والامراف . ولكن منذ اجتماعنا الأول  
نفسه وجه الي أسئلة مستعصية عن قضايا الدين . وتحدثنا عرضاً عن نكران  
غوتاما بوذا لذاته . وأبنت معرفتنا وشيكاً فأمت صداقة حميمة جداً إلى  
درجة جعلتنا نعتقد اننا متماثلان . واقنع هو بأن من واجبه ان يدخل على حيانه  
التغيرات التي كنت أدخلها أنا على حياتي .

كان في ذلك الحين عزباً ، وكان يتفق ألناً ومثي روية شهرياً على نفسه ،  
اعلاوة على اجرة بيته . أما اليوم فقد فرض على نفسه العيش البسيط حتى انخفضت  
نفقاته إلى مئة وعشرين روية شهرياً . وبعد ان تخلت عن منزلي وخرجت من  
السجن للمرة الأولى بدأنا نعيش معاً في منزل واحد . كانت حياتنا تلك حياة  
متشقة إلى حد غير يسير .

في خلال هذه الفترة بالذات ناقشنا في موضوع اللبـن . فقال مسر كالينباتش :  
« اننا نتحدث على نحو موصول عن آثار اللبـن السيئة . فلماذا لانهجـره اذن ؟ انه

ليس شيئاً ضرورياً من غير شك . . وأعجبني هذا الاقتراح ، ورجبت به ترحيباً حاراً ، ونعهدنا كلانا باجتناّب اللبن منذ اليوم . وكان ذلك في مزرعة تولستوي عام ١٩١٢ .

ولكن هذا الاجتناب لم يكن كافياً لابقاع الرضا في نفسي . فما هي الافة حتى قررت أن أحياء على غذاء من الفاكهة المحض ، وان يكون هذا الغذاء أيضاً مؤلفاً من ارخص فاكهة يستطيع المرء الحصول عليها . كنا نطمح إلى ان نحيا حياة أفقر الناس واشدهم إملاتاً .

وأثبت غذاء الفاكهة انه غذاء ملائم جداً أيضاً . فقد استغنينا عن الطبخ تقريباً . كان الجوز المسحوق ، والموز ، والتمر ، والليمون ، وزيت الزيتون تؤلف غذاءنا اليومي .

ويتعين علي هنا ان اوجه إلى الطامعين للبراهماتشاريا تحذيراً . فعلى الرغم من اني أقمت الدليل على ان هناك صلة حميمة بين الغذاء والبراهماتشاريا فالذي لا ريب فيه هو ان العقل هو الشيء الأساسي . ان العقل غير الطاهر على نحو واع لا يمكن ان يُطهّر بالصيام . والتعديلات المدخلة على الغذاء لا تأثير لها في ذلك . إن شهوة العقل لا سبيل إلى استئصالها إلاّ بامتحان النفس على نحو صارم ، وبالاستسلام لله ، وأخيراً بالنعمة الالهية . ولكن ثمة صلة وثيقة بين العقل والجسد ، والعقل المادي يشتهي دائماً اللطائف والمتارف . ولضادى هذه التزعة يبدو الصيام والقيود المفروضة على الغذاء شيئاً ضرورياً . إن العقل المادي يصبح عبد الشهوات بدلاً من ان يكون المسيطر عليها ، ومن أجل ذلك يحتاج الجسد دائماً إلى أطعمة نظيفة غير مثيرة ، وإلى صيام دوري .

إن اولئك الذين يستخفون بالقيود الغذائية والصيام مخطئون بقدر ما هم مخطئون اولئك الذين يعلقون آمالهم كلها على الصيام والقيود الغذائية . وتعلمني تجربتي ان هذا الصيام وذلك التقيد مفيدان جداً لكل من يتطلع تفكيره إلى كبس اللات . والواقع ان العلّمة لا يمكن ان تُسرّع من العقل انتزاعاً كاملاً إلا بمساعدتها ..

### ٣١ . الصيام

وحوالى الفترة التي اجتنبت فيها اللبن والحبوب ، وبدأت تجربة الغلذاء المقصور على الفاكهة، بدأت الصيام كوصيلة إلى الكبح الذاتي. وشاركني مستر كالينباتش في هذا أيضاً . وكنت تعودت الصيام بين الفينة والفينة ، ولكن لأسباب صحية خالصة . أما ان الصيام ضروري للكبح الذاتي فذلك ما تعلمته من احد الاصدقاء .

وإذ كنتُ اتحدّر من اسرة فيشنافية وأمّ ألفتِ الوفاء بمختلف ضروب النلور ، فقد أخذتُ نفسي ، وأنا في الهند ، بصيام الـ « ايكاداشي » وغيره من الصيامات ، ولكني لم ازد على ان طبعته ، بذلك ، على غرار أمي ، ومعيته إلى ارضاء والديّ .

في ذلك العهد لم أكن أفهم ، بل لم أكن أوّمن ، بفعالية الصيام ، ولكني حين رأيت الصديق الذي أشرت اليه يصوم ويُفِيد من الصيام ، وعلى رجاء توطيد نلر البراهماتشاريا ، حذوتُ حذوه ، وبدأت أؤدي صوم الـ « ايكاداشي » . ومن عادة الهندوس المطردة اطراد القاعدة أنهم يجيزون لأنفسهم تناول اللبن والفاكهة في يوم الصيام ، ولكني كنت أؤدي هذا الصوم يومياً ، وهكذا بدأت الآن أصوم صياماً كاملاً ، غير مجبر لنفسي شيئاً غير الماء .

وحين بدأتُ هذه التجربة انفق ان توافق شهر شرافان الهندوسي وشهر رمضان الاسلامي . ولم يكن من عادة آل غاندي الوفاء بنلر الفيشنافا فحسب ، بل كان من دأبهم الوفاء بنلر الشايفايث أيضاً ، وكانوا يزورون الهياكل الشايفايثية كما يزورون الهياكل الفيشنافية سواء بسواء . وكان بعض أفراد الاسرة يؤدون صيام الـ « برادوشا » . طوال شهر شرافان . فعقدت العزم على ان أفعل فعلهم .

هذه التجارب الهامة إنما أجريت فيما كنا في مزرعة تولستوي ، حيث كنت

---

• الصيام حتى الابل .

أنا ومستر كالينباتش نقم مع بضع أسرى منضمة إلى حركة اللاعنف . وفي جملتها شبان واطفال . وكنا قد انشأنا مدرسة لهؤلاء . وكان بينهم أربعة أو خمسة من المسلمين . وقد ساعدتهم دائماً وشجعتهم على التمسك بجميع شعائرهم الدينية . وُعُيِّت بأن أراهم يقيمون صلواتهم الدينية . وكان ثمة صغار مسيحيون وبارسيون أيضاً . ولقد اعتبرت من واجبي ان اشجع كل فئة منهم على اتباع دينها .

وهكذا فقد أقنعتُ صغار المسلمين . خلال ذلك الشهر . بأن يؤدوا صوم رمضان . وكنت قد عزمت ، طبعاً . على ان أوّدي انا صوم البرادوشا ، ولكني سألت الآن صغار الهندوس والبارسين والنصارى ان يشاركوني في ذلك . وأوضح لهم ان من الخير دائماً ان يشارك المرء غيره في أيما مسألة من مسائل إنكار الذات . ورحب كثير من نزلاء المزرعة باقتراحي . ولم يخذُ الصغار الهندوسيون والبارسيون حذو صغار المسلمين في التفاصيل كلها ، فلم يكن ذلك ضرورياً . كان على صغار المسلمين ان لا يُفْطَروا إلا مع الغروب ، في حين ان الآخرين لم يفعلوا ذلك ، وهكذا كان في مبورهم ان يُعَدُّوا الماء كل اللبذة لاصدقائهم المسلمين وان يخدموهم على المائدة . كذلك لم يكن يتعين على الهندوس وغيرهم ان يظلوا إلى جانب المسلمين عندما كان هؤلاء يتناولون وقعة طعامهم الأخيرة قبل ان يرتفع الضحى من اليوم التالي . وطبعاً فإن الجميع باستثناء المسلمين . كانوا يجيزون لأنفسهم شرب الماء .

وكانت نتيجة هذه التجارب ان الجميع اقتصوا بقيمة الصيام ، وهكذا عُمِرَت نفوسهم روحاً تضافر راحة .

كان جميع النازلين في مزرعة تولستوي نباتيين . ويجب ان أقرّ ، في اعتراف بالجميل ، ان الفضل في ذلك راجع إلى استعداد القوم كلهم لاحترام مشاعري . ولا ريب في أن الصغار من المسلمين قد افتقدوا ، خلال رمضان ، اللحم الذي يرغبون فيه . ولكن آياً منهم لم يُشعرني ذات يوم بافتقاده ذلك . لقد ابتهجوا بالخذاء النباتي واستطابوه . وكان الصغار من الهندوس كثيراً ما

بعدون لهم صوف الاطعمة النباتية الطريفة ، انسجاماً مع بساطة المزرعة .  
لقد استطردت ، عامداً ، في منتصف هذا الفصل الخاص بالصيام ، لأنني  
ما كنت أستطيع أن اروي هذه الذكريات العذبة في اياما مكان آخر . ولقد  
وصفت ، على نحو غير مباشر ، إحدى خصائصي ، وهي أنني أحب دائماً ان  
يشاركني أعواني في أيما شيء يترأى لي انه صالح . كانوا غرباء عن الصيام ،  
أول الامر ، ولكنه كان من السير علمي ، بفضل الـ « برادوشا » ورمضان أن  
أحبهم بالصيام كوسيلة من وسائل الكبح الذاتي .

وهكذا كان من الطبيعي ان يغمر المزرعة جو من الكبح الذاتي . وبدأ جميع  
نزلاء المزرعة يشاركونا في الصيام ، على نحو جزئي أو على نحو كامل ، وهو  
عمل كان من غير شك مفيداً لهم إلى أبعد الحدود . ولست أستطيع ان أقرر على  
وجه الضبط إلى أي مدى كان انكار الذات هذا قد لامس قلوبهم وساعدهم  
في فضالهم من أجل قهر الجسد . بيد اني مقتنع ، في ما يتصل بي شخصياً ،  
بأنني أفدت منه أعظم الفائدة ، من الناحيتين الجسدية والمعنوية جميعاً . ولكنني  
اعلم انه لا يلزم عن هذا الكلام ، بالضرورة ، ان الصيام والأنظمة المماثلة  
تحدث في جميع النفوس أنراً واحداً لا يعرف التفاوت .

إن الصيام لا يستطيع ان يلجم الشهوة البهيمية إلا إذا أدت على ضوء من  
كبح الذات . والواقع ان بعض أصدقائي وجدوا ان الصيام قد استثار ، آخر  
الأمر ، شهوتهم البهيمية وشهوتهم إلى الطعام . ومعنى هذا ان الصيام عبث لا  
طائل تحته إلا إذا كان مصحوباً بتوقٍ موصول إلى كبح الذات . والايات  
الشهيرة التي ينطوي عليها الفصل الثاني من الـ « باغافادجيتا » تتحقق ان يشار  
اليها في هذا المقام :

إن الاشياء الحسية تخفي من أمام  
فانظري الصائم الذي يكبت حواسه خارجياً  
ولكن هذا النوع من الصيام يترك التوق في مكانه .  
أما حين يكتحل الصائم برؤية الكائن الأعلى  
فصعدت يخفي التوق نفسه .



واذن فالصيام والانظمة المماثلة وسيلة من الوسائل المؤدية إلى غاية هي كبح النفس ، ولكنها ليست كل شيء . وإذا لم يرافق الصيام الجسدي صيام عقلي فلا بد أن ينتهي ذلك الصيام إلى الرياء والهلاك .

### ٣٢ . في حق التعلم

أرجو أن يذكر القارئ أنني انما أصف في هذه الفصول أشياء لم يُشر إليها . أو أشير إليها على نحو خاطف ، في كتابي عن تاريخ اللاعنف في جنوب افريقية ؛ إنه إذا ما فعل ذلك أدرك ، في يُسر ، العلاقة القائمة بين الفصول الأخيرة . وبعد أن نمت المزرعة وجدنا من الضروري ان نتخذ بعض التدابير لتخفيف صيائها وفتياتها ، وكان بين هؤلاء صبيان هندوس ومسلمون وبارسيون ونصاري ، وبعض الفتيات الهندوس . ولم يكن من الممكن ، وما كنت أعتقد ان ذلك كان ضرورياً ، أن نعين لهم مدرسين مضرغين لهذه المهمة . لم يكن ذلك ممكناً لأن المدرسين الهنود الاكفاء كانوا نادرين ، وحتى لو وجدوا فإن اياً منهم ما كان مستعداً للذهاب إلى مكان يقع على مبعده واحد وعشرين ميلاً من جوهانسبورغ ، لقاء راتب صغير ، ثم إننا لم نلعب بالمال لعباً . ولم أحسب ان من الضروري أن نستقدم المدرسين من خارج المزرعة . ولم أكن أو من بنظام التربية القائم ، وكنت أعترم أن أكتشف ، بالخبرة والتجربة ، النظام الصحيح . كل ما كنت أعرفه ان التربية الحقيقية لا يمكن أن يقوم بها - في الاحوال المثالية - غير الأبوين ، وان علينا أن لا نفرغ في تلك الظروف إلا إلى القدر الأدنى من المساعدة الخارجية ، وأن مزرعة تولستوي أسرة كنت أحتل فيها مقام الأب ، وأن عليّ ان أنهض ، جهد الطاقة ، بمسؤولية تثقيف الناشئين . ولم يكن هذا التصور خلوأ ، غير شك ، من مواطن الضعف والخلل . إن الناشئين لم يكونوا إلى جانبي منذ طفولتهم . لقد نشئوا في أحوال مختلفات ، وبنات مختلفات ، وما كانوا يتسبون إلى دين واحد . كيف كان في ميسوري

ان أنصف تلك الناشئة ، في غمرة من تلك الملبسات ، حتى ولو اتخذت مكان  
الأب الأكبر للأسرة ؟

ولكنني كنت دائماً أحلّ تربية القلب أو بناء الشخصية المحلّ الأول ، وإذا  
كنت واثقاً من ان التربية الخلقية يمكن أن تُقدّم إلى الجميع على السواء ، مهما  
اختلف تهذيبهم وتفاوتت أعمارهم ، فقد عقدت العزم على ان احيا بينهم طوال  
ساعات اليوم الأربع والعشرين بوصفي أباً لهم . لقد اعتبرت بناء الشخصية  
الاساس الصحيح لتثقيفهم ، وإذا ما كان هذا الاساس مكيناً فعندئذ يكون في  
ميسوري أن أنتق أن الاطفال سيقدرّون على تعلّم الاشياء الأخرى بأنفسهم ، أو  
بمساعدة الاصدقاء :

ولكنّ لما كنت اقدّر أعظم التقدير ضرورة الثقافة الأدبية بالاضافة إلى ذلك  
فقد افتتحت بعض الصفوف بمساعدة مسرّ كالينباتش والاستاذ براغجي ديزاي .  
ليس هذا فحسب ، بل اني لم أكن لأنقص من قدر تنمية الجسد وبنائه . وهذه  
التنمية وذلك البناء كانوا يفوزون بهما في خلال روتينهم اليومي . ذلك أنه لم يكن  
في المزرعة خدم ، فكان نزلاء المزرعة يقومون بالعمل كله ، من الطبخ حتى  
جمع القادورات . وكان ثمة كثير من الاشجار المثمرة التي تحتاج إلى عناية ،  
ومقدار صالح من أعمال البستنة ينبغي ان يتم أيضاً . وكان مسرّ كالينباتش  
مولماً بالبستنة ، وكان قد اكتسب بعض الخبرة في هذا العمل في احدى حدائق  
الحكومة النموذجية . كان مفروضاً على الجميع ، صغاراً وكباراً ، ممن لا عمل  
يتشغلهم في المطبخ ، ان يخصصوا بعض وقتهم للبستنة . وكانت للأولاد حصة  
الاسد في هذا العمل الذي اشتمل على حفر الحفّر ، وقطع الاخشاب ، ورفع  
الاحمال . وأتاح لهم ذلك تمريناً خصباً . لقد ابتهجوا بالعمل ، وهكذا لم يكونوا  
في حاجة إلى تمرينات أو إلى ألعاب أخرى . وليس من ريب في أن بعضهم ،  
وأحياناً كلهم ، كانوا يتارضون ويتكاسلون . ولقد كنت ، في بعض الاحيان  
أغض الطرف عن حيلهم ، ولكنني كثيراً ما كنت اصطنع الصرامة معهم .

وأستطيع ان أقول انهم ما كانوا يحبون الصرامة ، ولكني لا أذكر انهم قاوموها قط . وكنت كالما لجأت إلى الصرامة أعمد إلى اقتناعهم ، بالحجة ، بأنه ليس من الصواب ان يعبث المرء بعمله هو . ولكن اقتناعهم ما كان ليحمر طويلاً ، فما هي الا فترة يسيرة حتى يتركوا أعمالهم وينصرفوا إلى اللعب . ولم نكسب نعرف في المزرعة أيما مرض تقريباً ، على الرغم من انه يتعين علينا ان نقول ان الهواء النقي والماء الطيب وساعات الطعام النظامية كان لها كثير من الفضل في ذلك .

بقيت كلمة عن التدريب المهني . فقد كنت أعزم ان أعلم كلاً من الصغار حرفة يدوية مفيدة . ومن أجل هذه الغاية قصد مسر كالينباتش إلى دير لاترابي . ورجع بعد أن تعلم صناعة الأحذية . وتعلمت ذلك منه ، ثم علمت هذا الفن لكل راغب في اكتسابه . وكانت لمسر كالينباتش خبرة ما في التجارة ، وكان ثمة نزيل آخر من نزلاء المزرعة يعرف هذه الصناعة ، وهكذا أنشأت صفّاً صغيراً لتعليم التجارة . أما فن الطهو فكان جميع الصغار ، تقريباً ، يعرفونه .

كان هذا كله جديداً عليهم . بل انهم لم يحلموا قط ، مجرد حلم ، انهم سوف يتعلمون هذه الاشياء في يوم من الأيام . ذلك لأن التعليم الوحيد الذي كان الاطفال المنود يتلقونه في جنوب افريقية كان ، على العموم ، هو تعليم الروبيات الثلاث .

وفي مزرعة تولستوي وضعنا قاعدة تقضي بأن لا يُطلب إلى الصغار القيام بأيما عمل لا يقوم به المعلمون بأنفسهم . وهكذا كان ثمة دائماً معلم يتعاون معهم ويعمل إلى جانبهم . ومن هنا فان كل ما تعلمه الصغار إنما تعلموه في يشر وابتهاج .

---

• الاترابية : فرقة دينية أنشئت عام ١٦٦٨ ، وهي منسوبة إلى مؤسسها لاتراب الفرنسي Le Trappe .  
(المرب)

أما الشقيف الأدبي وبناء الشخصية فينبغي ان يعالجها في الفصول التالية.

### ٣٣ . الشقيف الادبي

لقد رأينا في الفصل السابق كيف زودنا صغارنا ، في مزرعة نولسوي ، بالتدريب البدني ، وعلى نحو عَرَضيّ ، بالتدريب المهني . وعلى الرغم من أن ذلك لم يتمّ بطريقة ترضيني كل الارضاء فني استطاعني القول إنه كان ناجحاً إلى حد قليل أو كثير .

أما الشقيف الأدبي فكان مسألة أكثر عسراً . لم أكن أملك لا الموارد المالية ولا العدة الأدبية الضرورية . ولم يكن لديّ الوقت الذي كنت أرغب في تخصيصه لهذا الغرض . فقد كان العمل الجسدي الذي كنت أقوم به يُنهك قواي في نهاية النهار . وكان من دأبي ان أتولى التدريس وأنا في أمسّ الحاجة إلى شيء من الراحة . وهكذا ، فبدلاً من أن أدخل إلى الصف نشيطاً كنتُ أجدي لا اذود النوم عن عيني إلا في أعظم العسر . كان علينا ان نخصص ساعات الصباح للعمل في المزرعة وللواجبات المترتبة ، وهكذا فان ساعات التدريس كان لا بدّ أن تجعل بعد طعام الظهيرة . فلم يكن ثمة أيما وقت آخر ملائم للعمل الدراسي . وقد خصصنا ثلاث حصص على الأكثر للشقيف الأدبي . كنا ندرس الهندية .

والتاميلية ، والكوجاراتية ، والاوردية كلها ، وكان نتعلم يتمّ عن طريق لغات الأولاد الأهلية . ولقد درسناهم الانكليزية أيضاً . وكان من الفروري أيضاً تعريف الاطفال الهندوس الكوجاراتيين بشيء من السنسكريتية . وندرس جميع الاطفال بسائط التاريخ ، والجغرافية ، والحساب .

وكنّت قد أخذت على عاتقي تدريس التاميلية والاوردية . واثقاف أن معرفتي البسيطة بالتاميلية إنما اكتسبتها خلال رحلتي وأثناء مقامي في السجن . ولم أكن قد تجاوزت كتاب « بوب » المتنازع في تعليم التاميلية . وكانت معرفتي بالخط الاوردي هي كل ما اكتسبته في رحلة مُفردة ، في حين كانت معرفتي بالانغسة

الأوردية مقصورة على الكلمات الفارسية والعربية المألوفة التي سبق لي أن تعلمتها من اتصالي بالاصدقاء المسلمين . أما من السنسكريتية فما كنت أعرف أكثر من ذلك الذي تعلمت في المدرسة الثانوية . وحتى معرفتي بالكوجاراتية لم تكن خيراً من تلك التي يكتسبها المرء في المدرسة .

ذلك بكان رأس المال الذي تعين عليّ أن انطلق منه . وكان زملائي أشدّ فقرأتني في العدة الادبية . ولكن حبي للغات وطني ، ونفقي بمقدرتي كمتعلم ، وبجهل طلابي أيضاً ، ونفقي أكثر من ذلك بكرمهم ، كل ذلك جعل جهودي هذه ذات غناء .

كان جميع الغلمان التاميليين مولودين في جنوب افريقية ، فهم لا يعرفون إلا قليلاً جداً من التاميلية ، وهم لا يعرفون كيف يكتبونها على الاطلاق . وهكذا تعين عليّ أن أعلمهم الخط التاميلي ومبادئ النحو التاميلي . وكان ذلك سهلاً هيناً . وكان طلابي يعلمون ان في استطاعتهم في أيما يوم الضوق عليّ في المحادثة التاميلية ، وحين كان التاميليون الذين لا يعرفون الانكليزية يفسدون لزيارتي ، كان هؤلاء الطلاب يقومون بدور المترجم بيني وبينهم . وواصلت عملي التعليمي في حبور ، لأنني لم أحاول قط اخفاء جهلي عن تلامذتي . لقد أرينهم نفسي ، من النواحي جميعاً ، على حقيقتها تماماً . وهكذا فاني على الرغم من جهلي العظيم للغة لم أفقد قط حبّهم واحترامهم . وكان تعلم الغلمان المسلمين اللغة الأوردية أسهل نسبياً . لقد كانوا يعرفون الخط . ولم يكن عليّ إلا أن أثير فيهم شوقاً إلى المطالعة ، وان أساعدهم ، على تحسين خطهم .

كان معظم هؤلاء الصغار أميين لم يدخلوا مدارس قط . ولكني وجدت خلال عملي أنني لا أملك شيئاً كثيراً أعلمهم إياه غير فطامهم عن كلهم ، والاشراف على دراستهم . وإذا كنت سعيداً بذلك ، فقد استطعت ان أنهض بتعليم أولاد من مختلف الأعمار دروساً مختلفة ، وضمن جبران صف واحد . ولم أشتعر قط حاجة إلى كتب التدريس التي نسمع عنها كلاماً كثيراً . بل لست أذكر اني افدت كثيراً من الكتب التي كانت في متناولي . فانا لم أجد من

الضروري البتة أن أنقل على الغلمان بأعداد كبيرة من الكتب . ولقد كنت أعتقد دائماً أن أفضل كتاب للطالب هو معلمه . ولست أذكر إلا قليلاً ما علمني إياه اساتذتي من طريق الكتب ، ولكنني أذكر أحسن الذكر ، حتى في هذه اللحظات ، الأشياء التي علموني إياها بمعزل عن الكتب .

إن الأولاد يتعلمون من خلال آذانهم أكثر مما يتعلمون من خلال أعينهم ، ويجهد أقل . ولست أذكر اني قرأتُ أيما كتاب من الدقة إلى الدقة مع طلابي . ولكنني أعطيتهم ، بلغتي الخاصة ، كل ما كنت قد هضمت من قراءتي لمختلف الكتب ، واستطيع أن أزعم أن ذلك لا يزال عالقاً بأذهانهم إلى اليوم . كان عسيراً عليهم أن يتذكروا ما تعلموه من الكتب ، أما ما نقلته اليهم شفهاً فقد كان في مكتهم أن يكرروه في سهولة بالغة . كانت القراءة عملاً شاقاً بالنسبة اليهم ، أما الاستماع لي فكان متعة ، حين لا أضجرهم بعجزتي عن جعل موضوع الدرس شيئاً . ومن الاسئلة التي كانت أحاديثي تغريهم بطرحها ثم لي مقياس لقدرتهم على الفهم :

### ٣٤ . تهذيب الروح

وكان تهذيب الغلمان الروحي مسألة أشدَّ عسراً بكثير من تهذيبهم الجسدي والعقلي . لقد كنت قليل الاعتماد على الكتب الدينية في تهذيب الروح . وكنت أوّمن ، طبعاً ، بأن الواجب بقضي بتعليم كل تلميذ مبادئ دينه وتزويده بمعرفة عامة لكتبه الدينية ، وهكذا بذلت قصارى جهدي في تقديم هذه الثقافة اليهم . ولكن ذلك ، كان في نظري جزءاً من التدريب العقلي . وقبل أن أتولى تربية الناشئة في مزرعة تولستوي بكثير ، كنت قد أدركت أن تهذيب الروح شيء قائم بنفسه . إن في تطوير الروح بناءً للشخصية ، وتمكيناً للمرء من العمل بسبل معرفة الله وتحقيق الذات . وكنت أوّمن بأن ذلك جزء أساسي من تدريب

الناشئة ، وان كل تعليم خلوي من تثقيف الروح لا فائدة منه ، بل إنه قد يكون مؤذياً .

اني لا أجهل الخرافة القائلة بأن تحقيق الذات لا يتيسر إلا في المرحلة الرابعة من الحياة ، اعني الـ « سانياسا » ، أو نكران الذات . ولكن من المعارف الشائعة ان اولئك الذين يرجنون الاستعداد لهذه التجربة القيمة على نحو لا يوصف إلى المرحلة الاخيرة من حياتهم لا يفوزون بتحقيق الذات بل بشيخوخة هي بمثابة طفولة ثانية تثير الرثاء ، فهم يحبون بوصفهم عبثاً على هذه الارض . وأنا أذكر احسن الذكرى اني آمنت بهذه الافكار حتى في العهد الذي نهضت خلاله بعبء التدريس ، أي عام ١٩١١-١٩١٢ على الرغم من اني قد لا أكون عبرت عنها ، آنذاك ، بلغة ماثلة .

ولكن كيف السبيل إلى تزويد الأولاد بهذا التهذيب الروحي ؟ لقد حملتهم على ان يستظهروا الترانيم ويلتوها بصوت عالٍ ، وقرأت لهم كتباً في التدريب الروحي . ولكن ذلك كان أعجز من أن يرصيني . وإذا أصبح اتصالي بهم أوثق رأيت أن المرء لا يستطيع ان يزود طلابه بالتهذيب الروحي من طريق الكتب . وكما ان التدريب الجسدي لا يتم إلا عن طريق التمرينات البدنية ، والتدريب العقلي لا يتم إلا عن طريق التمرينات العقلية ، فكذلك لا يتم تهذيب الروح إلا عن طريق التدريب الروحي . والتدريب الروحي يتوقف توفراً كاملاً على حياة المدرس وشخصيته . إن على المدرس أن يصطنع الحذر في سلوكه ، سواء أكان وسط طلابه أم لم يكن .

إن المدرس المقيم على مبعدة آميال من تلامذته قد يؤثر في روحهم بطريقة الحياة التي يصطنعها . فلو قد كنتُ كذوباً إذن لكان من العبث الذي لا طائل تحته ان اعلم الاطفال التزام الصدق . والمعلم الجبان لن يفلح ابد اندهر في جعل غلمانه شجعاناً ، والجاهل للكبح الذاتي لا يستطيع عمره كله . ان يعلم طلابه قيمة كبح الذات . وهكذا رأيت ان عليّ ان أكون أمثلة حية سرمدية للفتيان والفتيات العائشين معي . وهكذا أصبحوا هم ممليي . وتعلمت ان أكون صالحاً

وان أحبا حياة مستقيمة ، ولو من أجلهم فحسب . وأستطيع ان أقول ان الكبح وال ضبط المتعاطفين اللذين فرضتهما على نفسي في مزرعة تولستوي كان الفضل فيها ، في الاعم الأغلب ، لاولئك القاصرين الذين كنت وصياً عليهم .

كان أحدهم شرساً ، متمرداً ، كدوباً ، نزاعاً إلى الخصام . وذات مرة ، بلغ به الهياج مبلغاً عتيفاً . واستبد بي السخط . فأنا لم أعاقب طلابي قط في يوم من الايام ، ولكني كنت هذه المرة غاضباً جداً . لقد حاولت أن أفنعه بالمنطق ، ولكنه كان صلباً كالصخر ، بل لقد حاول ان يخذلني . وأخيراً تناولت مسطرة كانت في متناول يدي ، وضربت بها على ذراعه . لقد ارتجفت وأنا أضربه . وأستطيع ان أقول إنه لاحظ ذلك . ولقد كانت هذه تجربة جديدة تماماً بالنسبة اليهم جميعاً . وصرخ الغلام ، وتوسل اليّ ان أغفر له . لقد كان في استطاعته ، لو كان ميالاً إلى ذلك ، ان يردّ اليّ التحية بالطريقة نفسها ، بوصفه شاباً قويّ البنية في السابعة عشرة من العمر . ولكنه أدرك اليّ لاضطراري إلى اتخاذ سبيل العنف . ولم يعص لي أمراً بعد هذه الحادثة قط . ولكني لا أزال نادماً على ذلك العنف . وأخشى أن أكون قد كشفت له في ذلك اليوم لا عن روعي ولكن عن الوحش الذي في باطني .

لقد كنت دائماً أعارض في اصطناع العقوبة الجسدية . ولست أذكر إلاّ مناسبة واحدة عاقبت فيها احد اولادي عقاباً جسدياً . وهكذا فأنني لم أستطع حتى هذا اليوم ان أقرر هل كنت مصيباً ام مخطئاً في اللجوء إلى المسطرة . لعل ذلك كان عملاً خاطئاً ، لاني أغريت به بدافع من الغضب وبرغبة في ازالة العقوبة . ولو انه كان مجرد تعبير عن ضيقي وضناي اذن لا اعتبره عملاً مبرراً . ولكن الدافع في تلك الحادثة كان مخطئاً .

هذه الحادثة دفعتني إلى تفكير طويل ، وعلمتني طريقة أفضل في تقويم مسا عوج من اخلاق الطلبة . ولست أدري ما إذا كانت هذه الطريقة خليقة بأن نفيد في تلك المناسبة ام لا . وسرعان ما نسي الغلام الحادثة ، ولست احسب انه أظهر تحسناً كبيراً قط . ولكن الحادثة جعلتني أفهم ، فهماً أفضل ، واجب المعلم نحو



طلابه :

لقد أساء بعض الطلاب الأدب بعد ذلك في كثير من الأحيان ، ولكني لم ألجأ قط إلى العقوبة البدنية . وهكذا فأني ، بمحاولتي تهذيب الفتيان والفتيات الواقعين تحت اشرافى تهذيباً روحياً ، أخذت أفهم قوة الروح أفضل فأفضل .

### ٣٥ . زؤان بين الحنطة

وفي مزرعة تولستوي بالذات لفت مسر كالينباتش انتباهي إلى مشكلة لم يخطر لي على بال قط . فكما قلت من قبل ، كان بعض غلمان المزرعة متمردين ذوي أخلاق رديئة . وكان بينهم متسكعون أيضاً . وكان أولادي الثلاثة يحتكون بهؤلاء احتكاكاً يومياً ، شأن الاطفال الآخرين الذين هم على شاكلة أولادي . وازعجت هذه الواقعة مسر كالينباتش ، ولكن اهتمامه تركز على خطئ إبقاء أولادي مع هؤلاء الغلمان المتمردين .

وذاث يوم جهر بالقول :

- « ان طريقك التي تقضي باختلاط أولادك مع من لا خلاق لهم من الغلمان لا تعجبني . انها لا يمكن ان تؤدي إلا إلى نتيجة واحدة . إن اخلاقهم ستفسد بسبب من رفقة السوء هذه . »

ولست أذكر هل أذهلني هذه المشكلة للوهلة الأولى أم لا ، ولكني لا أزال اذكر ما قلته له :

- « كيف استطيع ان أميز بين أولادي وبين المتسكعين ؟ أنا مسؤول عن كلا الفريقين على حد سواء . إن هؤلاء الصغار قد وفدوا إلى هنا بناء على دعوتي . ولو اني عمدت إلى تسريحهم مع شيء من المال إذن لا تطلقوا في الحال إلىى جوهانسبورغ وعادوا سيرتهم الأولى . ولا أخفي عليك ان من المحتمل جداً أن يكون هؤلاء الغلمان والاصياء عليهم يمتثلون انهم بمجبئهم إلى هنا قد أسدوا

إليّ بدأ . وأنت وأنا نعرف جيداً ان عليهم أن يحتملوا كثيراً من المشاق هنا . ولكن واجبي واضح . يتعيّن عليّ أن أبقّهم هنا ، وهكذا فإن أولادي مضطرون أيضاً إلى العيش معهم . ولا ريب في انك لا تريد مني ان اعلم أولادي أن يشعروا منذ اليوم انهم ممتازون على الاولاد الآخرين . إن إيقاع هذا الشعور بالامتياز في نفوسهم يعني دفعهم في طريق الضلال . ان هذا الاختلاط بالفلمان الآخرين سوف ينطوي على تهذيب صالح لهم . انهم سوف يتعلمون ، من تلقاء أنفسهم ، كيف يميزون بين الخير والشر . فلماذا لا نؤمن بأنه ، إذا كان فيهم حقاً أيما شيء صالح ، فلا بد ان يؤثر ذلك في رفاقهم ؟ وإيّا ما كان ، فأنا لا أستطيع إلا أن أبقّهم هنا ، وإذا كان في ذلك بعض المغامرة ، فيجب ان نقوم بهذه المغامرة .

وهزّ ستر كاليناث رأسه .

وأحب ان النتيجة لم تكن رديئة ، فأنا لا أعتبر أن التجربة زادت أولادي سوءاً . على العكس ، إنني أستطيع أن أرى انهم كسبوا شيئاً . وإذا كان فيهم أقل أثر من آثار الشعور بالامتياز فلا ريب في ان ذلك الأثر قد سُحِقَ ، وأنهم قد تعلموا الاختلاط مع ضروب الأطفال جميعاً . لقد طهروا وهذّبوا .

إن الاولاد المطوّقين بالقطن المتلوث ليسوا دائماً في نجوة من ضروب الاغراء أو الأفساد على اختلافها . ومع ذلك ، فليس من ريب في أنه حين يُجمع الفتيان والفتيات على اختلاف مستويات تعليمهم ويتعلمون معاً يُخضع الآباء والمعلمون لأنسى تجربة ممكنة . ان من واجبه ان يلتزموا الحذر والحيلة على نحو موصول .

### ٣٦ . الصيام بوصفه تكفيراً

وبوماً بعد يوم اتضح لي أكثر فأكثر مدى الصعوبة التي ينطوي عليها تنشئة

الفتيان والفتيات وتنقيفهم على الوجه الصحيح . ولو قُدر لي ان أكون معلمهم الحقيقي والوصي الفعلي عليهم اذن لتعين عليّ أن أمسّ قلوبهم . يجب أن افاقمهم أفرأحهم وانراحمهم ، ويجب أن أساعدهم على حلّ المضكلات التي واجهتهم ، ويجب أن أوجه مطامع شبابهم الطاغية في القناة الصحيحة .

وعند اطلاق سراح بعض اللاسفيين من السجن عَرِيت مزروعة تولسوي ، أو كادت ، من نزلائها . وكانت القلة التي بقيت تتألف في معظمها من أفراد من أبناء فونيكس . وهكذا ارجعتهم إلى هناك . وهنا كان عليّ أن أجتاز عنسة لافحة .

في تلك الايام كان عليّ أن انتقل ما بين جوهانسبورغ وفونيكس . وذات يوم ، فيما كنت في جوهانسبورغ ، تلقيت نبأ سقوط اثنين من نزلاء « الاشرم » . أو « الزاوية » سقوطاً اخلاقياً . ولو كان النبا يتصل بأخفاق ظاهريّ لنضال « اللاعنف » أو تفقره لما صُدمتُ تلك الصدمة العنيفة ، ولكن النبا الذي بلغني سقط عليّ سقوط الصاعقة . وفي اليوم نفسه ركب القطار إلى فونيكس . وأصرّ كالينباتش على الذهاب معي . كان قد لاحظ الحالة التي كنت فيها ، وما كان ليحيز لفسه أن يتركني أمضي وحدي ، إذ اتفق أن كان هو ناقل الخبر الذي اثارني هذه الاثارة كلها .

وخلال الرحلة بدا واجبي واضحاً في عينيّ . لقد شعرت ان الوصي أو المعلم مسؤول ، إلى حد ما على الأقل ، عن زلة قاصره أو تلميذه . وهكذا بدت لي مسؤوليتي عن تلك الحادثة بيّنة كالشمس في رابعة النهار . وكانت زوجتي قد حذرني قبل ذلك من مثل هذه النتيجة ، ولكن طبيعتي المبنية على الثقة بالناس حملتني على تجاهل تحذيرها . وشعرت ان الطريقة الوحيدة التي تحمل المذنبين على إدراك عنتي وعمق السقطة التي تردّيا فيها تقتضي ان أقوم بشيء من التكفير .

---

• الاشرم asbrom موطن من مواطن الخلوة الدينية أو التدريب الديني .

( المترجم )

وهكذا فرضت على نفسي صوم سبعة أيام ، ونذرت ان لا اتناول غير وقعة طعام واحدة طوال اربعة اشهر ونصف . وحاول مسر كاليينباتش ان يثني عن عزمي ، ولكن على غير طائل . وأخيراً أقر بصوابية التكفير ، وأصر على مشاركتي فيه . ولم أستطع مقاومة مودته الصريحة .

وشعرت بأن ذلك قد سرى عني كثيراً ، لأن القرار الذي اتخذته ازاح حملاً ثقيلاً عن ضميري . لقد سكن غضبي على المذنبين وأفسح المجال لأصفي الاشفاق عليهما . وهكذا وصلت إلى فونيكس وقد زابلي الغيظ ، فأجريت تحقيقاً اضافياً ووقفت على بعض التفاصيل الأخرى التي كنت راغباً في معرفتها . وآلم تكفيري القوم جميعاً ، ولكنه نقى الجو . لقد أدرك كل امرئ اي فظاعة ينطوي عليها كون الانسان آثماً ، وغدت الرابطة التي تشدني إلى الفتیان والفتيات أقوى وأصدق .

وأكرهني ظرف ناشيء عن هذه الحادثة ، بعد ذلك بقليل ، على ان أصوم اربعة عشر يوماً صياماً فاقت نتائج كل ما كنت أتوقعه .

وليس هدفي ان استنتج من هذه الحوادث ان الواجب يقضي على المدرس باللجوء إلى الصيام كلما بدا من جانب تلاميذه تقصير أو اثم ، ولكني أعتقد بأن بعض المناسبات تدعو فعلاً إلى اصطناع هذا العلاج الخشن . ولكنه يفترض مقدماً وضوحاً في الرؤية وجدارة روحية . فحيث لا حب حقيقياً بين المعلم والتلميذ ، وحيث لا يمس تقصير التلميذ كيان المدرس نفسه ، وحيث لا يحترم التلميذ مدرسه يكون الصيام في غير محله ، بل قد يكون ضاراً . ومع أن ثمة مجالاً للشك في صوابية الصيام في مثل هذه الحالات فإنه ليس ثمة ريب في مسؤولية المعلم عن خطأ تلميذه .

واظهرت الايام ان الكفارة الأولى لم تكن عبيرة على اي منا . فما كان عليّ ان اعلق أو أوقف أي من وجوه نشاطي المألوفة . وقد يذكر القارئ اني خلال مدة التكفير هذه كلها كنت اقتصر في طعامي على الفاكهة اقتصاراً صارماً ،

ولكن الجزء الاخير من الصيام الثاني كان شاقاً عليّ ، فأنال لم أكن قد فهمت ، فهما كاملاً ، فاعلية « الرامانا » ، وهكذا كانت مقدرتي على الاحتمال أقل . وإلى هذا ، فما كنت أعرف تقنية الصوم ، وخاصة ضرورة تجمّع مقدار كبير من الماء ، مهما كان ذلك بغياً أو مثيراً للغثيان . ثم إن سهولة صومي الاول كانت قد جعلتني مستهتراً بالصوم الثاني . وهكذا أخذت أثناء الصوم الاول حمّامات « كوهن » كل يوم ، أما في الصوم الثاني فقد اطّرت هذه الحمامات بعد يومين أو ثلاثة ، وشربت قليلاً من الماء ، إذ كان شرب الماء بغياً مثيراً للغثيان . وأصبحت حنجرتي جافة واهنة ، وخلال الايام الاخيرة من ذلك الصوم لم أعد قادراً على الكلام إلا بصوت خفيض جداً . ولكن على الرغم من ذلك واصلت القيام بعملتي من طريق الاملاء كلما كانت الكتابة ضرورية . وكنت أصغي على نحو موصول لقراءات من ال « رامابانا » وغيره من الكتب المقدسة . وكانت لدي أيضاً قوة كافية تمكّني من الاشتراك بمناقشة جميع القضايا الملحة وإسداء النصيحة فيها .

### ٣٧ . لكي اجتمع بغوكهايل

يتحتم عليّ ان أغفل كثيراً من ذكريات جنوب افريقية . فعند اختتام النضال اللاعنفي عام ١٩١٤ تلقيت امرأ من غوكهايل بالعودة إلى الوطن من طريق لندن . وهكذا أبحرت أنا وكاستورباي ، وكالينباتش ، في شهر تموز ( يوليو ) ، إلى انكلترا : وخلال نضال اللاعنفي كنت قد أخذت على نفسي ألا أسافر إلا بالدرجة الثالثة . وهكذا اشترت لهذه الرحلة تذكرة من الدرجة الثالثة ، ولكن كان ثمة فرق كبير بين الدرجة الثالثة على متن الباخرة التي اقلتنا في هذه الرحلة وبين الدرجة الثالثة في المراكب الهندية الساحلية أو قطر السكة الحديدية الهندية . ففي

هذه الأخيرة كان المرء لا يكاد يجد مكاناً يجلس فيه ، وكان نادراً ما يستطيع النوم ، أو ينعم بالنظافة . أما خلال الرحلة إلى لندن فكان ثمة رحابة ونظافة ، وكانت شركة البواخر قد أعدت لنا تسهيلات خاصة . كانت الشركة قد أفردت لنا مرحاضاً خاصاً ، ولما كان ضامناً مقصوراً على الفاكهة فقد تلقى خادم الباخرة أمراً بتزويدنا بالفاكهة وضروب الجوز . وكان العرف يقضي بأن لا يقدم لركاب الدرجة الثالثة غير قليل من الفاكهة والجوز . هذه التسهيلات جعلت أيامنا الثمانية عشرة على متن تلك الباخرة مريحة إلى حد بعيد .

إن بعض الأحداث التي وقعت خلال الرحلة جديرة بالتدوين . كان مسر كالينباتش مولعاً بالمنظر المزدوجة ، وكان يحفظ دائماً بمنظار نفيس أو منظارين نفيسين . وكانت لنا مناقشات يومية حول واحد منها . فقد حاولت أن أوقع في نفسه أن التعلق بالمنظر المزدوج لا يتفق مع مثل البساطة الأعلى الذي كنا نطمح إلى بلوغه . واشتدت المناقشة بيننا ، ذات يوم ، فيما كنا واقفين قرب المجاز المؤدي إلى قمرتنا . .

قلت له :

« بدلاً من أن تسمح لهذا المنظر أن يكون مثار خصومة بيننا لماذا لا نقذف به في البحر وتخلص منه ؟ »

فقال مسر كالينباتش :

« أجل ، أقذف بالمنظر المسكين في البحر . »

فقلت :

« أنا أعني ذلك . »

فجاءني جوابه على جناح السرعة :

« وكذلك أنا . »

وفي الحال قذفتُ بالمنظر في البحر ، وكانت قيمة ذلك المنظر نحواً من سبعة

---

• القمرة : الحجرة في السفينة . وهي تقابل كلمة *cabine* الفرنسية .

جنهات . لكن قيمته الحقيقية كانت تتمثل في افتتاح مسر كالينباتش به أكثر مما تتمثل في ثمنه . وعلى أية حال ، فإنه بعد ان اطرحة لم يندم على ذلك قط .  
هذه حادثة واحدة ليس غير من حوادث كثيرة وقعت بيني وبين مسر كالينباتش .

وعلى هذا الغرار كان علينا ان نتعلم شيئاً جديداً كل يوم ، لأننا كلينا كنا نحاول أن نسلك سبيل الحقيقة . وفي السير نحو الحقيقة يكون طبعياً أن يتعطل الغضب والانانية والبغض ، إذ لولا ذلك لكان من المتعذر الوصول إلى الحقيقة . ان المرء الذي تتحكم به الأهواء قد يكون ذا نيات طيبة ، وقد يكون مصداقاً أميناً ولكنه لن يبلغ الحقيقة أبد الدهر .

ولم يكن قد انقضى على انتهاء صيامي وقت طويل عندما بدأنا رحلتنا . كنت لما استعدت صحتي السوية بعد . وكان من رأيي ان أطوف فوق ظهر السفينة رغبة مني في القيام ببعض الرياضة البدنية لكي احسي ما خمد من شهوتي إلى الطعام وأهضم ما أكلت . ولكن حتى هذا التمرين كان وراء طاقتي ، ولقد أورثني الماء في ربلتي سائتاً إلى درجة جعلتني أستشعر حين وصلت إلى لندن أنني كنت أسوأ لا أحسن ، من ذي قبل . وهناك قُدر لي ان أتعرف إلى الدكتور جيفراج مهتا . ورويت عليه قصة صيامي والالم الذي عقبه ، فقال :

— « إذا لم تخلد إلى الراحة الكاملة طوال أيام قليلة ، فأني أخشى ان تتعطل رجلاك عن العمل . »

في تلك اللحظة فقط أدركت ان المرء الخارج من صيام طويل لا يجوز له ان يتعجل استعادة قوته المفقودة ، وعلمت ان عليه ان يكبح جماح شهوته إلى الطعام . انك لنتحتاج في الإفطار عن الصيام إلى مقدار من الحذر ، وربما إلى مقدار من كبح النفس ، أكبر من ذلك الذي تحتاج اليه في الصيام نفسه .

وفي ماديرا، سمعنا ان الحرب الكبرى قد تنشب في أية لحظة . حتى إذا دخلنا القناة الانكليزية ، تلقينا نبأ نشوبها فعلاً . وأوقفت الباسخرة فترة من الزمن ، فقد كان من العسير جذب المركب عبر ألغام الغواصات التي زُرعت على

ظول القناة ، ولقد احتجنا إلى يومين لكي نصل إلى ساوثامبتون .  
وأعلنت الحرب في الرابع من آب ( أغسطس ) . ولقد وصلنا إلى لندن في  
السادس منه

### ٣٨ . دوري في الحرب

ولقد علمت ، لدى وصولي إلى انكلترا ، ان غوكهايل كان قد ذهب إلى  
باريس لاسباب صحية فلم يعد في استطاعته مغادرتها . وإذ كانت المواصلات  
بين باريس ولندن مقطوعة فلم يكن احد يدري لتلك العودة موعداً . وما كنت  
لأرغب في الشخصوس إلى الوطن من غير ان اجتمع به ، ولكن أحداً ما كان  
قادراً على ان يحدد ، بالضبط ، متى يصل .

ما الذي كان يعمين عليّ ، إذن ، ان أفعله في غضون ذلك ؟ ما الواجب الذي  
كانت تفرضه عليّ الحرب ؟ وكان رفيقي في السجن وفي نضال اللاعنف ،  
سورايجي آداجانيا ، يستعد لتبيل شهادة المحاماة في لندن . كان قد أرسل  
إلى انكلترا ، للفوز بهذه الشهادة لكي يكون في مسوره ان يحل علي عند عودته  
إلى جنوب افريقية . وكان الدكتور برانجيفانداس مهتا يتولى دفع نفقاته . واتصلت  
معه ، ومن طريقه ، بالدكتور جيفراج مهتا وغيره ممن كانوا يواصلون دراساتهم  
في انكلترا . وبالاتفاق معهم دعونا إلى عقد اجتماع للتزلاء الهنود في بريطانية  
العظمى وايرلندا . وبسطت وجهة نظري في ذلك الاجتماع .

لقد شعرت ان على الهنود النازلين في انكلترا أن يقوموا بقسطهم من  
الواجب الحربي . وكان الطلاب الانكليز قد تطوعوا للخدمة في  
الجيش ، ومن الخير أن لا يحجم الهنود عن القيام بخطوة مماثلة .  
وقدّمت اعتراضات عدة على هذا النوع من التفكير . فذهب بعض المجتمعين



إلى القول بأن ثمة دنيا ضخمة من الفروق بين الهنود والانكليز . فقد كنا نحن عبيداً ، وكانوا هم سادة . وكيف يستطيع العبد أن يتعاون مع السيد إذا ما حَزَبَ هذا الأخير أمرٌ خطير ؟ أليس من واجب العبد ، المتطلع إلى الحرية ، أن يفتنم كل أزمة تُلمّ بسيده للسعي من أجل الفوز بتلك الحرية ؟ ولكن هذه الحجة لم تَرُقْ لي آنذاك . كنت أعرف الفرق في المرتبة الاجتماعية بين الهندي والانكليزي ، ولكني ما كنت أعتقد أننا كنا قد جُعلنا عبيداً بكل ما في الكلمة من معانٍ . لقد شعرت آنذاك بأن مسؤولية ما نقاسيه كانت تقع على عاتق الموظفين البريطانيين الافراد . أكثر مما تقع على عاتق النظام البريطاني ، وأحسّ بأن في استطاعتنا أن نغير من مسالكهم بالحب . وإذا كنا نطمح في تحسين وضعنا الاجتماعي من طريق تعاون الانكليز معنا ومساعدتهم لنا ، فنندلج يكون من واجبنا ان نكسب مساعدتهم بالوقوف إلى جانبهم في ساعة الحسرج والحاجة . وعلى الرغم من ان النظام كان ناقصاً ، فإنه لم يَبْدُ لي شيئاً لا يطاق ، شأنه اليوم . ولكن إذا كنت وقد فقدت إيماني بذلك النظام ارفض التعاون مع الحكومة البريطانية اليوم ، فكيف يستطيع اولئك الاصدقاء ان يتعاونوا آنذاك معنا بعد أن فقدوا إيمانهم لا بالنظام وحده ، ولكن بالموظفين أيضاً ؟

لقد شعر الاصدقاء المعارضون ان ذلك الظرف كان هو الظرف الملائم لأعلان المطالب الهندية اعلاناً جريئاً ، ولتحسين مرتبة الهنود الاجتماعية .

أما أنا فقد اعتقدت أنه لا يجوز لنا أن نستغل أزمة بريطانيا ، وان من الأليق والاكثر تبصراً أن لا نخرج بريطانيا بمطالبنا ما دامت رضى الحرب دائمة ، وهكذا التزمْتُ النصيح الذي قدّمتهُ ودعوتُ إلى التطوع كل من يوافقني على ذلك الرأي . وكانت الاستجابة صالحة ، فقد تمثّلت جميع الولايات وجميع الأديان تقريباً في جموع المتطوعين .

وكتبت رسالة إلى اللورد كرو ، بسطتُ فيها هذه الحقائق ، وعبرت عن استعدادنا للتدرب على أعمال الاسعاف إذا اعتُبر ذلك شرطاً لقبول عرضنا .

وقبل اللورد كرو العرض بعد شيء من التردد ، وشكر لنا تقديم خدماتنا إلى الامبراطورية في تلك الساعة الحرجة .

وبدأ المتطوعون تدريبهم التمهيدي على إسداء الاسعاف الأولي للجرحى بإشراف الطبيب الشهير الدكتور كانلي ، وكانت دورة قصيرة تستغرق ستة أسابيع ، ولكنها اشتملت على جميع موضوعات الاسعاف الأولي .

كنا صفاء مؤلفاً من ثمانين متدرباً . وبعد ستة أسابيع أخضعنا للامتحان ، فنجحنا جميعاً ما عدا واحداً . ثم ان الحكومة درّبت الناجحين تدريباً عسكرياً وغير عسكري . وقد عهد في هذه المهمة إلى الكولونيل بايكر :

كانت لندن في تلك الايام مشهداً جديراً بأن يرى . لم يكن ثمة دعر ، ولكن كل امرئ كان منهمكاً بتقديم المساعدة على خير ما تمكنه قدرته . لقد بدأ البالفون ذوو البنية القوية في التدريب كمقاتلين ، ولكن ما الذي كان على الشيوخ ، وضعاف الاجسام ، والنساء أن يقوموا به ؟ لقد كان ثمة عمل كافٍ لهم ، إذا أرادوا . وهكذا انصرفوا إلى تفصيل وخياطة الملابس والأضمد للجرحي .

واخذ الليسيوم Lyceum ، وهو نادٍ للسيدات ، على عاتقه صنع أكبر قدر ممكن من الملابس للجنود . وكانت شريماني ماروجيني نابلو عضواً في هذا النادي ، فاندفعت بكل جوارحها إلى القيام بهذا العمل . ولقد كان ذلك أول تمرقٍ بها . لقد وضعت أمامي ركاباً من الملابس المفصلة ، وأسألني أن أتولى أمر خياطتها كلها وإعادةها إليها . ورحبتُ بطلبها . وبمساعدة أصدقائي خطت أكبر عدد من الملابس قلرت عليه خلال تدريبي على الاسعاف الأولي .

### ٣٩ . ورطة روحية

ما إن انتهى إلى جنوب افريقية اني وغيري من الهنود عرضت خدماتي في المجاهد الحربي حتى تلقيت برقيتين . وكانت البرقية الأولى من مسر بولاك الذي تسأل عن مدى الانسجام بين عملي وبين ما أنادي به من الأيمسا أو

اللاعنف .

و كنت قد توقعت ، إلى حد ما ، هذا الاعتراف ، فقد سبق لي أن ناقشت هذه المسألة في دراستي « هند سواراج » ( أي الحكم الذاتي الهندي ) . وكان من دأبي أن أناقشها يوماً بعد يوم مع أصدقائي في جنوب افريقية . كنا جميعاً نذكر لا أخلاقية الحرب . وإذا كنت غير مستعد لمقاضاة المعتدي ، فخابئ بسي أن أكون أقل رغبة في المشاركة بالأعمال الحربية ، خاصة إذا كنت لا أعرف مبلغ عدالة القضية التي يقاتل المحاربون من أجلها . وكان أصدقائي يعرفون ، طبعاً ، أنه سبق لي أن خدمت في حرب البوير ، ولكنهم افترضوا أن آرائي قد طرأ عليها منذ ذلك الحين شيء من التغير .

والواقع أن الحجة نفسها التي اقنعتني بالاشتراك بحرب البوير كانت قد غلبتني على أمري في هذه المناسبة . كان واضحاً عندي ، كل الوضوح ، أن اشتراكي في الحرب لا يمكن أن ينسجم مع الأهمسا ، ولكن المرء لا يُقدَّر له دائماً مثل هذا الوضوح في ما يتصل بواجبه . إن الساعي وراء الحق كثيراً ما يضطر إلى أن يلتبس سميلاً في الظلام .

إن الأهمسا - أو اللاعنف - مبدأ شامل . إننا بشرٌ عاجزون ، نحيط بنشأنا ناز « الهيمسا » . . . والزعم بأن الحياة تحيا على الحياة ينطوي على معنى عميق . والانسان لا يستطيع أن يجيا لحظة من غير أن يباشر ، على نحو واع أو غير واع ، « الهيمسا » الخارجية . فمجرد معيشته نفسها - تناوله الطعام ، والشراب ، وتنقله من مكان إلى مكان - ينطوي بالضرورة على شيء من « الهيمسا » - أو تدمير الحياة - مهما يكن ضئيلاً . وهكذا فإن الساعي وراء اللاعنف يظل أميناً على معتقده إذا كانت جميع أعماله تتبع من الحنان ، إذا ما اجتنب ، ما وسعه الاجتناب ، القضاء على أفعال الكائنات ، وحاول إنقاذها ، مناضلاً بذلك - على نحو موصول - للتحرر من طوق « الهيمسا » الميت . إنه سوف يخطو خطوات متتابعة في حقل الكبح الذاتي والحنان ، ولكنه لا يستطيع أن يتحرر كل التحرر

• ال « هيمسا » Himsa تدمير الحياة .

من «الميمسا» الخارجية .

ثم إنه لما كانت الأهمسا الجوهرية هي وحدة الحياة كلها فإن خطيئة الفرد لا بد أن تؤثر في كل انسان ، ومن هنا فإن المرء لا يستطيع ان يتحرر كسل التحرر من «الميمسا» . فما دام هو كائناً اجتماعياً فلا مناص له من المشاركة في «الميمسا» التي ينطوي عليها مجرد وجود المجتمع . وحين تتقاتل دولتان يقضي الواجب على من اختار سبيل اللاعنف ان يوقف الحرب . وكل من ايسر كنفوا لهذا الواجب ، وكل من لا يملك القوة على مقاومة الحرب ، وكل من لم يؤهل لمقاومة الحرب ، يستطيع ان يشارك في الحرب ، ومع ذلك يحاول ، من صميم قلبه ، ان يحرر نفسه ، وأمته ، والعالم ، من الحرب .

وكنت قد رجوت أن أحسن وضعي ووضعي شعبي الاجتماعي من طريق الامبراطورية البريطانية. ففي أثناء مقامي في انكلترا كنت أتمتع بحماية الاسطول البريطاني . وإذا كنت أستظل ، كما يبدو ، بقوته المسلحة فقد كنت أشارك، مباشرة ، بما يكمن فيه من عنف . وهكذا ، فقد كان عليّ - إذا رغبت في الاحتفاظ بعلاقتي بالامبراطورية وبالحياة في ظل رايثها - أن أسلك سبيلاً من سبُل ثلاث : أن أعلن مقاومتي الصريحة للحرب ، وان أقاطع - وفقاً لقانون اللاعنف - الامبراطورية البريطانية حتى تغير سياستها العسكرية ، أو أن أسعى إلى السجن بالتمرد المدني على بعض قوانينها التي أجدهم من الملائم التمرد عليها ، أو أن أشارك في الحرب إلى جانب الامبراطورية وبذلك أكتسب القدرة والأهلية لمقاومة عنف الحرب . وكانت هذه القدرة وتلك الاهلية تعوزاني ، وهكذا رأيت أن الطريق الوحيدة لاكتسابهما هي الخدمة في الحرب .

أنا لا أميز ، من وجهة نظر الأهمسا . بين المحاربين وغير المحاربين . إن الشخص الذي ينطوع لخدمة عصابة من اللصوص ، بالعمل معهم كحمال أو حارس ، فيما يكونون منصرفين إلى غسلهم ، أو كمرض حين يصابون بجراح ، أقول ان هذا الرجل لا يقل لصوبة عن اللصوص أنفسهم . وبالطريقة نفسها ، فإن أولئك الذين يقصرون نشاطهم على تضييق جراحت الجند في المعركة

لا يمكن ان يُبرأوا من نمة الحرب .

وكننت قد ناقشت المسألة كلها مع نفسي ، على هذا النحو ، قبل ان ائلقى برقية ستر بولاك ، حتى إذا تلقيتها سارعت إلى مناقشة هذه الآراء مع عدة أصدقاء وقررت أن الواجب يقتضي أن أعرض خدماتي في الحرب . وحتى في هذه اللحظات لا أجد أي خلل في هذا التفكير ، كما اني لست نادماً على عملي ، باعتبار اني لا أزال أحمل ، شأني في ذلك الحين ، آراء تحبذ الرابطة البريطانية . أنا أعلم اني حتى في ذلك العهد لم استطع إقناع جميع أصدقائي بصحة وقتي . إن المسألة دقيقة . وهي تفسح المجال واسعاً لاختلاف الرأي ، وهكذا بطت وجهة نظري أوضح ما استطعت ان ابسطها لأولئك الذين يؤمنون باللاهيا ، والذين يبذلون جهوداً جديدة لممارستها في كل مجال من مجالات الحياة . ان المتعبد للتحقيق لا ينبغي له ان يقوم بأيما عمل مراعاة للعرف . ان عليه دائماً ان يُبقي نفسه على استعداد لتصحيح والتقوم . ويتعين عليه كلما اكتشف انه على خطأ أن يعترف بذلك ، مهما كلف الأمر ، وان يكفر عنه .

#### ٤٠ . لا عنف مصغر

على الرغم من اني شاركت في الحرب ، على هذا النحو ، كمسألة يقضي بها الواجب ، فقد اتفق أني لم أكن قادراً على المشاركة بها مباشرة فحسب ، بل لقد وجدت نفسي مكراً عملياً على القيام بما يمكن ان يدعى لاعنفاً مصغراً ، حتى في تلك الازمة الحرجة .

ولقد سبق مني القول ان ضابطاً قد كُلف بتدريتنا ، حالما تمت الموافقة على اسائنا وتمّ تجنيدنا . وكنا جميعاً نستشعر ان هذا الضابط الأمر كان رئيساً في ما يتصل بالمسائل التقنية ، وانني كنت رئيس الكتيبة في جميع الشؤون الأخرى ، تلك الكتيبة التي كانت مسؤولة مباشرة تجاهي في مسائل النظام الداخلي . يعني ان الضابط الأمر كان يتعين عليه ان يتصل بالكتيبة من طريقي . ولكن الضابط

لزع من أذهانتا ، منذ البدء ، هلا الوهم .

وكان مستر سورابجي آداجانيا رجلاً أريباً . لقد حلرني قائلا :

- « حلار من هذا الرجل . انه يبدو نزاعاً إلى التحكم فينا . لن نفذ أياً من أوامره . نحن على استعداد لأن نحترمه بوصفه مدرسا . ولكن الغلمان الذين عينهم لتعليمنا ، يشعرون أيضاً وكأنهم أسبانا . »

وكان الغلمان طلاباً في جامعة اكسفورد وفدوا لتعليمنا ، وكان الضابط الأمر قد عينهم قادة لكييتنا .

ولم يفتني كذلك ان ألاحظ غطرسة الضابط الأمر ، ولكني سألت سورابجي ان لا يقلق ، وحاولت ان اهدئ من غلوائه . ولكنه لم يكن ذلك الرجل السني يسهل اقناعه .

لقد قال لي في ابتسامة :

- « أنت تتق باناس أكثر مما ينبغي . ان هؤلاء سوف يخذعونك بكلبات تافهة . حتى إذا انكشفوا لك آخر الأمر على حقيقتهم دعوتنا إلى ان نلجأ إلى اللاعنف ، وانتهيت إلى نهاية سيئة ، ودفعنا جميعاً إلى ان ننتهي إلى تلك النهاية معك . »

فقلت :

- « واي شيء غير النهاية السيئة ، وغير الحزن والغم ، ترجون ان تفوزوا به بعد ان ربطتم مقدراتكم بمقدراتي ؟ ان الرجل اللاعنفي انما يولد ليُخدع . فليخدعنا الضابط الأمر . ألم أقل لكم مرات لا تحصى أن الخداع لا يخذع ، آخر الأمر ، إلا نفسه ؟ »

وأطلق سورابجي ضحكة مدوية ، وقال :

- « حسناً ، اذن ، إبق مخدوعاً . انك سوف تلقى حثلك ، ذات يوم ، في اللاعنف ، وسوف تبحر خلفك جماعة من المساكين مثلي . »

هذه الكلمات ذكررتني بما كتبه اليّ المرحومة الآنسة ايميلي هوبانوس في ما يتصل باللاتعاون ، إذ قالت : « اني لن أدهش إذا ما تعين عليك في يوم من

الأيام ان تذهب إلى المشقة من أجل الحقيقة . فليهدك الله الصراط القويم .  
وليحكم .»

لقد دار هذا الحديث مع سورايجي بُعيد تعيين الضابط الأمر مباشرة . وما هي إلا أيام حتى وصلت علاقاتنا به إلى نقطة الانقصاص . فلم أكد استرجع نشاطي بعد صيام الأيام الاربعة عشر حتى بدأت اشترك في التدريب العسكري ، متطلقاً إلى المكان المعين على مسافة ميلين تقريباً من بيتي ، سيراً على القدمين في الاعمى الأغلب . وهذا اورثني ذات الجنب ، وطرحني أرضاً . وفيما أنا على تلك الحال تعين عليّ ان أقضي نهاية الاسبوع في المعسكرات . وفي حين ظل الآخرون هناك ، عدت أنا إلى بيتي . عندئذ نشأت المناسبة للجوء إلى اللاعنف .

وبدأ الضابط الأمر يفرض سلطانه على نحو مطلق تقريباً . لقد أفهمنا في وضوح انه رئيسنا في جميع الشؤون ، عسكرية وغير عسكرية . مذبذباً إيانا في الوقت نفسه طعمُ سلطنته . وهرع سورايجي اليّ . كان غير مستعد ان يحتمل هذه النظرة بحال من الاحوال . وقال :

« يجب ان نلتقي جميع الأوامر من طريقك . إننا لا نزال في معسكر التدريب ، ومع ذلك فإن مختلف ضروب الأوامر المنافية للعقل تصدر إلينا . إنهم يميزون ، تمييزاً مبغضاً ، ما بيننا وبين أولئك الشبان الذين عُينوا لتدريتنا . يجب ان نتصافى مع الضابط الأمر ، والا فلن يكون في مسورنا ان نستمّر أكثر مما فعلنا . إن الطلاب الهنود وغيرهم ممن انضموا إلى كتبتنا لن يصبروا بعد اليوم على هذه الأوامر السخيفة . وحين يكون المرء قائماً بنصيه من الواجب في قضية ما من أجل احترام الذات يكون من غير المعقول ان يحتمل فقدان ذلك الاحترام .»

واتصلت بالضابط القائد ولفّت نظره إلى الشكاوى التي تلقيتها . فكتب اليّ يسألني ان اقدم اليه تلك الشكاوى مدوّنة . وكلفني في الوقت نفسه « أن أفهم أولئك الذين يتشكون ان السبيل الصحيحة لتقديم الشكاوى تنتفضهم رفع هذه الشكاوى إلى قادة أقسامهم ، الذين تمّ تعيينهم ، والذين سوف يحيطوني بذلك علماً من طريق المدربين .»

وأجبت على هذا الكلام قائلاً: إنني لا أدعي لنفسي أي سلطة ، وإنني لا أعلو  
أن أكون ، من وجهة النظر العسكرية ، مجرداً بسيطاً مثل غيري من الناس ،  
ولكنني كنت قد اعتقدت أن من حقني بوصفي رئيساً لكتيبة المتطوعين أن أسمع  
لي ، على نحو غير رسمي ، بالتصرف كممثل لهم . كذلك بسطت له المطالب  
والمطالب التي لفت نظري إليها ، أعني تلك النقطة الموجهة التي نشأت عن  
تعيين قادة الاقسام من غير مراعاة لمشاعر أفراد الكتيبة . وأن ذلك التعيين يجب  
أن يلقى ، وأن تدعى الكتيبة إلى انتخاب قادة الاقسام على أن يكون هذا  
الانتخاب خاضعاً لموافقة الضابط الآمر .

ولم يرتج الضابط الأمر لذلك ، فقال أن انتخاب أفراد الكتيبة لقادة الاقسام  
يتنافى مع الانظمة العسكرية جميعاً ، وأن إلغاء تعيينات سبق أن صدرت مقوض  
لنظام الانضباطي كله .

وهكذا عقدنا اجتماعاً ، وقررنا الانسحاب . وبسطت للأعضاء عواقب  
اللاعنف الخطيرة . ولكن الكثرة العظمى منهم صوتت مع القرار ، الذي كان  
يتلخص في أنه ما لم تلغ تعيينات العرفاء ، وما لم تقدم إلى أفراد الكتيبة فرصة  
انتخاب عرفائهم بأنفسهم فإن الأعضاء سوف يضطرون إلى الاستنكاف عن  
التدريب العسكري والعيش في المعسكرات في نهاية كل اسبوع .

ثم انني وجهت رسالة إلى الضابط القائد أئين فيها أي خيبة أمل قاسية أحدثها  
كتابته الذي رفض فيه اقتراحي وأكدت له انني لست مولعاً بأياماً ممارسة للسلطة ،  
وأني أشد ما أكون توفيقاً إلى الخدمة . كذلك لفت نظره إلى سابقة . فقد أشرت إلى  
انني ، على الرغم من عدم تمتعي بأياماً رتبة عسكرية في كتيبة الاسعاف الهندية في  
جنوب افريقية أثناء حرب البوير ، فلم يحدث قط أيما احتكاك بين الكولونيل  
غولواي والكتيبة ، ولم يحط الكولونيل أيما خطوة من غير أن يرجع الي لسكي  
يتأكد من رغبات أفرادها . ووضعت طي الرسالة أيضاً نسخة من القرار الذي  
اتخذناه في الليلة السابقة .

ولم يترك ذلك أي أثر صالح في نفس الضابط ، الذي شعر أن الاجتماع



والقرار كانا خرقاً فاضحاً للنظام .

عندئذ وجهت رسالة إلى وزير الدولة لشؤون الهند أعرفه فيها بالوقائع جميعاً وأرفقتها بنسخة من القرار . فأجاب موضحاً أن الأحوال في جنوب أفريقيا كانت مختلفة ، ولافتاً نظري إلى الواقعة التي تقول أن الانظمة تنص على أن قادة الاقسام إنما يعينهم الضابط الأمر ، ولكنه أكد لي بأن هذا الضابط سوف يأخذ توصياتي بعين الاعتبار ، في المستقبل ، عند تعيين قادة الاقسام .

ودارت بيننا ، بعد ذلك ، مراسلات غير يسيرة ، ولكني لا أريد أن أطيل القصة المريعة . حسبي أن أقول أن خبرتي هذه كانت مماثلة للخبرات التي نمت لنا كل يوم في الهند . ومن طريق التهديد حيناً ، ومن طريق الدهاء حيناً ، وفُتق الضابط الأمر إلى أحداث الانشقاق في صفوف أفراد الكتيبة ، ذلك أن بعض الذين صوتوا مع القرار اذعنوا للتهديدات الضابط أو لأغراءاته ، وحشوا بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم .

وحوالى هذه الفترة ودل إلى مستشفى نيپلي ، على غير توقع ، عدد كبير من الجنود الجرحى ، فطلب إلى كتيبتنا أن تقدم خدماتها . فأما أولئك الذين استطاع الضابط الأمر إقناعهم فمضوا إلى نيپلي . وأما الآخرون فرفضوا الذهاب . وكنت أنا طريح الفراش ، ولكني كنت على اتصال مستمر بأعضاء الكتيبة . ولقد شرفني دكتور روبرتس ، وكيل وزارة الخارجية ، بعدة زيارات خلال تلك الأيام . لقد أصر على ضرورة اقناعي الأعضاء الآخرين بالخدمة . واقترح أن يشكل هؤلاء كتيبة مستقلة ، قائلاً أنهم سوف يكونون مسؤولين ، في مستشفى نيپلي ، تجاه الضابط الأمر هناك ، وهكذا لا يكون ثمة خوف من فقدان الاحترام اللاتاني . إن الحكومة سوف تُسَرِّضَ ، وفي الوقت نفسه فإن خدمة نافعة سوف تُسَدَّى إلى عدد كبير من الجرحى الوافدين على المستشفى . وراقني هذا الاقتراح وراق رفاقي ، مما جعل أولئك الذين تخلفوا يذهبون هم أيضاً إلى نيپلي .

لقد تخلفت أنا وحدي ، طريحاً في فراشي ، مخففاً ما استطعت من وقع ذلك

## ٤١ . محبة غوكهايل

لقد سبقت مني الإشارة إلى أصابي ، وأنا في انكلترة ، بذات الجنب . ولقد قفل غوكهايل عائداً إلى لندن بعد ذلك بقليل . وكان من دأب كالينباتش ودأبي أن نزوره على نحو نظامي . كانت أبحاثنا تدور ، في معظمها ، حول الحرب ، وإذ كان كالينباتش يعرف جغرافية المانيا معرفة لنفسه وإذ كان قد طوّف كثيراً في أوروبا فقد تعود أن يُرينا على الخريطة مختلف المواطن التي يتردد ذكرها في أنباء الحرب .

وحين أصبت بذات الجنب أسى هذا هو موضوع المناقشة اليومية أيضاً : وكان طعامي يتألف ، في ما يتألف ، من الفول السوداني ، والموز الناضج وغير الناضج ، والليمون ، وزيت الزيتون ، والطماطم ، والعنب . لقد اجتنبت اللبن ، والحبوب ، والقطاني وغيرها كل الاجتناب .

وعالجني الدكتور جيفراج مهنا . ولقد ألح عليّ إلحاحاً شديداً بأن اعاود تناول اللبن والحبوب ، ولكنني كنت عنيداً . وبلغت المسألة اسماع غوكهايل . ولم يكن كبير الايمان بصحة رأيي في موضوع الغذاء المقصور على الفاكهة ، ولقد أراد مني ان آخذ بما شئني نصفه لي الطبيب .

ولم يكن يسيراً عندي ان لا أذعن لضغط غوكهايل . وحين أبى ان يقبل رفضي التمسث منه ان يعطيني مهلة اربع وعشرين ساعة أفكر خلالها في المسألة . حتى إذا رجعت انا وكالينباتش ، تلك الليلة ، إلى البيت قلبنا الرأي متساولين عن الخطة التي يقنضني الواجب سلوكها . كان قد رافقني في تجربتي ، ولقد أعجبته ، ولكنني لاحظت انه يميل إلى اقناعي بإطراح التجربة إذا ما استدعت صحي ذلك . وهكذا كان علي ان اقرر موقفني بنفسي وفقاً لما يملحه علي الصوت الباطني .

وأنفقت الليل كله أقلب الرأي في المسألة . كان اطراحي للتجربة معناه التخلي عن جميع أفكاره في هذا المجال ، ومع ذلك فأنا لم أجد أي خلل في تلك الآراء . وكانت المسألة الآن : إلى أي حد يتعين عليّ أن أذعن لألحاح غوكهايل المحب ، وإلى أي حد يحسن بي أن أعدّل تجربتي وفقاً لما يدعي مصلحتي الصحية ؟ وأخيراً قررت أن التزم التجربة كلما كان الدافع وراءها دينياً قبل كل شيء ، وأن أعمل بنصيحة الطبيب كلما كان الدافع غلطاً . وكانت الاعتبارات الدينية مائدة في هجري اللبن . وكانت نصب عيني صورة الاساليب الشريرة التي كان الحلابون في كلكتا يصطنعونها لابتزاز آخر قطرة لبن من أبقارهم وجواميسهم . وراودني الشعور أيضاً بأنه إذا كان اللحم لم يُجعل طعاماً للإنسان فكذلك لم يُجعل لبن الحيوان طعاماً للإنسان . وهكذا نهضت في الصباح وأنا معتزم أن التزم قراره بهجر اللبن . وسرّى ذلك عني كثيراً . وخشيت الاتصال بغوكهايل ، ولسكني كنت أرجو أن يحترم قراره .

وفي المساء زرت ، أنا وكالينباتش ، غوكهايل في نادي التحرر الوطني . فكان أول سؤال وجهه إليّ قوله : « حسنًا ، هل قررت أن تقبل نصيحة الطبيب ؟ »

فأجبت في لطف ولكن في جزم :

« أنا راغب في التزول عند ارادتك في كل شيء ما عدا شيئاً واحداً اتوسل إليك أن لا تلح عليّ فيه . أنا لن اتناول اللبن ، ومشتقات اللبن ، واللحم . ولو قد كان معنى هجري لهذه الأشياء الموت نفسه اذن لشعرت أن من الخير لي أن أواجهه . »

فسألني غوكهايل :

« هل هذا قرارك النهائي ؟ »

فأجبت :

« أخشى أن لا يكون في بيوري أن اتخذ قراراً آخر . أنا أعلم أن قراره سوف يؤثّر ، ولكنني أتمسّ عفوك وغفرائك . »

وبشيء من الألم ولكن في حنان عميق ، قال غوكهايل :  
- أنا لا أوافق على قرارك . أنا لا أرى شيئاً من الدين فيه . ولكني لن  
الح عليك أكثر .

قال هذه الكلمات ، والنفت إلى الدكتور جيفراج مهتا وأضاف :  
- وأرجو ان لا تزعه أكثر مما فعلت . صف له أي شيء تشاء في حدود  
النطاق الذي فرضه على نفسه .

وعبر الطبيب عن مخالفته لهذا الرأي ، ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئاً . لقد  
نصحني بأن أتناول حساء المانغ ، ممزوجاً بشيء من الحليب . ووافقت على  
ذلك . وتناولت ذلك الحساء يوماً أو يومين ، ولكنه زاد في آلمي . وإذا لم أجده  
ملائماً ، ارتددت إلى الفاكهة والجوز . وواصل الطبيب معالجته الخارجية طبعاً .  
وخففت هذه المعالجة من آلمي ، ولكن قيودي عاقته في أداء مهمته إلى حد بعيد .  
وفي غضون ذلك رجع غوكهايل إلى الوطن ، إذ لم يكن في ميسوره احتمال  
ضباب لندن في شهر أكتوبر .

## ٤٢ . معالجة ذات الجنب

وأورثني إصرار ذات الجنب بعض القلق ، ولكنني عرفت ان الشفاء لا يكمن في  
تناول الادوية داخلياً ، ولكن في التغييرات الغذائية مدعومة بالادوية الخارجية .  
واستدعيت الدكتور آيسون ذا الشهرة النباتية ، الذي كان يعالج الامراض  
بالتعديلات الغذائية . والذي كنت قد اجتمعت به عام ١٨٩٠ . وفحصني هذا  
الطبيب فحصاً دقيقاً ، فأوضحت له كيف سبق لي أن أخذت على نفسي عهداً  
بأن لا أقرب اللبن . فشجعتني وقال : لست في حاجة إلى تناول اللبن . الواقع  
اني اريد منك ان لا تتناول أي مادة دهنية طوال بضعة أيام . ثم انه نصحتني  
بأن أحبا على الخبز الاسمر الكامل ، والخضر النيئة كالشمندر ، والفجل ،  
والبصل ، وما إليها ، وعلى الفاكهة الغضة ، وبخاصة البرتقال . وأوصاني بأن

لا أطبخ الخضر : بل أن أبشرها بَشْرَ آ رقيقاً إذا لم أستطع أن امضغها .  
والترمت هذه الوصفة نحواً من ثلاثة أيام . ولكن الخضر النيئة لم تلاثمني كل  
الملازمة . إن جسدي لم يكن في حال تمكنني من أن انصف هذه التجربة إنصافاً  
كاملاً . كان مجرد التفكير في تناول الخضر النيئة يثير عصبيتي .

وأوصاني الدكتور آ لينسون أيضاً بأن أبقى جميع نوافذ غرفتي مفتوحة طوال  
الساعات الأربع والعشرين ، وأن أغتسل بالماء الفاتر ، وأن ادلك بالزيت أو صلي  
المصابة ، وأن أتمشى في الهواء الطلق فترة تراوح ما بين خمس عشرة دقيقة  
وثلاثين دقيقة ، ولقد أعجبتني هذه الاقتراحات كلها .

وكانت لغرفتي نوافذ على الطراز الفرنسي ، فهي إذا تُركت مُشترعة  
تسرب المطر إلى الداخل . ولم يكن في الامكان فتح النافذة المروحية ، وهكذا  
طلبت أن يكسر الزجاج لتمكين الهواء النقي من الدخول إلى الغرفة ، وفتحت  
النوافذ جزئياً لكي أحول دون تسرب المطر .

وساعدت هذه الاجراءات على تخمين صحتي ولكنها لم تشفني  
شفاءً كاملاً :

وكانت الالدي سيبيليا روبرتس تعودني بين الفينة والفينة . لقد أصبحنا  
صديقين . وكانت شديدة التوق إلى أن تقنعني بتناول اللبن . حتى إذا وجدني  
شديد التصلب راحت تبحث عن بديل من اللبن . واقترح عليها بعض الاصدقاء  
اللبن المزوج بالملت . مؤكداً لها في كثير من البراءة انه خال من اللبن خلسواً  
كاملاً ، وانه مستحضر كيميائي له جميع خصائص اللبن . وكنت أعرف ان  
الالدي تحترم وساوسي الدينية ، وهكذا ونقت بها ونوقاً تاماً . لقد ذوّبتُ  
الذرور في الماء ، فاذا بي أجد له طعماً كطعم اللبن تماماً . وقرأت الرقعة الملصقة  
على الزجاج فاكشفت ، ولكن بعد فوات الاوان ، انه مستحضر من اللبن ،  
وهكذا هجرته .

---

• الملت malt خميرة الشعير .

وأبأت اللايدي سيبيليا بالاكتشاف ، سائلاً ايها أن لا تغلق لذلك. فأقبلت على جناح السرعة لتعبر لي عن أسفها الشديد ، ذلك ان صديقها لم يكن قد قرأ الرقعة البتة . ورجوتها ان لا تجزع ، وعبرت لها عن أسفي لعدم استطاعتي الأفادة من الاشياء التي تجسّمتُ عناء جلبها اليّ . كذالك أكدت لها اني لم استشر قط اضطراباً أو حرجاً لتناول اللبن على ذلك النحو غير المتصود .

ويتعيّن عليّ ان أغفل كثيراً من ذكرياتي العذبة مع اللايدي سيبيليا . ان في استطاعتي ان أفكر في كثير من الاصدقاء الذين كانوا مصدر ارتياح لي في غمرة المحنة وخيبة الأمل . إن المؤمن ليلج في ذلك عناية الله الذي يجعل الأسى نفسه عذبا .

وحين عادني الدكتور آ لينسون بعد ذلك خفّف القيود التي فرضها ، وأجاز لي أن اتناول زبدة الفول السوداني أو زيت الزيتون من أجل الفوز بشيء من الدهن ، وان آكل الخضر مطبوخة ، إذا شئت ، مع الأرز . وقد رجبتُ بهذه التغيرات ترحيباً كبيراً ، ولكنها عجزتُ عن ان تحمل اليّ الشفاء الكامل ، كنت ما أزال في حاجة إلى تمرّض متميز ببالغ العناية ، وقد اضطررت إلى الترام القراش في معظم ساعات النهار .

وبين الفينة والفينة كان الدكتور مهتا يعودني ليفحصني ، وكان لا يفتأ يبعد عليّ عرضاً بضمن لي الشفاء شرط ان اعمل بنصيحته .

وبينما كانت الأمور تجري على هذا النحو ، زارني مستر روبرتس ذات يوم وألح عليّ بالعودة إلى الوطن إلحاحاً شديداً . لقد قال :

— « ليس في ميسورك ان تذهب إلى نيتلي وانت على هذه الحال . انا نتوقع ان تحمل الينا الايام القادمة برداً أقسى . وأنا أنصحك في إلحاح بالمعودة إلى الهند ، لأنك لن تستطيع الفوز بالشفاء التام إلا هناك . وإذا ما اتفق ، بعد شفائك ، أن ظلت الحرب دائرة ، فعندئذ تسع لك هناك فرص كثيرة لأسداء العون . وعلى أية حال فلت اعتبر ما قمت به حتى الآن مساهمة ضئيلة على الإطلاق . »

وقبلت نفسي به ، وشرعت في الاستعداد للعودة إلى الهند .

### ٤٣ . نحو ارض الوطن

كان مسر كاليناث قد رافقني إلى انكلتره وفي نيته ان يتابع الرحلة الى الهند أيضاً . كنا نسكن معاً وكنا نريد طبعاً ان نبحر على متن السفينة نفسها ، بيد ان الالمان كانوا خاضعين لمراقبة صارمة جداً حتى لقد شككنا في امكان نجح مسر كاليناث في الحصول على جواز سفر . وبذلت غاية جهدي للفوز به ، وكذلك أرسل مسر روبرتس - الذي كان مؤيداً لحصوله على الجواز - برقية إلى نائب الملك يوصيه فيها بذلك . ولكن جواب اللورد هاردينج ما لبث ان جاء : « حكومة الهند تأسف لعدم استعدادها للقيام بمثل هذه المخاطرة . » وأدركنا كلنا مغزى هذا الجواب .

كان الانفصال عن مسر كاليناث صدمة عنيفة لي ، ولكنني استطعت أن أرى ان غصته كانت أعظم . ولو قد قدر له ان يتقدم إلى الهند اذن لكان اليوم بحيا حياة الفلاح والحائك البسيطة . انه اليوم في جنوب افريقية بحيا حياته القديمة ويعمل بنجاح في حقل الهندسة المعيارية .

وكنا نبغي السفر بالدرجة الثالثة ، ولكننا لم نجد مكاناً في تلك الدرجة على بواخر شركة « بي وأو » ، فاضطررنا إلى السفر بالدرجة الثانية . واصطحبنا الفاكهة المجففة التي سبق لنا ان حملناها من جنوب افريقية ، لأنه لن يكون في استطاعتنا ان نجد معظمها في الباخرة ، حيث كان الغثور على الفاكهة الغضة أمراً يسيراً .

وكان الدكتور جيفراج مهتا قد طوق اضلاعي بـ « لصقة ميد » ، وكان قد سألني أن لا أنزعها حتى نبلغ البحر الأحمر . واحتملت ازعاجها يومين ، ولكنني ما عدت آخر الأمر أطيقها . وفي كثير من العمر وفقت إلى نزع اللصقة

واستعادة حربي في الاغتسال والاستحمام على نحو صحيح .

كان غذائي يتألف في الأعم الأغلب من الجوز والفاكهة . لقد بدا لي ان حالي كانت تحسن يوماً بعد يوم . وشعرت ان صحتي أمت أفضل بكثير يوم دخلنا قناة السويس . كنت واهن القوى ، ولكني أحسنت اني اجتزت مرحلة الخطر ، فأخذت أقوم بالتمارين الرياضية على نحو متعاضم شيئاً بعد شيء . ولقد عزوت هذا التحسن : في المحل الاول . إلى الهواء النقي في الاقليم المعتدل .

ولقد وجدت ان الشقة بين المسافرين الانكليز والمسافرين اخنود على متن السفينة كانت شيئاً لم ألاحظه حتى في رحلتي الأولى إلى جنوب افريقية ، ولست أدري هل كان ذلك ناشئاً عن تجربة ماضية أم عن سبب آخر . وتحدثت إلى عدد قليل من الانكليز : ولكن الحديث كان في معظم الأحوال رسمياً . لقد انعدمت ، أو كادت ، تلك الاحاديث الودية التي كانت تدور من غير شك على متن السفن الجنوبأفريقية ، واحب أن السبب في ذلك راجع الى الشعور الواعي أو غير الواعي الكامن في سريرة الانكليزي بأنه يتسب إلى العرق الحاكم . والشعور الكامن في سريرة الهندي بأنه يتسب إلى العرق المحكوم .

وكننت شديد التوق إلى بلوغ أرض الوطن حتى أنجو من هذا الجو .

حتى إذا وصلنا إلى عدن بدأنا نشعر وكأننا في بيتنا إلى حد ما ، ذلك اننا كنا قد اجتمعنا بمسرح كيكوباد كافاسجي ديشاو في دوربان ، واتصلنا به وبزوجته اتصالاً وثيقاً .

وبعد بضعة أيام وصلنا إلى بومباي . كان من المبهج أن نعود إلى أرض الوطن بعد هجرة دامت عشر سنوات .

وكان غوكيهامل قد أعد لي استقبالا في بومباي . وكان قد وفد إلى هناك على الرغم من صحته الرقيقة . وكنت قد انتهيت إلى الهند وبين جوانحي أمل



حارم في أن افني نفسي في ذاته ، وبذلك أمتشعر الحرية . ولكن القدر شاء لي غير ذلك .

#### ٤٤ . بعض ذكريات المحاماة

قبل ان أقصّ حكاية الانجاء الذي اتخذته حياتي في اخندينو لي ضرورياً ان استحضر بعض تجاربي الجنوبافريقية التي أهملتها عمداً .

لقد سألني بعض أصدقائي المحامين ان أدوّن ذكرياتي في حقل المحاماة ؛ والواقع ان هذه الذكريات كثيرة إلى درجة تجعل تدوينها كاملةً امرأ يحتاج إلى مجلد مستقل ، وتخرجني عن نطاق هذه القصة . ومع ذلك فقد لا يكون من غير الملائم ان استحضر هنا بعض تلك الذكريات التي تتصل بالتمرس بالحقيقة .

وقد سلفت مني الإشارة ، على ما أذكر ، إلى أنني لم الجأ قط ، في عملي المهني ، إلى الخداع أو الكذب ، وإلى ان جزءاً كبيراً من عملي الحقوقي كان دفاعاً عن المصلحة العامة ما كنت اتقاضى لقاءه شيئاً غير النفقات التي أدفعها من جيبتي ، وحتى هذه النفقات كنت أحمّلها بنفسي في بعض الاحيان . ولقد اعتقدت اني بقولي هذا قلت كل ما يتحتم قوله في ما يتصل بعملتي في حقل المحاماة ؛ ولكن اصدقائي يسألوني المزيد . يبدو انهم يعتقدون اني إذا ما وصفت ، ولو وصفاً ضئيلاً ، بعض المناسبات التي رفضت فيها التكبّ عن سبيل الحقيقة ، فإن مهنة المحاماة قد تنفد من ذلك فائدة ما .

حين كنت طالباً سمعت من يقول بأن مهنة المحامي هي مهنة الكذاب ، ولكن ذلك لم يؤثر بي ، لأنني ما كنت اعترم اكتساب أيا مركز أو ثروة من طريق الكذب .

لقد وُضِعَ مبدئي موضع الاختبار مرات عديدة ، في جنوب افريقية ؛ فكثيراً ما كنت أعلم ان خصومي قد لقنوا شهودهم ، وأن وبجي للقبض

لا يقتضيني أكثر من تشجيع موكلتي أو شامدٍ وِ على الكذب ، ولكّني كنت أقاوم هذا الاغراء دائماً . واني لا أذكر إلا مناسبة واحدة شككت فيها ، بعد ان ربحت الدعوى ، بأن موكلتي قد خدعني . وفي أعماق أعماقي كنت أتمنى دائماً ان لا أكسب الدعوى إلا إذا كانت قضية موكلتي عادلة . ولست أذكر البتة اني كنت اربط ما بين تعويض أتعابني وبين كسبي للدعوى . فسواء أكسب موكلتي القضية أم خسر ها ، فما كنت أتوقع أن أفوز بأكثر من تعويض الانعاب أو بأقل منه .

كنت منذ البدء أحلر الموكل الجديد من ان يتوقع مني تولي الدفاع عن قضية ظالمة أو تلقين الشهود ، مما يبني لي شهرة جعلت القضايا الخالصة لا تُعرض عليّ البتة . والواقع ان بعض موكلتي كانوا يحتفظون لي بدعاواهم النظيفة ويحملون دعاواهم المشكوك فيها إلى شامدين آخرين .

وكانت ثمة دعوى واحدة أثبتت انها تجربة قاسية . لقد حملها اليّ واحد من أحسن موكلتي . كانت دعوى حسابات معقدة أعظم التعقيد ، وكانت دعوى متطاولة . فقد نُظرت على أجزاء أمام محاكم مختلفات . وأخيراً عهدت المحكمة بالجزء الخاص بماسك الدفاتر إلى هيئة تحكيم مؤلفة من بعض المحاسبين الأكفاء . وقد جاء حكم هذه الهيئة كله في مصلحة موكلتي ، ولكن المحكمين كانوا قد ارتكبوا ، من طريق التهاون ، خطأً في الحساب كان ، برغم ضآلته ، خطيراً ، بمقدار خطورة ادراج دفعة ما في جانب « منه » بدلاً من ادراجها في جانب « له » . وكان الخصوم قد عارضوا الحكم لاعتبارات أخرى . وكنت أنا المحامي الثانوي لموكلتي . وعندما اطلع المحامي الرئيسي على الغلطة ذهب إلى ان موكلنا لا ينبغي ان يعترف بها . لقد اعتقد اعتقاداً لا لبس فيه بأنه لا ينبغي لأي محام ان يعترف بأي شيء قد يتعارض مع مصلحة موكله . أما أنا فقلت ان علينا ان نعرّف بتلك الغلطة .

ولكن المحامي الرئيسي جادلني قائلاً :

« من المحتمل جداً ، في هذه الدعوى ، ان يعمد القضاة إلى إلغاء حكم

المحكّمين كله ، وليس ثمة محام عاقل يعرض قضية موكله للخطر إلى هذا الحد :  
وأبأ ما كان ، فسوف أكون أنا آخر من يقدم على مثل هذه المخاطرة . وإذا  
ما قررت المحكمة إعادة النظر في الدعوى فليس في استطاعة احد أن يخرر أية  
نفقات يتكبدها موكلنا . وأية نتيجة قد تنتهي إليها القضية في آخر الأمر ! »

وكان الموكل حاضراً عندهما دار هذا الحديث .

فقلت :

« أنا أشعر ان علينا نحن وموكلنا ان نغامر هذه المغامرة . وهل نحسن  
موقعنا من ان المحكمة ستظل تؤيد حكماً خاطئاً لمجرد اننا لا نقر بالغلطة ؟  
ولنفرض ان اقرارنا سوف يعرض موكلنا للخسارة فأني ضير في ذلك ؟ »

فقال المحامي الرئيسي :

« ولكن ما الذي يدعونا إلى الاقرار على أية حال ؟ »

فقلت :

« وهل نحن وانفون من أن المحكمة لن تتبّه إلى الغلطة ومن ان الخصم  
لن يكتشفها ؟ »

فأجاب المحامي الرئيسي في حزم :

« حسناً . إذن ، هل ترغب في السير بالقضية بنفسك ؟ أنا لست مستعداً  
لمتابعتها على أساس الشروط التي تضعها . »

فأجبت بالتضاع :

« إذا تخليت أنت عن الدعوى فأنا مستعد لمتابعتها إذا رغبت الموكل في  
ذلك . ولن تكون لي أية صلة بهذه الدعوى إذا لم نعرف بتلك الغلطة . »

قلت هذا ونظرت إلى موكلي . كان مرتبكاً بعض الشيء . وكنت قد  
سايرت هذه الدعوى منذ البدء . وكان الموكل يثق بي ثقة تامة ، وكان يعرفني  
معرفة جيدة . فقال :

— « حسنًا ، اذن ، تستطيع ان تتولى الدفاع في هذه الدعوى . وتعرف بالغلطة . فلنخسر القضية ، إذا كُتِبَ علينا ذلك . إن الله يصون الحق ويحميه . »  
وابتهجت نفسي . اني لم أكن أتوقع منه موقفاً غير هذا . وحذرني المحامي الرئيسي كرة أخرى : ورثي لعنادي ولكنه هنأني على أية حال .  
أما ما حدث في المحكمة فسوف أرويه في الفصل التالي .

## ٤٥ . مراوغة ؟

لم أكن في ريب من سلامة موقعي . ولكي كنت في ريب كثير من قدرتي على النهوض بأعباء الدعوى على الوجه الأكمل . لقد شعرت بأن تولي الدفاع عن مثل هذه القضية العسيرة مغامرة كبرى . ولقد وقفت امام المحكمة في خوف وارتعاد .

وما إن اشرت إلى الخطأ في الحساب حتى قال احد القضاة :

— « أليست هذه مراوغة : يا مستر غاندي ؟ »

وتميّزت حقناً لسماعي هذه التهمة . فلم يكن في طوتي ان احتمل اتهامي بالمراوغة في حين ليس ثمة أيما مبرر لذلك .

وقلت في ذات نفسي : « ان الامل في النجاح ضعيف في هذه الدعوى ما دام هذا القاضي مغرّضاً على هذه الشاكلة منذ البدء . » ولكي استجمعت أفكاري وأجبت :

— « اني أعجب لسعادتك كيف تنهمني بالمراوغة قبل ان تسمع الي حتى النهاية . »

فقال القاضي :

- « أنا لا أتهم . إنه مجرد رأي . »

- « إن الرأي هنا يبدو لي معادلاً للتهمة . اني أسأل معادلتك ان تستمع اليّ حتى النهاية ، وأن تتهمني بعد ذلك إذا كان ثمة مبرر لذلك . »

فقال القاضي :

- « آسف لمقاطعتي لإياك ، أرجوك ان تتابع شرحك للاختلاف والتناقض . »  
وكانت لديّ مادة كافية تؤيد وجهة نظري . والواقع ان اثاره القاضي لهذه المسألة كان لما الفضل في تمكيني من توجيه انتباه المحكمة إلى حجتي منذ البدء مباشرة . وشجعتني ذلك كثيراً ، واغتنتم الفرصة فتوسعت في شرح رأسي وأصاغت المحكمة اليّ في رحابة صدر ، ولقد كان في مسوري ان اتبع القضاة بأن الخطأ ناشيء عن السهو ، وهكذا لم يستشعروا ميلاً إلى إلغاء حكم المحلفين كله ، ذلك الحكم الذي اتفق على جهوداً ضخمة .

وبدا المحامي الخصم وكأنه استشر الأمن والثقة ، اعتقاداً منه ان المسألة لن تحتاج إلى كثير من الجدل بعد ان اقررتُ أنا بوجود الغلطة . ولكن القضاة واصلوا مناقشته ، إذ كانوا مقتنعين بأن الغلطة كانت هفوة يمكن اصلاحها في يسر . وفاضل المحامي فضلاً مريباً لمهاجمة حكم المحكمين ، ولكن القاضي الذي شك في موقعي بادي الأمر كان قد انحاز إلى جانبي انحيازاً كاملاً .  
لقد سأله :

- « هب ان مسر غاندي لم يعترف بالخطأ ، ما الذي كان في مسورك أن تمنعه ؟ »

- « لقد كان من المتعارفين ان نضمن خدمات محاسب أكثر كفاءة وأمانة من ذلك الذي عيناه . »

فتابع القاضي قائلاً :

- « ان على المحكمة ان تفترض انك تعرف قضيتك احسن معرفة . وإذا كنت لا تستطيع ان تشير إلى أي شيء غير الذفوة التي يُجتمَل ان يرتكبها أيّ

عاسب خبير فان المحكمة تأبى ان تُكره الفريقين المتخاصمين على التناضي من جديد ودفع نفقات جديدة بسبب من غلطة جلية . يحسن بنا ان لا نعاود سماع الدعوى حين يكون في الامكان تصحيح مثل هذه الغلطة في يسر .  
وهكنا ، رُدَّ اعتراض المحامي . ولست أتذكر الآن هل بُتت القضية بحكم المحكمين بعد تصحيح الخطأ أم أمروا المحكمين بتصحيح ذلك الخطأ .  
وابتهجت بذلك . وكذلك ابتهج موكلي والمحامي الرئيسي . وازددت أنا يقيناً بأن من المستحيل ممارسة المحاماة من غير التعلق بأهداب الحقيقة .  
بيد ان على القارئ ان يذكر أن الامانة نفسها في ممارسة المهنة لا تستطيع ان تشفيها من العلة الرئيسية التي تفسدها .

## ٤٦ . موكلون يصحبون أعواناً

إن الفرق بين ممارسة المحاماة في نائال وممارستها في الترانسفال هو ان مهنة المحاماة في نائال كانت مشتركة . فقد كان في ميسور الحقوقي ، حين يفوز برتبة المحامي ، أن يعمل كوكيل دعوى أنفأ . على حين ان نطاق وكلاء الدعاوى ونطاق المحامين كانا في الترانسفال ، شأنهما في بومباي ، متميزين . كان على الحقوقي هناك ان يختار بين احدى خطتين : ان يعمل كمحام أو أن يعمل كوكيل دعوى . وهكنا ، فاذا كنت قد عملت في نائال بوصفي محامياً فأني سميت في الترانسفال إلى أن يُعترف بي كوكيل دعوى . إذ ما كان في استطاعتي ، كمحام ، ان اتصل اتصالاً مباشراً بالثود ، كما ان وكلاء الدعاوى البيض في جنوب افريقية كانوا خطبتين بأن لا يعولوا الي في الدفاع عن قضاياهم .  
ولكن حتى في الترانسفال كان مباحاً لوكلاء الدعاوى ان يرافعوا أمام القضاة . وفي ذات يوم ، بينما كنت أدافع عن قضية ما ، أمام القضاة في جوهانسبورغ ، اكتشفت ان موكلي قد عدلني . لقد رأيتهم اياماً كاملاً في

مقصورة الشهود . وهكذا : ومن غير مناقشة . سألت القاضي ان يرفض الدعوى . ودهش المحامي الخصم : وسرّ القاضي . وأنت موكلي لتكليف بالدفاع عن قضية ظالمة . فقد كان يعرف اني لا أقبل الدفاع عن قضايا ظالمة ، وحين اثرت المسألة معه اعترف بخطأه . وأنا أشعر انه لم يكن غاضباً عليّ لأنني سألت القاضي ان يحكم ضده . وعلى أية حال . فإن مسلكي في هذه الدعوى لم يتزل أبداً ضرر بعلمي كمحام . بل إنه جعل عملي هذا أبسر . ولقد رأيت كذلك ان اخلاصي لاحق عزز شهرتي ومكانتي بين أعضاء المهنة . بل لقد استطعت بفضل هذا الاخلاص ان أكسب مودتهم في بعض الاحيان برغم عائق العرق واللون .

وخلال ممارستي المحاماة كان من عادتي أيضاً ان لا أخفي جهلي على موكلي أو زملائي . كنت كلما وجدت نفسي في حيرة واضطراب انصح موكلي بأن يستشير محامياً آخر . وإذا ما آثر الاستمرار في توكيلي كنت أسأله ان يسمح لي بالاستعانة بأحد المحامين الكبار . وهذه الصراحة أكسبني مودة موكلي وثقتهم على نحو لا حد له . كانوا دائماً راغبين في دفع تعويض الاتعاب كلما وجدت ان من الضروري مراجعة أحد المحامين الكبار . وهذه المودة وتلك الثقة ساعدتني كثيراً في نشاطي في حقل الخدمة العامة .

لقد ذكرت في الفصول السابقة ان هدفي من ممارسة المحاماة في جنوب افريقية كان خدمة الجالية . وحتى من أجل هذا الغرض كان اكتساب ثقة الشعب شرطاً لا مفر منه . والواقع ان المنود ذوي القلوب الكبيرة ضخموا العمل المهني الذي قمت به من أجل المال فنظروا اليه نظرتهم إلى خدمة عامة . وكان كثير منهم . إذا ما نصحتهم بتحمل مشاق السجن في سبيل حقوقهم ، يقبلون نصيحتي هذه في ابتهاج . لا لأنهم قد فكروا في المحل الاول بصوابية هذا المسلك بل بسبب من ثقتهم بي ومحبتهم لي .

إن كثيراً من الذكريات الحارة لتطوف في خاطري وأنا أدون هذه الكلمات . لقد أصبح مئات من موكلي أصدقاء واعواناً لي في الخدمة العامة . ولقد كان

في مشاركتهم هذه ما أدخل العذوبة على حياة كانت لولاها حافلة بالمصاعب والمخاطر .

## ٤٧ . كيف أنقذ أحد الموكلين

لا ريب في أن القارئ قد أصبح الآن يعرف اسم بارسي رستمجي معرفة جيدة . كان قد أمسى موكلي وزميلي في الخدمة العامة في وقت واحد . أو لعل الأصح أن أقول أنه أصبح زميلاً في الخدمة العامة ثم موكلاً من الموكلين بعد ذلك . لقد كسبت ثقته إلى حد أنني جعلته يلتزم وينفذ نصيحتي في الشؤون المنزلية الخاصة أيضاً . وكان حتى في هذه الأيام التي يخل فيها المرض بساحته ، يلتزم مساعدتي ولا يتردد في قبول معالجاتي التي لا يقرها العلم الطبي . على الرغم من الشقة الشاسعة بين أسلوبي في الحياة وأسلوبه .

ووقع هذا الصديق ذات يوم في ورطة شديدة . وعلى الرغم من أنه كان يطلقني دائماً على معظم شؤونه وقضاياها فإنه أخفى عني في كثير من العناية شيئاً واحداً . كان مستوراً كبيراً للبضائع من بومباي وكلكتا . وكان يلجأ إلى التهريب في كثير من الأحيان . ولكن لما كان على أحسن الصلات بموظفي الجمارك فإن أحداً لم يتزعج إلى الارتياح به . كانوا حين يفرضون الرسوم عليه يكتفون بمجرد إلقاء نظرة على فواتيره فلا يعيشون أنفسهم عناء تمحيصها والتدقيق فيها . بل إن بعضهم كان يغض الطرف عن التهريب .

ولكن المارقة—إذا اصطعنا التشبيه الرائع الذي عنده آكهو Akho الشاعر الكوجاراتي— أشبه شيء بالزئبق فيس في الأماكن كبتها . وما كان بارسي رستمجي شاذاً عن القاعدة . وهرع الصديق الطيب اليّ والذموع تنحدر على خديهِ وقال :

— « باي . لقد خدعتك . لقد اكتشفت جريمتي اليوم . لقد قمت بعملية



تهرب وحكم عليّ بالهلاك . سوف أساق إلى السجن وأواجه الخراب . وأنت وحكك تستطيع ان تغدني من هذه الورطة . اني لم أخف عنك أيما شيء آخر ، ولكنني اعتقدت انه لا ينبغي لي ان اضجرك بمثل هذه الحيل التجارية ، ومن أجل ذلك لم أحدثك قط عن مسألة التهريب هذه . أما الآن ، فما أعظم ندمي على ذلك !  
وهذأت من روعه وقلت :

« ان انقاذك بيد الله . أما في ما يتصل بي فأنت تعرف طريقي . أنا لا أستطيع شيئاً أكثر من محاولة انقاذك عن طريق الاعتراف . »

وأسقط في يد بارسي الطيب وتساءل :

« ولكن اليس اعترافي امامك كافياً ؟ »

فأجبت في لطف :

« انك لم تسمي اليّ ولكنك أسأت إليّ ، الحكومة . فكيف يفيدك الاعتراف

الذي قمت به أمامي ؟ »

فقال بارسي رستمجي :

« اني سأفعل وفق نصيحتك تماماً ، ولكن أن تشاور مع عمليّ التقديم

مستر ..... ؟ إنه صديقي أيضاً . »

وكشف التحقيق عن ان التهريب كان جارياً منذ عهد بعيد ، ولكن الجريمة

الفعلية التي قادت إلى الكارثة كانت تنطوي على مبلغ ثافه . ومضينا إلى ضاميه :

وتلا المحامي الأوراق وقال :

« ان القضية سوف يحكم فيها المحلفون ، وهيئة المحلفين في نانتال هي

آخر من يرى هندياً . ولكنني لن اقطع الرجاء . »

ولم أكن أعرف ذلك المحامي معرفة حميمة . واعرّض بارسي رستمجي

قائلاً :

« أشكرك ، ولكني اؤثر ان اتبع نصيحة مستر غاندي في هذه القضية .

إنه يعرفني معرفة حميمة . ولا ريب في انك سوف تسمي اليّ التمسح كلما

احتاج إلى ذلك . »

حتى إذا طرحنا مسألة المحامي على هذا النحو مضينا إلى دكان بارسي رستمجي :

وشرحت له وجهة نظري وقلت له :

« لست أرى أن من الجائر أن تُرفع هذه القضية إلى المحكمة على الإطلاق ؛ إن ضابط الجمارك يملك أن يقاضيك أو أن يمسّحك بأحسن ، وهو بدوره سوف يخضع لتوجيه المدعي العام . وأنا مستعد لأن أقابلها جميعاً . واني اقترح أن تعلن استعدادك لدفع الغرامة التي يحدّدانها ، وأغلب الظن أنها سوف يتقبلان ذلك بقبول حسن ، أما إذا رفضنا فعدنّذ يتعين عليك أن تستعد لدخول السجن . وأنا اعتقد أن العار ليس في دخول السجن بقدر ما هو في ارتكاب تلك الجريمة . لقد قضى الأمر ولحق العار بك . ويجب أن تنظر إلى السجن نظرتك إلى كفسارة : ولكن الكفارة الحقيقية قوامها عزمك على أن لا تعاود التهريب بعد اليوم . »

ولست أستطيع أن أقول أن بارسي رستمجي تلقى ذلك كله بارتياح . كان رجلاً شجاعاً ، ولكن شجاعته خاتنه في تلك اللحظة . كان اسمه وسعته في خطره وما الذي سيحلّ به إذا تهدم الصرح الذي رعاه في كثير من العناية والجهد ؟  
وقال :

« حسناً ، لقد قلت لك اني بين يديك : وفي استطاعتك أن تفعل ما تشاء . »

وأفرغت في هذه القضية كل ما أملك من قوى الاتعاض . فاجتمعت إلى ضابط الجمارك واحطته علماً ، في غير ما وجل ، بالسألة كلها . ولقد وعدته أيضاً بأن أضع جميع الدفاتر في تصرّله ، واخبرته بمبلغ الندم الذي يعصف ببارسي رستمجي .

فقال ضابط الجمارك :

« أنا أحب بارسي العجوز . وإنني آسف لأنه جعل نفسه أضحوكة للناس ، وأنت تعرف الواجب المفروض عليّ . يجب أن أنتقي توجيه النائب العام ، ومن أجل ذلك انصحك بأن تحاول اقناعه جهود طاقئك . »

فقلت :

« سوف أكون شاكراً إذا لم تصر على سوقي إلى المحكمة . »

حتى إذا حملته على ان يعدني بذلك ، أخذت أرسل النائب العام ، ومضيت للاجتماع به أيضاً . ويسعدني ان أقول انه قدر صراحتي الكاملة حق قدرها ، واقتنع بأنني لم أخف عنه شيئاً .

ولقد نسيت الآن هل كانت صراحتي وإصراري في هذه القضية أم في غيرها من القضايا هما اللذين انتزعا منه هذه الملاحظة : «أرى انك لن تقبل لفظة «لا» جواباً على الاطلاق . »

وسويت قضية بارسي رستمجي آخر الأمر . كان عليه ان يدفع غرامة تعادل ضعف المبلغ الذي اعترف بأنه قد هرب به . ودون رستمجي حقائق القضية كلها، ووضع الورقة ضمن اطار وعلقه في مكتبه لكي تكون مذكراً سرمدياً لورثته وزملائه التجار :

وحذرنى أصدقاء رستمجي من الانخداع بهذه التوبة الموقته : وحين حدثت رستمجي حديث هذا التحذير ، قال :

« وما الذي يكون مصيري إذا ما استدعتك ؟ »

قِصَّةُ تَجَارِبِي مَعَ الْحَقِيقَةِ

الْقِسْمُ الْخَامِسُ



## ١ . التجربة الاولى

قبل ان ابلغ ارض الوطن كانت الجماعة التي انطلقت من فونيكس قد وصلت . ووفقاً لخطتي الأولى كان ينبغي ان أسبقهم ، ولكن انشغالي في انكلترا بمسألة الحرب كان قد قلب تقديرنا كلها رأساً على عقب . وحين رأيت انني سوف أضطر إلى البقاء في انكلترا إلى ما لا نهاية له جابهني مشكلة ايجاد مكان لأبواء جماعة فونيكس . لقد أردت ان يحبوا معاً في الهند ، إذا استطاعوا ، وان يعيشوا على غرار معيشتهم في فونيكس . وماكنت أعرف أي « أشرم » استطاع ان أوصيهم بالذهاب اليه ، ومن أجل ذلك أبرقت اليهم بالاتصال بمستر اندروز وبالعمل بنصيحته .

وهكذا أنزلوا أولاً في غوروكول ، كانغري ، حيث عاملهم المرحوم سوامي شرادهانجي وكأنهم ابناءؤه . وبعد ذلك أنزلوا في « الاشرم الشانتينيكاني » حيث أغدق عليهم الشاعر وأهله حباً مائلاً . والواقع ان الخبرات التي اجتمعت لهم في المواطنين أفادتهم وأفادتني كثيراً .

وكان الشاعر ، وشرادهانجي ، والرئيس سوشيل رودرا ، كما كنت أقول لأندروز ، يولفون ثالوثه الاقدس . كان لا يمل ، أيام كنا في جنوب افريقية ، من التحدث عنهم . وأحاديث مستر اندروز هذه ، بين الفنية والفنية ، عن ذلك الثالوث العظيم هي من أعذب ذكرياتي في جنوب افريقية وأكثرها حيوية :

---

• الاشرم : موطن من مواطن الخطوة الدبيلة .

وكان طبيعياً أن يعرف مسر اندروز الجماعة بسوشيل رودرا . ولم يكن للرئيس رودرا أي . أشرم . ولكنه كان يملك بيتاً فوضعه كله تحت تصرف الأسرة الفونيكسية . وما إن وصل أفراد الأسرة إلى هناك حتى استشعروا . لحسن وفادة سوشيل وأهله . أنهم في بيتهم . وحتى تُحِيل اليهم أنهم لم يغادروا فونيكس قط .

ولم أعرف أن جماعة فونيكس كانت في شانتينيكثان إلا عندما وطئت قدماي نرى بومباي . وهكذا كنت في غاية الشوق إلى الاجتماع بهم بعد التقاضي بكوغهايل مباشرة .

وأتاحت لي الاستقبالات في بومباي الفرصة للقيام بما أستطيع أن أدعوه  
« لا عفاً صغيراً » .

ففي الحفلة التي أقيمت على شرفي في بيت مسر جيهانجير بييت لم أجروا على الكلام باللغة الكوجاراتية . لقد استشعرت ، أنا الذي عشت معظم حياتي بين العمال المعاهدين ، وكأنني فلاح في ذلك الوسط الباذخ ذي البهاء الذي يهر البصر . لقد بدتُ بعباءتي الكاثاوادية ، وعمامتي ، والدوطي الذي كنت ارتديه ، أقول لقد بدت أكثر تمدناً مني اليوم ، ولكن أبهة قصر مسر بييت جعلتني أشعر اني في غير بيتي تماماً . بيد اني حملت نفسي على ان أسلك مسلماً راضياً متساعماً ، بعد ان فرغتُ إلى جناح السير فيروز شاه الوافي :

ثم كانت الحفلة الكوجاراتية . ذلك ان الكوجاراتيين أبوا إلا أن يقيموا حفلة على شرفي . ولقد نظّمها المرحوم اوتاملال تريفيدي . وكنت قد اطلعت على البرنامج مقدماً . وقد شهد مسر جناح : بوصفه كوجاراتياً : هذه الحفلة . ولست اذكر الآن هل كان رئيساً للاجتماع أم الخطيب الرئيسي فيه . لقد ألقى كلمة موجزة عذبة باللغة الانكليزية . وإذا لم تخشِ الذاكرة فأن معظم الخطب الأخرى كانت في اللغة الانكليزية . حتى إذا جاء دوري في الكلام عبّرت عن شكري باللغة الكوجاراتية ، مبدئاً تعصبي للكوجاراتية والهندسانية ، وعلناً

احتجاجي المتواضع على اصطناع الانكليزية في اجتماع كوجاراتي . وإنما أقدمت على ذلك بعد شيء من التردد ، ذلك لأنني خشيت أن يكون من غير اللائق أن يعمد رجل تعوزه الخبرة ، رجل عائد إلى الوطن بعد هجرة طويلة ، إلى اعلان احتجاجه على بعض الأعراف الراسخة . ولكن أحداً ، في ما يبدو ، لم يسيء فهم اصراري على الاجابة باللغة الكوجاراتية . الواقع اني كنت سعيداً بأن ألاحظ ان كل امريء بدا موافقاً على احتجاجي . وهكذا جرأتني ذلك الاجتماع على التفكير بأنه لا ينبغي ان اجد من العسير عليّ عرض فكرياتي المستحدثة على ابناء وطني . وبعد اقامة قصيرة في بومباي حافلة بهذه الخبرات التمهيدية قصدت إلى بونا ، وكان غوكهايل قد دعاني إليها .

## ٢ . مع غوكهايل في بونا

ما كدت أصل إلى بومباي حتى بعث غوكهايل برسالة إليّ يقول فيها ان الحاكم يودّ أن يراني ، وان من الخير ان ألبّي الدعوة قبل ان اشخص إلى بونا . وهكذا زرت صاحب الفخامة . وبعد الاسئلة المألوفة قال :  
 - « اني أسألك شيئاً واحداً . اودّ أن تنفذ اليّ كلما اعترمت ان تخطو خطوة ذات صلة بالحكومة . »

فأجبت :  
 - « في استطاعتي أن اعدك بذلك ، في كثير من اليسر ، لأن من مبادئي ، كرجل لا عنفيّ ، ان أفهم وجهة نظر الفريق الآخر ، وأن أحاول الاتفاق معه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً . وقد لزمّت هذه القاعدة في جنوب إفريقيا التراماً صارماً ، وإنني أعتزم ان أفعل الشيء نفسه هنا . »

فشكرني اللورد ويلنغدون وقال :



« تستطيع أن تصدّ اليّ ساعة نشاء ، وسوف ترى أن حكومي لا ترغب ،  
عمداً ، في القيام بأيّما عمل ظالم . »  
فأجبت :

« أن ذلك الايمان هو الذي يذود عني اليأس . »

بعد ذلك قصدت إلى بونا . ومن المتعلّر عليّ أن أدوّن هنا جميع ذكريات  
هذه الفترة القيّمة . فقد غمرني غوكهايل وأعضاء « جمعية خدم الخند » بالحبّة  
والحنان . وكان غوكهايل ، على مقدار ما أذكر الآن ، قد دهّاهم  
جميعاً إلى الاجتماع بي . ولقد تحدّث اليهم كلّهم حديثاً صريحاً في  
مختلف الموضوعات .

وكان غوكهايل شديد الحرص على ضرورة انضمامي إلى الجمعية . وكذلك  
كنت أنا . ولكن الاعضاء شعروا بأنه لما كان ثمة فارق كبير بين مثلي العليا  
وطرائقي في العمل وبين مثلهم وطرافهم ، فقد لا يكون من الخير لي أن أنضم  
إلى الجمعية . واعتقد غوكهايل ، بأن في استطاعتي . على الرغم من اصراري  
على مبادئي ، أن اتقبّل مبادئهم . وقال :

« ولكن أعضاء الجمعية لم يفهموا حتّى الآن استعدادك للتفاهم . أنهم  
متشبثون بمبادئهم ، وباستقلالهم الكامل ، واني أرجو أن يرتضوا انضمامك  
اليهم ، أما إذا لم يفعلوا فلا ينبغي أن تظنّ لحظة واحدة أن ذلك يستقص من  
احترامهم أو حبهم لك . أنهم يترددون في القيام بأيّ مخاطرة خشية أن يتعرّض  
احترامهم لك لأيّ خطر . ولكن سواء أأجيز لك أن تنضم رسمياً إلى الجمعية  
أم لا ، فأني سأنظر اليك نظرتي إلى عضو فيها . »

وأحطت غوكهايل علماً بنيتي . فسواء أقبِلْتُ عضواً في الجمعية أم لا ، فأني  
أريد أن يكون لي « أثر » استطيع النزول فيه مع امرأة فونيكس . وأولر  
أن يكون ذلك في كوجارات ، لأنني ، بوصفي كوجاراتياً ، أشعر أنني أحسن ما أكون  
أهلية لخدمة البلاد من طريق خدمة كوجارات . وأعجب غوكهايل بالفكرة .

وقال :

« يتعين عليك أن تفعل ذلك من غير ريب . وإياً ما كانت ثمرة أحاديثك مع الاعضاء فيجب أن تعتمد عليّ في دفع نفقات « الاشرم » الذي سأعتبره أشرمي الخاص . »

وقاض فؤادي بالابتهاج . كان مما يوقع السرور في النفس ان اشعر اني قد تحررت من مهمة جمع الأموال والاعتادات . وان ادرك اني لست مضطراً الى ان ابدأ العمل وحيداً ومن غير مساعد . وان في ميسوري ان اعتمد على مرشد موثوق كلما واجهت مشكلة ما . لقد أراح هذا حملاً ثقيلاً عن عاتقي .

وهكذا دعي المرحوم ديف وطلب إليه أن يفتح لي اعتماداً في دفاتر الجمعية . وأن يقدم اليّ كل ما قد أطلبه من أجل « الاشرم » وللنفقات العامة .

كنت الآن مستعداً للذهاب إلى شانتينيكان . وعشية مغادرتي بونا دعاخوكهايل لتوديعي عدداً من الاصدقاء المختارين . وطلب لنا منعشات من النوع الذي أحب ، أعني فاكهة وجوزاً . وكانت السهرة قد أقيمت على بعد بضع خطوات ليس غير من غرفته ، ومع ذلك فما كانت حاله لتساعده على مغادرة تلك الغرفة والاشتراك في السهرة . ولكن بحبه أشعرته بالنشاط ، فأصر على الذهاب . لقد جاء ، ولكنه أغمي عليه فكان لا بد لنا من اعادته إلى غرفته . ولم يكن هذا لاغماً جديداً عليه ، وهكذا ما ان استعاد وعيه حتى ارسل كلمة قال فيها ان علينا ان نواصل سهرتنا .

وهذه السهرة لم تكن . من غير شك . أكثر من « عادة » اجريت في الساحة المكشوفة المقابلة لبيت الضيافة التابع للجمعية . تطارح فيها الاصدقاء ضرباً من الاحاديث القلية . وتناولوا طرقاتاً من القبول السوداني . والتمر ، وفاكهة الفصل الغضة .

ولكن نوبة الاعضاء قدّر لما ان لا تكون حادثة عادية في حياتي .

## ٣. هل كان تهديداً ؟

ومن بونا ، مضيت إلى راجكوت وبورباندر . حيث كان عليّ ان ألتقي بأرملة أخي وانسأب آخرين .

فقي أيام اللاعنف في جنوب إفريقيا كنت قد غيرت زيي بحيث جعلته أكثر تلاوفاً مع زي انبغال المعاهدين ، وفي انكلترا كنت قد التزمت الزي نفسه داخل جدران البيت . وكنت قد أعددت . للترول في بومباي ، بذلة كانياوادية تتألف من قميص ، ودوطني ، وعباءة ، وقباء مصنوعة كلها من قماش منسوج في الهند . ولكن لما كنت اعترم الغفر من بومباي بالدرجة الثالثة فقد رأيت ان القباء والعباءة فضول لا حاجة اليه ، وهكذا خلعتهما . واشتريت قلنسوة كشميرية يراوح ثمنها ما بين ثمانى آتات وعشر آتات . إن المتزيبى بذلك الزي خليق به ان ينفق رجلاً فقيراً .

وبسبب من الطاعون الذي كان منتشرأ في ذلك العهد ، فأن ركاب الدرجة الثالثة كانوا يُخضعون لفحص طبي في فيرامغام أو وادهوان — لست أذكر الآن . وألت بي حمى طفيفة . وسألني المفتش ، حين وجدني محموراً ، ان أراجع الموظف المسؤول عن الصحة العامة في راجكوت ثم دون اسمي .

ولا ريب في ان امرأاً لست أعرفه كان قد أنفذ نبأ يقول بأنني سوف أمر بوادهوان . ذلك ان الخياط موتيلال ، وهو عامل بارز في حقل الخدمة العامة في تلك المنطقة ، استقباني في المحطة . لقد حدثني عن جمارك فيرامغام ، والشاق التي يتحملها المسافرون في القطار الحديدية بسببها . وكنت قليل الرغبة في الكلام بحكم الحمى ، فحاولت ان اختم الحديث بأجابة موجزة اتخذت شكل سؤال :

« هل أنت مستعد لدخول السجن ؟ »

وكنت أعنبر موتيلال واحداً من اولئك الشبان المتهورين الذين لا يفكرون قبل أن يتكلموا ، ولكن موتيلال لم يكن من هذا الضرب . لقد أجابني في رومة

جازمة : - « نحن مستعدون من غير شك للدخول السجن شرط أن تقودنا أنت . ان لنا ، بوصفتنا أبناء كاثياواد . الحق الاول عليك . ونحن ، طبعاً ، لا نقصد ان نبقى عندنا الآن . ولكن يتعين عليك ان تعمد بأن تعرج علينا في طريق عودتك . سوف 'يهجك ان ترى عمل شبابنا وروحهم ، وفي ميسورك ان تتق بأننا سنستجيب لتدائك حالما تدعونا إلى العمل . »

وأمرني موتيلال . وأطراه رفيقه فقال :

- « ان صديقنا ليس إلا خياطاً . ولكنه قد اتقن صناعته إلى درجة جعلته يكسب ، في يسر ، خمس عشرة روية كل شهر - وهو كل ما يحتاج اليه - من طريق العمل ساعة واحدة ليس غير . لكي يخصص بقية وقته للعمل في حقل الخدمة العامة . انه يقودنا جميعاً ، موقعاً الخجل في تقوسنا نحن المثقفين . »

وانصلت بموتيلال اتصالاً وثيقاً في ما بعد ، ولقد رأيت انه ليس ثمة اجما مبالغة في ذلك الاطراء . لقد جعل من همه ان ينشئ بضعة أيام من كل شهر في « الاشرم » الذي كان جديداً آنذاك . لكي يعلم الغلمان الخياطة ، ولينوم ببعض الخياطة بنفسه في « الاشرم » . كان يحدثنني كل يوم عن فيرامغام . والمشاقي التي يتكبدھا المسافرين والتي أصبح لا يطيقها بحال . ولقد قضى نحب في ريعان الشباب إثر مرض مفاجئ ، فخرست الحياة العامة في وادهوان . بموته . دعامة قوية .

وفي صباح اليوم التالي لوصولي إلى راجكوت راجعت الموظف المسؤول عن الصحة العامة . ولم أكن مجهولاً هناك . ولقد خجل الطبيب لما حدث . وأخذته الحق على المفتش . والحق ان ذلك لم يكن ضرورياً . لأن المفتش لم 'يغير غير واجبه . إنه ما كان يعرفني . وحتى لو كان يعرفني إذن لما كان يتعين عليه ان يفعل غير هذا . وأبى الطبيب ان يعيز لي العودة اليه ثانية . وأصر على ان بيعث إليّ ، بدلاً من ذلك ، بأحد المفتشين .

إن اخضاع ركاب الدرجة الثالثة لتفتيش ، لأغراض الصحة العامة . مسألة أساسية في مثل هذه المناسبات . وإذا اختار كبار الرجزل السفر بالدرجة الثالثة ،

مهما يكن مركزهم في الحياة . فتيبن عليهم ان يدعوا بطوعهم . لجميع  
الانظمة التي ينحصر لها الفقراء . وعلى الموظفين ان يكونوا محابدين غير متحيزين .  
ولقد اظهرت لي تجربتي ان الموظفين . بدلاً من ان ينظروا إلى ركاب الدرجة  
الثالثة كمواطنين . ينظرون اليهم وكأنهم قطيع من الماشية . انهم يتحدثون اليهم  
في ازدراء . ولا يحملون أي جواب أو مناقشة . إن على المسافر بالدرجة الثالثة  
ان ينحصر للموظف وكأنه خادمه . وفي استطاعة هذا الأخير . بما له من حصانة .  
أن يوصعه ضرباً وان يبتز أمواله ، وأن لا يقدم اليه تذكيرته إلا بعد ان ينحصره  
لأعظم ازعاج ممكن . ولو فاته القطار بسبب من هذه المعوقات . كل ذلك رأيته  
بعيني رأسي . ولن يتم لنا اصلاح إلا إذا ارتضى بعض المثقفين والاغنياء وضع  
الفقراء الاجتماعي . عن طيبة خاطر . وسافروا بالدرجة الثالثة . ورفضوا التمتع  
بأسباب الرفه التي يحرم الفقراء منها . وإلا إذا قاتل هؤلاء المثقفون والاغنياء  
لمحو الظلم والمشاق والفظاظات التي يمكن اجتنابها . بدلاً من ان ينظروا إلى ذلك  
كأمر طبيعي لا مفر منه .

وحيثما ذهبت في كاثياواد كنت أسمع الشكاوى عن المصاعب الجمركية في  
فبرامتام . وهكذا قررت أن أفيد ، في الحال ، من عرض اللورد ويلنغتون .  
فجمعت وطانعت كل ما امكنتني الوصول اليه من وثائق متصلة بالموضوع .  
فاقتنعت بأن الشكاوى تقوم على أساس وطيء . واستهلت المراسلة مع حكومة  
بومباي . وقمت بزيارة للسكرتير الخاص للورد ويلنغتون ، كما زرت فخامته  
أيضاً . وقد عبر هذا الأخير لي عن مشاركته الوجدانية ولكنه أنحى باللائمة على  
دلهي : وقال السكرتير :

« لو كان الأمر بيدنا . اذن لرفعنا هذه القيود منذ عهد بعيد . ان عليك  
ان تراجع حكومة الهند في ذلك . »

وانصلت بحكومة الهند ولكنها لم تجبني بأكثر من اشعار بوصول رسالي .  
ولم أوفق إلى رفع هذا الظلم إلا بعد ان قدر لي الاجتماع إلى اللورد تشيلمر فوردي .  
وحين بسطت له الوقائع . عبر عن دهشه . إنه ما كان يعرف شيئاً عن المسألة .

ولقد أصنى لي في كثير من الانتباه . وتلفتني في تلك اللحظة نفسها طالبا الأوراق الخاصة بغير اتمام ، ووعد برفع النطاق المفروض إذا لم يكن لدى السلطات أي تفسير أو دفاع تقدمه . ولم تنقض بضعة أيام على هذه المقابلة حتى قرأت في الصحف ان النطاق الجمركي في غير اتمام قد رفع .

واعتبرت هذه الحادثة استهلالاً لحركة الساتياغراها أو اللاعنث في الهند . ذلك ان السكرتير كان قد عبر . أثناء مقابلي لحكومة بومباي ، عن عدم موافقته على الإشارة إلى الساتياغراها في خطاب كنت قد ألقيناه في باغاسرا (في كاتياواذ) وكان قد سألي قائلاً :

« أليس هذا تهديداً؟ وهل تعتقد أن الحكومات القوية ترضخ للتهديد؟ » وكنت قد أجبت قائلاً :

« لا ، لم يكن ذلك تهديداً . كان تثقيفاً للشعب . ان من واجبي ان أقدم للشعب جميع ضروب العلاج المشروعة لآلامه . والامة الراغبة في النهوض بعين عليها ان تعرف جميع الطرق المؤدية إلى الحرية وأسايلها . وهي عادةً تشمل العنف كعلاج أخير . أما الساتياغراها فهي سلاح لا عنفٍ مثة بالمشة . وأنا أعتبر ان من واجبي أن أوضح طريقة ممارستها وحدودها . وليس يخامرني ريب في أن الحكومة البريطانية حكومة قوية . ولكني لا يخامرني الشك أبصاً في ان الساتياغراها علاج ناجع . »

وهز السكرتير الأريب رأسه وقال :

« سوف نرى . »

#### ٤ . شانتينيكثان

ومن راجكوت . شخضت إلى شانتينيكثان . وغمرني المدرسون والطلاب بفيفس من المودة . وكان احتفاؤهم بي مزاجاً جميلاً من البساطة والهن والحب .

وهناك بالذات التفتيت « كاكاسا صاحب كاليبكار » أول ما التفتيت .  
 ولم أدر آنذاك لماذا أطلق على كاليبكار لقب « كاكاسا صاحب » . ولكنني علمت  
 في ما بعد ان الأستاذ كيشافراو ديشبانده ، الذي كان معاصراً وصديقاً حميماً  
 لي في آنكلترا ، والذي كان يدير مدرسة في ولاية بارودا تدعى « غانغانات  
 فيديالابا » ، قد خلغ على المدرسين أسماء عائلية لكي يضيفي على الـ « فيديالابا »  
 جواً عائلياً . وهكذا أصبح الأستاذ كاليبكار ، الذي كان مدرساً هناك ، يدعى  
 « كاكاسا » ( ومعناها الحرفي : العم ) . وأصبح « فادكه » يدعى « ماماسا »  
 ( ومعناها الحرفي : الخال ) ، وأصبح هاريهار شارما يدعى « آنا » ومعناها  
 الحرفي : الاخ ) . وخلصت على المدرسين الآخرين أيضاً أسماء مشابهة . وانضم  
 الى الاسرة في ما بعد آنانداناند (سوامي) بوصفه صديقاً لـ « كاكاسا » وباتواردهان  
 ( آنا ) بوصفه صديقاً لـ « ماماسا » وكلهم قد أمسوا . مع الايام ، أعواناً لي  
 ومساعدين ، واحداً بعد آخر . وكان الأستاذ ديشبانده نفسه يدعى « صاحب » .  
 وحين قضت الظروف بخل الـ « فيديالابا » تشتت شمل الاسرة ايضاً ، ولكن  
 أفرادها لم يتخلوا قط عن صلتهم الروحية وعن أسائهم المستعارة .

وانطلق كاكاسا صاحب للتعرف الى مؤسسات أخرى ، وانفق ان كان في  
 شانتينيكتان يوم قصدت اليها . وكان تشيتامان شاستري . المتسب الى الأخوية  
 نفسها . هناك ايضاً . لقد كانا يساعدان الطلاب على تعلم اللغة السنسكريتية .

وكانت أسرة فونيكس قد أنزات في حي مستقل في شانتينيكتان . وكان  
 ماغانلال غاندي على رأس الأسرة . وكان قد أخذ على عاتقه مهمة التأكد من  
 ان جميع أفراد الاسرة يلتزمون قواعد « أشرم » فونيكس في كثير من الدقة .  
 ولقد رأيت أنه استطاع . بفضل حبه ومعرفته ومواظبته . ان ينشر غيره العاطر  
 في شانتينيكتان كلها .

وكان آندروز هناك . وكذلك كان بيرسون ايضاً . ومن المدرسين البنغاليين  
 الذين اتصلنا بهم اتصالاً وثيقاً جاغادانانديابو ، ونيانابو ، وصانتوشابو ،  
 وكشيتيموهانابو . وناجينابو ، وشارادابو ، وكاليابو .

وجرياً على عادتي سارعت الى الامتراج بالمدرسين والطلاب . وشغلناهم بمناقشة حول الاعتماد على الذات . واوضحت للمدرسين انهم اذا ما استفنوا هم وطلابهم عن الطهاة المأجورين وقاموا بطهو طعامهم بانفسهم فعندئذ يستطيع المدرسون ان يضبطوا المطبخ من وجهة النظر الخاصة بصحة الطلاب الجسدية والمعنوية . ويقدموا لهؤلاء الطلاب درساً عملياً في الاتكال على النفس . ونزع واحد منهم أو اثنان الى هز رؤوسهم استخفافاً . وأيد بعضهم الفكرة تأييداً قوياً . ورحب بها الطلاب . ولو بسبب من حبههم الغرزي لكل جديد . وهكذا قمنا بالتجربة . وحين دعوت الشاعر الى ابداء رأيه قال انه لا مانع لديه من ذلك شرط ان يوافق المدرسون على الفكرة . والتفت الى الطلاب وقال :

— « ان هذه التجربة تنطوي على مفتاح الحكم الذاتي » .

وشرع بيرسون يُبلي صحته لأنتاج التجربة . لقد اندمج فيها بنجاسة . وشكلت شردمة لتطبيع الخضر ، واخرى لتنظيف الحنطة ، وهكذا . وتولى ناجينيابسو وغيره أمر الاهتمام بتنظيف المطبخ وما حوله تنظيفاً صحيحاً . وكان مما يُبهج نفسي أن أراهم يعملون والمجرفة في أيديهم .

ولكن كان من المغالاة في التناؤل ان يتوقع المرء من المئة والخمسة والعشرين طالباً مع مدرسيهم ان يألّفوا هذا العمل الجسدي كما يألّف البط الماء . كسّانت تدور دائماً مناقشات يومية . وبدأ بعضهم يدي الارهاق . ولكن بيرسون لم يكن ذاك الرجل الذي يتسرب الى فؤاده التعب . فكنت تراه دائماً ، بوجهه الباسم . يقوم بعمل من الاعمال في المطبخ . وكان قد أخذ على عاتقه مهمة تنظيف الآنية الكبرى . وكان فريق من الطلاب بعزف على « السيتار » أمام هذا الفريق المنظف لكي يبدّد الضجر الذي تنطوي عليه هذه العملية . لقد نهضوا كلهم بمهامهم في حاسة بالغة . فأمنت شائيتينكتان شبه بخلية النحل الناشطة . وان المرء لا يكاد يستهل هذه التغيرات حتى تأخذ سيلها الى النمو دائماً . ولم يكن مطبخ جماعة فونيكس مُداراً على هذا النحو الذاتي فحسب . بل ان الطعام المطهو فيه كان من أكثر الاطعمة بساطة . لقد اجتنبت التوابل وكان



الأرز . واث : دال ه . والخضر . وحتى دقيق الحنطة - كانت هذه كلها تُطبخ معاً على طباخ بخاري واحد . وانشأ طلاب شانتينيكان مطبخاً مائلاً رغبة منهم في إصلاح المطبخ البنغالي . ولقد أشرف مدرس أو مدرسان وبعض الطلاب على ادارة هذا المطبخ .

بيد ان التجربة اُطُرحت بعد فترة قصيرة . وانا اعتقد أن المؤسسة الشهيرة لم تخسر شيئاً بالقيام بالتجربة طوال مدة يسيرة . وان بعض الخبرات المكتسبة لا يمكن ان تكون مدمرة للمدرسين .

وكننت قد اعترفت البقاء في شانتينيكان برهة من الزمن : ولكن القدر شاء غير ذلك . فما كدت أقضي هناك أسبوعاً حتى تلقيت من بونا برقية تنعى غوكهايل . وغدر الاسي شانتينيكان . ووفد جميع الاعضاء لتعزيتي . وعُقد اجتماع خاص في هيكل ه الاشرم للتعبير عن مدى الحسارة الوطنية التي أصابت البلاد . كانت حفلة خاشعة . وفي اليوم نفسه قصدت الى بونا مع زوجتي وماغانلال . وبقي الجميع في شانتينيكان .

ورافقتي آندروز حتى بوردوان . وسألني :

- ه هل تعتقد أنه سوف يأتي يوم نلجأ فيه الى اللاعنف في الهند ؟ واذا كان ذلك كذلك ، فهل لديك فكرة عن موعد ذلك ؟  
فأجبته :

- ه من العسير علي أن أحزر ، فأنا لن استطيع القيام بأي عمل طوال عام كامل . ذلك ان غوكهايل قد أدخل علي عهداً بأن اطوف في الهند اكتساباً للخبرة وبأن لا أعبر عن ايما رأي في المسائل العامة الا بعد انقضاء فترة الاختبار هذه . وحتى بعد انقضاء تلك الفترة ، لن أتجمل الكلام وإطلاق الآراء . وهكذا فلت أحسب ان الفرصة ستاح لتطبيق اللاعنف في الهند قبل خمس سنوات أو نحوها .

ويحسن بي أن أنص . في هذا الصدد ، على أن غوكهايل كان يسخر من بعض أفكارني الخاصة بالـ « هند سواراج » (الحكم الذاتي للهند) ويقول :

- وان أرادك سوف تصحح نفسها بنفسها، بعد ان تمضي في المهند سنة كاملة .

### ٥. بلاليا ر كاب الدرجة الثالثة

في بورردوان واجهنا المشاق التي يتعين على راكب الدرجة الثالثة ان يخوض غمراتها حتى من أجل الفوز بذاكرة السفر . لقد قيل لسا « ان تذاكر الدرجة الثالثة لا تُقطع باكراً جداً . » فمضيت الى مدير المحطة . على الرغم من ان ذلك ايضاً كان مهمة عبيرة . وتلطف بعضهم فتقادي اليه ، فبسط له الصعوبة التي واجهتها . فأجابني بالجواب نفسه . وما إن فُتح شباك التذاكر حتى مضيت لأشتري تذكري . ولكن الحصول عليها لم يكن أمراً هيناً . كان الحق للقوة ، فكان بعض المسافرين الوقاح الالامباين بالآخرين يفدون واحداً بعد واحد ويمعدوني عن الشباك . وهكذا كنت ، تقريباً ، آخر من حصل من بين أفراد المهند الأول ، على تذكرة سفر .

ووصل القطار ، فكان الصعود اليه عنة أخرى . كان ثمة تبادل شائهم وتدافع بالايدي بين الركاب الذين امتطوا متن القطار والركاب المحاولين للدخول الى حافلاته .

وفرعنا المحطة ذهاباً وإياباً ولكننا كنا نقع في كل مكان على هذا الجواب : « ليس ههنا متسع . » ومضيت الى الحرس فقال :

- « يجب ان نحاولوا الدخول الى الحافنة حيث تستطيعون ذلك ، وإلا فانظروا القطار التالي . »

فأجبتني في احترام :

- « ولكن لديّ أعمالاً ملحة . »

ولم يكن لديه منق من الوقت للاصغاء الي. واخذتني الحيرة . وقلت : « اغانلال ان يحتمي من انقطاع حيث يستطيع ذلك . ودخلت أنا وزوجتي احدى الحافلات

المشتركة. وورآني الحرس وأنا أدخل. وعند محطة آسانسول أقبل يطلب مني أجراً إضافياً ، فقلت له :

« كان واجبك يقضي عليك بأن توجد لنا متسعاً . نحن لم نستطع ان نوجد موطىء قدم ، ومن أجل ذلك قعدنا هنا . وإذا استطعنا أن نجد مكاناً لنا في احدي حافلات الدرجة الثالثة فسوف يسرنا كثيراً ان ننقل اليها . »  
فقال الحرس :

« لا تجادلني . أنا لا أستطيع أن أجد لك مكاناً . يجب عليك أن تدفع الرسم الاضافي ، أو تخرج من هنا . »

و كنت راجياً في الوصول الى بونا بأية طريقة. وهكذا لم أكن مستعداً للاصطدام بالحرس ، فدفعت اليه الرسم الاضافي الذي طلبه ، أي حتى « بونا » . ولكني اعنيت استكاري لهذا الحيف .

وفي الصباح وصلنا الى موغالساري . وكان ماغانلال قد بحث لنا عن مكان في الدرجة الثالثة حتى اذا نجح في ذلك انتقلنا اليه . وأحطت مفتش القطار علماً بالوقائع كلها ، وسألته أن يقدم اليّ شهادة تؤذن بأنني انتقلت الى حافلة من حافلات الدرجة الثالثة عند محطة موغالساري . ولكنه أبى أن يفعل ذلك . فراجعت سلطات السكة الحديدية طالباً رفع الظلم فجاء جوابها بهذا المعنى :  
« ليس من عادتنا ان نعبد الرسوم الاضافية الى دافعها الا اذا أبرز شهادة ، ولكننا سوف نخرق القاعدة هذه المرة . بيد انه ليس من الممكن ان نعبد اليك الرسم الاضافي من بوردوان الى موغالساري . »

ومنذ ذلك الحين تحت لي خيرات في مسألة السفر بالدرجة الثالثة لو أردت تدوينها ادن لملأت مجلداً . ولكن كل ما أستطيع ان أفعله هو الإشارة اليها بين الفنية والفنية في هذه الفصول . ولقد كان أسفي بالغاً . دائماً . وسوف يظل هكذا أبداً . لاضطرابي الى الافلاع عن السفر بالدرجة الثالثة بسبب من عجزني الصحي .

ان الـبلايا الـتي يعانـيها ركـاب الدرـجة الـثالـثة تـرجع من غـير شك الى اسـتبداد سلـطات السـكة الـحديـدية وجورها . ولـكن فـظاظة الرـكـاب انفسهم وعادائهم القـنـرة وانـانيتهم وجـهـلهم يـجب ان تـكون موضـع اللـوم ايضاً . والمولم انهم كثيرأ ما لا يدركون انهم يتصرفون تصرفاً رديئاً ، أو قذراً ، أو أنانياً . انهم يعتقدون ان كل ما يصنعونه هو طبيعي . وهذا جميعه يمكن رده الى لامبالتنا ، نحن المتنفذين ، بهم .

ووصلنا الى كاليان وقد بلغ منا الاجهاد مبلغاً بعيداً . وأصبْتُ أنا وماغانلال بعض الماء من انبوبة المياه في المحطة ، واغسلنا . وفيما كنت أقوم بالترتيبات الضرورية لتمكين زوجتي من الاغتسال ايضاً . رأني الاستاذ كاول عضو « جمعية خادمي الهند » ، فأقبل عليّ . كان هو الآخر مسافراً الى بونا . واقترح ان يقود زوجتي الى حمام الدرجة الثانية لتغسل فيه . وترددت في قبول هذا العرض الكريم . فقد كنت أعلم ان زوجتي لا حق لها في استخدام حمام الدرجة الثانية . ولكنني تغاضيت عن ذلك . وكنت أعرف ان هذا العمل لا يليق برجل يتعبد للحقيقة . ولا يظن أحد أن زوجتي كانت شديدة الالهفة على استخدام ذلك الحمام ، ولكن عصبية الزوج لزوجته تغلبت هنا على عصبية الحق . ان وجه الحق محجوب خلف قناع الـ « مايا » الـذهبي ، كما يقول أوبانبشاد .

## ٦ . محاولة اقناع

وعند وصولنا الى بونا ألقينا أنفسنا ، بعد أداء طقوس الـ « شرادها » ، مناقش مستقبل الجمعية ، ومسألة ما اذا كان يحلر بي الانضمام اليها أم لا . وقد أظهرت الايام ان مسألة العضوية هذه مسألة دقيقة جداً كان عليّ ان أحسن التأني لها . فبوم كان غوكهايل على قيد الحياة لم يتعين عليّ ان اسعى للانضمام الى الجمعية . كان عليّ ان أنزل عند رغبته ، وهو وضع كنت

أحب أن أجد نفسي فيه . ذلك اني وقد اندفعت في خضم الحياة الهندية العامة العاصف كنت في حاجة الى ريان موثوق . ولقد وجدت ذلك الريان في شخص غوكهايل ، وشعرت بالامان في رعايته . أما الآن . وقد مضى لسبيله . فقد تعين علي أن أتكل على نفسي . وشعرت بان من واجبي ان أقدم طلباً للانضمام . لقد اعتقدت ان هذا الصنيع سوف يرضي روح غوكهايل . وهكذا سارعت في عزم ، ومن غير ما تردد . الى الاتصال بالاعضاء ومحاولة اقناعهم .

وكان معظم أعضاء الجمعية في « بونا » في تلك الفترة . وبدأت أناقشهم في ذلك واحاول تبديد مخاوفهم مني . ولكني رأيت أنهم منقسمون على أنفسهم . كان فريق منهم يؤيد انضمامي . وكان الفريق الآخر يقاوم ذلك أشد المقامة . ولقد عرفت أن أباً من الفريقين لم يذعن للآخر اكراماً لي . فقد كان ولاؤهم للجمعية أعظم ، أو قل انه لم يكن . على الأقل ، دون حبهم لي أو أضعف . وهكذا كانت جميع مناقشاتنا خالية من المرارة ، ومقصورة الى حد بعيد على قضايا المبدأ . لقد ذهب الفريق المعارض الى القول بأنني كنت ولإياهم أشبه بقطبين متناقضين في مختلف القضايا الحيوية ، ولقد شعر أفراد ذلك الفريق بأن عضويتي خليقة بأن تعرض الأغراض الأساسية التي أنشئت الجمعية من أجلها لخطر عظيم . وكان ذلك ، طبعاً . أثقل من أن يطيقوه بحال .

وتفرقنا بعد مناقشات متطاولة ، وقد أرجأنا القرار النهائي الى موعد آخر . وكنت شديد الاحتياج لدن عودتي الى البيت . هل كان من الخير لي أن أقبل بكثرة الاصوات ؟ هل يسجم ذلك مع ولائي لغوكهايل ؟ لقد رأيت في وضوح ان خير ما أصنعه . في مثل هذا الانقسام الحاد بين أعضاء الجمعية في مسألة قبولي ، هو أن أسحب طلبي بالانضمام الى الجمعية . وأتخذ أولئك الذين قاوموني من موقف دقيق . وهنا يكمن : كما اعتقدت ، ولائي للجمعية ، ولغوكهايل . وأومض القرار في ذهني كالبرق . فكنت الى ممتد شاصتري ، في الحال ، أسأله ان لا يعقد الاجتماع المؤجل البتة . وقد المعارضةون لانضمامي هذا

القرار الذي اتخذته أحسن تقدير . لقد أنقذهم من مركز حرج . وشدّهم اليّ بوناق من الصداقة أقوى وأمن . لقد جعلني سحب القلب عضواً في الجمعية حقاً . وقد علمتني التجربة الآن أنني أحسنت صنعاُ بعدم الانضمام . رسمياً . اني الجمعية ، وان معارضة أولئك الذين قاموموني كان لما ما يبررها . وقد أظهرت التجربة ايضاً ان الشقة بين وجهات نظرنا في المسائل المبدئية كانت واضحة جداً . ولكن الاقرار بذلك الاختلاف لم يفسد ما بيننا من ود . ولقد بقينا إخوة . ولقد ظل بيت الجمعية في بونا عجةً لي دائماً .

صحيح اني لم أصبح عضواً رسمياً في الجمعية . ولكني كنت أبداً عضواً في الروح . ان الصلة الروحية أثنى من الصلة الجسدية بكثير . والصلة الجسدية منفصلة عن الصلة الروحية هي أشبه شيء بجسد من غير روح .

## ٧ . كومبها ميلا

ثم اني شخصت الى رانغون لالقي الدكتور مهنا ، وفي طريقي اليها عرّجت على كلكتا . ونزلت ضيفاً على المرحوم بابو بوباندرانات باسو . ولقد بلغست الضيافة البنغالية ، ههنا ، ذروتها . وفي تلك الأيام كان طعامي مقتصرأ على الفاكهة اقتصارأ كاملاً ، حتى لقد حشد لي مضيفي كل ما كان في كلكتا من فاكهة وجوز . كانت سيدات البيت يسهرن الليل بطوله وهن يقشرن ضروب الجوز . ولقد عنين أعظم حناية ممكنة باعداد الفاكهة الغضة على الطريقة الهندية . وأعدت صنوف المأككل الشهية لرفائي ، الذين كان بينهم ولدي رامداس . ويقرر ما استطعت أن أقدر هذه الضيافة الممجة حتى قدرها ، لم أطلق مجرد التفكير بأن أسرة كاملة قد اضطرت الى الانهالك في إمتاع ضيفين أو ثلاثة . ولكني مع ذلك لم أجِد مفرأ من مثل هذه الحفاوة المُربكة .

وفي المركب القاصد الى رانغون ، سافرت على «ظهر السفينة» . واذا كان

الافراط في الحفاوة قد أربكتنا في بيت الاستاذ باسو . فان أغلظ الإهمال ، حتى لأسباب الراحة الأولية التي تمنح لركاب درجة « ظهر السفينة » هذه . كان نصيبنا على متن ذلك المركب . وكان ما اعتُبر بديلاً من الحمام فقرأ الى حد لا يطاق ، وكانت المراحض بوالبع ننته . ولكي يستخدم المراء المرحاض كان يتعين عليه ان يخوض في البول والبراز أو يشب من فوقهما .

وكان ذلك أكثر من ان يحتمله اللحم والدم . وراجعت المسؤول عن المركب ولكن على غير طائل . واذا كان ثمة ما يعوز صورة النتن والقذارة هذه فقد كان المسافرون يقدمونه بعاداتهم الحمقى جاعلين تلك الصورة كاملة . كانوا يبصقون حيث يجلسون ، ويوسخون حولهم بفئات طعامهم ، وبقايا التبغ ونبات البتّل ، ولم يكن ثمة حد للفضة ، ولقد حاول كل امرئ ان يحتكر أكبر حيز ممكن من المركب . كانت أمتعتهم تحتل حيزاً أكبر من ذلك الذي يحتلونه هم . وهكذا كتب علينا ان ننضي محنة ليس أسمى منها ، طوال يومين اثنين .

ولدى وصولي الى رانغون كتبت رسالة الى وكيل شركة البواخر أعرفه فيها بالوقائع كلها . وبفضل هذه الرسالة ، وجهود الدكتور مهتا ، كانت عودتنا - برغم انها تمت على « ظهر السفينة » أيضاً - أقلّ عسراً وأدعى الى الاحتمال . وفي رانغون كان طعمامي المقصور على الفاكهة مصدر ازعاج اضافي ، هذه المرة أيضاً ، لمضيفي . ولكن لما كان بيت الدكتور مهتا مثل بيتي فقد استطعت أن أكبح بعض الشيء من الاسراف في اعداد المآكل . وعلى أية حال فبسبب من أنني لم أعين حداً لعدد الاصناف التي قد آكلها رفضت العيان والفكان أن تضع حداً لضروب المواد الغذائية المعدة . ولم تكن ثمة مواعيد نظامية لوجبات الطعام . وكنت شخصياً ، أؤثر أن أتناول الوجبة الاخيرة قبل هبوط الليل . ومع ذلك فإنها ما كانت تتم قبل الثامنة أو التاسعة .

هذه السنة - ١٩١٥ - كانت سنة مهرجان كومبها ، الذي يقام في هاردلار مرة كل اثني عشر عاماً . ولم أكن ، بأية حال ، راغباً في أن أشهد المهرجان ،

ولكني كنت نواقاً الى الاجتماع بالمهاجرات مونشير ايجي الذي كان في « تكيت » . وكانت جمعية غوكهايل قد وجهت كتية ضخمة من المتطوعة للخدمة فسي كومبها . وكان البانديت هريدياناث كونزرو على رأسهم ، وكان المرحوم الدكتور ديف هو المسؤول عن صحة الكتية . ودُعيت الى ارسال جماعة فونيكس لمساعدتهم . وهكذا كان ماغانلال غاندي قد سبقني الى هناك . وعند عودتي من رانغون التحقت بالجماعة .

وكانت الرحلة من كلكتا الى هاردفار مرهنة على وجه مخصوص . كانت الحافلات خلواً من الاضواء في بعض الأحيان . ومن ساهارانبور حشرنا في عربات مخصصة للبضائع أو الماشية . ولم يكن لهذه العربات سطوح ، فكنسنا سُوى شياً بشمس الظهيرة الملتبة فوق سمت رؤوسنا وبأرض العربات الحديدية للاسعة من تحتنا . وعجزت حرقة الظم ، الناشئة حتى عن رحلة مثل هذه ، عن ن تقنع الهندوس المستقيمين بشرب الماء اذا كان ذلك الماء « إسلامياً » . لقد نظرنا حتى استطاعوا الفوز بماء « هندوسي » . ويحسن بنا هنا التنبيه الى أن نولاء الهندوس انفسهم لا يترددون أو يتساءلون عندما يصف الطيب لهم . في حال المرض . الحمر والمرق ، أو عندما يقدم اليهم الماء صيدلي مسلم أو صراني

وكانت إقامتنا في شانتينيكتان قد علمتنا أن عمل الزبال كان مهمتنا الخاصة ، الهند . والآن كانت خيام المتطوعين في هاردفار قد أقيمت في بيت من بيوت نساك ، وكان الدكتور ديف قد حفر بعض الحفر ليتخذ منها القوم مراحيض . كان قد تمين عليه أن يستخدم زبالين مأجورين للعناية بهذه المراحيض . وهنا كان نال عمل جديد لجماعة فونيكس . لقد عرضنا أن نطمر البراز بالتراب ، وان نولى مهمة التخلص منه . فقبل الدكتور ديف عرضنا بسرور . وكنت أنا قد دمت بهذا العرض طبعاً ، ولكن ماغانلال غاندي هو الذي قام بتنفيذه . كانت مهمتي تلتخص في المحل الأول بالجلوس في الخيمة والسماح للناس لدخول لرؤيتي وإجراء المناقشات الدينية وغيرها مع الحجاج العديدين الذين



زاروني . وهذا الصنيع لم يُتَقَرَّ لي بدقة واحدة أستطيع أن أقول إنها ملكٌ لي . كان أولئك الباحثون عن الـ « دارشان » يلحقون بي الى حمام النهر ، ولم يتركوني وحدي عند تناول الطعام . وهكذا أدركت في هاردفار بالذات أبة انطباعه صيقة تركتها خدماي المتواضعة ينجوب افريقية في أرجاء الهند كلها . ولكن هذا لم يكن وضعاً أحسد عليه . لقد شعرت وكأنني بين الشيطان والبحر البعيد الغور . فحيث لم يكن أحد يعرفني كان عليّ أن أحتمل المشاق التي يواجهها الملايين في حقل السفر بالسكة الحديدية . وحيث كنت عاطلاً باناس سبق ان سمعوا بي كنت ضحية هيامهم الجنوني بالـ « دارشان » . وكنت كثيراً ما أتساءل أي الوضعين أدعى الى الرثاء . ولكنني عرفت على الأقل هذه الواقعة : إن هذا الحب الأعمى لكـ « دارشانقلا » أثار غضبي في كثير من الأحيان ، وأوجع قلبي في أكثر الأحيان . في حين أن السفر على الرغم من مجتنه ومتاعه ، كان منعشاً لي ، ولم يشتر غضبي الا في النادر النادر .

و كنت في تلك الأيام من القوة بحيث أستطيع أن أطوف كثيراً ، وكان من حسن حظي اني لم أكن من الشهرة بحيث يتعذر علي المشي في الأسواق والشوارع من غير أن أحدث كثيراً من المرح . وخلال هذا التطواف قدّر لي أن ألاحظ من ذهول الحجاج ، وريائهم ، واهالمهم وقلارتهم أكثر مما لاحظت من ورعهم وتقواهم . كانت حشود النساك التي هبطت الى هناك تبدو وكأنها وُلدت للاستمتاع بكل ما في الحياة من أشياء طيبة .

هنا رأيت بقرة بخمس قوائم ! وأخذني الدهش ، ولكن العارفين ممن للناس ما لبثوا أن أزالوا عجبني . كانت البقرة المسكينة ذات القوائم الخمس ضحية لجشع الأشرار . لقد علمت أن القائمة الخامسة لم تكن غير قدم احتزّت من عجل حي ، وطُعِمَت بها كتف البقرة ! وقد استغلت ثمرة هذه الوحشية المزدوجة لاستلاب أموال الجهالة . فما من هندوسي الا ويجلبه مشهد بقرة خماسية القوائم ، وما من هندوسي إلا ويبدّد صدقاته على مثل هذه البقرة الأعجوبة .

كان يوم المهرجان قد أظلمنا . لقد تكشف عن يوم مشهود بالنسبة السي .  
فانا لم أذهب الى هاردفار بعاطفة حاج . فلم يسبق لي قط أن اختلفت الى مواطن  
الحج الهامس للتشوى . ولكن المليون والسبعمة الف نسمة الذين قبل إنهم  
احتشدوا هناك لا يمكن ان يكونوا كلهم مرانين أو مجرد متفرجين . ولم يكن  
لدي شك في أن عدداً لا يحصى منهم كان قد ذهب الى هناك كسباً لاثواب  
والهامس لتطهير النفس . ومن العير ، ان لم أقل من المستحيل ، ان يحزر المرء  
الى أي مدى يستطيع هذا النوع من الإيمان ان يسمو بالروح .

وهكذا أنفقت الليل كله مستغرقاً في تفكير عميق . كانت ثمة في ضمرة ذلك  
الرياء نفوس تقيّة . وسوف يكون هؤلاء أبرياء من الأثم أمام خالقهم .  
واذا كانت زبارة هاردفار في ذات نفسها إثمًا فينبغي ان أحتج عليها علناً ،  
وأغادر هاردفار يوم مهرجان كومبها . واذا لم يكن الحج الى هاردفار والسي  
مهرجان كومبها إثمًا فينبغي أن أفرض على نفسي عملاً من أعمال نكران الذات  
تكفيراً عن الظلم السائد هناك وأن أظهر ذاتي . وكان هذا طبعاً جداً بالنسبة  
الي . فحياتي مبنية على قرارات نظامية . وفكرت في العناء غير الضروري الذي  
سببته لمضيفي في كلكتا ورائفون ، أولئك المضيفين الذين أحسنوا وفادتي  
على نحو مسرف جداً . وهكذا قررت ان أحدّد الصنوف التي يتألف منها  
غداي اليومي ، وأن أتناول وقعة طعامي الأخيرة قبل المنيف . فقد كنت مقتنعاً  
بأنني اذا لم أفرض هذه القيود على نفسي فسوف أورث مضيفي ، في المستقبل ،  
إزعاجاً كبيراً ، وسوف أشغلهم بخدمني بدلاً من أن أشغل نفسي بالخدمة .  
وهكذا أخذت على نفسي عهداً بأن لا أتناول ، ما دمت في الهند ، أكثر من  
خمسة من صنوف الطعام كل أربع وعشرين ساعة ، وأن لا آكل بعد هبوط  
الليل أبداً . لقد فكرت أوفى تفكير في المتاعب التي قد أضطر إلى مواجهتها .  
ولكنني أردت أن لا أترك أية ثغرة . فقد تمثلت ما الذي يمكن أن يحدث خلال  
مرض ما ، اذا اعتبرت العلاج من بين الصنوف الخمسة ، ولم أجبر أي استثناء  
لمصلحة صنوف معينة من الغذاء . وأخيراً قررت أن لا أجري أي

استاء منها يكن الداعي الى ذلك .  
ولقد سحقت في ظل هذه النذور ، حتى الآن ، ثلاثة عشر عاماً . لقد  
أخضعتني لامتحان قاسٍ ولكني أستطيع أن أشهد أنها أفادتني كمنجى أيضاً .  
واني لأعتقد أنها أضافت بضع سنوات الى حياتي وأنقذتني من كثير من  
الأمراض .

## ٨ . لاكشمان جولاً

وكان مما أراح نفسي كثيراً أن أصل الى التكية وأنفي بالمهاجماً مونشيرايجي  
ذي الجسم النضخم . ولقد شعرت ، في الحال ، بالمغايرة الرائعة بين هلهو  
التكية وأمنها ، وبين جلبة هاردفار وضجيجها .

وغمرني المهاتما بالحنان . وكان الآخرون بأسباب الكبح اللاني يبالغون في  
الاهتمام بي . وهنا تعرفت لأول مرة الى آتشاريا راماديفجي ، واستطعت أن  
أرى في الحال أي قوة كانت تتمثل فيه . كانت وجهات نظرنا متباينة في  
كثير من المسائل ، ومع ذلك فان تعارفنا ما عظم أن استوى صداقة وثيقة .

ولقد جرت مناقشات طويلة بيني وبين آتشاريا راماديفجي وغيره من  
الاسانذة حول ضرورة ادخال التدريب الصناعي الى التكية . حتى  
إذا حان أوان الرحيل كان من المؤلم جداً لي أن أغادر المكان .

وكنت قد سمعت كثيراً من الاعجاب بالـ لاكشمان جولاً ( وهو جسر  
معلق فوق نهر الغانج ) على مسافة يسيرة من هريشيكيش ، وقد ألح عليّ  
كثير من أصدقائي بأن لا أغادر هاردفار من غير أن أذهب لرؤية ذلك الجسر .  
لقد رغبت في القيام بهذا الحج سيراً على القدمين ، وهكذا فعلت ذلك على  
مرحلتين .

وزادني كثير من النساك في هريشيكيش . وكان أحدهم منجذباً اليّ على  
نحو مخصوص . وكانت جماعة فونيكس هناك ، وكان في وجودهم ما انتزع

من « السوامي » أسئلة كثيرة .

لقد تناقشنا في الدين ، ولقد أدرك اني صادق العاطفة الدينية . لقد رأني حاسر الرأس ، من غير قميص ، وأنا أعود أدراجي من الاغتسال بنهر الغانج . ولقد آله ان لا يرى الـ « شيكها » ( خصلة من الشعر ) على رأسي والخيط المقدس حول عنقي وقال :

« بولمي أن أراك ، وانت الهندوسي المؤمن ، تمضي من غير خيط مقدس وبدون الـ « شيكها » . ان هذين هما رمزا الهندوسية الخارجيان . وعلى كل هندوسي أن يرتديهما . »

إن لتخلصي من هذين الرمزين لقصة " . فعندما كنت غلاماً في العاشرة حدثت الغلمان البراهمانيين الحاملين حزاماً من المفاتيح مشدودة الى خيوطهم المقدسة ، وتمنيت لو أستطيع ان أفعل ذلك . ولم يكن تطويق العنق بالخيط المقدس شائعاً . آنذاك ، بين الأسر « القبشايوة » في كاثياواد . ولكن حركة كانت أنشئت قبيل ذلك لجعل ذلك التقليد إلزامياً في الـ « فارنات » الثلاث الأولى . وكان من نتائج ذلك ان عدداً كبيراً من الفاندين اصطنعوا الخيط المقدس . وكان البراهمي الذي كان اثنان أو ثلاثة منا نحن الغلمان ندرس عليه الـ « رام راكشا » . كان هذا البراهمي قد زودنا بذلك الخيط . وعلى الرغم من أن الايام لم تُتبع لي فرصة الفوز بعزمة من المفاتيح . فقد حصلت على واحدة : ورحت أعبت بها . ولست أذكر الآن ما اذا كنت اقتضت الخيط المقدس . عندما انقطع في ما بعد ، أم لم أفتقده . ولكنني أعرف اني لم ألتبس خيطاً جديداً .

وبعد أن شئت عن الطوق جرت عدة محاولات سمحة القصد . في كل من الهند وجنوب إفريقية . لتطويق عنقي من جديد بالخيط المقدس . ولكن تلك المحاولات أخفقت . فقد كنت أناقش المحاولين قائلاً : اذا كان ابناء الطبقة الدينية الدنيا لا يطقون أعناقهم به فبأي حق تفعل الطبقة الدينية العليا ذلك ؟ ولم أجد أبداً سبب جوهري يجعلني أصطنع شيئاً كان في نظري عرقاً غير ضروري . أنا لم يكن لدي اعتراض على الخيط كخيط . ولكن أسباب تطويق

العتق به كانت تعوزني .

وكان من الطبيعي ، بوصفي فيشافياً ، ان أطوق عتقي بالحلقة المعدنية ، وكانت الـ « شيكها » تعتبر إلزامية في نظر الكبار من أفراد الأسرة . بيد أنني نزعته الـ « شيكها » عشية ذهابي إلى انكلترا ، خشية أن تعرّضني ، حين أكون حاسر الرأس ، لانسخرية ، وخشية أن نجعلني أبدو ، كما فكرت آنذاك ، بربرياً في أعين الانكليز . والواقع ان هذا الاحساس الجبان حدا بي ، في جنوب إفريقيا ، الى حمل ابن عمي تشاغانلال غاندي ، الذي كان يحمل الـ « شيكها » بدافع ديني — أقول حدا بي الى حمل ابن عمي على اطراحها . لقد خشيت ان تعوق عمله الشعبي ، وهكذا جعلته يخلعها ، برغم علمي ان ذلك قد يؤلمه كثيراً .

من أجل ذلك ناقشت « السوامي » ، في هذه المسألة ، في غير تردد أو وجل ، قائلاً :

— « أنا لن أطوق عتقي بالخيط المقدس ، لأنني لا أرى أية ضرورة له ، في حين أجد أن هندوساً لا سبيل إلى احصائهم يستطيعون ان يستنوا عنه ويظلوا برغم ذلك هندوساً . والى هذا فالخيط المقدس ينبغي أن يكون رمز التجسد الروحي ، وأن يُشترط في حمله ان يكون قد قام ، في تبصر وأناة ، بمحاولة في سبيل التحقق بحياة أسمى وأصنى . وأنا أشك في أن يكون في استطاعة الهندوس في الحال التي عليها الهندوسية والهند اليوم ، ان يثبتوا ان لهم الحق في حمل هذا الرمز المشحون بمثل هذا المعنى . وهذا الحق لن يتم للهندوسية إلا بعد أن تظهر نفسها من فكرة اللامساس ، وبعد أن تمحو كل أثر من آثار الامتياز والفضة ، وبعد ان تطرد جمهرة من الشرور والمخادعات الاخرى التي انبثت فيها . من أجل ذلك بنور عقلي على فكرة تطوير العتق بالخيط المقدس : ولكني واتى من ان اقترحك الخاص بالـ « شيكها » جدير بالاعتبار . لقد كنت أصطنعها في عهد سالف ، ثم تخلّيت عنها بدافع من خجل خاطيء . وهكذا اشعر بأن من واجبي ان استأنف تسميتها . سوف أدرس المسألة مع رفاقي . »

ولم يقدّر السوامي موقفه في موضوع الخيط المقدس . فالأبواب نفسها التي كانت تزهديني في حمله بددت في نظره داعية الى التثبت به . وحتى في هذه الايام ، لا يزال موقفه كما كان في هريشيكيش ، أو يكاد . فما دام ثمة اديان مختلفة فإن كلاً منها قد يحتاج الى رمز خارجي مميز . ولكن حين يُحوّل الرمز الى « فتش » أو ضرب من الصنم ، والى أداة لإثبات امتياز ذلك الدين على غيره ، فليس يأت به غير النبذ والاطراح . إن الخيط المقدس لا يبدو لي اليوم وسيلة تسود بالهندوسية الى أعلى . من أجل ذلك أجدني لا آبه له . أما ال « شيكها » ، التي لم اطرحها إلا بدافع من الجبن ، فقد قررت بعد التشاور مع الاصدقاء ان أعاود تنميتها .

ولكن فلنرجع الآن الى لاكشان جولا . لقد فتنتني المشاهد الطبيعية حول هريشيكيش ولاكشان جولا ، وحينت رأسي اجلالاً لاسلافنا وتقديراً لما نمتعوا به من افتتاح ينال الطبيعة ، ومن تبصر في لباس مظاهر الطبيعة الجميلة برّداً من المغزى الديني .

ولكن الطريقة التي كان الناس يستخدمون بها هذه المواطن الجميلة كانت عاجزة عن أن توقع الأمن في نفسي . ففي هريشيكيش ، شأنهم في هاردفار ، كان الناس يوسخون الطرق وصفات الفانج الطاهرة . لأنهم لم يتورعوا حتى عن تدنيس مياه الفانج المقدمة . ولقد آلمني أوجع الألم أن أرى الناس يبولون ويتغوطون في الطرق العامة وعلى ضفاف النهر ، في حين كان في ميورهم أن يذهبوا الى بعيد بعض الشيء عن الاماكن العامة .

ولم يكن لاكشان جولا ، على ما رأيت ، غير جسر حديدي معلق فوق الفانج . ولقد قبل لي إنه كان ثمة في الأصل جسر « جبلي » ممتاز . ولكن أحد المحزين خطر له أن يهدم الجسر العتيق وأن ينشئ بفقّة ضخمة جسراً حديدياً ثم ساء المفاتيح الى الحكومة ! اني لا أستطيع ان أقول شيئاً عن الجسر القديم لأنني لم أراه قط ، ولكن الجسر الحديدي ما كان مناسباً لذلك المقام ؛ كان يشوه جماله . والحق ان تحويل مفاتيح جسر الحاجاج هذا الى الحكومة كان أكثر من

ان أطيعه حتى في تلك الأيام التي كنت موالياً فيها للدولة .  
 وكان «أشرم السماء» الذي ينتهي اليه المرء بعد اجتياز الجسر ، مكاناً حقيراً .  
 إذ لم يكن غير بضعة أكواخ بالية مصنوعة من صفائح حديدية مُجَانَقَتَسَة .  
 وقيل لي ان هذه الاكواخ إنما جعلت لـ « سادا كاسه » (المرشحين أو المرشحين) .  
 ولم يكن يحيا هنالك أحد ، تقريباً ، في تلك الآونة . وكان النازلون في البناء  
 الرئيسي يوقعون في نفس المرء انطباعة غير مستحبة .  
 ولكن خبرات هاردفار اثبتت أنها ، بالنسبة اليّ ، ذات قيمة لا حد لها .  
 اقد ساعدتني مساعدة كبيرة . على ان أقرر أين يحسن بي ان أسكن . وما  
 الذي يتعين عليّ أن أفعله .

## ٩ . انشاء « الاشرم » أو الزاوية

كان حجتي الى مهرجان كومبها هو زيارتي الثانية لـ هاردفار .  
 وأسس أشرم ند « ساتياغراها » أو اللاعنف في اليوم الخامس والعشرين  
 من نوار ( مايو ) عام ١٩١٥ وكان شرادها نانجي يريد مني أن أتخذ من هاردفار  
 مقراً . على حين ان بعض أصدقائي من أبناء كلكتا اقترحوا فيدياناناد هام . وألح  
 آخرون إلحاحاً شديداً على اختيار راجكوت . وحين اتفق ان مروراً بأحمد  
 آباد ألح عليّ كثير من الأصدقاء في الاستمرار هناك . وتطوعوا لتأمين  
 نفقات الأشرم . ولتقديم بيت لنا نتمكن فيه .  
 وكنت نزاعاً الى اختيار أحمد آباد . فقد فكرت . بوصفي كوجاراتياً ،  
 انه سوف يكون في ميسوري أن أؤدي أعظم خدمة للبلاد من طريق اللغسة  
 الكوجاراتية . والى هذا . فلما كانت أحمد آباد مركزاً قديماً للحياكة بالنسول  
 اليدوي . فقد كان من الراجح أن تكون خير حقل لحياء صناعة الفزل  
 اليدوي القروية . وكان ثمة أمل أيضاً بأن اختيار تلك المدينة . بوصفها عاصمة  
 كوجارات . قد يجعل الحصول على المساعدة المالية من ابنائها الميسرين أسير

منه في اياما مكان آخر .

وكان موضوع المنبذين بين الموضوعات التي درست مع أصدقائي الأحمد آباديين طبعاً. لقد أوضحت لهم انني سوف أغتنم أول فرصة لقبول أي مرشح منبذ عضواً في « الأشرم » اذا كان له من الصفات ما يؤهله لذلك .

فقال صديق فيشناني في لحظة الراضي عن نفسه :

« ولكن اين المنبذ الذي يحقق شرطك هذا ؟ »

وأخيراً قررت إنشاء الأشرم في أحمد آباد .

وبقدر ما يتعلق الأمر بمسألة السكنى والطعام كان الاستاذ جيفانلال ديزاي، المحامي في أحمد آباد ، هو الشخصية الرئيسية التي مدت اليّ يد المساعدة . لقد عرض ان يقدم لنا بيته الصغير في كوترشاب ، ولكننا قررنا أن نستأجره استجاراً . وكان أول ما تعين علينا أن نبث فيه هو اسم « الأشرم » . واستشرت الاصدقاء في ذلك . فكان من بين الاسماء المقترحة أسم « سيفاشرام » ( بيت الخدمة ) ، و « نابوفان » ( بيت الصرامة ) . واحببت اسم « سيفاشرام » لولا انعدام التوكيد على طريقة الخدمة . ولقد بدا لي ان الاسم الثاني ( نابوفان ) ينطوي على غرور ، لأنه على الرغم من ان « الصرامة » كانت عزيزة علينا فنحن لم نكن نستطيع ان نفترض أننا قوم صارمون . كانت عقيدتنا التبعّد للحقيقة ، وكانت مهمتنا البحث عن الحقيقة والأصرار على الحقيقة . كنت أريد أن اعرف المهند الى الطريقة التي سبق لي ان جربتّها في جنوب إفريقيا ، وكنت راغباً في أن أختبر مدى امكان تطبيقها في الهند . وهكذا اخترت انا ورفاقي اسم « أشرم ساتياغراها » ( أشرم اللاعنّف ) على اعتبار انه يدل على هدفنا وعلى طريقتنا في الخدمة في وقت معاً .

ومن أجل ادارة « الأشرم » كان لا بد لنا من مجموعة من القواعد والانظمة . وهكذا وضعنا مسودة لهذه المجموعة ودعونا الاصدقاء للتعبير عن آرائهم فيها . ومن بين الآراء الكثيرة التي 'قدّمت لا أزال اذكر الى اليوم ذلك الذي قدمه السير غوروداس بانيرجي . لقد أعجب بالانظمة ولكنه اقترح ان يكون التواضع احدي القواعد التي ينبغي على الأعضاء مراعاتها ، اذ كان يعتقد بأن النشء الجديد يعوزه التواضع على نحو يدعو للرائاء . وعلى الرغم من انني



لاحظت هذه الشابة فقد كنت أخشى ان لا يبقى التواضع تواضعاً لحظة يصبح موضوع نلر من النور . إن المفهوم الصحيح للتواضع هو المحو اللاني . والمحو اللاني هو الـ « موكشا » (الخلاص) ، وإذا كان الخلاص لا يمكن أن يكون ، في ذات نفسه ، قاعدة تُراعى ، فقد تكون ثمة قواعد أخرى يجب أن تراعى من أجل الفوز به . وحين تكون أعمال ملتبس الـ « موكشا » أو أعمال الخادم خلواً من التواضع ونكران الذات فعندئذ لا يكون ثمة توق إلى الـ « موكشا » أو إلى الخدمة . فالخدمة من غير تواضع هي اناية ومباهاة .

وكان في جماعتنا ، آنذاك ، نحو من ثلاثة عشر تاملية . كان خمسة غلمان تاملين قد رافقوني من جنوب افريقية ، وكان سائرهم قد أقبلوا من أرجاء مختلفة من البلاد . أما عدد الجماعة الاجالي فكان حوالى خمسة وعشرين رجلاً وامرأة . على هذا النحو أنشئ الاشرم . كان الاعضاء كلهم يتناولون طعامهم في مطبخ مشترك ، وكانوا جميعاً يناضلون لكي يعيشوا كأسرة واحدة .

## ١٠ . على السندان

ما انقضت بضعة أشهر على انشاء « الاشرم » حتى واجهتنا تجربة نادراً ما توقعناها . لقد تاقبت رسالة من آمريتلال ثاكار هذا مفادها : « إن ثمة أسرة وضعية أمينة من أسر المتبوزين ترغب في الانضمام إلى اشرمكم . فهل تقبلونها ؟ » واستبد بي النقل . فانا لم اتوقع قط ان تسارع أسرة من المتبوزين - أسرة يقدمها اليّ رجل كبير مثل آمريتلال ثاكار - إلى طلب الالتحاق بالاشرم . واطلعت اصدقائي على الرسالة ، فرحبوا بالأمر .

وكتب إلى آمريتلال معبراً عن رغبتنا في قبول الأسرة ، شرط أن يكون جميع أفرادها مستعدين للخضوع لأنظمة الاشرم . كانت الاسرة مؤلفة من دوداهاي ، وزوجته دانبيهن ، وابنتها لاکشي ، وكانت آنذاك طفلة تحبو . وكان دوداهاي مدرساً في بومباي . ووافقوا جميعاً

على الخضوع للأنظمة ، فقبلناهم .

ولكن قبولهم أحدث اضطراباً عند الاصدقاء الذين كانوا يساعدون « الاشرم » . وكانت أولى المصاعب تتصل باستعمال البئر التي كان يسيطر عليها صاحب البيت سيطرة جزئية . فقد اعترض الرجل المسؤول عن رافع المياه قائلاً ان قطرات من دلونا خليقٌ بها ان تلوثه . وهكذا أخذ يشتمنا ويعترض سبيل دوداهاي . وسألت القوم كلهم أن يسكتوا على الاهانة ويواصلوا نزع الماء من البئر ، مهما كلف الأمر . وحين رأى ذلك الرجل أننا لن نردّ على صباه بمثله ، خجل وكفّ عن ازعاجنا .

يبد أن المساعدة المالية انقطعت كلها . ان الصديق الذي كان قد ساءل عن قدرة المنبوذ على اتباع انظمة « الاشرم » لم يتوقع قط أن يفدّ مثل هذا المنبوذ في وقت قريب .

ومع وقف المساعدة المالية انطلقت اشاعات تقول بأن ثمة اقتراحاً بمقاطعتنا اجتماعياً . وكنا مستعدين للملك كله . وكنت قد أنبأت رفاتي بأننا إذا قوطعنا وحرّمنا التسهيلات المألوفة فلن نفادر أحمد آباد . اننا نؤثر في هذه الحال ان نمضي ونترل في حيّ المنبوذين ، ونحيا على ايما شيء قد نجنيه من العمل لليدوي .

وساءت الحال إلى درجة جعلت ماغانلال غاندي يقول لي ذات يوم : « لم يبقَ لدينا أي وفر ، وليس معنا ما نعيش عليه في الشهر القادم . » فأجبت في هدوء :

— « واذن نسوف نمضي إلى حيّ المنبوذين . »

ولم تكن هذه آخر مرة ووجهت فيها بمثل هذه المحنة . وفي جميع هذه الحالات كان الله يبعث اليّ بالعون في اللحظة الأخيرة . فذات صباح ، بعد أيام قليلة من إخطار ماغانلال لي بأفلامنا المالي ، جاء احد الأولاد وقال ان رجلاً يريد ان يراني . وكان ذلك الرجل يتنظر في الخارج في سيارة . فمضيت إليه فقال لي :

— « أريد ان اقدم إلى الاشرم بعض المساعدة . هل تقبلها مني ؟ »

فقلت :

— « بكل تأكيد . وأنا أعترف اني في هذه اللحظة على شفير الافلاس . »

فقال :

— « سوف اجيء غداً في مثل هذا الوقت . هل ستكون هنا ؟ »

فقلت :

— « نعم » .

وودعني الرجل . وفي اليوم التالي تقدمت السيارة نحونا . وقرع  
« الزمور » . وحمل الغلمان النبا إلى . ولم يدخل « الشيت » . فخرجت  
للقائه . فوضع في يدي أوراقاً مالية تبلغ قيمتها ثلاثة عشر الف روبية .  
ثم انطلق بسيارته .

أنا لم أتوقع هذه المساعدة قط . وكم كانت طريقة إسدائها جديدة ! فالرجل  
لم يسبق له ان زار « الاشرم » قط من قبل ، ولم أكن قد لقيته — إذا لم نخشي  
الذاكرة — إلا مرة واحدة . لا زيارة ، لا أسئلة . ولكن مجرد تقديم للمساعدة  
ووداع عاجل ! كانت هذه خيرة فريدة بالنسبة إلي . ولقد أرجأت المساعدة  
فكرة الخروج إلى حيّ المنبوذين . واستشعرنا السلامة ، عندئذ ، طوال عام .  
وكما هبت في الخارج عاصفة ، كذلك هبت عاصفة في « الاشرم » نفسه . فعلى  
الرغم من ان بعض الاصدقاء من المنبوذين كانوا في جنوب افريقية يفدون إلى بيتي  
ويستقون ويأكلون معي فإن زوجتي وغيرها من النساء لم يستغفن كثيراً قبول  
الاصدقاء المنبوذين في « الاشرم » . وكان في ميسور عيني . واذني أن تلحظ  
لا مبالاهن بـ « دانيهن » إن لم أقل بغضهن لها . ولم تكن الضائقة المالية قد  
أورثني أيما قلق . ولكن هذه العاصفة الداخلية كانت أعنى من أن أحتملها .  
كانت دانيهن امرأة عادية . وكان دوداها ي رجلًا ضئيل الثقافة ولكنه حسن  
الفهم . ولقد أعجبت بما كان يتحلى به من أناة وصبر . كان في بعض الأحيان  
بشيط غضباً . ولكنني كنت شديد الإعجاب : على العموم ، بحلمه . وتوسلت

اليه ان يتلع الاهانات الثانوية . فلم يكف بالموافقة على ذلك فحسب . بل لقد أقنع زوجته بأن تملك هذا الملك أيضاً .

لقد أثبت قبول هذه الأسرة أنه درس قيم للأشرم . فقد أعلن . منذ البدء ، ان الأشرم لن يعترف باللاماسية . وهكذا كان في إمكان الراغبين في مساعدة « الأشرم » أن يأخذوا حذرهم . وبسط عمل « الأشرم » في هذا الاتجاه بسيطاً كبيراً . وإذا عرفنا ان معظم الذين نهضوا بأعباء نفقات « الأشرم » المتضخمة يوماً بعد يوم كانوا من الهندوس المستيمين حقاً أدركنا أن اللاماسية قد زعزت من أساسها . إن ثمة ، في الحق ، براهين كثيرة أخرى على هذا النحو ، ولكن عدم تخرج الهندوس الصالحين من اسداء المساعدة إلى « أشرم » يقبل المنبوذين ويتناول رجاله الطعام معهم . ليس برهاناً ضئيل الشأن .

لني آسف لاضطراري إلى إغفال النصّ على عدد من الأشياء المتصلة بهذا الموضوع : كيف عالجتنا مسائل دقيقة ناشئة عن المسألة الرئيسية ، وكيف كان علينا أن نتغلب على بعض العقبات غير المتوقعة . وأشياء أخرى مختلفة وثيقة الاتصال بوصف تجاربي مع الحقيقة . والواقع اني سأضطر إلى أن أفعل الشيء نفسه في الفصول التالية أيضاً . سوف يتعين عليّ أن أهمل بعض التفاصيل الهامة ، لأن معظم شخوص الدراما لا يزالون على قيد الحياة ، وليس من اللائق ان استخدم أسماءهم - من غير إذن - في معرض الكلام على أحداث كانت لهم بها صلة . ومن غير الممكن ، عملياً ، الفوز بموافقتهم أو إطلاعهم بين الفينة والفينة على الفصول المتصلة بهم لكي يراجعوها ويتقحوها . وإلى هذا ، فمثل هذا الاجراء خارج عن نطاق هذه السيرة الذاتية . ومن أجل ذلك يترامى لي اني سوف أضطر إلى الإيجاز والحذف في سرد بقية هذه القصة على الرغم من عظيم قيمتها بالنسبة إلى الباحثين عن الحقيقة . ومع ذلك ، فكلامي أمل ورغبة ، إذا شاء الله لي ذلك ، في أن أصل بهذه القصة إلى أيام اللاتعاون .

## ١١ . إلغاء هجرة العمال المعاهدين

سوف نترك الكلام ، مؤقتاً ، على « الأشرم » ، الذي كان لا بد من تعرضه في بادئ الأمر لمواصف داخلية وخارجية ، وننتقل إلى الكلام في إيحاء على مسألة استأثرت باهتمامي البالغ .

كان العمال المعاهدون هم أولئك الذين سبق لهم أن هجروا من الهند لتعمل بعبود يبلغ أجل كل منها خمس سنوات أو أقل . ووفقاً لثبوت سمطس-غاندي عام ١٩١٤ ألغى رسم الثلاثة جنينيات المفروض على العمال المعاهدين المهاجرين إلى نائال ، ولكن الهجرة من الهند كانت لا تزال في حاجة إلى معالجة

وفي آذار ، ١٩١٦ ، قدم البانديت مادان موهان مالافياجي مشروع قرار إلى المجلس التشريعي الإمبراطوري لإلغاء نظام التعاقد هذا فأعلن اللورد هاردينج أنه « تلقى من حكومة جلالة وعداً بإلغاء هذا النظام في وقت قريب . » ولكنني شعرت بأن الهند لا تستطيع أن تكفي بتوكيد غامض إلى هذا الحد ، وإن عليها أن تنشط للعمل من أجل الإلغاء العاجل . كانت الهند قد غضت الطرف عن ذلك النظام بدافع من الأهمال الخالص ، ولقد اعتقدت بأن الألوان قد حان لكي يعمل الشعب ، بنجاح ، على رفع هذا الظلم . واجتمعت إلى بعض الزعماء ، ونشرت المقالات في الصحف ، ورأيت أن الرأي العام يؤيد الإلغاء العاجل تأييداً قوياً . فهل تكون هذه المسألة موضوعاً ملائماً للاعتف ؟ لم يكن لدي ريب في ذلك ، ولكنني ما كنت أعرف طريقة العمل .

وفي غضون ذلك كشف نائب الملك عن معنى « الإلغاء الممكن » الذي كان ، كما قال ، الغاء « ضمن ذلك الوقت المعقول الذي يسمح بأدخال بعض الترتيبات البديلة . »

وهكذا طلب البانديت مالافياجي ، في شباط ( فبراير ) ١٩١٧ ، أن « يُسمح له بتقديم مشروع قانون لإلغاء النظام في الحال . ولكن اللورد

تشيلمز فوررد رفض ان يأذن له بذلك . كان الوقت قد حان لقيامي بجولة في البلاد لتحريك الشعب في أرجاء الهند كلها .

وقبل أن أشرع في استنفار الشعب رأيت من المناسب ان أقابل نائب الملك . وهكذا طلبت هذه المقابلة ، فسُمح لي بها في الحال . وكان مسر ماني ، السير جون ماني اليوم ، سكرتيره الخاص . فانصلت به اتصالاً وثيقاً . وأجريت حديثاً مريضاً مع النوردد تشيلمز فوررد الذي وعد ، من غير تحديد أو جزم ، بأن يساعد على تحقيق مطلبي .

وبدأتُ جولتي من بومباي . ونزل مسر جيهانجير بيتيت الدعوة إلى عقد اجتماع برعاية « جمعية المواطنة الامبراطورية » . واتصلت اللجنة للتنفيذ لاجمعية بي ، أولاً ، لوضع مشاريع القرارات التي ستعرض على المجتمعين . وشهد جلسة اللجنة هذه : الدكتور ستانلي ريد ، والاستاذ (السير اليوم) لالوبهاي سامالداس ، والاستاذ ناتاراجان ومسر بيتيت . وتركز النقاش حول تعيين المدة التي ينبغي لنا أن نطلب إلى الحكومة الغاء النظام خلالها . وقدِّمتُ اقتراحات ثلاثة : اقتراح بالالغاء « في أسرع وقت ممكن » ، واقتراح بالالغاء « في خلال فترة أقصاها اليوم الحادي والثلاثون من تموز - يوليو » ، واقتراح بـ « الالغاء المباشر القوي » . وكان من رأيي أن نحدد موعداً معيناً ، لأن ذلك يُتيح لنا ان نقرر ، بعد ذلك ، ما الذي ينبغي علينا ان نفعله إذا أحجمت الحكومة عن التزول عند طلبنا خلال المهلة المضروبة . أما الاستاذ لالوبهاي فنأدى بالالغاء « المباشر » . لقد قال إن لفظة « المباشر » تشير إلى فترة أقصر من فترة ٣١ تموز . فأوضحت ان الناس لن يفهموا لفظة « المباشر » هذه . فإذا أردنا أن نحملهم على صنع شيء فيجب ان تقدم اليهم كلمة أشد وضوحاً وتحديداً . إن كل امريء قد يفسر لفظة « المباشر » على طريقته - الحكومة سوف تفسرها على صورة ، والشعب سوف يفسرها على صورة . ولكن احداً لن يسيء فهم « اليوم الحادي والثلاثين من تموز » ، وإذا لم يُشغَل شيء حتى ذلك التاريخ فسيكون في امكاننا ان نضمد إلى أبعد . وأدرك الدكتور ريد قوة الحجة ، وأقرني الاستاذ لالوبهاي على رأيي ، آخر الأمر ، أيضاً . وتبيننا الحادي

والثلاثين من تموز ( يوليو ) بوصفه آخر موعد يتعين اعلان الالفاء فيه ،  
واتخذنا قراراً بهذا المعنى في الاجتماع العام ، وكذلك فعلت اجتماعات أخرى في  
طول الهند وعرضها .

وأفرغت السيدة جايجي بيتت كل طاقتها في تنظيم وفد من السيدات يقابل  
نائب الملك . ومن بين سيدات بومباي اللواتي تألف الوفد منهن . لا أزال اذكر  
إلى اليوم اسم السيدة تانا ، والمرحومة السيدة دبلشاد بيغام . وكان لوفد أثره  
العظيم . فقد أعطى نائب الملك جواباً مشجعاً .

وزرت كراتشي ، وكلكتا ، وأماكن أخرى مختلفة . وعقدت اجتماعات  
رائعة في كل مكان ، وغمرت البلاد حماسة لا حد لها . ولم أكن قد توقعت شيئاً  
مثل هذا عندما أطلقت حملة الاثارة .

في تلك الايام كان من دأبي ان أسافر وحيداً ، وهكذا تمت لي خبرات  
رائعة . وكان رجال دائرة التحقيقات الجنائية يتبعون خطاي دائماً . وإذا لم  
يكن لدي ما أخفيه فأنهم لم يتحرشوا بي . كما اني لم أورشهم ايما ازعاج . ومن  
حسن الطالع اني لم أكن قد تلقيت بعد لقب المهاتما ، على الرغم من ان الحثاف  
بذلك الاسم كان مألوفاً جداً في حيثما كان الناس يعرفوني .

وفي إحدى المناسبات ازعجني رجال التحري في محطات متعددة . وسألوا  
عن تذكرة سفري ودونوا رقمها . وأجبت بطيب خاطر . طبعاً ، عن جميع  
الاسئلة التي وجهوها اليّ . وكان المسافرون على القطار نفسه قد حسبوني ناسكاً  
أو فقيراً . وحين رأوا ان رجال التحري يتحرشون بي عند كل محطة استبد بهم  
السخط وراحوا يشتمون اولئك الرجال . لقد احتجوا قائلين : « لماذا تزعجون  
هنا الناسك المسكين لغير سبب ؟ » ثم وجهوا إليّ الخطاب : « لا تبرز  
تذكرتك لمولاء الأوغاد . »

وقلت لهم في رفق :

— « ليس إطلاعي اياهم على تذكرتي امراً مزعجاً . إنهم يقومون بواجبهم . »  
ولكن المسافرين لم يقيموا بهذا الكلام . لقد أظهروا عطفهم عليّ أكثر

فأكثر ، واعترضوا في قوة على هذا الضرب من الاساءة إلى الرجال  
الابرياء .

بيد أن ازعاج رجال التحري لم يكن شيئاً مذكوراً . كان الازعاج الحقيقي  
هو لإزعاج السفر في الدرجة الثالثة . وكانت تجربتي الأكثر مرارة في المرحلة  
ما بين لاهور ودلهي . وكنت متجهاً من كراتشي إلى كلكتا من طريق لاهور  
حيث كان عليّ أن استبدل قطاراً بآخر . وتعلمت عليّ أن اجد مكاناً في القطار .  
كان غاصاً بالركاب ، وكان اولئك الذين تمكنوا من اندخول إلى الحافلات قد  
فعلوا ذلك بالقوة البدنية ليس غير ، وكثيراً ما كانوا يتسللون عبر النوافذ إذا  
ما وجلوا الأبواب موصدة . وكان عليّ أن أصل إلى كلكتا في اليوم المحدد  
للاجتماع ، وإذا ما فاتني هذا القطار فلن يكون في ميسوري أن أصل في الموعد  
المضروب . وكنت على وشك أن أفزع الرجاء من الفوز بمكان في إحدى  
الحافلات ، بعد أن رفض الناس كلهم قبولي ، عندما اكتشف أحد الحمالين  
ورطبي فاقرب نحوي وقال : « اعطني اثني عشرة آنة أضمن لك مقعداً . »  
فقلت : « أجل سوف أعطيك اثني عشرة آنة إذا وجدت لي مقعداً . »  
وانطلق الشاب من عربة إلى عربة يتوسل إلى الركاب ، ولكن أحداً لم يكثر  
به . وبينما كان القطار على أهبة الانطلاق قال بعض الركاب : « لا يوجد مكان  
هنا . ولكن في استطاعتك أن تدفعه إلى هنا إذا شئت . سوف يتعين عليه أن  
يقف . » فسألني الحمال الشاب : « ما رأيك ؟ » فوافقت في الحال . فما كان  
منه إلا أن دفعني عبر النافذة دفعاً . وهكذا انتهيت إلى داخل الحافنة ، وكب  
الحمال آتاته الاثني عشرة .

وكان الليل محنة قاسية . كان الركاب الآخرون جالسين على نحو ما .  
فوقفت أنا على قدمي ساعتين ، ممكاً بسلسلة المانعة المثبتة في أعلى الجدار .  
وفي غضون ذلك كان بعض المسافرين لا يفتأ يزعجني على نحو موصول ، فهم  
يسألوني : « لماذا لا تجلس ؟ » وحاولت أن أفهمهم أنه ليس ثمة مكان ، ولكنهم  
لم يستطيعوا الصبر على وقوفي ، على الرغم من أنهم كانوا متعدين على طولهم



في النامات المثبتة في أعلى الجدار . ولم يملؤوا من ازعاجي ، ولم أملّ أنا من  
الاجابة عن اسئلتهم في لطف . وهذا هم ذلك ، آخر الأمر . وسألني بعضهم  
ما اسمي ، حتى إذا عرفوا خجلوا من أنفسهم . لقد اعتنروا وأفسحوا لسي  
فجلت . وهكذا نال اعتبر مكافأته . كنت بعيداً حتى الموت ، وكان  
الدوار يعصف برأسي . لقد بعث الله اليّ بالنجدة حين كنت في أمسّ  
الحاجة إليها .

وعلى هذا النحو وصلت إلى دلهي ، ومن ثم إلى كلكتا . وكان بهراجا  
قاسمبازار ، رئيس اجتماع كلكتا ، هو مضيفي . وكما في كراتشي ، كانت  
هنا حماسة لا حد لها . ولقد شهد الاجتماع كثير من الانكليز .

وقبل الحادي والثلاثين من تموز ( يوليو ) أعلنت الحكومة ان درجة العمال  
المعاهدين من الهند قد أوقفت . لقد سوّدت في عام ١٨٩٤ أول احتجاج على  
هذا النظام . وكنت قد رجوت آنذاك ان يأتي يوم يوضع فيه حد لـ « نصف  
العبودية » هذه ، كما كان السير و . و . هانتر يدعو ذلك النظام .

لقد أسهم كثيرون في حملة الاثارة التي استُهلّت عام ١٨٩٤ ولكنني لا  
أستطيع إلا أن أقول إن حركة اللاعنّف ، التي عملت آنذاك بالقوة لا بانفعل ،  
هي التي سجلت في القضاء على ذلك البلاء .

ومن أجل الاطلاع على المزيد من تفاصيل تلك الحملة والذين شاركوا فيها  
أحيل القارئ إلى كتابي : « حركة اللاعنّف في جنوب افريقية » .

## ١٢ . وصمة النيلة

إن تشامباران هي بلاد الملك جاناكا . وكما تزدهر فيها بساكن المانغو كذلك  
كانت حتى سنة ١٩١٧ مشهورة بزراعة نبات النيلج الذي يستخرج منه الصمغ  
المعروف بالنيلة . وكان الفلاح ملزماً ، بحكم القانون ، ان يزرع ثلاثة من كل

عشرين جزءاً من أرضه بنبات التبليج لحساب سيده . وكان هذا النظام معروفاً بنظام الـ «تينكاتيا» tinkathia ، لأن ثلاث «كانات» من أصل عشرين (وهي تشكل أكرأ واحداً) كان ينبغي أن تُزْرَعَ نيلجاً .

ويجب أن أعترف بأنني ما كنت أعرف ، آنذاك ، حتى اسم تشامباران ، بلثة موقعها الجغرافي ، ولم تكن لدي أيما فكرة ، تقريباً ، عن مزارع التبليج . كنت قد رأيت رُزْماً من النيلة ، ولكنني ما كنت أحلم بأنها تُزْرَع وتُصْنَع في تشامباران مسببةً مشاقّ كبيرة لآلاف المزارعين .

وكان راجكومار شوكلا واحداً من المزارعين الذين عانوا هذا البلاء ، وقد كان مقعم النفس بالرغبة في محو لطفة النيلة عن الآلاف الذين قاسوا الأمرين منها ، كما قاسى هو .

وأمسك هذا الرجل بتلاييسي في لوكتاو، وكنت قد قصدت إليها للاشتراك في مؤتمر عام ١٩١٦ ، وقال : «ان الوكيل (المحامي) بابو سوف يخبرك بكل شيء عن محتنا وشقاتنا .» وحسني على الذهاب إلى تشامباران . ولم يكن «الوكيل بابو» غير بابو براجكيشور براساد الذي أمسى رفيقاً محترماً من رفاقي في العمل في تشامباران ، والذي يُعتَبَر روح الخدمة العامة في بيهار . وجاء به راجكومار شوكلا إلى خيمتي . كان يرتدي «آتشكان» من صوف البكّة الأسود وبظلوناً . وعجز براجكيشور ، آنذاك ، عن أن يخلّف انثراً حميداً في نفسي . لقد خيل لي أنّني مجرد «زكيل» يستغل المزارعين البسطاء . حتى إذا سمعت منه شيئاً عن تشامباران أجبته جرياً على مألوف عاداتي : «لا أستطيع أن أعطي رأياً من غير أن أرى الوضع بعيني رأسي . ورجائي اليك أن تقدّم مشروع القرار إلى المؤتمر ، ولكن دعني حراً في الوقت الحاضر .» وكان راجكومار شوكلا محتاجاً طبعاً إلى بعض المساعدة من المؤتمر . وعرض بابو براجكيشور براساد مشروع القرار على المؤتمر - وهو يعتبر عن المشاركة الوجدانية لشب تشامباران - فوُفّق عليه بالاجماع .

وسرّ راجكومار شوكلا ، ولكنه لم يكتف بهذا الفوز . لقد أراد أن أقوم أنا بزيارة إلى تشامباران وأشهد بنفسه بؤس الفلاحين . فقلت له إنني سوف أدخل تشامباران في برنامج الجولة التي اعترمت القيام بها ، وسأقضي فيها يوماً أو يومين . فقال :

« إن يوماً واحداً يكفي ، وسوف ترى الأشياء بعينك الاثنتين . »  
ومن لو كناو قصدت إلى كاونبور . ولحق بي راجكومار شوكلا إلى هناك ، وألح عليّ قائلاً :

« تشامباران قرية جداً من هنا . أرجوك أن تخصص لها يوماً واحداً . »  
فأجبت آخذاً على نفسي عهداً جديداً :  
« أتوسل إليك ان تمنرني هذه المرة . ولكني أعدك بأن أذهب في المستقبل . »

ورجعت إلى « الاشرم » . فإذا براجكومار « الموجود في كل مكان » قد سبقني إلى هناك . ولقد قال لي : « أرجوك ان تحدّد الموعد الآن . » فقلت :  
« حسناً ، يجب أن أكون في كلكتا يوم كذا ، فتعال واجتمع بي عندئذ .  
وخذني من هناك . » أنا لم أكن أعلم إلى أين ينبغي أن أذهب ، وما الذي يجب ان أفعله ، وأي شيء يتعين عليّ أن أراه .

وقبل أن أصل إلى منزل بهوبن بابو في كلكتا ، كان راجكومار شوكلا قد قصد إلى تلك المدينة ونزل فيها . وهكذا استطاع هذا المزارع الجاهل ، البسيط ، ولكن العزوم ، أن يتسرّع إعجابي .

وعلى هذا النحو غادرنا كلكتا ، في أوائل ١٩١٧ ، إلى تشامباران ، وقد بدّونا وكأننا فلاحان . كنت لا أعرف حتى انقطاع نفسه . فقادني إليه ، وارحلنا معاً . فوصلنا إلى « باتنا » في الصباح .

كانت هذه أول زيارة أقوم بها إلى « باتنا » . لم يكن لي صديق أو أحد من المعارف أستطيع ان انزل ضيفاً عليه . وخطر لي ان راجكومار شوكلا ، على

الرغم من أنه مزارع بسيط ، لا بد ان يكون له نفوذ ما في باتنا . وكنت قد أخذت أفهمه ، أكثر قليلاً ، خلال الرحلة ، حتى إذا انتهينا إلى « باتنا » كانت قد تمت لي معرفة كاملة به . كان جاهلاً بكل شيء جهلاً تاماً . وكان « الوكلاء » ( المحامون ) الذين زعم أنهم اصدقاؤه أبعد الناس عن هذا الوصف . قالوا قاع أن راجكومار المسكين لم يكن إلى حد ما غير خادم لهم . وبين مثل هؤلاء الموكلين الزراعيين وعاميتهم يقوم برزخ عريض كنهز الغانج حين يفيض ونجيش غواربه .

وقادني راجكومار شوكلاتا إلى بيت راجندرا بابو في « باتنا » . وكان راجندرا بابو قد ذهب إلى « بوري » أو إلى مكان آخر ، فلم أعد أذكر ذلك الآن . وكان في المنزل خادم أو خادمان لم يلتقيا انينا بالا . وكان معي شيء آكله . وكنت أريد شيئاً من التمر ، فجاءني به رفيقي من السوق .

وكانت في بيهار لاساسية صارمة . لم يكن في امكاني ان امتنع الماء من البئر بينا يستقي الخدم منها ، خشية ان تلوثهم بعض القطرات من دنوي ، لأن الخدم ما كانوا يعرفون إلى أي طبقة اجتماعية أنتمي . وقادني راجكومار إلى المرحاض الداخلي ، ولكن الخادم اسرع وقادني الى المرحاض الخارجي . ولم يدهشني ذلك كله أو يثرني ، فقد كنت ممنوعاً مثل هذه الأشياء . إن الخدم كانوا يقومون بالواجب الذي حسبوا ان راجندرا بابو يريد منهم القيام به .

هذه الخبرات المسلية زادت في احترامي لراجكومار شوكلاتا ، على الرغم من انها مكنتني أيضاً من ان اعرفه معرفة أفضل . فند رأيت الآن ان راجكومار شوكلاتا لا يستطيع ان يوجهني : وأن عليّ ان امسك بأزمته الامر بشيء .

### ١٣ . البيهاري اللطيف

لقد عرفت مولانا مظهر الحق في لندن عندما كان يدرس الحقوق . وحين لقيت في مؤتمر بومباي عام ١٩١٥ - وهو العام ان الذي كان فيه رئيساً للعصبة الإسلامية - جدد معرفتي به ودعاني إلى النزول ضيفاً عليه في أيما وقت ينشئ لي ان أذهب

خلاله إلى « باتنا » . وتذكرت دعوته هذه فبعثت إليه برسالة أشرت فيها إلى الغرض من زيارتي . فوجدتني ، على التو ، في سيارته وألح عليّ بأن أقبل ضيفاته . فشكرته ، وسألته أن يقودني إلى طيبتني بأول قطار حديدي ، باعتبار أن دليل السكة الحديدية لا غناء فيه لغريب مثلي . وتحدثت مع راجكومار شوكلّا ، واقترح عليّ أن أذهب أولاً إلى مظفرپور . كان ثمة قطار يقلي إلى ذلك المكان في الليلة نفسها ، ونقد وجهني إلى هناك على متن هذا القطار .

كان الرئيس كريبالاني في مظفرپور آنذاك . وكنت قد سمعت عنه منذ رحلتي إلى حيدر آباد . وكان الدكتور تشويرام قد حدثني عن تضحياته الكثيرة وعن حياته البسيطة ، وعن « الاشرم » الذي كان الدكتور تشويرام يديره بالاعتناءات المالية التي رصدها البروفسور كريبالاني لهذا الغرض . كان اسناداً في كلية الحكومة الرسمية في مظفرپور ، وكان قد استقال من وظيفته قبيل ذهابي إلى هناك . وكنت قد أبرقت إليه أحيطه علماً بوصولي ، فاستقبلني على المحطة مع حشد من الطلاب ، على الرغم من أن القطار انتهى إلى ذلك الموطن عند منتصف الليل . ولم يكن له بيت خاص به ، وكان يسكن مع البروفسور مالكانني الذي أصبح هو مضيفي عملياً . وكان امرأ استثنائياً ، في تلك الايام ، أن يؤوي اساذ رسمي رجلاً مثلي .

وحدثني البروفسور كريبالاني عن حالة بيهار اليائسة ، وبخاصة في مقاطعة تيرهوت ، وأعطاني فكرة عن المصاعب التي تعترض مهمتي . كان قد احتكّ بالبيهارين احتكاكاً وثيقاً وحدثهم عن الرسالة التي قادتني إلى بيهار . وفي الصباح زارني نفر من المحامين . ولا أزال أذكر منهم رامناغمي براساد ، فقد راقني اندفاعه وحماسه بصفة خاصة . لقد قال لي :

« لن يكون في ميسورك أن تقوم بالمهمة التي جئت من أجلها إذا بقيت هنا ( يقصد في بيت البروفسور مالكانني ) . ينبغي أن نجيء وتقيم مع واحد منا . ان غايا بابو عام مشهور هنا . ولقد أقبلت باسمه لأدعوك إلى التزول ضيفاً عليه . أنا أعترف بأننا كنّا خائفون من الحكومة ، ولكننا سوف نُسدي كل ما نستطيع

من عون . ان الاشياء التي أنبأك بها راجكوماً صحيحة في معظمها . ومن المؤسف ان زعيمنا ليسا هنا اليوم . بيد أنني أبرقت إليهما كليهما ، إلى بابو بر اجيشكور براساد وإلى بابو راجندرا براساد . واني أتوقع أن يصلا عما قريب ، ولا ريب في أنها قادران على اعطائك جميع المعلومات التي تحتاج إليها ، وعلى مساعدتك مساعدة كبيرة . أتوسل إليك ان تنتقل إلى منزل غايا بابو . »

وكان هذا طلباً لا أستطيع معارضته ، على الرغم من أنني ترددت في ذلك خشية توريط غايا بابو أو إرباكه . ولكنه طأنني ، وهكذا مضيت لنزول ضيفاً عليه . لقد أمطرني هو ورهطه بوابل من محبتهم .

ثم إن راجكيشور بابو قفل راجعاً من دار بهانغا ، في حين رجع راجندر بابو من « بوري » . وكان « راجكيشور بابو » غير « بابو راجكيشور براساد » الذي سبق لي ان لقيته في لوكناو . لقد راعني هذه المرة بتواضعه ، وبساطته ، وطيبته وإيمانه الاستثنائي ، وهي مميزات عُرف بها أهل بيهار ، فابتهج فؤادي بذلك . وكان احترام رجال المحاماة في بيهار لبابو راجكيشور هذا مناجاة سارة لي .

وسرعان ما وجدت نفسي مشدوداً إلى هذه الحلقة من الاصدقاء برباط من الصداقة المعمرة مدى الحياة . وعرفني راجكيشور بابو بخقائق القضية . فقد كان من عادته أن يتولى الدفاع ، أمام المحاكم ، عن قضايا الفقراء من المزارعين . وكان منهمكاً ، لدن وصولي إلى هناك ، باثنتين من هذه القضايا . وكان من ذأبه ، إذا ما ربح أباً من هذه الدعاوى ، ان يعزي نفسه بأنه قد أسدى خدمة إلى أولئك القوم البائسين . وليس معنى هذا انه ما كان يتقاضى اجراً من هؤلاء الفلاحين البسطاء . إن المحامين يعملون تحت وطأة الاعتقاد بأنهم إذا لم يتقاضوا أجراً على عملهم فلن يجدوا المال الكافي للاتفاق على بيوتهم ، ولن يكون في ميسورهم ان يسدوا خدمة إلى فقراء الناس . والواقع ان الأجور التي كانوا يتقاضونها ومستوى اجر المحامين في البنغال وبيهار قد أوقعا الدوار في رأسي . - « اننا ندفع عشرة آلاف روبية إلى فلان ثمناً لرأيه القانوني . كذلك قبل لي . لم يكن ثمة اجر يتألف من أقل من اربع منازل عددية بأية حال .

وأصغى الاصدقاء إلى تأنيبي الرفيق ، ولم يثبتوا فهمي . لقد قلت لهم :  
 - « بعد أن درست هذه الدعاوى استتجت ان علينا ان نكف عن رفع  
 أمثالنا من القضايا إلى المحاكم . ان عرض القضايا على المحاكم قليلاً ما يفيد ،  
 فحيث يكون الفلاحون على مثل هذه الحال من البؤس والذعر تكون المحاكم  
 غير ذات غناء . إن خلاصهم الحقيقي قوامه التحرر من الخوف . اننا لا نستطيع  
 ان نهدأ حتى نطرد نظام الـ « تينكاثيا » من بيهار . وكنت أعتقد انه سوف يكون  
 في مستطاعي أن أقضي في بلدكم يومين ليس غير ، ولكني أدرك الآن أن العمل  
 قد يستغرق ستين . وأنا مستعد لاتفاق هذه المدة كلها إذا احتاج الأمر إلى ذلك .  
 اني اتلمس الآن سيلي ، ولكني أريد مساعدتكم .  
 ونقد وجدت براجكيشور بابو هادئ التفكير إلى حد استثنائي لقد قال  
 في أناة

- « سوف نقدم اليك أقصى ما نستطيع من مساعدة ولكننا نرجو أن  
 نقول لنا إلى أي نوع من المساعدة سوف تحتاج ؟  
 وهكذا جلسنا نتحدث حتى منتصف الليل  
 لقد قلت لهم

- « لن احتاج إلى معرفتكم القانونية إلا قليلاً » اني اريد مساعدة مكتبية  
 ومساعدة في حقل الترجمة . وقد يكون من الضروري ان تواجهوا عقوبة المجن ؟  
 ولكن على الرغم من رغبتي في قيامكم بهذه المخاطرة أرى أن من الخير لكم أن لا  
 تخاطروا إلى أبعد مما تشعرون انكم قادرون عليه . وحتى تحولكم إلى مساعدين  
 مكثبيين واطراحكم حرفتكم طوأن فترة غير مدودة ليس شيئاً قليلاً . اني أجد من  
 العسير عليّ ان أفهم اللهجة الهندية المحلية ، وإن يكون في امكاني ان أقرأ  
 الصحف المكتوبة بالكابنية أو الأوردية اني اريد منكم ان تترجموها لي . وليس  
 في استطاعتنا ان ندفع تعويضاً مالياً عن هذا العمل انه ينبغي ان يتم مجاناً  
 وبدافع من روح الخدمة ليس غير .

وفهم براجكيشور بابو ذلك في الحال ، فراح يستجوبي هو ورفاقه كل

يدوره . لقد حاول ان يتأكد من مضامين كل ما قلته لهم - إلى متى سوف احتاج إلى مساعدتهم ، وما عدد الذين سأستعين بهم ، وما إذا كان في استطاعتهم ان يخدموا على نحو دوري ، وهكذا . ثم سأل المحامين عن متدبرتهم على التضحية.

وأخيراً أعطوني هذا التأكيد : « ان كذا عدداً منا سوف يفعلون أيما شيء تطلب اليهم عمله . وان بعضنا سوف يعملون إلى جانبكم مهما تناولت المدة التي تحددها لهم . ان تكييف المراء نفسه لحياة السجن شيء جديد علينا . ولكننا سوف نحاول ان نتمثله ونهضه . »

#### ١٤ . وجهاً لوجه مع الاهيمسا

كان هدفي أن أستضي حالة الفلاحين في تشامباران وأفهم المظالم التي كان يترها بهم زارعو البناج . ومن اجل هذا الغرض كان من الضروري ان اتقي آلافاً من الفلاحين . ولكني اعتبرت ان من الاساسي ، قبل ان ابدأ دراستي هذه ، ان اعرف وجهة نظر المزارعين في القضية ، وأجتمع إلى مفوض المنطقة . وقد طلبت ان اجتمع بممثل المزارعين وبالمفوض فعين لي كل منهما موعداً .

لقد قال لي مكرتير جمعية المزارعين في صراحة : انني دخيل ، وإنه ليس من شأني ان ادخل ما بين المزارعين والفلاحين العاملين على أرضهم ، ولكن إذا كانت لدي اعتراضات ففي استطاعتي ان أقدمها خطأ . فقلت له في كياسة إنني لا اعتبر نفسي دخيلاً ، وان لي كل الحق في ان أدرس حالة الفلاحين إذا رغبواهم في أن أدرسها .

أما المفوض الذي قمت بزيارته فقد راح يرهمني ، ونصحني في الحال بأن أغادر تيرهوت .

وعرفتُ اعوانتي بهذا كله ، وقلت لهم ان ثمة احتمالاً بأن تعتمد الحكومة إلى وقتي عن متابعة العمل ، وانني قد أدخل السجن بأسرع مما كنت أتوقع ، وإنني



إذا ما اعتقلت فمن الأفضل ان يتم هذا الاعتقال في موتيهاري ، أو — إذا كان ذلك ممكناً — في بيتيا . فمن حسن الرأي ، اذن ، ان أقصد إلى هذين الوطنين في أقرب وقت مستطاع .

ان تشامباران ناحية في مقاطعة تيرهوت ، وحاضرتها هي مدينة موتيهاري . وكان منزل راجكومار شوكلّا في ضواحي بيتيا ، وكان الفلاحون التابعون له « كوثيات » أو البيوت التي في جوارها هم أفقر الناس في المنطقة . لقد رغب راجكومار شوكلّا في أن أراه ، ولقد كنت مشوقاً ، أنا أيضاً ، إلى ان أراه .

وهكذا انطلقت ، مع أعواني ، إلى موتيهاري في اليوم نفسه . وأنزلنا بابو غوراه براساد في بيته ، الذي أصبح أشبه بفندق . إنه لم يتسع لايوانتنا إلا بشق النفس . وفي اليوم نفسه ترامى البنا ان فلاحاً مستأجراً قطعة أرض على بعد خمسة أميال تقريباً من موتيهاري قد اسيت معاملته . فتم رأينا على ان اذهب أنا وبابو دارانيدهاربراساد للاجتماع بذلك الفلاح في اليوم التالي . وهكذا مضينا إلى ذلك المكان على متن فيل . وبالمناسبة ، احب ان أقول ان الافيال مألوفة في تشامباران كعربات الثيران في كوجارات . ولم نكد نجتاز نصف الطريق حتى أدركنا رسول موفد من مدير الشرطة ، وقال ان هذا الاخير يبعث البنا بأطبيب تخمياته . وأدركت ماذا يعني . حتى إذا فارقت دارانيدهار بابو لأتقدم إلى طبيستي الاصلية امتطيت من العربة المستأجرة التي كان الرسول قد جلبها معه . ثم إنّه قدم إليّ أمراً بمغادرة تشامباران ، وقادني إلى منزلي . وحين سألني ان أوقع على استلامي المذكرة كتبت ما معناه اني لا أعترم الاذعان لها ومغادرة تشامباران ، إلا بعد انتهاء دراستي للوضع هناك . عندئذ دعيت للمحاكمة في اليوم التالي لعدم اطاعتي الأمر بمغادرة تشامباران .

وبقيت ساهراً ضول الابل أكتب الرسائل وأوجه التعليقات الضرورية إلى بابو براجكيشور براساد .

وانتشر نبأ المذكرة والمحاكمة انتشار النار في المشيم ، ولقد قيل لي ان

موتيهاري شهدت ذلك اليوم مشاهد لم تألفها من قبل . لقد فاض متزل غور اخبابو ودارُ القضاء بالناس . وكنت ، لحسن الطالع ، قد أنجزت عملي كله خلال الليل . وهكذا كنت قادراً على مواجهة الحشود . وقد أسدى أعواني مساعدة كبيرة اليّ ، فقد انصرفوا إلى كبج جماح الحشود وتنظيمهم ، لأن هؤلاء كانوا يلحقون بي اني ذهبت .

ونشأ ضرب من الود بيني وبين الموظفين : رئيس مكتب الجساية ، والقاضي ، ومدير الشرطة . فقد كان في امكاني ان ارفض ، قضائياً ، المذكرات الصادرة بعني . ولكني أصردت على قبولها كلها ، وكان موقفي من الموظفين سليماً كله . وهكذا رأوا اني لا أعتزم الاساءة اليهم شخصياً ، ولكن اريد ان أقاوم أوامرهم مقاومة مدنية . وهكذا وقع الاطمئنان في نفوسهم ، وبدلاً من ان يزعجونني قدروا لي ولأعواني تعاوننا في كبج جماح الحشود وافادوا من هذا التعاون . ولكن ذلك كان دليلاً حسيباً أظهر لهم ان سلطانهم قد زُعزت . كان الناس قد فقدوا ، مؤقتاً ، كل خوف من العقاب ، ودانوا بالطاعة لسلطة الحب التي مارسها صديقهم الجديد .

وينبغي أن يذكر القارئ ان احداً ما كان يعرفني في تشامباران . كان الفلاحون كلهم جهلة . وكانت تشامباران ، بوصفها واقعة في نقطة قصية إلى الشمال من الغانج ، وعلى سفح الهيا لايا نفسه على مقربة دانية من نيپال ، أقول كانت تشامباران منقطعة عن سائر الهند . وكان « المؤتمر » غير معروف ، تقريباً ، في تلك الدبار . وحتى اولئك الذين كانوا قد سمعوا باسم « المؤتمر » أحجموا عن الاشارة فيه أو الاشارة اليه مجرد اشارة . وها هو « المؤتمر » وأعضاؤه يطؤون تلك الارض ، لا باسم « المؤتمر » نفسه ، ولكن بمعنى أكثر واقعية من ذلك بكثير .

وبعد التشاور مع اعواني ، كنت قد قررت ان لا يُعمل أيما شيء باسم « المؤتمر » . كان ما نريده هو العمل لا الاسم ، الجوهر لا الظل . ذلك ان اسم

« المؤتمر » كان « ببيع » الحكومة والمسيطرين عليها ، اعني المزارعين الكبار : فقد كان « المؤتمر » في نظرهم رمزاً لمنازعات المحامين ، وللإفلات من القانون من طريق المخارج الشرعية ، ورمزاً لالتقاء القنايل وللجرائم القوضوية ، ولإدبيلوماسبة والرياء . وكان علينا ان نففي هاتين الفكرتين الخاطئتين . وهكذا قررنا أن لا نذكر اسم « المؤتمر » ، وان لا نعرف الفلاحين بالمنظمة التي تدعى « المؤتمر » : لقد اكتفينا بأن يفهموا ويتبعوا روح « المؤتمر » بدلاً من حرفه .

من أجل ذلك لم نوجه إلى هناك رسلاً من قبل « المؤتمر » ، لا في السر ولا في العلن ، لتهدد السبل لزيارتنا . وكان راجكوما رشوكلا عاجزاً عن الوصول إلى آلاف من الفلاحين . فلم يكن أيما نشاط سياسي قد بُذل بينهم . وكان العالم ، خارج تشامباران ، مجهولاً لديهم . ومع ذلك فقد استقبلوني وكأننا أصدقاء منذ عهد عهيد . وليس من المبالغة أن أقول — ولكننا الحقيقة الحرفية — اني في هذا الاجتماع بالفلاحين كنت وجهاً لوجه مع الله ، وإلا هيما ( الحب أو اللاعنف ) ، والحقيقة . وحين حاولت أن أسأل عن جدارتي بهذا كله ، لم أجد غير حبي للشعب . وهذا بدوره لم يكن غير تعبير عن إيماني الراسخ باللاهيسا .

إن ذلك اليوم من أيام تشامباران كان حدثاً لا يُنسى في حياتي ، ويوماً مشهوداً بالنسبة إلي وإلى الفلاحين .

كنت ، في نظر القانون ، على وشك أن أساق إلى المحكمة ، ولكن الواقع أن الحكومة هي التي كانت ستحاكم . ذلك أن مفاوض المقاطعة لم يوفق إلى غير يقاع الحكومة في انترك الذي كان قد نصبه لي .

## ١٥ . سحب اندعوى

وبدأت المحاكمة . وكان محامي الحكومة . واتقاضي ، وغيرهما من الموظفين

في حيرة من أمرهم لا يدرون ماذا يصنعون . وكان محامي الحكومة يبلح على القاضي بضرورة ارجاء المحاكمة . ولكنني تدخلت ، وسألت القاضي أن لا يرجئها : لأنني أردت ان أدافع عن نفسي كمتهم بعصيان الأمر الصادر الي بمغادرة تشامباران ، وأن أتلو هذا البيان الموجز :

« أود ، بعد استئذان المحكمة ، ان أتلو بياناً موجزاً يظهر لماذا قمت بهذه الخطوة البالغة الخطورة التي يترامى معها اني عصيت الأمر الصادر وفقاً للمادة ١٤٤ من قانون العقوبات . ففي رأيي المتواضع ان المسألة مسألة خلاف في الرأي بيني وبين الادارة المحلية . فقد دخلت المنطقة بدافع إسداء خدمة انسانية ووطنية . وانما فعلت ذلك استجابة لدعوة ملحة إلى المجيء وإلى مد يد المساعدة إلى الفلاحين ، الذين يؤكدون أنهم لا يعاملون من جانب مزارعي التبليج معاملة عادلة . ولم يكن في ميوري ان أسدي أيما خدمة من غير دراسة المشكلة . وهكذا أقبلت لأدرسها بمساعدة الادارة الحكومية والمزارعين إذا أمكن . لم يكن ثمة أيما دافع آخر يحدوني إلى ذلك ، ولست أستطيع ان أعتقد ان مجيئي يمكن ان يعكر صفو الأمن بحال من الاحوال ، وان يؤدي إلى خسارة في الأرواح . أنا أزعم أن لي خبرة واسعة في مثل هذه الأمور . بيد ان الادارة الحكومية ارتأت خلاف ذلك . واني لأفكر مصاعبها حق قدرها ، وأسلم أيضاً بأنه ليس في استطاعتها إلا العمل على ضوء التعليمات التي تلقتها . وبوصفي مواطناً ممثلاً للقانون فقد كان خليقاً بي أن تقودني غريزتي الأولى إلى إطاعة الأمر الصادر إلي . ولكنني لم يكن في ميوري أن أفعل من غير أن أوذي شعوري بالواجب نحو اولئك الذين جئت من أجلهم . وأنا أشعر أنني لا أستطيع في هذه اللحظات ان اخدمهم إلا بالبقاء بين ظهرانيهم . ومن أجل ذلك لم يكن في ميوري ان انسحب بطوعي . وفي غمرة من هذا التعارض بين الواجبات لم يكن في امكاني إلا أن أقي تبعاً لبعادي عنهم على عاتق الادارة المحلية . وانا أعي كل الوعي أن الشخص الذي يحتل في حياة الهند العامة مركزاً كالذي أحته

يجب ان يُحسَن ضَرْبُ المثل للناس في كثير من العناية والدقة . واني لأعتقد اعتقاداً راسخاً بأن السبل الوحيدة الآمنة والمشرقة ، في ظل القانون المعقد الذي نحيا في كنفه ، هي ان يعمد الرجل المحترم نفسه - في مثل الظروف التي تواجهني - إلى القيام بما قامت أنا به ، أعني ان بدعني في غير احتجاج لعقوبة العصيان .

اني لا أقدم هذا البيان لخفض العقوبة التي ستنزل بي ، ولكن لأظهار هذه الواقعة ، وهي أنني أهملت الأمر الصادر إليّ ، لا بدافع من عدم احترامي للسلطة القانونية ، ولكن بدافع من القانون الأسمى لوجودنا : صوت الضمير .

لم يكن ثمة مجال ، بعد ذلك ، لارجاء المحاكمة ، ولكن لما كان كل من القاضي ونامي الحكومة قد أخذَ على حين غرة فقد أجّل القاضي إصدار الحكم . وكنت في غصون ذلك قد أبرقت بجميع التفاصيل إلى نائب الملك ، وإلى أصدقائي في « باتنا » ، وكذلك إلى البانديت مادان موهان مالانيا وغيره .

وقبل ان يتاح لي المتول أمام المحكمة لتلقي الحكم وجه القاضي اليّ رسالة خطية تقول إن نائب الحاكم قد أصدر امره بسحب الدعوى المقامة عليّ ، وكتب إليّ رئيس الجباية يقول إن لي الحرية في القيام بالدراسة التي أرغب فيها ، وان في استطاعتي الاعتماد على الموظفين في كل مساعدة قد احتاج اليها . إن أحداً منا لم يكن مستعداً لهذه النتيجة العاجلة السعيدة .

وقعت بزيارة رئيس مكتب الجباية ، - منز هايكوك . - لقد بدا لي أنه رجل طيب ، راغبٌ في إحقاق الحق . ولقد قال لي ان في استطاعتي ان أطلب منه أية وثائق ارغب في الاطلاع عليها ، وان لي الحرية في الاجتماع به كلما شئت ذلك .

وهكذا أخذت البلاد درسها العملي المباشر الأول في العصيان المدني ونوقشت المسألة مناقشة حرة عميقاً وعلى صفحات الجرائد ، وحظيت التحقيقات التي كنت أقوم بها بشعبية غير مرتقبة .

وكان من الضروري لنجاح دراستي هذه أن تظل الحكومة محايدة . ولكن

تلك الدراسة ما كانت في حاجة إلى تأييد من المخبرين الصحفيين ، أو مقالات افتتاحية في الصحف . فالواقع ان الحالة في تشامباران كانت من الدقة والصعوبة بحيث ان النقد المغالى فيه والاذخار المروقة إلى حد بعيد قد تضرر بالتقصية التي أعمل لدفع عنها . وهكذا كتبت إلى محرري الصحف الرئيسية أسألم أن لا يتجشموا عناء ارسال المخبرين إلى المنطقة لأنني سوف ازودهم بكل ما ينبغي نشره ، وسأبقيهم مطمئنين على كل ما يحدث من تطورات .

لقد عرفت ان موقف الحكومة الذي أباح بقائي في المنطقة قد أغضب مزارعي تشامباران الكبار ، وعرفت ان الموظفين أنفسهم ، على الرغم من أنهم لم يستطيعوا ان يعترضوا جهاراً ، ما كانوا مرتاحين إلى ذلك أيضاً . وهكذا فإن الأنباء غير الصحيحة أو المضللة كانت خائفة بأن توغر صدورهم أكثر فأكثر ، وان حقنهم قد ينصبّ عندئذ على الفلاحين الفقراء المدعورين ، ويعوق على نحو جديّ بحثي عن الحقيقة في تلك القضية .

وعلى الرغم من هذه الاحتياطات كلها نظّم كبار المزارعين حملة لإنارة صائفة ضديّ . فقد ظهرت في الصحف مختلف ضروب الأكاذيب عني وعن أعوانني . ولكن حذري البالغ ، وإلحاحي على الحقيقة ، حتى في أدقّ تفاصيلها ، ودأ عني شفرة سيفهم .

وبذل المزارعون قصارى جهدهم للطعن على براجكيشور بابو . ولكن مكانته عند الناس كانت ترتفع كلما أمعن أولئك المزارعون في الطعن عليه .

وفي ظرف دقيق كهذا لم أر من الحكمة ان أدعو أيما زعيم من المقاطعات الأخرى . كان البانديت مالانياجى قد أرسل اليّ كلمة يؤكّد عليّ فيها أن أنصل به كلما احتجت إليه ، ولكنني لم أزعهج . وهكذا صُنّت الصراع من ان يتخذ صبغة سياسية . ولكنني كنت أبعث إلى الزعماء وإلى الصحف الرئيسية ، بين الفينة والفينة ، بعض التقارير والأنباء ، لا للنشر ، ولكن لمجرد إطلاعهم على ماجريات الأمور . فقد سبق لي أن رأيت ، حتى ولو كانت ثمرة القضية سياسية وهي ( أي القضية ) غير سياسية : ان المرء كثيراً ما يُفسد تلك القضية

باعطائها مظهراً سياسياً ، وكثيراً ما يميزها بابقائها ضمن نطاقها اللاسياسي .  
لقد كان كفاح تشامباران برهاناً على هذه الحقيقة ، وهي ان خدمة الشعب التربة  
في أيما حقل من الحقول تخدم البلاد ، آخر الأمر ، سياسياً أيضاً

## ١٦ . طرائق العمل

لو أردت أن أروي ذباً التحقيق الذي قمت به في تشامباران رواية كاملة  
اذن لاحتجت إلى ان أقص تاريخ الفلاح التشامباراني ، في تلك الفترة ، وهي  
مهمة تقع خارج نطاق هذه الفصول. لقد كان التحقيق الذي أجريته في تشامباران  
تجربة جريئة مع الحقيقة والأهيسا (الحب واللاعنف) ، وأنا لا أقدم هنا ، اسبوعاً  
بعد أسبوع ، إلا ما يترامى لي جديراً بالتقديم من وجهة النظر هذه. فإذا رغب  
القارئ في مزيد من التفصيل فليرجع إلى كتاب الاستاذ راجندرا براساد عن  
« اللاعنف في تشامباران » في اللغة الهندية ، وهو كتاب دُفعت ترجمته  
الانكليزية ، على ما قبل لي ، إلى المطبعة .

ولكن فلنعد إلى موضوع هذا الفصل . إن ذلك التحقيق ما كان يمكن أن  
يُجرى في بيت غوراخابو من غير ان نطالب إلى غوراخابو المسكين إخلاءه .  
ولم يكن أبناء موتيهاري قد أطرحوا الخوف إلى حد يكتنهم من أن يؤجرونا  
بيتاً ننزل فيه . ولكن براجكيشور بابو ما لبث أن وجد لنا ، في براعة ، بيتاً  
يحيط به فناء واسع ، فانتقلنا إليه .

ولم يكن من الممكن ان نهض بعبء العمل من غير مال . فلم تكن العادة  
قد جرت ، حتى ذلك الحين ، بأن تنجح إلى الجمهور التماساً للأموال التي يقتضيها  
عمل من هذا النوع . وكان براجكيشور بابو وأصدقائه « وكلاء » (محامين) ، في الأعم  
الأغلب ، وكانوا يقدمون نفقات النشاط العام من جيوبهم أو يجمعونها من

• نشرت هذه الترجمة بعد ذلك . وقد نشرها من . غانيسان ، تريليكايين ، مدراس .

أصدقائهم كلها ساعدتهم مناسبة من المناسبات . فكيف يسألون الناس أن يدفعوا ، على حين يستلعمون هم وأضرابهم أن ينهضوا بهذه الأعباء في سمر ؟ تلك كانت الحجة في ما بدا لي . وكنت قد عقدت النية على أن لا أقبل أي شيء من فلاحى تشامباران . لكني لو فعلت اذن لأساء الناس تأويله من غير شك . وكذلك كنت قد عقدت النية على أن لا أطلق حملة اكتاب في طول البلاد وعرضها للقيام بدراسي للأحوال في تشامباران . ذلك بأن مثل هذه الحملة كان خلباً بها أن تضفي على القضية صبغة سياسية وصفة قومية شاملة . وتبرع أصدقاء من يومئذ بخمسة عشر ألف روية ، ولكني اعتذرت عن قبول التبرع شاكرآ . لقد قررت أن أفوز بأكبر قدر مستطاع من المال - يساعديني في ذلك براجكشور بابو - من البيهاريين المثرين المقيمين خارج تشامباران ، كما قررت أن الجأ - إذا ما احتجت إلى مال إضافي - إلى صديقي الرافنوني الدكتور ب.ج. مهتا . ولقد أعان الدكتور مهتا عن استعداده لأن يبعث اليّ بأما قدر من المال أحتاج اليه . وهكذا نحررنا من القلق كله في هذا المجال . وكان مرجحاً أن لا نطلب استعادات مالية كبيرة ، لأننا كنا نترع إلى اصطناع الاقتصاد إلى أبعد حد مستطاع انسجاماً مع فقر تشامباران . والواقع أننا وجدنا آخر الأمر أننا لم نكن بحاجة إلى أي مبلغ كبير . ويخيل اليّ أننا لم ننق في الجملة ، أكثر من ثلاثة آلاف روية وأنا - على قدر ما أستطيع أن أتذكر - قد وفرنا بضع مئات من الروبيات مما كنا قد جمعناه .

كانت طرائق المعيشة الغريبة التي اصطنعها رفاقي في الأيام الأولى موضوعاً لتندر . فقد كان لكل من المحامين خادم وطاهٍ ، وبالنسبة لمطبخ مستقل ، وكثيراً ما كانوا يتناولون طعام العشاء في منتصف الليل . وعلى الرغم من أنهم كانوا يدفعون نفقاتهم من جيوبهم فإن لانظاميتهم أقلقني . ولكن لما كنا قد أصبحنا أصدقاء حميمين فلم يكن ثمة مجال لسوء تفاهم بيتنا ، وكانوا يتقبلون سخريتي قبولاً حسناً . وأخيراً تم الاتفاق على الاستثناء عن الخدم ، وإن تُدغم المطاسخ كلها ، وأن يراعي الرفاق جميعاً المواعيد النظامية . وإذا لم يكونوا



كلهم نباتيين ، ولما كان الاحتفاظ بمطبخين يكلف نفقات باهظة ، فقد استقر الرأي على الاكتفاء بمطبخ نباتي مشترك . لقد شعرنا أيضاً بضرورة الالتحاق على المآكل البسيطة .

هذه الترتيبات خفضت النفقات تخفيضاً عظيماً ، ووفرت علينا كثيراً من الوقت والجهد ، وهما شيان كنا في أمس الحاجة إليهما . كانت حشود من الفلاحين تفتدُ للادلاء بشهاداتها ، وكان يلحق بهم جيش من الرفاق بغص بهم الفناء والحديقة . وكانت جهود رفاقي لانتقادي من الراغبين في رؤيتي غير ذات غناء في معظم الأحوال ، فكان عليّ أن أظهر للقوم ليكحلوا عيونهم بمشهدتي في ساعات معينة . وأخيراً أُطلب إلى خمسة أو سبعة من المتطوعين أن يدوتوا البيانات والشهادات ، وحتى في هذه الحال تعين على بعض الناس ان يرجعوا في المساء من غير أن يتمكنوا من الادلاء بشهاداتهم . ولم تكن هذه الشهادات كلها أساسية ، إذ كان كثير منها مجرد تكرير ، ولكن القوم ما كانوا ليرضوا بأقل من الأدلاء بها ، ولقد قدرت شعورهم في هذه المسألة حق قدره .

وكان على اولئك الذين دوتوا الشهادات ان يراعوا بعض القواعد . كان على كل فلاح ان يستجوب استجواباً دقيقاً ، حتى إذا عجز عن الوفاء بمطالب الامتحان رُفضت شهادته . واقتضى ذلك وقتاً اضافياً كثيراً ، ولكن معظم الشهادات كان ، بذلك ، من النوع المحقق الذي لا يحتمل الجدل .

وكان واحد من رجال مصلحة المباحث الجنائية يشهد تدوين هذه الشهادات دائماً . وكان في امكاننا ان نمنعه من ذلك ، ولكننا كنا قد عقدنا العزم على أن لا نحول بين رجال هذه المصلحة وسماع الشهادات . ليس هذا فحسب ، بل لقد كنا عقدنا العزم على ان نعاملهم في كياسة وأن نقدّم إليهم جميع المعلومات التي كان في ميسورنا ان نقدّمها إليهم . ولم يعد ذلك علينا بضرورة البتة . على العكس ، فأن مجرد تدوين الشهادات على مرأى وسمع من رجال مصلحة المباحث الجنائية زاد الفلاحين جرأةً على جرأة . أجل لقد طرّد الخوف المفرط من رجال مصلحة المباحث من اذهان الفلاحين ، وأدى وجودهم - من ناحية

ثانية - إلى كبح جماح المبالغة . كانت مهمة أصدقاء تلك المصلحة إيقاع الناس في الشرك ، ومن هنا كان على الفلاحين ان يصطنعوا الخنر بالضرورة . ولما كنت غير راغب في إثارة كبار المزارعين ، ولما كان من أغراضني ان أكسبهم إلى جانبي بالاطف ، فقد جعلت من وكدي ان اتصل - من طريق الكتابة أو المواجهة - بجميع اولئك المزارعين الذين نُسبت لايهم اساءات ذات صفة خطيرة . واجتمعت بأعضاء جمعية المزارعين أيضاً ، وبَسَطْتُ لهم مظالم الفلاحين وتعرّفتُ إلى وجهة نظر الجمعية . لقد أبغضني بعض اولئك المزارعين الكبار ، وكان بعضهم لامبالين ، وكان قليل منهم يعاملني في كياسة .

## ١٧ . رفاق

كان « براجكيشور بابو » و « راجانندرا بابو » رجلين قذّين . وكانا يُبديان من الضاني ما جعل من المتعذر عليّ ان أقوم بخطوة واحدة من غير مساعدتهما . وكان مريدوها أو رفاقهما شامبو بابو ، وأنوغراها بابو ، ودارانياو ورامند بابو ، وغيرهم من المحامين - معنا دائماً . وكذلك كان فينديا بابو وجانا كداريابسو يمينان بين الفينة والفينة أيضاً وعمدان البناء المساعدة . وكان هؤلاء جميعاً يبهاريين . وكان عملهم الرئيسي تسجيل شهادات الفلاحين .

ولم يستطع البروفسور كريبالاني إلا أن يوازرنا كان على الرغم من صنديته . يبهارياً أكثر من مواليد ي بهار . والواقع أنني لم أر غير مناضلين قلائل قادرين على إذابة أنفسهم في الاقليم الذي يتجرّونه . ولقد كان كريبالاني واحداً من هؤلاء القلائل . لقد جعل من المتعذر على أي امرئ ان يشعر بأنه ينتمي إلى إقليم آخر كان حارس بابي الرئيسي . ولقد جعل هدف حياته ، في ذلك الوقت ، ان ينقذني من الحشود التي تلتصق روّتي . كان يذود عني الناس ،

• نوبة إلى السند

مستعياً حيناً بدعائه التي لا تنضب ، وحيناً بتهديداته الرقيقة . حتى إذا هبط الليل كان يدرس مهنة ان تعليمية فيُبهج نفوس رفاقه بدراساته وملاحظاته التاريخية ، ويوقع الشجاعة في فؤاد أي زائر خجول .

وكان مولانا مظهر الحق قد دون اسمه في لائحة المساعدين الذين أستطيع الاعتماد على معرفتهم عند الحاجة . وكان يحرص على زيارتي مرة أو مرتين كل شهر . وكانت الأبية التي عاش في كنفها آنذاك تتغير تغيراً حاداً مع الحياة البسيطة التي يجباها اليوم . إن الطريقة التي عايشنا بها جعلتنا نشعر أنه واحد منا ، على الرغم من أن ثأنته كان يخلّف في نفس الغريب انطباعة مختلفة .

وبعد أن ازدادت معرفة ببيهار اقتنعت بأن من المستحيل القيام بعمل ذي حصة مرمية من غير تربية قروية صحيحة . كان جهل الفلاحين فاجماً . كانوا إما ان يسمحوا لأطفالهم بالنكح في الشوارع وإما ان يملوهم على الكدح في مزارع النياج من الصباح إلى المساء اثناء بضع درسيات في اليوم . وفي تلك الأيام كان أجر العامل لا يتجاوز عشر بيسات ، وكان أجر العاملة لا يتجاوز مست بيسات ، أما الطفل فكان أجره ثلاث بيسات . وكان الذي يوفق إلى كسب أربع آفات في اليوم يُعتبر محظوظاً إلى أبعد الحدود .

وبعد التشاور مع رفاقي عزمنا على فتح بعض المدارس الأولية في ست قري . وكان من الشروط التي اشترطناها على القرويين أن يضمّنوا للمعلمين طعامهم وسكنهم ، على أن تتولى نحن سائر النفقات . ذلك أن أبناء بيهار ما كانوا يملكون شيئاً من التقدير تقريباً ، ولكنهم كانوا قادرين على تزويد المعلمين بالمواد الغذائية . والواقع أنهم كانوا قد عسروا عن استعدادهم لتقديم الخدمة وغيرها من المراد الأولى .

ولكن من أين تأتي بالمعلمين ؟ تلك كانت مشكلة كبرى . كان من العسير أن نجد معلمين محليين يرغبون في العمل براتب رمزي أو من غير تعويض . وكان من رأيي أنه لا يجوز أن يُعهد بالأطفال إلى معلمين مبتدئين . ولم تكن ثقافتهم الأدبية أساسية ، في نظري . فقدّر نسيجهم الاخلاقي .

وهكذا نشرت نداءً دعوت فيه المعلمين إلى التطوع للعمل . ففكسي ذلك النداء استجابة سريعة . لقد بعث اليّ الأستاذ غانغادهاراو ديشاند بجل من « باباصاحب سومان » و « بونديالك » . وأقبلت شريماتي آفانتيكاباي غوكهايل من بومباي والسيدة آناندياي فايشامبايان من بونا . ووجهت رسالة إلى « الاشرم » استدعيت فيها تشوتالال ، وموراندرنات ، وابني ديفداس . وحوالي هذه الفترة انضمّ ماهاديف دبزاي وناراهاري باربخ مع زوجتيهما البنا . ودُعيت كاستورباي إلى العمل أيضاً . وكانت هذه مصادفة غريبة . فقد كانت شريماتي آفانتيكاباي وشريماتي آناندياي على قدر كاف من الثقافة . ولكن شريماتي دورغا دبزاي وشريماتي مانبيهن باربخ لم تكونا تملكان غير معرفة ضئيلة جداً باللغة الكوجاراتية ، وكانت كاستورباي لا تملك حتى تلك المعرفة الضئيلة نفسها . فكيف تستطيع هاته السيدات تعليم الاطفال باللغة الهندية ؟ وأوضحت لهن اننا نتوقع منهن ان لا يعلنن الأولاد قواعد اللغة والقراءة والكتابة والحساب بقدر ما يعلمنهم النظافة والعادات الحسنة . وأضمت قائلاً إنه ليس ثمة ، في ما يتصل بالحروف ، فرق كبير جداً بين الكوجاراتية والمندية والماراثية كما يتخيلن . وأن تعليم الایمجدية ومبادئ الحساب ليس أمراً عسيراً في الصفوف الأولية على الأقل . فكانت النتيجة ان الصفوف التي نولتها هاته السيدات كانت أكثر الصفوف نجاحاً . لقد اوقعت هذه الخبرة ثقةً في نفوسهن . وجعلتهن يستمتعن بعملهن . وأصبحت مدرسة آفانتيكاباي مدرسة نموذجية . لقد افرغت نفسها : قلباً وروحاً في عملها . وكانت تحمل اليها هداياها الاستثنائية للتوكيد على ذلك . ومن طريق هاته السيدات كان في استطاعتنا ، إلى حد ما ، ان نحثك بنساء القرى .

ولكني ما كنت راغباً في الوقوف عند حد تزويد الأولاد بالثقافة الابتدائية . كانت القرى غير صحية . وكانت الدروب تغصّ بالاقدار . وكانت الآبار محاطة بالوحل والنتن . وكانت الباحات والأفنية وسخة إلى حد لا يطاق . كان الكبار من أبناء القرى في أمس الحاجة إلى ما يبصرهم في أمور النظافة ويعودهم

إياها . وكانوا كلهم يقاسون أمراً جلدية مختلفة . وهكذا قررنا ان نقوم  
بأكبر قدر ممكن من العمل في الحقل الصحي ، وأن ننتقل إلى كل جانب من  
جوانب حياتهم .

وكان هذا العمل يقتضي الاستعانة ببعض الأطباء . فالت و جمعية خادمي  
الهند ، إن تتدب الدكتور المرحوم ديف لمساعدتنا . لقد كنا صديقين حميمين ،  
فأبدى استعداداً للتعاون معنا طوال ستة أشهر . وكان على المعلمين جميعاً -  
رجالاً ونساءً - ان يعملوا تحت إشرافه .

لقد أصدرنا إليهم جميعاً تعليمات صريحة بأن لا يشغلوا أنفسهم بشكاوى الفلاحين  
على المزارعين الكبار ، وبأن لا يتدخلوا في السياسة . أما من كانت لديه شكوى  
فكان يحول إلى . كذلك أصدرنا إليهم تعليمات بأن لا يفارق أي منهم عمود  
عمله . ونقد نقد الاصدقاء التعليمات في أمانة رائعة . ولست أذكر اننا سجلنا  
حادثة واحدة من حوادث الخروج على النظام .

## ١٨ . النفاذ إلى القرى

وعهدنا في الاشراف على كل مدرسة إلى رجل واحد وامرأة واحدة ، كلما  
وجدنا ذلك ممكناً . وكان على هؤلاء المتطوعين ان يعنوا بشؤون الاسعاف الطبي  
وحفظ الصحة . وقد جعلنا الاتصال بالنسوة مقصوراً على المتطوعات وحدهن .  
وكان الانعاش الطبي مسألة سهلة جداً . وكان زيت الخروج ، والكينين ،  
ومرهم الكبريت هي العقاقير الوحيدة التي كنا نرود بها المتطوعين . فاذا ما  
اكتشف ان المريض لساناً مُقَنَّساً أو أنه يشكو الاسك اعطوه شيئاً من  
زيت الخروج . أما مرهم الكبريت فكان يصطُفَع في معانجة الدمايل والأكال  
بعد غسل الأجزاء المصابة غسلاً جيداً . ولم يكن يسمح لأي مريض بأن يأخذ  
إلى بيته دواء ما . وكان الدكتور ديف يُراجع كلما حدثت مضاعفات . وكان

من دأب الدكتور ديف ان يزور كلاً من تلك المراكز في أيام بعينها من الاسبوع .

وعرف كثير من الناس كيف يفيدون من هذه الخدمة الصحية البسيطة . وخطه العمل هذه لن تبدو غريبة إذا ما ذكرنا أن العلل السائدة كانت قليلة ، سهلة الانتفاذ لأبسط المعالجة ، غير متطابقة بأية حال مساعدة اختصاصي ما . أما بالنسبة إلى الناس فقد سدت هذه التدابير حاجاتهم على نحو رائع .

أما تدابير حفظ الصحة فكانت مسألة عسيرة . كان الناس غير مستعدين لأن يعملوا هم أنفسهم أي شيء . حتى عمال الحقول لم يكونوا مستعدين لرفع ثيابات بيوتهم ذاتها بأنفسهم . ولكن الدكتور ديف لم يكن ذلك الرجل الذي يئأس في سهولة ويسر . فركّز هو ومتطوعوه جهودهم على جعل احدى القرى نظيفة على نحو مثالي . لقد كنسوا الطرق والبساتين ونفقوا الآبار ، ومسلّوا البرك المجاورة ، وأقنعوا القرويين ، في محبة ، بأن يعتنوا المتطوعين من بين صفوفهم هم . وفي بعض القرى عمدوا إلى إغراء الناس ، من طريق التخجيل ، بالنهوض بعبء العمل ، وفي بعضها الآخر كان الناس من شدة الحماسة بحيث ذهبوا إلى حدّ إعداد الطرق لتمكين سيارتي من الانتقال من مكان إلى مكان . وهذه الخبرات العذبة لم تكن غير مشوبة بخبرات مريرة من خموس الناس وبلادهم . واذكر ان بعض القرويين عبروا ، صراحةً ، عن كراهيتهم لهذا العمل .

وقد لا يكون من الاستطراد أن أروي هنا خبرة سبق لي أن رويتها في اجتماعات عديدة . كانت بيتهارفا قرية صغيرة تقوم فيها احدى مدارسنا . واتفق أن زرت قرية أصغر في جوارها فوجدت بعض النسوة يرتدين ثياباً قديمة جداً . وهكذا طلبتُ إلى زوجتي ان تسألن لماذا لا يغيّرن ملابسهن . وحدهنّ تشهنّ في الأمر . فقادتني احدى النسوة إلى كوخها وقالت :

— « انظري ، ليس هناك صندوق أو خزانة تحتوي ملابس أخرى . إن الـ « ساري » الذي أرتديه هو الـ « ساري » الوحيد الذي أملكه . فأننى لي أن

أغسله ؟ أنثي ماها تاجي أن يأتي بي ، ساري ، جديد ، وعندك أعدك . بأن  
استحم وبأن ارتدي ثياباً نظيفة كل يوم .

وهذا الكوخ لم يكن ظاهرة شاذة ، بل كان نموذجاً يمكن أن تقع عليه في  
كثير من القرى الهندية . ففي أكواخ لا يخصصها العد في الهند يجا الناس من  
غير أثاث ، ومن غير ما تبديل للملابس ، وليس على أجسادهم غير خرقة  
تستر عورتهم .

بقيت خبرة أخرى أحب أن أنصّ عليها . وتفصيل ذلك أن تشامباران لا  
يعوزها البوص الهندي والعشب . وكان كوخ المدرسة الذي أقامه في بيتهارفا  
مصنوعاً من هاتين المادتين . فما كان من بعضهم - ولعلمهم من أنباغ أحد  
المزارعين المجاورين - إلا أن أضرموا النار ذات ليلة في ذلك الكوخ . ولم تر من  
الحكمة أن نبي كوخاً آخر من البوص الهندي والعشب . وكانت المدرسة في عهدة  
الاستاذ سومان وكاستورباي . وقرّر الأستاذ سومان أن يبني بيتاً صالحاً راسخ  
الدعائم . والواقع أن نشاطه العظيم أعدى كثيرين من الرفاق فتعاونوا معه ،  
وسرعان ما تمّ لهم إنشاء بيت أجري لم يكن ثمة سبيل إلى إحراقه .

وهكذا استطاع المتطوعون ، بمدارسهم وبمعلمهم في حقائي حفظ الصحة  
والإسعاف الطبي ، أن يكسبوا ثقة القرويين واحترامهم ، وتمكّنوا من أن  
يتركوا فيهم أثراً صالحاً .

ولكن عليّ أن أعترف ، في أسف . أن أملّي في إقامة هذا العمل الانساني  
على أساس سرمدّي لم يتحقق . كان المتطوعون قد أقبلوا للعمل فترات محدودة ،  
ولم يكن في استطاعتي أن أستقدم من الخارج عدداً اضافياً . كما أنني لم أوفق إلى  
العثور في بيهار على متطوعين دائمين . فما إن تمّ عملي في تشامباران حتى دعاني  
العمل في خارجها - وكانت الأحداث تمهّد سبيله في غضون ذلك - إلى مغادرتها .  
يبد أن نشاطنا في تشامباران خلال تلك الأشهر القليلة امتدت جسوره  
ورسخت إلى حد جعل تأثيره - بشكل أو بآخر - ملحوظاً هناك . حتى في  
هذه الأيام .

## ١٩ . عندما يكون الحاكم صالحاً

بينما كنا نقوم بالخدمة الاجتماعية على الوجه الذي وصفته في الفصول السابقة كان تدوين مظالم الفلاحين ، من ناحية ثانية ، يسير سيراً حثيثاً . لقد دُوِّنت آلاف الشهادات ، وكان لا بدّ لهذا الصنيع من أن يُحدث اثره . فقد كان في تعاضم عدد الفلاحين الوافدين للدلاء بشهاداتهم ما أثار حتى المزارعين الكبار : فاستعدّوا عليّ قوى الأرض والسماء .

و ذات يوم تلقيت من حكومة بيهار رسالة مفادها : « لقد تطاولت دراستك إلى حدّ كاف ، فهل لك الآن ان تُختمها وتغادر بيهار ؟ » لقد صيغت الرسالة بأسلوب مهذب ولكن مغزاها كان واضحاً .

فأجبت قائلاً ان تطاول الدراسة كان أمراً لا بد منه . وانني لا أنسوي مغادرة بيهار إلا بعد أن تؤدي تلك الدراسة إلى إنصاف الشعب . وأشارت إلى ان في استطاعة الحكومة ان تضع حداً لدراساتي وتحقيقاتي من طريق الاقرار بأن مظالم الفلاحين حقيقية والعمل على إزالتها ، أو من طريق الاعتراف بأن الفلاحين أقاموا دعوى ثابتة لا تُنقض إلا بنقض الدليل ، دعوى يتعيّن على الحكومة ان تسارع إلى تشكيل لجنة تحقيق للنظر فيها .

وسألني السير أدورد غايت ، نائب الحاكم ، أن أواجهه ، وعبرني عن رغبته في تعيين لجنة تحقيق ، ودعاني إلى أن أكون عضواً في اللجنة . وأحطت علماً بأسماء الأعضاء الآخرين ، وبعد مشاورة مع أعوانني وافقت على الاشتراك في اللجنة شرط أن تكون لي حرية التشاور مع اولئك الأعوان أثناء سير التحقيق . وأن تدرك الحكومة ان عضويتي في اللجنة لا تتعارض مع كونني محامياً للفلاحين . وأنه إذا ما عجزت نتائج التحقيق عن ارضائي كنت حسراً في توجيه الفلاحين الوجهة التي يرغبون عليها أن يسلكوها .

واعتبر السير إدوارد غايت هذا الشرط عادلاً وطبيعياً . وأعطى اصمحاء



الاعضاء في اللجنة . وقد عُيِّنَ المرحوم السير فرانك سلاي رئيساً لها .  
وحكمت اللجنة لصالح الفلاحين ، وأوصت بأن يعيد المزارعون الكبار  
جزءاً من الأموال التي تبيّن للجنة أنهم ابتزوها من الفلاحين ابتزازاً ، كما  
أوصت بأن يلغى نظام الـ « تينكاثيا » بقانون .

وكاد للسير ادوارد غايت فضل كبير في حمل اللجنة على إعطاء حكمها  
بالاجماع ، وعلى سنّ القانون الزراعي وفقاً لتوصيات اللجنة . ولو انه لم يتخذ  
موقفاً ثابتاً ، ولم يستخدم لبقائه كلها في هذه المسألة اذن لما جاء القرار إجماعياً ،  
وإذن لما أقرّ « القانون الزراعي » . وبذل المزارعون الكبار جهوداً استثنائية ،  
وقاموا مشروع القانون مقاومة عنيدة على الرغم من تقرير اللجنة ، ولكن  
السير ادوارد غايت ظل صامداً حتى النهاية ، ونفّذ توصيات اللجنة تنفيذاً  
كاملاً .

وهكذا ألغى نظام الـ « تينكاثيا » بعد أن عاش نحواً من مئة عام ، وبزواله  
زال سلطان المزارعين الكبار . لقد تحرر الفلاحون الذين ظلوا مضطهدين دهرأ  
طويلاً ، وقضي على الخرافة القائلة بأن وصمة التبلج لا سبيل إلى محوها .  
وكنّت راعباً في مواصلة العمل الانشائي بضع سنوات ، وأن انشئ مدارس  
اضافية ، وان أنفذ إلى القرى نقاذاً أكثر فعالية . كانت الارض قد مهّدت ،  
ولكن الله لم يشأ ، شأنه في أحوال كثيرة ماضية ، ان تُنجز خططي . لقد رسم  
القضاء والقدر نجاحاً آخر ، وساقني إلى القيام بعمل جديد في مكان آخر .

## ٢٠ . مع العمال

كنت لا ازال أحاول انجاز عملي في اللجنة عندما تلّقت رسالة من الامتاذين  
موهانلال بانديا وشانكارلال بارسيخ بخبر اني فيها بأن المحل قد أصاب الفلاحين  
في منطقة « خيدا » وبطلان إليّ أن أقدم نصيحتي إلى هؤلاء الفلاحين الذين  
كانوا عاجزين عن دفع الضريبة . ولم يكن لديّ لا الرغبة ولا المقدرة ولا

الشجاعة التي تمكنني من إهداء النصح قبل الذهاب إلى المنطقة نفسها ودراسة الوضع فيها .

وفي الوقت نفسه تاقمت رسالة من شريمانتي آناسوياباي عن حالة العمال في أحمد آباد . كانت الأجور منخفضة ، وكان العمال يطالبون بالزيادة منذ عهد بعيد ، وكانت بي رغبة في أن أوجههم وأسدي اليهم النصح إذا استطعت . ولكنني ما كنت على ثقة من قدرتي على إدارة مثل هذه المسألة الصغيرة ، نسياً ، من ذلك المكان القصي . وهكذا اغتنمت أول فرصة سنحت لي فذهبت إلى أحمد آباد . وكنت أمل ان انجز كلاً من المسألتين في سرعة لأعود إلى تشامباران فأشرف على العمل الانشائي الذي استُهل هناك .

ولكن الأمور لم تجري بالسرعة التي كنت راغباً فيها ، فلم أستطع أن أعود إلى تشامباران ، مما أدى إلى إغلاق المدارس التي انشأناها فيها واحدة بعد واحدة . كنت أنا وأعواني قد بنينا قصوراً كثيرة في الهواء ، ولكنها تلاشت كلها مؤقتاً .

ومن تلك القصور الكثيرة صيانة البقرة في تشامباران ، بالإضافة إلى الريية وحفظ الصحة الريفية . فقد كنت رأيتُ خلال رحلاتي ان صيانة البقر والدعاية المندية قد أمسا موضع اهتمام المارواديين الأوحده . وكان احد أصدقائي المارواديين قد استضافني في بيته النُسكيّ يوم كنت في بيتنا . وكان مارواديون آخرون من أبناء تلك البلدة قد أثاروا اهتمامي بصنع اللبن ( الغوشالا goshala ) الذي أنشأوه . وكانت فكراتي عن صيانة البقرة قد تكونت على نحو محدد آنذاك ، وكان مفهومي للعمل هو نفس مفهومي اليوم . فقد كنت أعتقد أن صيانة البقرة تشمل توليد سلالات الماشية ، وتحسين السلالة ، ومعاملة الثيران والعجول المخصصة معاملةً إنسانية ، وانشاء مصانع اللبن النموذجية وغيرها . وكان اصدقائي المارواديون قد وعدوا بالتعاون معي في هذا العمل تعاوناً كاملاً ، ولكن هذا المشروع لم يخرج إلى حيّز التنفيذ بسبب عدم تمكنني من الاستمرار في تشامباران .

إن « غوشالا » بيتا لا يزال قائماً هناك ، ولكنه لم يُبصر مصنع لبن نموذجياً ، وثور تشامباران الخصي لا يزال يُشغّل أكثر من طاقته ، وكان من يدعونه « الهندوسي » لا يزال يوسع الحيوان المسكين ضرباً على نحو وحشي ، ويلحق العار بدينه .

ولقد كان من دواعي أسفي ، ولا يزال ، أن يظل هذا العمل بعيداً عن التحقيق . وكلما ذهب إلى تشامباران وسمعت عتاب الاصدقاء الماروادين والبيهاريين تذكرت ، في تهمة عميقة ، جميع تلك الخطط التي تعين عليّ أن أطرحها على ذلك النحو المفاجيء .

إن العمل التربوي ، بطريقة أو بأخرى ، ناشطٌ في كثير من المواطن . ولكن العمل في سبيل صيانة البقرة لم ترسخ جنوره حتى الآن ، ومن أجل ذلك لم يتقدم في الاتجاه المرسوم .

وفيما كنت لا أزال أدرس قضية عمال « خبدا » ، شرعت في دراسة مسألة عمال المصانع في أحمد آباد .

كان الوضع دقيقاً إلى أبعد الحدود . وكانت قضية العمال واضحة قوية . ولقد شنت شريعاتي آناسورباباي حملةً على أخيها ، الأستاذ آمبالال سارايباي ، الذي قاد المعركة لمصلحة أصحاب المصانع . كانت صلاتي بهم ودية وهذا ما جعل صراعي معهم أصعب وأصعب . ولقد اتصلت بهم . وسألتهم أن يحلوا النزاع إلى التحكيم ، ولكنهم رفضوا الاعتراف بمبدأ التحكيم .

وهكذا اضطررت إلى أن أشير على العمال باعلان الاضراب . وقبل أن أقدم على ذلك اتصلت بهم وبزعمائهم اتصالاً وثيقاً وشرحت لهم شروط الاضراب الناجح :

- ١ . أن لا يلجأوا إلى العنف البتة ،
- ٢ . أن لا يتحرشوا بمفسدي الاضراب البتة ،
- ٣ . أن لا يعتمدوا على الصدقات البتة ،
- ٤ . وأن يظلوا صامدين مهما تطاول الاضراب ، وأن يكسبوا خبزهم

- خلال الاضراب - بالقيام بأيما عمل شريف آخر .  
 وفهم قادة الاضراب هذه الشروط وقبلوها ، وأقسم العمال في اجتماع عام ان لا يستأنفوا العمل إلا إذا قُبلت مطالبهم أو رضي أصحاب المصانع بأحالة التراجع إلى التحكيم .  
 وخلال هذا الاضراب بالذات عرفت الاستاذين فالابهاي باتل وشانكارالال بانكر معرفة جيدة . أما شريجاتي آفانسرياباي فتقد عرفتها جيداً قبل ذلك .  
 كنت أعقد اجتماعات يومية مع المضربين في ظل شجرة قائمة على ضفاف نهر « سابارماتي » . كانوا يشهدون الاجتماع بالآلاف ، وكنت اذكرهم في أحاديثي بالمعهد الذي أدخلوه على أنفسهم . وبأن من واجبه الاحتفاظ بالأمن واحترام الذات . فكانوا يتظاهرون كل يوم في شوارع المدينة تظاهراً سلمياً حاملين رايتهم وقد كتبت عليها عبارة «تيك-تيك» EK - TEK (أوفرو بالمعهد) .  
 واستمر الاضراب واحداً وعشرين يوماً . وفي أثناء ذلك اتصلت بين الفينة والفينة بأصحاب المصانع وتوسلت اليهم ان ينصفوا العمال . فكانوا يقولون لي :  
 « لقد أخذنا على أنفسنا ، نحن الآخرين ، عهداً . إن صلنا بالعمال هي صلة الآباء بأبنائهم ، فكيف نجيز ان يدخل في ما يتنا فريق ثالث ؟ أين المجال لتحكيم ؟ »

## ٢١ . نظرة على « الأشرم »

قبل ان أتقدم الى وصف تطورات التراجع مع العمال ، من الضروري أن ألقى نظرة على « الأشرم » . فطوال اقامتي في تشامباران لم يفارق « الأشرم » ذهني البتة ، ولقد كنت أقوم بزيارته بين الفينة والفينة زيارات خاطفة .  
 وكان « الأشرم » آنذاك في كوتشراي . وهي قرية صغيرة على مقربة من أحمد آماد . وانتشر الطاعون في هذه القرية فرأيت الخطر يهدد سلامة الأولاد

في « الأشرم » تهديداً واضحاً . كان من المتعذر علينا ان نمتنع بمتاعة تقبنا آثار  
الأوضاع غير الصحية المحيطة بنا ، مهما التزمنا قواعد النظافة ضمن جدران  
« الأشرم » . ولم تكن آنذاك أكفاء لا لحمل أبناء كوتشراب على التزام هذه  
القواعد ولا على خدمة القرية بطريقة أخرى .

وكان مثلاً الأعلى ان نقيم « الأشرم » على مبعدة آمنة من المدينة والقرية  
جميعاً ، ومع ذلك فقد كنا نتوخى ان تكون المسافة التي تفصلنا عن كل منهما  
معقولة . وكنا قد عقدنا النية ، في يوم من الايام ، على اقامة « الأشرم » في  
أرض فشرية .

وشعرت ان الطاعون كان انذاراً كافياً بضرورة الانتقال من كوتشراب .  
وكان بونجابهاي هيراشاند ، وهو تاجر من تجار احمد آباد ، قد أمسى على  
اتصال وثيق « بالأشرم » ، وكان من دأبه ان يساعدنا في كثير من المسائل بروح  
طاهرة لا تعرف الانانية . كانت له معرفة واسعة بالاحوال في احمد آباد ولقد  
تطوع لبحث عن أرض ملائمة لنا . لقد طفت معه المناطق الواقعة شمالي كوتشراب  
وجنوبها بحثاً عن قطعة من الارض ، ثم اقترحت عليه أن يبحث عن أرض تقع  
على بعد ثلاثة أميال أو اربعة أميال إلى الشمال . وأخيراً عثر على الموقع الحالي .  
ولقد كان في قربه من سجن سابراماتي المركزي ما جذبني بنوع خاص . لقد  
أعجبني الموقع باعتبار ان دخول السجن كان قدراً مقدوراً على المشاركين في  
حركة اللاعنف . وكنت أعرف أن المواقع المختارة للسجون تكون ، هي وما  
جاورها ، نظيفة على العموم .

وفي حوالي ثمانية أيام أتممتنا الصفقة . لم يكن في تلك الارض بناء أو شجرة  
ولكن موقعها على ضفاف النهر وانعزالها كانا ميزتين كبيرتين .

وقررنا ان نبدأ بالعيش في ظل الخيام ، وان نتخذ من مقبلة مبنية من  
الصفائح مطبوخة لنا ، ريشاً يتم تشييد الابنية الدائمة .

كان « الأشرم » ينمو في بطن . وكان عدداً الآن يزيد على اربعين رجلاً  
وامراً وطفلاً ، وكنا نتناول الطعام في مطبخ مشترك . كان كل ما يتصل

بموضوع الانتقال من وحي تفكيري ، وكان التنفيذ يُترك ، كالعادة ، لما غنلال . وكانت مصاعبنا ، قبل ان تم لنا أسباب السكن الدائمة ، كبيرة . كانت الامطار وشيكة ، وكان علينا أن نأتي بالمون من المدينة الباعدة اربعة أميال عنا . وكانت الارض - وهي قفر في الاصل - مألئى بالأفاعي ، ولم يكن من اليسير علينا ان نحيا مع الأولاد الصغار في مثل هذه الظروف . كانت القاعدة العامة تقضي بأن لا تقتل الأفاعي ، على الرغم من أن احداً منا - وأنا أعترف بذلك - لم يطرح الخوف من هذه الزواحف ، بل لم يطرحه حتى هذه اللحظة .

إن القاعدة التي تقضي بعدم قتل الزواحف السامة قد طُبِّقَتْ في معظم الاحوال في فونيكس ، ومزرعة تولستوي ، وسابارماتي . فني كل من هذه المواطن كان علينا أن نقي الرحال على اراضٍ قفرة . بيد أننا لم نُؤمنَ بأي خسارة في الأرواح ناشئة عن لسعة أفعى . إنني أرى بعين الايمان ، في هذه الملاحظات ، بد رب الرحمة . ولا يعترض أحد على هذا ، قائلاً ان الله لا يمكن أن يكون منحيزاً البتة ، وأنه ليس لديه متسع من الوقت للتفكير على مشكلات البشر . فأننا لا أملك أبداً لغة أخرى للتعبير عن حقيقة الأمر ، لو صف خبرتي المساوقة هذه . إن اللغة البشرية لا تستطيع أن تصف طرائق الله في العمل إلا وصفاً ناقصاً . وأنا أعني أن هذه الطرائق لا سبيل إلى وصفها واستيعابها . ولكن إذا كان للإنسان الثاني ان يجرؤ على وصفها فإنه لن يجد وسيلة إلى ذلك خيراً من ألفاظه المغممة . وحتى لو كان من الخرافة أن أوثر بأن الحصانة من الأذى ، على نحو كامل ، طوال خمسة وعشرين عاماً ، على الرغم من تطبيق مبدأ عدم قتل الأفاعي تطبيقاً نظامياً إلى حد بعيد - أتول إذا كان من الخرافة ان أوثر بأن هذه الحصانة ليست مجرد مصادفة ولكنها فضل من الله ، فاني احب ان اثبت بهذه الخرافة .

وخلال إضراب عمال المصانع في أحمد آباد وضع الأساس لسقينة الاشرم ، الخاصة بالحياكة . ذلك ان نشاط « الاشرم » الرئيسي ، آنذاك ، كان الحياكة .

أما الغَزَلُ فلم يكن في ميسورنا حتى ذلك الحين .

## ٢٢ . الصوم

وفي خلال الأسبوعين الأولين أبدى عمال المصانع شجاعة فائقة وضبطاً لنفس ، وعقدوا اجتماعات يومية ضخمة . وفي تلك المناسبات كنت اذكرهم بالعهد الذي أخذوه على أنفسهم ، فكانوا يؤكدون لي أنهم يؤثرون الموت على لنكث بالعهد .

ولكن أمارات الزمن شرعت تبدو عليهم ، آخر الأمر . وكما يتجلى الضعف الجسدي ، عند الرجال ، بالحق فقد أصبح موقفهم من مفندي الاضراب يهدد بمخطر متزايد يوماً بعد يوم ، بعد أن تراخى الاضراب في ما يبدو ، وشرعت أخشى ان تنفجر عندهم النزعة إلى العنف . وبدأ عدد الذين تعودوا حضور الاجتماعات يتضاءل شيئاً بعد شيء ، وتجلى القنوط وائسأس على وجوه الذين حضروها . وأخيراً نُمي الي أن المضربين بدأوا يتداعون للنقوط . فاستبد بي قلق عميق ، ورحت أنساأل ، في احتياج ، ما الواجب الذي يتعين علي القيام به في تلك الظروف . لقد سبق ان عرفتُ اضراباً ضخماً في جنوب افريقية ، ولكن الحالة التي واجهني هنا كانت مختلفة . كان العمال قد أدخلوا العهد على أنفسهم بإيماء مني . وكانوا قد ردّدوا على مسمع مني يوماً بعد يوم ، فكان مجرد التفكير في أنهم قد ينكثون بعهدهم أمراً لا أستطيع تصوّره . ما الذي كان وراء هذا الشعور ؟ الغرور ، أم حبي للعمال ، أم كلفي العامر بالحقيقة ؟ لا أحد يدري

وذاث يوم - وكان ذلك في أحد اجتماعات العمال - وبينما كنت لا أزال أنلمس طريقى فلا اراها في وضوح ، ألقى النور في فؤادي . لقد انطلقت الكلمات

من شفتي من غير ان أدعوها ، فاذا بي أعلن في الاجتماع : « ما لم يلمّ العمال  
شعهم ويواصلوا الاضراب حتى يتم الوصول إلى تسوية أو حتى يغادروا المصانع  
وكانهم رجل واحد ، فإن أقرب بعد هذه اللحظة طعاماً ما . »  
وصنع العمال . وبدأت العبرات تتحدر على وجنتي آناسويابيهن .  
وانهجر العمال قائلين :

« نحن الذين سنصوم ، لا أنت . انه لأمر رهيب ان تضطر أنت إلى  
الصيام . نتوسل اليك ان تغفر لنا زلتنا . سوف نبقى الآن أوفياء لعهدنا  
حتى النهاية . »  
فأجبت :

« لا داعي لأن تصوموا . حسبكم ان تظلوا أوفياء لعهدكم . وأنتم تعلمون  
اننا لا مال عندنا ، ولنا نريد ان نواصل إضرابنا بالعيش على الصدقات العامة  
من اجل ذلك يمين عليكم ان تحاولوا سدّ رمقكم من طريق بعض الاشغال لكي  
يكون في إمكانكم ان تظلوا في نجوة من القلق مهما تطاول الأضراب . أما صومي  
فلن ارجع عنه إلا بعد الوصول إلى تسوية مع أصحاب المصانع . »

وفي غضون ذلك كان فالاباي يحاول ان يوجد للضريرين بعض الاعمال في  
البلدية ، ولكن لم يكن ثمة كبير أمل في النجاح هناك . وكنا نحتاج إلى رمل لطمر  
أساس مدرسة الحياكة التابعة للأشرم ، فاقترح ماغانلال غانندي أن يُستخدم  
عدد منهم لهذا الغرض . ورحب العمال بالاقتراح . وتقدمت آناسويابيهن  
انصفوف وفي بدا سلة ، وما هي الا فترة حتى أصبحت ترى سيلاً من العمال  
الحاملين سلال الرمل على رؤوسهم ، يتدفق من حوض النهر . كان مشهداً جديراً  
بأن يُرى . واستشعر العمال ان قوة جديدة قد أفرشت في نفوسهم ، وأصبح  
من العسير علينا ان ننهض بعبء دفع الاجور اليهم .

ولم يخل صياحي من نقص خطير . وتفصيل ذلك انه كانت لي ، كما اشرت  
في فصل سابق ، صلات وثيقة وودية مع أصحاب المصانع ، وكان لا بد  
لصياحي من ان يؤثر في قرارهم . وكنت أعلم ، بوصفي رجلاً لا عنفياً ، أنه



لا يلبث بي ان أصوم ضدهم ، بل ينبغي أن أترك لهم حريتهم في التأثر بأضرار العمال ليس غير . اني لم اصم عن الطعام بسبب من زلة أصحاب المصانع : لقد صمت بسبب من زلة العمال التي شعرت بأنني كنت ، بوصفي ممثلاً لهم ، شريكاً فيها . كان قصاري ، مع أصحاب المصانع ، ان اناقش وآتي بالدليل . أما الصيام ضدهم فكان بمثابة الاكراه والالزام . ومع ذلك ، فعلى الرغم من معرفتي ان صيامي لا بد ان يحدث ضغطاً عليهم ، كما حدث فعلاً ، فقد استشعرت اني ما كنت قادراً على ان افعل غير ذلك . لقد بدا واجب القيام بذلك جلياً في عيني .

وحاولت أن أعيد الطمأنينة إلى نفوس أصحاب المصانع . لقد قلت لهم : « ليس هناك أيما ضرورة تضطركم إلى الانسحاب من مواقعكم . » ولكنهم تلقوا كلماتي في برود ، بل راحوا يرشقوني بسخرياتهم الحادة الدقيقة ، وقد كان لهم كل الحق في ذلك من غير شك .

وكان الرجل القائم وراء موقف أصحاب المصانع المتصلب من الاضراب هو الشيث أمبالال . كانت ارادته الحازمة واخلاصه الصافي راعين . ولقد استحوذا على اعجابي . وهكذا فإن العار الذي لحقه صيامي بالمقاومة ، التي كان هو على رأسها ، قد حز في فؤادي حزاً . وفوق هذا ، فقد كانت زوجته ، سارا لاديني ، تستشعر نحوي مودة كمودة الاخت الشقيقة ، ولم يكن في طوفي أن أراها تنألم أوجع الألم ببسبي .

وشاركتني آناسويابيهن ، وعدد من الاصدقاء الآخرين والعمال ، في صيامي خلال اليوم الأول . ولكنني استطعت ، بشيء من الجهد ، ان أنتيهم عن الاستمرار فيه أكثر من ذلك .

وكانت النتيجة النهائية لذلك ان نشأ حولنا جو من حسن النية . كانت قلوب أصحاب المصانع قد رقت ، فراحوا يحذون عن وسيلة لاجراء تربية . وأمسى منزل آناسويابيهن ندوةً لمناقشتهم . وتدخل الاستاذ آناندشانكار دروفا ، وعين في آخر الأمر حكماً ، وحلّ الاضراب بعد ان صمت ثلاثة أيام ليس غير .

واحتفل أصحاب المصانع بالحدث بتوزيع الحلوى على العمال ، وهكذا تم الوصول إلى تسوية بعد اضطراب استمر واحداً وعشرين يوماً .

وشهد المفوض وأصحاب المصانع الاجتماع الذي عُقد احتفالاً بالتسوية . وكانت التسمية التي وجهها المفوض إلى العمال في تلك المناسبة : « يجب ان تعملوا دائماً وفقاً لنصيحة مسر غاندي . » وبعد هذه الحوادث مباشرة ، تقريباً ، تعين عليّ ان أدخل في نقاش حاد مع هذا الرجل الكريم نفسه . ولكن الظروف كانت قد تغيرت ، وكان هو قد غير الظروف . لقد شرع آنذاك بحل فلاحى خيلاً من الاستماع لنصيحتي !

ويجب ان لا أنسى هذا الفصل من غير ان ادون هنا حادثة مأساة وفاجعة في آن معاً . لقد وقعت بمناسبة توزيع الحلوى . ذلك ان أصحاب المصانع كانوا قد أوصوا على مقدار كبير جداً من الحلوى ، وكان توزيعها على آلاف العمال مشكلة محيرة . وتم الاتفاق آخر الأمر على ان من الأفضل توزيعها في الهواء الطلق تحت الشجرة نفسها التي أقسم العمال اليمين في ظلها ، خاصة وانه كان من غير الملائم بحال من الاحوال حشدهم كلهم في أيما مكان آخر .

وكنتم قد اعتبرنا من الأمور المسلم بها ان الرجال الذين حافظوا على النظام محافظة دقيقة طوال واحد وعشرين يوماً قادرون ، في غير ما صعوبة البتة ، على ان يظلوا واقفين في ترتيب وانضباط ، اثناء توزيع الحلوى ، فلا يزحفون للفرار بها زحفاً يتضح بالضيق وقلة الصبر . ولكن ما ان بدأت التجربة حتى أخفقت جميع الوسائل المتخذة للقيام بالتوزيع . كانت الفوضى تدب في صفوفهم كلما انقضت بضع دقائق على بدء التوزيع . وبذل زعماء العمال جهدهم لأقرار النظام ، ولكن على غير طائل . وأخيراً أمت الفوضى شديدة إلى حد أدى إلى سحق عدد كبير من الحلوى تحت الاقدام ، فكان لا بد ، آخر الامر ، من الاقتلاع عن توزيعها في الهواء الطلق . وفي صعوبة ، وقفنا إلى نقل باقي قطع الحلوى إلى بيت الشيت آمبالال في ميرزابور . وفي اليوم التالي وزعت الحلويات في هدوء ، في فناء ذلك البيت .

إن الجانب الفكاهي من هذه الحادثة واضح ، ولكن الجانب الفاجع يحتاج إلى تبيان . فقد أظهر التحقيق ، في ما بعد ، أن سكان أحمد آباد الفقراء ما كادوا يتسامعون بأن الحلوى سوف توزع تحت شجرة الـ « ايك-تيك » حتى شخصوا إلى هناك زرافات ووحداً . وكان زحفهم الجائع من أجل الفوز بالحلوى هو الذي أحدث تلك القوضى كلها .

إن الفقر والجوع الماحقين اللذين تعانيهما بلادنا هما من القسوة بحيث يدفعان كل عام عدداً متعظماً من الرجال إلى صفوف الشحاذين الذين يؤدي بهم السعي اليائس وراء الرغيف إلى تجريدهم من كل حس بالتأدب أو احترام الذات . ومن عجب أن المحسنين عندنا يقدمون اليهم الصدقات بدلاً من أن يوجدوا لهم أعمالاً ، وبدلاً من الألاح على ضرورة قيامهم بالعمل مقابل الخبز .

## ٢٣. لاعنف « خيدا »

ولكن القدر لم يدخر لي متسعاً أتفس فيه الصعداء . فما إن حلّ إضراب العمال في أحمد آباد حتى تعين عليّ أن أنهك في كفاح اللاعنفي في « خيدا » . كانت حالة تجاوز المجاعة قد نشأت في منطقة « خيدا » بسبب من القحط ، وكان فلاحو « خيدا » يدرسون إمكانية تعليق النظرية ذلك العام .

وكان الأستاذ آمرينلال ثاكار قد درس الوضع وقدم تقريراً عنه ودرس المسألة مع المفوض قبل أن أقدم نصيحة محددة إلى الفلاحين . وكان الأستاذ موهانلال بانديا وشانكارلال باربيخ قد خاضا غمار المعركة أيضاً ، واستنقرا مجلس بومباي التشريعي للعمل من أجل هذه القضية . وقد أعانها على هذا الاستنفار الأستاذ فينالبهاي باتل والمرحوم السير غوكولداس كاهانandas باربيخ وكانت عدة وفود قد زارت الحاكم لتراجعه في هذا الموضوع .

وكتب في ذلك الحين ريثاً لـ « كوجارات سابها » . فأرسلت هذه الجمعية

بعض العرائض والبرقيات إلى الحكومة ، بل لقد غصّت الطرف في أناة عن اهانات المخوض وتهديداته . وكان مساك الموظفين في تلك المناسبة مضحكاً وغير لائق إلى درجة تجعله الآن بعيداً جداً عن التصديق .

وكان مطلب الفلاحين واضحاً كالشمس في رابعة النهار ، ومعتدلاً إلى درجة تبرر قبوله تبريراً قوياً . وكان « قانون دخل الاراضي » يقضي بأن في مسور الفلاحين المطالبة بتعاليق الضريبة السنوية إذا كان المحصول أربع آنات أو أقل . وقيل ، وفقاً للأرقام الرسمية ، ان المحصول زاد على أربع آنات . أما الفلاحون فكانوا يصرون على أنه أقل من أربع آنات . ولكن الحكومة لم تكن في مزاج يساعدها على الاستماع ، واعتبرت المطالبة الشعبية بالتحكيم « عيباً في الذات الملكية » lèse-majesté . وأخيراً ، بعد أن اخفقت جميع الاحتجاجات والتوسلات ، وبعد أن شاورت أعوان في الأمر ، نصحت الفلاحين باللجوء إلى اللاعنف .

وإلى جانب « متطوعي » خيلاء كان رفائي الرئيسيين في هذا النضال الاستاذان فالابهي باتل وشانكار لال بانكر ، وشريماتي آناسوايييهن . والاستاذان ايندولال ياجنيك ، وماهاديف ديزاي وغيرهم . وكان على الاستاذ فالابهي ، بانفساءه إلى النضال ، ان يعطل مكتبه الحقوقي المزدهر ، حتى إذا حاول استئناف نشاطه فيه ، بعد ذلك ، لم يوفق إلى ذلك البتة .

واتخذنا لنا مقراً في ال « نادباد آناتاشرم » إذ لم نجد مكاناً آخر ينسج لنا جميعاً . وأمضى اللاعنفيون هذا العهد :

« إنا وقد علمنا ان محاصيل قرانا أدنى من أربع آنات سألنا الحكومة تعليق جباية ضريبة الأرض حتى السنة التالية ، وأنكن الحكومة لم تنزل عند توسلاتنا . من أجل ذلك نعلن ، بيجلال . نحن الموقعين أدناه . اننا لن ندفع إلى الحكومة ، من ثلثاء أنفسنا ، كامل ضريبة السنة أو الباقي منها . سوف نترك الحكومة تتخذ أيما خطوة قانونية تراها ملائمة ، وسوف نتحمل نتائج عدم الدفع في سرور . إنا نؤثر تعريض أراضينا للمصادرة على القبول — من طريق دفع الضريبة

الاداري - بأن تُعتبر قضيتنا باطلة ، وعلى تعريض احترامنا الذاتي للهوان .  
 أما إذا وافقت الحكومة على تعليق جباية القسط الثاني من الضريبة في طول  
 المقاطعة وعرضها فإن القادرين منا على الدفع سوف يدفعون كامل الضريبة أو  
 رصيدها المستحق . أما لإحجام القادرين على الدفع عن إداء الضريبة فمردّه إلى  
 انهم إذا دفعوا فقد يضطر الفلاحون الأكثر فقراً إلى ان يبيعوا ، في غمرة من  
 الذعر ، أثاث بيوتهم أو ان يستدينوا ليدفعوا الضرائب المستحقة عليهم ، وهكذا  
 يرهقون أنفسهم ويسبون إليها . اننا نشعر ، في هذه الحال ، ومن اجل مصلحة  
 الفقراء ، ان من واجب القادرين على الدفع ، أنفسهم ، ان يمسكوا عن دفع  
 الضريبة .

أنا لا أستطيع ان افرد لهذا النضال كثيراً من الفصول . وهكذا فإن عبداً من  
 للذكريات العذبة ذات الصلة بهذا الموضوع سوف يُتهم . أما  
 الراغبون في دراسة هذا الصراع الهام على نحو اكمل واعمق فمن الخير لهم ان  
 يطلعوا قصة لاعنف « خيدا » الكاملة الموثوقة التي وضعها السيد شانكارالال  
 باريسخ .

## ٢٤ . « سارق البصل »

لما كانت تشامباران تقع في زاوية نائية من الهند ، ولما كنا قد استبعدنا  
 الصحافة عن الحملة ، فإن المقاطعة لم تحتلب زائرين من الخارج . أما حملة  
 « خيدا » ، التي كانت الصحافة تنقل ماجرياتها يوماً بعد يوم ، فلم تكن كذلك .  
 كان الكوچاراتيون شديدي الاهتمام بالصراع ، الذي كان تجربة جديدة  
 بالنسبة اليهم . كانوا على استعداد لأن يفرغوا ثرواتهم من أجل لإنجاح القضية .  
 ولم يكن يسيراً عليهم أن يدركوا ان اللاعنف لا يمكن ان يوجه بواسطة المال  
 وحده . فالأمر هو آخر ما يحتاج اليه اللاعنف . وعلى الرغم من احتجاجي ، فإن

تجار بومباي بعثوا الينا بقلدر من المال يفيض عن الحاجة ، حتى لقد بقي معنا رصيد منه عند نهاية الحملة .

وفي الوقت نفسه تعين على المتطوعين في اللاعنف ان يتعلموا درس البساطة الجديد . ولست أستطيع أن أقول إنهم استزعموا ذلك الدرس استيعاباً كاملاً ، ولكنهم غيروا طرائق حياتهم إلى حد كبير .

وكانت تلك المعركة شيئاً جديداً ، بالكلية ، على فلاحي « خيدا » أيضاً . وهكذا كان علينا ان نتنقل من قرية إلى قرية لنشرح لهم مبادئ اللاعنف .

وكان الشيء الأساسي هو تجريد الفلاحين من خوفهم بحملهم على ان يدركوا ان الموظفين ليسوا سادة الشعب ولكنهم خدم الشعب ، ما داموا يتلقون رواتبهم من دافع الضرائب . ولقد بدا ، فوق هذا ، أن من المستحيل حملهم على ان يدركوا ضرورة مزج الكياسة بعدم الخوف . إذ كيف السبيل ، وقد اطرحوا للخوف من الموظفين ، إلى ردعهم عن الردّ على الاهانة بالاهانة ؟ ومع ذلك فانهم إذا لجأوا إلى الوقاحة أفلسوا لاعنفهم ، كما تفقد اللين قطرة من زرينخ . وادركت في ما بعد أن نجاحهم في تعلم درس الكياسة كان دون ما توقعته منهم . ولقد علمني الاختبار ان الكياسة أصعب جزء من أجزاء اللاعنف . والكياسة لا تعني هنا مجرد اللطف الخارجي في الحديث المعدّ لمناسبة من المناسبات ، ولكن اللطف السليقي والرغبة في الاحسان إلى الخصم . إن هذين يجب أن يتجلبيا في كل عمل من أعمال اللاعنفي .

وفي المراحل الأولى بدت الحكومة وكأنها غير راغبة في اتخاذ اجراء صارم ، على الرغم من ان الشعب أظهر شجاعة فائقة . ولكن ما ان أبى الثبات الشعبي أن يتكشف عن أي وهن أو تراخٍ حتى لجأت الحكومة إلى انقهر والاكراه . لقد أخذ موظفو الحجز يبيعون مواشي الناس ويستولون على جميع المقولات التي استطاعوا وضع اليد عليها . وصدرت مذكرات التفرغ ، وحجزت المحاصيل القائمة في بعض الاحيان . وأومن ذلك عزائم الفلاحين ، فدفع بعضهم الضرائب

المنتهقة عليهم ، على حين رغب آخرون في أن يضعوا بعض منقولات بيت  
الموتوة في طريق الموظفين لكي يحجزوها ويستوفوا من ثمنها الضريبة المستحقة .  
ولكن بعض الفلاحين كانوا ، من ناحية ثانية ، مستعدين للتشال حتى النهاية  
المريرة .

وفيما كانت هذه الأحداث تجري ، دفع احد الفلاحين المستأجرين عند  
الاستاذ شانكارلال باريخ الضريبة المستحقة على أرضه . فأحدث ذلك هزة  
هند الناس . وفي الحال عمد الاستاذ شانكارلال إلى التعويض عن الغلظة التي  
ارتكبها فلاّحه بأن تبرّع بالأرض التي دُفعت الضريبة المفروضة عليها للاغراض  
الخيرية . وهكذا أنقذ شرفه وضرب مثلاً صالحاً للآخرين .

ومن اجل قَوْلَة قلوب المروّعين اشرت على الشعب ، بقيادة الاستاذ  
موهانلال بانديا ، بأن ينقلوا محصول البصل من حقل كان الحجز قد ألقي عليه  
— في نظري — ظلماً وعدواناً . ولم أعتبر ذلك عصياناً مدنياً . ولكن حتى لو  
كان كذلك فقد أعلنت ان حجز المحاصيل القاسية قد يكون منسجماً مع  
القانون ولكنه خطأ من وجهة النظر الاخلاقية ، وأنه لا يعلو ان يكون سلباً  
ونهباً ، ومن هنا فان من واجب الناس أن ينقلوا البصل على الرغم من الأمر  
الصادر بحجزه . وكانت هذه فرصة صالحة يتعلم فيها القوم درساً في إغراء  
السلطة بتفريغهم وسجنهم وهي النتيجة الضرورية لمثل هذا العصيان . وصادف  
ذلك هوّى في نفس الاستاذ موهانلال بانديا . فلم يكن ليرغب في انتهاء الحماية  
من غير ان يتحمل انسان ما ، عذاب السجن لعمل يتم وفقاً لمبادئ اللاعنف .  
وهكذا تطوّع لقل محصول البصل من الحقل ، وشاركه في ذلك سبعة أو ثمانية  
من الاصدقاء .

وكان من المتعذر على الحكومة أن تبقّيهم أحراراً . وزاد اعتقال الاستاذ  
موهانلال ورفاقه في حياصة الشعب . فحين يتبخّر خوف السجن يُوَقَّع القمع  
في قلوب الناس جرأة وبسالة . وفي يوم المحاكمة طوقت حشود منهم دار  
القضاء . وأدين بانديا ورفاقه وحُكِمَ عليهم بالسجن فترة قصيرة . وكان من

رأبى ان الادانة ظالمة ، لأن تقل محصول البصل ما كان ينطبق عليه تعريف « السركة » في قانون العقوبات . ولكني لم أقدم أيما طلب للاستئناف إذ كان من سياستنا ان نجتنب المحاكم .

ورأيت الحشود اولئك « الجنة » إلى السجن . وفي ذلك اليوم خلع الشعب على الاستاذ موهانلال بانديا هذا اللقب التشريفي : « دونغلي تشور » ( سارق البصل ) الذي لا يزال يحتفظ به إلى اليوم .

أما الكلام على اختتام لاعنف « خيدا » فسوف ارجئه إلى الفصل التالي .

## ٢٥ . نهاية لاعنف « خيدا »

وانتهت الحملة إلى نهاية غير متوقعة . كان واضحاً ان الارهاق الشديد قد ألمّ بالناس . وتردّدت في أن أجزى للعناد بأن يقود القوم إلى تخراب الكامل . وكنت أفكر باحثاً عن طريقة لبثّة لأنهاء الصراع تكون مقبولة عند المؤمن باللاعنف . وقد برزت تلك الطريقة على نحو غير متوقع . ذلك بأن « ماملاتدار » نادية تالوكا بعث اليّ يقول : « إذا دفع الفلاحون الميسرون ما عليهم من الضرائب فان السلطة سوف ترجي استيفاء الضرائب من الفلاحين الفقراء . فطلبت منه أن ينصّ على هذا التعهد في صك خطي ، ففعل . ولكن لما كان كل ماملاتدار مسؤولاً عن الـ « تالوكا » الخاضعة له فحسب فقد وجهت سؤالاً ، بهذا الموضوع ، إلى رئيس الجباية الذي كان وحده قادراً على اعطاء تعهد يشمل المنطقة كلها . فأجاب بأن أوامر بتعليق الجباية قد أصدرت وفقاً للشرط الذي انشأت عليه رسالة الماملاتدار . ولم أكن أعني ذلك . ولكن إذا كان هذا الأمر حقيقة فان العهد الذي قطعه الناس على أنفسهم يكون قد تحقّق . وكان ذلك العهد ، كما يذكر القراء ، يهدف إلى هذه الغاية نفسها : وهكذا أعلنّا ارنياحتنا إلى تلك الأوامر .



يبد أن هذه النهاية كانت أعجز من أن توقع السعادة في نفسي ، إذ كانت تعوزها تلك « النعمة » التي يجب أن ترافق إنهاء كل حركة من حركات اللاعنف . فقد تابع رئيس مكتب الجبابة نشاطه وكأن تسوية « ما » ، لم تتم . كان الانساق يقضي بتعليق استيفاء الضرائب من الفقراء ، ولكن نفراً قليلاً جداً أفادوا من ذلك . وكان من حق الناس ان يقرروا من هو الفقير ، ولكنهم لم يستطيعوا ممارسة هذا الحق . وأحزنني ان لا تكون لهم القوة على ممارسته . وهكذا فعلى الرغم من أن تلك النهاية اعتُبرت نصراً للاعنف فلم يكن في وسعي ان أتمسك لها ، إذ كانت تعوزها العناصر الاساسية للنصر الكامل .

إن نهاية حركة من حركات اللاعنف لا يمكن أن توصف بأنها رائعة وجليطة إلا إذا جعلت اللاعنفيين أقوى وأكثر إقداماً مما كانوا عند بدئها .

يبد أن الحملة لم تكن خلواً من النتائج غير المباشرة التي نستطيع ان نراها اليوم ، والتي نجني فوائدها في هذه الفترة . إن لاعنف « خيدا » يُعتبر بداية بقطة عند فلاحي كوجارات ، بداية تربيتهم السياسية الحقيقية .

كانت حملة الاثارة الالامعة التي شنتها الدكتور بيزانت في سبيل الحكم الذاتي قد حركت مشاعر الفلاحين من غير ريب ، ولكن حملة « خيدا » هي التي أكرهت المتخفين المشتغلين في حقل الخدمة العامة على الاحتكاك بحياة الفلاحين الحقيقية . لقد تعلموا كيف يمتنون في هؤلاء الفلاحين . ولقد وجلوا ميدان نشاطهم الملائم ، وتماثلت قدرتهم على التضحية . وكان اكتشاف فالابهاي لنفسه في هذه الحملة نصراً ليس بالقليل . كان في استطاعتنا ان نلوك مداه خلال أعمال الانعاش التي تمت إثر الفيضان ، في العام الماضي ، وخلال لاعنف باردولي هذا العام . وأفرغت في الحياة العامة في كوجارات طاقة جديدة وعزم جديد . لقد انتهى الفلاحون إلى أن يتعوا قوتهم وعياً لا يتطرق اليه النيان . وانطبع في الذهن العام ، انطباعاً لا يُمحى ، أن خلاص الشعب يتوقف عليهم هم ، على قدرتهم على التضحية وتحمل الآلام . وبفضل حملة

« خيدا » رسخت جنود اللاعنف في تربة كوجارات .  
وهكذا ، فعلى الرغم من أنني لم أجد ما يثير حماسي حول اختتام حركة  
اللاعنف ، فإن فلاحى « خيدا » كانوا متلهلين مبتهجين لأنهم علموا أن ما  
حققوه كان متكافئاً مع جهدهم ، ولأنهم اكتشفوا الطريقة الحقيقية الكفيلة برفع  
الظلم عنهم . وكانت هذه المعرفة كافية لتبرير تهملتهم وابتهاجهم .  
ومع ذلك فإن فلاحى « خيدا » لم يكونوا قد فهموا ، فهماً كاملاً ، المعنى  
الباطني لللاعنف ، وسنصل الكلام على ذلك في الفصل التالية .

## ٢٦. النزعة الى الوحدة

لقد شنت حملة « خيدا » فيها كانت الحرب المهلكة قائمة . في أوروبا ،  
على قدم وساق . ونشأت في هذه الآونة أزمة ، فدعا نائب الملك مختلف الزعماء  
إلى مؤتمر خاص بالحرب يُعقد في دلهي . وكنت قد تعرضت لألحاح يقول  
بضرورة حضوري ذلك المؤتمر . ولقد سبقت مني الإشارة إلى العلاقات الودية  
التي ربطت ما بيني وبين اللورد تشيلمزفورد .  
واستجابة لهذه الدعوة قصدتُ إلى دلهي . ومع ذلك ، فقد كانت لي  
اعتراضاتي على الاشتراك في هذا المؤتمر ، وبرزها استبعاد زعماء مثل الاخوين  
هيللي ، عن المؤتمر . كانا آنذاك في غياب السجن . وكنت قد لقينها مرة أو  
مرتين ليس غير ، على الرغم من اني كنت قد سمعت أشياء كثيرة عنها . كان  
كل امرئ قد أطرى خدماتها وشجاعتها . ولم أكن قد احتككت ، آنذاك ،  
احتكاكاً وثيقاً بـ « حكيم صاحب » ولكن الرئيس رودرا وديناباندو آنندروز  
كانا قد أثبا لي عليه ثناء كثيراً . وكنت قد التقيت مستر شُعب قُرشي ومستر  
خواجه في « العصبة الاسلامية » في كلكتا . وكنت قد اتصلت أيضاً بالدكتور  
أنصاري والدكتور عبد الرحمن . كنت أسعى إلى مصادقة بعض المسلمين

الطيبين ، وكنت نواقاً إلى فهم العقل المسلم من خلال الاتصال بأصفي ممثليه  
وأكثرهم وطنية . وهكذا لم أحتج قط إلى أيما ضغط الذهاب معهم ، حيثما  
أخذوني ، لكي أحتك بهم احتكاً وثيقاً .

وكنت قد أدركت في وقت مبكر في جنوب افريقية أنه لم تكن ثمة صداقة  
أصيلة بين اذندوس والمسلمين . ولم أدع أيما فرصة تمر من غير أن أعمل على  
إزالة العقبات من طريق الوحدة . ولم يكن من طبعي أن أهديء احداً بالتملق  
أو على حساب احترام الذات . ولكن تجاربي في جنوب افريقية كانت قد  
اقنعتني بأن فكرة «الأهيسا» (أوالحب) سوف تواجه ، في موضوع الوحدة الهندوسية  
الاسلامية ، اقصى اختبار لها ، وان هذه المسألة تقدم اوسع حقل لتجاربي في  
«الأهيسا» . وانا لا أزال مقتنعاً بهذا حتى الآن . وفي كل لحظة من حياتي ،  
أدرك أن الله يجربني .

وإذ كنت أحمل مثل هذه المفاهيم الراسخة ، في موضوع الوحدة ، عند  
عودتي من جنوب افريقية ، فقد كنت شديد التوق إلى الاتصال بالاخوين  
عليّ . ولكن قبل ان يصبح اتصالي بهما وثيقاً ، التي بهما في غياهب السجن .  
كان من دأب مولانا محمد علي أن يكتب اليّ من بيتون وتشيندوادا كلما اجاز  
له سجانوه ذلك . وقدّمت طلباً التمس فيه الاذن لي بزيارة الاخوين ، ولكن  
على غير طائل .

وبعد دخول الاخوين عليّ السجن دعاني بعض الاصدقاء المسلمين إلى  
حضور دورة الرابطة الاسلامية في كلكتا . وإذ طلب اليّ أن أتكلّم فقد حدثت  
القوم عن واجب المسلمين في السعي لاطلاق سراح الاخوين . وبعد ذلك بقليل  
اصطحبني هؤلاء الاصدقاء إلى انكلية الاسلامية في عليكره . وهكذا دعوت  
الشبان إلى أن يجعلوا من أنفسهم «فقراء» من أجل خدمة الوطن .

ثم انني اخذت أراسل الحكومة لأطلاق سراح الاخوين . وبصدد ذلك  
درست آراء الاخوين في مسألة الخلافة ونشاطها من أجلها . لقد تناقشت مع

بعض الاصدقاء المسلمين . شعرت بأنني إذا كنت أطمح في أن أكون صديقاً صلوفاً للمسلمين فينتعين عليّ أن أسندي أكبر عون ممكن لاطلاق سراح الاخوين وللوصول إلى تسوية عادلة لمسألة الخلافة . ولم يكن من شأني أن أتدخل في مقومات المسألة المطلقة ، شرط أن لا يكون في مطالبتها أي شيء غير أخلاقي . فمضي المسائل الدينية تختلف المعتقدات ، وتكون معتقدات كل امرئ هي العليا عنده . ولو كان للناس جميعاً معتقد واحد في مسائل الدين ، اذن لما كان ثمة غير دين واحد في العالم . ومع الايام اكتشفت أن مطلب الخلافة الاسلامي لم يكن غير مناف لأي مبدأ أخلاقي فحب ، بل اكتشفت أيضاً أن رئيس الوزارة البريطانية كان قد سأل بعدالة المطلب الاسلامي . وهكذا شعرت بأنني ملزم بتقديم كل مساعدة أقدر عليها من أجل تحقيق العهد الذي قطعه رئيس الوزارة على نفسه . وكان ذلك العهد قد صيغ بتعابير هي من الواضح بحيث كانت دراسة مقومات المطلب الاسلامي ضرورية لارضاء ضميري الشخصي ليس غير .

لقد انتقد كثير من الاصدقاء والنقاد موقفني من مسألة الخلافة . وعلى الرغم من هذا النقد فأني أشعر بأنه ليس ثمة سبب بدعوني إلى تعديل موقفني ، أو إلى الندم على تعاوني مع المسلمين . وأراني مستعداً لاتخاذ الموقف نفسه إذا ما نشأت حالة مماثلة .

وهكذا كنت قد عقدت النية ، عندما ذهبت إلى دلهي ، على أن ارفع قضية المسلمين إلى نائب الملك . ان مسألة الخلافة لم تكن قد اتخذت الشكل الذي اتخذته في ما بعد .

ولكن بما إن وصلت إلى دلهي حتى نشأت عقبة جديدة تعترض حضوري المؤتمر . فقد أثار دينابندو أندروز تساؤلاً عن أخلاقية اشتراكي في المؤتمر العربي . لقد حدثني عن النقاش الدائر في الصحافة البريطانية في ما يتصل بالمعاهدات السرية بين انكلترا وإيطاليا . وتساءل ستر اندروز : كيف استطيع أن أشارك في المؤتمر إذا كانت انكلترا قد دخلت في معاهدات سرية مع دولة

أوروبية أخرى ؟ وكنت لا أعرف شيئاً عن تلك المعاهدات . ولكن كلمة ديناباندو آنروز كانت كافية عندي . وهكذا وجهت رسالة إلى اللورد تشيلميز فور د أشرح فيها ترددي في الاشتراك بالمؤتمر . فدعاني إلى دراسة المسألة معه . ولقد تحدثت حديثاً طويلاً معه ومع أمين سره الخاص ، مستر مافي . وبنتيجة ذلك وافقت دلي الاشتراك في المؤتمر . وكانت هذه هي حجة نائب الملك : « لا ريب في أنك لا تعتقد أن نائب الملك يعرف كل ما تقوم به الوزارة البريطانية من أعمال ، وأنا لا أزعم ، وليس أحدٌ يزعم ، أن الحكومة البريطانية معصومة عن الخطأ . ولكن إذا كنت توافق على أن الامبراطورية كانت على العموم قوة من قوى الخير ، وإذا كنت تعتقد أن الهند افادت ، على الجملة ، من الرابطة البريطانية أفلا تسلّم بأن من واجب كل مواطن هندي أن يساعد الامبراطورية في ساعة محتتها ؟ لقد قرأت أنا أيضاً ما تنشره الصحف البريطانية من المعاهدات السرية ، وفي استطاعتي أن أوكد لك أنني لا أعرف شيئاً أكثر من ذلك الذي تقوله الصحف ، وأنت تعرف الأكاذيب التي تطلقها هذه الصحف في كثير من الأحيان . فكيف تستطيع ، بناء على مجرد نبأ من أنباء الصحف ، أن ترفض مساعدة الامبراطورية في مثل هذا الظرف العصيب ؟ في إمكانك أن تثير أية قضية أخلاقية تريد إثارتها ، وأن تتحدانا قدام تشاء بعد انتهاء الحرب ، لا اليوم . »

كانت الحجة غير جديدة . ولكنها راقنتني كشيء جديد بسبب من الطريقة التي عرضت بها ، والساعة التي عرضت بها ، فوافقت على أن أشهد المؤتمر . وفي ما يتصل بالمطالب الاسلامية كان عليّ أن أوجه رسالة إلى نائب الملك .

## ٢٧ حملة تجنيد

وهكذا شهدت المؤتمر . وكان نائب الملك شديد الحرص على تأييدي للقرار الخاص بالتجنيد . وطلبت أن يؤذن لي بالكلام باللغة الهندية-الهندوسكانية . ووافق نائب الملك على طلبي ، ولكنه اقترح أن أتكلم باللغة الانكليزية أيضاً . ولم يكن لدي خطاب ألقه . فقلت جملة واحدة مفادها : « أنني بكامل الشعور بمسؤوليتي

أرجو أن تؤيدوا القرار .

وهناني كثيرون على تكلمي باللغة الهندوستانية . لقد قالوا ان هذه كانت أول مرة ، على قدر ما تستحضر الذواكر الحية ، يتحدث فيها امروا باناسان الهندوستاني في اجتماع كهذا . وكان في انتهات الموجهة اليّ واكشاني أنّي كنت أول من تكلم بالهندوستانية في اجتماع برئاسة نائب الملك - أقول كان في تلك التهنّات وذلك الاكتشاف ما جرح كبريائي الوطنية . لقد شعرت وكأنّي أنقلص في جلدي . فيا لها من فاجعة أن تكون لغة البلاد محرّمة في اجتماعات تُعقد في البلاد ، من أجل عمل يتصل بالبلاد ، وأن يكون خطابٌ بليغي بالهندوستانية شخص ضالٌ مثلي مسألة تستحق التهنّة ! إن أحداً مثل هذه لتذكرنا بالدرك الخفيض الذي تردّينا فيه .

لقد كان الجملة الوبيدة التي لفظتها في المؤتمر مغزىً عظيم عندي . كان من المتعلّر عليّ أن أنسى أياً من المؤتمر أو القرار الذي أيدته . وكان ثمة تعهد تعيّن عليّ الوفاء به وانا بعدُ في دلهي . كان عليّ ان أوجه رسالة إلى نائب الملك ولم يكن ذلك شيئاً يسيراً بالنسبة إليّ . فقد شعرت ان واجبي ، لمصلحة الحكومة ومصلحة الشعب جميعاً ، ان أشرح في تلك اللحظة كيف ولماذا شهدت المؤتمر ، وأن انصّر في وضوح على ما يتوقمه الشعب من الحكومة .

وفي تلك الرسالة عبّرت عن أسفي لاستبعاد زعماء مثل لوكامانيا تيلاك والاخوين عليّ عن المؤتمر . ونصصت على الحد الأدنى لمطالب الشعب السياسية وعلى مطالب المسلمين أيضاً بسبب من الظرف الذي خلّقه الحرب . وأسأذنت في نشر الرسالة ، فأذن لي نائب الملك في سرور .

وكان عليّ ان أبعث بالرسالة إلى سحلا ، التي كان نائب الملك قد شخص إليها بعد المؤتمر مباشرة . وكانت الرسالة ذات أهمية كبيرة لديّ ، وكان ارسالها بالبريد خليقاً بأن يؤخر وصولها . كنت أريد توفير الوقت ، ومع ذلك فلم أكن ميالاً إلى أن احتملها أيما رسول أقع عليه . كنت أريد ان يعملها رجل طاهر ويوصلها بنفسه إلى مقر نائب الملك . واقترح دينابندو آندروز والرئيس

وودرا اسم القس آيرلند الصالح من رجال ارسالية كامبريدج . فوافق على حمل الرسالة إذا أذن له في قراءتها وإذا ما بدت صالحة في عينيه . ولم أعرض على ذلك لأن الرسالة لم تكن شخصية بأية حال . وقرأها ، وأعجب بها ، وعبر عن رغبته في حملها . واقترحت أن أقطع له تذكرة سفر بالدرجة الثانية ، ولكنه اعتذر قائلاً انه كان متعوداً بالسفر بالدرجة المتوسطة . وقد فعل ذلك على الرغم من انها كانت رحلة ليلية . والواقع ان بساطته وسلوكه الواضح الصريح أخذ بمجامع فؤادي . وأتت الرسالة التي قدمت على يد رجل طاهر الذهن ثمرتها المرجوة . لقد أراحت ضميري ومهدت سيلي .

وكان القسم الآخر من التراماتي يتألف من تعبئة المجندين . وأين أستطيع في غير خيلاء ، ان أستهن نشاطي في هذه السبل ؟ ومن غير أعواني في العمل أستطيع أن أدعوهم إلى إنشاء طلائع المجندين الأولى ؟ وهكذا ما ان وصلت إلى نادباد حتى اجتمعت إلى فالاباي وغيره من الاصدقاء . ولم يعجب بعضهم بالاقتراح . أما الذين اعجبوا به فكانوا في ريب من نجاحه . كان ثمة ود مفقود بين الحكمة وبين الطبقات التي رغب في توجيه ندائي اليها ، فقد كانت التجربة المريرة التي ذاقتها من موظفي الحكومة لا تزال طرية في ذاكرتهم .

ومع ذلك فقد كانوا راغبين في استهلال العمل . وما ان بدأت النهوض بالمهمة حتى زالت الفشاوة عن عيني . لقد أصيب تفاؤلي بصدمة قاسية . ففي حين كان القوم ، خلال حملة تعليق الضرائب بقدّمون عرباتهم مجاناً ، وفي حين كان متطوعان يتقدمان كلهما في حاجة إلى واحد ، كان من العسير علينا الآن أن نجد عربية ولو بأجر ، أما المتطوعون فما عدنا نقع لهم على أثر . ولكننا ما كنا لثروء . لقد قررنا الاستغناء عن استعمال العربات وعزّنا على القيام برحلاتنا سيراً على الأقدام .

وعلى هذا النحو كان علينا أن نجتاز عشرين ميلاً تقريباً ، كل يوم . وإذا كان قد تعدّر علينا الحصول على العربات فليس من ريب في ان من الحماقة أن نتظر من الناس ان يقدموا اليها حاجتنا من الطعام . ولم يكن من اللائق ان نأثم

نعماً . وهكذا قررنا ان يعمل كل متطوع ضعاه في جرابه . ولم يكن ثمة حاجة إلى فرش أو أغطية فرش . فقد كان ذلك في فصل العيف .

وعقدنا الاجتماعات حينما ذهبنا . وكان الناس يشهدون الاجتماعات ونكر واحداً أو اثنين كانا يعلنان استمادهما للانضمام إلى القوات المحاربة . أنت تدعو إلى الاعتف فكيف تدعونا إلى حمل السلاح ؟ ، أي خير أسدته الحكومة إلى الهند حتى تستحق تعاوننا ؟ كان هذان السؤالان نموذجاً من الاسئلة التي وجهت بنا .

وأياً ما كان ، فان عملنا الدائب بدأ يوتني ثمره . فقد سُجلت اسماء كثيرة . وراودنا الأمل بأن يكون في مقدورنا ، وشيكاً ، أن نقدم زُمرأ متواصلة من المجتدين حالما تُرسل الشزيمة الأولى . وكنت قد شرعت أدرس مع المفوض مسألة إيواء المجتدين .

وكان المفوضون يعقدون في كل اقليم مؤتمرات مماثلة لمؤتمر دلهي . ولقد عقدوا واحدة منها في كوجارات . ودُعيت أنا وأعواني إلى ذلك المؤتمر . فشهدناه ، ولكني شعرت بأن المكان كان ينوبني هنا أكثر مما نبا في دلهي . ففي هذا الجو من الخضوع الدليل استشعرت ضيقاً وحرراً . وتحدثت في بعض الاسهاب . ولم أستطع ان أقول شيئاً يرضي الموظفين ، وكان لدي أمر أو أمران قاسيان أردت أن أعبرَ عنهما .

وكان من دأبي ان أنشر كراريس تدعو أفراد الشعب إلى الالتحاق بالقوات المسلحة . وكانت احدى الحجج التي اصطنعتها بغية إلى المفوض : « من بين مساوي الحكم البريطاني الكثيرة في الهند سوف ينظر التاريخ إلى القانون الذي يحرم أمة بكاملها من السلاح بوصفه أشد تلك المساوي سواداً . وإذا ما قدمت الطبقات المتوسطة مساعدة طوعية إلى الحكومة في محتتها فان الارتباب سوف يزول ، وان الحظر على امتلاك السلاح سوف يرفع . » وأشار المفوض إلى هذا وقال انه يقدر حضورني المؤتمر حق قدره على الرغم من ضروب الخلاف، التي بيننا . ولقد كان عليّ ان أبرر موقفني بأقصى ما أستطيع من الكياسة .



وفيا يلي نص الرسالة التي ذكرت من قبل اني وجهتها إلى نائب الملك :

« بعد تفكير مرويّ فيه شعرت ، كما تعلمون ، بأنني ملزم بالافضاء لسعادتكم بعدم استطاعتي ان أشهد المؤتمر للاسباب المتصوص عليها في رسالة السادس والعشرين من الشهر الجاري ( نيسان - ابريل ) ، ولكن بعد المقابلة التي تطلّفت بمنحي إياها اقمّت نفسي بضرورة حضور المؤتمر بدافع من عظيم احترامي لك ، على الأقل . ومن الاسباب التي كانت ترهّدني بذلك ، ولعله أقوى تلك الاسباب ، أن لوكامانيا تيلاك ، ومز ييزانت ، والاخوين عليّ ، الذين أعتبرهم من أكبر قادة الرأي العام نفوذاً لم يدعّوا إلى المؤتمر ، وأنا لا أزال أعتقد بأن عدم دعوتهم كان غلطة كبيرة ، وأرى في احترام ان تلك الغلطة قد تُصحح إذا ما دُعِيَ اولئك الزعماء إلى مساعدة الحكومة بإسداء نصيحتهم لليها في المؤتمرات الاقليمية التي فهمت أنها سوف تُعقد في ما بعد . وأغامر فألجّ على انه ليس في ميسور أي حكومة ان تُغفل الزعماء ، الذين يمثلون جماهير ضخمة من الشعب ، كما يمثلها اولئك الزعماء الذين ابعدوا عن المؤتمر ، على الرغم من انهم قد يحملون آراء مختلفة اختلافاً أساسياً ( عن آراء الحكومة ) . ويهيجني في الوقت نفسه ان استطيع القول ان آراء جميع الاحزاب قد سمح لها بأن تجسّد تعبيرها الحرّ في لجان المؤتمر . أما أنا فقد أحججت عامداً عن الافضاء بآرائني في اللجنة التي كان لي شرف خدمتها ، أو في المؤتمر نفسه . لقد شعرت ان في استطاعتي ان أخدم أغراض المؤتمر احسن الخدمة بمجرد تأييدي لقرارات المعروضة عليه ، وهذا ما فعلته من غير أي تحفظ . وأنا آمل ان انقل الكلمة المانفوضة إلى حيز العمل حالما يتبدى للحكومة ان تقبل عرضي الذي أقدمه مع هذه الرسالة في مذكرة منفصلة .

« أنا أدرك أن علينا ، في ساعة ممّتها ، ان نقدّم - كما قرّرنا ان نفعل - تأييداً خاوّاً من الحقد والتابس إلى الامبراطورية التي نطمح في المستقبل القريب إلى أن نكون شركاء فيها على طريقة الدومينيونات الواقعة وراء البحار . ولكن من الانصاف للحقيقة ان نقول ان استجابتنا مردّها إلى أننا نودّ ان نبلغ هدفنا ،

من هذه الطريق ، على نحو أسرع . ولهذا السبب ، ولما كان أداء الواجب يمنح ، بشكل آلي ، حقاً مقابلاً ، فإن من حق الشعب ان يؤمن بأن الاصلاحات الوشيكة التي اشترى اليها في خطابكم سوف تشمل المبادئ الرئيسية العامة التي ينطوي عليها مشروع « المؤتمر - الرابطة » . وأنا واثق من أن هذا الايمان ذو الذي مكن كثيراً من أعضاء المؤتمر من أن يقدموا إلى الحكومة تعاونهم الصميمي الكامل .

« وإذا ما استطعت أن أحمل مواطني على اقتضاء آثارهم فعندئذ أكون قد حملتهم على سحب جميع مفررات « المؤتمر الهندي » ، وعلى ان لا يافظوا تعبیر « الحكم الذاتي » أو « الحكومة المسوؤة » ما دامت الحرب متذبذبة . عندئذ أكون قد جعلت الهند تقدم جميع الاصحاء من أبنائها قرباناً للإمبراطورية في لحظاتها الحرجة . وأنا أعلم ان الهند سوف تصبح ، بهذا الصنيع ، الشريك صاحب الحظوة الكبرى في الامبراطورية ، ويصبح التمييز العنصري خبراً ماضياً . ولكن جميع أبناء الهند المتقنين ، تقريباً ، قد قرروا ان يتخلوا مسلکاً أقل فعالية ، ولم يعد في الامكان القول ان الطبقة الهندية المثقفة لا سلطان لها على الجماهير . لقد كنت على اتصال وثيق ، إلى أبعد الحدود ، مع جماعات الفلاحين منذ عودتي من جنوب افريقية إلى الهند ، وأنا أحب أن اؤكد لك ان الرغبة في الحكم الذاتي قد نفذت إلى نفوسهم نفاذاً واسعاً . لقد شهدت جلسات « المؤتمر الهندي » الأخيرة ، ولقد أبدت القرار القائل بأن الهند البريطانية يجب ان تمنح حكومة مسؤولة بكل ما في الكلمة من معنى خلال فترة يُحددها قانون يصدره البرلمان . أنا اسلم بأنها خطوة جريئة : ولكني واثق من أن بما شيء أقل من التمتع بالحكم الذاتي ، في أقرب وقت ممكن ، لن يرضي الشعب الهندي . وأنا أعلم أن هناك كثيرين في الهند لا يخلون عن القيام بأية تضحية من أجل الوصول إلى هذا الهدف ، وهم من البقطة بحيث يدركون ان عليهم ان يكونوا مستعدين ، أيضاً ، للتضحية بأنفسهم على مذبح الامبراطورية التي يأملون ويرغبون في ان يبلغوا مترلتهم النهائية فيها . ويلزم عن هذا اذن ان انصرفنا الصامت قلباً

وروحاً ، إلى العمل من أجل انقاذ الامبراطورية من الخطر المهدد ، لا يمكن إلا أن يؤدي إلى تسريع اندفاعنا نحو الهدف . وإنه من الانتحار الوطني ان لا ندرك هذه الحقيقة الابتدائية . يجب علينا ان ندرك ، اننا إذا ما عملنا من اجل انقاذ الامبراطورية ، ضمناً ، من طريق ذلك العمل نفسه ، الحكم الذاتي .

« وفيما يتجلى لي على نحو واضح ان علينا ان نقدم إلى الامبراطورية كل رجل قادر على الدفاع عنها ، أخشى ان لا أستطيع ان أقول الشيء نفسه في ما يتصل بالمساعدة المالية . إن اتصالي الوثيق بالفلاحين يقنعني بأن المند قد قدمت حتى الآن إلى الخزانة الامبراطورية أكثر مما تمكنتها طاقتها من تقديمه . وأنا أعلم اني إذا أطلق هذا الحكم اردد صدى آراء الأكثرية الغالبة من أبناء وطني .

« إن المؤتمر يعني عندي ، واعتقد انه يعني عند كثير منا ، خطوة واضحة في وقف حيواتنا للقضية المشتركة ، ولكن موقفنا غريب شاذ . فنحن اليوم خارج تلك الشراكة . ونضحيتنا مبنية على الأمل بمستقبل أفضل . واني لأكون غادعاً لك ولوطني إذا لم أزل لك في وضوح لا لبس فيه ما هو ذلك الأمل . أنا لا أساور من أجل تحقيقه ، ولكن يجب ان تعرف أن خيبة الأمل تعني نزع الفشاوة عن العيون .

« هناك شيء لا يجوز لي ان أغفله . لقد ناشدتنا ان ندفن الخلافات المحلية . فاذا كانت تلك المناشدة تشمل غض الطرف عن الطغيان والظلم الصادرين عن الموظفين فعندئذ أعلن عجزني عن الاستجابة . إنني سوف أقاوم الطغيان المنظم إلى أبعد حدود المقاومة . ان الواجب يقضي بأن نناشدوا الموظفين ان لا يسيئوا معاملة نفس واحدة وان يحترموا رأي الشعب ويستشيروه . والواقع اني عندما قاومت في تشامباران الطغيان الممتد الجنود عبر الاجيال استطعت ان أظهر سيادة العدل البريطاني المطلقة . وفي « غيدا » نجد ان الشعب الذي كان يعلن الحكومة أصبح يشعر الآن أنه هو ، وليس الحكومة ، صاحب السلطة ، حين يكون مستعداً لتحمل الآلام من أجل الحقيقة التي يمثلها . وهكذا فان نقمة الشعب هناك أخذت في الانحسار . وإن افراده يقولون لأنفسهم ان الحكومة هي من

غير شك حكومة تعمل لمصلحة الشعب لأنها تجيز العصيان المنظم الناضح بالاحترام  
حيثما نشأ ظلم . وهكذا فإن مسألتي تشامباران وشيدا هما مادة في الخاصة المحددة  
المباشرة في الحرب . اطلب اليّ ان اعلّق نشاطي في هذا الحقل تطلّب اليّ ان اعلّق  
حياتي . فاذا استطعتُ أن اروج اصطناع قوة الروح ، وهي مجرد اسم آخر  
لقوة الحب . بدلاً من القوة البوذية ، فمئذ أستطيع أن أتقدم نحوكم بهند  
قادرة على أن تتحدى العالم بأسره بأن يفعل اسوأ ما يستطيع ان يفعل . ومن هنا  
فسوف أفرض على نفسي ، في كل آن ، ان اعبر بحياتي عن قانون التأم السرمدي  
هذا ، وان ادعو إلى قبوله من شاء . وإذا ما شاركتُ في أيما نشاط آخر فسوف  
يكون الدافع إلى ذلك إظهار سمو ذلك القانون سموً لا يضارع .

وأخيراً أودّ ان تسألوا وزراء صاحب الجلالة ان يقدموا تأكيدات واضحة  
في موضوع الولايات الاسلامية . وأنا واثق من انكم تعلمون ان كل مسلم شديد  
الاهتمام بهذه الولايات . وأنا . بوصفي هندوياً ، لا أستطيع ان أنف من  
قضيتهم موقف اللامبالاة . إن أتراحهم يجب أن تكون أتراحتنا . وفي الاحترام  
البالغ لحقوقهم بتلك الولايات وللشعور الاسلامي في ما يتصل بأماكن العبادة .  
وفي الاستجابة العادلة العاجلة لرغبة الهند في الحكم الذاتي ، تكمن سلامة  
الامبراطورية . إنني اكتب هذه الكلمات لأنني احب الأمة الانكليزية ، وأريد ان  
أبعث في نفس كل هندي الولاء الذي يعمر صدور الانكليز .

## ٢٨ . على عتبة الموت

والحق اني كدت أنلف صحتي خلال حملة التجنيد . ففي تلك الايام كان  
غذائي يتألف في المحل الأول ، من زبدة الفول السوداني واليسون . وكنت  
أعلم ان الافراط في أكل الزبدة يسيء إلى الصحة . ومع ذلك فقد أجزت ذلك  
لنفسي . وأدى ذلك إلى اصابتي بالديزانتاريا على نحو طفيف . ولم أبال بهذا  
كثيراً ، وقصدت في تلك انليلة إلى « الأشرم » ، كما كان دأبي بين القينة

والغبية . وكنت نادراً ما أتناول دواء في تلك الايام . وخطر لي ان حالتي الصحية سوف تتحسن إذا استقطت وقعة من وقعات الطعام ، والواقع اني شعرت بتحسن كبير عندما أحملت وقعة الصباح في اليوم التالي . بيد اني كنت أعلم ان التخلص من العلة نهائياً كان يقتضي ان اطليل صيامي ، وإذا ما أكلت أبما شيء على الاطلاق فينبغي أن لا يعدو عصر الفاكهة .

وكان ثمة مهرجان ما ، في ذلك اليوم . وعلى انزعج من اني قلت لكاستورباي اني لن أتناول عند الظهر أبما طعام فقد أغرني بالأكل فاستلمت للاغراء . واذ كنت قد نذرت أن لا أتناول أبما حليب أو شيء من مشتقاته فقد أعدت لي ثريد حنطة محلى ، أضيف اليه الزيت بدلاً من الـ « غي » . وكانت قد احتفظت لي أيضاً بملء طاسة من الـ « مانغ » . وكنت مولعاً بهذه الاشياء ، فتناولتها في الحال راجياً ، من غير أن ينتهي بي ذلك إلى التدم ، أن آكل مقداراً كافياً لأرضاء كاستورباي وإرضاء فمي في وقت واحد . ولكن الشيطان كان ينتظر فرصة ما . وبدلاً من أن آكل مقداراً ضئيلاً جداً ملأت بطني من ذلك الطعام . وكان في ذلك دعوة كافية للملاك الموت . وفي مدى ساعات ظهرت الديزنطاريا في شكل حاد .

وفي الليلة نفسها كان عليّ أن أعود إلى نادباد . فمشيت في صعوبة باللغة إلى محطة نهر سابارماتي ، ابتاعدة عشرة فورتغات . ليس غير . ورأى الاستاذ فالابهاي ، الذي التحق بي في أحمد آباد ، اني في حالة صحية سيئة ، ولكني لم أدعه يترك لي أي حد كان الأمل ثاقباً لا يطاق .

ووصلنا إلى نادباد في حوالي الساعة العاشرة . وكان « الأناناشرم » الهندوسي الذي جعلناه مقرنا يقع على مبعدة نصف ميل من المحطة فحسب ، ولكن هذه المسافة كانت بمثابة عشرة أميال عندي . ووقفت بطريقة ما إلى باوغي المحطة ، ولكن الأمل الممض كان يتعاضل في أضداد . وبدلاً من استعمال المرحاض

المعتاد الذي كان بعيداً ، طلبتُ أن توضع خزانة تحتوي على حوض ماء في  
الغرفة المجاورة . واستحييت من هذا الطلب ، ولكن لم يكن ثمة مفرّ . وجاءني  
الاستاذ فولنشاند بتلك الخزانة في الحال : واستبدّ القلق بجميع الاصدقاء المحيطين  
ببي . كانوا اكلهم حياءً وعنايةً ، ولكنهم لم يستطيعوا تحريري من الألم . ولقد  
ضاعف عنادي عجزهم . ذلك أني رفضت قبول أيامساعدة طبية ، وأيت أن  
أخذ أي دواء مؤثراً أن أتعمل عقوبة حماقتي . وهكذا ران على وجوههم ذعرٌ  
بائس . ولا ريب أني تبرّزت ثلاثين أو اربعين مرة في اربع وعشرين ساعة .  
وصُتتُ ، فلم أتناول حتى عصير الفاكهة نفسه في بادئ الأمر . كانت شهوتي  
إلى الطعام قد زالت كلها . وكنت أضنّ دائماً أن لي جسداً حديدياً ، ولكني  
وجدت أن جسي كان قد أصبح الآن كتلة من طين . كان قد فقدَ كل قدرة  
على المناومة . وأقبل الدكتور كنوفا وحاول أن ينشني بأخذ الدواء . فأيت  
واقترح أن يطينني حقنة . فرفضت ذلك أيضاً . وكان جهلي بالحقن مضحكاً  
جلداً في تلك الأيام . كنت أعتقد ان الابرة لا بدّ ان تكون ضرباً من المتصل .  
وفي ما بعد اكتشفت ان الحقنة التي اقترحها الطبيب كانت مادة نباتية ، ولكن  
الاكتشاف كان بعد فوات الاوان . واستمرّ الاسهال ، مهكاً قواي إنهاكاً  
كاملاً . وقادني الانهك إلى حمى هاذية . وازداد اصدقائي قلناً وعصبيةً ،  
واستدعوا أطباءً اضافيين . ولكن ما الذي كان في استطاعتهم أن يفعلوه مع  
مريض يأبى الاستماع اليهم ؟

وأقبل الشيث أمبالال مع زوجته الطيبة إلى نادباد ، وتشاور مع أعواني ،  
ونقلني في عناية قصوى إلى بيته في أحمد آباد . كان من المتعذر على أي امرئ  
ان يلقي خدمةً أحفل بالمحبة والغيرية من تلك التي حقّبتُ بها خلال تلك  
المرضة ، ولكن ضرباً من الحمى الخفيفة ذلّ بيلي جسدي يوماً بعد يوم . وشعرت  
ان المرض لا بدّ متطاوّل وقد يكون مهلكاً ، وعلى الرغم من اني كنت محاطاً  
بكامل الحب والعناية اتذنين كان يمكن ان يُقدّقا عليّ تحت سقف الشيث  
أمبالال ، فقد استبدّ بي البرم ، وألححت عليه في نقلني إلى « الاشرم » . ولقد

نعين عليه ان يرضخ لألحاحي .

وفيا كنت انقلب هكذا على فراش الألم في « الاشرم » أنبأني الاستاذ فالاباى ان ألمانية قد هزمت هزيمة كاملة ، وان المفروض بعث بكلمة يقول فيها ان التجنيد لم يعد ضروريا . ولقد كان في هذا النبأ الذي أشعرنى بأنني ما عدت محتاجاً إلى ان أشغل بالي بأمر التجنيد هذا - أقول كان في هذا النبأ ما سرتى عن نفسي إلى أبعد الحدود .

وكنت قد بدأت ، الآن ، اجرب العلاج بالماء ، فأراحني ذلك بعض الشيء . ولكن إعادة بناء الجسد كانت مهمة عسيرة . وغمرني المشيرون الطيبون الكثر بالنصائح ، ولكني عجزت عن اقتناع نفسي باتباع أي منها . لقد اقترح اثنان منهم أو ثلاثة مرق اللحم وسيلة لتخلص من النذر الخامس بالحليب ، واستشهدوا بأقوال واردة في ال « آيورفيدا » تأييداً لنصيحتهم . ونصح أحدهم . في إلحاح ، بضرورة تناول البيض . ولكن جوابي عليهم جميعاً كان واحداً ، وهو كلمة « لا » .

إن مسألة تغذية ، عندي ، لم تكن مسألة تقرر على اساس من أقوال ال « شاستراس » . كانت مسألة « متناسجة » مع سياق حياتي المرشدة بمبادئ لم تعد تعتمد على توجيه خارجي . ولم تكن بي رغبة إلى العيش على حساب هذه المبادئ . وكيف أستطيع أن انتهك ، في ما ينصل بشخصي ، مبدأ فرضته في تزمّت على زوجتي ، وأولادي ، وأصدقائي ؟

وهكذا فان هذه الموضة ، التي كانت أول مرض طويل عرفته في حياتي ، أناحت لي فرصة فريدة لامتحان مبادئي ووضعها على محك التجربة . وذات ليلة أسلمت نفسي للأيأس . لقد شعرت اني على أبواب الموت . وارسات كلمة إلى آناسوراييين . فهرعت إلى « الاشرم » . وأقبل فالاباى مصطحباً الدكتور كانيغا ، الذي جسّ نبضي وقال : « نبضك حسن جداً . أنا لا أرى أي خطر البتة . هذا انهار عصبتي مرده إلى الضعف المتطرف . » ولكن هذه الكلمات كانت أعجز من أن توقع الظمانية في فؤادي . لقد أمضيت الليل مسهداً

لا تعرف النوم عيناى .

وارتفع الضحى من غير ان تقبل النية . ولكنى لم أستطع ان اتخلص من الشعور بأن النهاية وشيكة ، وهكذا شرعت اخصص جميع ساعاتى البقضى للاستماع إلى الجيتا يتلوه على بعض أصدقائى من أبناء « الاشرم » . كنت غير قادر على التلاوة . وكنت لا أكاد أستشعر الرغبة فى الكلام . كان أضال الحديث يُجهد دماغى . وكانت كل رغبة لى فى الحياة قد انقطعت ، إذ لم أحب قط فى يوم من الايام أن أعيش لمجرد العيش . كان مما يُمرض نفسى أشد الامراض ان أحيا فى مثل تلك الخاز العاجزة ، غير صانع شيئا ، متقبلاً خادمة الاصدقاء والأعوان ، مراقباً الجسد وهو يلوي شيئاً فشيئاً .

وفىما كنت منطرحاً على هذا النحو ارتقب الموت كل ساعة ، أقبل الدكتور تالفالكيل على ذات يوم ومعه مخلوق غريب قال إنه من ماهاراشترا . ولم يكن هذا الرجل مشهوراً ، ولكنى ما إن رأيته حتى عرفت انه مثلى يمارس فن الشفاء من غير إجازة . وكان قد وفد ليَجرب أساليبه على . لقد كاد ينهى دراساته فى كلية غرانت الطبية ولكنه لم يبل الشهادة . وفى ما بعد عرفت أنه يتسب إلى طائفة الـ « براهمو ساماج » . والواقع ان السيد كيلكار - فقد كان هذا هو اسمه - كان رجلاً ذا مزاج مستقل وعنيد . كان يؤمن إيماناً شديداً بالمعالجة بالثلج ؛ ولقد أراد ان يجرب ذلك على . وأطلقنا عليه لقب « طبيب الثلج » . وهو واثق كل الثقة من انه قد اكتشف أشياء لم ينتبه اليها الاطباء المجازون . ومن دواعي أسفه وأسفى أيضاً أنه عجز عن أن يُعديني بأمانه بطريقته تلك . لاني اؤمن بطريقته حتى نقدة معينة ؛ ولكنى أخشى أن يكون قد تعجّل الوصول إلى نفس الاحكام .

وأياً ما كانت قيمة مكشفاته فقد أجزت له أن يجرب على جسدي . ولم أمانع فى المعالجة الخارجية . وكانت المعالجة تقوم على وضع الثلج على الجسد كله . وإذا كنت عاجزاً عن الموافقة على دعواه الخاصة فى الأثر الذى تركته هذه المعالجة فى ، فان مما لا شك فيه انها أوقعت فى نفسى أملاً جديداً وطاقة جديدة .



ولقد كان العقل أثره في الجسد ضئيلاً . لقد عاودتني الشهوة إلى الطعام شيئاً بعد شيء ، وشرعت أشتهي شيئاً رقيقاً فترات تراوح كل منها ما بين خمس دقائق وعشر دقائق . وعندئذ أقترح إحداث تجديد في غذائي . لقد قال : « أوكد لك أنك سوف تنعم بقدْر من الطاقة أعظم ، وسوف تستعيد قوتك على نحو أسرع إذا أكلت البيض النيء . البيض كالحليب لا ضرر منه . وليس في الامكان ، من غير شك ، إدخاله في باب اللحوم . وهل تعلم أن البيض ليس كله مُلقحاً ؟ إن في السوق بيضاً مُعقماً . ولكني ما كنت مستعداً لأن آكل حتى البيض المعقم . وعلى أية حال فقد كان التحسن كافياً لاثارة اهتمامي في ضروب النشاط الشعبي .

## ٢٩ . مشروعات قوانين رولات والمأزق الذي وجدت نفسي فيه

وأكد لي بعض الاصدقاء والاطباء أنني لا بد أن أسترّدّ صحي على نحو أسرع إذا ما انتقلت إلى مائيران . وهكذا قصدت إلى هناك . ولكن ماها العسير جعل مُقامي هناك صعباً إلى أبعد الحدود . فقد نتج عن اصابتي بالديز نظارياً أن أصبحت القناة الشرجية حساسة جداً . وبسبب من الصدوع التي ألمت بها أخذتُ أشعر الماء مبرّحاً عند التغوط ، حتى لقد أمسى يجرد التفكير بأنني سوف آكل بمائيري رعباً . وقبل أن ينتهي الاسبوع كان عليّ أن أفرّ من مائيران . وفي هذه الفترة أقام شانكارالال بانكر نفسه وصياً على صحي ، وأنقضي باستشارة الدكتور دالال . وهكذا دُعي الدكتور دالال لمعاينتي . لقد أسرّني مقدرته على اتخاذ القرارات المبرّقة .

قال لي :

« وأنا لا أستطيع ان أعيد بناء جسدك إن لم تشرب الحليب . وإذا ما وافقت بالاضافة إلى ذلك على أخذ زرقات حديد ووزنيخ فعندئذ أكفل لك تجديد جسمك كمنالة كاملة . »

فأجبت :

« في استطاعتك ان تعطيني الزرقات . أما الحليب فمسألة أخرى . إن ثمة  
نلراً يحول بيني وبين تناوله . »  
فسألني الطبيب :

« ما هي طبيعة نلرك على وجه الضبط ؟ »

فرويت له القصة كاملة<sup>١</sup> والاسباب الكامنة وراء النذر وكيف اني بدأت  
أنقرز من الحليب نقرزاً قوياً منذ أن أدركت ان البقر والجواميس تخضع لعملية  
الد « فوكا » phooka . وإلى هذا فقد كنت دائماً أعتقد ان الحليب ليس هو  
الغذاء الطبيعي للانسان . ومن أجل ذلك اجتنبتة اجتناباً كاملاً . وكانت كاستورباي  
واقفة قرب سريري تصني إلى هذا الحديث على نحو موصول .  
فقاطعتني قائلة :

« ولكنك لا تستطيع ، اذن ، من غير شك ، ان تعترض على حليب الماعز . »  
فما كان من الطبيب إلا أن ضرب على هذا النغم قائلاً :  
« وإذا شربت حليب الماعز اكتفيت بذلك منك . »

ورضخت . كان توفي انعام إلى استئناف معركة اللاعنف قد خلق عندي  
رغبة قوية في البقاء على قيد الحياة ، وهكذا أقنعت نفسي بالتزام حرقية النلر  
فحسب ، فضحيّت بروحه . ذلك انه على الرغم من ان حليب البقرة والجاموسة  
كان في ذهني عندما قيدت نفسي بالنلر فان هذا النلر يشمل ، بالاستنتاج  
الطبيعي ، حليب جميع الحيوانات ، وكذلك فليس من المناسب لي أن أشرب  
الحليب إطلاقاً ، ما دمت اؤمن بأن الحليب ليس الغذاء الطبيعي للانسان . ومع  
علمي بذلك كنه فقد وافقت على شرب حليب الماعز . لقد اثبتت الرغبة في الحياة  
انها أقوى من الاخلاص للحقيقة ، وهكذا لم يكن من مريد الحقيقة إلا ان حاول  
التوفيق بين مثله الأعلى المقدس وبين ترة ، إلى استئناف معركة اللاعنف . ان ذكرى

هذا العمل للتهب ، حتى هذه الساعة ، في صلبي وعلاني تقريباً ووخز ضمير ،  
واني لأفكر تفكيراً متواصلاً في السبل التي تؤدي بي إلى اجتناب حليب الماعز .  
ولكني لا أستطيع ، إلى اليوم ، ان أتحرر من أدهى الاغراءات ، أعني الرغبة  
في أن أعيش ، وهي رغبة لا تزال تشد بي .

إن تجاربي في علم التغذية أثيرة لدي كجزء من مباحثي في الاهيمسا . إنها  
توقع في نفسي الانتعاش والبهجة . ولكن تناولي حليب الماعز اليوم لا يزعجني  
من وجهة نظر الاهيمسا الغذائية بقدر ما يزعجني من وجهة نظر الحقيقة ، باعتبار  
أنه نكتٌ بالعهد من غير ريب . ويبدو لي اني لم أفهم مثل الحقيقة الأعلى خيراً مما  
أفهم الاهيمسا ، وان تجربتي تثبت لي اني إذا أوهنت تعلقي بالحقيقة فلن أستطيع  
ان أحل لغز الاهيمسا . ومثل الحقيقة الأعلى يقتضي المراء الوفاء بنذوره روحاً  
وحرراً . وفي الحادثة التي رويتها في الفقرات السابقة قتلتُ الروح - روح  
نذري - بالتمسك بشكاه الخارجي فحب ، وذلك ما يثيرني وبغذي . ولكن  
على الرغم من هذه المعرفة الواضحة فليس في استطاعتي ان أرى سبيلي مستقيمةً  
أمامي . ولعلي ، بكلمة ثانية ، لا أملك الشجاعة على اتباع الطريق القديم . ان  
كلاً منهما يعني : في جوهره ، الشيء نفسه ، ذلك بأن الشك هو ، من غير  
ريب ، ثمرة قلة الإيمان أو ضعفه . واذن فان الابتهاال إلى الله قائلاً : هلمي .  
هلمي إيماناً ، هو صلاتي ليل نهار .

وما إن بدأت أشرب حليب الماعز حتى أجرى لي الدكتور دلال جراحةً  
ناجحةً لصدوع القناة الشرجية . وفيما كنت أنقذم في معارج النقاة تجددت رغبتي  
في الحياة ، خاصة وان الله كان قد ادخر لي عملاً .

وكنت قد بدأت اجد طريقي إلى الشفاء عندما اتفق ان قرأت في المصحف  
تقرير لجنة رولات الذي كان قد نُشر منذ لحظات . لقد أذهلني توصياتها .  
واقترح علي كل من شانكار لال بانكر وشمس سوباني ان أقوم بعمل عاجل في  
المسألة . وما انتضى نحو من شهر حتى قصدت إلى أحمد آباد . وعبرت عن  
مخاوفي لغالابهاي ، الذي كان من دأبه ان يفد ويراني كل يوم تقريباً . وقلت

له ، « ان شيئاً ينبغي أن يُعمل » . فسألني جواباً على كلامي : « ولكن ما الذي نستطيع ان نفعله في هذه الظروف ؟ » قلت : « إذا استطعنا ان نجد حفنة من الرجال ليس غير لتوقيع ميثاق المقاومة ، وأقرب مشروع القساؤون برغم ذلك الميثاق ، فعندئذ يتعين علينا أن نخوض معركة اللاعنف في الحال . ولولم أكن ملتزماً فراشي على هذا النحو اذن لخضت المعركة ضده بمفردي، ولتوقعت من الآخرين أن يخذوا حلوي. أما في حالة عجزني الحاضرة فأنا أشعر اني غير كفؤ لهذه المهمة بالمرة . »

وكنتيجة لهذا الحديث قررنا ان ندعو الاشخاص المتصلين بي إلى اجتماع صغير . فقد بدا لي ان توصيات لجنة رولات لا يمكن أن يبررها الدليل المنشور في تقريرها ، وشعرت ان هذه التوصيات كانت من نوع لا يمكن لأي شعب يحترم نفسه ان يرضخ لها .

وعقد الاجتماع المقترح ، آخر الأمر ، في « الاشرم » ولم يُدْعَ الى حضوره غير عشرين شخصاً أو أقل . واقد كان بينهم - على قدر ما اذكر - بالإضافة إلى فالاي ، كل من شريماني ساروجيني نايدو ، ومستر هورنيهان ، والمرحوم مستر عمر سوباني ، والاستاذ شانكارالال بانكر ، وشريماني آناسويابهن . وفي هذا الاجتماع وضعنا نص اللاعنف ، وقد وقع عليه جميع الحاضرين كما اذكر . ولم أكن أحرر أيما صحيفة في ذلك الوقت ، ولكن كان من دأبي أن اعبر عن آرائي ، بين الفنية والفنية ، من طريق الصحافة اليومية. وقد اتبعت هذه الخطة نفسها في تلك المناسبة . وتابع شانكارالال بانكر حملة الإنارة في صدق واخلاص ، وللمرة الأولى اخذت فكرة عن مقدرته الرائعة على التنظيم والعمل الموصول .

وإذ تراءى لي ان من النعبث الذي لا طائل نحته ان أتوقع تبني أي من المؤسسات القائمة لسلاح جديد مثل الساتياغراها أو اللاعنف ، فقد انشئت ، بناء على إلحاحي ، منظمة مستقلة دُعيت «ساتياغراها سابها» . وكان اعضاؤها الرئيسيون من يومباي . حيث أقيم مقرها العام بسبب من ذلك . ثم ان الداخلين في هذه

المنظمة شرعوا بوقوع عهد اللاعنط بأعداد كبيرة ، واصدورت النشرات ، وبدأت الاجتماعات العامة تُعقدُ في كل مكان مذكرةً بجميع مظاهر حملة «خيدا» المألوفة .

وأصبحتُ رئيساً لـ «سانياغراها سابها» . وسرعان ما وجدت أنه لن يكون ثمة كبير أمل في نشوء اتفاق بيني وبين الطبقة المثقفة التي تتألف منها هذه الـ «سابها» . والواقع ان إصراري على استعمال اللغة الكوجاراتية في الـ «سابها» وبعض طرائقي الأخرى في العمل ، هذه الطرائق التي قد تبدو غريبة — أقول ان ذلك كله أثار قلقهم وارتباكهم إلى حدٍّ غير يسير . بيد انه يتعين عليّ أن أقول ، انصافاً لهم ، ان كثرتهم تحملت شذوذاً في كثير من رحابة الصدر . ولكنني استطعت ان أثبتن ، منذ البدء ، ان الـ «سابها» لن تعمّر طويلاً . لقد رأيت ان توكيدي على الحقيقة وعلى الاهمسا كان قد أمسى بغيضاً إلى بعض أعضائها . وأبأ ما كان فان نشاطنا الجديد انطلق ، في مراحل الأولى ، بأقصى اندفاعه ، واكتسبت الحركة ، في سرعة ، قوة متعاطمة

### ٣٠ . ذلك المشهد الرائع !

وهكذا ، فينا كان الميجان ضد مؤتمر لجنة رولات يزداد ضخامةً وعنفاً ، كانت الحكومة تزداد عزماً وتصميماً على تنفيذ توصيات تلك اللجنة . ونُشر قانون رولات . وكنت قد شهدتُ جلسات مجلس المند التشريعي مرةً في حياتي ليس غير ، وذلك عندما جرى النقاش في مشروع ذلك القانون . والقي شاستريجي خطاباً شديد الانفعال حذر فيه الحكومة تحذيراً خطيراً . وبدأ نائب الملك وكأنه يستمع إلى الخطاب مشدوهاً ، وقد ثبتت عينه على شاستريجي فيما كان هذا الأخير يقذف بجمم بلاغته الالهية . وتراءى لي في تلك اللحظة ان نائب الملك لا يمكن إلا أن يتأثر بالخطيب أعظم التأثير ، فقد كان كلامه صادقاً جداً ، مفعماً بالعاطفة إلى أبعد الحدود .

ولكنك لا تستطيع ان توقف المرء إلا إذا كان نائماً حقاً. ولن يكون لاجما  
جهد تنفقه أثراً ما إذا كان متظاهراً بالنوم مجرد تظاهر . وقد كان ذلك وضع  
الحكومة بالضبط . كانت نواقة إلى ان تمثل مسرحية الشكليات القانونية . كانت  
قد اتخذت قرارها وانتهت . وهكذا لم يغير التحذير المهيب الذي أطلقه شاستري  
من موقف الحكومة شيئاً البتة .

وفي مثل هذه الظروف ما كان لصيحي إلا أن تكون صيحة في واد. وحاولت  
ان اناقش الملك في الأمر نقاشاً خالصاً . فوجهت اليه رسائل شخصية ورسائل  
مفتوحة أنبأته فيها ، بوضوح ، ان عمل الحكومة لا يترك أمامي إلا سبيلاً واحداً  
هو سبيل الساتاغراها أو اللاعنف ، ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح .

وكان مشروع القانون لما ينشر بعد في الجريدة الرسمية كقانون . وكنت  
في حال من الضعف الشديد، ولكن ما إن تلقيت دعوة من مدراس حتى قررت  
أن أغامر فأقوم بتلك الرحلة الطويلة. ولم يكن في مسوري في تلك الايام ان أرفع  
صوتي ، على نحو كاف ، في الاجتماعات . وكان عجزني عنلقاء الخطب ،  
وانا واقف ، لا يزال قائماً . كان جسدي كله يرتعش ، وكان خفقان شديد  
يتاب قلبي كلما حاولت أن أقف للكلام فترة من الزمن طويلة كانت أو قصيرة.

وكنت دائماً أشعر ، وأنا في الجنوب ، وكأنني في بيتي . وبفضل النشاط  
الذي قمت به في جنوب إفريقيا ، أحسست بأن لي ضرباً من الحق الخاص على  
الناميلين والتيلوغوس ، ولم يكذب أبناء الجنوب الطيبون اعتقادي . وكانت  
الدعوة تحمل توقيع الاستاذ كاستوري رانغا ايانغار . ولكن الرجل للقائم وراء  
الدعوة ، كما علمت بعد ذلك وأنا في طريقي إلى مدراس ، كان راجاغو  
بالانشاري . ويمكن اعتبار ذلك أول تعرقي به . وعلى أية حال، فذلك كانت أول  
مرة عرف فيها أحدنا الآخر معرفة شخصية .

وكان راجاغو بالانشاري قد غادر مدينة « سالم » منذ فترة قصيرة الإقامة  
في مدراس وممارسة المحاماة فيها ، نزولاً عند الحاح اصدقاء من مثل المرحوم

الاستاذ كاستوري رانغا ايانغار . وذلك رجاء ان يقوم بدور أكثر فعالية في الحياة العامة . وإنما نزلنا ضيوفاً عليه في مدراس . وانا لم اكتشف ذلك إلا بعد أن مكثنا معه يومين اثنين . ذلك بأنه لما كان البيت الذي نزلنا فيه ملكاً للاستاذ كاستوري رانغا ايانغار فقد تراءى لي أننا كنا ضيفاً عليه . ولكن ما هاديف ديزاي صحفني . وسرعان ما أقام صلة وثيقة مع راجاغبوالانشاري الذي أبقى نفسه ، بدافع من الحياء القطني ، وراء حجاب . ولكن ما هاديف نبهني ذات يوم ، قائلاً : « يجب أن تهذب هذا الرجل » .

وذلك ما فعلته . كنا ندرس معاً ، كل يوم ، خطط الحملة ، ولكني لم استطع ان أفكر آنذاك بأي برنامج غير عقد الاجتماعات العامة . ووجدت نفسي في حيرة لا أدري كيف أقوم بالعصيان المدني ضد مشروع قانون رولات إذا ما أقر آخر الأمر وأمسى قانوناً . فليس في استطاعة المرء ان يعصي ذلك القانون إلا إذا أتاحت له الحكومة فرصة تمكنه من ذلك . وإذا لم تُنح الحكومة تلك الفرصة فهل نعصي القوانين الأخرى ، مدنياً ؟ وإذا كان ذلك ، فأين ينبغي للخط أن يرسم ؟ هذان السؤالان وجمهرة أخرى من الاسئلة المماثلة كانت تشكل موضوع مناقشاتنا الرئيسية تلك .

ودعا الاستاذ كاستوري رانغا ايانغار الزعماء إلى مؤتمر صغير لدراسة المسألة . وكان من بين اولئك الذين مثلوا دوراً بارزاً فيه الاستاذ فيجاياراغاشاري . ولقد اقترح ان اضع كتيباً جامعاً في علم « الساتياغراها » ، يكون منطوياً حتى على التفاصيل الدقيقة . وشعرت ان تلك المهمة فوق طاقتي ، واعترفت له بذلك .

وبينما كنا ما نزال نفكر في هذا كله ، تلقينا نبأ يقول ان مشروع قانون رولات قد نُشر في الجريدة الرسمية وأمسى قانوناً . وتلك الليلة استلمت للنوم وأنا أفكر في المسألة . وحوالي الساعات الأولى من الصباح نهضت أبكر من المعتاد بعض الشيء . وكنت في الحالة النفسية بين الرقاد والوعي عندما التمعت الفكرة فجأة في ذهني . كان ذلك أشبه بما يراه النائم . وفي الصباح رويت القصة كلها

لراجاغبوالاشاري :

« لقد خطرت لي الفكرة الليلة البارحة في حُلم رأيت . خطر لي ان ندعو البلاد كلها إلى اضراب عام . ان انساياغراها عملية تطهير ذاتي ، ونضالنا نضال مقدس ، ويبدو لي أن من الطبيعي أن تُستهل بعمل من أعمال التطهير الذاتي . واذن فليعطل الهنود كلهم أعمالهم في ذلك اليوم وليعتبروه يوماً من أيام الصوم والصلاة . إن المسلمين قد لا يصومون أكثر من يوم واحد ، وهكذا فإن الصيام يجب أن لا يتناول أكثر من اربع وعشرين ساعة . ومن العسير جداً معرفة ما إذا كانت جميع الولايات مستجيبة لندائنا أم لا ، ولكنني اشعر بثقة قوية في ما يتصل بيومباي ، ومدراس ، وبهار ، والسند . واحب أن من حقنا ان نستمر الرضا إذا ما أضربت هذه الولايات وحدها اضراباً شاملاً . »

وأعجب راجاغبوالاشاري باقتراحه في الحال . ورحب أصدقاء آخرون به أيضاً عندما نُقل اليهم في ما بعد . ووضعتُ صيغة نداء موجز . وعُيّن موعد الاضراب العام أو « المارتل » في اليوم الثلاثين من آذار ( مارس ) ١٩١٩ ، ولكنه عُديَل بعد ذلك فجُعِل في اليوم السادس من نيسان ( ابريل ) . وهكذا لم يُحِط الشعبُ علماً بالاضراب العام ( المارتل ) إلا قبل مواعده بقليل . لقد كان من المستحيل إنباء الناس بالموعد على نحو ابر من ذلك لأن العمل كان ينبغي ان يُستهل في الحال .

ولكن يا لاستجابة الشعب العظيمة ! فقد اضربت الهند ، من أقصاها إلى اقصاها ، مدنها وقراها على السواء ، اضراباً شاملاً في ذلك اليوم . لقد كان مشهداً رائعاً الى ابعد الحدود .

### ٣١ . ذلك الأسبوع الخالد ! - ١

بعد جولة قصيرة في جنوب الهند وصلت إلى يومباي ، في الرابع من نيسان ( ابريل ) في ما احب ، بعد ان تلتبت برقية من الاستاذ شانكارالال بانكر



يسألني فيها ان اشهد ، هناك ، احتفالات اليوم السادس من نيسان ( ابريل ) .

ولكن دلفي قد اضربت في الوقت نفسه في اليوم الثلاثين من آذار ( مارس ) اضراباً شاملاً . كانت كلمة المرحوم سوامي شرادهانانجي وحكيم اجمل خان صاحب ، نافذةً هناك نفاذ القانون . والواقع أن البرقية الخاصة بارجاء « المارتل » إلى اليوم السادس من نيسان ( ابريل ) كانت قد وصلت إلى هناك بعد لسوات الأوان . ولم يبق للهي ان شهدت اضراباً عاماً ( هارتل ) مثل هذا من قبل . فقد بدا اخندوس والمسلمون متحدين وكأنهم رجل واحد . ودُعي سوامي شرادهانانجي إلى القاء خطبة في « مسجد جُمة » فلبى الدعوة . وكان ذلك كله فوق ما تستطيع السلطات احتماله . فاعترض البوليس موكب « المارتل » فيما كان يتقدم نحو عظة السكة الحديدية ، وأطلق عليه النارُ محدثاً عدة إصابات ، وبدأ عهد القمع في دلفي . ودعاني شرادهانانجي ، في الخاخ ، إلى دلفي . فأبرقت إليه قائلاً انسي ساقصد إلى دلفي حالما تنقضي احتفالات السادس من نيسان في بومباي .

وتكررت احداث دلفي ، مع شيء من الاختلاف البسيط ، في لاهور وأمريتسار . وكان الدكتور ساتيابال والدكتور كيتشلو قد بعثا إليّ من أمريتسار دعوة ملحة للذهاب إلى هناك . ولم أكن قد تعرّفت اليهما ، قط ، حتى تلك الفترة : ومع ذلك فقد ابلغتهما عزمي على زيارة أمريتسار بعد دلفي .

وفي صباح اليوم السادس تدفق أبناء بومباي إلى الـ « تشاوباتي » للابتراد في البحر ، ثم شكلوا موكباً زحف إلى تاكوردفار . وانتظم الموكبُ بجمهرة غير يسيرة من النسوة والاطفال ، وانضمّ المسلمون اليه في أعداد كبيرة . ومن تاكوردفار قادني بعض الاصدقاء المسلمين مع عدد من المشاركين في الموكب إلى مسجد مجاور ، حيث أقيمت السيدة نايدو وأقيمتُ بألقاء خطبة . واقترح الاستاذ فيثالداس جيرا جاني أن نتلو هناك يمين الـ « سواديشي » • ويمين الوحدة

---

• Swadeshi : يمين بالمسل من أجل الاستقلال وبإنتاج المصنوعات الوطنية والاقبال على شرائها ومقاومة السلع الأجنبية .  
( العرب )

الهندوسية الاسلامية على الناس ، ولكني قاومت الاقتراح على اعتبار ان العهد يجب أن لا تُتخذ في عجلة منهورة ، وأن علينا ان نكتفي بما قام به الشعب حتى الآن . وناقشت قائلاً : ما ان يقسم الشعب على الوفاء بعهد ما . حتى يتعين عليه عدم النكث به . وهكذا فان من الضروري ان تُفهم مضمين عهد ال « سواديشي » فهماً واضحاً ، وان يدرك جميع المعين المسؤولين الضخمة الناشئة عن عهد « الوحدة الهندوسية الاسلامية » إدراكاً كاملاً . واخيراً اقترحت أن يجتمع الراغبون في القسّم على العهدين صباح اليوم التالي من اجل هذا الغرض .

ولست في حاجة إلى القول ان الاضراب العام ( المارتل ) في بومبي نجح نجاحاً كاملاً . كان الاستعداد الشامل قد اُتخذ لإعلان العصيان المدني . وكانت قضيتان أو ثلاث قضايا قد درّست في هذا الصدد . وقرّر ان يشمل العصيان المدني تلك القوانين التي تستطيع الجماهير عصيانها في يشر . وكانت ضريبة الملح بغضه إلى أقصى الحدود ، وكانت قد نشأت منذ فترة حركة قوية للعمل على إلغائها . من أجل ذلك اقترحت أن يُعدّ الناس الملح في بيوتهم من ماء البحر ، متحدّين قوانين الملح . وكان اقتراحي الآخر يقضي ببيع الكتب المحرّم بيعها . وكان اثنان من كتبي - « الاستقلال الهندي » Hind Swaraj و « سارفودايا » Sarvodaya وهو اقتباس كوجاراني لكتاب راسكن « حتى هذه النهاية » - أقول ان هذين الكتابين اللذين كانت الحكومة قد حرمتهمما جاءا موافقين لهذا الغرض . لقد بدا لي ان طبعها وبيعها علناً كانا أسهل طريقة لتقيام بالعصيان المدني . وهكذا طُبعت نسخ كافية من الكتساين ، وتم الانفاق على بيعها في ختام الاجتماع الضخم المقرر عقده تلك الليلة بعد انتهاء الصوم .

وفي مساء اليوم السادس انطلق جيش من المتطوعين الحاملين نسخاً من هذين

الكتابين المحرّمين لبيعهما للناس . ولكن شريعتي ماروجيني ديني ، وأنا ، خرجنا في سيارتين . وسرعان ما بيعت النسخ كلها . وكان الاتفاق قد تمّ على أن يرصد ربع البيع لتعزيز حملة العصيان المدني . وكانت كل نسخة من نسخ الكتابين قد سُعرت بأربع آتات . ولكني لا أكاد أذكر ان احداً اشترى مني نسخة بقيمتها الاسمية . والحق ان كثيراً من الناس كانوا يعمدون إلى افراغ كل ما في جيوبهم من نقد ثمناً للنسخة الواحدة . وكانت أوراق الخمس روبيات والعشر روبيات تُطرح ثمناً لنسخة مفردة ، في حين لا أزال أذكر انني بعت نسخة واحدة بخمسين روبية ! وكنا نشرح للناس : يوماً ، أنهم عرضة للاعتقال والسجن بسبب من بيعهم ذبلك الكتابين المحظورين . ولكنهم كانوا قد اطرحوا ، في تلك الآونة ، كل خوف من الدخول إلى السجن .

وقد علم في ما بعد أن الحكومة كانت قد أخذت بوجهة نظر تقول ان الكتب التي سبق لها ان حرمتها لم تُبع في الواقع ، وأن ما بعناه لا يدخل في باب المنشورات المحظّرة . فقد ذهبت الحكومة إلى ان إعادة الطبع تمثل اخراجاً جديداً للكتابين المحرّمين ، وأن بيعهما لا يشكل جريمة في نظر القانون . والواقع ان هذا النبأ احدث خيبة أمل عامة .

وفي الصباح التالي عقد اجتماع آخر للراغبين في أن يُقسموا يمين الدهسواديشي ، ويمين الوحدة الهندوسية الاسلامية . وأدرك فيثالداس جيراجاني ، للمرة الأولى ، انه ليس كل ما يلتصق بذهب . فلم يقد إلى هذا الاجتماع غير حنّة من الاشخاص . وانا أتذكر في وضوح بعض الاخوات اللواتي شهدن الاجتماع . وكان الرجال الحاضرون قلائل جداً ، أيضاً . وكنت قد أعددت صيغة القسم وحملتها معي ، وأوضحت معناها ، أوسع توضيح ، للراغبين في تقييد أنفسهم به . والحق ان قلة الحاضرين لم تؤمني ولم تدهشي ، فقد سبق لي ان لاحظت هذه الظاهرة المميّزة للمسلك الشمسي : التعصب للعمل المثير ، وكرهية الجهد الانساني المادي . ولا تزال هذه الظاهرة قائمة حتى اليوم .

والكني سوف أخصص لهذا الموضوع فصلاً مستقلاً . فلنرجع إلى القصة .  
في ليل اليوم السابع من نيسان ( ابريل ) قصدت إلى دلي وأمرتسار . ولندن  
وصولي إلى ماثورا في اليوم الثامن منه سعت للمرة الأولى اشاعات عن اعتقالي  
المحتمل . وفي المحطة التالية بعد ماثورا ، أقبل أنشاريًا جيفداني للاجتماع بي  
وحمل اليّ أنباء واضحة صريحة تقول بأنني سوف أعقل ، وعرض عليّ خدماته  
إذا ما احتجت إليها . فشكرته على عرضه ، مؤكداً له اني لن أحرم نفسي من  
تلك الخدمات إذا ما شعرت بالحاجة إليها .

وقبل ان يصل القطار إلى محطة بالوال 'قدم اليّ أمرٌ خطي مفاده ان من  
المحظر عليّ اجتياز حدود البنجاب ، لأن وجودي هناك خليقٌ به أن يؤدي إلى  
الاخلال بالامن . وطلب اليّ رجال البوليس أن أترجل من القطار . فرفضت  
ان أفعل ذلك قائلاً : « انا اريد أن أذهب إلى البنجاب استجابة لدعوة ملحة ،  
لا لتحريض على الاضطراب ، ولكن لأهدي منه . ومن أجل ذلك يوسفني أن  
أقول ان من المتعذر عليّ امتثال هذا الأمر . »

وأخيراً وصل القطار إلى بالوال . وكان ماهاديف معي . فألته ان يشخص  
إلى دلي ليخبر سوامي شرادهانانجي بما حدث ، ويدعو الناس إلى التزام الهدوء .  
لقد كلفته ان يشرح لهم لماذا اعتزمت ان أعصي الأمر الصادر اليّ وأتحمّل  
عقوبة عصابه ، ولماذا نكفل النصر إذا التزمنا السلم الكامل على الرغم من أيما  
عقوبة قد تُنزل بي .

وفي محطة بالوال أخرجت من القطار وفُرضت عليّ رقابة بوليسية شديدة .  
وما هي إلا فترة قصيرة حتى أقبل من دلي قطار حديدي . وأدخلتُ إحدى  
عربات الدرجة الثالثة ، ورافقتني شرذمة من البوليس . وعند وصولنا إلى  
ماثورا ساقوني إلى ثكنات البوليس ، ولكن أياً من رجال الشرطة لم يستطع ان  
يخبرني ما الذي يعتزمون أن يفعلوه بي ، وإلى أين سوف أنقل بعد ذلك . وفي  
الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي أوقظت من رقاوي ووضعتُ في قطار  
البضائع كان متجهاً نحو بومباي . وعند الظهر أنزلت مرة ثانية من القطار في

حطة ساواي مادهور . وهنا تولى أمري مسر باورنغ ، مفتش البوليس ، الذي وصل من لاهور بقطار البريد . لقد وُضعتُ معه في إحدى حافلات الدرجة الأولى . وهكذا نُقلتُ من رتبة سجين عادي إلى رتبة « جتلمان » . وأخذ الضابط يُطري السير مايكال أودويار لإطراء مسهباً ، وأضاف قائلاً : ان السير مايكال ليس لديه شيء ضدي شخصياً ، وكل ما في الأمر أنه يخشى ان يتعرض الأمن للاضطراب إذا ما دخلت البنجاب الخ ... وأخيراً سألتني ان أرجع إلى بومباي طوعاً ، وان أوافق على عدم اجتياز حدود البنجاب . فأجبت قائلاً : اني لا أستطيع ، بحال من الأحوال ، أن أذعن للأمر ، واني غير مستعد للعودة طوعاً ، إلى بومباي . وحين لم يبد الضابط ايما سبيل آخر يملكه أنبأني أنه مضطر إلى تطبيق القانون بتمتي . فآلته قائلاً : « ولكن ما الذي تريد أن تفعله بي ؟ » فأجاب انه هو نفسه لا يدري ، ولكنه يتظر أوامر جديدة . وقال : « أما الآن ، سوف آخذك إلى بومباي . »

ووصلنا إلى سورات . وهنا عهد في أمري إلى ضابط بوليس آخر . وقال لي انضابط عندما بلغنا بومباي : « انت طليق الآن . ولكن من الافضل أن ترجل قرب « المارين لايتز » حيث سأوقف القطار من اجلك . ان من المتعار ان يكون في كولا با حشد كبير . » وقلت له اني سوف أكون سعيداً بانترول عند رغبته . فسر بذلك وشكرني . وهكذا ترجلت عند « المارين لايتز » . واتفق ان كانت عربة احد الاصدقاء تجوز بالمكن في تلك اللحظة . فأقلتني إلى منزل ريفاشانكار جافيري . واخبرني الصديق ان نبأ اعتفائي قد أغضب الشعب وأثاره إلى درجة الحق المجنون . وأضاف قائلاً : « انهم يخشون أن يقع انفجار قرب يدهوني بين دقيقة ودقيقة . ولقد وصل القاضي ورجال الشرطة إلى هناك . »

ولم أكد أصل إلى المكان الذي كنت أقصد اليه حتى أقبل عمر سوباني وآناسويايهن وسألاني ان انتقل إلى يدهوني في الحال ، قائلين : « لقد فرغ صبر الشعب واستبد بالناس المياج . إننا لا نستطيع ان نهدنهم . إن وجودك

وحده هو القادر على هذه التهدة .»

وامتطبت مِن السيارة . وقرب يدهوني رأيت أن جمعاً ضخماً قد احتشد . وما إن وقمت أعين الناس عليّ حتى جُنّوا فرحاً . وفي الحال شكّل القوم مركباً ، وأخذت هتافات « فاندّه ماتارام » . « Vande mataram » والله أكبر ، تشقّ عنان السماء . وفي يدهوني رأينا كتيبة من رجال الشرطة الفرسان . وكانت قطع اللّبن تنهال من حائق . وتوصلت إلى الحشود أن نلتزم المدهوء ، ولكنّ ترامى لنا أننا لن نستطيع النجاة من وأبل قطع المّجين . وحين انطلق المركب من « شارع عبد الرحمن » وأمسى على وشك التّقدم إلى « سوق كراوفورد » وجد نفسه ، فجأة ، وجهاً لوجه مع كتيبة من الشرطة الفرسان كانت قد وصلت إلى هناك لتحول بين المركب وبين التّقدم أكثر في اتجاه « القلعة » . كان الحشد متراصاً جداً . ولقد كاد يحطم التّناق الذي ضربه البوليس . وما كان لصوت أن يسمّع في مثل ذلك الزحام العظيم . وفي تلك الانحظة أصدر ضابط الكتيبة أمره بتفريق الحشود ، وفي الحال هاجم رجال الشرطة الفرسان جموع الناس ملوّحين بحرايهم . واستنفرت ، في إحدى اللحظات ، أنني لا بدّ أن أصاب بأذى . ولكن خوفاً لم يكن له أساس ، فقد مَتّ الرماح السيارة بجرّد مسّ رفيق فيها انطلق الرماحة في خفة ورشاقة . وسرعان ما تشتت شمل الناس ، ودبت فيهم فوضى كاملة ما لبثت أن تحولت إلى هزيمة منكرة . لقد ديس بعضهم تحت الاقدام ، ورُصّ آخرون رضاً مؤذياً وسُحّرتوا سحناً . وفي تلك الكتلة البشرية المتهتجة لم تكد الخيل تجد متسعاً تستطيع أن تتطلق فيه ، ولم يجد الناس سفذاً يفرّون منه بأنفسهم . وهكذا شقّ الرماحة طريقهم ، شقّ عشواء ، حاكّل الجموع المحتشدة . ويكاد يغفل اليّ أنهم كانوا عاجزين عن رؤية ما يفعلون . كان مشهداً رهيباً إلى أبعد الحدود . ولقد اختلط الفرسان وأفراد الشعب اختلاطاً عجولاً .

---

• هما الكتكتان الاوليان من النشيد الوطني الهندي ومعناها : « أنا انجلي ثم أيتها الامم » (انغرب)

وهكذا شنت الحشد ووضع حد لتقدمه . وسُح ليارتنا بالضي في  
سيلها . حتى إذا بلغنا مكتب المفوض طلبت إلى السائق ان يوقفها ، ولرجلت  
لكي أشكو للمفوض مملك رجال الشرطة .

### ٣٢ . ذلك الاسبوع الخالد ! - ٢

وهكذا مضيت إلى مكتب المفوض مسر غريفيث . وعلى طول السلم المؤدي  
إلى المكتب رأيت جنوداً مدججين بالسلاح من قمة الرأس إلى أخمص القدم ،  
وكانهم على أهبة القيام بعمل عسكري . كانت الشرقة تضج بالحركة والنشاط ،  
وحين أدخِلت إلى المكتب رأيت مسر باورينغ جالساً مع مسر غريفيث .  
ووصفت للمفوض المشاهد التي شاهدتها . فأجاب في إعجاز : « ما كنت  
أريد ان يتقدم الموكب إلى « القلعة » ، لأن الاضطراب كان لا بد ان يحدث  
هناك . واذ رأيت ان الشعب لن يصغي للاقتناع ، لم أستطع إلا ان اصدر أمري  
إلى الشرطة الفرسان بمهاجمة الحشد . »  
فقلت :

« ولكنك كنت تعلم النتائج التي لا بد ان يتهمي اليها مثل هذا الصنيع ،  
كان حتماً على الخيل أن تدوس الناس . وأعتقد انه لم يكن ضرورياً البتة إرسال  
تلك الشرذمة من الفرسان . »

فقال مسر غريفيث :

« ليس في استطاعتك ان تحكم على ذلك . إننا نحن ضباط البوليس نعرف  
خيراً مما تعرف اثر تعاليمك في الناس . ولو أنا لم نسارع إلى اتخاذ الاجراءات  
الحاسمة اذن لأقلت الموقف من ايدينا . إنني أقول لك ان الناس لا بد ان يفلت  
زمامهم من يدك . ذلك ان الثمرد على الثمانون سوف يستهويهم . وهم أعجز من  
ان يفهموا ان من واجبهم التزام الهدوء . أنا لا أشك في نيائك الحسنة ، ولكن  
الناس لن يفهموها . إنهم سوف يتبعون غريزتهم الطبيعية . »

فأجبت :

« - ههنا موضع الخلاف بيني وبينك . إن أفراد الشعب لا يترعون ،  
بالفطرة ، إلى العنف ، ولكنهم مسالمون . »

وهكذا استمر الجدل بيننا فترة طويلة . وأخيراً قال مسر غريفيث :  
« - ولكن إفرض انك اقتنعت بأن تعاليمك ذهبت أدراج الرياح ولم تترك  
أيما أثر في نفوس الناس فما الذي تفعله ؟ »

« - إذا اقتنعت بذلك فعندئذ يتعين عليّ أن أعلّق العصيان المدني . »  
« - ماذا تعني ؟ لقد قنّت لمسر باورينغ انك ستضحي إلى البنجاب حاملاً  
يطلق مسراحك . »

« - أجل ، كنت أعترم القيام بذلك في أول قطار نال . ولكن هذا أصبح  
غير ذي موضوع ، الآن . »

« - وإذا تدرّعت بالصبر فلا بدّ أن تقتنع بذلك . هل تعرف ما الذي  
يحدث الآن في أحمد آباد ؟ وما الذي حدث في آمريشار ؟ لقد احتاج الناس  
في كل مكان اهتماماً جنونياً . أنا لم ألقُ جميع الوثائق حتى الآن . لقد  
قطعت أسلاك البرق في بعض المواطن . واني لأحملك تبعة هذه الاضطرابات  
جميعاً . »

« - أوكد لك انني مستعد لتحمل تبعتها حيث أكتشفها . ولكنني خالفت  
بأن أنال أعظم الألم وأعجب غاية العجب إذا وجدت أن اضطرابات قد حدثت  
في أحمد آباد . أنا لا أستطيع أن أعمل مسؤولية ما وقع في آمريشار . لأنني لم  
أذهب قط إلى هناك ، وليس ثمة احد يعرفني هناك . ولكن حتى في ما يتصل  
بالبنجاب أستطيع أن أقول انه لو لم تحل حكومة البنجاب دون دخولي إلى تلك  
المقاطعة اذن لكان وجودي هناك عوناً لنا على إقرار النظام . إنها بمنعني من الدخول  
استفزّت الشعب استفزازاً لا ضرورة له . »

وهكذا أخذنا بأسباب الجدل . وكان من المتعذر علينا أن نتفق . وقلت له  
اني أعترم القاء خطبة في اجتماع يُعقد في تشاوباتي ، ودعوة الناس إلى التزام



المهوء ، واستأذنته في الانصراف ، وعُقد الاجتماع فوق رسال تشاوباتي :  
وتكلمتُ في إسهاب عن واجب اللاعنف وعن القيود التي تفرضها الساتياغراها  
وقلت : ان الساتياغراها هي في جوهرها سلاح الرجل الصادق الأمين .  
والساتياغراهي مُلزم ، بحكم العهد الذي أخذه على نفسه ، بالترام اللاعنف .  
وما لم يلترم الشعب ذلك فكراً ، وقولاً ، وعملاً فليس في استطاعتي ان اعرض  
عليه الساتياغراها الجباعية .

وكانت آناسويابيهن قد تلقت ، هي أيضاً ، أنباء عن حدوث اضطرابات  
في أحمد آباد . وكان بعضهم قد أطلق اشاعة تقول انها قد اعتقلت أيضاً .  
وكان جنون عمال المصانع قد جُنّ لدن تسمعوا بذلك الشائعة ، فأضربوا عن  
العمل وقاموا ببعض أعمال العنف ، وأدى ذلك إلى مصرع جندي برتبة  
رقيب « سارجنت » .

وشخصتُ إلى أحمد آباد . وعلمت ان محاولة قد جرت لاقتلاع الخطوط  
الحديدية قرب محطة نادباد ، وان موظفاً حكومياً قد قُتل في فيرامغام ، وان  
أحمد آباد كانت تعيش في ظل الأحكام العرفية . كان الشعب مروّعاً . لقد  
تورط أبناؤه في بعض أعمال العنف . وكانوا الآن يدفعون ثمن ذلك مع  
الفائدة !

وكان ضابط بوليس ينتظر في المحطة ليرافقني إلى المقوض ، متر بترات .  
لقد وجدته في حال من الحياج والغضب شديدة . فتحدثت اليه في رفق . وعبرت  
له عن أسفي لوقوع الاضطرابات . وقلت ان الأحكام العرفية غير ضرورية ،  
وأعلنت استعدادي للتعاون في جميع الجهود المبذولة لاعادة الأمن إلى نصابه .  
وسألته ان يأذن لي في عقد اجتماع عام على أراضي « الاشرم » المعروف بر  
« اشرم سابارماتي » . وراق له الاقتراح ، وعُقد الاجتماع - على ما أذكر -  
في يوم الأحد الواقع في الثالث عشر من نيسان ( ابريل ) ، ورُفعت الأحكام  
العرفية في اليوم نفسه أو في اليوم الذي تلاه . وفي الخطاب الذي ألقته في المجتمعين  
حاولت ان أشعير الناس بالخطأ الذي ارتكبه ، وأعلنت أنني سوف أصوم

تكفيراً عن ذلك الخطأ ثلاثة أيام ، وناشدت المجتمعين ان يصوموا صوماً مائلاً طوال يوم واحد ليس غير ، واقترحت على الذين شاركوا في أعمال العنف أن يعترفوا بجريمتهم .

لقد وجدت واجبي واضحاً كالشمس في رابعة النهار . كان مما لا أستطيع احتماله ان أكتشف ان العمال الذين سلخت بين ظهرانيهم فترة غير قصيرة من وقتي ، والذين خدمتهم ، والذين توقعت منهم أشياء أفضل ، قد شاركوا في أعمال الشغب تلك ، وشعرت اني شريكهم في الجريمة .

وكما اقترحت على الناس ان يعترفوا بجرائمهم كذلك اقترحت على الحكومة أن تغفر عن تلك الجرائم . ولكن أياً من الفريقين لم يقبل اقتراحي .

وجاءني المرحوم السير رامانباي ونفر آخرون من مواطني أحمد آباد يناشدوني تعليق الساتياغراها . ولم يكن لهذه المناشدة ضرورة ، ذلك بأنني قد عقدت العزم على تعليق الساتياغراها ، ما دام الشعب لما يتعلم درس السلم . وانصرف الأصدقاء مسرودين .

بيد أنه كان ثمة آخرون ساءهم ذلك القرار . لقد شعروا بأنني إذا توقعتُ امتتاع الأمن في كل مكان واعتبرت ذلك شرطاً سابقاً لإعلان الساتياغراها فمعنى ذلك ان الساتياغراها الجماعية تندو شيئاً مستحيلاً . وأخذني الأسف لاختلافي معهم . فاذا كان اولئك الذين أعمل بينهم والذين توقعت أن يكونوا مستعدين للاعتف ولامعانة الذاتية - أقول إذا كان اولئك غير قادرين على التمسك باللاعنف فلا ريب في أن الساتياغراها مستحيلة . لقد كنت اؤمن ايماناً راسخاً بأن على الراغبين في قيادة الشعب إلى الساتياغراها أن يكونوا قادرين على ابقاء الناس ضمن نطاق اللاعنف المتوقع منهم . وأنا لا أزال أعتقد ذلك حتى اليوم .

### ٣٣ « سوء تقدير هيمالائي »

وبُعَيْدَ اجتماع أحمد آباد قصدت إلى نادباد . وهناك اصطفت للمرة

الأولى تعبير «سوء تقدير هيبالائي» الذي حظي برواج واسع في ما بعد . وحتى في أحمد آباد كنت قد بدأت أدرك غلطتي إدراكاً باهناً . ولكني حين وصلت إلى زادياد ورأيت واقع الحال هناك وسمعت الأنباء عن مواطني مقاطعة «خيدا» الذين اعتزلوا بأعداد كبيرة ، تراءى لي فجأة اني ارتكبت خطأ خطيراً في دعوة الناس في مقاطعة «خيدا» وغيرها إلى إعلان العصيان المدني قبل الأوان ، كما يبدو لي الآن . وكنت أخطب في اجتماع عام . ولقد قبل اعترافي بقدر غير يسر من السخريه . ولكني لم أندم قط على ادلائي بذلك الاعتراف . ذلك اني كنت دائماً أعتقد بأن على المرء ان يرى اخطائه بعلمة محدبة ، وان يفعل عكس ذلك بأخطاء الآخرين ، وعندئذ فقط يستطيع ان يصل إلى تقدير عادل للآثنين . وأنا اؤمن ، إلى ذلك ، بأن التزام هذه القاعدة التزاماً دقيقاً منتهجاً ، ضروري لكل من يرغب في الأخذ بمبدأ الساتياغراها .

فلننظر الآن أي شيء كان سوء التقدير الهيبالائي . قبل أن يكون المرء مؤهلاً لممارسة العصيان المدني يتعين عليه أن يكون قد خضع خضوعاً طوعياً ومحترماً لقوانين الدولة . إننا في الأعم الأغلب نطيع هذه القوانين بسبب من خوفنا من العقوبة إذا ما خرقتها ، وهذا يصح على نحو خاص في تلك القوانين التي لا تنطوي على مبدأ أخلاقي . فالرجل الأمين المحترم ، مثلاً ، لن يألف السرقة فجأة سواء أكان ثمة قانون يحرم السرقة أم لم يكن . ولكن هذا الرجل نفسه لن يشعر أيما وخز ضمير لعدم مراعاته القاعدة التي تقضي بأن تكون دراجته مزودة بضوء أمامي عند هبوط الليل . والواقع ان المرء ليشك في ما إذا كان ذلك الرجل مستعداً لأن يتقبل نصيحة من يسأله أن يكون أكثر حذراً في هذا الموضوع قبولاً حسناً . ولكنه خليف بأن يلتزم بأما قاعدة إلزامية من هذا الضرب ولو من أجل اجتناب العقوبة التي تنزل عادة بالمخافين . بيد أن هذه المطاوعة ليست هي الطوعية التلقائية المطلوبة من كل من يأخذ بمبدأ الساتياغراها . ان « الساتياغراهي » يطيع قوانين المجتمع طاعة عاقلة ومحض إرادته ، لأنه يعتبر أن ذلك واجب مقدس . وان يكون في ميسور المرء

ان يدي رأياً في القوانين ويصف بعضها بالصلاح والعدل وبعضها الآخر بالظلاح والاجحاف. إلا إذا أطاع قوانين المجتمع على هذا النحو والتزمها التزاماً دقيقاً . عندئذ فقط يصبح ذا حقّ في ان يعصي بعض القوانين عصيانياً مدنياً في ظروف محدّدة تحديداً واضحاً. ولقد كنت دعوت أفراده الشعب إلى اعلان العصيان المدني قبل ان يبتئوا أنفسهم لذلك على النحو الذي شرحته آنفاً، ولقد بدت لي هذه الغلظة ضخمة كجبال هيمالايا . وما إن انتهيت إلى مقاطعة « خيدا » حتى عاودتني ذكريات نضال لاعنف « خيدا » كلها ، وعجبت لنفسي كيف عجزت عن رؤية ما كان واضحاً إلى ذلك الحد . لقد أدركت ان على الشعب ، قبل أن يصبح مؤهلاً للعصيان المدني ، ان يفهم مضامين ذلك العصيان فهماً أعمق . وعلى هذا ، فقبل استئناف العصيان المدني على نطاق جماهيري يتحدّم خلق عصبه من المتطوعين المجريين ذوي النلوب الطاهرة الذين يفهمون شروط الساتياغراها الصارمة فهماً وافياً . وسوف يكون في ميسور هؤلاء ان يشرحوا تلك الشروط للناس ، وان يهدوهم من طريق البساطة البالغة ، سواء السيل .

كانت هذه الافكار تفعم ذهني حين وصلت إلى بومباي ، وأنشأتُ فرقة من المتطوعين الساتياغرايين من طريق جمعية الـ « ساتياغراها سابها » هناك ، وبعمونة هذه الفرقة بدأت تبصير الناس بمعنى الساتياغراها ومغزاها الباطني . وقد تمّ ذلك في الاعمّ الاغلب بأصدار كراريس ، ذات طابع تثقيفي ، تعالج هذا الموضوع .

ولكنّ فيما كان هذا العمل جارياً كان في استطاعتي ان أرى ان من العسير إثارة اهتمام الناس في الجانب العلمي من الساتياغراها . وكان عدد المتطوعين قليلاً . ليس هذا فحسب ، بل ان الذين سجلوا أسماءهم في لوائح التطوع لم ينالوا كلهم تدريباً نظامياً . ومع الايام اخذ عدد المتطوعين الجدد يتضاءل تدريجياً بدلاً من ان يتعاظم . لقد أدركت ان تقدّم اندريب على العصيان

المدني لن يجري بمثل السرعة التي توقعتها من قبل .

### ٣٤ . صحيفتنا « نافاجيفان » و « الهند الفتاة »

وهكذا ، فينا كانت هذه الحركة الرامية إلى صيانة اللاعنف تتقدم تقدماً بطيئاً ، من ناحية ، كانت سياسة الحكومة القائمة على التمتع غير القانوني ، يشتد ساعدها ، من ناحية أخرى ، وتتجلى في عريها الكامل في البنجاب . لقد اعتُقل الزعماء ، وأعلن القانون العرفي ، الذي كان بكلمة أخرى « لا قانون » ، وانشت محاكم خاصة . وهذه المحاكم لم تكن دُور عدل ، ولكن أدوات لتنفيذ ارادة المستبد الاعتبارية . كانت الأحكام تصدر من غير ان تكون مدعومة بالبيئة ، وعلى نحو مناقض للعادلة إلى حد فاضح . وفي أمر يشار إليه الرجال الأبرياء والنسوة البريات على الزحف على بطونهم كالديدان . وأمام هذا العدوان وانتهك الحرمات بدت مأساة « جاليانوالا باغ » هزيلة جداً في عيني ، على الرغم من ان تلك المذبحة كانت هي التي اثارَت اهتمام شعب افند واهتمام العالم في الدرجة الأولى .

وألحّ الاصدقاء عليّ بضرورة الذهاب إلى البنجاب ، في الحال ، هما تكن النتائج . فكتبت إلى نائب الملك وبرتت إليه أيضاً أسأله ان يميز لي الذهاب إلى هناك ، ولكن على غير طائل . ولو اني شخصتُ إلى تلك الديار من غير القوز بالاذن الضروري ، اذن لما سمح لي باجتياز حدود البنجاب ولاضطرتُ إلى أن أرى أي قدر من الرضا يستطيع العصيان المدني ان يحمله إلى نفسي ، وهكذا وجدتي في ورطة خطيرة . لقد بدا لي ، في ظل تلك الظروف والملاسات ، ان دخولي إلى البنجاب عنوة لا يمكن ان يُعتبر عصياناً مدنياً ، لأنني لم أر في ما حولي ذلك الجو المسالم الذي كنت ارغب فيه ، وكانت سياسة التمتع التي لا هواة فيها قد أدت ، في البنجاب ، إلى إذكاء مشاعر الاستياء

وتعميقها . وهكذا تبدى لي ان اعلاني العصيان المدني في تلك اللحظة خلبق به - حتى ولو كان ممكناً - أن يكون أشبه بالقاء الزيت على النار . ودكاً قررت ان لا أتقدم إلى البنجاب على الرغم من اقتراح الاصدقاء . وكان ذلك حبة مريرة نعين علي ابتلاعها . كانت الحكايات عن ضروب الظلم والقمع الفاحشين تتدفق من البنجاب كل يوم ، ولكن كل ما كان في استطاعتي عمله هو ان أقعد عاجزاً وأصرّ بأسناني حنقاً وغضباً .

وفي تلك اللحظات عمدت السلطة إلى اختطاف مسر هورنيان ونفيه على نحو مفاجئ ، وكانت صحيفة ال « بومباي كرونيكل » قد أسست بفضل قوة هائلة . ولقد بدا لي أن عمل الحكومة هذا تكتفه قذارة لايزال ربحها التثني في منخري . وكنت أعلم ان مسر هورنيان لم يجتد التمرد في يوم من الايام ، وكان قد أبدى عدم ارتياحه لعصيان الحظر الذي اصدرته حكومة البنجاب من غير إذن لجنة الساتياغراها ، وكان قد أيد القرار القاضي بتعليق العصيان المدني تأييداً مطلقاً . بل لقد سبق لي ان تلقيت منه رسالة ينصح فيها بتعليق العصيان قبل ان أعلن قراري في هذا الموضوع . وبسبب بُعد الثقة بين بومباي وأحمد آباد فحسب تلقيت تلك الرسالة بعد إعلان التعليق . وهكذا أثار ابعاده المفاجئ الدهش في نفسي بقدر ما أثار من الألم .

ونتيجة لهذه التطورات سألني مديرو صحيفة « بومباي كرونيكل » أن أنهض بمهمة الاشراف على تلك الصحيفة . وكان مسر بريلفي عضواً في هيئة تحريرها ، وهكذا لم تكن مهمة الاشراف على الصحيفة لتقتضي جهداً كبيراً ولكن تلك المسؤولية كان خليقاً بها ، كما هو المؤلف من طبعي ، ان تصبح عبثاً اضافياً .

بيد ان الحكومة هرعت لنجدتي ... ذلك انها أصدرت أمراً بتعطيل ال « كرونيكل » عن الصدور .

وكان الصديقان اللذان أدارا ال « كرونيكل » اعني السيدين عمر سوباني

وشانكارلال بانكر ، يديران في الوقت نفسه صحيفة « الهند الفتاة » Young India فاقترح عليّ ، نظراً لتعطيل ال « كرونيكل » ان أتولى رئاسة تحرير صحيفة « الهند الفتاة » . ولملء الفراغ الذي تركه احتجاب ال « كرونيكل » ، قالوا ان « الهند الفتاة » يجب أن تحوّل من صحيفة اسبوعية إلى صحيفة نصف اسبوعية ، وكان ذلك ما شعرت به أنا أيضاً . كنت نواظراً إلى شرح معنى الساتياغراها الباطني للجمهور ، كما رجوت ان أتمكن من طريق هذا الجهد من اعطاء الوضع في البنجاب حقه من الانصاف على الاقل . ذلك انه كان ثمة وراء كل ما كتبته ساتياغراها بالقوة ، وكانت الحكومة تعرف ذلك . وهكذا قبلت في الحال اقتراح الصديقين .

ولكن كيف نبصر الجمهور بالساتياغراها من طريق مقالات تنشر في اللغة الانكليزية ؟ وكان ميدان عملي الرئيسي في كوجارات . وكان السيد ايندولال ياجنيك على صلة آنذاك بجماعة السيدين سوباني وبانكر . كان يصدر صحيفة « نافاجيفان » الكوجاراتية الشهيرة التي كان يمولها هذان الصديقان . فوضعا هذه الصحيفة الشهيرة تحت تصرفي . وإلى هذا ، عرض السيد ايندولال ان يعمل فيها . وحوّلت تلك المجلة الشهيرة إلى مجلة اسبوعية .

وفي غضون ذلك أعيدت الحياة إلى ال « كرونيكل » . وهكذا أعيدت صحيفة « الهند الفتاة » إلى شكلها الاسبوعي الاصلي . وكان نشر المجلتين الاسبوعيتين من بلدين مختلفين خليفاً بأن يزعجني وبأن يقتضي نفقات أكبر . واذا كانت صحيفة « نافاجيفان » تصدر من قبل في أحمد آباد فقد نُقلت مجلة « الهند الفتاة » إلى هناك بناء على اقتراحي .

وكانت ثمة أسباب أخرى لهذه النقلة . فقد كانت تجاربي في صحيفة « الرأي الهندي » قد علّمتني ان مثل هذه الصحف في حاجة إلى مطبعة خاصة بها . وإلى هذا ، فإن قانون الصحافة النافذ ، آنذاك ، في الهند كان يجعل المطابع ، المدارة على أساس تجاري طبعا ، تتردد في نشر آرائي الصريحة . وهكذا أمت

الحاجة إلى انشاء مطبعة خاصة بنا ملحة جداً ؛ وإذ كان ذلك غير متيسر على  
على نحو ملائم الا في أحمد آباد فقد نُقلت مجلة « الهند الفتاة » إلى هناك .

ومن خلال هاتين المجلتين بدأت أبصّر جمهور القراء بالساتياغراها جهده  
الطاقة . وكانت كلناهما قد حظيت برواج واسع جداً ارتفع بعدد المطبوع من  
كل منهما ، في وقت من الاوقات ، إلى اربعين ألف نسخة تقريباً . ولكن فيما  
كان انتشار « نافاجيان » يلب وثباً ، كان انتشار صحيفة « الهند الفتاة » يتعاضد  
في خطى وثيدة . وبعد سجنى هبط عدد المبيع من كل من هاتين المجلتين هبوطاً  
كبيراً ، وهو اليوم لا يبلغ ثمانية آلاف نسخة .

ومنذ البدء قاومت نشر الاعلانات في نيك الصحيفتين . ولست اعتقد انها  
خسرت شيئاً بسبب من ذلك . على العكس ، فأنا أعتقد انه ساعدهما على الاحتفاظ  
باستقلالهما إلى حد غير يسير .

وبالمناسبة ، فان هاتين الصحيفتين ساعدتاني أيضاً ، إلى حد ما ، على الاحتفاظ  
بالطمأنينة الباطنية . إذ بينا كان اللجوء العاجل إلى العصيان المدني غير ذي  
موضوع فأن الصحيفتين مكتتاني من التعبير عن آرائي في حرية ، ومن نفخ روح  
الشجاعة في الناس . وهكذا اشعر ان كلنا المجلتين قد أسدت خدمة جليلة إلى  
الناس في ساعة المحنة تلك ، وقامت بقسط متواضع من واجبها في التخفيف من  
طغيان الاحكام العرفية .

### ٣٥ . في البنجاب

وحملني السير مايكال أودويار مسؤولية كل ماحدث في البنجاب ، وحملني  
هض الشبان البنجابيين المغيظين مسؤولية فرض الاحكام العرفية . لقد أكدوا  
اني لو لم أعلق العصيان المدني لما حدثت مجزرة جاليانوالا باغ . بل ان بعضهم



ذهب إلى حد تهديدي بالقتل إذا ذهبت إلى البنجاب .

ولكني شعرت ان موقفي هو من السلامة والامتناع على الشك بحيث لا يستطيع ايما انسان عاقل ان يسيء فهمه .

وكنت شديد التوق إلى الذهاب إلى البنجاب . فأنا لم أذهب إلى هناك قط من قبل ، وهذا ما زادني شوقاً إلى أن أرى الأشياء بنفسني . وكان الدكتور ساتيابال والدكتور كيتشلو والبانديت رامباج دات تشاوداري ، الذين سبق ان دعوني لزيارة البنجاب ، في غياب السجن في ذلك الوقت . ولكني شعرت ان الحكومة لن تجرؤ على ابقائهم وابقاء السجناء الآخرين في السجن فترة طويلة . وكان عدد كبير من البنجابيين يغدون لروثني كلما كنت في بومباي . وكان من دأبي أن أزودهم بكلمة تشجيع في تلك المناسبات فتشرق نفوسهم بالسعادة . كانت تقني بالنفس معدية في تلك الايام .

ولكن ذهابي إلى البنجاب أرجئ مرةً ومرةً . كان نائب الملك يقول :  
« لم يحن الوقت بعد » كلما طلبت أذنًا بالذهاب إلى هناك .

وفي غضون ذلك أعلن تأليف « لجنة هانتر » للتحقيق في ما قامت به حكومة البنجاب من أعمال في ظل الاحكام العرفية . وكان مستر سي . أف . آندروز قد وصل الآن إلى البنجاب . وقد قدمت رسائله صورة أليمة للأحوال السائدة هناك ، مما أوقع في نفسي ان شناعات الاحكام العرفية كانت في الواقع أسوأ مما أظهرته التقارير الصحفية . لقد ألح علي الحاجاً شديداً بأن أذهب وأرافقه . وفي الوقت نفسه وجه مالا فياجي برقيات يسألني فيها الشخوص إلى البنجاب في الحال . فأبرقت كمرّة ثانية إلى نائب الملك أسأله ما إذا كان في إمكانني ان أذهب إلى البنجاب ، الآن . فأجابني ببرقية قال فيها ان في استطاعتي ان افعل ذلك بعد تاريخ معين . ولست أذكر الآن هذا التاريخ على وجه الضبط ، ولكنني أظن انه كان اليوم السابع عشر من تشرين الأول ( اكتوبر ) .

إن المشهد الذي رأيته لدن و صرلي إلى لاهور لا يمكن ان يُمتحن من ذاكرتي  
أبد الدهر . كانت محطة السكة الحديدية من أقصاها إلى أقصاها كتلة بشرية  
مهتاجة واحدة . وكان أفراد الشعب كلهم قد غادروا بيوتهم في توقع لاهف ،  
و كأنما يتظنون أن يُلغفوا نسيماً لهم بعد فراق طويل ، وكانوا سكارى بالابتهاج .  
وأنزلت ضيفاً على المرحوم البانديت رامباچ دات في منزله . وألقي عبء الاهتمام  
بأمري على عاتق شريمانني سارالاديني . ولقد كان عبئاً حَقاً ، لأنه حتى في ذلك  
الحين كما هي الحال اليوم ، كان البيت الذي انزل ضيفاً عليه ينقلب إلى فندق  
قوافل حقيقي .

وبسبب من وجود زعماء البنجاب الحقيقيين في السجن فقد اكتشفت ان  
البانديت مالافياجي ، والبانديت موتيلالجي ، والمرحوم سوامي شراداناندي  
احتلوا مكانهم في كفاءة . وكنت قد عرفت مالافياجي وشراداناندي معرفة  
وثيقة من قبل ، ولكن هذه كانت المناسبة الأولى التي احتككت فيها احتكاً  
شخصياً وثيقاً بموتيلالجي . والواقع ان جميع هؤلاء الزعماء ، وغيرهم من  
الزعماء المحليين الذين فاتهم شرف الذهاب إلى السجن ، جعلوني أشعر في الحال  
و كأنني في بيتي تماماً ، فلم احس قط بأنني غريب بينهم .

أما كيف قررنا بالاجماع ان لا ندلي بالبيانات أمام « لجنة هانتر » فمسألة  
من مسائل التاريخ . والسبب الذي دعانا إلى ذلك القرار نُشر في تلك  
الآونة ، ولا حاجة إلى إعادة النص عليه هنا . وحسبي أن أقول اني كلما القيت  
نظرة على تلك الأحداث ، من هذه المسافة الزمنية . اشعر ان قرارنا بمقاطعة اللجنة  
كان ضابطاً وفي محله على نحو مطلق .

وكتيجة منطقية لمقاطعتنا لجنة هانتر قرر تعيين لجنة تحقيق غير رسمية لكي  
تقوم بتحقيق يكاد يكون متوازياً لمصلحة « المؤتمر الهندي » . وعين البانديت  
موتيلال نهرو ، والمرحوم ديشبانندو سي . آر . داس ، والسيد عباس طيبيجي ،  
والسيد أم . آر . جاباكار ، وأنا ، أعضاء في هذه اللجنة ، وكان البانديت مالافياجي

هو الذي عيّننا عملياً . ووزعنا أنفسنا على أماكن مختلفة ابتغاء القيام بالتحقيق ، وعُهد إليّ في تنظيم عمل اللجنة . وإذا كان شرف القيام بالتحقيق في القسم الأعظم من المواطنين من نصيبي أنا فقد سنحت لي فرصة نادرة لمراقبة شعب البنجاب عن كثب ودراسة القرى البنجابية .

وخلال تحقيقاتي هذه تعرفت إلى نساء البنجاب أيضاً . لكان الواحد منا قد عرف الآخر منذ أجيال . فحيثما ذهبْتُ كنّ يتدفقن أفواجا ، ويضعن أمامي ما يحملن من أكوام القطن المغزول . والواقع أن عملي في ميدان التحقيق اقنعني بأن البنجاب يمكن أن يصبح حقلاً عظيماً لعمل « الكادي » Khadi أو النسيج القطني اليدوي .

وكنْتُ كلما أمعنت في التحقيق في الفظائع التي ارتكبتها الحكومة بحق الشعب اطلعت على قصص رهبة تمثل طغيان الحكومة واستبداد رجالها الاعتباري ، قصص لم أكن مستعداً لسماها ، ولقد ملأت نفسي بألم عميق . وكان الذي أدهشني آنذاك ، والذي لا يزال يفعمني دهشاً ، هو أن الولاية التي قدمت أكبر عدد من الجنود إلى الحكومة البريطانية خلال الحرب كانت هي الولاية التي قاست كل هذه الفظائع الوحشية !

وعُهد إليّ بمهمة وضع تقرير اللجنة أيضاً . وأنا أنصح كل من يرغب في تكوين فكرة عن نوع الفظائع التي ارتكبت ضد شعب البنجاب بقراءة هذا التقرير قراءة هادئة . وكل ما أريد أن أقوله ، ههنا ، عنه هو أنه لا ينطوي على مبالغة واعية واحدة في أيما جزء من أجزائه ، وإن كل حكم وارد فيه تؤيده البيئة ويدعمه الدليل . وفوق هذا ، فإن البيانات التي نشرت فيه ليست غير جزء مما كان في حوزة اللجنة . ولم يُحتمل لأیما شهادة يكتشف صحتها أقل ظل من الشك أن تظهر في التقرير . وهذا التقرير ، الذي وضع لمجرد إظهار الحقيقة ، ولا شيء غير الحقيقة ، سوف يمكن القارئ من أن يرى إلى أي مدى تستطيع الحكومة

البريطانية أن تذهب ، وأي أعمال بربرية ، ولا انسانية ، تستطيع ان ترتكبها من أجل الاحتفاظ بسلطانها . وعلى قدر ما أذكر فإن أيأ من الاحكام التي اشتمل عليها هذا التقرير لم تُثبت الأيام بطلانه .

### ٣٦ . الخلافة مقابل حياة البقرة ؟

يجب ان نترك الآن ، مؤقتاً ، هذه الاحداث القائمة التي وقعت في البنجاب : ما ان بدأ « المؤتمر الهندي » تحقيقه حول تلك الاحداث حتى تلقيت رسالة تدعوني إلى حضور مؤتمر هندوسي اسلامي مشترك كان مقرراً أن يُعقد في دلهي لدراسة مسألة الخلافة . وكان بين الموقعين على تلك الرسالة المرحوم حكيم أجمل خان صاحب ، ومستر آصف علي . وقد نُصّ فيها على ان المرحوم مسوامي شراداناندجي سوف يشهد المؤتمر ، وانه — إذا كنت أذكر جيداً — سيكون نائب رئيس المؤتمر الذي كان من المنتظر — على قدر ما أذكر — ان يدرس الوضع الناشيء عن خيانة قضية الخلافة ، ومسألة ما إذا كان ينبغي للهندوس والمسلمين أن يشاركوا في احتفالات الصلح . ومضت الرسالة تقول ، بالإضافة إلى أشياء أخرى ، إن المؤتمر لن يبحث مسألة الخلافة وحدها ولكنه سيبحث مسألة حماية البقرة أيضاً ، ومن أجل ذلك فانه سوف يتيح فرصة ذهبية لتسوية مشكلة البقرة . ولم أحبّ هذه الاشارة إلى مشكلة البقرة . وهكذا كتبت رسالة جوابية على الدعوة وعدت فيها بأن أبذل قصارى جهدي لحضور المؤتمر واقترحت ان لا يجمع ما بين التقيتين وان لا ينظر اليهما المؤتمران بروح المساومة ، بل ان تُدرَس كل منهما على ضوء مقاومتها الخاصة وان تعالج معالجة مستقلة .

كانت هذه الافكار تملأ ذهني عندما قصدت إلى المؤتمر . كان اجتماعاً حاشداً وإن لم يُوحَ بمشهد الاجتماعات الأخيرة التي شهدتها عشرات الألوف من الناس .

وناقشت القضية المشار إليها آنفاً مع المرحوم سوامي شراداناندجي الذي شارك في المؤتمر ، وقتل حجتي حتى قدرها ، وترك لي أمر عرضها على المؤتمر . كذلك ناقشت المسألة مع المرحوم حكيم صاحب . وقبل المؤتمر ذهبت إلى القول انه إذا كان لمسألة الخلافة أساس عادل وشرعي ، كما أعتقد ، وإذا كانت الحكومة قد صدر عنها فعلاً عمل ظالم خطير فإن الهندوس لا بد لهم ان يساندوا المسلمين في ما يطلبون من رفع الظلم المتمثل في قضية الخلافة . إنه لا يليق بهم ان يثيروا مسألة البقرة في هذه المناسبة ، أو أن يفيدوا من هذه المناسبة لكي يتصلحوا مع المسلمين . كما انه لا يليق بالمسلمين ان يعرضوا التوقف عن ذبح البقرة كتمن لتأييد الهندوس في قضية الخلافة . ولكنها تكون قضية مختلفة جداً ، وبادرة كريمة تكسب المسلمين فخراً عظيماً إذا ما كفوا من تلقاء أنفسهم عن ذبح البقرة مراعاة منهم لاحاسيس الهندوس الدينية ، وبدافع من شعورهم بواجبهم نحو الهندوس بوصفهم جيراناً وأبناء تربة واحدة . واضفت قائلاً ان الواجب يقضي عليهم باتخاذ مثل هذا الموقف المستقل الذي يضفي على سلوكهم جلالاً إلى جلال . ولكن إذا اعتبر المسلمون ان واجب الجوار يقتضيهم الكف عن ذبح البقرة فإن عليهم ان يفعلوا ذلك سواء أيدهم الهندوس في قضية الخلافة أم لم يؤيدوهم . وناقشت قائلاً : « وإذا كان ذلك كذلك فإن كلنا المائتين ينبغي ان تدرس بالاستئلال عن الأخرى ، وان مناقشات المؤتمر يجب ان تنصر على قضية الخلافة فحسب . » وراقت حجتي للآخرين ، وهكذا فإن مسألة حماية البقرة لم تُدرَس في ذلك المؤتمر .

ولكن على الرغم من تحذيري فإن مولانا عبد الباري صاحب قال : « سواء مدد إلينا الهندوس يد العون ام لم يمدوا فإن على المسلمين ، بوصفهم اخواناً للهندوس وابناء وطن واحد ، وبدافع من احترامهم لمشاعر إخوانهم هؤلاء ، ان يقلعوا عن ذبح البقر . » ولقد بدا ، لحظة ، وكأنهم كادوا يضعون حداً لذلك فعلاً .

واقترح بعضهم ان تُلحق قضية البنجاب بقضية الخلافة . وعارضتُ انا الاقتراح قائلاً ان مسألة البنجاب مسألة محلية ، ومن أجل ذلك فهي لا تقدم أو تؤخر في تقريرنا الاشتراك في مهرجانات الصلح أو عدم الاشتراك فيها . وإذا ما مزجنا المسألة المحلية بقضية الخلافة ، التي نشأت عن شروط الصلح مباشرة ، نكون قد ارتكبنا حماقة خطيرة . واقنع القوم بمنطقي في غير عشر .

وكان مولانا حظرة موهاني حاضراً هذا الاجتماع . وكنت قد عرفته قبل ذلك ، ولكن لم أكشف إلا هنا أي مناضل ضخم هو . لقد اختلف احدنا عن الآخر منذ البدء تقريباً . ولقد استمرت الاختلافات في كثير من المسائل وما تزال .

وكان بين المقررات العديدة التي اتخذت في هذا المؤتمر قراراً يدعو الهندوس والمسلمين جميعاً أن يقسموا بين الـ « سواديشي » ، وان يقاطعوا - كتنجية طبيعية له - السلع الأجنبية . لم تكن الـ « كادي » قد وجدت محلها المناسب بعد ، ولم تكن مقاطعة السلع الأجنبية شيئاً يرضى به رجل مثل « حظرة صاحب » . كان غرضه الانتقام من الامبراطورية البريطانية إذا لم تنصف المسلمين في مسألة الخلافة . وهكذا قدم اقتراحاً معاكساً يقول بمقاطعة السلع البريطانية الصرفة كلما كان ذلك ممكناً . فعارضت هذا الاقتراح ، على أساس المبدأ ، وعلى أساس القابلية للتطبيق ، باسماً الحجج التي أصبحت الآن مألوفة جداً . ليس هذا فحسب ، بل لقد بسطت للمؤتمر وجهة نظري القائلة باللاعنف . وللاحظت ان حججتي تركت أثراً عميقاً . وقبلني كان خطاب « حظرة صاحب » قد استقبل بهتافات عالية إلى درجة جعلتني أخشى أن يكون خطابي صيحة في وادٍ ليس غير . ولم أنجز على الكلام إلا لأنني شعرت بأن عدم بسطي لآرائي امام المؤتمر يُعتبر تقصيراً مني في اداء الواجب المفروض علي . وكلم أدهشني وأبججني ان المشاركين في المؤتمر تابعوا خطابي بأعظم الاهتمام ، وأن ذلك الخطاب ، اترع تأييداً كاملاً من الخطباء ، فراح المتكلمون ينهضون واحداً اثر واحد ، ليلقوا خطاباً تحبذ آرائي . وكان في ميوسر انزعاء ان يروا ان مقاطعة البضائع البريطانية لن تعجز عن تحقيق غايتها

فحسب ، بل كان في استطاعتهم ان يروا أيضاً أن تلك المقاطعة ، إذا ما تبشروا ، خليفة بأن تجعلهم أضحوكة من الاضاحيك . فلم يكد ذلك الاجتماع يخلو من رجل واحد لا يحمل فوق جسمه سلعة ما من صنع بريطاني . وهكذا أدرك كثير من النظارة أنه لن ينشأ شيء غير الأذى من تبني اقتراح لا يقوى على تنفيذه حتى اولئك الذين صوتوا له .

وقال مولانا حظرة موهاني ما معناه : « ان مجرد مقاطعة الاقمشة الأجنبية لا يكفيها ، إذ من يدري إلى أي مدة زمنية سوف نحتاج حتى يصبح في ميسورنا انتاج القماش الوطني الذي يسدّ حاجتنا ، وحتى نتمكن من جعل مقاطعتنا للاقمشة الأجنبية ذات أثر فعال ؟ اننا نريد شيئاً يحدث أثراً مباشراً في البريطانيين ، إمض في دعوتك إلى مقاطعة الاقمشة الأجنبية ، نحن لا نعرض على ذلك ، ولكن اعطنا بالإضافة إلى ذلك شيئاً أسرع . » وحتى وأنا أستمع إليه ، شعرت ان شيئاً جديداً ، شيئاً أكثر من مقاطعة الاقمشة الأجنبية ، لا بد أن يُعمل . وبدا لي أيضاً ان المقاطعة المباشرة للاقمشة الأجنبية مستحيلة من غير شك في تلك الظروف . وما كنت أدري آنذاك ان في استطاعتنا ، إذا شئنا ، ان نتج من « الكادي » ( النسيج الوطني اليدوي ) مقداراً يسدّ كامل حاجتنا إلى اللباس ، فلم يكن ذلك غير اكتشاف متأخر . ومن ناحية ثانية ، فقد عرفتُ حتى في ذلك الحين ، اننا إذا اعتمدنا على المصانع وحدها لتنفيذ مقاطعة الاقمشة الأجنبية ، خدعنا أنفسنا . وكنت لا أزال في غمرة من هذه الورطة عندما أنهى مولانا خطابه .

وكان يعوقني فقري إلى المفردات الهندية أو الأوردية المناسبة . وكانت هذه أول مرة ألقى فيها خطاباً جديلاً أمام جمهور يتألف معظم أفرادها من مسلمي الشمال . لقد سبق لي ان خطبت بالأوردية أمام « العصبة الإسلامية » في كلكتا ، ولكن ذلك الخطاب لم يستغرق غير بضع دقائق ، وكان التصدد منه أن يكون نداء عاطفياً موجهاً إلى جمهور النظارة . أما ههنا فكنت على عكس ذلك أواجه جمهوراً ناقداً ، إن لم أقل معادياً — جمهوراً كان عليّ ان أنهيه وجهة نظري :

ولكنني اطرحُ الحياء كله . أنا لم أقصد إلى هناك لألقي خطبة في أوردية مسلمي  
دلمي المصقولة المبرأة من الخطأ ، ولكن لأبسط للمجتمعين وجهات نظري في  
لغة هندية مهشمة كانت أقصى ما استطعت أدائه في ذلك الظرف . ولقد كنت  
في ذلك ناجحاً . ولقد قدّم اليّ ذلك الاجتماع برهاناً مباشراً على هذه الحقيقة ،  
وهي ان اللغة « الهندية - الأوردية » وحدها يمكن أن تصبح لغة الهند المشتركة .  
ولو قد تكلمت بالانكليزية اذن لما استطعت ان أحدث الأثر الذي أحدثته في  
نفوس النظارة ، واذن لما استنصر مولانا أنه مدعو إلى إطلاق تحدّيه ، ولست  
عاجزاً عن ان اتقبّل ذلك التحدي في فعالية .

ولم أستطع ان اعثر على كلمة هندية أو أوردية تؤدي معنى الفكرة الجديدة ،  
وذلك ما ازعجني وشوشني بعض الشيء . وأخيراً عبّرت عنها بكلمة «لاتعاون»  
وهو اصطلاح استعملته للمرة الأولى في ذلك الاجتماع . ففينا كان مولانا يلقي  
خطابه بدا لي ان من العبث بالنسبة اليه ان يتحدث عن مقاومة فعالة للحكومة كان  
هو يتعاون معها في أكثر من وجه واحد ، إذا كان اللجوء إلى السلاح مستحيلاً  
أو غير مرغوب فيه . وهكذا تراءى لي أن المقاومة الحقيقية الوحيدة للحكومة هي  
الكفّ عن التعاون معها . ومن هنا انتهيت إلى لفظة « اللاتعاون » . ولم تكن  
لديّ آنذاك فكرة واضحة عن مضامينها المتعددة . من أجل ذلك لم أدخل في  
التفاصيل ، لقد اكتفيت بالقول :

— « لقد بنى المسلمون قراراً هاماً جداً . إذا جاءت شروط الصلح غير  
ملائمة لهم — لا سمح الله — فأنهم سوف يوقفون كل تعاون مع الحكومة . وانه  
لحقّ من حقوق الشعب التي لا يجوز التنازل عنها أن يجب تعاونه على هذا  
النحو . إنا غير ملزمين بالاحتفاظ بالألقاب والرتب الحكومية ، أو الاحتفاظ  
بالوظائف الحكومية . وإذا ما خانتنا الحكومة في قضية كبرى كقضية الخلافة  
فليس في استطاعتنا ان نسلك سبيلاً غير سبيل اللاتعاون . واذن فنحن مدعوون  
إلى عدم التعاون مع الحكومة في حالة الخيانة . »

ولكن أشهراً عديدة تصرّمت قبل أن تصبح لفظة اللاتعاون عملة رائجة :



لقد ضاعت ، موقفاً ، في غمرة أعمال المؤتمر . والحق أنني عندما أبدت قرار  
اللاتعاون في « المؤتمر الهندي » الذي اجتمع في آمريتسار بعد شهر إنما فعلت  
ذلك على رجاء أن لا تقع الخيانة ابداً .

## ٣٧ . مؤتمر آمريتسار

لم يكن في مسور حكومة البنجاب ان تبقي في محابسها مئات البنجابيين الذين  
زجت بهم في غياهب السجن - في ظل الأحكام العرفية ، وعلى أساس من أهزل  
البيّنات - هيئات قضائية لم تكن محاكم إلا بالاسم . وكانت صيحات الاحتجاج  
على هذا الظلم الفاضح قد تعالت في كل مكان إلى حدّ جعل ابقاءهم في السجن  
أمراً مستحيلاً . وأطقت سراح معظم المعتقلين قبل أن يبدأ « المؤتمر » أعماله . أما  
لالا هاركيشانلال وغيره من الزعماء فأطلق سراحهم بينما كانت جلسات « المؤتمر »  
ما تزال منعقدة . ووصل الأخوان عليّ إلى هناك أيضاً من السجن مباشرة .  
وتخطى ابتهاج الناس كل حد . وكان موتيلال نهرو الذي كان قد ضحى بمكبه  
الحقوقي المزدهر واتخذ من البنجاب موطناً له وأدى خدمة جليلة - أقول كان  
موتيلال نهرو رئيساً « للمؤتمر » . أما المرحوم سوامي شراداناندجي فكان رئيساً  
للجنة الاستقبال .

وحتى ذلك الحين كانت مشاركتي في أعمال « المؤتمر » السنوية مقتصرة  
على الدفاع البناء عن اللغة الهندية بالقائمي خطابي باللغة القومية ، ويسبلي في  
ذلك الخطاب قضية الهنود في ما وراء البحار . ولم أكن أتوقع ان أدعى إلى القيام  
بأيما عمل إضافي هذا انعام . ولكن العمل المسؤول ما لبث أن أقبل نحوّي فجأة ،  
شأنه في كثير من المناسبات السابقة .

كانت الاصلاحات الملكية الجديدة قد أعلنت منذ فترة قصيرة . انها لم تكن  
مُرضية على نحو كامل حتى بالنسبة اليّ ، ولقد كانت غير مُرضية بالنسبة إلى  
كل امرئ آخر . ولكنني شعرت في ذلك الوقت ان الاصلاحات ، على الرغم

من نقصها ، يمكن أن تُقبل . لقد لمست في الاعلان الملكي ولغته بدء اللورد صُنْها ، ولقد أوقع في نفسي شعاعاً من الأمل . ولكن مناظرين محكين من مثل المرحوم « لوكامانيا » و « ديشاباندو تشيتارانجان داس » هزوا رؤوسهم . أما البانديت مالافياجي فكان حياًدياً .

وكان البانديت مالافياجي قد انزلني ضيفاً عليه في غرفته . وكنت قد لمحت ، من قبل ، بساطة حياته في الاحتفال بتأسيس الجامعة الهندوسية . ولكنني استطعت في هذه المناسبة ، بحكم وجودي معه في غرفة واحدة ، أن أراقب « روتينه » اليومي بأدق تفاصيله ، ولقد ملأني ما رأيته بدهشٍ كبير . لقد بدت غرفته أشبه بمنزل مجاني للفقراء . فما كان في امكانك ان تجتازها من أحد طرفيها إلى الآخر إلا في عمر شديد . كانت غاصة بالناس . وكانت مشرعة الباب طوال ساعات الليل والنهار للزائرين الطارئين الذين كان يجاز لهم أن يأخذوا من وقته أي مقدار شاءوا . وفي زاوية من هذه الحجيرة كان ينهض سريري الخفيف بكامل جلاله .

ولكن وصف أسلوب مالافياجي في الحياة ينبغي ان لا يستغرق هذا الفصل كله . فلأرجع إلى موضوعي .

لقد استطعت ، على هذا النحو ، أن أقوم بمباحثات يومية مع مالافياجي الذي كان من دأبه أن يشرح لي في حجة ، وكأنه أخ أكبر ، مواقف الأحزاب المختلفة ووجهات نظرها . ورأيت ان مشاركتي في المناقشات الخاصة بالتقارير المتعلقة بالاصلاحيات كانت أمراً لا مفرّ منه . وإذ كنت قد نهضت بنصيبي من المسؤولية في وضع تقرير « المؤتمر الهندي » حول فظائع الحكومة في البنجاب ، فقد شعرت ان كل الاعمال الباقية ذات الصلة بهذه القضية يجب ان تثير اهتمامي . كان لا بد من القيام باتصالات مع الحكومة في هذا الموضوع . وكانت هنالك مسألة الخلافة أيضاً . ثم انني اعتقدت في ذلك الحين ان مسر مونتاغولن ينحون قضية الهند أو يسمح بنجياتها . أضف إلى هذا أن اطلاق سراح الاثنتين عليّ

وغيرهما من المعتقلين بدا لي أمارة ميمونة . وفي تلك الملاحظات شعرت بان اتخاذ قرار بقبول ، لا برفض ، الاصلاحات هو الشيء الصائب . ولكن ديشاباندو تشيتارانجان داس ، من ناحية ثانية ، تثبت بالرأي القائل ان الاصلاحات يجب ان ترفض باعتبارها غير ملائمة وغير مرضية بحال من الاحوال . أما المرحوم لوكامانيا فكان محابداً ، كثيراً أو قليلاً ، ولكنه كان قد قرر أن يلقي بشقه في جانب أيما مشروع قرار قد يقره ديشاباندو .

ولم أستطع ان احتمل مجرد التفكير في الاضطراب الى الاختلاف مع أمثال هؤلاء الزعماء المحنكين المشتهين باحترام شامل . ولكن صوت الضمير كان واضحاً . وحاولت ان أولي من « المؤتمر » فراراً ، وقلت للبانديت مالافياجي وموتيلالجي ان من الخير العام ان أنغيب عما تبقى من جلسات المؤتمر . ان ذلك خلقي به ان ينجيني من اضطراري الى اظهار خلالي مع اولئك الزعماء الموقرين . ولكن اقتراحي هذا لم يلقَ أي تأييد من هذين الزعيمين الكبيرين . وبطريقة ما ، همس بنياً اقتراحي في اذن لالا هاركيشانلال فقال : « هذا لن يفيد . انه سوف يجرح مشاعر البنجاليين ويسبب اليهم اساءة كبيرة . » وناقشت الأمر مع لوكامانيا ، وديشاباندو ، ومستر جنّاح ، ولكننا لم ننتهـد إلى مخرج : وأخيراً شكوتُ بشي إلى مالافياجي فقلت له : « أنا لا أرى أملاً في إجراء تسوية ، وإذا تعيّن عليّ ان أقدم مشروع قرار في فتندث فاضطر إلى أن نطلب من المؤيدين الوقوف في جهة ، والمعارضين الوقوف في جهة ، ونعمد بعد ذلك إلى أخذ الاصوات ، ولكني لا أجد هنا أي ترتيبات لذلك . فقد جرى العرف في جلسات « المؤتمر » العامة بأن تؤخذ الاصوات برفع الأيدي مما يؤدي إلى فقدان كل تمييز بين الزائرين والمندوبين ، مع العلم اننا لا نملك أية وسيلة على الإطلاق لاحصاء الأصوات في مثل هذه الاجتماعات الحاشدة . وهكذا تكون النتيجة ما يلي : حتى لو رغبتُ أنا في دعوة المؤيدين إلى الوقوف في جهة والمعارضين إلى الوقوف في جهة أخرى فلن يكون ثمة سبيل إلى تحقيق ذلك ، بل لن يكون لمثل هذا الصنيع معنى ما . » ولكن لالا هاركيشانلال انجدنا وأخذ على نفسه مهمة

اتخاذ الترتيبات الضرورية ، إذ قال : « لن نسمح للزائرين بالدخول إلى قاعة المؤتمر يوم إجراء التصويت . أما مسألة عدد الأصوات فسوف أندبرها بطريقة ما . ولكن يجب عليك ان لا تنغيب عن المؤتمر . »

وأذعنت . وصُغْتُ مشروع قرارى ، وقدمته إلى المؤتمر وقلبي يرتعد : ودعم المشروع كل من البانديت مالا فياجي ومستر جنّاح . وكان في ميوري ان ألاحظ انه على الرغم من أن اختلافنا في الرأي كان خَوْاً من أي أثر من آثار الغضب والمرارة ، وعلى الرغم من ان «خطبنا لم تشتمل على شيء غير المنطق الصرف ، فان الناس لم يطبقوا مجرد التفكير بأن ثمة خلافاً . لقد آلمهم ذلك ، كانوا يريدون الاجماع :

وحنى فيها كانت الخطب تُلقى ، بُذلت جهود كثيرة لتسوية الخلاف ، وتبذلت المذكرات بين الزعماء من أجل هذا الغرض . كان مالا فياجي لا يدّخر وسعاً في العمل على رآب الصدع : جمع الكلمة . وفي تلك اللحظة بالذات قدم جيرامداس تعديله اليّ ، متوسلاً بطريقته العذبة الخاصة أن يعمل الزعماء على انقاذ المندوبين من ورطة الانقسام . وراقني التعديل الذي وضعه . وكانت عينا مالا فياجي تجولان في كل مكان بحثاً عن بارقة أمل . وقلت له ان التعديل الذي وضعه جيرامداس بدا لي محتمل القبول من جانب الفريقين المتنازعين . وقال لوكامانيا ، الذي اطلع — بعد مالا فياجي — على التعديل : « إذا اقرّه ديشاباندو تشيتارنجان داس فلن يكون لدي أي اعتراض . » وأخيراً أشرقت أسارير ديشاباندو وألقى نظرة نحو السيد « بيين تشاندرا بال » للموافقة . وأنعم مالا فياجي بالأمل ، فانتزع قصاصة الورق التي «خط» عليها التعديل ، وصاح حتى قبل ان يلفظ ديشاباندو كلمة « نعم » جليّة : « أيها الاخوان المندوبون ، سوف يسرّكم أن تعلموا أننا توصلنا إلى تسوية . » أما ما حصل بعد ذلك فيكاد يمتنع على الوصف : ودوت القاعة بالتصفيق ، وأضاءت بالابتهاج وجوه النظارة التي كانت من قبل قائمة كالحية .

ولست أرى ان ثمة حاجة إلى التحدث عن نص التعديل . إن غرضي هنا لا

يعدو أن يكون وصف الطريقة التي اتخذ بها ذلك القرار كجزء من تجاربي التي  
تعرض لها هذه الفصول .  
ثم ان هذه التسوية حملتني مسؤولية إضافية .

### ٣٨ . بدء نشاطي في « المؤتمر الهندي »

يجب ان اعتبر مشاركتي في أعمال مؤتمر آمريتسار دخولاً حقيقياً في سياسة  
« المؤتمر الهندي » . ذلك ان حضوري للمؤتمرات السابقة لم يكن أكثر من تجديد  
سنوي لولائي للمؤتمر . وأنا لم أشعر قط في تلك المناسبات أنه أفرد لي إما عمل  
غير العمل الذي يسند إلى الانفار العاديين ، وما كنت على أية حال لأرغب في  
أكثر من ذلك .

لقد كشفت تجربتي في آمريتسار ان ثمة ناحية أو ناحيتين ربما كانت لي بعض  
الكفاءة فيهما ، وربما كان في ميور « المؤتمر » ان يفيد منهما . وكنت قد رأيت  
ان المرحوم لوكامانيا ، وديشاباندو ، والبانديت موتيلالجي وغيرهم من الزعماء  
أعجبوا بالعمل الذي قمت به في مسألة التحقيق في حوادث البنجاب . فكأنوا  
بدعوني إلى اجتماعاتهم غير الرسمية حيث كانت المقترحات المقدمة إلى « لجنة  
الموضوعات » توضع خطوطها الأولى ، كما ظهر لي . ولم يكن يُدعى إلى تلك  
الاجتماعات غير الاشخاص المتمعين بثقة الزعماء الخاصة والذين كان هؤلاء  
الزعماء في حاجة إلى خدماتهم . ولكن المتطفلين كانوا في بعض الاحيان يتخلون  
سيلهم إلى هذه الاجتماعات أيضاً .

وكان ثمة ، للعام التالي ، شيان يثيران اهتمامي ، إذ كانت لي بعض الأهلية  
لها . وأول هذين الشين اقامة نصب تذكاري لمجزرة جالياوالا باغ . وكان  
هذا « المؤتمر » قد اتخذ قراراً بهذا الشأن وسط عاصفة من الحماسة . وكان قد  
أوصى بجمع خمسة الف روية ، تقريباً ، لهذا الغرض . وعُينت أميناً من  
الأمناء المكلفين مهمة الجمع هذه . وكان البانديت مالافياجي معروفاً بمقدرته  
التي لا تضارع في حقل الخدمة العامة . ولكنني كنت أعلم اني لم أكن متخلفاً

كثيراً عنه ، من هذه الناحية . وإنما اكتشفتُ مقدرتي في هذا المضمار يوم كنت في جنوب إفريقيا . صحيح اني ما كنت املك سحر مالا فياجي الذي لا يُجارى في انتزاع اخبات السخية من ذري السلطان في الهند . ولكنني كنت أعلم انه ليس ثمة مجال للاتصال بالراجات والماهرجات التماساً لتبرعاتهم من أجل احياء ذكرى مذبحة جاليانوالا باغ . وهكذا فان مسؤولية الجمع الرئيسية سقطت ، كما قد توقعتُ ، على منكبي . وتبرع مواطنو بومباي الكرام بأعظم السخاء ، وإن لجنة الاحياء لتملك في الوقت الحاضر رصيلاً محترماً في البنك. ولكن المشكلة التي تواجه البلاد اليوم هي أي نوع من النصب التذكاري ينبغي اقامته على الارض التي مزج المتدريس والمسلمون والسيخ ، من أجل تطهيرها ، دماءهم فوق ثراها؟ ذلك ان الطوائف الثلاث ، بدلاً من أن يشدها رباط من الصداقة والحب ، هي اليوم - حب المظاهر كلها - في حرب في ما بينها ، ومن هنا تجدد الأمة نفسها متحيرة لا تدري ما تصنع بالاموال التي جمعت لإحياء تلك الذكرى .

وكانت مقدرتي على وضع البيانات هي الناحية الأخرى التي كان في ميسور « المؤتمر » ان يفيد منها ، فقد اكتشف رجال « المؤتمر » اني أتمتع بملكية للتعبير المكتشف اكسبي إياها المران الطويل . وكان دستور « المؤتمر » المعمول به آنذاك من وضع غوكهايل . وذلك ان غوكهايل كان قد سنّ بضعة قوانين اتخذت أساساً لتسيير أعمال « المؤتمر » . ولقد سمعت قصة وضع هذه القوانين - وهي قصة ماثمة - من شفقي غوكهايل نفسه . ولكن الناس جميعاً كانوا قد شرعوا يحسّون بأن هذه القوانين لم تعد تتلاءم مع اتساع أعمال « المؤتمر » ونماظمها المستمر . وكانت هذه المسألة تبرز عاماً بعد عام . وكان المؤتمر لا يكاد يملك ، آنذاك ، أجهزة تعمل في الفترات الفاصلة ما بين الدورة والدورة ، وتعالج القضايا الطارئة التي قد تنشأ خلال العام . وكانت القوانين القائمة تقضي بالاستعانة بثلاثة أمراء سر ، ولكن الواقع ان واحداً منهم فقط كان سكرتيراً عاملاً ، بل إن هذا السكرتير العامل نفسه لم يكن يقف وقته كله للمؤتمر . فكيف يستطيع ، وهو فردٌ ، ان يدير مكتب « المؤتمر » ، ويفكر في المستقبل ، وان يؤدي

خلال السنة الجارية الالتزامات التي ألزم « المؤتمر » نفسه بها في السنة الماضية ؟ وهكذا فقد استشعر كل امرئ ، خلال ذلك العام ، ان هذه المسألة سوف تتخذ خطوة أعظم . لقد كان المؤتمر هيئة أضخم من أن تصلح لمناقشة الشؤون العامة ، فلم يكن ثمّة حدّ لموضوع لعدد المندوبين إلى « المؤتمر » ، أو لعدد المندوبين الذين تستطيع كل ولاية انتخابهم . وقد استشعر القوم جميعاً ان تحسين هذا الوضع العامي . أصبح ضرورة ماسة . وتحملت مسؤولية وضع دستور جديد على شرط واحد . فقد رأيت ان ثمة زعيمين - لوكامانيا وديشاباندو - يتمتعان بأعظم النفوذ لدى الجمهور ، فطلبت ان يشاركاني ، بوصفها ممثلين للشعب ، في وضع الدستور . ولكن لما كان من الواضح ، أن وقتها لن يسمع لها بالاشتراك شخصياً في وضع الدستور فقد اقترحتُ أن يعيّن معي في لجنة الدستور شخصان آخران يتمتعان بثقتها ، وان يقتصر عدد أفراد هذه اللجنة على ثلاثة. وافرّن هذا الاقتراح بموافقة المرحوم لوكامانيا والمرحوم ديشاباندو اللذين اقترحا اسميَّ السبدين « كيلبار » و « اي . بي . سن » وكيلين عنهما على التعاقب . ولم تستطع لجنة الدستور هذه أن تجتمع ولو مرة واحدة ، ولكننا استطعنا ان نتشاور بالمراسلة. وفي آخر الأمر قلّمنا تقريراً إجماعياً. وأنا أنظر إلى هذا الدستور بقدر معين من الاعتزاز . وأنا أوّمن باننا إذا نقلنا هذا الدستور تنفيذاً كاملاً فإن مجرد تنفيذنا إياه خليق بأن يحمل إلينا الاستقلال . وبأخذي هذه المسؤولية على عاتقي استطيع أن أقول اني بدأت المشاركة ، على نحو حقيقي ، في سياسة « المؤتمر » .

### ٣٩ . ولادة ال « كادي »

لست أذكر اني رأيت نولاً يدويّاً أو دولاب غزل عندما قلت عام ١٩٠٨ في كتاب « الاستقلال الهندي » انه يُعتبر الرياق لفقر الهند المتعاطم . لقد ذهبت في ذلك الكتاب إلى ان من المفروغ منه أن كل ما يساعد الهند على التخلص من فقر جماهيرها الماحق يساعدها في الوقت نفسه على تحقيق استقلالها . وحتى في عام

• classicar اللاتكوني .

١٩١٥ ، عندما رجعت من جنوب إفريقيا إلى الهند ، لم أكن قد رأيت دولاب غزل فعلاً . وعندما انشئ « أشرم الساتياغراها » في سابارماتي جلبنا إلى هناك بضعة أنوال يدوية . ولكن ما إن فعلنا ذلك حتى وجدنا أنفسنا في مأزق . كنا جميعاً من أصحاب المهن الحرة أو من المشتغلين في التجارة وما إليها . ولم يكن أي منا صانعاً محترفاً . كنا في حاجة إلى خبير في النسيج يعلمنا الحياكة قبل أن تتمكن من إدارة الأنوال بأنفسنا . وأخيراً استقدمنا خبيراً من بالانبور ، ولكنه لم يُفَضِّسَ إلينا بكامل فنه . بيد أن ماغانلال غاندي ما كان ذلك الفتي الذي يتسرب إلى فؤاده اليأس . كان ذا مواهب طبيعية في الميكانيك ، فهاهي إلا فترة يسيرة حتى استطاع أن يملك ناصية ذلك الفن ، ومن ذلك الحين تدرب في « الأشرم » عدة حائكين جدد ، واحداً إثر واحد .

كان الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا أن نبصيح في ميسورنا أن نرتدي ملابس كلها في صنع أيدينا . ودكنا اطرحتنا ، منذ ذلك الحين ، اصطناع الاقمشة المنسوجة في المصانع ، وقرر جميع أعضاء « الأشرم » ان يلبسوا منوجات يدوية مصنوعة من القطن الهندي المغزول فحسب . وكان في اتخاذنا هذا المسلك ما فتح أمامنا دنيا من الخبرة . لقد مكنتنا ذلك من ان نعرف ، بالاتصال المباشر ، أحوال العيش بين الحائكين ، ومدى اتناجهم ، والعقبات التي تحول دون الحصول على حاجتهم من القطن المغزول ، والطريقة التي كانوا يجمعون بها ضحايا الغش والاحتيال ، وأخيراً رزوحهم المتواصل تحت أعباء الديون . ولم تكن في وضع يمكننا ، في الحال ، من صنع كل ما نحتاج اليه من قماش . وهكذا لم يكن أمامنا من سبل غير الحصول على حاجتنا من الاقمشة من الحائكين المشتغلين بالأنوال اليدوية . ولكن القماش الجاهز المنسوج من قطن هندي مغزول في المصانع لم يكن الحصول عليه يسيراً سواء من عند تجار القماش أو من عند الحياكة أنفسهم . كانت جميع الاقمشة الجيدة التي أنتجها الحياكة مصنوعة من غزل أجنبي ، لأن المصانع الهندية لم تكن تغزل القطن الممتاز . وحتى اليوم لا يزال انتاج المصانع الهندية من الغزل الممتاز محدوداً جداً ، في حين انها عاجزة كل العجز



عن انتاج الغزل الفاخر . وبعد أعظم الجهد استطعنا آخر الأمر ان نجد بعض الحاكسة الذين تكررّوا بحوك الغزل الوطني لنا ، وعلى شرط واحد هو أن يتعهد « الأشرم » بأخذ كامل الاقمشة التي قد يتجونها . وباصطاعتنا الاقمشة المنسوجة من قطن منزول في المصانع مادةً لثيابنا ، وبالترويج لهذه الاقمشة بين أصدقائنا ، جعلنا من أنفسنا وكلاء متطوعين لمصانع الغزل الهندية . وهذا بدوره جعلنا على اتصال مع المصانع ، ومكّنتنا من ان نعرف شيئاً عن إدارتها وعوائفها . لقد رأينا أن هدف المصانع كان الاكثار من نسج الاقطان التي غزلتها هي . كان تعاونها مع الحائك على النول اليدوي غير اراديّ ، كان أمراً موقفاً لا مفرّ منه . واشتد بنا التوق إلى ان نصبح قادرين على ان نغزل قطننا بأنفسنا . وكان واضحاً اننا لن نوفق إلى الاستقلال عن المصانع إلا بعد أن نحقق ذلك . اننا لم نشعر ان في استطاعتنا اسداء أيما خدمة إلى البلاد ببقائنا وكلاء لمصانع الغزل الهندية .

وواجهتنا من جديد مصاعب لا نهاية لها . فلم نتمكن من الحصول لا على دولا ب غزل ولا على غازل يعلمنا كيف نغزل . كنا نستعمل بعض الدواليب وبعض الوشائع للحياكة في « الأشرم » . ولكن لم تكن لدينا أي فكرة عن ان هذه يمكن ان تُصطنع كدواليب غزل . وذات مرة اكشف كاليديان جافيري امرأة مستعدة لأن نربنا - كما يقال - كيف يتمّ الغزل . فبعثنا اليها عضواً من أعضاء « الأشرم » معروفاً ببراعته الفائقة في تعلّم الاشياء الجديدة . ومع ذلك فقد رجع من غير ان يترتع سر تلك الصناعة .

وهكذا انقضت الأيام ، وصبري لا يزداد معها إلا فروغاً . فما إن تقود المصادفة إلى « الأشرم » زائراً قد تكون له معرفة ما بالغزل اليدوي حتى أرققه بالاسئلة عن ذلك الفن . ولكن لما كان الفن مقصوراً على النسوة ، ولما كان على وشك الانقراض ، فطبيعي أن تكون المرأة وحدها قادرة على معرفة موطن أيما غازلة نائثة قد تكون على قيد الحياة ، ما تزال ، في إحدى الزوايا المظلمة . وفي عام ١٩١٧ اصطحبني أصدقائي الكوجاراتيون لترويس احد المؤتمرات

التربوية . وههنا بالذات اكتشفتُ تلك السيدة الرائعة غانغابهن ماجمونددار ، كانت ارملة ، ولكن روحها المغامرة ما كانت تعرف حدوداً . ولم تكن ثقافتها ، بالمعنى المتعارف عليه للتعبير ، واسعة . ولكنها كانت تنفوق - من حيث الشجاعة والحصافة - على معظم نساتنا المثقفات . وكانت قد تخلصت قبل ذلك من لعنة اللامسائية ، وكانت تختلف ، في غير ما جزع ، إلى أوساط الطبقة المضطهدة وتخدمها . كانت لها موارد مالية خاصة بها ، وكانت حاجاتها المادية قليلة . كان لها جسمٌ قويٌّ ، وكانت تذهب حيث شاءت من غير حراسة ، وكانت بارعة في ركوب الخيل . ولقد قدّر لي ان أعرفها معرفة حميمة في مؤتمر غودرا . فشكوت اليها ما أقاسيه من جراء عدم فوزنا حتى تلك اللحظة بال « تشاركا » . أو دولاب الغزل ، فسرت عني بأن وعدتني بأن تبحث عن ضالتي هذه بحثاً صادقاً موصولاً :

#### ٤٠ . وأخيراً وجدناه !

وأخيراً ، وبعد تطواف لا نهاية له في كوجارات عثرت غانغابهن على دولاب مغزل في فيجابور في ولاية بارودا . فقد كان في منازل كثير من الناس هناك دولاب غزل ، ولكنهم كانوا قد رفعوها إلى العلالي بوصفها من مقتط المتاع الذي لا فائدة منه . لقد أعربوا لغانغابهن عن استعدادهم لاستئناف الغزل ، إذا وعدهم امرواً ما بتزويدهم بما يحتاجون اليه من كبّات القطن على نحو نظامي ، وبشراء القطن الذي يقومون بغزله . وقد ظهر لنا ، بعدُ ، أن تزويدهم بكبّات القطن مهمة عسيرة . وما إن حدثت المرحوم عمر سوباني حديث هذه العقبة حتى ذلّ لها بأن ارسل اليها مقادير وافية من كبّات القطن من مصنعه . وارسلتُ إلى غانغابهن كبّات القطن التي تلقيناها من عمر سوباني ، وسرعان ما بدأ

القطن المغزول يتدفق علينا بمقادير جعلتنا لا ندري ما تفعل بها .

كان سخاء عمر سوباني عظيماً ، ومع ذلك فما كان في ميسوري أن أسترسل في الافادة منه أبداً اندر . لقد شعرت بانقباض وضيق لاستمراري في تنفسي كبّات القطن منه . وإلى هذا : فقد بدا أن استعمال كبّات القطن الصناعية ينطوي على خطأ عظيم : فإذا كان في استطاعة المرء أن يستعمل هذه الكبّات فلم لا يستعمل لقطن المغزول في المصانع ؟ ولا ريب في أنه لم تكن ثمة مصانع تزود القدماء بكبّات القطن . واذن فكيف صنعوا كبّات قطنهم ؟ كانت هذه الافكار تجول في خاطري عندما اترحت دلي غانغابين أن نبحث عن ماشطين للقطن يستطيعون تزويدنا بالكبّات . فنهضت بالمهمة في إقدام . وفاوضت ماشطاً كان مستعداً لتمشيط القطن . فطلب تعويضاً شهرياً مقداره خمس وثلاثون روبية أو أكثر . وكنت لا أستغلي أيّ ثمن لهذه المهمة في ذلك الحين . ولقد مرّنت غانغابين بضعة غلمان على صنع الكبّات من القطن المشط . وبعثت في طلب القطن من بومباي . فاستجاب السيد ياشفانتبراساد ديزاي لطبيبي في الحال . وهكذا ازدهر مشروع غانغابين ازدهاراً فاق كل ما كنا نتوقع . ولقد وجدت حاكّة يحسكون القطن المغزول في فجابور ، وسرعان ما اكتسب « كادي » فيجابور شهرة كبيرة .

وفيما كانت هذه التطورات تحدث في فيجابور ، كان دولاب الغزل يكتب مكانة سريعة في « الأشرم » . لقد افترغ ماغاندل غاندي على هذا الدولاب كامل عبقرته الميكانيكية الرائعة ، مُدخلًا عليه تحسيات كثيرة ، وبدأت الدواليب والقطع المساعدة تُصنع في « الأشرم » نفسه . وكانت أول قطعة من الـ « كادي » صنعت في الأشرم تكلف سبع عشرة آنة للباردة الواحدة . ولم أتردد في أن أوصي الاصدقاء بهذا الـ « كادي » البالغ العشونة ، وبذلك السر ، فدفعوا الثمن عن طيب خاطر .

وكنت طريح الفراش في بومباي . ولكني كنت برغم ذلك قادراً على البحث عن دولاب غزل هناك . وأخيراً وقعت على عاملين من عمال الغزل .

فاتقضياني روية واحدة لكل سير . من القطن المغزول ، أي ٢٨ توله . .  
أو ثلاثة أرباع رطل انكليزي تقريباً . ولم أكن أضنّ على القطن المغزول باليد  
بأي ثمن مهما غلا . وعند مقارنتي للثمن التي دفعته أنا والاثمن المدفوعة في  
فوجبور وجدت اني كنت مغدوعاً . ورفض الغازلان ان يجربا أي تخفيض  
على تسعيرهما . وهكذا اضطررت إلى الاستغناء عن خدماتها . ولكنها حقاً  
الغاية من التعامل معها . لقد علّم الغزل "كلاً" من السيدات آفانتيكاباي ، ورامياي  
كامدار ، ووالدة السيد شانكارالال بانكر الارملة ، والسيدة فاسوماتيهن .  
وشرع الدولار يدندن مرّحاً في غرفتي ، واستطيع ان أقول في غير مبالغة ان  
دندنته كان لها فضل غير يسير في استعادتي صحي . أنا مستعد للتسليم بأن اثرها  
كان سيكولوجياً أكثر منه جدياً ، ولكن هذا يثبت بما لا يحتمل الشك عظيم  
تأثر الحالة الجسمية عند الانسان بالحالة السيكلوجية . وشاركت أنا أيضاً في  
إدارة الدولار ، ولكن نشاطي في هذا الحقل كان محدوداً في ذلك الوقت .

وفي بومباي أيضاً برزت المشكلة القديمة ، مشكلة الحصول على حاجتنا من  
كبّات القطن اليدوية . كان احد ماشطي القطن يحتاج كل يوم ، مُرناً قومه ،  
بدار السيد رافاشانكار . فاستدعيته ، وعلمت أنه يمشط القطن لحشو الفرش .  
ووافق على تمشيط القطن للكبات . ولكنه تناضاني من أجل ذلك ثمناً باهظاً ،  
فلم أنخل عليه به . حتى إذا أعدّ القطن المغزول على هذا النحو كلفت بعض  
الاصدقاء الفيشنايين أن يصنعوا منه أكابيل لاده بافيترا ايكاداشي . . وأنشأ  
السيد شيفجي صفّاً لتعليم غزل القطن في بومباي . والواقع ان هذه التجارب  
كلها كلفتنا نفقات كبيرة . ولكن اصدقائي الوطنيين : المنحين لبلادهم الأم ،  
المؤمنين بال " كادي " ، كانوا يدفعون هذه النفقات عن طيب خاطر . وفي  
رأسي المتواضع ان الاموال التي انفقت في هذا السبيل لم تذهب أدراج الرياح .

(المغرب)

Seer السير وزن هندي .

(المغرب)

Tula اتولة وزن هندي أيضاً .

لقد أورشنا ذخيرة خصبة من الخبرة ، وكشفت لنا عن امكانيات دولاب الغزل .

وتعاطم توقي ، الآن ، إلى أن لا أرندي غير النسيج القطني البدوي لباساً . كنت لا ازال ألبس « دوطياً » مصنوعاً من نسيج المصانع الهندية . ولم يكن عرض الـ « كادي » الخشن المصنوع في « الأشرم » وفي فيجابور ليزيد على ثلاثين انشاً . فأرسلت مذكرة إلى غانغابين قلت لما فيها انها إذا لم تزودني بـ « كادي » عرضه خمسة وأربعون انشاً في مدى شهر واحد سوف أصطح دوطياً قصيراً مصنوعاً من « كادي » قصير . ووقع الانذار عليها وقع الصاعقة . ولكنها أثبتت انها كفوءة للمهمة التي ألقينها على عاتقها . فلم يكد الشهر ينقضي حتى ارسالت اليّ « دوطيين كاديين » عرض كل منهما خمسة وأربعون انشاً ، وهكذا خلّصتني مما كان يمكن أن يكون آنذاك وضعاً عسيراً بالنسبة اليّ .

وحوالي ذلك الوقت نفسه جاء السيد لاكشميداس بالسيد راجبي ، الحائك ، مع زوجته غانغابين من « لائي » إلى « الأشرم » ، وبذلك جعل « الدوطيات الكادية » تنسج في « الأشرم » . والحق أن الدور الذي لعبه هذان الزوجان في نشر الـ « كادي » لم يكن ضئيلاً بأية حال . لقد علّما جمهرة من الاشخاص فسي كوجارات وفي خارجها أيضاً فن نسج القطن المغزول يدوياً . ان وؤبة غانغابين جالسة إلى نولها لمشهد مثير . فحين تنهك هذه الأخت الأمية ، ولكن الرصينة ، في عملها ، وراء النول ، تنسى نفسها إلى درجة تجعل من السير على المرء ان بصرف انتباهها عما هي فيه ، وتجعل من الأعسر عليه أن يلفت عينها عن نولها المحبوب .

## ٤١ . حوارٌ مثقّف

منذ البدء أثارت حركة الـ « كادي » ، أو حركة الـ « موديشي » كما كانت تدعى آنذاك ، كثيراً من الانتقاد في أوساط أصحاب المصانع . والواقع ان

المرحوم عمر سوباني ، وهو رجل بارع يملك مصنعاً خاصاً به ، لم يُفَضَّرَ الي بمعرفته وخبرته وحسب ، بل أبقاني على اتصال دائم بآراء أصحاب المصانع الآخرين أيضاً . ولقد أثرت في الحجة التي أدلى بها واحد من هؤلاء تأثيراً عميقاً . وألح عليّ بالاجتماع به ، فوافقت . وهياً ستر سوباني ذلك اللقاء ، وافتتح صاحب المصنع المحادثة :

- « هل تدري ان الدعوة إلى القيام بالحركة « السواديشية » قد أُطلقت قبل اليوم ؟ »

فأجبت :

- « نعم ، أدري . »

- « وأنت تدرك أيضاً اننا ، نحن أصحاب المصانع ، استغللنا الحركة السواديشية ، في أيام « التقسيم » ، أكمل استغلال . وحين بلغت أوجها رفعنا أسعار القماش ، بل فعلنا أشياء أسوأ . »

- « أجل ، لقد سمعت شيئاً عن ذلك ، ولقد آلمني أن أسمعه . »

- « أستطيع ان أفهم ألمك ، ولكن لا أستطيع ان أرى مبرراً له . إننا لا ندير مصانعنا بدافع من الرغبة في عمل الخير . إننا نفعل ذلك من أجل الربح ، وان علينا أن نرضي حملة الأسهم . إن الطلب على السلعة هو الذي يحدد ثمنها ، ومن الذي يستطيع ان يعطل قانون العرض والطلب ؟ كان على البنغاليين ان يدركوا ان حملتهم لا بد ان ترفع ثمن القماش « السواديشي » برغيب الناس في طلبه . »

فقاطعته قائلاً :

- « كان البنغاليون مثلي طيسي القلب بالفطرة . لقد آمنوا أعمق الإيمان بأن أصحاب المصانع لن يكونوا من الانانية وفقدان الشعور الوطني بحيث يخونون بلادهم في ساعة الحرج ، بل يبحث يذهبون إلى الاحتيال ، كما فعلوا ، فيقدمون القماش الأجنبي إلى الناس زاعمين انه سواديشي . »

فأضاف :

— « أنا أعرف طبيعتك التزاعة إلى الثقة بالناس . وهذا هو السبب الذي من أجله جعلتك تتجشّم غناء المجيء لزيارتي لكي أحوّرك من الوقوع في الغفلة نفسها التي وقع فيها البنغاليون ذوو القلوب البسيطة . »

قال صاحب المصنع هذه الكلمات وأوماً إلى كاتبه الذي كان واقفاً إلى جانبه بأن يُبرز نماذج من الأقمشة المصنوعة في معمله . ثم قال وهو يشير إليها : « أنظر إلى هذه البضاعة . هذه آخر تشكيلة من الأقمشة التي أنتجتها مصانعنا . إنها تلقى إقبالاً عظيماً من الناس . نحن نصنعها من فضول القطن وبقاياها ، ومن الطبيعي أن تكون رخيصة . ونحن نبعث بها إلى أودية الميلايا في أقصى الشمال . وإن لنا لوكالات في طول البلاد وعرضها ، وحتى في المواطن التي لا يستطيع صوتكم أو وكلاؤكم الوصول إليها بأية حال . وهكذا ترى أننا لا نتوقف لحاجتنا إلى عملاء جدد ، فيجب أن تعلم أن انتاج المهند من الأقمشة أضال بكثير من أن يسدّ كامل حاجتها . ومن هنا فإن مسألة السواديشي تنحلّ في المحل الأول ، آخر الامر ، إلى إنتاج . ويوم نستطيع زيادة انتاجنا على نحو كاف ، ونحسن نوعيته إلى الحد الضروريّ فأنا استبراد القماش الاجنبي سوف ينقطع او توماتيكياً . واذن فنصبحي اليك هي أن لا تواصل حملتك هذه في خطوطها الحاضرة ، وان تحوّل اهتمامك إلى انشاء مصانع جديدة . إن ما نحتاج اليه ليس الدعاية لتضخيم الطلب على بضائعنا ، بل الدعاية إلى انتاج أكبر . »

فأله :

— « واذن فأنتك من غير ريب سوف تبارك جهدي إذا علمتَ اني منهمك منذ مدة في ذلك الشيء بالذات . »  
فهتف مندهلاً بعض الشيء :

— « كيف ذلك ؟ ولكن لعلك تفكر في الدعوة إلى انشاء مصانع جديدة ، وفي هذه الحال تستحق التهنئة من غير شك . »  
فأوضحت :

« أنا لا أقوم بذلك على وجه الضبط . ولكني منهمك في إحياء دولاب الغزل . »

فألني وهو يستشعر انه لا يزال في حيرة :

« ماذا تقول ؟ »

فحدثته حديث دولاب الغزل من ألفه إلى يائه وقصة بحني الطويل عنه ثم أضفت :

« أنا من رأيك تماماً . فليس ثمة فائدة من صبرورني ، عملياً ، وكيلاً من وكلاء المصانع . ان ذلك خليك به ان يؤذي الوطن أكثر مما يفيده . وهكذا فان عملي يجب أن يكون تنظيم انتاج القماش المغزول يدوياً ، وإيجاد الوسائل لتصريف ال « كادي » المنتج بهذه الطريقة . وإذن فأني اركز اهتمامي على انتاج قماش ال « كادي » . أنا أؤمن بهذا النوع من ال « سواديشي » لأنني أستطيع ، من طريقه ، أن أكفل العمل لسنة الهند نصف الجائعات ، نصف العاطلات عن العمل . إن فكرتي تقوم على جعل هؤلاء السنة يغزلن القطن ، وإلباس شعب الهند قماش ال « كادي » المنسوج منه . ولست أدري إلى أي حد سيُكَب النجاح لهذه الحركة ، انها لا تزال اليوم في مرحلتها الابتدائية . ولكن لي ثقة كاملة بها ، وعلى أية حال ، فانها لا تستطيع ان تحدث أي أذى . على العكس . انها سوف تضاعف انتاج القماش في البلاد ، وهو انتاج ضئيل جداً ، وبذلك تمثل كسباً للوطن عظيماً . وهكذا ترى ان حركتي في نجوة من الشرور التي أشرت أنت إليها . »

فأجاب :

« إذا كنت ترمي من تنظيم حركتك هذه إلى زيادة الانتاج فليس لي ما أقوله ضدها . أما مدى النجاح الذي يستطيع دولاب الغزل أن يحققه في عصر القوة الميكانيكية هذا فمسألة أخرى . واني لأرجو لك كل نجاح . »



## ٤٢ . الحركة في أوج قوتها

يتعين عليّ ان لا أخصص أيما فصل إضافي لوصف تقدم لك « كادي » المتعاطف . فليس يتسع مجال هذه الفصول لسرد مختلف نشاطاتي بعد أن اطلع عليها الخاص والعام . ويتعين عليّ ان لا أحاول ذلك ، على الأقل لمجرد ان هذا الصنيع يقتضي ان أضع دراسة خاصة في الموضوع . إن غرضي الوحيد من كتابة هذه الفصول ان أصف كيف برزت بعض الاشياء لي ، وكأنيما كان يروضاها على نحو تلقائي ، خلال تجاربي مع الحقيقة .  
فلنأنف إذن قصة حركة اللاتعاون :

فيما كانت حملة الخلافة القوية التي نهض بأعبائها الأخوان عليّ قائمة على قدم وساق ، تمت لي مناقشات طويلة في الموضوع مع المرحوم مولانا عبد الباري وغيره من « العلماء » ، وخاصة في ما يتصل بمضى استقاعة المسلم الترام قاعدة اللاعنّف . وفي النهاية اتفقوا جميعاً على ان الاسلام لا يحظر على المسلمين اتباع اللاعنّف كممارسة . ليس هذا فحسب ، بل لقد اتفقوا على أن الاسلام يقضي على المسلمين ، حين يأخذون بتلك السياسة ، أن يلتزموا في صدق واخلاص . وأخيراً قدّم مشروع قرار اللاعنّف إلى مؤتمر الخلافة فأقرّ بعد مناقشات متعاطولة . وأنا أنذكر ، على نحو حيّ جداً ، كيف ان لجنة في « الله آباد » سلخت الليل كله ، ذات مرة ، في مناقشة هذا الموضوع . وفي البدء كان المرحوم « حكيم صاحب » في ريب من امكانية تطبيق اللاتعاون اللاعنفي . حتى إذا تبددت شكوكه أقبل على الحركة بقلبه وروحه ، وقد أثبت الأيام أن مشاركته فيها كانت ثمينة لا تُقدّر . وفي ما بعد عرضتُ أنا مشروع قرار اللاتعاون على مؤتمر كوجارات السياسي الذي عُقد بُعيد ذلك ، وكانت الحجة الأولى التي قدمتها المعارضة لتلخص في أنه ليس من صلاحية مؤتمر اقليمي ان يتبنّى قراراً لم يجتمع « المؤتمر الهندي » بعد للنظر فيه . وفي الرد على ذلك ، قلتُ ان هذا القيد لا يمكن أن ينطبق إلا على حركة ترتدّ إلى وراء ، أما في ما يتصل بالحركة المنطلقة إلى أمام فليس من صلاحية المنظمات الفرعية ان تتبناها فحسب ، بل إن من واجبها ان تفعل ذلك إذا كانت

تجدد في نفسها العزم والثقة الضروريين . وذهبت إلى أنه لا ضرورة لأي إذن من أجل عاولة تعزيز مكانة المنظمة الأم شرط ان يقوم المرء بهذه المحاولة على مسؤوليته الخاصة . ثم إن الاقتراح نوقش على أساس من مزاياه الخاصة ، وكانت المناقشة تتصف بالحدة بقدر اتصافها بجرأة « المعتولية العذبة » الذي جرت فيه . وبعد أخذ الأصوات أعلن ان مشروع القرار نال أكتريه غامرة . وانما يرجع قسط كبير من الفضل في إقرار المشروع إلى شخصية السيد فالاباي وعباس طيبيجي . وكان هذا الأخير هو الرئيس ، وكانت ميوله كلها تؤيد مشروع قرار اللاعنف . وقررت « لجنة مؤتمر عموم الهند » ان تعقد دورة خاصة « للمؤتمر » في أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ في كلكتا للمناقشة في هذه المسألة . وأُخذت الاستعدادات لتلك الدورة على نطاق واسع . وانتُخب لالا لاجيات راي رئيساً ، وسُيُبرت « قتلر حديدية خاصة » بالمؤتمر ، و « الخلافة » من بومباي إلى كلكتا . وفي كلكتا عقد اجتماع ضخم جداً ضمّ آلافاً من المدوين والزائرين .

ونزولاً عند طلب «مولانا شوكت علي» أعددت في القطار مسودة مشروع قرار اللاتعاون . وحتى ذلك الحين كنت قد اجتنبت جهد الطاقة استعمال كلمة اللاعنف في مشاريع القرارات . أما في خطبي فكنت أصطنع هذه الكلمة دائماً . كانت معجمتي الخاصة بهذا الموضوع لا تزال رهن انتكوان . ولقد وجدت اني لا أستطيع أن أوضح مقصدي للمشاركين في المؤتمر ، وهم في كثيرهم المطلقة من المسلمين ، بمساعدة المرادف السنسكريتي للفظه اللاعنف . وهكذا سألت مولانا ابا الكلام آزاد ان يعطيني مرادفاً آخر لها . فاقترح لفظه « با - أمان » ba-aman وكذلك اقترح للاتعاون عبارة : « ترك الموالة »

Tark-i-mavalat

وهكذا ، بينا كنت لا أزال منهمكاً في ابتكار المرادفات « الهندية » . والكوجارانية ، والأوردية للفظه اللاتعاون دُعيت نصياغة مشروع قرار اللاتعاون لذلك المؤتمر الخطير . وفي المسودة الاصلية كنت قد استعظمت لفظه اللاعنف . وكنت قد قدّمت المسودة إلى مولانا شوكت علي الذي كان مسافراً في الحافلة

نفسها من غير ان لاحظ الأسقاط . وفي موهن من الليل اكتشفت الخطأ . وفي الصباح حصلت ماهاذيف رسالة تقول بأن ذلك الخطأ ينبغي ان يصلح قبل إرسال المسودة إلى المطبعة . ولكن بخيل الي ان المسودة طُبعت قبل أن يكون في الامكان ادخال الكلمة الساقطة . وكانت لجنة الموضوعات تعترم الاجتماع في تلك الليلة نفسها . وهكذا تعين علي ان أجري التصحيح الضروري على النسخ المطبوعة من مسودة القرار . ولقد رأيت في ما بعد ان صعوبة كبيرة كان خليقاً بها أن تنشأ لو لم أكن على استعداد مع مسودة القرار التي وضعتها .

وعلى أية حال فقد كان الذعر الذي عصف بي بدعو إلى الرثاء . كنت في حيرة وقلق بالغين أنساءل عن الذي سيؤيد مشروع القرار ومن الذي سيعارضه . ولم تكن لدي ، إلى ذلك ، أبداً فكرة عن الموقف الذي سيتخذه لالاجي . اني لم أر غير جمهرة مهية من المناضلين العريقين اجتمعت للصراع في كلكتا وكان من بينها الدكتور بيزانت ، والبانديت مالاياجي ، والسيد فيجاباراغا فانتاري ، والبانديت موتيلالجي ، وديشاباندو .

وفي مشروع قرار كان اللاتعاون رهناً بشوية مسألة الخلافة ورفع المظالم التي تمثلت في حوادث البنجاب . ولكن هذا لم يرق للسيد فيجاباراغا فانتاري الذي ناقش الأمر قائلاً : إذا كان لنا أن نعلن اللاتعاون فعلام الإشارة إلى مظالم بعينها ؟ ان فقدان الحكم الذاتي هو أكبر مظلمة ترزح البلاد تحت وطأتها . وضد هذه المظلمة بالذات ينبغي ان يوجه اللاتعاون . وأراد البانديت موتيلالجي أيضاً أن يشتمل مشروع القرار على المطالبة بالحكم الذاتي . وقبلت الاقتراح في الحسب وادجت المطالبة بالحكم الذاتي في مشروع قرار الذي أقر بعد مناقشة شاملة ، جدية ، وعاصفة بعض الشيء .

وكان موتيلالجي أول من انضم إلى الحركة . ولا أزال اذكر المناقشة العلية التي جرت بيني وبينه حول مشروع القرار . لقد اقترح بضعة تعديلات في صيغته ما لبثت ان تبنيته . ولقد سعى إلى أن يكسب تأييد ديشاباندو للحركة . وكان فواد ديشاباندو مع الحركة ، ولكنه كان في ريب من قدرة الشعب على تنفيذ البرنامج .

وفي مؤتمر ناغبور فحسب: تنبّل الحركة ، هو و « لالاجي » ، من صميم الفؤاد. وافتتدت المرحوم لوكامانيا ، أعظم الانشقاق ، في الدورة الخاصة . ولقد كنت أعتقد ، ولا أزال ، عقداً جازماً بأنه لو كان لوكامانيا على قيد الحياة آنذاك اذن لأسبغ عليّ بركاته في تلك المناسبة . ولكن حتى لو كان الحال غير ذلك وعارض لوكامانيا الحركة فعندئذ كان خليقاً بي ان اعتبر معارضة شرفالي وتنقيفاً للنضي . لقد كان بيننا دائماً خلاف في الرأي ، ولكن ذلك الخلاف لم يفسد علينا ودناً. لقد جعلني أعتقد أن الروابط التي تشدّ أحذنا إلى الآخر كانت أوثق الروابط وأقواها . وحتى وأنا أكتب هذه السطور تتمثل ظروف وفاته أمام عيني العنلية في حيوية . كان ذلك حوالى منتصف الليل حين تلقى لي باتواردان ، الذي كان يعمل معي آنذاك ، ناقلاً الي نبأ وفاته . وعلى نحو تلقائي ندّت هذه الصيحة من بين شفتي : « لقد انهار حصني الاقوى . » كانت حركة اللاتعاون قائمة على قدم وساق آنذاك ، وكنت انتزع في خفة إلى تشجيعه واستمداد الوحي منه . أما الموقف الذي كان خليقاً به ان يتخذه من المظهر الاخير للاتعاون فسوف يظل دائماً مسألة تخمين ، وتخمين غير ذي جدوى . ولكن ثمة امرأ ثابتاً من غير شك وهو ان الفراغ الذي احداثته وفاته كان ثقیل الوطأة على كل من كان في كلكتا ؛ لقد افتقد كل امرئ نصائحه في تلك الساعة الحرجة من تاريخ الأمة .

### ٤٣ . في ناغبور

كان للقرارات التي تبناها « المؤتمر » في دورة كلكتا الخاصة ان تُثبت في دورته السنوية في ناغبور . وهنا أيضاً ، كما في كلكتا ، تدفق سيلٌ عارم من الزائرين والمندوبين . كان عدد المندوبين إلى « المؤتمر » مطلقاً لما يحدّد بعد . فكان من نتيجة ذلك أن بلغ العدد في هذه المناسبة - على قدر ما أذكر - نحواً من اربعة عشر ألفاً . وألح لالاجي على ضرورة اجراء تعديل طفيف للمادة المتعلقة بمقاطعة المدارس ، فوافقتُ على ذلك . وكذلك أُجريت بعض التعديلات نزولاً عند

لالحاح ديشاباندو ، حتى إذا تمّ هذا وافق المؤتمر على قرار اللاتعاون بالاجماع . وكان لمشروع القرار الخاص بتعديل دستور « المؤتمر » أن يُناقش في تلك الدورة أيضاً . وكانت المسودة التي وضعتها اللجنة الفرعية قد عرضت على « المؤتمر » في دورة كلكتا الخاصة . واذن فإن المسألة كانت قد نوقشت مناقشة حرة ، وكانت قد أشبعت درساً . وفي دورة ناغبور ، عندما طرح مشروع القرار على التصويت . كان السيد فيجاياراغا فاثاريار هو الرئيس . وافقرت لجنة الموضوعات المشروع بعد أن اجرت عليه تعديلاً هاماً واحداً . ففي مشروع كان عدد المندوبين قد حُدّد ، على ما اعتقد ، بألف وخمسة . فاستعاضت لجنة الموضوعات عن هذا الرقم برقم ستة آلاف . وفي رأبي ان هذه الزيادة كانت ثمرة الرأي المتهور ، ولم تزدني تجارب هذه السنوات كلها إلا تعلقاً بوجهة نظري تلك . أنا اعتقد ان من الوهم الخالص الايمان بأن تكاثر المندوبين يساعد بأية حال على سير العمل سيراً أفضل ، أو يصون مبدأ الديمقراطية . إن القصد وخمسة مندوب غيورين على مصالح الشعب مخلصين واسمي أفق التفكير ، خلق بهم ان يكونوا - في أيما يوم - وقاية للديموقراطية خيراً من تلك الوقاية التي يمكن ان تتمثل في ستة آلاف من المندوبين غير المسؤولين المختارين كيفما اتفق . فلكي تصان الديموقراطية يتعين على الشعب ان يتمتع بحسّ حاد لاستقلاله واحترامه الذاتي ووحدته ، وان يصر على ان لا يختار لتمثيله إلا الاشخاص المعروفين بالصلاح والاخلاص . ولكن لما كانت فكرة الأعداد مستحوزة على لجنة الموضوعات استحوذاً كبيراً فقد كان خليقاً بها ان تذهب إلى ابعد من رقم ستة آلاف أيضاً . وهكذا فإن تحديد العدد بستة آلاف كان حلاً وسطاً .

وكانت مسألة هدف « المؤتمر » موضوع مناقشة حادة . ففي الدستور الذي قدمته كان هدف المؤتمر تحقيق الحكم الذاتي ضمن الامبراطورية البريطانية إذا أمكن ، وخارجها عند الضرورة . واراد فريق من المشاركين في « المؤتمر » ان يقصروا هدف « المؤتمر » على تحقيق الحكم الذاتي ضمن الامبراطورية البريطانية فحسب . وقد بسط وجهة نظر هذا الفريق كل من البانديت مالا فياجي ومستر

جنّاح . ولكنها لم يفوزا بكثير من الأصوات . ونصّ مشروع الدستور كذلك على ان الوسيلة لتحقيق الاستقلال يجب أن تكون سلمية ومشروعة . وهذا الشرط أيضاً لتي معارضة ، إذ ذهب فريق من الاعضاء إلى انه ينبغي ان لا يكون ثمة تحديد للوسيلة المصطنعة . ولكن المؤتمر تبني المشروع الأصلي بعد مناقشة مثقفة وصریحة . والذي أعتمده هو ان هذا الدستور لو نفذه الشعب في اخلاص وذكاء وحماسة اذن لكان قد أصبح أداة فعالة في تثقيف الجماهير ، واذن لعاد علينا مجرد تنفيذه بالاستقلال . ولكن المجال لا يتسع لمناقشة هذا الموضوع الآن .

وأقرت في هذا المؤتمر أيضاً مشروعات قرارات حول الوحدة الهندوسية الاسلامية ، والغاء اللامسامة ، وتعزيز حركة الـ «كادي» . ومنذ ذلك الحين أخذ أعضاء « المؤتمر » الهندوس على أنفسهم مسؤولية تحرير الهندوسية من لعنة اللامسامة ، وأنشأ « المؤتمر » صلة حية وثيقة مع « مهازيل » الهند من طريق الـ «كادي» . وكان تبني الاتعاون من أجل الخلافة هو في ذات نفسه محاولة عملية فضيحة قام بها « المؤتمر » لتحقيق الوحدة الهندوسية الاسلامية .

## وداع

لقد آن لي ، الآن ، أن اختتم هذه الفصول . إن حياتي أمت ، منذ هذه اللحظة ، معروفة إلى درجة يكاد الناس معها لا يجهلون شيئاً عنها . وإلى هذا فقد عملت ، منذ عام ١٩٢١ ، في اتصال بانغ مع زعماء « المؤتمر » بحيث يكاد يتعذر عليّ ان اصف أي حادث في حياتي ، منذئذ ، من غير أن أشير إلى صلاتي بهم .

صحيح ان شرادها نانجي ، ودشبانندو ، وحكيم صاحب ، ولالاجي ، لم يعودوا معنا اليوم ، ولكن جبهة من زعماء « المؤتمر » العربتين الآخرين لا تزال ، لحسن التالع ، على قيد الحياة ولا تزال تعمل في وسطنا . ان تاريخ « المؤتمر » ، منذ التغيرات الكبرى التي طرأت عليه ، والتي وصفتها آنفاً ، لا يزال في التكوين . ولقد تمت لي تجاربي الرئيسية كلها ، ماوال السنوات السبع

الماضية ، من خلال ه المؤتمر . واذن فالإشارة إلى صلاتي بالزعماء أمر لا مفر منه ، إذا ما استرسلت في وصف تجاربي أكثر مما فعلت . وهذا ما لا أرغب في القيام به ، في الوقت الحاضر على الأقل ، ولو بدافع من الياقة ليس غير . وأخيراً فإن استنتاجاتي من تجاربي الجارية لا يمكن اعتبارها حاسمة بعد . ومن أجل ذلك يبدو لي أن من واجبي الواضح أن أختم هذه القصة هنا . والواقع أن قلبي ليرفض ، رفضاً غرزيّاً ، أن يتقدم إلى أبعد مما فعل .

والحق أن وداعي الاضطرابي للقارئ لن يتم من غير ألم . إنني أعلق أهمية كبيرة على تجاربي ، ولست أدري هل وفقت إلى إيفاء هذه التجارب حقها من البسط أم لا . كل ما أستطيع قوله هو أنني لم أدّخر وسعاً لجعل هذه القصة أمينة مخلصة . فقد بذلت جهداً موصولاً لوصف الحقيقة ، كما تراءت لي ، وبالشكل الدقيق الذي عرفتها فيه . ولقد حمل إلي هذا الصنيع أمناً عقلياً لا سبيل إلى التعبير عنه لأنني كنت أأمل دائماً ، أملاً متفعلاً ، أن يوقع الأيمان بالحقيقة والاهيمسا ( الحب ) في نفوس المترددين .

لقد اقتصتني تجربتي المطردة انه ليس ثمة إلّة غير الحقيقة . وإذا كانت كل صفحة من صفحات هذه الفصول لا تعلن للقارئ ان الوسيلة الوحيدة لادراك الحقيقة هي الاهيمسا ( الحب ) فخليق بي عندئذ أن اعتبر ان جميع جهودي في كتابة هذه الفصول قد ذهبت أدراج الرياح . وحتى لو ان جهودي في هذا السبيل اثبتت أنها عقيمة ، فيحسن بالقارئ أن يعلم ان الوسيلة ، لا المبدأ العظيم ، هي الملوثة . وعلى أية حال فمهما كان سعيي من أجل التحقق بالأهيمسا ( الحب ) صادقاً فإنه لا يزال غير كامل وغير واف . واذن فالومضات الخاطفة التي استطعت ان استجلي بها وجه الحقيقة عاجزة ، أو تكاد ، عن إعطاء فكرة عن بريق الحقيقة الممتنع على الوصف ، والذي يفوق مليون مرة بريق الشمس التي نراها بأعيننا كل يوم . والواقع ان ما لمحتهُ ليس غير أضال البصيص من ذلك الاشراف العظيم . ولكن ما أستطيع قوله في ثقة ، نتيجة لخبراتي جميعها ، هو ان رؤية الحقيقة الكاملة لا يمكن ان تتم إلا بعد تحقيق الاهيمسا ( الحب ) تحقيقاً كاملاً .

ولكي يرى المرء «روح الحقيقة» الكلية الشاملة كل شيء ، وجهاً لوجه ، يتعين عليه ان يحب أحقر الكائنات حبه لنفسه. والرجل الذي يطمح إلى ذلك لا يستطيع ان يعترل أي حقل من حقول الحياة . وهذا هو السبب الذي من أجله قادني تعبدي للحقيقة إلى حقل السياسة . واستطيع ان أقول من غير أدنى تردد ، ولكن في انضاع كامل ، ان اولئك الذين يزعمون ان الدين لا علاقة له بالسياسة لا يعرفون معنى الدين :

إن الاتحاد مع أيما شيء حي مستحيل من غير تطهر ذاتي . ومن غير تطهر ذاتي يظل التزام قانون الاهيمسا حلماً فارغاً . ان الله لا يمكن ان يدركه امرؤ ليس طاهر القلب . واذن فالتطهر الذاتي يجب ان يعني التطهر في جميع مجالات الحياة . ولما كان التطهر مُعدياً إلى حد بعيد . فلا بد ان يقود تطهير المرء نفسه إلى تطهر ماحوله . ولكن سبيل التطهر الذاتي شاقة ووعرة . ولكي يبلغ المرء الطهارة الكاملة يتعين عليه ان يتحرر من الهوى تحراً مطلقاً في الفكر والقول والعمل ، وان يسمو فوق تيارات الحب والبغض ، والكلف والأشمتراز ، المتعارضة . أنا أدري ان نفسي ما زالت بعيدة عن الفوز بهذه الطهارة الثلاثية على الرغم من سعبي الموصول في سبيلها . وهذا هو السبب الذي من أجله لا يستخفني إطرء العالم لي ، انواق أنه كثير آما يلذعني لذعاً . إن التغلب على الاهواء الخفية ليسو أصعب في نظري من فتح العالم بقوة السلاح . ومنذ عودتي إلى الهند وأنا أواجه أهواء راقدة محجوبة في ذات نفسي . ولقد أشعرتني معرفتي هذه الاهواء بالذل والحقارة ، وإن لم تُشعرتني بالهزيمة . لقد آزررتني الخبرات والتجارب وأوقعت في نفسي جذلاً عظيماً . ولكني أعلم أنه لا يزال أمامي طريق وعرة يتعين علي ان اجتازها . يجب أن أختزل نفسي إلى الصفر . وما دام المرء لا يجعل نفسه ، طوعاً وعن طيب خاطر ، في المرتبة الأخيرة بين أبناء جلدته فلن ينعم بالخلاص . ان الاهيمسا هي أقصى حدود الانضاع .

وإني إذ أودع القارئ ، موقناً على أية حال ، أسأله أن يشاركني في الدعاء إلى رب الحقيقة أن يمنحني نعمة الاهيمسا في الفكر ، والقول ، والعمل .

انتهى



## فهرست

صفحة

مقدمة

٥	١ . قصة تجاربي مع الحفيظة - القسم الاول
١١	١ . مولدي ومحتدي
١٣	٢ . طفولتي
١٦	٣ . زواج الطفولة
١٩	٤ . تمثيل دور الزوج
٢٣	٥ . في المدرسة الثانوية
٢٦	٦ . مأساة
٣١	٧ . مأساة (تابع)
٣٥	٨ . سرقة وتكنبر
٣٩	٩ . وفاة والدي وعاري المزدوج
٤٢	١٠ . لمحات من الدين
٤٦	١١ . الاستعداد للسفر إلى انكلترا
٥٠	١٢ . منبوذ
٥٦	١٣ . في لندن آخر الأمر
٥٩	١٤ . نباتي باخثاري
٦٣	١٥ . كيف مثلت دور الجتلان الانكليزي
٦٧	١٦ . تغيرات
٧١	١٧ . تجارب في علم الأغذية
٧٥	١٨ . الخجل درعي
٧٩	١٩ . قرحة الكذب
٨٣	٢٠ . تعرفني إلى الأدبان
٨٧	

٩١	٢١ . هو عون العاجز وقوة الضعيف
٩٤	٢٢ . نارايما هيمشانندرا
٩٨	٢٣ . المرض الكبير
١٠٠	٢٤ . نجحتُ في امتحان الحقوق - ولكن ثم ماذا ؟
١٠٣	٢٥ . عجزى

## ٢ . قصة تجاربي مع الحفلة - القسم الثاني

١٠٩	١ . رايشاندبهاي
١١٢	٢ . كيف بدأت الحياة
١١٦	٣ . القضية الأولى
١٢٠	٤ . الصدمة الأولى
١٢٣	٥ . الاستعداد للسفر إلى جنوب إفريقيا
١٢٦	٦ . الوصول إلى ناتال
١٣٠	٧ . بعض الخبرات
١٣٤	٨ . في الطريق إلى بريتوريا
١٣٩	٩ . محن أخرى
١٤٤	١٠ . اليوم الأول في بريتوريا
١٤٩	١١ . إتصالات مسيحية
١٥٣	١٢ . محاولة الاتصال بالهنود
١٥٦	١٣ . ما معنى أن تكون « كولي »
١٥٩	١٤ . الاستعداد للدعوى
١٦٢	١٥ . اختيار ديني
١٦٧	١٦ . وتقديرون وتضحك الاقدار
١٧٠	١٧ . استقراري في ناتال
١٧٤	١٨ . القضاء الملون
١٧٨	١٩ . المؤتمر الهندي الثاني
١٨٢	٢٠ . بالاسوندارام

١٨٥	٢١ . ضريبة الجنيهاث الثلاثة
١٨٨	٢٢ . دراسة مقارنة للأدبان
١٩٢	٢٣ . في حتل تدبير المترل
١٩٥	٢٤ . إلى أرض الوطن
١٩٩	٢٥ . في الهند
٢٠٣	٢٦ . نوعان من الهيام
٢٠٦	٢٧ . اجتماع بومباي
٢١٠	٢٨ . بونا ومدراس
٢١٢	٢٩ . ءارجع في الحال ء

### ٣ . قصة تجاربي مع الحنيقة - القسم الثالث

٢١٩	١ . زمجرة العاصفة
٢٢٢	٢ . العاصفة
٢٢٤	٣ . الامتحان
٢٣٠	٤ . الهدوء بعد العاصفة
٢٣٤	٥ . تربية الأولاد
٢٣٧	٦ . روح الخدمة
٢٤٠	٧ . براهماشاريا - ١
٢٤٣	٨ . براهماشاريا - ٢
٢٤٨	٩ . حياة بسيطة
٢٥١	١٠ . حرب البوير
٢٥٣	١١ . الاصلاح الصحي وأعمال الانعاش أثناء المجاعة
٢٥٥	١٢ . العودة إلى الهند
٢٥٩	١٣ . في الهند كرة أخرى
٢٦٣	١٤ . منسق أوراق ومزور قمصان
٢٦٥	١٥ . في المؤتمر
٢٦٨	١٦ . ءاربارة اللورد كورزون

٢٧٠	١٧ . شهر مع غوكهايل - ١
٢٧٣	١٨ . شهر مع غوكهايل - ٢
٢٧٦	١٩ . شهر مع غوكهايل - ٣
٢٨٠	٢٠ . في بيناريس
٢٨٥	٢١ . استنرار في بومباي ؟
٢٨٨	٢٢ . الايمان رهن الامتحان
٢٩٢	٢٣ . إلى جنوب إفريقيا ككرة أخرى

#### ٢٩٥ ٤ : قصة تجاربي مع الحيلة - القسم الرابع

٢٩٧	١ . مقابلة مستر تشمبرلن
٣٠٠	٢ . مستبدون من آسية
٣٠٢	٣ . السكوت على الالهانة
٣٠٥	٤ . إذكاء روح التضحية
٣٠٧	٥ . نتيجة الاستيطان
٣١١	٦ . تضحية من أجل المذهب النباتي
٣١٣	٧ . تجارب في المعالجة بالتراب والماء
٣١٦	٨ . تحذير
٣١٩	٩ . مشادة مع السلطة
٣٢١	١٠ . ذكرى مقنعة وتكفير
٣٢٤	١١ . إتصالات أوروية حميمة
٣٢٧	١٢ . إتصالات أوروية ( تابع )
٣٣١	١٣ . « الرأي الهندي »
٣٣٤	١٤ . أحياء الكولي أو « الفيتو »
٣٣٧	١٥ . الطاعون الأسود - ١
٣٣٩	١٦ . الطاعون الأسود - ٢
٣٤٣	١٧ . إضرام النار في الحمي
٣٤٥	١٨ . رقية كتاب

٣٤٨	١٩ . مزرعة فونيكس التعاونية
٣٥٠	٢٠ . الليلة الأولى
٣٥٣	٢١ . بولاك يخوض الغمار
٣٥٦	٢٢ . انذين يسبح الله حمايته عليهم
٣٥٩	٢٣ . نظرة إلى المنزل
٣٦٣	٢٤ . ثورة الزولو
٣٦٥	٢٥ . كيف نفرت البراهمة انشازيا
٣٦٩	٢٦ . ولد الساتياغراها ( اللاعنف )
٣٧٠	٢٧ . تجارب جديدة في حقل الغذاء والحمية
٣٧٣	٢٨ . شجاعة كامستورباي
٣٧٧	٢٩ . لاعنف مترلي
٣٨٠	٣٠ . نحو الكبح الذاتي
٣٨٣	٣١ . الصيام
٣٨٦	٣٢ . في حقل التعليم
٣٨٩	٣٣ . التثقيف الأدبي
٣٩١	٣٤ . تهذيب الروح
٣٩٤	٣٥ . زوان بين الحنطة
٣٩٥	٣٦ . الصيام بوصفه تكفيراً
٣٩٨	٣٧ . لكي أجتمع بفوكهاا'
٤٠١	٣٨ . دوري في الحرب
٤٠٣	٣٩ . ورطة روحية
٤٠٦	٤٠ . لاعنف مصغر
٤١١	٤١ . محبة غوكهايل
٤١٣	٤٢ . معالجة ذات الجنب
٤١٦	٤٣ . نحو أرض الوطن
٤١٨	٤٤ . بعض ذكريات المحاماة

منتدى اقرأ الثقافي

-----

[www.iqra.ahlamontada.com](http://www.iqra.ahlamontada.com)